الزراعة في مصر زمن دولة المماليك الثانية

إعداد

عامر نجيب موسى ناصر

المشرف

الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الدكتوراه في التاريخ

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

أيار ١٩٩٨

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ ١٦/ ٥ / ١٩٩٨

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
أ . د : عبد العزيز الدوري (مشرفا)	
أ . د : مصطفى الحياري (عضوا)	
أ . د : فالح حسين (عضوا)	
أ . د : محمد عيسى صالحية (عضوا)	

د

شكر

وانني لأتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري ، للعناية التي أولاني في أثناء إعداد هذا البحث ، وللملاحظات الدقيقة التي لولاهما ما كان لهذا البحث أن يخرج بالشكل الذي وصل اليه .

المختصرات

١- يذكر في الهامش اسم المؤلف أو اسم شهرته ، والكلمة الاولى من اسم كتابه ثم الجزء والقسم إن وجدا :
مثال :

. المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، جزء٣ ، القسم٢ ، الصفحة ٧٨٩ . يختصر بـ :
المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٧٨٩ .

٢- ٥أ أو ٥ب : تدل على أنها صفحة من مخطوط

٣- ج		جزء
٤- ر . ج		رسالة ماجستير
٥ - ص		صفحة
٦ - ط		طبعة
٧- ع		عدد
٨ - ق		قسم
٩-	Asian and African Studies	AAS
١٠-	Bulletin of the School Of Oriental and African Studies	BSOAS
١١-	Edition	edit
١٢-	Encyclpedia of Islam 1edit	EI1
١٣-	Encyclopedia of Islam New Edition	EI2
١٤-	Journal of the American Oriental Society	JAOS
١٥-	Journal of the Economic and Social History of the Orient	JESHO
١٦-	The Journal of the American Research Center in Egypt	JARCE
١٧-	Israel Oriental Studies	IOS
١٨-	The Journal of the Royal Asiatic Society	JRAS
١٩-	Page	P
٢٠-	Volume	VOL

فهرس المحتويات

ملخص باللغة العربية

الزراعة في مصر زمن دولة المماليك الثانية

اعداد

عامر نجيب موسى ناصر

اشراف

الاستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري

تساعد الأوضاع الاقتصادية السائدة في كل فترة على فهم التطورات والتغيرات التي تصيب النظم السياسية والاجتماعية ، ويتناول هذا البحث دراسة "الحياة الزراعية في مصر زمن الدولة المملوكية الثانية" ، باعتبارها دعامة الاقتصاد المصري ، مع ملاحظة ندرة المصادر التي تبحث في التاريخ الاقتصادي ، وغياب المعلومات التي تبحث في الحياة الاجتماعية للفلاح ، بالرغم من أن مصر شهدت ازديادا ملحوظا في عدد المؤلفات في العهد المملوكي .

خضعت مصر منذ منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي لحكم فئة عسكرية (إقطاعية) غريبة عن المجتمع المصري ، تتكون من الأطفال الذين اشتراهم السلاطين من أسواق النخاسة ، وألحقوهم بالثكنات العسكرية لقلعة القاهرة ، لتعلم بعض العلوم الدينية في المراحل الأولى من حياتهم ، ثم الاتجاه نحو العلوم العسكرية وفنون القتال . وبذلك كونوا فئة اجتماعية مغلقة عن الشعب المصري والثقافة العربية لأن منهم من كان أميا أو لا يعرف اللغة العربية . واستمرت مدة حكمهم لبلاد الشام ومصر مئتين وخمسة وسبعين عاما ، تخللها في البداية ثورة عربية رافضة لحكم العبيد ، ومنادية بحق الأحرار في حكم البلاد .

شهدت مصر في القرن الأول من حكم السلطنة المملوكية نموا ملحوظا في عدد السكان ، تمثل بتوسع النشاط العمراني حول مدينة القاهرة ، وارتفاع عدد القرى في الوجهين القبلي والبحري . إلا أن تفكك النظام السياسي ، والإهمال الصحي ، وانتشار الأوبئة والطواعين ، واستئثار السلطة الحاكمة بالمقدرات الاقتصادية للشعب المصري ، وفقدان الرغبة لدى الفلاحين الصغار في ممارسة الزراعة ، قد أدت إلى تراجع هذا النمو .

وقد تناولت الدراسة جغرافية مصر الطبيعية والبشرية ، من خلال النظر إلى التقسيمات الإدارية للوجهين القبلي والبحري ، وعدد قراهما ، وما أصاب هذه القرى من تزايد وتناقص خلال الفترة الممتدة من منتصف القرن الرابع الهجري حتى نهاية السلطنة المملوكية . ثم دراسة عناصر المناخ ومصادر المياه بشكل خاص ، والتركيز على أن نهر النيل هو المصدر الوحيد الذي تتفاعل على جوانبه الحياة الاجتماعية ـ الاقتصادية للشعب المصري ، لأن نقص كمية المياه السنوية التي ينقلها هذا النهر تؤدي إلى اضطرابات اجتماعية واقتصادية نظرا لانخفاض مساحة الأراضي المزروعة في تلك السنة ، ونقص الحاصلات ، وازدياد إقبال السكان على تخزين المواد التموينية .

ويلاحظ من دراسة سكان مصر وتوزعهم تعريب معظم القرى والمناطق الريفية ، وانخراط أبناء القبائل العربية والبربرية بالزراعة وتربية المواشي ، وانحسار عدد الأقباط النصارى نتيجة لدخوله بالاسلام . وإصابة السكان بعدد من الكوارث الطبيعية كالأوبئة والطواعين والمجاعات والزلازل التي أدت إلى النقص التدريجي لعدد السكان ، ومعاناة مصر من نقص الأيدي العاملة في الزراعة ، وانخفاض الطلب على المواد الاستهلاكية .

ويتضح من توزع الأراضي في مصر السيطرة المركزية للدولة ومؤسساتها على القسم الأكبر من هذه الأراضي، حيث كان معظم أراضي مصر إقطاعات للسلطان والدواوين المركزية والأمراء والأجناد . وفي حين تمكنت الأوقاف من السيطرة على مساحات واسعة ، قدرت مع نهاية السلطنة المملوكية بنحو نصف الأراضي، مما كان له اكبر الأثر على مالية مصر ، نظرا لإعفاء الأراضي الموقوفة من الضرائب . وكانت الملكيات الخاصة بين صغار الفلاحين شبه معدومة ، مما جعل وضعهم الاجتماعي ينحدر إلى مرتبة القنانة من حيث الارتباط بالأرض ، وعدم السماح لهم بالهجرة أو ترك الأرض أو قراهم إلا بإذن من المقطع ، مع وجود فارق وحيد بينهم وبين القنانة بمفهومها الأساسي ، من حيث امتلاكهم لحريتهم من الناحية النظرية ، وليسوا عبيدا للبيع والشراء مع الأرض .

تراجعت السلطنة عن التزاماتها تجاه الحفاظ على استمرار الحياة الزراعية ، فأهملت صيانة مشاريع الري والجسور والخلجان والترع ، مما أدى إلى الفيضان العشوائي وغير المنتظم ، وازدياد نسبة الرواسب الطينية في مجاري الخلجان ، وتعرض الفلاحون لضغوط طبيعية وإنسانية ، كالبرد والصقيع والأمطار الموسمية والزلازل والعربان والموظفين والأمراء المماليك ، وألحقت هذه الضغوط خسائر فادحة بالفلاح المصري ، دون أن يجد من يعوضه عن ذلك ، بل تم اتخاذ أقسى العقوبات والإجراءات الصارمة بحقه ، لأن الضرائب الزراعية أصبحت تشكل المصدر الأساسي لمالية السلطنة بعد تدهور الصناعة والتجارة الداخلية والخارجية في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي .

وتتميز مصر بضخامة إنتاجها وقدرتها على تحقيق الاكتفاء الذاتي من الثروة الزراعية والنباتية والحيوانية ، وتموين بلاد الحجاز بحاجتها السنوية من الغلال ، مع ملاحظة تفوق القدرة الإنتاجية لأراضي بلاد الصعيد على بلاد الوجه البحري ، إلا أن تركز السيطرة الفعلية على هذا الإنتاج بأيدي الطبقة الحاكمة ، التي لم تتوان عن رفع أجور الأراضي والسيطرة على الأسواق ، واحتكار معظم الإنتاج وترك كمية قليلة للفلاح ، لم تضمن له سوى استمرار البقاء مع وسوء التغذية ، وقد جعله ذلك عرضة للأمراض والأوبئة والمجاعات والطواعين .

واقتصر الفلاح في حياته على ما هو ضروري من المأكل والملبس والمشرب ، وفي الوقت نفسه عانى من الجمود الفكري والجهل ، والإيمان بالخرافات والأساطير حتى أصبحت كمسلمات في حياته ، وتعرض للنهب والسلب من السلطنة التي لم تكن مصلحة الفلاح ذات أهمية بالنسبة لها ، وكذلك من العربان الذين اتخذوا من غزو القرى ونهب المحاصيل الزراعية وسيلة للعيش .

تحليل المصادر

يتطلب البحث في الحياة الزراعية العودة إلى مختلف المصادر ،كالتواريخ العامة والتواريخ المحلية ، وكتب التراجم وسير الخلفاء والسلاطين ، وكتب الإدارة ، وكتب الجغرافيا والرحلات ، وكتب الفقه ، وكتب الفلاحة ، وكتب الأنساب ، إضافة إلى المصادر التي تهتم بتحليل الأوضاع الاقتصادية .

وقد شهدت مصر تطورا ملحوظا في الكتابة التاريخية في القرن ٩هـ /١٥م ، تمثل بظهور عدد كبير من المؤرخين الذين عكفوا على تسجيل الأحداث والتطورات التي مر بها المجتمع المصري والإسلامي بشكل عام . كما ساهموا في تطوير النظرة إلى علم التاريخ باعتباره فرض كفاية (١) ، لأهميته في فهم تجارب الأمم الماضية ، والاعتبار بها للتغلب على المشكلات الحاضرة والمستقبلية (٢) . وتزداد القيمة الفعلية لهذه المؤلفات من معاصرة المؤلف للأحداث أو قربه من المعاصرة ، ومدى الثقة برواته ومصادره (٣) ، وعند فقدان بعض المصادر التي اعتمد عليها (٤) .

وتمثلت العناية بمفهوم التاريخ بظهور عدد من المؤلفات التي تبحث في علم التاريخ وأهميته ، ويأتي في مقدمة هذه المؤلفات مقدمة ابن خلدون (٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) الذي دعا إلى النظر في علم العمران وإلى التحليل والنقد والربط ، وعدم الاكتفاء بالنقل . وهنالك أيضا كتاب"***المختصر في علم التاريخ" للكافيجي*** * (٨٧٩هـ / ١٤٧٤م)، وكتاب "***الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ***" للسخاوي (٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م) ، التي تركز على الشروط الواجب توافرها في المؤرخ ، من التحري والعدالة ، وعلى ضرورة دراسة الرواة للتأكد من صحة أخبارهم ، وعلى المعارف الواجب على المؤرخ الإحاطة بها ، وخصائص علم التاريخ ، وإيراد قوائم بمختلف المؤلفات التاريخية في العالم الإسلامي . ويعزى سبب هذا التطور إلى ظهور عدد من العلماء الذين تميزوا بسعة الأفق والدقة والعمق ،كالمقريزي والعيني وابن حجر والسخاوي ، وإلى كثرة الأوقاف على المؤسسات التعليمية المختلفة ، كالمدارس والمساجد والخانقاوات ، مما وفر للطلبة والعلماء الوسائل المادية للعيش ، والوقت الكافي للتفرغ للبحث العلمي (٥) .

١- فؤاد سيد ، شروط المؤرخ ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، مجلد ٢ ، ج٢ ، ١٩٥٦، ص ١٧٣ .

٢- طاش كبري زاده ، كتاب مفتاح السعادة ، ج١ ، ص ٢٣١ .

٣- فؤاد سيد ، شروط المؤرخ ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، مجلد ٢ ، ج٢ ، ١٩٥٦ ، ص ١٦٨-١٧٣ .

٤- روزنثال ، علم التاريخ ، ص ١٤ .

* الكافيجي (٧٨٨هـ - ٧٨٩هـ/ ١٣٨٦- ١٤٧٤م) : محمد بن سليمان بن مسعود الرومي ، كان إماما عالما فاضلا ، بارعا في العلوم العقلية ، ماهرا في الفقه والحديث ، وزادت تصانيفه على المئة ، إلا أن معظمها صغير (السخاوي ، الضوء ، ج٧ ، ص ٢٥٩-٢٦١/ السيوطي ، حسن ، ج١ ص ٢٦٤ / ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٩٨) .

٥- روزنثال ، علم التاريخ ، ص٥٨-٥٩ .

ألف الحسن بن أبي محمد الصفدي (توفي بين ٧١٧- ٧٤٢هـ /١٣١٧-١٣٤١م) كتابا ***يذكر تاريخ مصر وفضلها*** ، ولا يعرف عن المؤلف سوى توليه تحضير بلاد الخاص السلطاني في ناحية فاقوس للموسم الزراعي ٦٩٤- ٦٩٥هـ / ١٢٩٤-١٢٩٥م (١) . وقد ذكر في القسم الأول من كتابه فضائل مصر وما بها من النباتات والحيوانات والثروة المعدنية ، ثم استعرض بإيجاز تاريخ مصر منذ أقدم العصور وحتى سنة ٧١٦هـ / ١٣١٦م ، مرتبا على أساس الدول والأسر الحاكمة . إلا أنه انفرد بذكر كمية الغلال اليومية والشهرية والسنوية التي تستهلكها القاهرة والفسطاط وضواحيهما زمن الناصر محمد بن قلاوون ٧٠٩-٧٤١هـ / ١٣٠٩- ١٣٤٠م (٢) ، مما يساعد على حساب عدد السكان التقريبي لمدينة القاهرة في النصف الأول من القرن ٨هـ / ١٤ م .

عاصر ابن الفرات (٧٣٥-١شوال ٨٠٧هـ / ١٣٣٤-١٤٠٤م) نهاية السلطنة المملوكية الأولى(البحرية) ونشأة السلطنة المملوكية الثانية (الجركسية) ، وتفقه على المذهب الحنفي ، وعمل في حوانيت الشهود وعقد الأنكحة ، والخطبة بالمدرسة المعزية خارج مصر . واهتم اهتماما بالغا بالتاريخ ، فكتب تاريخا كبيرا بعنوان "***تاريخ الدول والملوك***" ، ابتدأ فيه من هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م ، وبلغ نحو مئة سفر ، لكنه لم يبيض منه إلا القرون الثلاثة الأخيرة التي بلغت عشرين مجلدا ، حيث توفي أثناء تبييضه للقرنين الثالث والرابع (٣) .

ولكتابه أهمية كبيرة من حيث المعلومات ، ولذلك فقد كان مصدرا مهما لمن جاء بعده من المؤرخين كالمقريزي وابن حجر والعيني وابن تغري بردي ، على الرغم من عامية لغته (٤) ، واللحن الفاحش لضعفه بالنحو والأدب (٥) ، والعبارة البسيطة والمهلهلة الركيكة ، غير المتناسقة ، لعدم اهتمام المؤلف بالأسلوب(٦). ويقوم منهجه على الإطالة والاستطراد والتكرار وتكديس الروايات والحقائق التاريخية جنبا إلى جنب ، لإثبات صحة بعض المعلومات أو نقضها (٧) .

١- الحسن بن أبي محمد الصفدي ، كتاب يذكر تاريخ مصر وفضلها ، ص ٥٧ ب .

٢-نفس المصدر ، ص ٨ أ -ب .

٣- المقريزي ، كتاب المقفى ، ج٦ ، ص ٦٤ / ابن حجر ، إنباء ، ج٥ ، ص ٢٦٨ / السخاوي ، الضوء ، ج٨ ، ص٥٠ / السيوطي، حسن ، ج١ ، ص ٢٦٦ / ابن العماد ، شذرات ، ج٩ ، ص ١٠٨ / مجهول ، مجموع الفنون ، ص ٥٩ / -Cahen , Ibn Al-furat , EI2 , III , P 768 .

٤- المقريزي ، كتاب المقفى ، ج٦ ، ص ٦٤ / السخاوي ، وجيز ، ج١ ، ٣٧٨-٣٧٩ ، الضوء ، ج٨ ،ص٥٠/ -Cahen , Ibn - Al-furat , EI2 , III , P 768 .

٥- السخاوي ، الضوء ، ج٨ ، ص ٥٠ .

٦- محمد حسين شمس الدين ، مقدمة تاريخ ابن الفرات ، مجلد٩ ، ج١ ، ص ع .

٧- نفس المصدر ، ص س-ع / Ashtor , Some Unpublished , P 17 .

ويلجأ ابن الفرات عند ترجيح بعض الروايات أو نقدها إلى استعمال عبارة "والأظهر" (١) ، أو " وهذا ما لم نعهده من قبل ولا أدركناه ولا سمعناه من مشايخنا " (٢) . أما اذا لم يتمكن من الترجيح أو التحقق من صحة الرواية فيشير إلى ذلك بقوله " فيما أظن " (٣) ،" والله أعلم أي كان ذلك " (٤) ، و"قيل غير هذا " (٥) . وبشكل عام فقد تميز كتابه بالشمول ، اذ استعرض تاريخ العالم الإسلامي ، مع ربط الأحداث الأكثر أهمية مع الأجزاء الأخرى من العالم الإسلامي ، وذكر بعض المعلومات عن الغرب المسيحي (٦) ، ورتب كتابه على النظام الحولي بتتبع الأحداث بالسنة والشهر واليوم ، واثبات تراجم لأهم الأعيان بعد الانتهاء من أحداث كل سنة .

ويلتزم ابن الفرات بذكر مصادره ، فقد بلغ عددها وفقا لآشتور لثمانية وعشرين مصدرا (٧) ، واعتاد الإشارة اليها بقوله : ورأيت بخط فلان (٨) ، أوبذكر اسم الكتاب . ومن أشهر من أخذ عنهم المؤرخ ابن دقماق ، حيث أخذ عنه ثلاثا وثلاثين رواية في الفترة الممتدة بين ٧٩٠- ٧٩٩هـ / ١٣٨٨-١٣٩٩م (٩) ، اضافة إلى استخدامه بعض المصادر المفقودة حاليا ، مثل كتاب أحد علماء الشيعة عن مدينة حلب (١٠) . ونقل من الكتب نقلا حرفيا مع الإشارة إلى بداية الاقتباس ونهايته (١١) ، وأخذ بعض الروايات الشفوية من مشايخ عاصرهم (١٢)، واستخدم عددا كبيرا من الوثائق التي نقلها جزئيا أو كليا (١٣).ويبدو أن معرفته ببعض القضاة، وكتاب الدواوين ، والعمل بعقد الأنكحة ، ساعده على الوصول إلى هذه الوثائق (١٤) . ولجأ إلى أخذ المعلومات من المصادر مباشرة، أو من أشخاص شاهدوا أو شاركوا في الأحداث (١٥) ، إضافة إلى الأحداث

١- ابن الفرات ، تاريخ ، م٩ ، ج١ ، ص ١٦١ .

٢- نفس المصدر ، ص ١٧ .

٣- نفس المصدر ، ٤٦ .

٤- نفس المصدر ، ٥٢ ، ٦٤ ، ٦٥ .

٥- نفس المصدر ، ص ١٠٣ .

٦- Ashtor , Some Unpublished , P 14 .

٧- Ibid , P 22-23 .

٨- ابن الفرات ، تاريخ ، م ٩ ، ج١ ، ص ١٣٨، ١٨٢ ، ٤٥٠ ، م٩ ، ج٢ ، ص ٣٤١ ، ٤٧٣ .

٩- نفس المصدر ، م٩ ، ج١ ، ص ١٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١١٦ ، ١٢٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٧ ، ١٦٥ ، ١٦٧، ١٧٨ ، ١٨٣، ١٨٦ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ،١٩٥ ، ٢١١ ، ٢١٨ ، ٢٣٥ ، ٣١٣ ، م٩ ، ج٢ ، ص ٢٥٥ ، ٢٦١ ، ٢٧٥، ٢٨٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٦٥ ، ٣٦٩ ، ٣٨٦ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤٥٧ .

١٠- Cahen , Ibn Al- Furat , EI2 , III , P 769 .

١١ - Cahen , Ibn Al - Furat , EI2 , III , P 768 / Ashtor , Some Unpublished , P 15 .

١٢- ابن الفرات ، تاريخ ، م٩ ، ج١ ، ص ٧٣ ، ٧٤ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٤٢ ، ٣٤٨ ، ٤١٣ ، م٩ ، ج٢ ، ص ٢٧٥ ، ٤٦٠ .

١٣- نفس المصدر ، م٩ ، ج١ ، ص ١٨ ، ١٩ ، ٢٨ ، ١٨٢ ، ١٩٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨ ، م٩ ، ج٢ ، ص٢٦٤ ، ٣٣٦ ، ٤٦٣ .

١٤- نفس المصدر ، م٩ ، ج١ ، ص ٤٠ ، م٩ ، ج٢ ، ص ٢٨٦ .

١٥- نفس المصدر ، م٩ ، ج١ ، ص ٧ ، ٨ ، ٣٤ ، ٤٧ ، ١٤٤ .

التي شارك فيها أو رآها أو عاصرها (١) . وأشار أحيانا إشارات عامة إلى مصادره ، مثل "رأيت بخط بعض الإخوان من علماء التاريخ ، ممن له إطلاع على أحوال أرباب الدولة " (٢) ، و"أخبروا " عندما يأخذ الخبر عن عدد من المؤرخين (٣) ، وفي الوقت نفسه يذكر أنه سمع بعض الأخبار من آخرين بقوله " وبلغني ممن أثق به " (٤) ، و "أخبرني مخبر " (٥) ، و"أخبرني شخص قدم من الإسكندرية أنه رأى " (٦) ، و" ذكر بعضهم"(٧) ، وذكر من سمعه يقرأها "(٨) " والذي سمعته من بعض الإخوان " (٩) . وانفرد بذكر بعض المعلومات الاقتصادية والاجتماعية عن الفترة الاولى من تاريخ السلطنة المملوكية .

يعد تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (٧٦٦-١٦ رمضان ٨٤٥هـ / ١٣٦٤-١٤٤١م) أعظم مؤرخي العصر المملوكي على الإطلاق نظرا لضخامة إنتاجه وغزارة معلوماته ودقتها . وتعود نسبة المقريزي إلى حارة المقارزة ببعلبك ، حيث كان يقطنها أجداده قبل هجرة والده إلى القاهرة (١٠) ، لكن القاضي عبد الباسط (٩٢٠هـ / ١٥١٤م) يرجع نسبة المقريزي إلى إحدى اللهجات البربرية ، نظرا لأن جده الأعلى كان بربريا (١١) ، بينما ادعى بعض المؤرخين أنه يرجع نسبه إلى الفاطميين ، مع أنه يرفض ذلك ولا يصل عند ذكر نسبه لأكثر من أحمد بن علي ... بن عبد الصمد بن تميم (١٢) .

ولد المقريزي في حارة برجوان بالقاهرة وابتدأ حياته العلمية والثقافية فيها ، فحفظ في البداية كتابا على مذهب أبي حنيفة تبعا لجده لأمه العلامة الأديب شمس الدين بن الصائغ الحنفي ، في حين كان والده حنبليا، وعمل في البداية قاضيا ثم موقعا في ديوان الإنشاء إلى أن توفي في عام ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م ، فتحول المقريزي بعد ذلك للمذهب الشافعي ، وتعصب على أصحاب المذهب الحنفي، وأكب على دراسة الحديث واللغة والفقه ، والتاريخ الذي استنفد

١- ابن الفرات ، تاريخ ، م٩ ، ج١ ، ص ٤٩ ، ٥٨ ، ٢٣٦.

٢- نفس المصدر ، م٩ ، ج١ ، ص ٥٢ ، ٥٣ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٤٨ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٠ .

٣- نفس المصدر ، ص ٨ .

٤- نفس المصدر ، ص ٥٨ .

٥- نفس المصدر ، ص ٥٩ .

٦- نفس المصدر ، ص ٣٣ .

٧- نفس المصدر ، ص ٢٥ .

٨- نفس المصدر ، ص ٧١ .

٩- نفس المصدر ، ١٩٥ .

١٠- ابن حجر ، إنباء ، ج٩ ، ص١٧٠-١٧١ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٥ ، ص ٢٢٥ ، المنهل ، ج١ ، ص ٤١٥ ، حوادث ، ج١ ، ص ٦٤ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ١٢٠ أ- ب/ القاضي عبد الباسط ، الروض الباسم ، ص٥١ب / الشوكاني ، البدر الطالع ، ج١ ، ص ٧٩ / Khuwaiter , Baibars , P 186 .

١١- القاضي عبد الباسط ، الروض الباسم ، ص ٥٢ب .

١٢- الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص١٢٠ ب .

فيه معظم جهوده (١) .

شغل المقريزي منصب الحسبة أكثر من مرة ، كان أولها في ١٧ ذي القعدة سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م قبيل وفاة السلطان برقوق ، ثم عمل بعدها خطيبا بجامع عمرو بن العاص ، ومدرسا بمدرسة السلطان حسن ، وناظرا وإماما لجامع الحاكم ، ثم مدرسا للحديث بالمدرسة المؤيدية . وسافر في سنة ٨١١هـ / ١٤٠٨م إلى دمشق واستقر بها عشر سنوات ، عمل في أثنائها ناظرا لأحباس المدرسة القلانسية وأحباس البيمارستان النوري ، ومدرسا بمدرستي الإقبالية والأشرفية بعد أن رفض تسلم منصب القضاء ، ثم حج في سنة ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م ، وجاور بمكة خمس سنوات (٢) .

لم يشغل البحث عن الوظائف الحكومية بال المقريزي ، بل كرس معظم حياته وجهوده لكتابة التاريخ ، فذكر ابن تغري بردي له ثلاثة وعشرين كتابا (٣) ، بينما يشير السخاوي إلى أن تآليفه بلغت المئة مصنف (٤) ، شكلت بمعلوماتها ومنهجها وأسلوبها مصدرا أساسيا لمن جاء بعده من المؤرخين . وقد اعترف الذين عاصروه أو جاءوا بعده بقيمة مؤلفاته ، وأثنوا عليها بعبارات تدل على مدى تقديرهم لها ، ولكن بعضهم لم يتوان عن توجيه أقسى عبارات الذم له والحط منه .

ويشيد ابن حجر بجهود المقريزي وحفظه لكثير من التاريخ حتى أصبح فيه " إماما بارعا متقنا ضابطا "(٥) ، بينما يشيد تلميذه ابن تغري بردي بشهرته بالكتابة التاريخية في حياته وبعد مماته ، وبالمحاضرة الجيدة ، وبخاصة في أثر السلف والعلماء والملوك ، فهو بنظره " أعجوبة في أيام السلف من القرون الماضية " (٦) ، وله كثير من المصنفات المفيدة والنافعة (٧) ، و" أحد أرباب الكمالات في فنه ، ومؤرخ زمانه ، لا يدانيه في ذلك أحد مع معرفتي بمن عاصره من مؤرخي العلماء" (٨) "وبالجملة فهو أعظم من رأيناه وأدركناه في علم التاريخ وضروبه ، مع معرفتي بمن

١- ابن حجر ، إنباء ، ج٩ ، ص ١٧١ / ابن تغري بردي ، المنهل ، ج١ ، ص٤١٥ ، النجوم ، ج١٥ ، ص ٢٢٥-٢٢٦ ، حوادث ، ج١ ، ص ٦٤ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ١٢٠ أ / السخاوي ، الضوء ، ج٢ ، ص ٢١-٢٢ ، التبر ، ص ٢١-٢٢ / الشوكاني ، البدر الطالع ، ج١ ، ص ٧٩ / Khuwaiter , Baibars , P 186 .

٢- المقريزي ، درر العقود ، ج١ ، ص ٢٤٩-٢٥٠ / السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ٩٦٩ ، ٩٩٩ ، ١١٠٣ ، ١١٥٥ / العيني ، عقد ، حوادث ٨٢٤-٨٥٠هـ ، الطنطاوي، ص٥٧٤/ ابن تغري بردي ، المنهل ، ج١ ، ص ٤١٦-٤١٧ ، النجوم ، ج١٤ ، ص ١٨٧ ، حوادث ، ج١ ،ص٦٧ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص١٢٨ / الشوكاني ، البدر الطالع ، ج١ ، ص٧٩-٨٠ / محمد مصطفى ، المؤرخون، ص٨-٩ / Khuwaiter , Baibars , P 187 / Brockleman , Al- Makrizi , EI1 , III , P 175 \ Donald P. Little , An Introduction , P 76 / Sadiqi , Fatima , Baybars , P 187 .

٣- ابن تغري بردي ، المنهل ، ج١ ، ص ٤١٩ .

٤- السخاوي ، الضوء ، ج٢ ، ص ٢٣ .

٥- ابن حجر ، إنباء ، ج٩ ، ص ١٧٢ .

٦- ابن تغري بردي ، المنهل ، ج١ ، ص ٤١٧ .

٧- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج١ ، ص ٦٧ .

٨- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٤ ، ص ٢٧٠ .

عاصره من علماء المؤرخين ، والفرق بينهم واضح ، وليس في التعصب فائدة " (١) . ويصفه الصيرفي (٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م) بالتفوق على أقرانه (٢) ، وينعته السخاوي بحسن المذاكرة في التاريخ (٣) ، والقاضي عبد الباسط "بالشيخ المتقن المفنن ، علامة عصره ووحيد دهره في الحديث والتاريخ " و " عمدة المؤرخين ورأس المحدثين"(٤) ، ويعده ابن إياس " مؤرخ العصر ووحيد الدهر ، عالما فاضلا ، بارعا في الفقه والحديث ... حسن المذاكرة في التاريخ ، كثير النوادر صحيح النقل " (٥) ، ويراه ابن العماد " علما من الأعلام ، ضابطا مؤرخا محدثا مفننا "(٦) ، ويصفه الشوكاني بالتبحر في علم التاريخ على اختلاف أنواعه (٧) . ويثني عليه محمد مصطفى بسعة الإطلاع وكثرة القراءة والدأب والمثابرة (٨) .

وتعرض المقريزي إلى انتقادات شديدة من بعض المؤرخين ، فأشار العيني إلى معرفته بالضرب بالرمل (٩) في محاولة للتشكيك بدقة معلوماته ، وأنها تقوم على التخمين لا اليقين ، بينما اتهمه تلميذه ابن تغري بردي بعدم معرفة تواريخ الأتراك وأسمائهم وألقابهم ووقائعهم ، وأنه كان يعتمد عليه في ذلك ويعود إلى أقواله ، كما أدى بعده عن أرباب الدولة إلى نقل الأخبار عن الآحاد والخباط والأوهام والانحراف ، والجهل بقواعد السلاطين والملوك ، واستعمال الألفاظ التي لا تليق بمؤرخ (١٠) ، والتعصب (١١) . ولم ير السخاوي فضيلة له فاتهمه بالاهتمام بضبط مساوىء أهل الدولة كرد فعل على إبعاده من المناصب (١٢) ، وانتحال بعض الأعمال ، وبقلة المعرفة بالمتقدمين ، "فوقع له كثير من السقط والتحريف ، وربما صحف في المتون ، وترجمة المتأخرين بما ليس بهم ، وأما الوقائع الإسلامية ومعرفة الرجال وأسمائهم والجرح والتعديل والمراتب والسير ، وغيرذلك من أسرار التاريخ ومحاسنه فغير ماهر فيه "، هذا إلى معرفة قليلة بالفقه والحديث والنحو وأقوال السلف ، فلا يجله الأكابر إلا خوفا من قلمه (١٣) .

١- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٥ ، ص ٢٢٦ .

٢- الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ١٢١ب .

٣- السخاوي ، الضوء ، ج٢ ، ص ٢٣ .

٤- القاضي عبد الباسط ، الروض الباسم ، ص ٥١أ .

٥- ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص ٢٣١-٢٣٢ .

٦- ابن العماد ، شذرات ، ج٩ ، ص٣٧٠ .

٧- الشوكاني ، البدر الطالع ، ج١ ، ص ٨١ .

٨- محمد مصطفى ، المؤرخون ، ص ١٦ .

٩- العيني ، عقد ، حوادث ٨٢٤-٨٥٠هـ ، الطنطاوي ، ص ٥٧٤ .

١٠- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٤ ، ص ٣٨، ٢٧٠ .

١١- نفس المصدر ، ص ١٠١ .

١٢- السخاوي ، الضوء ، ج٢ ، ص ٢٤ .

١٣- السخاوي ، التبر ، ص ، ٢٣ ، الضوء ، ج٢ ، ص ٢٣-٢٤ .

تطرق المقريزي في أعماله المختلفة إلى جغرافيـة مصر وإلى الأوضـاع الاجتماعيـة والاقتصادية والسياسـة والفكرية والفنية والأخلاقية والإدارية للمجتمع المصـري بشـكل خاص ، وللعالم الإسـلامي بشـكل عـام (١) . ومن مؤلفاته المشهورة تاريخه المحلي "*كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار*" ، الذي امتدت فترة تأليفه بـين سـنتي ٨٢٠-٨٤٣هـ / ١٤١٧-١٤٣٩م (٢) ، وحدد هدفه بـ" جمع ما تفرق من أخبار أرض مصر ، وأحـوال سـكانها " ، وتلخيص " أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقية عن الأمم الماضية والقرون الخالية ، وما بقي بفسطاط مصر من المعاهد، غير ما كان يفنيه البلى والقدم ، ... وذكر ما بمدينة القاهرة من آثار القصور الزاهرة ، وما اشـتملت عليه من الخطـط والأصقاع ، وحوته من المباني البديعة والأوضاع " (٣) . وقسمه إلى سبعة أقسام تنـاول فيهـا جغرافيـة مصـر ، معتبرا النيل في طليعتها ، ومصدر المياه الذي تتفاعل على جوانبه الحياة الاجتماعية - الاقتصادية للشعب المصري ، ثـم ماليـة مصر وسكانها ، وأخبار مدينة الفسـطاط والقـاهرة ، وخصـص القسـم السـابع لأسـباب خـراب مصـر ، إلا أنه غـير موجود(٤) ، إذ يبدو أن المقريزي لم يتمكن من كتابته أو أنه فقد .

وتأثـر منهـج المقريـزي وأسلوبه باستـاذه ابـن خلدون ، وذلك من خلال النقد والمناقشة العلميـة على أسـس منطقية وتجريبية (٥) ، والربط بين الإنسـان والبيئـة (٦) ، والبساطـة والوضـوح وتحاشـي الإسـهاب والعاطفيـة في الكتابة (٧) . ولم يكتـف بالجمـع بـل انتقـد ورجـح بعـض الروايـات مـع إضافـة رأيـه أحيانـا كقولـه و"هـذا وهم"(٨)، "وهذا غلط منه" (٩) ، "وهذا خلاف ما نقله المسعودي" (١٠) ، "وقال مؤلفه - يقصد نفسـه - وجامعـه" (١١) ، " قال المؤلف فهذا كما ترى صحيح" (١٢) "والعلة القصوى في جميع ذلك " (١٣) .

وتتكون مصادر المقريـزي من الكتب التاريخيـة كالتواريـخ الإسلاميـة والروميـة بقولـه" قالت الروم "(١٤)،

١- كراتشوفسـكي ، تـاريخ الأدب ، ج٢ ص ٤٧٧، ٤٨٦-٤٨٧ / محمـد عنـان ، مصـر ومؤرخـو الخطـط ، ص ٤٥-٥٦ / . Brockelman , Al - Makrizi , EI : , III , P 175-176

٢-المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص٣٣٩ / محمد ومصطفى ، المؤرخون ، ص ١٠ .

٣- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٣ .

٤- نفس المصدر ، ص ٣-٤ .

٥- . Kamil , Abdul -Aziz, Al - Makrizi , P 8

٦- . Ibid , P 7

٧- كراتشوفسكي ، تاريخ الأدب ، ج٢ ، ص ٤٨٣ .

٨- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٩٩ ، ج٢ ، ص ٢٨٢ ، ٢٦٥ .

٩- نفس المصدر ، ج١ ، ص ٢٠٨ .

١٠- نفس المصدر ، ج١ ، ص ١٤٤ .

١١- نفس المصدر ، ص ٤٢ ، ٤٩ ، ٣٤٤ .

١٢- نفس المصدر ، ص ٢٨٨ .

١٣- نفس المصدر ، ص ٤٤ .

١٤- نفس المصدر ، ص ٥٩ .

والقبطية بقوله " وجدت في كتاب قبطي مما نقل إلى العربية " (١) ، و " ذكر القبط في كتبهم " (٢) ، و" ذكر كهنة القبط " (٣) ، و "ذكر بعض القبط " (٤) و " تقول القبط " (٥) ، والكتب السماوية كالتوراة والقرآن ، وقد بلغت في مجموعها ثمانين كتابا ، كما أخذ عن الشيوخ الذين عاصرهم أو درس عليهم (٦) ، وبلغ عددهم ستمئة شيخ(٧) ، واعتمد أيضا على ما شاهده ورآه أو أدركه من الأحداث (٨) ، وعلى الوثائق كسجلات الروك الناصري في سنة ٧١٥هـ / ١٣١٥م ، لمناقشة النظام الإقطاعي وتنظيم الجيش في العصر المملوكي (٩) .

ويشير المقريزي إلى مصادره بأساليب مختلفة ، فيذكر اسم المؤلف ، أو اسم الكتاب أو اسم المؤلف والكتاب معا ، وأشار أحيانا إشارات عامة إلى مصادره كقوله " وحكى المعتنون بأخبارها وتاريخها "- مصر -(١٠) "وذهب بعضهم" (١١) ، والذي ذكره العلماء (١٢) ، و"ذكر بعض مؤرخي مصر "(١٣) و" أهل التاريخ يذكرون" (١٤) و"التحقيق عند علماء الأخبار" (١٥) و" قال قوم" (١٦) و"سمعت غير واحد" (١٧) . ويذكر أنه سمع من آخرين بقوله "يقال" (١٨)، "ويذكر أن " "وقد أخبرني من طاف البلاد " (١٩) ، و" أخبرني من لا أتهم روايته ، " وقد روي " (٢٠) ، و"ذكر" (٢١) و " أخبرني قديما من لا أتهمه " (٢٢) " وأخبرني بذلك من رآه

١- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٧٥ .

٢- نفس المصدر ، ص ١١٣ .

٣- نفس المصدر ، ص ٣٢ .

٤- نفس المصدر ، ص ٣٣ .

٥- نفس المصدر ، ص ٣٦ ، ٥١ .

٦- نفس المصدر ، ص ٤ ، ٣٧٧ .

٧- السخاوي ، الضوء ، ج٢ ، ص ٢٣ / الشوكاني ، البدر الطالع ، ج١ ، ص ٨١ .

٨- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٤، ٥٢، ٦٠ ، ١٧٢ ، ٢٦٥ ، ٣٧٧ ، ج٢ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٤٥ .

٩- نفس المصدر ، ج١ ، ص ٩٥ .

١٠- نفس المصدر ، ص ١٥ .

١١- نفس المصدر ، ص ٥٤ ، ١٥٧ .

١٢- نفس المصدر ، ص ١٢٤ .

١٣- نفس المصدر ، ص ١١٩ .

١٤ – نفس المصدر ، ص ١٤٥ .

١٥- نفس المصدر ، ص ١٥٣ .

١٦- نفس المصدر ، ص ١٢ ، ٣٢ .

١٧- نفس المصدر ، ص ٣٨١ .

١٨- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٦ ، ٥٠ ، ٥٧ ، ٩١ .

١٩- نفس المصدر ، ص ٣٨١ .

٢٠- نفس المصدر ، ص ٣٠٥ .

٢١- نفس المصدر ، ص ١٩٩ .

٢٢- نفس المصدر ، ص ٣٨ .

وشاهده"(١) ، " وحدثني الثقة عمن دخل مدينة صا " (٢) ، " وقد سمعت ممن يرجع إليه " (٣) .

يشكك السخاوي هنا بالمقريزي مدعيا أن كتاب الخطط ليس من تأليفه ، وإنما هو كتاب للأوحدي * ظفر بمسودته وأضاف إليه زوائد غير طائلة (٤) ، واعتمد في هذه التهمة على اعترافات المقريزي بالظفر بمسودة الأوحدي وتبييضها (٥) ، وكثرة الاستفادة منها وتضمينها في كتابه (٦) دون الإشارة إلى ذلك ، وعدم ذكره كأحد مؤرخي الخطط في مصر .إلا أن دراسة الخطط تشير إلى أن المقريزي اعتمد على ثمانين مصدرا ، وأن الأوحدي توفي سنة ٨١١هـ / ١٤٠٨م ، بينما يحتوي كتاب الخطط على معلومات واسعة عن الفترة التي تلت ذلك وحتى وفاة المقريزي ، هذا إلى أن المقريزي استغرق في تأليف الخطط ثلاثة وعشرين عاما ، وتبييض كتاب لا يحتاج إلى هذا الوقت والجهد، وأخيرا فإن المؤرخين الذين عاصروا المقريزي كابن حجر والعيني وابن تغري بردي والصيرفي يشيدون بكتاب الخطط وقيمته ، دون ذكر لأي انتحال .

ويتفوق التاريخ الحولي "*السلوك لمعرفة دول الملوك*" على المؤلفات التاريخية في العصر المملوكي من حيث دقة معلوماته ، ووضوح عبارته وشموله ، فيعده ابن تغري بردي من أتقن المؤلفات وأضبطها " وأجل تحفة اخترعها " المقريزي (٧) * . ويهدف المقريزي من تأليفه هذا الكتاب إلى إكمال سلسلة مؤلفاته التي تناولت تاريخ مصر ، وذلك باستعراض تاريخ الدولتين الأيوبية والتركية حتى سنة ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م ، والتركيز على الحوادث دون الاهتمام بالتراجم والوفيات (٨) ، والتحري قبل تسجيل الأخبار ، وقد أشار لذلك بقوله " وما زلت أفحص عنه على عادتي في الفحص عن أحوال العالم " (٩) ، و"لم ينضبط لي ما جرى حتى بلغني"(١٠)، وأشار إلى بعض التغييرات في النظم الإدارية والاقتصادية والسياسية للسلطنة المملوكية بقوله " لم نعهد فيما أدركناه"

١- المقريزي ، خطط ، ج١، ص ١٨١ .

٢- نفس المصدر ، ص ١٨٢ .

٣- نفس المصدر ، ص ٣٧٣ .

* الأوحدي : (٧٦١-٨١١هـ / ١٣٥٩- ١٤٠٨م) : محمد بن عبدالله بن الحسن بن طوغان التركي ، أحد رجال البحرية ، مؤرخ ، لا سيما فيما يتعلق بأخبار مصر وخططها وتراجم أعيانها ، مع كثرة التعصب للدولة التركية (المقريزي ، درر العقود ، ج١ ، ٢٤٧-٢٤٨ ، المقفى ، ج١ ، ص ٥١٤ ، السيوطي ، حسن ، ج١ ، ص٢٦٦) .

٤- السخاوي ، الضوء ج١ ، ص ٣٥٨ - ٣٥٩ ، التبر ، ص ٢٢ .

٥- المقريزي ، المقفى ، ج١ ، ص ٥١٤ .

٦- المقريزي ، درر العقود ، ج١ ، ص ٢٤٨ .

٧- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج١ ، ص ٥١ .

* يرى مارجوليوث أن هذا الكتاب يتفوق على جميع تواريخ العصور الوسطى (Margoliouth , Lectures , P 158) .

٨- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق١ ، ص ٩ .

٩- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٤٩ .

١٠- نفس المصدر ، ج٤ ، ق٣ ، ص ١١٦٥ .

" ولم يعهد هذا فيما سلف " " ولم يسمع بمثل هذا " " ولم تكن العادة " " وهذا أيضا مما تجدد من الحوادث " (١) ، فكان المقريزي ناقدا وليس ناقلا للأخبار فقط . كما تزداد قيمة هذا التاريخ من حقيقة امتداد تأليفه بين سنة ٨٢٠-٨٤٤هـ / ١٤١٧-١٤٤٠م (٢) ، مما جعله بمثابة مذكرات يومية للمؤلف ، ضبط فيه أحداث كل سنة على التوالي .

ويهمل المقريزي ذكر مصادره حول الفترة الأيوبية ، والدولة المملوكية الاولى ، في حين تعتمد مصادره في الفترة التي عاصرها على ما شاهده أو شارك فيه من الأحداث (٣) ، أو على رواة شاركوا أو شاهدوا الأحداث(٤)، وعلى مشايخه كابن خلدون (٥) ، وعلى الكتب المصنفة كالكتب المتعلقة بسيرة الظاهر برقوق (٦) ، وعلى الوثائق(٧) ، والنقوش (٨) ، وعلى بعض الموظفين الذين ارتبط معهم بعلاقات شخصية كالوزير (٩) ، وموقعي الدست بديوان الإنشاء (١٠) ، وعلى الدواوين كديوان المواريث الحشرية ، الذي اعتمد عليه فيما يتعلق بعدد الوفيات أثناء الطواعين (١١) ، وديوان الخراج في احصائه لعدد القرى في سنة ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م (١٢) ، مما جعل كتابه مصدرا أوليا لا غنى عنه للفترة التي عاصرها . ولكنه في بعض الأحيان لا يفصح عن مصادره كقوله "وأخبرني من لا أتهم " (١٣) " وحدثني بعض الثقات " (١٤) ، وفيما علمت " (١٥) و"حكى بعضهم " (١٦) ، مما دعا السخاوي لاتهامه بالاعتماد على بعض الكذابين في رواية أخباره (١٧) .

وينحدر المحدث والمؤرخ الحافظ ابن حجر العسقلاني (٢٢ شعبان ٧٧٣ هـ -٢٨ ذي الحجة-٨٥٢هـ/

١- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٢٥٢ ، ٤٤٨ ، ٤٨٠ ، ٥٥٠ ، ٦٣٧ ، ٦٧٢ ، ٧١٧ ، ٧١٩ ، ٧٢٨ ، ٧٣٩ ، ٧٧٢ ، ٨٧٥ ، ج٤ ، ق١ ، ص ٢٥٦ ، ٢٦٥ ، ٣٤٥ ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٧٠ ، ج٤ ، ق ٣ ، ص ٨٢١ .

٢- نفس المصدر ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٦٣٩ ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨١٨ .

٣- نفس المصدر ، ج٣ ،ق١ ،ص٢١٠ ، ٢١٩ ، ٢٦٥ ، ٢٧٣ ، ٣٣٣ ، ج٣ ،ق٢ ، ص ٤٥٧ ، ٤٩٧ ، ٥٥٨ ، ج٣ ، ق٣ ، ص٨٠٦ ، ٨٠٧ ، ٨٠٨ ، ١١٣٥ ، ج٤ ، ق١ ، ص ١٠٥ ، ٣٠٢ ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٢٠ ، ٨٢٨ ، ٨٥٤ ، ٨٥٩ ، ٩٢١ ، ٩٣٠ ، ١٠٣٨ .

٤- نفس المصدر ،ج٣ ، ق١ ، ص ١٧٤ .

٥- نفس المصدر ، ج٤ ، ق١ ، ص ٢٩١ .

٦- نفس المصدر ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٩٤٣ .

٧- نفس المصدر ، ج٣ ، ق١ ، ص ٢٦٧ ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٨٠٣ ، ٨٠٥ ، ٨٠٦ ، ٨٠٩ .

٨- نفس المصدر ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٥٨٤ .

٩- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ٥٨٤ / ابن تغري بردي ، حوادث ، ج١ ، ص ٦٧ .

١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٧٨٩ ، ج٤ ، ق٢ ، ص٨٣٠ .

١١- نفس المصدر ، ج٣ ، ق١ ، ص ٢٦٥ ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٥٧٨ ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٢٢ ، ٨٢٤ ، ٨٢٥ .

١٢- نفس المصدر ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٩١٢-٩١٣ .

١٣- نفس المصدر ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٤٩ ، ٦٩٠ ، ٧١٢ ، ٧٣٨ .

١٤- نفس المصدر ، ج٣ ، ق١ ، ص ٣٦٩ .

١٥- نفس المصدر ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٩٤٥ .

١٦- نفس المصدر ، ج٣ ، ق١ ، ص ١٧٤ .

١٧- السخاوي ، التبر ، ص ٢٣ .

١٣٧١- ١٤٤٨م) من عائلة هاجرت من مدينة عسقلان عندما أمر السلطان صلاح الدين الأيوبي بهدمها في سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م (١) . وتوفي والده وهو صغير السن ، فعاش في كنف الزكي الخروبي (٢)* ، وأقبل على الحياة العلمية في سن ميكرة ، فحفظ القرآن وهو ابن تسع سنين ، ودرس العربية ، والفقه والحساب والأدب والعروض ونظم الشعر . ثم حدد اتجاهه منذ سنة ٧٩٣هـ/١٣٩٠م بدراسة العلوم الدينية وبخاصة الحديث ، فقام بعدد من الرحلات العلمية داخل القطر المصري وإلى بلاد الشام والحجاز واليمن (٣) ، حتى أصبح المرجع الأساسي في عامة الأمور الشرعية لا سيما الحديث والآثار الباقية(٤) ، وشارك في سنة ٨٣٦هـ / ١٤٣٢م بالحملة التي قادها السلطان برسباي نحو آمد .

ابتدأ ابن حجر حياته العملية بالعمل في التجارة (٥) ثم اشتغل بتدريس الحديث والتفسير والفقه في عدد من مدارس القاهرة ، والخطابة في بعض الجوامع كجامع الأزهر ، وجامع عمرو بن العاص ، وتولى الافتاء بدار العدل ، وولاية مشيخة الخانقاة البيبرسية ونظر أوقافها ، وخزن الكتب في المدرسة المحمودية ، ومنصب قاضي القضاة الشافعية لمدة إحدى وعشرين سنة متقطعة بين محرم سنة ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م وجمادى الآخرة سنة ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م (٦) .

ألف ابن حجر مئة وخمسين كتابا (٧) ، معظمها في الحديث والفقه والتفسير ، ولم يكن نصيب التاريخ سوى كتابين هما "*الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة*" الذي ابتدع فيه وحدة القرن كأساس للكتابة التاريخية والتراجم(٨) . والثاني تاريخه الحولي "*إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ*" الذي تناول فيه الفترة التي عاصرها ، وتمتد من تاريخ ولادته في سنة ٧٧٣ هـ / ١٣٧١م إلى ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦م، جاعلا الحوادث ذيلا على تاريخ ابن كثير

١- Rosenthal , Ibn Hadjar , EI2 , III , P 776 .

٢- السخاوي ، الضوء ، ج٢ ، ص ٣٦ .

* الزكي الخروبي (٧٢٥-٧٨٧هـ / ١٣٢٤-١٣٨٥م) : أبو بكر بن علي بن أحمد بن محمد الخروبي زكي الدين ، ورث من عمه مالا ، عمل به بالتجارة ، فأثرى حتى أصبح كبير التجار ورئيسهم في زمانه ، وكان والد ابن حجر قد أوصاه بابنه فكفله ، (ابن حجر ، إنباء ، ج٢ ، ١٩٦-١٩٧) .

٣- المقريزي ، در العقود ، ج١ ، ص ٢٦٨ / السخاوي ، الضوء ، ج٢ ، ص ٣٦-٣٧ ، التبر ، ص٢٣٠-٢٣١/ الشوكاني ، البدر الطالع ، ج١ ، ص ٨٧-٨٨ / Rosenthal , Ibn - Hadjar , EI 2 , III , P 777 .

٤- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٩٩٢ .

٥- ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص٢٦٩ / ابن العماد ، شذرات ، ج٩ ، ص ٣٩٥ .

٦- المقريزي ، در العقود ،ج١ ،ص٢٦٧ / ابن تغري بردي ، حوادث ، ج١ ، ص ١٩٦-١٩٧ ، النجوم ، ج١٥، ص٢٥٩ / السخاوي ، الضوء ، ج٢ ،ص٣٧-٣٩ ، التبر ، ص٢٣١ / ابن العماد ، شذرات ، ج٩ ، ص ٣٩٥-٣٩٧ / - Rosenthal , Ibn Hadjar , EI2 , III , P 777 .

٧- السخاوي ، الضوء ، ج٢ ، ص ٣٧ .

٨- محمد مصطفى ، المؤرخون ، ص ٩٤ .

(٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) وتراجمه ذيلا على تراجم ابن رافع *(١) ، إلا أن اهتمام ابن حجر انصب على التراجم أكثر من الحوادث ، مما جعل كتابه أقرب لكتب التراجم منه إلى كتب التاريخ .

ولا يكتفي ابن حجر بنقل الأخبار ، بل ينتقد**ويعلق ويبدي رأيه، ويشير إلى التغيرات التي أصابت السلطنة المملوكية والمجتمع المصري في فترته (٢).ويعتمد في مصادره الأساسية على الكتب المصنفة (٣) ، فيشير إلى اجتماعه بابن دقماق ، وأخذ الكثير منه ومن مؤلفاته ، أو من خط ابن الفرات عنه (٤) ، ومن المؤرخ ابن حبيب*(٥) ، ومن المقريزي الذي أخذ من مؤلفاته مع بعض الروايات الشفوية (٦) ، ومن العيني (٧) ، ومن مشايخه الذين درس عليهم أو التقى بهم في أثناء رحلاته ، ومما شاهده أو سمعه من أفراد قريبين أو مشاركين في الأحداث (٨) ، وحصل على بعض الوثائق (٩)، لكنه يتجاوز الإسناد لبعض الروايات كقوله " وحكى بعض أهل القاهرة " (١٠) ، " وذكر بعض من يوثق به " (١١) ، " وذكر بعض خواصه " (١٢) ، و"ذكر لي" (١٣) ، "وأرخه بعض أصحابنا " (١٤) .

ومن المؤرخين البارزين في القرن ٩هـ / ١٥م ، بدر الدين محمود بن أحمد العيني (١٧رمضان ٧٦٢-٤ ذي الحجة ٨٥٥ هـ / ١٣٦٠- ١٤٥١م) المولود ببلدة عينتاب بين حلب وأنطاكية . بدأ حياته العلمية على يد والده الذي كان يعمل قاضيا ببلدته ، ثم درس الفقـه واللغة العربية والمنطق ، وحفظ الكثير من التاريخ ، وأجاد اللغة التركية، ونظم الشعر ، وارتحل إلى عدد من البلاد للسماع من شيوخ عصره ، فزار حلب ودمشق والقدس والقاهرة، حيث نزل صوفيا في البرقوقية عند افتتاحها في سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م ، ولكنه عاد من القاهرة إلى بلده في نهاية القرن

---

*ابن رافع (٧٠٤-٧٧٤هـ / ١٣٠٤-١٣٧٢م) : محمد بن رافع بن سلام ، جمع ذيلا على كتاب الوفيات للبرزالي ، وكان كثير الاتقان والضبط والتحرير لما يصنفه (ابن حجر ، إنباء ، ج١ ، ص ٥٩-٦٢) .

١- ابن حجر ، إنباء ، ج١ ، ص ٤ .

** استعمل في النقد قوله "قلت" و "وهم من أرخه بذلك" (ابن حجر ، إنباء ، ج١ ، ص ٧١ ، ٩٦، ٢٦٢) .

٢- ابن حجر ، إنباء ، ج١ ، ص ٧١ ، ٩٦ ، ٢٦٢ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ج٧ ، ص ١٩٩ .

٣- نفس المصدر ، ج٣ ، ص ٢٢ ، ٤٠ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ١٢٩ ، ٢٦٧ .

٤- ابن حجر ، إنباء ، ج١ ، ص٣ .

*ابن حبيب : (٧١٠-٧٧٩هـ / ١٣١٠-١٣٧٧م) : الحسن بن عمر بن حبيب الدمشقي الأصل الحلبي المولد ، رحل للقاهرة ، وأكثر من السجع في مؤلفاته التاريخية والأدبية ، وناب في الحكم ، وعمل في ديوان الإنشاء (ابن حجر ، إنباء ، ج١ ، ص ٢٤٩-٢٥١) .

٥- ابن حجر ، إنباء ، ج١ ، ص ٢٢ ، ٣٣ ، ٤٦ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٨٩ .

٦- نفس المصدر ، ج١ ، ص ٢٢٩ ، ج٤ ، ص ٤٣ ، ٥٥ ، ٦٦ ، ج٥ ، ص ٣٧ .

٧- نفس المصدر ، ج١ ، ص ١٦٧ ، ج٣ ، ص ٣٦٤ ، ٤١٠ ، ٤١٩ ، ج٤ ، ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٥٥ ، ٩٥ ، ٢٥٣ ، ٢٦١ ، ج٥ ، ص ٣٥ ، ٢٣٢ .

٨- نفس المصدر ، ج١ ، ص ٣ ، ٤ ، ١٣٨ ، ٢٧٠ ، ج٣ ، ٢٢٩ ، ج٧ ، ص ٤٦٦ ، ٤٧٦ .

٩- نفس المصدر ، ج٩ ، ص ٦٧ .

١٠- نفس المصدر ، ج٧ ، ص ٢٩٣ .

١١- نفس المصدر ، ج٤ ، ص ٢٠٩ .

١٢- نفس المصدر ، ج١ ، ص ٧٣ .

١٣- نفس المصدر ، ج١ ، ص٧١ .

١٤- نفس المصدر ، ج١ ، ٣١١ .

الثامن (١) ، واضطر للهجرة إلى القاهرة والاستقرار فيها نهائيا في سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م قبيل غـزوة تيمورلنـك للبـلاد الشامية (٢) .

تمكن العيني بفضل علاقاته الشخصية مع كبار رجال الدولة والأمراء والسلاطين أنفسهم مـن تـولي عـدد مـن المناصب المهمة ، فعينه السلطان فرج بن برقوق ناظرا للأحباس ، ثـم عـين في الحسبة ثمـاني مـرات ، أولاهـا في سـنة ٨٠١هـ /١٣٩٨م ، وآخرها في سنة ٨٤٦هـ/١٤٤٢م وحظي بعد ذلك لدى السلطان المؤيد شيخ الذي أرسله في سنة ٨٢٢هـ/ ١٤١٩م في سفارة إلى بلاد الروم ، وألف له كتاب "***السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شـيخ***" . وأصبـح بعد ذلك نديما للسلطان برسباي ، يقرأ له مقتطفات من تاريخه "***عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان***" ويترجمهـا لـه إلى اللغة التركية ، نظرا لعدم معرفة السلطان باللغة العربية ، فعينه في سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٥م قاضيا لقضاة الحنفية ، واسـتمر في هذا المنصب لمدة اثنتي عشرة سنة متواصلة ، وجمع في أثناء ذلك بين منصب الحسبة ونظر الأحباس والقضاء ، إضافة إلى تدريس الفقه في المدارس المحمودية والمؤيدية (٣) .

استخدم العيني اللغتين العربية والتركية في التأليف ، وتطرق في مؤلفاته للأدب والفقه والتاريخ (٤) ، فتنـاول في "السيف المهند " المؤهلات والصفات الواجب توافرها في السلطان ، ومدى توافقها مع السلطان المؤيد شيخ ، فجـاء كتابـه دفاعـا عـن أحقيـة هـذا السـلطان بالسـلطنة ، ولم يتضمـن مـن الناحيـة التاريخية إلا بعـض الملاحظـات حـول المكوس(٥) . أما تاريخه الكبير " عقد الجمان " تسعة عشر مجلدا (٦) ، تناول فيه تاريخ البشرية منـذ بـدء الخليقـة ثـم التاريخ الإسلامي حتى سنة ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م ، وعد أفضل وثيقة لتصوير العلاقـة المتبادلـة بـين فئـة العلمـاء والطبقـة الحاكمة في العصر المملوكي (٧) .

تنـوعت مصـادر العينـي بين المشاهـدة والسمــاع مــن الأفـراد المشاركين في الأحـداث (٨) ، والنقـل الدقيـق من المصـادر المكتوبـة (٩) ، فأخذ مادة واسعة مـن مؤلفات بيبرس الـدوادار (١٠) ، ومن ابن كثير ، وابـن

١- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٥ ، ص ٢٨٦ ، حوادث ، ج٢ ، ص ٣٥٤ / السخاوي ، التبر ، ص ٣٧٥ ، ٣٧٧ / ابن العماد ، شذرات ، ج٩ ، ص ٤١٩ / كراتشوفسكي ، تاريخ الأدب ، ج٢ ، ص ٤٨٧ / طاش كبري زاده ، مفتاح السعادة ، ج١ ، ص ٢٤٥.

٢- العيني ، عقد ، حوادث ٧٩٩-٨١٥ ، ص ٣٧ ب / Marcais , Al - Ayni , EI 2 , I , P 790 .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ٩٧٠ ، ٩٧٧ ، ٩٩٩ ، ١٠٣٨ ، ١٠٥٢ ، ١٠٨٨ ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٥٢ ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٦٧ / ابن حجر ، إنباء ، ج٤ ، ق ٣٤ ، ٩٧ ، ٢٤ ، ج٥ ، ص ٧ / ابن تغري بردي ، حوادث ، ج٢ ، ص ٣٥٤ ، النجوم ، ج١٥ ، ص ١٠٨ ، ١١٤ / السخاوي ، التبر ، ص ٣٧٧-٣٧٨ ، الضوء ، ج١٠ ، ص ١٣٢-١٣٣ / ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ق١ ، ص ٥٦٦ ، ٦٠٤ ، ٦٤٣ ، ٦٥٢ ، ٨٢٨ ، ج٢ ، ص ١٠٤ ، ١٢٧ ، ١٤١ ، ١٩٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٩٢ /, Marcais Al - Ayni , EI 2 , I , P 791 \ Khuwaiter , Baibars , P 188 \ Sidiqi Fatima , Baybars , P24 .

٤- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٥ ، ص ٢٨٧ / السخاوي ، الضوء ، ج١٠ ، ص ٣٧٩ - ٣٨٠ ، وجيز ، ج٢ ، ص٦٦١ / مجهول ، مجموع الفنون ، ص ٢٧ .

٥- العيني ، السيف المهند ، ص١٠-١٧٠ .

٦- السخاوي ، التبر ، ص ٣٧٩ .

٧- كراتشوفسكي ، تاريخ الأدب ، ج٢ ، ص ٤٨٧ / محمد مصطفى ، المؤرخون ، ص ٢١ .

٨- العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥-٨٢٤هـ ، الطنطاوي ، ص ١٠١-١٠٢ ، ١٢٢ ، حوادث ٨٢٤-٨٥٠هـ الطنطاوي ، ص١٤٣ .

٩- ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص ٢٩٢ / Ashtor , Some Unpublished , P 13 .

١٠- Ashtor , Some Unpublished , P 13 .

دقماق الذي كان ينقل منه الصفحة الكاملة (١) ، ومن الوثائق التي تمكن من الحصول عليها (٢) ، حتى أشار ابن تغري بردي إلى أنه لم يأت بعد المقريزي من يعول عليه في التاريخ سوى العيني ، مع أن تاريخه يحوي الكثير من الأخطاء والأوهام بسبب كبر سنه ، ولذلك لا يمكن الاستفادة منه إلا بعد جهد وتعب كثير (٣) .

ينتمي ابن تغري بردي (شوال ٨١٣ – ذو الحجة ٨٧٤هـ/ ١٤١٠– ١٤٦٩م) إلى الطبقة العسكرية ، حيث كان والده أحد أمراء الألوف زمن السلطان الناصر فرج بن برقوق ، فتسلم أتابكية العساكر بمصر ، ثم نيابة الشام ، وتزوج السلطان فرج من ابنته الكبرى ، إلا أنه توفي في سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م ولم يكن ابنه قد بلغ الثالثة من عمره(٤)، فانتقل ابن تغري بردي إلى وصاية زوج أخته ، قاضي القضاة محمود بن العديم الحنفي ، ثم لوصاية جلال الدين البلقيني بعد أن خلف على أخته بعد وفاة زوجها ، واستمر تحت وصايته حتى وفاته سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م ، فانتقل بعدها للعيش تحت كنف مجموعة من مماليك والده (٥) . وبدأ ابن تغري بردي دراسته بالعلوم الدينية واللغوية كالصرف والعروض والأدب ، ثم التردد على دروس ابن حجر(٦) ، ودراسة التاريخ على يد المقريزي والعيني (٧)، ثم عِلم البيان على الكافيجي ودراسة الموسيقى والفروسية ، وسوق البرجاس واللعب بالكرة ، ونظم الشعر باللغتين العربية والتركية ، إلا أن شعره ضعيف لا قيمة له (٨) .

ولابن تغري بردي عدد من المصنفات ، ذكر الصيرفي (٩٠٠هـ / ١٤٩٤م) أنها أربعة عشر مصنفا(٩) ، منها "***حوادث الدهور على مدى الأيام والشهور***" الذي جعله ذيلا على كتاب السلوك للمقريزي ، وابتدأ فيه من سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤١م إلى رمضان ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م ، مع نهج مخالف للمقريزي يقوم على التوسع في الحوادث والتراجم ، في حين اهتم المقريزي بالتوسع في الحوادث وتقصير التراجم (١٠)، ورتبه على النظام الحولي، وكرسه لضبط الأوضاع الاقتصادية وما يقع في الزمان من ولاية وعزل وغريبة (١١). وكتابه الثاني "***النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة***"، افتتحه بفتح مصر وفضائلها ومحاسنها، ثم ولاتها وما وقع في عهدهم، وما

١- ابن حجر، إنباء ، ج١ ، ص٣ .

٢- العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥–٨٢٤هـ ، الطنطاوي ، ص١٠٢ ، حوادث ،٨٢٤–٨٥٠هـ ، الطنطاوي ، ص١٣٨ .

٣- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج١ ، ص ٥١ .

٤- الصيرفي ، إنباء ، ص ١٧٥–١٧٦ / السخاوي ، الضوء ، ج١٠ ، ص ٢٠٥ / ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٤٥–٤٦ / محمد مصطفى ، المؤرخون ، ص ٢٧ / Popper , Ibn - Taghri Birdi , EI 2 , III , P 138 .

٥- الصيرفي ، إنباء ، ص ١٧٦ .

٦- السخاوي ، الضوء ، ج١٠ ، ص ٢٠٦ .

٧- الصيرفي ، إنباء ، ص ١٧٧ ، نزهة ، ج٣ ، ص ١٢١ب / السخاوي ، الضوء ، ج١٠ ، ص ٢٠٦ .

٨- السخاوي ، الضوء ، ج١٠ ، ص ٢٠٦ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٢٢ أ /. Popper , Ibn - Taghri Birdi , EI2 , III , P 138 .

٩- الصيرفي ، إنباء ، ص ١٧٧–١٨٧ .

١٠- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج١ ، ص ٥٢ .

١١- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٤ ، ص ١٨٦ .

أحدث كل واحد ، وما حدد من القواعد والوظائف والولايات والمباني ، ووفيات الأعيـان في عهدكـل سـلطان حتـى بداية حكم السلطان الأشرف قايتباي (١) ، ورتبه بذكر الحوادث في عهد كل وال أو سلطان وفقا للنظام الحولي ، ثـم أتبعه بذكر الوفيات ، مع ذكر قاعدة النيل في كل عام ، وحذف المعلومات التي أوردهـا في كتـاب "حـوادث الدهـور" (٢) ، لأن مهمة النجوم " الإطناب في ذكر تراجم ملوك مصر على سبيل الاستطراد ، لتكثر فيه الفـائدة"(٣). وكتابـه الثالث "*المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي* " جمع فيـه ألفـين واثنتين وثمانين ترجمـة للأعيـان الذيـن توفـوا في الفـترة المملوكية من سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م حتى سنة ٨٦٢هـ / ١٤٥٧م (٤) ، وابتـدأه بترجمة المعز أيبـك ، ورتبـه علـى الحروف ، سائرا في ذلك على منهج أرباب الحديث وطبقات الفقهاء والأعيان (٥) . وكتاب "*مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة* " وهو تاريخ مقتضب ، ابتدأه بالسيرة النبوية ، ثم تراجـم قصيرة للصحابة والخلفـاء الراشـدين والأمويين والعباسيين والأيوبيين وولاة مصر في عهدهم (٦) ، منتهيا به بنهاية حكم السلطان عثمان بن الظاهر جقمـق (٢١ محرم ٨٥٧هـ - ٨ ربيع الأول ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م) (٧).

تعرض ابن تغري بردي لمجموعة من الانتقادات ، فاتهمه الصيرفي بعـدم معرفـة الفقـه والجهـل بقواعـد اللغـة العربية وحاجته لمن يصلح له كتاباته في كل وقت ، وكـثرة أخطائـه الـتي لا يمكـن لأحـد اصلاحهـا ، والخطـأ والوهـم والتعصب على من يعاديه ، والكتابة بلغة عاميـة لا " تصـدر عـن صغـار الكتـاب المتعلمـين مـن تصحيـف وزيـادة في الأحرف ونقص ولحن مفرط " وعدم القدرة على تسمية مؤلفاته ، حتى سماها له الشيخ قاسم الدين بـن قطلوبغـا*(٨). أما السخاوي (٩٠٢هـ / ١٤٩٦م) فيشير إلى افتقاره للأمانة والدقة والتحري ، وتسجيل الأخبـار الـتي تخـدم أغراضـه ومصالحه الشخصية ، واستخدامه من يكتب له في أثناء سفره (٩) ، وكثرة الخطأ والوهم في الأنساب ، مع التصحيف والتحريف واشهار الكثير من المترجمين بما ليس فيهم ، وتسـجيل الحـوادث كيفما اتفق وكأنه يكتب بمجرد السـماع (١٠) ، وأن ما وصل إليـه " ما عسى أن يصـل إليـه تركـي ...ومستكثـر مـن مثلـه " (١١) . ومـع ذلـك فـإن

١- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١ ، ص ٤-٥

٢- محمد مصطفى ، المورخون ، ص٩٥-٩٦ / Popper , Ibn - Taghri Birdi , EI 2 , III , P 138 .

٣- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٥ ، ص ١٩٢ .

٤- Popper , Ibn - Taghri Birdi , EI 2 , III , P 138 \ Donald P . Little , Al - Safadi , p 196

٥- ابن تغري بردي ، المنهل ، ج١ ، ص ١٩ .

٦- محمد مصطفى ، المؤرخون ، ص ٣٣ .

٧- الصيرفي ، إنباء ، ص ١٧٧ .

* ابن قطلوبغا (٨٠١-٨٧٩هـ / ١٣٩٨-١٤٧٤م) السودوني الحنفي ، عالم وفقيه ومحدث (ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٩٧) .

٨- الصيرفي ، إنباء ، ص ١٧٩-١٨١ .

٩- السخاوي ، الضوء ، ج١٠ ، ص ٣٠٦ .

١٠- نفس المصدر ، ص ٣٠٦-٣٠٧ .

١١- السخاوي ، وجيز ، ج٢ ، ص ٨١٨ .

السخاوي يعود ليناقض نفسه ، فيؤكد أن ابن تغري بردي " أرخ وصنف وضبط وقيد " مع حسن العشرة والمذاكرة وتمام العقل والسكون والمحاسن (١) .ووصف القاضي عبد الباسط (٩٢٠هـ / ١٥١٤م) كتاباته " بعبارة عامية ركيكة جدا ، فيها خباط وأوهام كثيرة "(٢) ، مع عدم إنكار تفرده بمعرفة أحوال الترك ومناصبهم وأنسابهم ولغتهم(٣) . إلا أن مؤلفاته تبين قدرته على الكتابة بأسلوب فني رفيع ، والاحتفاظ بنظرة شمولية للفترة التي عاصرها، وأصبحت كتبه المصدر الأساسي لفهم الفترة التي تلت وفاة المقريزي والعيني من سنة ٨٤٥-٨٧٤هـ / ١٤٤١-١٤٦٩م ، وتمكن من إعطاء صورة واضحة ودقيقة للتغيرات الاجتماعية والاقتصادية في هذه الفترة .

وتزداد قيمة مؤلفات ابن تغري بردي من حقيقة ارتباطه بعلاقات شخصية ووطيدة مع الأمراء والمماليك الذين اعتنوا بتنشئته بعد وفاة والده ، ومن ارتباطه بعلاقات مصاهرة مع الخليفة المعتضد (٨٤٥هـ /١٤٤١م)(٤) ، ومع السلطان فرج بن برقوق (٨٠١-٨١٥هـ / ١٣٩٨-١٤١٢م) (٥) ، ومع ابن السلطان جقمق (٦) ، ومع السلاطين الذين عاصرهم كالسلطان جقمق وأينال وخشقدم الذين اعتاد التردد إلى مجالسهم (٧)، ومع بعض كبار الموظفين كشاد بندر جدة والدوادار (٨) ، مما مكنه من الوصول إلى المصادر الرسمية والاطلاع على الأحوال الداخلية لقلعة القاهرة والقصور السلطانية ، والتعرف على أوضاع الترك ووقائعهم وحروبهم وأنسابهم . كما ارتبط بعلاقات حميمة مع مؤرخي عصره البارزين كالمقريزي الذي سمع ونقل الكثير عنه ، وابن حجر والعيني (٩) . وقد مكنه الثراء الذي عاش به بعد حصوله على إقطاع يتعيش منه من التفرغ للجمع والتأليف .

اطلع ابن تغري بردي على مجموعة كبيرة من المصادر المكتوبة ، فنقل منها نقلا حرفيا ، و أشار إلى بداية الاقتباس ونهايته (١٠) ، وتوصل إلى بعض الوثائق وسجلات الدواوين (١١) ، وأخذ من الأفراد القريبين من

١- السخاوي ، وجيز ، ج٢ ، ص ٨١٧ .

٢- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٢١ ب .

٣- السخاوي ، الضوء ، ج١٠ ، ص ٣٠٦ .

٤- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج١ ، ص ٦٢ .

٥- نفس المصدر ، ص ٢٥٦ .

٦- نفس المصدر ، ص ١٠١-١٠٢ .

٧- الصيرفي ، إنباء ، ص ١٧٨ .

٨- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص ١٧٣ ، ٢٥٧ ، ج١٤ ، ٢٦٠ ، ج١٥ ، ١٧٩ / الصيرفي ، إنباء ، ص ١٧٨-١٧٩ .

٩- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٢ ، ١٩ ، ٣٢ ، ٩٩ ، ١٠٨ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٣٥ ، ١٧٠ ، ٢٧٥ ، ٢٨٣ ، ج١٤ ، ١٢ ، ١٤ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٩١ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١١٧ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٨٣ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٣٥ ، المنهل ، ج١٥، ص ٤٦ ، ٥٨ ، ٧٥ ، ١٢٢ ، ١٣٠ ، ١٣٩ ، ١٦٦ ، ٢٤٣ ، ٣٥٢ .

١٠- ابن تغري بردي ، المنهل ، ج١ ، ص ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ٨٦ ، ١٢٦ ، ١٣٤ ، ١٤٩ ، ١٦٤ ، ١٧٧ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ٣٧٤ .

١١ - ابن تغري بردي ، المنهل ، ج١ ،ص٤٣ ، ٩١ ، ١٩١ ، النجوم ، ج١٤ ، ص١٧٦ ، ج١٥ ، ص١٧٢-١٧٣ .

الأحداث أو المشاركين فيها ، كما في قوله " حدثني بعض الثقاة من أهل صعيد مصر " (١) ، في حين احتلت المشاركة في الأحداث والمعاصرة والمشاهدة جانبا كبيرا من كتاباته ، وأشار إلى ذلك باستعمال عبارات مختلفة مثل ، "شاهدت" "ورأيت" "وفي زماننا " "والآن " (٢) .

وعني في أخذ المعلومات من أقرب المصادر إلى الأحداث(٣) ، مع المقابلة بين الروايات(٤)، والنقد وعدم الاكتفاء بسماع الخبر ، والفحص والسماع من أكثر من واحد (٥) .

يطلق على علي بن داود الجوهري والصيرفي (٤ جمادى الآخرة ٨١٩- ٩٠٠هـ/١٤١٦-١٤٩٤م) ، حيث عمل في بداية حياته بمهنة والده (ت٨٣٥هـ / ١٤٣١م) الذي كان صيرفيا في الديوان المفرد (٦) ، ثم اتجه إلى دراسة العلوم الدينية فتفقه بفقه أبي حنيفة وحفظ القرآن ودرس النحو ولازم الكافيجي*، فقرأ عليه العروض ثم حج ورحل إلى بيت المقدس ودمياط ، ونزل في صوفية البيبرسية والبرقوقية وخطب بها ، وعمل قاضيا حنفيا في سنة ٨٧١هـ/ ١٤٦٦م ولازم الشيوخ . وعاش في بداية حياته ثريا ، فبنى عددا من المنازل في حكر الشامي ، إلا أنه افتقر بعد ذلك ، وصار يتكسب من نسخ كتب كبار العلماء والمشايخ والمؤرخين،ككتب ابن حجر وابن تغري بردي (٧).

ومن مؤلفات الصيرفي " ***نزهة النفوس والأبدان*** " وتناول فيه بدء الخليقة منذ سيدنا آدم عليه السلام ثم التاريخ الإسلامي حتى سنة ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م (٨) ، إلا أن الموجود منه يعنى بالفترة الممتدة بين ٧٨٤-٨٥٠هـ / ١٣٨٢-١٤٤٦م ، كتبه وفقا للنظام الحولي على السنين والشهور والأيام ، مع ترجمة للأعيان المتوفين في كل عام . وكتابه الثاني "***إنباء الهصر بأبناء العصر في التاريخ***" ومعظمه مفقود ، ولم يتبق منه إلا الجزء المتعلق بأحداث ٧٧٣-٧٧٧هـ / ١٤٦٨-١٤٧٢م وحوادث سنتي ٨٨٥-٨٨٦هـ / ١٤٨٠-١٤٨١م ، ويبدو أنه كتبه كذيل لتاريخه نزهة النفوس والأبدان ، فسجل فيه أحداث الفترة التي عاصرها .

انتقد المؤرخون الصيرفي كثيرا ، فأشار السخاوي إلى نسخه مادة واسعة من تاريخ ابن كثير "يضحك ويبكي

١- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص ٢٣١ .

٢- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج١ ، ص ٢٥٦ ، ٣٤٠ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ج٢ ، ص ٣٤١ ، المنهل ، ج١ ، ص ٣٧ ، ٤٥ ، ٤٦ ، النجوم ، ج١٣ ، ص ٢٥ ، ج١٥ ، ص ٤٤ .

٣- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص ٤ ، ١٠٧ ، ١٢١، ١٩٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ج١٤ ، ١٥ ، ٥٤ ، ٢٠٢ ، ج١٥ ، ص٦٧ ، المنهل ، ج١ ، ص ٢٢٨ ، ٣٠٧ ، ٣٤٨ ، ٤٠٣ .

٤- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص ٢٨٣ ، ج١٤ ، ص ٤٥ ، ج١٥ ، ص ١٤٧ ، المنهل ، ج١ ، ص ٧٦ ، ٢٣٧ .

٥- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج٢ ، ص ٣٣٣-٣٣٤ ، ٤٤١ ، النجوم ، ج١٤ ، ص ٢٠٢ ، ج١٥ ، ١٤٧ ، ١٧٢-١٧٣ .

٦- السخاوي ، الضوء ، ج٣ ، ص ٢١٠ .

٧- نفس المصدر ،ج٥ ، ص ٢١٧-٢١٩ .

* وردت ترجمته في ص ٢ .

٨- الصيرفي ، إنباء ، ص ٤ ، ١٧٨ .

عليه فيها " " ونصب نفسه لكتابة التاريخ ، فكان تاريخا لا تمييز له عن كثير من العوام إلا بالهيئة ، مع سلوكه لما يستقبح " وبالجملة " فهو من سيئات الزمان ، غني بشهرة سيرته عن مزيد البيان ، وجهله واضح الظهور " (١) . وأشار ابن إياس إلى أنه " كان يكتب التاريخ بمجازفة ، لا عن قائل ولا عن راو ، وله في تاريخه خباطات كثيرة ، وجمع عدة كتب من تأليفه ، وكان لا يخلو من فضيلة " (٢) . ويشير حسن حبشي إلى استخدامه الواضح للألفاظ العامية الدارجة ، والخروج عن القواعد اللغوية ، والميل نحو السجع على حساب المعنى ، واقتباس الشعر بحاجة ومن دون حاجة (٣) ، إلا أنه يتميز بدقة المعلومات وغزارتها ، مع سعة الاطلاع وبخاصة للفترة التي عاصرها .

أهمل الصيرفي ذكر مصادره في كتاب " نزهة النفوس والأبدان " ، في حين التزم بذكرها في الإنباء ، فنقل من المؤلفات السابقة كالمقريزي والعيني وابن تغري بردي (٤) ، وأورد الكثير من المراسلات التي حصل عليها (٥) ، ومن سجلات الدواوين التي تتعلق بعدد الوفيات في أثناء انتشار الطواعين (٦) ، ومن الروايات الشفوية التي جمعها من مشايخ عصره (٧) ، ومن بعض الموظفين الكبار كالاستادار (٨) ، ومن الأشخاص القريبين من الأحداث أو المشاركين فيها ، ومن الفلاحين (٩) ومما شاهده أو عاصره (١٠) .

واتبع الصيرفي منهجا محددا في الإشارة إلى مصادره وفي اختيارها ، فكان يكثر من البحث والتحري ، وقد أشار إلى ذلك بقوله " وسألت عن ذلك فقيل لي " (١١) . وعندما لا يتمكن من تدقيق الروايات يشير إلى ذلك بقوله " ولم يصل إلينا تفصيل أخذها على التحري " (١٢) " وأما كيفية قتله على الحقيقة فلم أقف عليها لا أنا ولا غيري" " لكننا نذكر ما وصل إلينا " (١٣) ، و"تخمينا " (١٤) ، " ووقع أمور شاعت ، غير أني لم أتحققها ، وإنما أثبتها بطريق النقل " (١٥) ، " وما أدري ما اتفق " (١٦) ، " والذي بلغني فيه اختلاف كثير " (١٧)" وما

١- السخاوي ، الضوء ، ج٥ ، ص ٢١٨ -٢١٩ .

٢- ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٣١٠ .

٣- حسن حبشي ، مقدمة نزهة النفوس والأبدان ، ج١ ، ص ٦-٧ .

٤- الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص٥٠ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٨١ ، ٢١٣ ، إنباء ، ص ٢٤ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٦٩، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٠٠، ١٠٥ ، ١٠٧، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١٣٥ ، ١٥٢، ١٧٤ .

٥- الصيرفي ، إنباء ، ص ٢٩ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ١٣١ .

٦-نفس المصدر ، ص ٥٢ ، ٦١ .

٧- نفس المصدر ، ص ٣٧ ، ١١٧ ، ٢٩٨ .

٨- نفس المصدر ، ص ١٥٦ ، ٢٨٩ ، ٣٦٣ ، ٣٢٨ ، ٣٩٩ .

٩- نفس المصدر ، ص ٣٢ ، ١٥٣ ، ٢٤٨ ، ٣٦٥ ، ٤٠٥ ، ٤٣١ .

١٠- نفس المصدر ، ص ٣٣ ، ٧٦ ، ٩٣ ، ١٥٥ ، ١٨٠ ، ٢٣٥ ، ٢٨٨ ، ٣٥٢ ، ٣٩٩ ، ٤٠٣ .

١١- نفس المصدر ، ص ٢٦٤ .

١٢- نفس المصدر ، ص ٤٤ .

١٣- نفس المصدر ، ص ٧٧ .

١٤- نفس المصدر ، ص ٢٥١ ، ٢٩٨ ، ٣٠٥ .

١٥- نفس المصدر ، ص ٢٦٣ .

١٦- نفس المصدر ، ص ٢٨٨ ، ٤٠٥ .

١٧- نفس المصدر ، ص ١١٤ .

نقل صحته عند الله " (١) . كما قابل بين الروايات ورجح ونقد بعضها عند الحاجة (٢) ، واستعمل الإسناد للمجهول " على ما بلغني من عدة خلائق "(٣) و " ذكر شخص " (٤) و "على ما ينقلونه عنه " (٥) و "بلغني من عدة جماعات " (٦) و " هذا ما بلغني " (٧) و"بلغني" أو " بلغني ممن أثق بنقله " (٨) ، و"أخبروا "(٩) ، و" بلغني والعمدة على الناقل " (١٠) . إضافة إلى جمع بعض الروايات دون ترجيح ، وترك الحكم للقارئ (١١) ، واستعمال الألفاظ العامية (١٢) ، مع التكرار وبخاصة في التراجم ، إذ كان يترجم للشخص ترجمة مقتضبة في أثناء الحوادث ثم يعيد ما قاله عند التوسع في ترجمته بنهاية كل عام .

يشكل التاريخ جانبا مهما من ثقافة السخاوي (ربيع الأول ٨٣١-٩٠٢هـ / ١٤٢٧-١٤٩٦م) ، إذ لازم ابن حجر ، ثم قام بعدد من الرحلات إلى بلاد الشام والحجاز واليمن، للسماع من شيوخ عصره (١٣) .

أدرك السخاوي منذ البداية أهمية التاريخ كعلم مستقل ومساند للعلوم الدينية ، فألف مجموعة من الكتب التاريخية ، بحث في أحدها علم التاريخ* ، وكتب تاريخا حوليا بعنوان *" التبر المسبوك في الذيل على السلوك "* أي سلوك المقريزي ، تناول فيه الفترة التي عاصرها منذ سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤١م وحتى نهاية القرن ٩هـ /١٥م (١٤) ، ولم يتبق منه إلا الجزء المتعلق بحوادث ٨٤٥-٨٥٧هـ / ١٤٤١- ١٤٥٣م ، وقد ابتدأه بمقدمة تناول فيها الشروط الواجب توافرها في المؤرخ من العدالة والضبط والتحري والدقة في نقل المعلومات وتسجيلها ، ومعرفة أحوال الناس ومقاديرهم (١٥) . وتأثر في هذا الكتاب بمنهج علماء الحديث من حيث الاهتمام بالإسناد ، وبمنهج المقريزي في كتاب السلوك بالإطالة في الحوادث ، وبمنهج ابن حجر في الإنباء بالإطالة في التراجم ، مع أن التراجم أطول من الحوادث على أي حال ، وكذلك الإيمان بوحدة الخبر واتصاله خلال السنة ، فمثلا عندما يتحدث عن طاعون سنة ٨٥٣هـ/١٤٤٩م يورد جميع أخباره خلال السنة تحت أحداث شهر محرم ، وقد فعل ذلك في كثير من الأخبار(١٦) .

١- الصيرفي ، إنباء ، ص ٤٤٠ .
٢- نفس المصدر ، ص ٧٥ ، ٧٧٧ ، ١٤٩ .
٣ - نفس المصدر ، ص ٤٤ .
٤ - نفس المصدر ، ص ٤٧ .
٥ - نفس المصدر ، ص ٨٩ .
٦ - نفس المصدر ، ص ١٨٦ .
٧- نفس المصدر ، ص ٢٤١ .
٨- نفس المصدر ، ص ٣٣ ، ١٩٦ ، ٢٦٣ ، ٤٠٩ ، ٤٤٢ .
٩- نفس المصدر ، ص ١٣٠ .
١٠ - نفس المصدر ، ١٣٠ ، ٤٠٧ .
١١- نفس المصدر ، ص ١٥٠ .
١٢- نفس المصدر ، ص ١٣٧ ، ٢٣٨ ، ٣٧٤ .
١٣- السخاوي ، الضوء ، ج٨ ، ص ١-١٥ .
١٤- السخاوي ، الضوء ، ج٨ ، ص ١٧ .
* كتاب " الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ " وقد وردت الإشارة إليه في ص ٢ .
١٥- السخاوي ، التبر ، ص ٤ .
١٦- السخاوي ، التبر ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٣٠٠-٣٠١ ، ٣٠٤-٣٠٥، ٣٠٧، ٣١١ ، ٣١٣ .

ذيل السخاوي على كتاب " دول الإسلام " للذهبي بـ "*وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام*"، تناول فيه الفترة الممتدة من ٧٤٤-٨٩٨هـ / ١٣٤٣-١٤٩٢م ، سالكا فيه سبيل الاختصار ، والتوسع في الحوادث المتعلقة بـ ٨٩١-٨٩٨هـ / ١٤٨٦-١٤٩٢ معللا ذلك في بداية حديثه عن سنة ٨٩٥هـ / ١٤٨٩م بتعذر تبييض حوادث كتاب التبر المتعلقة بهذه السنة (١) ، حيث احتلت هذه الفترة نحو ثلث الكتاب .

وكتب السخاوي تاريخا على التراجم بعنوان "*الضوء اللامع لأهل القرن التاسع*" ، ورتبه على حروف المعجم ، وسار فيه على نهج شيخه ابن حجر في "الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة " باتخاذ وحدة القرن أساسا للتأليف ، فاستدرك ما فات شيخه من أعيان المئة الثامنة، وترجم فيه للعلماء والقضاة والصلحاء والرواة والأدباء والشعراء والخلفاء والملوك والأمراء والمباشرين والوزراء ، وشملت تراجمه المصريين والشاميين والحجازيين واليمنيين والهنود ، وبعض أفاضل أهل الذمة ، وبعض من عاصره (٢) . وقد اتهمه السيوطي باللحن والعري من كل علم ، وعدم إتقان علم الحديث ، والانكباب على كتابة التاريخ " فأفنى فيه عمره وأغرق فيه عمله وسلق فيه أعراض الناس ، وملأه بمساوئ الخلق وكل ما رموا به إن صدقا أو كذبا "(٣) ، بينما يشير ابن إياس إلى براعته في علم الحديث وتأليف تاريخ " فيه أشياء كثيرة من المساوئ في حق الناس " (٤) .

التزم السخاوي بذكر مصادره ، فأخذ من كتب من سبقه ، كابن كثير والمقريزي وابن حجر والعيني والتقي الفاسي مورخ مكة وحافظها (٥) ، وكتب ما شاهده أو رآه أو اشترك فيه (٦) ، وما أخذه من الأفراد المشاركين أو القريبين من الأحداث (٧) ، ومن المشايخ الذين سمع منهم (٨) ، ولكنه أهمل اسناد بعض الروايات ونسبها للمجهول كقوله" قال الثقاة ممن شاهده" (٩) " وقال غيره" (١٠) ، قال لي بعض الثقاة"(١١) "قال بعض أصحابنا "(١٢) "حسبما كتبه لي بعض الشاميين وأرخه بعضهم"(١٣)، " وهكذا رأيته بخط بعضهم " (١٤)

١- السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ١١١٢ .

٢- السخاوي ، الضوء ، ج١ ، ص ٤-٦ .

٣- السيوطي ، نظم العقيان ، ص ١٥٢ .

٤- ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٣٦٠ .

٥- السخاوي ، التبر ، ص ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٢٢ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٤٠ ، ١٤٧ ، وجيز ، ج١ ، ص ٧ ، ٣٤ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٢٨٦ ، ج٢ ، ٤٢٠ ، ٥٥٣ ، ٥٧٦ ، ٥٩٦ .

٦- السخاوي ، وجيز ، ج١ ، ص ٤ ، التبر ، ص ٦٢ ، ٩٨ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٦٥ .

٧- السخاوي ، التبر ، ص ٩٢ ، ١١٨ .

٨ - نفس المصدر ، ص ٢١ ، ١٢١، ١٨٦ ، ٢٠٦ .

٩- السخاوي ، وجيز ، ج٢ ، ص ٩٢٠ .

١٠- السخاوي ، وجيز ، ج١ ، ص ٣٤ .

١١- السخاوي ، التبر ، ص ١١٨ .

١٢- نفس المصدر ، ص ١٢٧ .

١٣- نفس المصدر ١٢٥ .

١٤- نفس المصدر ، ص ١٦٨ .

" أخبرني بعض الثقاة " (١) ، " إن بعض الثقاة من أصحابنا أخبرني " (٢) . ولم يكتف بالنقل بل رجح بعض الروايات ونقدها (٣) .

ولد القاضي عبد الباسط بن خليل بن شاهين الحنفي (رجب ٨٤٤- ٥ ربيع الآخر ٩٢٠هـ / ١٤٤٠-١٥١٤م) بمدينة ملطية إلى الشمال من الرها ، عندما كان والده نائبا عليها ، فتعلم اللغة التركية على يد والده (٤) ، ثم انتقل إلى حلب ودمشق فقرأ القرآن ، ثم قدم للقاهرة فقرأ العربية والمعاني والبيان والمنطق والحكمة والكلام ، ودرس على الكافيجي ، فحضر دروسه في علوم جمة كالتفسير والأصول والعربية . ثم قام برحلة إلى بلاد المغرب (٥) استمرت خمس سنوات من شوال سنة ٨٦٦هـ - شوال ٨٧١هـ / ١٤٦١-١٤٦٦م ، زار فيها طرابلس وتونس والجزائر وقسنطينة وتلمسان والأندلس وردس ، وحضر في بلاد المغرب دروسا في النحو والكلام والطب الذي برع فيه (٦) ، ثم درس علم التاريخ ، عندما عاد إلى القاهرة على السخاوي ، وأخذ الكثير منه (٧) .

تميز القاضي عبد الباسط بشخصية فريدة ، فقد نظم الشعر ، وألف كتبا نفيسة في الفقه الحنفي والطب والتاريخ (٨) ، نذكر منها كتاب "***نيل الأمل في الذيل على الدول***" أي دول الإسلام للذهبي ، وتناول الفترة الممتدة بين ٧٤٤ - ٨٩٦هـ / ١٣٤٣-١٤٩٠م ورتبه على السنين والشهور والأيام ، مع الاختصار والإيجاز الشديد وإثبات ما هو الأهم والمشهور (٩) ، ولم يذكر مصادره في هذا الكتاب ، في الوقت الذي التزم بذكر مصادره في كتابه "***الروض الباسم***"، الذي سار فيه على نهج ابن حجر حين ابتدأه بتاريخ ولادته في سنة ٨٤٤هـ/١٤٤٠م ، ورتب فيه التراجم في نهاية كل عام ، في حين ذكر الوفيات في أثناء الحوادث في كتاب "نيل الأمل " . ويعد كتاب النيل مصدرا مهما لدراسة الأزمة المالية والاقتصادية التي عانت منها السلطنة المملوكية زمن السلطان قايتباي وبالتحديد بين ٨٩٢-٨٩٦هـ / ١٤٨٦-١٤٩٠م .

ينحدر ابن إياس (٦ ربيع الآخر ٨٥٢ -٩٣٠هـ / ١٤٤٨-١٥٢٤م من أسرة مملوكية ، فقد خدم جده لأبيه الأمير أزدمر العمري الخازندار (٧٦٩هـ / ١٣٦٧م) لدى السلطانين الحسن والأشرف شعبان ، وتسلم نيابة طرابلس في سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م ثم نيابة حلب في سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م ، وترقى إلى أمير سلاح في سنة ٧٦٨هـ/

١- السخاوي ، التبر ، ص ٢٥٤ .

٢- نفس المصدر ، ص ٢٦٩ .

٣- نفس المصدر ، ص ٨٩ ، ٩٧ ، ١٢٩ ، ٢٢٠ .

٤- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٣٧٤ / محمد مصطفى ، المؤرخون ، ص ٦٨ .

٥- السخاوي ، الضوء ، ج٤ ، ص ٢٧ .

٦- كراتشوفسكي ، تاريخ الأدب ، ج١ ، ص ٤٤٦ / محمد عنان ، رواية مصرية ، ص ٩٨-١٠٥ .

٧- السخاوي ، الضوء ، ج٤ ، ص ٢٧ .

٨- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٣٧٤ .

٩- عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٢ أ - ب .

١٣٦٦م ، وعين في أتابكية دمشق ، إلا أنه توفي قبل أن يتمكن من استلام هذا المنصب . أما أحمد والد ابن إياس فقد أصبح من مشاهير أولاد الناس (١) ، وعاش إلى ١٣ شعبان ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م بعد أن انجب خمسة وعشرين ولدا لم يعش منهم إلا ثلاثة أولاد وبنت واحدة (٢) .

انصرف ابن إياس لكتابة تاريخ متكامل لمصر ، وأشهر كتبه تاريخه "*بدائع الزهور في وقائع الدهور*" ، وتناول فيه تاريخ مصر من مبدأ الزمان ، ثم الأسر التي حكمت مصر قبل الإسلام ، وفضائل مصر كما ردت في القرآن والحديث والشعر ، وأستعرض تاريخ مصر في العصر الإسلامي منذ الفتح حتى سنة ٩٢٨هـ / ١٥٢١م ، فجاء تاريخه في غاية الاختصار (٣) ، وبخاصة في الفترات السابقة لحكم السلطنة المملوكية ، إلا أنه مع اعتلاء المعز أيبك أخذ بتتبع تاريخ السلطنة سنة بسنة ، مع التوسع كلما اقترب من عصره ، إذ يتحول تاريخه إلى سجل يومي للتطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في العصر المملوكي .

وابن إياس آخر مؤرخي مصر المملوكية ، وهو يؤرخ فترة انحطاط السلطنة المملوكية وسقوطها على يد العثمانيين ودخولهم مصر (٤) ، حتى قيل أنه لولا هذا القسم من تاريخه لما كان لكتابه أي فائدة (٥) . واتبع في الفترة التي لم يشاهدها منهجا يقوم على أمانة ودقة النقل والتلخيص للروايات التي ثبتت أهميتها (٦) . وتباين أسلوبه في الكتابة ، فقد اتجه إلى الاختصار وكتب بلغة عامية وبأسلوب ضعيف ومفكك بسبب ضعف قدرته على التعبير ، وأصدر أحكاما سطحية على بعض الأمور (٧) ، كتفسير ملك تيمور للبلاد وقتله للعباد في سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م بأنه عقاب من الله للمسلمين بسبب ذنوبهم (٨) ، وجعل ازدياد الفسق والفساد من قبل العامة في سنة ٨٦٢هـ / ١٤٥٧م سببا لاشتعال الحرائق بالقاهرة وبولاق (٩) . لكنه بعد سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م يكتب سجلا يوميا دقيقا ومفصلا للأحداث (١٠) ، وبأسلوب مهذب ومصقول وعلى درجة عالية من قوة التعبير والابتعاد عن

١- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٧٣ ، ج٢ ، ص ٢٦٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ج٤ ، ص ٤٧ / Brinner , Ibn - Iyas , EI 2 , III , P 812-813 .

٢- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٤٧ .

٣- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ٣-٤ / محمد مصطفى ، المؤرخون ، ص ٥٢ / محمد عنان ، مصر الإسلامية ، ص ٢١١ / Brinner , Ibn - Iyas , EI2 , III , P 813 .

٤- محمد مصطفى ، المؤرخون ، ص ٥٣-٥٤ / Brinner , Ibn - Iyas , EI 2 , III , P 812 / Donald Little, An Introduction , P 92 .

٥- محمد عنان ، مصر الإسلامية ، ص ٢٠٩ .

٦- Margoliouth , Lectures , P 159 .

٧- Brinner , Ibn - Iyas , EI 2 , III , P 813 / محمد عنان ، مصر الإسلامية ، ص ٢١١ .

٨- ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص ٣٤٧ .

٩- نفس المصدر ، ج١ ، ق٢ ، ص ٧٠٩ .

١٠- كراتشوفسكي ، تاريخ الأدب ، ج٢ ، ص ٤٩١ .

الاقتباس واظهار شخصيته وتفرده في التفكير والكتابة ، ودقة الملاحظة والقدرة على رسم صورة دقيقة للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت تمر بها مصر عند الفتح العثماني ، واستعمال ألفاظ ومصطلحات دقيقة حديدة ، وانتقاد شديد للأوضاع القائمة ، وبخاصة سلوك العثمانيين عند الفتح ، وايراد الأشعار الشعبية (١) ، مع بعض التطرف في الحكم والنقد في بعض الأحيان (٢) .

ولابن إياس "*نشق الأزهار في عجائب الأقطار*" وهو مزيج من الجغرافيا والتاريخ ، عني فيه المؤلف بذكر آثار مصر التي قرأ عنها أو سمع بها أو رآها ، مع ملاحظات بسيطة حول سير بعض ملوكها وجغرافيتها ومدنها وقراها وأخبار النيل وأصناف المزروعات ، إضافة إلى مقدمة في علم الفلك والهيئة . وتميز هذا الكتاب بالاختصار (٣) والاعتماد على النقل دون تمحيص الروايات وتدقيقها ، فغلب عليه الطابع الخرافي والأسطوري (٤) .

إن اهتمام مورخي الحوليات بسرد الحقائق المجردة ، وذكر وتعداد أدق التفاصيل ، فتح المجال أمامهم لتقديم تاريخ اقتصادي وسياسي واجتماعي متكامل ، فاشتملت مؤلفاتهم على معلومات مهمة عن التطورات العملية التي أثرت في الحياة الزراعية ، كالعناصر المناخية والديموغرافية المؤثرة في الإنتاج الزراعي ، والأراضي الزراعية التابعة للدولة وللمقطعين ، والأوقاف والملكيات الخاصة ، وكيفية استغلال الأراضي ، وحجم الإنتاج ، واثر الأسعار على الإنتاج الزراعي ، ودور نقص الغلال في الحياة العامة للسكان ، ودور الفئات السكانية المختلفة في الإنتاج ، ومشاريع الري ، وأوضاع النيل ، والزيادة السنوية وأثرها في سلوك المستهلكين والاقتصاد المصري بشكل عام ، والتنظيم العملي للضرائب وطرق جمعها . هذا وأبدو بعض الملاحظات البسيطة حول الحياة الاجتماعية للفلاح المصري ، وصوروا حركات العربان كحركات نهب وإفساد ، وابتعدوا عن فهم الدوافع الاجتماعية - الاقتصادية التي دفعت الفلاحين للانتماء إلى هذه الحركات والمشاركة فيها ، وإلى الهجرة من الريف إلى المدينة بسبب المجاعات والطواعين وتدهور الأوضاع الاقتصادية وزيادة الأعباء الضريبية على الفلاح .

ونتج عن هذه السلسلة المتصلة من المؤرخين تدوين تاريخ معاصر للسلطنة المملوكية ، حيث أرخ كل منهم للفترة الزمنية التي عايشها ، معتمدا على ما شاهده أو شارك فيه أو سمعه ممن يثق به . كما كان لتعاصر بعضهم كالمقريزي ، وابن قاضي شهبة (٨٥١هـ / ١٤٤٧م) وابن حجر والعيني وابن تغري بردي ، دور في تدقيق الروايات حول الموضوع الواحد ، وملاحظة الاختلافات بينها .

وتجمع كتب التاريخ في هذه الفترة بين أسلوب الحوليات ومنهج كتب التراجم، إذ يكرر المؤرخون في البداية حوادث كل سنة مرتبة على الأشهر والأيام ، ثم يوردون قائمة بالوفيات على حروف الهجاء في نهاية كل عام .

١- محمد مصطفى ، المؤرخون ، ص ٥٤ .

٢- Margoliouth , Lectures , P 158-159 .

٣-ابن إياس ، نشق ، ص ٢ أ .

٤- كراتشوفسكي ، تاريخ الأدب ، ج٢ ، ص٤٩٢ / محمد مصطفى ، المؤرخون ، ص٥٣ / محمد عنان ، مصر الإسلامية ، ص٦٥ .

وتلعب ثقافة المؤرخ ومكانته الاجتماعية دوراً مهماً في قيمة المعلومات التي يوردها ، فقد جمع بعض مؤرخي هذه الفترة ما بين العلوم الدينية وعلوم اللغة والتاريخ ، كابن حجر والعيني والسخاوي . هذا إلى وجود مؤرخين جمعوا ما بين النبوغ العلمي والمراكز في الدولة أو الصلات برجالها (١) ، فعمل المقريزي محتسبا ومدرسا للحديث والتاريخ ، وعمل العيني ناظرا للأحباس وقاضيا لقضاة الحنفية ومحتسبا ومدرسا ببعض المدارس ، ونديماً للسلطان برسباي ، وكان ابن تغري بردي نديما لأكثر من سلطان ، كل ذلك ساعدهم على الوصول إلى المصادر المباشرة للأحداث .

وتشتمل الكتب الإدارية على معلومات مهمة ودقيقة حول الأوضاع الاقتصادية ، نظرا لأن موضوعها التعرف على الدواوين المختلفة وواجبات كل ديوان ومسؤولية كل موظف ، ومن هذه المؤلفات كتاب "*قوانين الدواوين*" لابن مماتي المتوفى في مدينة حلب سنة ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م . ومع أن هذا الكتاب يعود إلى الفترة الأيوبية ، إلا أن له أهمية كبرى لتطرقه للحياة الزراعية بمصر ، ولوراثة المماليك لكثير من النظم الإدارية والمالية التي كانت سائدة زمن الأيوبيين .

ينتسب ابن مماتي إلى أسرة قبطية هاجرت من مدينة أسيوط زمن الخليفة المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٨- ٤٨٧هـ /١٠٣٦-١٠٩٤م) واتخذت من مدينة القاهرة مستقرا لها ، فالتحق جده ووالده بدواوين الدولة ، في حين أسلمت عائلته في منتصف القرن ٦هـ / ١٢م (٢) . وتولى من الوظائف نظر ديوان الجيش ثم نظر الدواوين (الوزارة) في سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م (٣) .

أطلق على ابن مماتي بلبل المجلس بسبب حسن خطابته وقوة بيانه وبلاغة أشعاره ، وألف ثلاثين كتابا في التاريخ والأدب ، منها "*قوانين الدواوين*" الذي ذكر فيه أربعة آلاف قرية بأعمال مصر ، مع مساحة كل قرية وقانون ريها ومتحصلها من عين وغلة "، إلا أن الجزء المتداول عبارة عن مختصر لغير المؤلف (٤) ، مما جعل عبارته موجزة وغامضة في بعض الأحيان (٥) .

ويهدف ابن مماتي من تأليفه للكتاب التعبير عن ولاء الموظف للدولة والسلطان ، لأن الواجب على الموظف المخلص تدوين خبرته وتقديمها للأجيال القادمة ، وكذلك تسهيل عمل الكتاب ، بتوضيح التفاصيل الضرورية للقيام بالمهمات والواجبات المنوطة بهم (٦)، ومرجعا للسلطان العزيز بن عثمان بن صلاح الدين الأيوبي (٥٨٩-٥٩٠هـ / ١١٩٣م) ، للتعرف على دواوين مصر وأوضاعها الإدارية والاقتصادية (٧)، فتناول المؤلف أهمية الكتابة ، وفضائل

١- روزنتال ، علم التاريخ ، ص ٥٩-٦٠ .

٢- عزيز سوريال عطية ، مقدمة كتاب قوانين الدواوين ، ص ٦ ، ٢٦ ، ٢٧ .

٣- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢١٠ / ابن كثير ، البداية ، ج٣ ، ص٦٤ / المقريزي ، المقفى ، ج٢ ، ص ٨٤ .

٤- المقريزي ، المقفى ، ج٢ ، ص ٨٤-٨٥ .

٥- عزيز سوريال عطية ، مقدمة قوانين الدواوين ، ص ٧ .

٦- Hilmi Ahmed , Zengid , (*Historians of the Middle East*) , P 96 .

٧- المقريزي ، المقفى ، ج٢ ، ص ٨٥ .

مصر ، وأوضاع النيل ، وجغرافية مصر ، وأقسامها الإدارية ، والقرى التابعة لكل قسم ، وأصناف الأراضي وفقا لدرجة الخصوبة وتصنيف عمال الخراج ، والخلجان والجسور ، وموعد فتح كل ترعة لاستكمال ري أراضي مصر مع انتهاء الزيادة ، وأصناف المزروعات ، والتقويم القبطي ، والطرق الهندسية لحساب مساحة الأراضي الزراعية ، وموظفي الإدارة المالية وواجباتهم ، وسرقة الفلاحين عن طريق الغش بالمساحة (١) . واعتمد على المسح الشامل الذي أجراه السلطان صلاح الدين الأيوبي ٥٨٥هـ / ١١٨٩م ، وعلى خبرته وخبرة أسرته التي عملت في الدواوين والوظائف الإدارية والمالية ما يقرب من مئة وأربعين سنة (٢) .

عاش ابن شاهين (٨١٣هـ – جمادى الاولى ٨٧٣ هـ / ١٤١٠-١٤٦٨م) الخمس عشرة سنة الاولى من حياته في مدينة القدس ، ثم انتقل إلى القاهرة ، فحفظ القرآن وتفقه في الفقه الحنفي ، وحضر دروس الحافظ ابن حجر، ودرس الأدب ، ونظم الشعر واهتم بالتاريخ وبرع فيه . وتمكن بعد وفاة والده من الانضمام إلى مماليك السلطان الأشرف برسباي بعد أن كان في فرقة أولاد الناس (٣) ، وترقى بعد ذلك حتى أصبح من كبار الأمراء العسكريين ، مما أتاح له الفرصة لتولي عدد من المناصب الإدارية المهمة ، كنيابة الإسكندرية ، ونظر البهار المتعلق بديوان الذخيرة في سنة ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م ، والحصول على إمرة طبلخاناة بعد أن أصبح عديلا للسلطان برسباي ، ونظر دار الضرب ، والوزارة في سنة ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م ، وإمرة الحاج في سنة ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م ، ونيابة الكرك في سنة ٨٤١هـ / ١٤٣٧م ، وأتابكية صفد في سنة ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م ، ونيابة ملطية في ذي الحجة من السنة نفسها، ومكث في هذه النيابة أربع سنوات ، ثم أتابكية حلب ، ونيابة القدس إلى أن حصل على تقدمة ألف مع زيادة إمرة عشرة في دمشق ، ثم خفضت رتبته إلى إمرة عشرة بطرابلس ، وولي إمرة الحاج الدمشقي . وتمكن بعد استعادة نفوذه من حضور مجلس السلطانين أينال وخشقدم ، إلى أن حقد عليه السلطان خشقدم فنفاه إلى مكة ، فخرج منها إلى العراق ، ثم عاد إلى حلب وطرابلس حيث توفي بها سنة ٨٧٣هـ /١٤٦٨ م (٤) .

صنف ابن شاهين ثلاثين كتابا في الفقه والتفسير والتعبير والتاريخ والإنشاء (٥) ، منها كتاب " ***كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك*** " في أربعين بابا ، ثم اختصره في كتابه " ***زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك*** " في اثني عشر بابا (٦) ، فجاء كتقويم حكومي لأراضي دولة المماليك ، ومرجعا لموظفي الدولة المهتمين بالمسائل السياسية ، ولكنه احتوى على كثير من الخرافات بهدف إمتاع القارئ (٧) .

١- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٥٤-٣٧٠ .

٢- Hilmi Ahmed , Zengid , P 95-96 .

٣- السخاوي ، الضوء ، ج٣ ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

٤- السخاوي، الضوء ، ج٣ ، ص ١٩٥-١٩٦ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص٢٠٧ أ-ب/ ابن إياس،بدائع ، ج٢ ،ص١٥٣، ١٥٧ ، ١٦٩ ، ١٧٢، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧، ٢١٥ ، ٤٤٨، ج٤ ،ص٣٧٤/ Gaulmier , Ibn - Shahin , EI 2 , V III , P 935 .

٥- السخاوي ، الضوء ، ج٣ ، ص ١٩٧ .

٦- ابن شاهين ، زبدة ، ص ٤-٧ .

٧- كراتشوفسكي ، تاريخ الأدب ، ج٢ ، ص ٤٧٣ .

يظهر هذا الكتاب خبرة المؤلف في الأعمال والوظائف العسكرية والإدارية ، إضافة لما شاهده أو تحقق منه أو نقله أو أخذه من شيوخه ومن الكتب السابقة ، ومن الثقات " الذين يركن إليهم غاية الإركـان " (١) . إلا أن فحص مصادره يوضح أنه لم يجهد نفسه كثيرا في تدوين تاريخ فترته (٢) ، فمثلا عندما يتحدث عن البيمارستان المنصوري يكتفي بالقول " ولم أعلم ما هو عليه الآن " (٣) ، و" قيل أن بمصر ألف خطبة " (٤) "وحكي أنه وفد في بعض أيام السلاطين " (٥) " وكان في ذلك الزمان " " حتى أن بعض الاستادارية قبض عليه وحوسب" (٦) "وبأقليم الغربية خمسمئة وأربعين قرية " (٧) ، مع أنها لا تزيد عن أربعمئة وإحدى وسبعين قرية (٨) . كما أكثر من الإسناد للمجهول مثل "حكى" أو" روى الثقاة" (٩) ، و " رأيت من له خبرة بديوان الإنشاء" (١٠) " وحكى شخص من المطعنين في السن " (١١) " وروي أن جماعة من العلماء أثبتوا " (١٢) " وأجمع أهل العلم " (١٣) . إلاأنه أورد بعض الوثائق (١٤) " وأشار في بعض الأحيان إلى التغيرات والتطورات في زمانه (١٥) .

خضع كاتب السر في العصر المملوكي إلى نظام تعليمي صارم ، بهدف الإحاطة بعلوم العصر ومعارفه اللغوية والفقهية والتاريخية والجغرافية والإدارية ، وقد دون هؤلاء الكتاب معارفهم وخبراتهم العملية ضمن موسوعات لم يعرفها التاريخ الإسلامي من قبل ، فاشتملت على معلومات اقتصادية مهمة حول الحياة الزراعية والسكان والضرائب بشتى أصنافها ، فشكلت مرجعا لكتاب السر فيما بعد .

ومن أوائل هؤلاء الكتاب النويري القوصي الأصل (٢١ ذو القعدة ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م - ٢١ رمضان ٧٣٢هـ/١٣٣١م) مؤلف كتاب " ***نهاية الأرب في فنون الأدب*** " في ثلاثين مجلدا (١٦) . وتولى النويري عددا من المناصب الإدارية بعد أن تقرب من السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وصار نديما له، فعمل كاتبا في ديوان الإنشاء ،

١- ابن شاهين ، زبدة ، ص ٤ .
٢- كراتشوفسكي ، تاريخ الأدب ، ج٢ ، ص ٤٧٤ .
٣- ابن شاهين ، زبدة ، ص ٢٩ .
٤- نفس المصدر ، ص ٣١ .
٥- نفس المصدر ، ص ١٠٣ .
٦- نفس المصدر ، ص ١٠٦ .
٧- نفس المصدر ، ص ٣٥ .
٨- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٤ .
٩- ابن شاهين ، زبدة ، ص ٢٨ ، ٣٠ ، ٤٠ ، ١٠٧ .
١٠- نفس المصدر ، ص ٩٩ .
١١- نفس المصدر ، ص ٣٦ .
١٢- نفس المصدر ، ص ٢٣ .
١٣- نفس المصدر ، ص ٢٥ .
١٤- نفس المصدر ، ص٨٩ .
١٥- نفس المصدر ، ص ٩٨ .
١٦- ابن كثير ، البداية ، ج١٤ ، ص ١٧٩ / المقريزي ، المقفى ، ج١ ، ص ٥٢١ / ابن تغري بردي ، المنهل ، ج١ ، ص السيوطي ، حسن ، ج١ ، ص ٢٦٦ / Kratschowsky , Al - Nuwairi , EI 2 , VIII , P 968 .

وتـولى نظـر المدرسـتين الناصرية والمنصورية (١)، ثـم نظر ديوان الجيش بطـرابلس ، ونظـر الديوان بالدقهلية والمرتاحيـة ، ثم غضب عليه السلطان وأمر بمصادرته وضربه بالمقارع بعد محاولته الايقـاع بينه وبين وكيله (٢) .

امتدت فترة تأليف هذا الكتاب عشرين عاما ، ولخص فيه المؤلف مجموعة المعارف والمهارات التي يحتاج إليها كاتب السـر ، وقسـمه إلى خمسـة فنـون ، الأول في الأرض والسـماء ، والثـاني في الإنسـان ، والثالـث في الحيوان ، والرابع في الحياة النباتية ، والخامس في التاريخ ، مع ملاحظة عدم التوازن بين الأقسام المختلفة . شكل القسـم التاريخي ما يقـرب من نصف الكتـاب ، ورتبه على أسـاس الأسـر الحاكمـة ، وابتـدأ القسـم المتعلق بتـاريخ مصر بحكم الطولونيين ، وانتهى بفترة الناصر محمد بن قلاوون (٣) .

يهمـل النويـري ذكر مصـادره في أغلب الأحيـان (٤) ، إلا أنـه أفاد من بعض المصـادر المفقـودة ، وسـجل تاريخ الفـترة التي عاصرها مـن السـلطنة المملوكيـة الاولى ، واسـتخدم عـددا مـن الوثـائق الـتي حصـل عليهـا بحكـم وظائفـه التي جعلته على صلة مباشرة بالدواوين (٥) . وساعده عمله بديوان الجيش على التعرف على كثير من جوانب الحيـاة الزراعيـة ،كتطور النظام الإقطاعي ، وأصناف الأراضي ، وكمية الخراج المقررة على كـل صنـف ، وطـرق الجباية، والنظـام الزراعي ، والإدارة المالية ، والأوضاع الاجتماعية للفلاح المصري (٦) .

ينتسـب ابـن فضـل الله العمـري (٣شـوال ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م - ٩ ذو الحجة ٧٤٩هــ / ١٣٤٨م) إلى الخليفـة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان والده رئيسا لديوان الإنشاء في دمشـق ثـم في القـاهرة . وقـد أقبـل على التعليـم منـذ صغـره ، فدرس الفقـه والعلـوم اللغويـة والعـروض والأدب والبيان والأشعـار ، وفـن الإنشـاء الـذي " كان فيه آية " وبرع في التاريخ وبخاصـة الفـترة الـتي عاصرهـا ، وعـرف المسـالك والممـالك ، وعلـم الإسـطرلاب ، وتراجـم أهل عصـره . وقد أهلتـه هذه المعـارف مـع مكانـة والـده وجـودة حافظته وحسن مذاكرته وحسن قريحتـه في النثـر والشعـر ، لتـولي عـدد مـن المناصب ، فعمـل في البداية قاضيا ، ثم كاتبا للسر بدمشق حتى سـار مـع والـده إلى مصر في سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٧ م ، فصـار يقرأ البريد للسلطان النـاصر محمـد بن قلاوون ، الذي عينه في سنـة ٧٣٣هـ /١٣٣٢م كاتبـا للسـر (٧) . إلا أن مزاجـه الحـاد وثقتـه الزائـدة بنفسـه ، وسرعـة تكويـن العـداوات مـع

١- المقريزي ، المقفى ، ج١ ، ص ٥٢١ .

٢- الإدفوي ، الطالع ، ص ٩٦-٩٧ / المقريزي ، المقفى ، ج١ ، ص ٥٢٢ / كراتشوفسكي ، تـاريخ الأدب ، ج١ ، ص ٤٠٨ / Khuwaiter , Baibars , P 180-181

٣- كراتشوفسكي ، تاريخ الأدب ، ج١ ، ص ٤٠٨ - ٤٠٩ / Kratschowsky , Al- nuwairi , EI 2 , III , P 968 Donald P . Little , An Introduction , P 24 .

٤- Ashtor , some Unpublished , P 16 .

٥- Kratschowsky , Al Nuwairi , EI2, III, P 968.

٦- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ١٩١-٢٠٥ .

٧- الصفدي ، الوافي بالوفيـات ، ج٨ ، ص ٢٥٢-٢٥٤ / ابن كثير ، البداية ، ج١٤ ، ص ٢٤٧ / ابـن فضـل الله العمـري ، القبـائل العربية، دوروتيا كرافولسكي ، ص١٥٦ / المقريزي ، المقفى ، ج١ ، ص ٧٢٣-٧٣٣ / السخاوي ، وجيز ، ج١ ، ص ٤٢ / السيوطي، حسن المحاضرة ، ج١ ، ص ٢٧٣ / ابن العماد ، شذرات ، ج٨ ، ص ٢٧٤ / نقولا زيادة ، قمم ، ص ١٣٧ / محمد كرد علي ، كنوز ، ص ٣٥٨-٣٥٩ / محمد عنان ، مصر الإسلامية ، ص ١٥٨-١٥٩ / Rice , Miniature , (BSOAS) ,VOL XIII , Part 4 , 1951 , P 856-857 / Salibi , Ibn Fadl - Allah Al - Umari , EI2 , III , P 758 .

معارفه ، قادته في النهاية إلى الاصطدام مع السلطان الذي لم يتوان عن سجنه بعد وفاة والده في سنة ٧٣٨هـ / ١٢٣٧م ، ثم مصادرة أمواله وأملاكه ، حتى اضطره لاستدانة خمسين ألف درهم ، ولم يطلق سراحه إلا في الثالث من ربيع الأول سنة ٧٤٠هـ /١٣٣٩م ، ثم أعاده كاتبا للسر في دمشق ، فاستمر بهذا المنصب حتى سنة ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م حين عزل وبقي بعيدا عن الوظائف الحكومية حتى وفاته (١) .

صنف ابن فضل الله العمري أحد عشر كتابا (٢) ، ذكر المقريزي ثمانية منها (٣) ، ومن أشهرها تاريخه أو موسوعته "*مسالك الأبصار في ممالك الأمصار*" ، تطرق فيها إلى عدد من العلوم والمعارف كالأدب والتاريخ ، والجغرافية والفقه والسياسة والإدارة (٥) ، وخصص قسما للتراجم حتى عصره ، واتبعه بتاريخ على السنين حتى سنة ٧٤٤هـ / ١٣٤٣م (٦) ، فكان بمثابة موسوعة أفاد منها الأدباء ، وليس الكتاب فقط (٧) ، كما كان هذا الكتاب تجسيدا لوجهة نظره المنبثقة عن مبدأ عدم القدرة على اعطاء وصف حقيقي ودقيق لأي بلد دون النظر إلى امكانياته وقدراته البشرية الفاعلة في النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية (٨) .

ويلاحظ أن هذا الكتاب جاء نتيجة فترة طويلة من البحث والجمع والتأليف ، مع وجود تصور واضح في ذهن المؤلف لخطة الكتاب التي حددها في البداية بالتعرض للعالم الإسلامي ، والمناطق المجاورة التي ترتبط معه بعلاقات مباشرة ، والحديث عن أقاليم السلطنة المملوكية ، وقاعدة كل مملكة ، وأوضاع أهلها جملة لا تفصيلا (٩) .

وحدد ابن فضل الله منهجه في اختيار مصادره ، فأخذ من الكتب المصنفة " ما لا بد منه كتقسيم الأقاليم وما فيها من أقوال القدماء " الذين يرى أنهم من " أعيان الثقات ، من ذوي التدقيق في النظر والتحقيق للرواية"(١٠)، ومن مؤلفات الكتاب الذين خدموا في ديوان الإنشاء في الدولة الفاطمية والأيوبية والمملوكية ، ومن مصادر شفوية كموظفي البلاط ، والسفراء القادمين للسلطان ، والرحالة والتجار ، والحجاج والمهاجرين الذين مروا أو استقروا في القاهرة (١١) ، وكذلك الاعتماد على ما رآه ، والأخذ ممن يعرف المملكة التي يريد تدوين أخبارها " مما رآه

١- الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج٨ ، ٢٥٤ / المقريزي ، المقفى ، ج١ ، ص ٧٣٣-٧٣٥ / Rice , Miniature ,(BSOAS), VOL XIII , Part 4 , 1951, P856 \ Salibi , Ibn Fadl Allah Al - Umari , III , EI2 , P 758 .

٢- كراتشوفسكي ، تاريخ الأدب ، ج١ ، ص ٤١٠ .

٣- المقريزي ، المقفى ، ج١ ، ص ٧٣٣ .

٥- Salibi , Ibn Fadl Allah Al - Umari , EI2 , III , P 758 .

٦- دوروتيا كرافولسكي ، مقدمة القبائل العربية ، ص ٧ .

٧- كراتشوفسكي ، تاريخ الأدب ، ج١ ، ص ٤١٣ .

٨- دوروتيا كرافولسكي ، مقدمة القبائل العربية ، ص ٧ .

٩- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أحمد باشا ، ص ٢- ٤ .

١٠- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أحمد باشا ، ص ٢ .

١١- Droubi, Samir , A Critical Edition , P 48-52 .

بعينه أو سمعه من الثقات بأذنه " (١) ، كاعتماده على بلبان الجنوي (٧٣٩هـ /١٣٣٨م) ، أحد الأسرى الايطاليين حول أخبار مملكة إيطاليا (٢) ، وكأخذه في القسم المتعلق بالقبائل العربية من المهمندار الحمداني *(٣) ، كما استخدم بعض الوثائق الرسمية (٤) . ويقوم منهجه على التحقيق والتدقيق والاكثار من السؤال حول المنطقة التي يريد تسجيل أخبارها، ثم اثبات ما تتفق عليه الأقوال ، وإهمال الاختلافات والتناقض (٥) .

وينفرد ابن فضل الله العمري في هذا الكتاب بأسلوب متماسك ومختصر ، دون أن يفقد النظرة الشمولية للإطار الذي حدده في بداية كتابه ، فتمكن من إعطاء صورة واضحة لجغرافية مصر ، مع اهتمام خاص بذكر القبائل العربية ، وانخراط بعضها في الحياة الزراعية، واعطاء صورة جيدة عن البدو بقوله "لم تزل الملوك تهش لوفادتهم، وتهب لهم جزائل الأموال ، وتقطعهم حل البلاد ، هذا إلى التنويه بأقدارهم والتعويل على أخبارهم ورفعهم في المجالس"(٦) .

ولابن فضل الله العمري كتاب "*التعريف بالمصطلح الشريف*" وهو من " أنفس الكتب المصنفة في هذا الباب (قوانين ديوان الإنشاء) عقدا ، وأعدلها طريقا ، وأعذبها وردا ، وقد أحاط من المحاسن بجوانبها ، وأعقمت الأفكار عن مثله ، ففاز من الصنعة بأحكم مذاهبها " (٧) . وهو يصف نظم السلطنة المملوكية وولاياتها المختلفة والمراسلات بين ديوان الإنشاء في القاهرة والمراكز والدواوين الأخرى ، والمراسلات مع شيوخ القبائل ، ومع أهل الذمة ، ومع الحكام الأجانب ، والتقسيمات الإدارية في عصره (٨) . ويحتوي على معلومات تتعلق بالنواحي الإدارية ، والتنظيمات المختلفة في الأقطار التابعة للسلطنة المملوكية ، ويوضح العلاقات المتبادلة بين المراكز الرئيسية بالقاهرة والأجهزة الإدارية بالمناطق الأخرى . وقد شكلت الوثائق الرسمية لديوان الإنشاء ، وخبرة عائلته ، وخبرته الشخصية في العمل بهذا الديوان المصدر الأساسي لمعلوماته ، وتميز بأسلوب فني بديع ، جعله دستورا للكتاب فيما بعد ، ومن أكثر المصادر ثقة (٩) .

ينتسب القلقشندي (٧٥٦-١٠ جمادى الآخرة ٨٢١هـ / ١٣٥٥- ١٤١٨م) إلى قبيلة بدر بن فزارة التي كانت تقطن في بلدة قلقشندة ، بالقرب من قليوب ، ودرس علوم اللغة بشكل أساسي فاتقن النحو والأدب والشعر

١- ابن فضل الله ، مسالك ، أحمد باشا ، ص ٢-٣ .

٢- كراتشوفسكي ، تاريخ الأدب ، ج١ ، ص ٤١٤ .

* المهمندار :- هو أدرى بمعرفة القبائل لأن وظيفته العناية باستقبال وفود القبائل العربية إلى الأبواب السلطانية ، وإنزالها بدار الضيافة ، ولذلك كان على علم كامل بأحوال هذه القبائل (القلقشندي ، قلائد ، ص ٥٤) . والحمداني هو مهمندار السلطان بيبرس (القلقشندي ، قلائد ، ص ٧٤-٧٥) .

٣ – ابن فضل الله العمري ، القبائل العربية ، دوروتيا كرافولسكي ، ص ٧٠ .

٤ –كراتشوفسكي ، تاريخ الأدب ، ج١ ، ص ٤١٤ .

٥ – ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أحمد باشا ، ص ٢ .

٦ – ابن فضل الله العمري ، القبائل العربية ، دوروتيا كرافولسكي ، ص ٦٩-٧٠ .

٧- القلقشندي ، صبح ، ج١ ، ص ٣٢ .

٨- Salibi , Ibn - Fadl Allah Al - Umari , EI2 , III , P 758 .

٩- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ٥٣٣ .

والكتابة ، إضافة للفقه الشافعي . ابتدأ حياته العملية في خدمة نائب الإسكندرية ، ثم انتقل إلى القاهرة واستقر بها ، فعمل في ديوان الأحباس وبتوقيع الدرج دون معلوم ، ثم قاضيا شافعيا ، إلى أن التحق بالعمل في ديوان الإنشاء في سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م (١) .

تناولت مؤلفات القلقشندي الفقه والأدب وكتابة الإنشاء والأنساب التي تحتاج إلى معرفة جيدة بالتاريخ ، ومن أبرز مؤلفاته موسوعته الضخمة *"صبح الأعشى في صناعة الإنشاء"* ، التي انتهى من تأليفها في سنة ٨١٤هـ /١٤١١م ، ثم أضاف ما استجد حتى وفاته ، ليجعل منها مرجعا أساسيا لمجموعة المعارف والعلوم الواجب على كتاب الإنشاء الإحاطة بها ، "وما ينبغي أن يسلكه (كاتب السر) من الجواد (الطريق الأعظم) وأصول الصنعة وقوانين الكتابة " (٢) . وقسمه إلى عشر مقالات وخاتمة (٣) ، تناول في مجموعها الإدارة والدواوين وجغرافية مصر والشام ، والدول التي لها علاقة بمصر ، مع اهتمام خاص بالنظام السياسي والاداري والقبائل والأوزان والمكاييل والنقود والأسعار في المناطق التابعة للسلطنة المملوكية ، ورصد التغيرات التي أصابت النظم والموسسات المملوكية حتى زمانه .

وقد أثنى عدد من المؤرخين على هذا الكتاب فأشار المقريزي وابن تغري بردي إلى أنه قد " جمع فيه جمعا مفيدا " (٤) ، ووصفه طاش كبري زاده بعدم مغادرته لأي " صغيرة أو كبيرة فيما يتعلق بصناعة الإنشاء " ، مع كثرة الاستطراد لزعمه بضرورة إحاطة كاتب السر بجميع المعارف والأخبار (٥) ، ويراه بوزورث Bosworth قمة مؤلفات القلقشندي ، وذروة الموسوعات الإدارية في الفترة المملوكية ، مع سموه على كل المؤلفات التي تناولت أدب الكاتب في التراث الإسلامي (٦) .

أفاد القلقشندي من عمله في الديوان ، ومن خبرته ومشاهدته ، وأورد الكثير من الوثائق الرسمية (٧) ، ورجع إلى مجموعة من المصادر السابقة مثل كتابي "مسالك الأبصار" و " التعريف بالمصطلح الشريف " لابن فضل الله العمري عند حديثه عن النظم الإدارية والدواوين والإقطاعات التابعة لكل ديوان أو مقطع ، مع بيان التغيرات حتى

١- المقريزي ، در العقود ، ج١ ، ص ٧٥-٧٦ ، المقفى ، ج١ ، ص ٥١٢-٥١٣ ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٧٣-٤٧٤ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٣٣٠-٣٣١ / العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥-٨٢٤هـ ، الطنطاوي ،ص ٣٣٩ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص ٢٨٨ ، المنهل ، ج١ ، ص ٣٥٢ / السخاوي ، وجيز ، ج٢ ، ص ٤٥٢ ، الضوء ، ج٢ ، ص ٨ / طاش كبري زاده ، مفتاح السعادة ، ج١ ، ص ٢٠٣ -٢٠٤ / Bosworth , Kalkashandi , EI2 , IV , P 509

٢- القلقشندي ، صبح ، ج١ ، ص٣٤ .

٣- القلقشندي ، صبح ، ج١ ، ص٣٦ .

٤- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ،ص ٤٧٣ / النجوم ، ج١٣ ، ص ٢٨٨ ، المنهل ، ج١ ، ص ٣٥٢ .

٥-طاش كبري زاده ، مفتاح السعادة ، ج١ ، ص ٨٤ ، ٢٠٤ .

٦- Bosworth , Kalkashandi , EI 2 , IV , P 510 .

٧- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص٣٠١-٣٠٢ ، ٣١٠ ، ٣٣٩ / محمد حسين شمس الدين ، مقدمة صبح الأعشى ، ج١ ، ص١٢ ، ١٥ .

فترته (١) حيث بلغ عدد اقتباساته أربعمئة وسبعة عشر اقتباسا ، منها ما كان صفحة كاملة أو بضع صفحات أو بعض الأسطر ، مع تغيير أسلوب بعض الفقرات أو الأسطر ، وتكرار نفس الاقتباس في بعض الأحيان (٢) . وأخذ في القسم المتعلق بالقبائل العربية من الحمداني (٣) ، ومن ابن فضل الله العمري (٤) وابن خلدون(٥) . واعتمد في القسم المتعلق بجغرافية مصر ومعاملاتها وزراعتها وخلجانها والضرائب والمكوس المقررة ، على اثنين وثلاثين مصدرا ، من أبرزها كتاب " قوانين الدواوين " لابن مماتي (٦) ، وكتابي ابن فضل الله العمري (٧) ، إضافة إلى بعض المعلومات من أهالي المنطقة المراد تسجيل أخبارها (٨) ، ومن المباشرين العاملين في بعض المناطق (٩) ، ومن الرحالة الذين رأوا المنطقة (١٠) . كما أورد اسنادا جمعيا لبعض الروايات (١١) .

لم يكتف القلقشندي بالنقل ، بل كان يبدي رأيه (١٢) ، إلا أنه تعصب على اليعقوبي وهاجمه دون مبرر، باعتبار كلامه خرقا للإجماع " وأتى من سخيف القول بما تنفر عنه القلوب وتمجه" (١٣) .

وكان كتاب "*القصد الرفيع المنشا الحاوي لصناعة الإنشا* " لكاتب السر الخالدي ، الذي يبدو أنه توفي في العقد السابع من القرن ٩هـ / ١٥م بعد سنة ٨٥٩هـ / ١٤٥٤م آخر هذه الكتب الموسوعية . وقد قسمه المولف إلى ثلاث عشرة مقالة ، تناول فيها مجموعة المعارف والمهارات الفنية والثقافية الواجب على كاتب السر الإحاطة بها ، وبذلك جاء مشابها لكتاب " التعريف بالمصطلح الشريف " لابن فضل الله العمري وكتاب "صبح الأعشى في صناعة الإنشا " للقلقشندي ، مع التركيز على إبراز التغيرات التي طرأت على النظم الإدارية والمالية للسلطنة المملوكية في فترته . وتتألف مصادره من مؤلفات من سبقه كابن فضل الله العمري والقلقشندي ، وما شاهده وتوصل إليه أثناء عمله بديوان الإنشاء .

وظهر في العصر المملوكي بعض المؤلفات التي تعالج الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، منها كتاب "*إغاثة*

١- القلقشندي ، صبح ، ج٤ ، ص ٤٠-٤١ .

٢- Al - Droubi Samir , A Critical Edition , P 76 .

٣- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٤ ، ٣٦٧ ، ٣٧٧ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١٣ .

٤- نفس المصدر ، ص ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ ، ٣٩٠ ، ٣٨٢ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ ، ٤٠٠ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٧ ، ٤١٣ .

٥- نفس المصدر ، ص ٣٦٠ ، ٣٦٥ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٣

٦- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٣٠ -٥٣١ ، ٣٤٦ .

٧- نفس المصدر ، ص٤٤ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٥٠٦ ، ٥١١ ، ٥١٢-٥١٣.

٨- نفس المصدر ، ص ٣١٤ ، ٣٥٥ .

٩- نفس المصدر ، ص ٣٣٩ .

١٠- نفس المصدر ، ص ٣٤٦ .

١١- نفس المصدر ، ص ٣١٥ ، ٣٥٠-٣٥١ .

١٢- نفس المصدر ، ج١ ، ص ٣٦٩-٣٧٠ ، ج٣ ، ص ٣٥٠ ، ٤٥٧ .

١٣- نفس المصدر ، ج٣ ، ص ٣١٠ .

الأمة بكشف الغمة " للمقريزي ، الذي تناول فيه تاريخ المجاعات التي ضربت مصر منذ عهد الفراعنة وحتى سنة ٨٠٦-٨٠٨ هـ / ١٤٠٣-١٤٠٤م ، معتمدا في مصادره على مؤرخي القبط وعلى المؤلفات السابقة ، إضافة إلى المشاهدة والمعايشة لأحداث مجاعة ٨٠٦-٨٠٨هـ التي تركز حديثه حولها . كما حاول إبراز الصلة بين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، موضحا أن تدهور الأوضاع الاقتصادية ناجم عن عدم زيادة النيل ، وفساد السلطة السياسية، وارتفاع أجور الأراضي ، وفساد النقود ، وازدياد الضرائب ، وحلول المجاعة والغلاء في سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م ، كل ذلك أدى إلى تدمير البنية البشرية لمصر ، بعد موت الفلاحين أوتشردهم وهجرتهم إلى المناطق الحضرية والأقاليم الأخرى كبلاد الشام والحجاز (١) .

ويكشف كتاب "*التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار* " للأسدي المتوفى عام ٨٥٥هـ / ١٤٥١م عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السيئة التي مر بها الشعب المصري في منتصف القرن ٩هـ / ١٥م . وحلل الأسباب التي أدت إلى ذلك ، مع اهتمام بتراجع الإنتاج الزراعي ، وبالاضطهاد والظلم الواقع على الفلاحين نتيجة لوطأة النظام الضريبي واستغلال الولاة والكشاف لوظائفهم بزيادة الأعباء المالية على الفلاحين ، وعدم اهتمام السلطنة بإصلاح ذلك ، وغياب الرقابة الإدارية على الموظفين ، وكذلك التلاعب بأراضي بيت المال وأراضي الأوقاف ، واتجاه الفلاحين للمشاركة في حركات العربان، والقيام بالنهب والسلب كرد فعل للظلم الواقع عليهم .

ويبدو أن المؤلف كان محتسبا إذ يبدي فهما عميقا للقضايا المتعلقة بوظيفة المحتسب ،كالغش في النقود الذهبية والفضية وأثر ذلك على الفلاحين ، وأساليب احتكار الغلال ومحاولات المدولبين والطحانين والسماسرة وأصحاب الغلال زيادة الأسعار (٢) .

وهدف الكتاب إلى إصلاح الأوضاع الاقتصادية لذا جاء مليئا بالاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث(٣) ، والأمثلة التاريخية في كيفية علاج الأمم السابقة لأزماتها الاقتصادية ، والاعتماد على المشاهدة والملاحظة للأحداث التي أصابت مصر في فترته (٤) ، وعلى بعض الوثائق الديوانية كسجلات الروك الناصري في الحديث عن الجيش والإقطاعات (٥) ، إضافة إلى اقتباسات ضئيلة من كتب التراجم (٦) .

تتضمن كتب الرحلات والجغرافيا الكثير من المعلومات الاقتصادية ، ومن هذه المصادر كتاب "*الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر* " للطبيب والفيلسوف والرحالة عبد اللطيف البغدادي ٥٥٧- ٦٢٩هـ /١١٦٢-١٢٣١م . وقد برع في شتى علوم عصره ، فدرس الفقه والأدب والنحو والفلسفة ككتب

١- المقريزي ، إغاثة الأمة ، ص ١-٨٦ .

٢- الأسدي ، التيسير ، ص ١٢٢ ، ١٣٨ - ٣٩ .

٣- الأسدي ، التيسير ، ص ٥ .

٤- نفس المصدر ، ص ٨٥ .

٥- نفس المصدر ، ص ٧٥ .

٦- نفس المصدر ، ص ٥٦ .

ارسطاطاليس وابن سينا ، والكيمياء ، والطب الذي اشتغل به في أثناء إقامته بدمشق (١) . وقام البغدادي بعدد من الرحلات ، ابتدأت سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م وانتهت بعودته إلى بغداد والاستقرار بها بعد عام ٦٢٦هـ / ١٣٢٨م ، فزار الموصل التي درس بها لمدة سنة ، ثم دمشق ، فمصر ، فالقدس ، فمصر التي استقر بها هذه المرة من ٥٨٩-٦٠١هـ / ١١٩٣-١٢٠٤م ، ثم دمشق فحلب فأرزن من بلاد الروم ، وارزنجان وملطية وحلب ، ثم بغداد التي توفي فيها (٢) .

وقد قسم كتاب الإفادة إلى مقالتين ، تناول في الاولى خواص مصر وجغرافيتها ومصادر المياه والأحوال المناخية ، وتناول في المقالة الثانية أصناف النباتات والفواكه والمحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية وأصناف الأطعمة وزيادة النيل ، وبين آثار مجاعة ٥٩٦-٥٩٧هـ/ ١١٩٩-١٢٠٠م من الهجرة من الريف إلى المدينة والأقاليم المجاورة ، وارتفاع عدد الوفيات (٣) . واعتمد في الأساس على ما شاهده أو سمعه ممن عاين الأحداث ، ومن الفلاحين أنفسهم (٤) ، كما اعتمد على ثقافته الواسعة ومعرفته وأبحاثه في علم النباتات ، فلذلك تميز كتابه " بدقة البحث والوصف ، وصدق التعليل والترفع عن تناول الخرافات والسفاسف ، وكذلك روح الدرس والتحليل والمقارنة " (٥) .

كان جد المؤرخ والجغرافي ابن دقماق (تعني بالتركية المطرقة) محمد بن أيدمر بن دقماق صارم الدين (٤رمضان ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م - ذو الحجة ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م) أحد أمراء السلطان الناصر بن محمد بن قلاوون، فنزيا حفيده بزي الجند ، ودرس الفقه واللغة العربية وآدابها والتاريخ ، وتمكن من تسلم إمرة دمياط لفترة قصيرة ، وكتب تواريخ مهمة على الطبقات الحنفية أو الحروف أو السنين أو التراجم ، أو الأسر الحاكمة ، بلغت في مجموعها مئتي سفر ، وتميزت بكثرة الفائدة وبخاصة للفترة التي عاصرها ، بالرغم من عامية عبارتها ، مع تفرده بفهم أحوال الدولة التركية ، وأحوال الأتراك ووقائعهم ، والابتعاد عن الوقيعة أومهاجمة المترجم لهم ، والاكتفاء بذكر ما اشتهر عنهم (٦) . ولم يصل من كتابه الجغرافي ***"الانتصار لواسطة عقد الأمصار"*** سوى الجزأين الرابع والخامس ، مع أنه

١- ابن أبي أصيبعة ، عيون الإنباء ، ص ٦٨٣-٦٨٤ / السيوطي ، حسن ، ج١ ، ص ٢٥٩ / كراتشوفسكي ، تاريخ الأدب ، ج١ ، ص ٣٤٤-٣٤٥ / علي إبراهيم حسن ، استخدام المصادر ، ص ١٠١-١٠٢ .

٢- ابن أبي أصيبعة ، عيون الإنباء ، ص ٦٨٥-٦٩٠ / Stern , Abdul - Latif Al - Baghdadi , EI2 , I , P74 .

٣- البغدادي ، الإفادة ، ص ٦٠-١٨٨ .

٤- البغدادي ، الإفادة ، ص ٦٠ ، ٨٤ ، ٩٢ / ابن أبي أصيبعة ، عيون الإنباء ، ص ٦٨٩.

٥- محمد عنان ، مصر الإسلامية ، ص ١٣٣ .

٦- حول حياة ابن دقماق راجع :- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد٩ ،ج١ ، ص ١٥٢ / المقريزي ، در العقود ، ج١ ، ص ١١٧-٩، ابن حجر ، إنباء ، ج٦ ، ص ١٦-١٧ / ابن تغري بردي ، المنهل ، ج١ ، ص ١٣٩-١٤٠ / السخاوي ، الضوء ، ج١،٥، ، وجيز ، ج١ ، ص ٣٩٠ / السيوطي ، حسن ، ج١ ، ص ٢٦٦ / ابن إياس ، بدائع ،ج ١ ، ق٢ ، ص ٧٧٦ / ابن العماد ، ج٩ ، ص ١٢٠-١٢١ / مجهول ، مجموع الفنون ، ص ٥٨ / Pedersen , Ibn - Dukmak , EI2 ,III , P 756 ، تاريخ الأدب ، ج١ ، ص ٤٧١ .

يصل إلى عشرة مجلدات (١) ، وقد تناول فيهما جغرافية مصر في النصف الثاني من القرن ٨هـ / ١٤م ، حيث اشتملا على تعداد قرى مصر ومدنها في الوجهين القبلي والبحري ، مع تعليقات تختلف طولا وقصرا حسب ما توافر له من المعلومات ، وعلى مساحة الأراضي الزراعية التابعة لكل قرية ، وهل هي مقطعة أو موقوفة أو رزقة ، إضافة إلى انفراده بتتبع تطور زراعة قصب السكر وتراجعها في كل منطقة (٢) ، وبتعداد القرى التي تعتمد على زراعة الرز في منطقة الواحات (٣) . وقد اعتمد على بعض الكتب المصنفة ككتب ابن حوقل والإدريسي والقضاعي (٤) وعلى سجلات ديوان الجيش .

يعود ابن الجيعان يحيى بن شاكر (٨١٤ -٢٥ جمادى الاولى٨٨٥هـ/ ١٤١١- ١٤٨٠م) إلى عائلة دمياطية قبطية ، عملت في ديوان الجيش مدة تزيد على قرن من تاريخ السلطنة المملوكية ، فكان جده لأبيه (ت ٨٣١هـ / ١٤٢٧م) متحدثا في ديوان الجيش ، ووالده رئيسا لديوان الجيش حتى وفاته سنة ٨٨٢هـ / ١٤٧٧م ، وتسلم هو مكان والده وأطلق عليه لقب ذي الرياستين ، بينما عرف بمستوفي ديوان الجيش (٥) .

نشأ ابن الجيعان بمدينة القاهرة ، فحفظ القرآن ، ودرس الفقه واللغة العربية والحساب والجبر والمنطق ، وتلقى تدريبا عمليا من أقربائه للعمل في ديوان الجيش ، وتميز بقوة الحفظ ، وسرعة الإدراك ، والفصاحة وحسن العبارة وطيب النغمة ، وجودة الخط مع سرعة الكتابة " حتى عول عليه السلاطين في العمل في ديوان الجيش حيث لم يوازيه أحد في استحضاره وضبطه وإتقان ترتيب بلاده وأسماء قراه " (٦) . وقد جاء كتابه "***التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية***" ثمرة لخبرته وخبرة عائلته بالعمل في ديوان الجيش ، ووثيقة مهمة عن سجلات ديوان الجيش في عام ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م (٧) ، وقد وضح مساحة الأراضي الزراعية التابعة لكل قرية وأصناف الأراضي من حيث تبعيتها للدواوين أو الإقطاعات أو الأوقاف أو الرزق أو الملكيات الخاصة ، مع رصد التراجع والتدمير الذي أصاب بعض القرى والأراضي الزراعية في فترته .

ومن الجغرافيين البارزين في القرن ١٠هـ /١٦م الحسن بن محمد بن الوزان الزناتي المعروف بليون الإفريقي ، ولد بمدينة غرناطة في سنة ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م وقد انتقلت عائلته إلى مدينة فاس بعد سقوط غرناطة بيد الاسبان عام ٨٩٨هـ /١٤٩٢ (٨) ، فتلقى تعليمه بجامع القرويين ، حيث درس العلوم الدينية واللغوية والفلسفة

١- مجهول ، مجموع الفنون ، ص ٤٠ .

٢- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٤ ، ص ٤١-٤٦ .

٣- نفس المصدر ، ج٥ ، ص ١٢ .

٤- كراتشوفسكي ، تاريخ الأدب ، ج١ ، ٤٧٢ .

٥- السخاوي ، الضوء ، ج١٠ ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، وجيز ، ج٢ ، ص ٩١١ / السيوطي ، نظم العقيان ، ص ١١٨ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٣٠٦ أ / ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص ١١٩ ، ج٣ ، ص ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٦٨ .

٦- السخاوي ، الضوء ، ج١٠ ، ص ٢٢٦- ٢٢٨ .

٧- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ١-٢ .

٨-محمد عنان ، تراجم إسلامية ، ص ٣٥٤-٣٥٥ /كراتشوفسكي ، تاريخ الأدب ، ج١ ، ص ٤٥٠-٤٥١ / , Leo Africanus / EI2 , V , P 723 / مصطفى مسعد ، الحسن ، مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم ،ع١ ، ١٩٧٠ ، ص٤٤.

والفلك والحساب (١) . وابتدأ حياته العملية بالعمل ككاتب في مارستان فاس (٢) ، إلى أن أصبح ضمن حاشية السلطان محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي ، فشارك هذا السلطان بعدد من الحملات لصد البرتغاليين الذين استولوا على بعض المناطق الساحلية لبلاد المغرب ، وفي الحملات التي أرسلها السلطان لاخضاع القبائل الثائرة ، وفي جباية الضرائب من بعض الولايات ، مما مكنه من الاطلاع على الأحوال الداخلية لبلاد المغرب (٣) .

قام الوزان بعدد من الرحلات ، ابتدأها بمرافقة عمه في احدى السفارات التي أرسلها سلطان فاس إلى بلاد السودان (تمبكتو) ، ثم مرافقة القوافل للتجارة والقيام بأعمال التوثيق والمحاسبة ، وانجاز بعض المهمات الدبلوماسية التي أوكله سلطان فاس بها . ولذلك فقد زار معظم المناطق الداخلية لافريقيا ، ومصر التي زارها ثلاث مرات ، والحجاز في سنة ٩٢١هـ /١٥١٥م ، وبلاد فارس وأرمينية ، وكان أحد هذه الرحلات السفارة الكبرى التي ابتدأها عام ٩٢٢هـ / ١٥١٦م لمقابلة السلطان العثماني سليم بالأستانة ، لكنه لم يتمكن من مقابلته إلا بعد عودته من فتح مصر عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م (٤) . بينما لم يتمكن الوزان من العودة إلى فاس ، إذ اختطفه قراصنة البندقية بعد ركوبه لأحد السفن المبحرة من ميناء الإسكندرية إلى المغرب ، فقادوه إلى روما وقدموه كهدية للبابا ليو العاشر بدلا من بيعه في أسواق النخاسة ، فابتدأ حياة جديدة حيث أظهر اعتناقه للديانة المسيحية ، وتعلم الإيطالية والقشتالية واللاتينية والعبرية ، وعمل بتدريس اللغة العربية لبعض الرهبان والعلماء المهتمين بدراسة التراث العربي ، ويبدو أنه قد أقام في روما إلى أن تمكن من العودة إلى تونس وإلى الإسلام سنة وفاته في عام ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م (٥) .

كان ثمرة رحلات الوزان كتابه الشهير " ***وصف إفريقيا*** "، ويحتوي على تسع وحدات ، ابتدأها بمعلومات عامة عن إفريقية ، ثم مراكش ، ثم مملكة فاس التي تعد المعلومات عنها من أكثرها سعة ودقة وثقة ، ثم مملكة تلمسان والجزائر ثم مملكة ليبيا ثم مملكة تونس ثم مصر ، وأخيرا حيوانات إفريقيا ونباتاتها ومعادنها . مع إعطاء صورة مبدئية عن الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية لهذه الممالك في الربع الأول القرن ١٠هـ/ ١٦م (٦) . وقد تحدث في القسم الثامن الذي خصصه لرحلته بمصر عن مقياس النيل وزيادته وأثر ذلك في الحياة الاقتصادية ، وعن شوارع القاهرة وأرباضها الرئيسية ، وعدد العائلات التي تقطن في بعض الأرباض ، ثم تطرق إلى بعض المدن والقرى الرئيسية بالوجه البحري ، والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لسكانها ، وعادات وملابس سكان القاهرة وضواحيها، مع اهتمام خاص بزراعة قصب السكر في منطقتي ديروط وفوة ، وزراعة الكتان بالمحلة،

١- محمد عنان ، الرحالة الأندلسي ، مجلة العربي ، ع٤٣ ، ١٩٦٢ ، ص٧٤ / مصطفى مسعد ، الحسن بن الوزان ، مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم ، ع١ ، ١٩٧٠ ، ص٤٤ .

٢- ليون الإفريقي ، وصف ، ج١ ، ص ٢٢٩ .

٣- نفس المصدر ، ج١ ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ٢١٣ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ج٢ ، ص ٢٤ ، ٣٩ .

٤- محمد عنان ، الرحالة الأندلسي ، مجلة العربي ، ع٤٣ ، ١٩٦٢ ، ص٧٤-٧٥ / مصطفى مسعد ، الحسن بن الوزان ، مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم ، ع١ ، ١٩٧٠ ، ص٤٨ .

٥- محمد حجي ، مقدمة وصف إفريقيا ، ص ١٢/ محمد عنان ، تراجم إسلامية ، ص٣٦٠-٣٦٢ ، الحسن بن الوزان ، مجلة العربي ، ع٤٣ ، ١٩٦٢ ، ص٧٣-٧٤ / Leo - Africanus , EI2 , V , P 723 / جمال قاسم ، الحسن ، مجلة العربي ، ع١٦٣ ، ١٩٧٢ ، ص ٩٦-٩٩ / أمين معلوف ، ليون الإفريقي ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٨٠ ، ٢٧٦ ، ٢٨٤ ، ٢٩٨-٢٩٩ ، ٣١١ ، ٣٢٠ .

٦- محمد عنان ، تراجم إسلامية ، ص ٣٦٤ ، ٣٧٠ / Leo - Africanus , EI2 , V V , P 724 / جمال قاسم ، الحسن ، مجلة العربي ، ع ١٦٣ ، ١٩٧٢ ، ص ٩٧-٩٨ .

وضخامة القدرة الإنتاجية لبلاد الصعيد (١) .

يعتمد ليون الإفريقي على ذاكرته في الإفادة من الكتب الجغرافية السابقة والتواريخ الإسلامية ، إذ يشير إلى أنه لم يقرأ أي كتاب في التاريخ الإسلامي منذ عشر سنوات من تأليف هذا الكتاب ، ولذلك جاء كتابه خاليا من أي اقتباس حرفي (٢) . كما اعتمد على التجار الذين التقى بهم في أثناء رحلاته (٣) ، وعلى أهالي المناطق التي قام بزيارتها(٤) ، وعلى الملاحظات اليومية التي دونها في أثناء رحلاته ، وعلى ما شاهده إذ يشير إلى رؤيته للقرى والمدن المصرية التي تحدث عنها " ودخل معظمها ومر من قرب بعضها الآخر ... واستفهم تماما من سكانها أو الملاحين الذين رافقوه من القاهرة حتى أسوان والذين عاد معهم إلى قنا" (٥) ، وقال في موقع آخر " ذاك ما رأيته أنا حنا ليون الإفريقي من حسن جدير بالتذكار ، كل إفريقيا التي جبتها من طرف لآخر ، وقد سجلت كل ما رأيته ، وأما الذي لم أره فقد استقيت معلومات موثوقة كاملة عنها من أشخاص جديرين بالثقة " (٦) .

وتتناول كتب الفلاحة أصناف الأراضي وخصوبتها ، ووسائل تحسين التربة باستخدام الأزبال والمياه ، وأنواع المياه الصالحة للزراعة ، وكيفية استخراجها من باطن الأرض ، والأوبئة والأمراض التي تصيب النباتات والحيوانات ، وكيفية علاجها ، ووسائل إكثار النباتات والأشجار ، وطرق جني المحاصيل كالحبوب والخضروات والفواكه والورود والأبصال ، ومواعيد الزراعة ، إلا أن المأخذ الأساسي على هذه المصادر عدم بحثها للأوضاع الاجتماعية للفلاحين . ومن هذه المصادر كتاب "***مفتاح الراحة لأهل الفلاحة***" لمؤلف مجهول يعده الدكتور محمد عيسى صالحية من أصل شامي (٧) ، ويحدد فترة وفاته بالربع الأول من القرن ٨هـ / ١٤م (٨) . وكتاب "***جامع فوائد الملاحة***" للغزي ، وقد اختصره النابلسي ١١٤٣هـ / ١٧٣٠م في كتاب "***علم الملاحة في علم الفلاحة***" (٩) .

وتحتوي كتب الفقه على معلومات تتناول الأسس الفقهية للنظام الضريبي الشرعي ، وأراضي الإقطاع والأوقاف ، والتعامل الزراعي . ومن هذه المصادر " ***تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام*** " لابن جماعه المتوفى عام ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م ، "***والبناية في شرح الهداية***" للعيني المتوفى عام ٨٥٥هـ / ١٤٥١م ، و "***السراج الوهاج***" للغمراوي .

١- ليون الإفرقي ، وصف ، ص ٥٦٣-٦١٧ / أمين معلوف ، ليون الإفريقي ، ص٣٧ .

٢- ليون الإفريقي ، وصف ، ج١ ، ص ٣٥-٣٦ ، ٣٨ ، ٥٧ ، ٧١ .

٣- نفس المصدر ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٦٠ .

٤- نفس المصدر ، ج١ ، ص ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ج٢ ، ٢٨ ، ١٢٨ .

٥- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٦١٧ .

٦- نفس المصدر ، ص ٦٦٢ .

٧- محمد عيسى صالحيه ، مقدمة كتاب مفتاح الراحة ، ص ١٤ .

٨- نفس المصدر ، ص ١٠ .

٩- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١١ .

ويمكن الإشارة إلى كتاب " *هز القحوف بشرح قصيدة أبو شادوف* " للشربيني كمصدر مهم للتعرف على الحياة الإجتماعية للفلاح المصري ، وإن كان متأخرا عن فترتنا ، لأن الحياة في الريف شديدة المحافظة . ويتضح من الكتاب ولادة المؤلف بقرية شربين على بعد فرسخ من مدينة دمياط ، وأن والده كان شيخا لقريته ، وانتقاله للقاهرة في طلب العلم ، وتوجهه للحج في عام ١٠٧٤هـ / ١٦٦٣م (١) ، وأن الذي شجعه على كتابة هذا الكتاب هو شيخه أحمد بن علي السندوبي المتوفى عام ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٨م ، وبقائه على قيد الحياة حتى عام ١٠٩٨ هـ / ١٦٨٦م (٢) .

ولا يأخذ الشربيني من المصادر السابقة سوى بعض الحكم والأشعار والاقتباسات الهامشية بالنسبة لموضوع الكتاب (٣) ، ولكنه اعتمد بشكل أساسي على جمع الحكايات والقصص المتداولة بين سكان القرى والمدن ، ليضيف شيئا حول إهمال الفلاح المصري ، والمواجهة بين المدينة والقرية (٤) . إلا أن كتابه يمتلئ بالخرافات والأكاذيب والافتراءات حول سكان الأرياف (٥) ، مما جعله يحوي وجهة نظر خاطئة ومزيفة عن التراث الشعبي (٦) . ولكن الكتاب أقدم مصدر للحياة الاجتماعية للفلاح المصري في العصور الإسلامية ، فهو يشير في ثنايا كتابه إلى أطعمة الفلاحين وألبستهم وسلوكهم المتأثر بالبيئة والتنشئة ، وإلى الصراعات العائلية والقبلية ، والجهل المطبق الذي كان يعيش فيه الفلاحون ، والظلم الواقع عليهم من قبل السلطة الحاكمة .

وتتباين وجهات النظر في الهدف من الكتاب ، فيرى عبد الرحيم عبد الرحيم بأنه صوت للإعلان عن الظلم والاستبداد الذي يعاني منه الفلاح المصري ، ولذلك أصبح مصدر إلهام وشغب وضغط على السلطات ، بعد أن صار عدد كبير من سكان القاهرة يترنم بهذه القصيدة (٧) . بينما يرى عبد الجليل حسن أنه ليس للدفاع عن الفلاح ، ولايعكس رغبة في التغيير ، وإنما جاء لتوضيح العلاقة بين الفلاحين والحضريين ، والقرية والمدينة ، وسخرية الحضريين من أهالي القرى واستعلائهم عليهم (٨) . أما بير Baer فقد رأى أن الهدف ذاتي يعود للمؤلف نفسه ، وهو الدفاع عن نفسه تجاه احتقار أهل المدن وعلمائها لأهل الأرياف ، والتركيز على أن ما يتمتع به أهل القرى من سوء الأخلاق والطباع والرذائل ليست فيه أو في عائلته (٨) . وأعتقد أن للمؤلف عدد من الأهداف أولها التسلية ، فقد أشار في المقدمة " قد يلتذ السامع بكلام فيه الضحك والخلاعة ، ولا يميل إلى قول فيه البلاغة والبراعة ، لأن النفوس متشوقة إلى شيء يسليها من الهموم ويزيل عنها وارد الغموم "(٩) . وثانيها توضيح أثر الجهل والتنشئة الاجتماعية في السلوك

١- الشربيني ، هز القحوف ، ص ١٦٠ / Baer , Fellah , P 4 .

٢- Baer , Fellah , P 4 .

٣- Ibid , P 22 .

٤- Ibid , P 24-25 .

٥- Abdul Raheem Abdul Raheem , Hazz Al - Quhuf , (JESHO) , VOL XVII, 1975 , P 256 .

٦- عبد الجليل حسن ، صوت الصامتين ، ص ١٣٥ .

٧- Abdul Raheem Abdul Raheem , Hazz Al - Quhuf , (JESHO) , VOL XVIII , 1975 , P 251 .

٨- عبد الجليل حسن ، صوت الصامتين ، ص ١٣٦ .

٨- Baer , Fellah , P 36-37 .

٩- الشربيني ، هز القحوف ، ص ١٥ .

الخاطيء للفلاحين ، حيث كان هو نفسه ضحية لهذه التنشئة حين قام أهل قريته بالوشاية به لدى حاكم المنطقة بعد وفاة والده ، وبالتالي مصادرة جميع أمواله وافتقاره وتحوله إلى عامل بالأجرة على آلة الري المعروفة بالشادوف بعد أن كان في وضع اقتصادي جيد في حياة والده . وثالثها تنبيه السلطة الحاكمة إلى ضرورة اصلاح الأوضاع الاقتصادية للمناطق الريفية التي تدهورت بسبب سلوك الولاة والجباة تجاه الفلاحين ، من خلال التأكيد على فضيلة العدل وأثرها في حياة الأمم السابقة ، والإشارة إلى أن الظلم يقود إلى التدمير وتهاوي الدول ، ثم استعراض المأكولات السيئة التي يتناولها الفلاحون نتيجة للفقر ، مما يودي إلى اضعاف أجسامهم وعجزهم عن القيام بالنشاطات الزراعية ، وأخيرا عدم وجود مؤلفات تبحث في أوضاع المناطق الريفية ، ويعززه تشجيع السندوبي للشربيني على مثل هذا الكتاب ، وقيام المؤلف بتأليف كتاب حول الأعراس الريفية وقاموس بألفاظ أهالي بلاد الأرياف .

ومن الدراسات الحديثة المهمة كتاب "***الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ***" لمحمد محمد أمين ، فهو دراسة وثائقية لتطور نظام الأوقاف في العصر المملوكي (١) ، ومحاولة لتوضيح أثر نظام الأوقاف في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية في هذا العصر .

ويحاول إبراهيم طرخان في كتابه "***النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى***" توضيح تطور النظام الإقطاعي في العالم الإسلامي منذ سيطرة البويهيين على بغداد وحتى نهاية السلطنة المملوكية ، إلا أن كتابه عبارة عن بحث في النظام الإقطاعي في مصر زمن السلطنة المملوكية ، إذ يندر أن يتطرق إلى مناطق العالم الإسلامي الأخرى . فتناول روك أراضي مصر ونسبة توزيعها بين الدواوين والأمراء والأجناد ، والأسباب التي تودي إلى تغيير الإقطاعات وانتقالها من مقطع لآخر ، وتوزع إقطاع الأمير ضمن عدد من الأعمال ، وإدارة الإقطاعات ، وأرباب الإقطاعات ، ودخول عناصر غريبة وتمكنها من الحصول على الإقطاعات كالحرفيين والصناع ، والواجبات المالية والخدمات العامة والزراعية المترتبة على المقطع ، وأخيرا المجتمع الإقطاعي (٢) . وتؤكد دراسة الكتاب بأن سيطرة المفاهيم والنظم الإقطاعية تودي إلى افراز أنماط اقتصادية - اجتماعية خاصة بها ، يكون أصحاب الإقطاعات على رأس الهرم الاجتماعي- الاقتصادي ، في حين تتدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للفلاح إلى مرحلة القنانة أو ما يشبهها .

ويتناول Popper في الجزء الأول من كتابه ***"Egypt and Syria Under the Circassion Sultans"*** جغرافية السلطنة المملوكية ومدنها الرئيسية ، وطرق ومراكز البريد بمصر والشام ، والجهاز الإداري والسياسي . ويتناول في الجزء الثاني سكان السلطنة المملوكية ، والأسماء العربية والتركية ، والألقاب المستعملة في الدولة ، ثم التقاويم القبطية والسريانية والهجرية ، والأعياد الرسمية للمسلمين ، والأوزان والمقاييس، والنقود وأسعار الصرف ، وأسعار المواد الغذائية ، ومصادر الدخل كالإقطاعات والجوامك ، ودخل الموظفين -

---

١- محمد أمين ، الأوقاف ، ص ٢ .

٢- إبراهيم طرخان ، النظم الإقطاعية ، ص ٢١-٣٤٥ .

الإداريين والعسكريين والعمال والفلاحين وأصحاب المهن وعمال المياومة (١) . ولكتابه أهمية خاصة في فهم التقسيمات الإدارية ، والنظام الإقطاعي ، ومستوى دخل الفئات الاجتماعية المختلفة .

ويستعرض Dols في كتابه " **Black Death** " العوامل التي تساعد على انتشار الطواعين ، والوسائل الروحية والعملية المتبعة لعلاجه ، والآثار الديموغرافية والاقتصادية والاجتماعية للطواعين التي ضربت مصر في العصر المملوكي ، مع اهتمام بالغ بتحليل آثار طواعين الأعوام ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م و ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م و ٨٦٤هـ / ١٤٥٩ .

ولآشتور كتاب " ***التاريخ الاقتصادي والإجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى*** " ، تناول في فصل "الإقطاع المملوكي"منه التطورات الاقتصادية والاجتماعية للعالم الإسلامي في العصر المملوكي (٢) . وله مقالة " ***Leaventine Sugar Industry in the Middle Ages*** " تحدث في الجزء الأول منها عن صناعة قصب السكر في مصر وبلاد الشام والعراق وايران والأندلس ، وتتبع فيها مناطق زراعة قصب السكر بمصر ، وتراجع زراعته وصناعته حتى نهاية السلطنة المملوكية (٣) . أما في مقالته "***The Wheat Supply of Mamkluke Kingdom***" فقد تناول استيراد مصر وسوريا للقمح من ايطاليا وقبرص أثناء المجاعات ، واستمرار مصر كمخزن ومصدر رئيسي للقمح في الأوقات العادية ، والتأكيد على أن انخفاض عدد السكان بمصر هو السبب الرئيسي لانخفاض أسعار المواد الغذائية في القرن ٩هـ /١٥م ، معتمدا على بعض الوثائق الايطالية ، والكتب المملوكية (٤) ، إلا أن اعتماده على تفسير التطورات الاقتصادية بالتراجع الديموغرافي قاده إلى تعميمات غير دقيقة أحيانا ، كقوله أن مصر شهدت انخفاضا في المعدل العام لأسعار الغلال مع ان المعلومات المتوفرة تثبت عكس ذلك .

ونشر عبد اللطيف إبراهيم مجموعة من المقالات ، تناول فيها تحليل عدد من وثائق الأوقاف في العصر المملوكي ، منها " ***نصان جديدان من وثيقة الأمير صرغتمش*** " و " ***وثيقة وقف مسرور بن عبد الله الشبلي الجمدار*** " و "***وثيقة أمير آخور قراقجا الحسني***" .

وناقش **Lapidus** في مقالته " *The Grain Economy of Mamluke Egypt* " تدخل السلطنة واحتكارها للمواد الإستراتيجية التي تنتجها الأراضي الزراعية بمصر ، وعلى رأسها الغلال وقصب السكر ، ثم نقل الغلال إلى العاصمة ، والفئات التي تلعب الدور الأساسي في تسويقها ، وأثر انخفاض أو ازدياد كمية الإنتاج على أسواق القاهره وسلوك الأفراد (٥) .

---

١ - Popper , Egypt and Syria , 1 , P 11-115 , 2 , P 1-122

٢ - آشتور ، التاريخ الإقتصادي ، ص ٣٦٩-٤٣٨ .

٣ - Ashtor , Leaventine Sugar , (IOS) , VOL VII , 1977 , P 226-280 .

٤ - Ashtor , The Wheat , (AAS) , VOL 18 , Part 1 , 1984 , P 283-295 .

٥ - Lapidus , The Grain , (JESHO) , VOL XII , 1969 , P 1-14

جغرافية مصر

١-حدود مصر

أ- الوجه البحري

ب-الوجه القبلي

٢- المناخ ومصادر المياه

٣- السكان

أ-الفئات السكانية

ب - العوامل المؤثرة في النمو السكاني

جغرافية مصر

حدود مصر

اختلف الجغرافيون في تحديد الموقع الذي تبدأ عنده الحدود الشمالية لمصر بين رفح (١) والعريش (٢) والفرما (٣) ، فبعضهم قال إنها تبدأ بين رفح وأمج (العريش) على الساحل (٤) ، وأكد آخرون وهم الأكثرية أنها تبدأ عند شجرتين بين مدينتي رفح والعريش ، حيث المنطقة المعروفة باسم الزعقة (٥) ، وقد وصفها النابلسي في القرن الثاني عشر الهجري بأنها عبارة عن واد في برية مقفرة غير مسكونة ، لا يوجد فيها سوى بئر مالحة وقبة بيضاء لأحد أولياء البدو (٦) .

فحدود مصر الشمالية تبدأ إلى الغرب من مدينة رفح ، ولا يفصلها عن البحر سوى كثبان رملية ، ثم تسير بمحاذاة سواحل البحر الرومي (المتوسط) من غرب رفح إلى العريش ، ثم إلى الفرما والطينة ودمياط ورشيد فالإسكندرية (٧) . الواقعة ضمن صحراء رملية لا تنتج سوى بعض الثمار في البساتين الممتدة على طول القناة التي تزودها بالمياه (٨) .

وتأتي بعد مدينة الإسكندريه أرض كورتي لوبية ومراقية (٩) ثم أرض أنطابلس وهي برقه (١٠) ، ثم العقبة الكبرى الفاصلة بين مصر وإفريقية ، وبهذا فإن برقة قسمان : ما كان من شرق العقبة الكبرى يتبع مصر ، وما كان من غربها يتبع إفريقية (١١) .

ويبدأ الحد الغربي لمصر من العقبة الكبرى ، ومع الاتجاه نحو الجنوب وبخاصة نحو القبلة ، تبدأ المنطقة الصحراوية . وهذه المنطقة يتبع الجزء الأيمن منها إفريقية، ويعرف بصحراء ليبيا أو نوميديا (١٢) ، أما الجزء الأيسر،

١- أبو الفداء ، تقويم ، ص ١٠٣ / القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٣٤٩ .

٢- ابن خلدون ، مقدمه ، ص ٦١ / ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٥ ، ص ٥٢ .

٣- الحميري ، الروض ، ص ٤٣٩ .

٤- ابن شاهين ، زبدة ، ص ٢٥ .

٥- ياقوت، معجم، ج٥، ص١٣٧/ ابن مماتي، قوانين ، ص٤٣٩/ القلقشندي ،صبح ، ج٣ ، ص ٣٤٧ / ابن ظهيرة ، الفضائل ، ص١٠.

٦- النابلسي ، الحقيقة والمجاز ، ص ١٧٠ .

٧- أبو الفداء ، تقويم ، ص ١٠٣ / ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٥ ، ص ٤٢/ القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٣٤٧-٣٤٨ / الخالدي ، المقصد ، ص ٨٣ أ .

٨- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٥٦٣ .

٩- الحميري ، الروض ، ص٥١٤ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص١٨٣ .

١٠- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٨٣ .

١١- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٤٨ .

١٢- ليون الإفريقي ، وصف ، ص٥٦٣ .

فيعد من أرض مصر . ويصل الحد الغربي بعد ذلك إلى الفيوم ثم إلى الواحات الأربع وأخيرا إلى حدود النوبة (١) . ولذلك فإن هذا الحد هو ما يعرف الآن بالصحراء الغربية التي تشكل ثلاثة أرباع المساحة الكلية لأرض مصر (٢) ، وتتميز بالكثبان الرملية المتحركة ، والجفاف الشديد ، إذ لا يوجد فيها أي واد ، أو مجرى مائي باستثناء منطقة الواحات (٣) .

ويبدأ الحد الجنوبي من صحراء الحبشة ، ويمتد شرقا حتى مدينة أسوان (٤) التي تعد الثغر الفاصل بين بلاد النوبة وبلاد مصر (٥) ؛ وإلى الجنوب من مدينة أسوان المنطقة المعروفة بالجنادل (الشلالات) ، وقبل الحجارة ، وتبعد عن المدينة نحو ثلاثة أميال ، وتتميز هذه الجنادل بانخفاضها من جهة السودان ، وانحدارها الشديد من جانب الحدود المصرية (٦) .

وقد دقق المقريزي ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م في هذه المنطقة الحدودية ، وأشار إلى أن آخر بلاد الإسلام يقع في الجزيرة المعروفة ببلاق التي تعد محطة تجارية على بعد أربعة أميال من أسوان ، ولا تستطيع القوارب الوصول إليها إلا بالحيلة ، ويسكنها جماعة من المسلمين لا يعرفون شيئا من اللغة العربية ، ويتجرون مع بلاد النوبة . وأقرب مدن بلاد النوبة تبعد عن بلاق ميلا واحدا فقط وتعرف بالقصر (٧) ، ثم تسير هذه الحدود باتجاه الشرق حتى تصل إلى سواحل بحر القلزم عند عيذاب ، على بعد ١٥ مرحلة من أسوان (٨) .

واختلف في ميناء عيذاب : وهل هو جزء من بلاد البجاة أو الحبشة أو مصر ، والأرجح أنه من بلاد مصر، إذ يعد محطة لتجار اليمن والحجاج المصريين المتوجهين إلى مكة ، فيسافر منه إلى جدة المقابلة له على الساحل الشرقي لبحر القلزم (٩) .

ومن شمال عيذاب تسير حدود مصر الشرقية مع سواحل بحر القلزم (الأحمر) حتى القصير ، ميناء قوص ، ثم مدينة القلزم على الفرع الغربي من البحر نفسه ، وقبالتها أيلة على الفرع الشرقي ، فبذلك يدخل فرعا بحر

١- ياقوت ، معجم ، ج ٥ ، ص ١٣٨- ١٣٩ / المقريزي ، خطط ، ج ١، ص ١٦ / الخالدي ، المقصد ، ص ٨٣أ / ابن ظهيره ، نزهة الناظر ، ص ٤ أ .

٢- Shirley , The Egyptian , P 67.

٣- سيد مرغي ، الزراعة ، ص ٣ .

٤- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص٣٤٨ / الخالدي ، المقصد ، ص٣٨ أ -ب / ابن شاهين ، زبدة ، ص ٢٥ .

٥- ابن إياس ، بدائع ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٠ .

٦-ابن حوقل ، صورة ، ص ١٣٧ / الإدريسي ، نزهة ، ج ١ ، ص ٣٩ / ياقوت ، معجم ، ج ٢ ، ص ١٦٦ / ابن دقماق، الانتصار، ج ٥ ، ص ٣٥ .

٧- المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ١٩٠ ، ١٩١ .

٨- ياقوت ، معجم ، ج ٥ ، ص ١٢١ / ابن شاهين ، زبدة ، ص ٢٥ / ابن ظهيره ، الفضائل ، ص ٩ .

٩- أبو الفداء ، تقويم ، ص ١٢١ / ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٥ ، ص ٣٥ .

القلزم الشرقي والغربي في الحدود الشرقية (١) ، ثم يمتد هذا الحد في المنطقة الفاصلة بين بحر القلزم والبحر الرومي التي تعرف حاليا بسيناء ، حتى الزعقة نقطة البداية (٢) .

وأطلق على المنطقة المحصورة بين الأراضي الزراعية الممتدة على الضفاف الشرقية لنهر النيل ، والسواحل الغربية للبحر الأحمر صحراء عيذاب ، وتدعى حاليا الصحراء الشرقية ، وتتميز بشدة جفافها ، إذ قد يفقد المسافر بها الماء لمدة ٣-٤ أيام ، ولا يوجد بها طريق معروفة ، إذ يستدل على الاتجاهات فيها بوساطة بعض الجبال والهضاب الناتئة (٣) . ويبلغ امتدادها من الزعقة وحتى الحدود الجنوبية نحو ٦٠٠ ميل ، ومن الغرب إلى الشرق بين ١٠٠-١٥٠ ميلا (٤) ، ويحتاج المسافر إلى ٢٠ يوما لقطع المسافة بين قوص وعيذاب (٥) .

الوجهان القبلي والبحري :

تركزت الحياة الزراعية في مصر على مساحة صغيرة من أرضها ، بلغت نحو٦,٣٪ من المساحة الكلية ، إذ إن باقي المناطق لا تعدو كونها مجموعة من الصحاري ، تتخللها بعض الواحات في المنطقتين الغربية والشمالية (٦) ، وقد عرفت إحدى المنطقتين بالوجه البحري (الشمالي) لوقوعها إلى الشمال من القاهرة حتى ساحل البحر الأبيض ، وعرفت الأخرى بالوجه القبلي (الصعيد) لوقوعها إلى الجنوب من القاهرة حتى مدينة أسوان في أقصى الجنوب .

ويرجع الفضل في تكوين هذه البقعة الزراعية إلى ما كان يحمله نهر النيل من مادة الإبليز (الغرين) ، إذ إن الأمطار في بلاد الحبشة تنحت الصخور وتزود النيل بهذه المادة التي يرسبها في أثناء الفيضان السنوي ، فتجدد خصب التربة في كل عام ، وتغني الفلاح المصري عن استعمال الأسمدة (٧) .

١- ياقوت ، معجم ، ج ٥ ، ص ١٣٩ / القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٢٥١- ٢٥٢ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٦ / ابن ظهيرة ، الفضائل ص ١٠ .

٢- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٢٥٢ / ابن شاهين ، زبدة ، ص ٢٥ .

٣- الإدريسي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٣٢ ، ١٣٤ / أبو الفداء ، تقويم ، ص ١٠٥ / المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ٢٠٢ / الحميري ، الروض ، ص ٤٢٤ / ابن إياس ، نشق ، ص ٥٤ أ .

٤- Shirley , The Egyptian , P 68.

٥- الحميري ، الروض ، ص ٥٥٧ .

٦- Shirley , The Egyptian , P 11.

٧- عبد الفتاح وهيبه ، جغرافية مصر ، ص ٦٤ / قاسم عبده قاسم ، النيل ، ص ٧ / Lane Poole , Cairo , P 234.

وتنقل أكبر كمية من مادة الإبليز في شهر أيلول في أثناء الفيضان ، وتبلغ نحو ٢٥ مليون طن ، وتنخفض في شهري أيار وحزيران إلى نحو ٠,٥ مليون طن (١) ، وتحدث هذه الكمية ارتفاعا متوازيا في مستوى الحقول ومستوى مجرى النيل ، يصل إلى ١ ملم في كل سنة (٢) . وتتفاوت درجة الترسيب وتتناسب عكسيا مع القرب من مجرى النيل من جهة ، ومن الجنوب إلى الشمال من جهة أخرى ، فلذلك تعد أرض الصعيد (الوجه القبلي) أكثر خصبا من أرض الوجه البحري (٣) .

أما أرض السباخ فهي قليلة نسبيا ، وتتركز في الجزء الشمالي الغربي من الوجه البحري بين منطقتي فارسكور ودمياط . وهذه الأرض تزداد ملوحتها ازديادا ملحوظا عندما ينخفض معدل مياه النيل ، حيث تتغلب مياه البحر (٤) . ويبدو أن السباخ قد اتسعت اتساعا ملحوظا في بداية القرن ١٠هـ/١٦م ، إذ يشير ابن إياس (٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م) إلى أن المنطقة الواقعة بين بلبيس والفرما أصبحت تعرف في فترته " ببلاد السباخ من أرض الحوف " (٥) .

قسمت مصر منذ الفتح الإسلامي إلى مجموعة من الوحدات الإدارية ، أطلق على كل واحدة منها اسم الكورة ، وتشتمل كل كورة عددا من القرى ، وتعد كل كورة وحدة إدارية ومالية (٦) ، وقد اختلفت أعدادها مع مرور الوقت ، فقد كانت عند الفتح أربعين (٧) ، ثم ازدادت أو قلت وفقا لحاجة الدولة ونظامها الإداري . فقد أشار القضاعي المتوفى سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م في بعض الروايات إلى أنها كانت ثلاثا وخمسين كورة (٨) ، وفي رواية ثانية ثمان وخمسين كورة ، وفي ثالثة ثلاثا وستين كورة (٩) ، و أصبحت في بداية القرن ٨هـ / ١٤م ستين كورة (١٠) ، ثم انحدرت إلى خمس وخمسين كورة في بداية القرن ٩هـ /١٥م (١١) ، إلا أنها عادت إلى خمس وثمانين كورة في نهاية القرن (١٢) .

وفقد التقسيم الإداري إلى كور أهميته من الناحية العملية ، ففي الفترة الواقعة بين القرن ٦-١٠هـ/ ١٢-١٦م استبدلت الكور بأعمال تراوح عددها بين ٢٦-١١عملا ، موزعة بين الوجهين البحري والقبلي .

١- سيد مرعي ، الزراعة ، ص ١٢ .

٢- إدوارد لين ، المصريون ، ص ٩ / عبد الفتاح وهيبه ، جغرافية مصر ، ص ٥٥ .

٣- البغدادي ، الإفادة ، ص ٦٨ .

٤- المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ٥٧ .

٥ - ابن إياس ، نشق ، ص ٦٠ب .

٦- أحمد رامي ، مقدمة القاموس ، ج١ ، ص٣٠ / محمد أيوب ، فلاح مصر ، ص ١١٨ .

٧- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٧٢ .

٨- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٤٣٠-٤٤٨ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٧٢ .

٩- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٧٢ .

١٠- الوطواط ، مباهج ، ص ٧٦ .

١١- ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٤ ، ص ١٣٨ ، ج٥ ، ص ٤٣ .

١٢- الأسدي ، التيسير، ص ١٤٢- ١٤٣ / ابن ظهيره ، نزهة ، ص ٤ب .

الوجه البحري :-

سمي بذلك لوقوعه إلى الشمال من مدينة القاهرة ، وبسبب الرياح البحرية ، لأن أهل مصر يطلقون على الرياح التي تهب من الشمال : البحرية (١) ، ويبدأ من عند انقسام نهر النيل إلى فرعين عند مدينة شطنوف ، فيسير أحدهما إلى منطقة تنيس وأعمال دمياط ، وهو الفرع الشرقي ، ويتجه الآخر إلى رشيد على ساحل البحر عند الإسكندرية ويعرف بالغربي (٢) . وقاعدته الغربية على بعد ١٥ ميلا إلى الشمال من مدينة القاهرة ، بينما الشرقية على بعد ٦ أميال إلى الجنوب منها ، ويمتد حده الشمالي نحو ١٥٥ ميلا على طول ساحل البحر الرومي بين خليج السلوم إلى الشمال الغربي من برقة وحتى منطقة العريش شرقا (٣) ، في حين يبلغ طوله من كلا جانبيه نحو ١٠٠ ميل لكل جانب (٤) . وبذلك فهو سهل فيضي شبه مثلث ، قاعدته في الشمال ورأسه في الجنوب ، ويتوقف مدى اتساعه على المدى الذي تصل إليه مياه النيل (٥) .

ويقسم الوجه البحري من الناحية الطبيعية إلى ثلاثة أقسام ، يقع الأول إلى الشرق من الفرع الشرقي حتى بحر القلزم (٦) ، وكان يعرف قديما باسم الحوف الشرقي (٧) ، والثاني ما كان بين فرعيه ، وينقسم إلى جزيرتين : الأولى يمتد جانبها الشرقي على طول الفرع الشرقي إلى أن يصب في البحر المتوسط ، ويبدأ الغربي من أبي نشابة من عمل الجيزة ويسير مع الفرع الغربي حتى يصل إلى خليج أبيار ، فيسير معه حتى مصبه في النيل حيث قرية الفرستق ، ويمتد بعدها على طول هذا الفرع حتى البحر المتوسط . وأما الجزيرة الأخرى فتنحصر بين خليج أبيار وفرع النيل الغربي ، وتعرف بجزيرة بني نصر (٨) ، وكانت هذه المنطقة تعرف قديما ببطن الريف (٩) . أما القسم الثالث فهو المنطقة الواقعة إلى الغرب من الفرع الغربي حتى مدينة الإسكندرية (١٠) ، وكانت تعرف قديما بالحوف الغربي (١١) .

ويبين الجدول التالي تطور التقسيمات الجغرافية منذ بداية القرن ٧هـ / ١٣م حتى مطلع القرن ١٠هـ/ ١٦م

١- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٢٢٩ / الخالدي ، المقصد ، ص ١٦٥ أ .
٢- ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٢٨ .
٣- Popper , Egypt , I , P 13 .
٤- Shirley , The Egyptian , P 12 .
٥- محمد المناوي ، نهر النيل ، ص ١٠٦ .
٦- ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص ٢٢٢ / القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٥٧-٤٦٢ .
٧- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٧٣ .
٨- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٤٦٥-٤٦٧ .
٩- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٧٣ / ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٥٦٤ .
١٠- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص٤٦٢-٤٦٤ .
١١- ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص ٢٢٢-٢٢٣ .

في هذا الوجه :-

ابن مماتي ٦٠٦هـ	الوطواط ٧١٨هـ	ابن فضل الله العمري ٧٤٩هـ	ابن الجيعان ٨٨٥هـ مؤلف مجهول	ابن دقماق ٨٠٩هـ	القلقشندي ٨٢١هـ	المقريزي ٨٤٥هـ	الخالدي ق ٩هـ	ابن شاهين ٨٧٣هـ	الصوفي ٩٠٤هـ
		الضواحي	الضواحي	الضواحي	الضواحي		الضواحي		
الشرقية	الشرقية	الشرقية	الشرقية	الشرقية	الشرقية	الشرقية	الشرقية	الشرقية	الشرقية
المرتاحية									
الدقهلية	الدقهلية والمرتاحية	الدقهلية والمرتاحية	الدقهلية والمرتاحية	الدقهلية والمرتاحية	الدقهلية والمرتاحية	اشمون طناح	الدقهلية والمرتاحية	الدقهلية والمرتاحية	الدقهلية والمرتاحية
الابوانية									
جزيرة قوسينا	جزيرة قوسينا								
الغربية	الغربية	الغربية	الغربية	الغربية	الغربية	الغربية	الغربية	الغربية والمزاحمتين	الغربية
السمنودية									
المنوفية	المنوفية		المنوفية	المنوفية	المنوفية	المنوفية	المنوفية	المنوفية	المنوفية
الدنجاوية	الدنجاوية								
جزيرة بني نصر	جزيرة بني نصر	جزيرة بني نصر	أبيار وجزيرة بني نصر						
النستراوية			نستراوة						
البحيرة	البحيرة	البحيرة	البحيرة	البحيرة	البحيرة	البحيرة	البحيرة	البحيرة	
حوف رمسيس									
الكفور الشاسعة									
فوة والمزاحمتين			فوة والمزاحمتين				المزاحمتين		
	القليوبية	القليوبية	القليوبية	القليوبية	القليوبية	القليوبية	القليوبية	القليوبية	القليوبية
			الجيزة				برقة		
			دمياط	دمياط			ساحل بحر القلزم	دمياط	دمياط
			الإسكندرية	الإسكندرية					
١٥	٩	٧	١٣	٩	٧	٦	١٠	٧	٧

وتقلص عدد أعمال الوجه البحري من خمسة عشر عملا في بداية القرن السابع الهجري (١) ، إلى تسعة أعمال مع بداية القرن الثامن الهجري ، وذلك بدمج الدقهلية والمرتاحية مع الأبوانية ، والسمنودية مع الغربية ، وحوف رمسيس مع الكفور الشاسعة من الحوف نفسه ، والبحيرة مع التستراوية ، واستحداث عمل القليوبية (٢) .

وبعد ما أحدثه الناصر محمد بن قلاوون في الروك الناصري سنة ٧١٥هـ /١٣١٥م الأساس الذي اعتمدت عليه التقسيمات الإداريه للوجهين البحري والقبلي ، فقد قسم الوجه البحري إلى ثمانية أعمال (٣) ، حيث ضم جزيرة قوسينا والسمنودية للأعمال الغربية ، وجعل جزيرة بني نصر ومنوف عملا واحدا (٤) ، واستحدث الولاية التي عرفت بالضواحي ، وفصلها عن الشرقية ، وهي القرى المجاورة لمدينة القاهرة ، وتخضع لوالي القاهره من غير أن تفرد بولاية خاصة (٥) ، وكان عدد نواحيها سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م عشرين ناحية (٦) ، وكانت في بداية القرن التاسع إحدى وثلاثين ناحية (٧) .

ويصل عمل الضواحي في أبعد نقطة إلى الشمال من سرياقوس إلى بعد ١٢ ميلا من النيل ، و١١ ميلا إلى الشمال الشرقي من القاهرة ، زيحده من الشرق الصحراء الشرقية ، ومن الغرب النيل والقاهرة ومن الجنوب عمل الإطفيحية من الوجه القبلي (٨) . ويبدو أن الضواحي أدمجت في فترة السلطان برسباي ٨٢٥-٨٤١ هـ / ١٤٢٢-١٤٣٧م مع عمل الشرقية الذي فصلت عنه ، ولم نعد نسمع عنها حتى نهاية الفترة المملوكية .

وإلى الشمال من الضواحي يقع عمل القليوبية على بعد ٢٣ ميلا إلى الشمال الشرقي من مدينة القاهرة ، وإلى الشرق من فرع دمياط ، ويبلغ امتداده بين فرع دمياط وحتى بداية عمل الشرقية إلى الشرق منه ١٣ميلا (٩) ، ومقر ولايته مدينة قليوب التي أصابها كثير من الخراب في مطلع القرن ٩هـ/١٥م ، فانخفض عدد بساتينها انخفاضا ملحوظا بعد أن وصل إلى ١,٧٠٠ بستان (١٠) ، ثم فقدت ولايتها وصارت تضاف إلى الشرقية أو المنوفية (١١) .

١- ابن مماتي ، قوانين ، ص٨٤-٢٠٠ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٧٢ / ابن إياس ، نشق ، ص ٣١ب .

٢- الوطواط ، مباهج ، ص ١٠٥ ، ١١٩ ، ١٢١، ١٢٧ ، ١٣٠.

٣- ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص ٢٢٢ .

٤- ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص ٢٢٢ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٢٩ .

٥- ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص٢٢٢ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٤٥٧ / الخالدي ، المقصد ، ص ٨٥ أ .

٦- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٣ .

٧- ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٥ ، ص ٤٣ .

٨- Popper , Egypt , I , P 13

٩- Ibid. , P13

١٠- ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٥ ، ص ٤٧ / ابن شاهين ، زبدة ، ص ٣٤ .

١١- الخالدي ، المقصد ، ص ٨٥ أ

وأكبر الأعمال شرق فرع دمياط هو عمل الشرقية ويحده من الغرب ضواحي القاهرة والقليوبية والدقهلية وفرع دمياط على بعد ٤٥ ميلا إلى الشمال من القاهرة ، ومن الشمال سواحل البحر الأبيض الممتدة من مصب فرع دمياط إلى الفرما عند الزاوية الشمالية الغربية من شبه جزيرة سيناء ، ومن الشرق الصحراء الشرقية وسواحل البحر الأحمر ، ومن الجنوب عمل الإطفيحية والقاهرة والضواحي (١) .

ويبدأ عمل الشرقية بقرية بنها العسل ، وتنتهي المناطق المعمورة في الشمال عند مدينة الصالحية، وفي الشرق عند مدينة قطيا . ويعد هذا العمل من أكبر الأعمال وأوسعها ، إلا أنه يتصف بقلة البساتين بل انعدامها تقريبا لاتصاله بأراضي السباخ ولبداوة أهله (٢) .

ومن مدن عمل الشرقية المهمة الخانقاة السرياقوسية (٣) والصالحية وقطيا ، التي يقيم بها أمير طبلخاناة لجمع العشور من التجار الواردين إلى مصر والذاهبين إلى بلاد الشام ، ولا يمكن لأحد اجتياز قطيا إلا بعد الحصول على ورقة بذلك (٤) . وأما مقر ولاية الشرقية فمدينة بلبيس (٥) .

والمنطقة المحصورة بين شمال سواحل بحر القلزم ، وبين رفح والعريش إلى قطيا على البحر المتوسط هي من عمل الشرقية ، وفيها الجفار التي تعرف برمل مصر ، وقطيا والورادة ، وتيه بني إسرائيل بين القلزم إلى بيت المقدس ، وهو ١٢٠ ميلا في عرض ١٢٠ ميلا (٦) ، وقد جعل الخالدي (ت العقد السابع من القرن ٩هـ/ ١٥م) سواحل بحر القلزم المكونة من مدينة القلزم على الفرع الغربي في مقابل أيلة ، وجبل الطور الواقع في البر الداخل بين شطري بحر القلزم ، عملا مستقلا من أعمال الوجه البحري (٧) .

وعلى أطراف خليج المنزلة يقع عمل الدقهلية والمرتاحية ، وكانتا مع الأبوانية ثلاثة أعمال مستقلة في بداية القرن السابع الهجري (٨) ، إلى أن دمجتا في عمل واحد مع بداية القرن الثامن الهجري (٩) ، واستمرتا على ذلك حتى نهاية الفترة المملوكية ، مع إطلاق اسم بلاد الأشمون على هذا العمل في بعض الأحيان (١٠) .

١- Popper , Egypt ,1 , P13-14.

٢- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٤٥٩ / الخالدي ، المقصد ، ص ٨٥ أ .

٣- ابن شاهين ، زبدة ، ص ٣٤ / الصوفي ، الصفوه ، ص ١٤ب .

٤- ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٥ ، ص ٥٣ .

٥- ابن شاهين ، زبدة ، ص ٣٤ / ابن الجيعان ، التحفة ، ص ١٤ .

٦- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ٥٣-٥٤ .

٧- الخالدي ، المقصد ، ص ٨٦ أ-ب .

٨- ابن مماتي ، قوانين ، ص ١٤٦ , ١٤٩ .

٩- الوطواط ، مباهج ، ص ١٢٧ .

١٠- ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص ٢٢٣ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٢٩ .

ويحد الدقهلية والمرتاحية من الشمال والشرق سواحل البحر الأبيض المتوسط الممتدة بين دمياط إلى الفرما (١) ، وفي الجنوب عمل الشرقية ، ومقره الرئيسي مدينة أشموم طناح ، وهي مدينة صغيره على ضفة الفرقة الذاهبة إلى بحيرة تنيس من فرع دمياط (٢) ، ثم تغير مقره إلى مدينة المنصورة (٣) ، ومن مدنه المهمة أيضا فارسكور والمنزلة (٤) .

ومن المدن التي كانت تتبع الدقهلية والمرتاحية : مدينة دمياط ، وقد تراوح وضعها بين كونها ثغرا من ثغور الإسلام تابعا للدقهلية والمرتاحية ، وبين تحولها إلى عمل قائم بذاته ، فقد استمرت ثغرا حتى منتصف القرن الثامن الهجري (٥) ، ومع نهاية حكم الأشرف شعبان سنة ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م أصبحت عملا مستقلا ضم اثنتي عشرة ناحية (٦) ، واستمرت على ذلك فضمت إليها منطقة الأبوانية وتنيس وبحيرتها ، وأصبحت ميناء ومنزلا للتجار ، وبلغ عدد بساتينها ٣٠٠بستان (٧) ، واستمر هذا الوضع حتى فترة القلقشندي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) (٨) . إلا أن المقريزي ٨٤٥هـ /١٤٤١م عدها أحد الثغور ، من غير أن يكون لها عمل خاص (٩) ، ويبدو أنها عادت مرة أخرى عملا مستقلا بعد العقد الثامن من القرن التاسع وحتى نهاية الدولة المملوكية (١٠) .

ويعد عمل المنوفية أول الأعمال المحصورة بين فرعي رشيد ودمياط شمال القاهرة ، وتبدأ حدوده الجنوبية من مدينة شطنوف (١١) ، وتصل إلى ٤٥ ميلا إلى الشمال الغربي من القاهره على فرع رشيد (١٢) ، ثم امتدت حدوده إلى مصب خليج أبيار ، بعد دمجه مع عمل أبيار وجزيرة بني نصر زمن السلطان برقوق (٧٨٤-٨٠١هـ / ١٣٨٢-١٣٩٨م) ، واستمر على ذلك حتى نهاية الدولة المملوكية (١٣) .

وأما حدوده من الشرق فتنتهي عند مدينة مسجد الخضر على فرع دمياط (١٤) ، ومن الغرب عند

١- Popper , Egypt , 1 , P14 .

٢- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٦٠-٤٦١ .

٣- الخالدي ، المقصد ، ص ٨٥ب .

٤- ابن شاهين ، زبدة ، ص ٣٥ / الصوفي ، الصفوة ، ص ١٥ب .

٥- الوطواط ، مباهج ، ص ١٣٧ .

٦- ابن الجيعان ، التحفة ، ص٤ .

٧- ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٥ ، ص ٧٩-٨٢ .

٨- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٦١ .

٩- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٢٩ .

١٠- ابن شاهين ، زبدة ، ص ٣٥ / الصوفي ، الصفوة ، ص ١٥ب .

١١- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٦٧ / الخالدي ، المقصد ، ص ٨٥ب .

١٢- Popper , Egypt , 1 , P 14 .

١٣- ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٥ ، ص ٩٩ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٤٦٧ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص١٢٩ / ابن شاهين ، زبدة ، ص ٣٥ / الصوفي ، الصفوة ، ص ١٥ب .

١٤- الخالدي ، المقصد ، ص ٨٥ب.

فرع رشيد ، ومن الجنوب عند عمل الجيزية (١) . ومقر ولاية هذا العمل مدينة منوف التي أصابها كثير من الخراب في القرن ٩هـ / ١٥م (٢) .

أما العمل الثاني بين فرعي رشيد ودمياط فهو الغربية ، ويحده من الجنوب المنوفية ، ومن الشرق فرع دمياط ، ومن الغرب فرع رشيد ، ومن الشمال سواحل البحر الرومي (المتوسط) (٣) ، ويتكون هذا العمل من جزيرة قوسينا والسمنودية والدنجاوية والنستراوية التي كانت تعد في السابق أعمالا مستقلة ، ومقر ولايته المحلة الكبرى التي كانت تعرف قديما بمحلة دقلا (٤) . ولأهمية هذا العمل كان يطلق على ولايته الوزارة الصغرى (٥) . ويذكر أنه كان يحتوي على ٧٠٠بلد (٦) ، وأصبح في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري يحتوي على ما يقرب من ٥٤٠ بلدا (٧) ، وفي هذه الأرقام بعض المبالغة ، إذ يشير ابن الجيعان إلى أن عدد بلدانه في سنة ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م بلغ ٤٧١بلدا فقط (٨) .

وإلى الغرب من فرع رشيد يقع عمل البحيرة ، ويحده من الشمال سواحل البحر الرومي بين العقبة الكبرى من برقة وحتى مصب فرع رشيد ، ومن الشرق فرع رشيد والغربية والمنوفية ، ومن الجنوب الجيزة ، ومن الغرب برقة (٩) والصحراء الغربية .

ومن الأعمال السابقة التي أضيفت إلى البحيرة حوف رمسيس والكفور الشاسعة منه (١٠) ، ومقر ولايته مدينة دمنهور إلى الجنوب الشرقي من الإسكندرية (١١) ، ولأهمية هذا العمل أطلق على واليه لقب ملك الأمراء (١٢) ، ثم أضيف إلى إستادار الإستادارية (١٣) .

ويغيب ذكر عمل البحيرة في مطلع القرن ١٠هـ /١٦م ، ويبدو أن التغيير حصل في الاسم فقط ، فيذكر الصوفي ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م أن الجزيرة إحدى أعمال الوجه البحري ، ومقرها مدينة دمنهور (١٤) .

١- Popper , Egypt , 1 , P 14 .

٢- ابن شاهين ، زبدة ، ص ٣٥ .

٣-ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أبن سيد ، ص٩٩ / المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ١٢٩:٧٤ / Popper ,Egypt , 1, 14.

٤- ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٥ ، ص ٨٢ ، ١١٣ / الخالدي ، المقصد ، ص ٨٦ أ .

٥- ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٥ ، ص٨٢ .

٦- الخالدي ، المقصد ، ص ٨٦ أ .

٧- ابن شاهين ، زبدة ، ص ٣٥ .

٨- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٤ .

٩- الخالدي ، المقصد ، ص ٨٦ أ / Popper , Egypt , 1 , P 14.

١٠- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٦٢ / الخالدي ، المقصد ، ص ٨٦أ .

١١- ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٥ ، ص ١٠١ / المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق ١ ، ص ٤١٠ .

١٢- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ١٠١ .

١٣- الخالدي ، المقصد ، ص ٨٦أ .

١٤- الصوفي ، الصفوة ، ص ١٥ ب .

ولم يكن عمل فـوه والمزاحمتين مستقلا إلا في مطلع القرن ٧هـ /١٣م (١) ، وفي الفترة الواقعة بين ٧٥٠-٧٧٧ هـ /١٣٤٩-١٣٧٥م (٢) ، ومقر ولايته مدينة فـوه ، وهي إحدى بلاد الديوان السلطاني الخاص(٣). وقد ذكر الخالدي أنه أضيف إلى عمل البحيرة (٤) . ويتضح من حديث ابن شاهين ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م أنه جزء من عمل الغربية (٥) . ويبدو أن هذا العمل انقسم قسمين ؛ أضيف القسم الواقع إلى الغرب من فرع رشيد والجزء الشمالي من خليج الإسكندرية إلى البحيرة ، وأضيف القسم الواقع إلى الشرق من فرع رشيد إلى الغربية ، لأن فوه أصبحت من المدن المهمة بالغربية .

ومن المدن المهمة في الوجه البحري : الإسكندرية ، ولم يكن لها عمل خاص ، إذ إن عدد قراها قليل (٦) ، ولكنها منذ سنة ٧٦٧ هـ /١٣٦٥م أصبحت نيابة كبرى تضاهي نيابة حماة وطرابلس (٧) ، من غير ذكرها بين الأعمال المستقلة فيما بعد .

وقد توزعت أعمال الوجه البحري بين سبعة أعمال منذ سلطنة السلطان الناصر محمد بن قلاوون الثالثة : أربعة إلى الشرق من فرع دمياط ، واثنين بين فرعي رشيد ودمياط ، وواحد إلى الغرب من فرع رشيد (٨) ، ولكنها مع نهاية حكم الأشرف شعبان سنة ٧٧٧هـ/١٣٧٥م عادت إلى ثلاثة عشر عملا ، بوصف الجيزة جزءا من هذا الوجه (٩) ، ثم انخفضت في فترة ابن دقماق ت٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م إلى تسعة أعمال ، ثم صارت زمن القلقشندي ت٨٢١ هـ / ١٤١٨م سبعة أعمال ، ثم عدها المقريزي ستة أعمال ، والخالدي عشرة أعمال ، ثم استقرت على سبعة أعمال حتى نهاية الدولة المملوكية .

الوجه القبلي :-

أطلق العرب على هذا الوجه منذ الفتح الإسلامي : بلاد الصعيد (١٠) ، لارتفاعه بالاتجاه نحو الجنوب (١١) ، ويمتد من الشرق بين الفسطاط وجنادل أسوان (١٢) ، ومن الغرب بين الجيزة حتى

١- ابن مماتي ، قوانين ، ص٩٩ .
٢- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٤ .
٣- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٦٢ .
٤- الخالدي ، المقصد ، ص ٨٦ أ .
٥- ابن شاهين ، زبدة ، ص ٣٥ .
٦- ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص ٢٢٤ .
٧- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٤٦٤ / ابن الجيعان ، التحفة ، ص ١٤ .
٨- المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ٧٤ .
٩- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٤ / مؤلف مجهول ، وصف ، ص٥ أ .
١٠- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٨٩ .
١١- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٣٠ .
١٢- ابن حوقل ، صورة ، ص١٢٨ / ابن السباهي ، أوضح المسالك ، ص ٦٥ب .

الجنادل أيضا (١) ، ويبلغ طوله ٤٠٠ ميل مبتدئا من ١٥ ميلا شمال القاهرة على الجانب الغربي ، ومن ٦ أميال جنوب القاهرة على الجانب الشرقي (٢) .

وأدى انحصار النيل في منطقة أسوان بين مجموعة من الصخور الجرانيتيه التي لا تسمح إلا بترسيب كميات قليلة من الغرين في بعض المناطق ، إلى تشكيل بقع زراعية متناثرة على طول مجراه ، بلغت مساحتها ١٠٦,٠٠٠ فدان ، تزداد اتساعا بالاتجاه من الجنوب إلى الشمال (٣) . وكانت القدرة الإنتاجية لهذا السهل لا تزيد على حاجة السكان ، ولا تسمح بوجود فائض للتصدير (٤) .

وقد تباينت تقديرات عرض الصعيد ، لدرجة أن ليون الإفريقي عده شبه معدوم (٥) ، إذ يتراوح بين نصف يوم ويوم (٦) ، أي من ٧-١٤ ميلا (٧) ، ويقل عرضه كثيرا في منطقة أسوان ليصل إلى ١,٤ميل ، ويزداد في منطقة بني سويف إلى ٦ , ٨ ميل (٨) . وإذا تتبعناه من شمال أسوان نجده ضيقا حتى يصل إلى كوم إمبو فيتسع ، ولكنه بعد ذلك يضيق بالتدريج حتى يصل إلى إدفو ليتسع مرة ثانية ، ولا يزال يتسع تدريجيا حتى بلدة قنا ، ثم يضيق ليتسع مرة أخرى بعد نجع حمادي ، حيث يبلغ متوسط اتساعه ٥ , ٧ ميل ، وأخيرا يضيق مرة أخرى بين الصف وحلوان ليصل إلى معدل ٣ أميال (٩) .

ويعود تحديد الصعيد وامتداده ضمن شريط ضيق من الأراضي الزراعية الرسوبية إلى وجود جبلين يقتربان في منطقة ، ويتباعدان في أخرى ، حتى إنهما يقتربان من التماس في منطقة إسنا ، ويقع أحدهما للغرب ، وهو مجموعة من الجبال غير متصلة ببعضها ، أما الشرقي - وهو الأعظم - فيمتد من أسوان حتى الفسطاط . وتعرف هذه الجبال بأسماء كثيرة تبعا للمناطق المحاذية لها (١٠) ، فتعرف عند أسوان بجبل القند (١١) ، وعند منفلوط بجبل أبي فيده ، وعند منية بني خصيب من الأشمونين بجبل الطيلمون أو الطير ، (١٢) وما سامت الفسطاط والقرافة بالمقطم (١٣)، وهو جبل كلسي يصل ارتفاعه إلى٩٣ مترا فوق مستوى نهر النيل (١٤) ، ويلي المقطم من جهة

١- الصوفي ، الصفوه ، ص ١٤ أ
٢- Popper , Egypt , 1 , P 13.
٣- محمد الحويري ، أسوان ، ص ٨-٩ .
٤- نفس المصدر ، ص ٨٣ .
٥- ليون الإفريقي، وصف ، ص ٥٦٣ .
٦- ابن حوقل ، صورة ، ص ١٤٣ .
٧- محمد عوض ، نهر النيل ، ص١٠٤ .
٨- محمد الحويري ، أسوان ، ص٩ .
٩- محمد عوض ، نهر النيل ، ص ١٢٨-١٢٩ .
١٠- الإدريسي ، نزهة ، ج ١ ، ص ١٣٢ / البغدادي ، الإفادة ، ص ٦٦ / ياقوت ، معجم ، ج ٥ ، ص ١٧٦ / القلقشندي ، صبح، ج ١ ، ص ٣٣٩ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١ ، ص ٣٧ / ابن إياس ، نشق ، ص ٢٠ أ .
١١- ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٤ ، ص ١٣٤ .
١٢- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص٣٤٠ .
١٣- نفس المصدر ، ص ٣٤١ .
١٤- جومار ، وصف مصر ، ص ٢٢٧ .

الشمال اليحاميم المطلة على الجانب الشرقي من القاهرة (١) . وبين الفسطاط والقاهرة جبل يشكر بن جديلة ، التي استوطنته في صدر الإسلام (٢) ، وما سامت الواحات من جهة الغرب جبل جالوت ، وإلى الجنوب من الواحات جبل اللازورد (٣) .

ويقوم التقسيم الثاني للصعيد على أن بلاد الوجه القبلي كورتان ، إحداهما إلى الشرق من نهر النيل ، وتبدأ من مرج بني هميم المتصل بأرض جرجا ، وتصل إلى قرية أبهر (٤) ، ثم إلى جنوبه ، أول أراضي النوبه ، حيث كان لسلطان مصر عليها مقرر يؤخذ منها كل عام (٥) . وأما الكورة الغربية ، فأولها من قرية برديس المتصلة بأراضي جرجا وحتى أسوان (٦) .

وقد أدى اتخاذ النيل الجانب الأيمن في مسيره إلى اتساع رقعة الأراضي الزراعية على الجانب الأيسر منه ، إذ كان يلقي فيه جميع رواسبه ، حتى إن بعض المناطق كنجع حمادي ومنفلوط وبني سويف والمنيا ، يقع معظم سهولها الرسوبية على هذا الجانب (٧) .

أما التقسيم الثالث فيقوم على الأعمال التالية :-

ابن مماتي ٦٠٦هـ	الوطواط ٧١٨هـ	ابن فضل الله العمري ٧٤٩هـ	ابن الجيعان ٨٨٥هـ مؤلف مجهول	ابن دقماق ٨٠٩هـ	القلقشندي ٨٢١هـ	المقريزي ٨٤٥هـ	الخالدي منتصف ٩هـ	ابن شاهين ٨٧٣هـ	الصوفي ٩٠٤هـ
الجيزية	الجيزية	الجيزية	-----	الجيزية	الجيزية	الجيزية	الجيزية	الجيزية	الجيزية
الإطفيحية	الإطفيحية	الإطفيحية	الإطفيحية	الإطفيحية	الإطفيحية	الإطفيحية	الإطفيحية	الإطفيحية	الإطفيحية
البوصيرية	البوصيرية	----	-----	-----	-----	----	----	-----	----
الفيومية	الفيومية	الفيومية	الفيومية	الفيومية	الفيومية	الفيومية	الفيومية	الفيومية	الفيومية
البهنساوية	البهنساوية	البهنساوية	البهنساوية	البهنساوية	البهنساوية	البهنساوية	البهنساوية	البهنساوية	
الأشمونين	الأشمونين	الأشمونين	الأشمونين	الأشمونين	الأشمونين	الأشمونين	الأشمونين	الأشمونين	الأشمونين
المنفلوطية	----	المنفلوطية	-----	المنفلوطية	المنفلوطية	المنفلوطية	المنفلوطية	-----	----
الأسيوطية	الأسيوطية	الأسيوطية	الأسيوطية	----	الأسيوطية	الأسيوطية	الأسيوطية	الأسيوطية	الأسيوطية
الإخميمية	الإخميمية	الإخميمية	الإخميمية	الإخميمية	الإخميمية	الإخميمية	الإخميمية	----	----
القوصية	القوصية	القوصية	القوصية	القوصية	القوصية	القوصية	القوصية	----	القوصية

١- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٢٥ .

٢- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص٣٤٠ / المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص١٢٥ .

٣- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص٣٤٣ .

٤- الإدفوي ، الطالع ، ص ١٠-١٧ / ابن إياس ، نشق ، ص ٤٩ ب/ الحنفي ، تاريخ مصر ، ص ٦٠ أ .

٥- الإدفوي ، الطالع ، ص ٧-٩ / ابن ظهيره ، الفضائل ، ص ٦٣ .

٦- الإدفوي ، الطالع ، ص ١٨-٢٠ ، ٢٣ ، ٤٠ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٨٩ / الحنفي ، تاريخ مصر ، ص ٦٠ أ .

٧- محمد عوض ، نهر النيل ، ص ١٢٩ .

الواحات	الواحات	----	----	----	----	----	الواح	الواحات	الواحات
----	----	----	----	أسوان	----	----	----	----	----
----	----	----	----	ثغر عيذاب	----	----	----	----	----
١١	١٠	٩	٧	١٠	٩	٩	١٠	٧	٧

ويعد عمل الجيزية من أقرب الأعمال إلى مدينتي القاهرة والفسطاط ، ويقسمه النيل إلى قسمين : شرقي وغربي ، لكن الغربي أكثر عرضا (١) ، ويمتد بين ١٥ ميلا للشمال من القاهرة حتى ٤٠ ميلا للجنوب منها(٢) ، وهذا ما جعله من أعمال الوجه البحري بين ٧٥٠-٧٧٧ هـ/ ١٣٤٩ - ١٣٧٥م (٣) ، ولكنه عاد بعد ذلك عملا من أعمال الوجه القبلي (٤) ، ومقر ولايته مدينة الجيزة التي أحدثها المسلمون بعد الفتح (٥) .

ويقع إلى الشرق من الجيزية ، وعلى الجانب الشرقي من النيل عمل الإطفيحية (٦) ، ويمتد ما بين ٦-٦٨ ميلا للجنوب من القاهرة ، ومقر ولايته مدينة إطفيح (٧) .

ويتميز عمل الفيوم بالانخفاض الشديد عن مستوى ماء النيل (٨) ، ويحده من الشرق عمل البهنساوية ومن الشمال عمل الجيزية ، ويقع للغرب من نهر النيل على إحدى شعبتيه المعروفة باللاهون (بحر يوسف) (٩)، وتحيط به الصحاري من جميع الجهات ، ولا يؤتى إليه إلا من صحراء أو مفازة (١٠) ، كما يحده جبل يعرف بهرم اللاهون الذي يشكل عائقا لغزو الصحراء له ، ويبدأ هذا الجبل من عند اللاهون ، ثم يمتد حول عمل الفيوم امتدادا متصلا، ولا ينقطع إلا في بعض المواضع ، ليشكل بذلك مسالك للمدينة ، ويبلغ دوران هذا الجبل من اللاهون إلى موضع يعرف بكوم دري نحو ثلاثة أيام (٤٦,٥ ميل) (١١) .

وعمل الفيوم من أفضل الأعمال وأحسنها خصبا وعمارة ، وكثرة فواكه ، وغالب أراضيه تميل إلى السواد (١٢) ، وتختلف "طبيعة تربتها ما بين الإبليز المحض والطين المختلط بالرمل ، الذي لا يمنع الزرع ،

١- ابن شاهين ، زبدة ، ص ٣٣ / الصوفي ، الصفوه ، ص ١٤ب .

٢- Popper , Egypt , 1 , P13 .

٣- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٤ / مؤلف مجهول ، وصف مصر ، ص ٥ب .

٤- الخالدي ، المقصد ، ص ٨٤ أ - ب .

٥- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٠٦ .

٦- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ٤٥٠ / الخالدي ، المقصد ، ص ٨٤ب .

٧- Popper , Egypt , 1 , P 13 .

٨- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٩ .

٩- ابن خلدون ، مقدمة ، ص ٦١ / القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص٤٥٠-٤٥١ .

١٠- مجهول ، الاستبصار ، ص ٩١ .

١١- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٧ .

١٢- الحميري ، الروض ، ص ٤٤٥ .

ويسمى الدملوف ، والرمل المشوب بالحصاة الذي لا ينبت به شجر ولا زرع " (١) .

وقد حظي هذا العمل بأهمية كبيره لدى السلاطين ، فالسلطان المؤيد شيخ (٨١٦-٨٢٤هـ / ١٤١٣ - ١٤٢١ م) أضاف ولايتي البهنسا والأشمونين لنائب الوجه القبلي ، واستثنى ولاية الفيوم التي بقي واليها يلبس خلعته من الحضرة السلطانية (٢) .

وأصبح عمل البوصيرية في فترة حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون الثالثة (٧٠٩هـ -٧٤١ هـ / ١٣٠٩ -١٣٤٠ م) جزءا من عمل البهنساوية (٣) الواقع إلى الجنوب من الجيزية ، ومقر ولايته مدينة البهنسا على البر الغربي من النيل (٤) . ويشير Popper إلى أن عمل البهنساوية أضيف للفيومية زمن السلطان برقوق (٧٨٤-٨٠١هـ/ ١٣٨٢ -١٣٩٨م) ، وأن امتداده كان من ٤٠-١٢٠ ميلا إلى الجنوب من القاهرة (٥) ، ولكنه لم يذكر مصدره . وينفرد الخالدي (ت العقد السابع من القرن ٩هـ /١٥م) بالإشارة إلى أن ولاية هذا العمل في زمانه أصبحت مهملة . ويذكر ابن دقماق (ت٨٠٩ هـ / ١٤٠٦م) والقلقشندي (ت ٨٢١هـ /١٤١٨ م) والمقريزي (ت٨٤٥هـ / ١٤٤١ م) وابن شاهين (٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م) بأنه عمل مستقل ، ولكن الصوفي (٩٠٤هـ / ١٤٩٨م) وحده أشار إلى أن هذا العمل لم يعد مستقلا في مطلع القرن ١٠هـ / ١٥م .

وإلى الجنوب من البهنسا بين ١٢٠-١٨٠ ميلا إلى الجنوب من القاهرة يقع عمل الأشمونين (٦) ، المتقارب القرى الذي ضم إليه الطحاوية من الأعمال القديمة (٧) ، ومقر ولايته مدينة الأشمونين التي أصبحت في غالبها خرابا في بداية القرن ٩هـ / ١٥م (٨) .

ويمتد عمل المنفلوطيه بين ١٨٠-١٩٥ ميلا إلى الجنوب من القاهرة (٩) ، وقد أنشأه الناصر محمد بن قلاوون (١٠) ، وإلى الجنوب منه يمتد عمل الأسيوطيه ما بين ١٩٥-٢٣٥ ميلا إلى الجنوب من القاهرة(١١) ، ومقره مدينة أسيوط ، مقر إقامة نائب الوجه القبلي (١٢) ، إلا أن عملي الأسيوطية والمنفلوطية أصبحا عملا واحدا في النصف الثاني من القرن ٩هـ / ١٥م (١٣) .

١- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٧ .
٢- الخالدي ، المقصد ، ص ١٢٧ أ .
٣- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ٢-١١ / ابن الجيعان ، التحفة ، ص ١٥٩-١٧٣ .
٤- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٥٠ .
٥- Popper , Egypt , 1, p13 .
٦- Ibid , P13 .
٧- الوطواط ، مباهج ، ص ٨٩-٩٣ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ،ص ٤٥٢ .
٨- ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٥ ، ص ١٥ / الخالدي ، المقصد ، ص ٨٤ب .
٩- Popper , Egypt , 1 , P13
١٠- ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص ٢٢٠ / المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ٧٤ .
١١- Popper , Egypt , 1 , P13
١٢- ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٥ ، ص ٢٢ / الخالدي ، المقصد ، ص ٨٤ ب .
١٣- ابن شاهين ، زبدة ، ص ٣٣ / الصوفي ، الصفوه ، ص ١٤ ب .

ويعد عمل الإخميمية إلى الجنوب من الأسيوطية أصغر أعمال الوجه القبلي ، ويتميز بأن مدينته الرئيسية إخميم تقع في البر الشرقي ، ومعظم قراه وأراضيه الزراعية تقع في البر الغربي (١) .

وعمل القوصية هو آخر أعمال الوجه القبلي ، فبعد خراب مدينة قفط ، صارت مدينة قوص مقر ولايته (٢) ، ومقرا لتجار الكارم ، وهذا ما جعل هذا العمل من أهم الولايات وأعظمها (٣) ، ويتركز سكانه في الجانب الشرقي من النيل ، حيث اتساع أراضيه القابلة للزراعة (٤) .

ومن المدن المهمة في هذا العمل مدينة أسوان التي كانت زمن السلطان برقوق(٧٨٤-٨٠١ هـ / ١٣٨٢-١٣٩٨م) عملا مستقلا ، ولها وال مستقل ، ولا حكم لوالي قوص عليه (٥) ، ثم أعيدت بعده إلى نائب الوجه القبلي ، ولم تعد ولايتها تصدر من الحضرة السلطانية (٦) . واتسع هذا العمل بعد إضافة عمل الإخميمية إليه زمن السلطان برقوق (٧) ليمتد بين ٢٣٥-٤٠٠ ميل إلى الجنوب من القاهرة (٨) .

وأما الواحات فهي جزر في وسط الرمال (٩) ، في منطقة منقطعة عن مصر ، إلى الغرب من بلاد الصعيد ، يقطعها السلطان أحد أمرائه ، ولا تعد عملا مستقلا (١٠) ، وتتكون من أربع واحات مسكون منها ثلاث قادرة على الاكتفاء الذاتي ، إذ تحتوي على كثير من العيون ، (١١) ولم تصبح عملا مستقلا إلا في النصف الثاني من القرن ٨هـ/ ١٤م (١٢) .

وتقابل الواحة الأولى عمل البهنساوية ، وتعرف بالخاص والقصوى ، وتعد الأكبر والأكثر عمرانا ، إذ تحتوي على مجموعة من المدن المسورة (١٣) ، وقصبتها المدينة (١٤) ، وبالرغم من وجود المياه فيها إلا أن كثيرا من الخراب عمها (١٥) . وأما الواحة الثانية فتقع إلى الغرب من شمال الأعمال الأسيوطية ، وبينها وبين أسيوط

١- ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص ٢٢١ / القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص٤٥٤-٤٥٥ .
٢- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ٢٨ .
٣- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص٤٥٤-٤٥٦ / الخالدي ، المقصد ، ص ٨٤ب .
٤- ابن شاهين ، زبدة ، ص ٣٣ .
٥- الحميري ، الروض ، ص ٥٧ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٤٥٥-٤٥٦ / الحنفي ، تاريخ مصر ، ص٦٠ أ .
٦- الخالدي ، المقصد ، ص٨٤ ب - ٨٥ أ .
٧- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٤٥٥ .
٨- Popper , Egypt , I , P13 .
٩- أبو الفداء ، تقويم ، ص ١٠٥ .
١٠- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أيمن سيد ، ص ١٠٠ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٧٤ ، ٢٣٤ .
١١- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أيمن سيد ، ص ١١٠ .
١٢- ابن شاهين ، زبدة ، ص ٣٣ / الصوفي ، الصفوه ، ص١٤ .
١٣- ياقوت ، معجم ، ج٥ ، ص ٣٤٢ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٤٤٧ / الحنفي ، تاريخ مصر ، ص ٦٣ب .
١٤- شيخ الربوة ، نخبة ، ص ٢٣٢.
١٥- الحميري ، الروض ، ص ٦٠١ .

أربعة أيام (٥٦ ميلا) (١) ولكنها أقل عمرانا من الأولى (٢) ، ومن مدنها المشهورة القصر وهند (٣) . أما الثالثة فتعرف بالواحة الخارجة ، وبينها وبين ريف الصعيد عرض جبل مصر الغربي ، وذلك ثلاث مراحل فما دونها (٤) ، وهي أقلها عمرانا ، ومدينتها الرئيسية سنتريه (٥) .

ومع حلول القرن ٩هـ / ١٥م أصاب هذه المناطق كثير من الخراب (٦) . ويبدو أنه استمر وازداد ، إذ يصفها ابن إياس " وبلاد الواحات كلها صحراء لا أنيس بها ولا عمار لها إلا قليل من الناس ، وكانت متصلة العمارة وقد تغيرت محاسنها الآن واستوحشت " (٧) . وامتدت قراها الخراب من الوادي الفاصل بين الواحات الخارجة جنوبا حتى الطرانة وتروجه شمالا ، وأصبحت بلا ساكن ، ومكانا تأوي إليه العربان في أيام نضج التمور ، فتأكل ما فيه وترحل (٨) .

وهكذا فإن التقسيمات الجغرافية للوجه القبلي تقوم على درجة ارتفاع مستوى الأرض من القاهره إلى أسوان ، أو لوقوعها إلى الشرق أو الغرب من نهر النيل ، أو على أساس الأعمال ، مع ملاحظة تركز الأعمال على الضفة الغربية من نهر النيل ؛ لأن السهل الرسوبي للنيل يقع على هذا الجانب .

المناخ ومصادر المياه :-

تعد المياه والحرارة من العوامل الأساسية المؤثرة في المحاصيل الزراعية ، من حيث نوعها وإنتاجها وطبيعتها ، وبالرغم من أن الجفاف هو سمة مناخ مصر ، إلا أن هناك بعض المناطق الشمالية التي تؤدي الأمطار دورا رئيسيا في حجم زراعتها لبعض المحاصيل ، مثل : القمح والفول والشعير في الأراضي العالية ، التي لا تروى عن طريق مياه الفيضان السنوي ، إضافة لإنبات كثير من المراعي الطبيعية (٩) .

وتختلف بداية سقوط الأمطار من جهة إلى أخرى ، إذ تبدأ بالإسكندرية في شهر أيلول ، وفي دمنهور في شهر تشرين الأول ، وفي الخطاطبة في شهر تشرين الثاني (١٠) . ويمتد فصل الشتاء من شهر أيلول

١- مجهول ، كتاب تاريخ مصر ، ص ٥ب- ٦ أ .

٢- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٤٧ .

٣- شيخ الربوة ، نخبة ، ص٢٣٢ / ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ١١ .

٤- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٤٤٧ .

٥- ياقوت ، معجم ، ج ٣ ، ص ٢٦١ .

٦- ابن خلدون ، مقدمة ، ص ٥٧-٥٨ .

٧- ابن إياس ، نشق ، ص ١٣ ب.

٨- مجهول ، كتاب تاريخ مصر ، ص ٥ب-٦ أ .

٩- المقريزي، السلوك ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٦٣١ / ابن حجر ، إنباء ، ج٩ ، ص ٥٠ .

١٠- محمد الصياد ، مناخ غرب الدلتا ، ع٤ ، مجلد ١٥ ، ١٩٥٣ ، ص ٨٢ .

حتى شهر أيار (١) .

وتنحصر كمية الأمطار ضمن شريط ضيق من السهول الساحلية ، إذ يبلغ المعدل السنوي في هذه المناطق نحو ٢٠٠ملم ، ثم يأخذ بالانخفاض كلما اتجهنا نحو الداخل ليصل إلى ٣٣ملم حول القاهرة (٢) ، ويبلغ المعدل العام في وسط الدلتا ٢٧ ملم ، وفي شرقيها ٦ملم وفي غربيها ١ملم (٣) .

وتتفاوت كمية المطر في المنطقة الواحدة من سنة إلى أخرى تفاوتا ملحوظا (٤) ، وعلى ذلك يوصف مناخ المنطقة الشمالية بأنه شامي ، إذ ينبت فيه كثير من الفواكه واللوز والكرم والتين والبقول والرياحين (٥) ، وأما سقوط الثلوج في هذه المناطق فأمر نادر (٦) .

وتؤدي قلة الأمطار وعدم سقوطها في أوانها في الوجه البحري إلى انخفاض ملموس في الإنتاج الزراعي، وقد حصل ذلك في سنة ٨١٨ هـ /١٤١٥م في مناطق الشرقية والغربية والبحيرة وعامة الوجه البحري (٧) . وكان البدو في إقليم مريوط يعتمدون على كمية الأمطار في زراعة الشعير ، وعدم سقوطها يؤدي إلى إلحاق الأضرار بقطعان ماشيتهم (٨) ،كما أن الإنتاج الزراعي في بعض مناطق البحيرة كان يعتمد على هذه الأمطار (٩) .

وتؤثر الأمطار في الوجه البحري في أسعار الغلال ، ففي سنة ٨٢٠ هـ / ١٤١٧م انحبست الأمطار فارتفعت أسعار الغلال (قمح ، شعير، فول) إلى الضعف ، بسبب إمساك أصحابها عن بيع ما لديهم ، ولتوقعهم انخفاضا ملموسا في الإنتاج (١٠) . وفي سنة ٨٢٣هـ /١٤٢٠م تكرر الوضع نفسه ، حيث ارتفعت أسعار الغلال إلى ضعف ما كانت عليه ، ولم تنخفض إلا عندما هطلت الأمطار في الوجه البحري ، بعد أن أشرفت المزروعات على الجفاف (١١) .

١- جامعة الدول العربية ، المناخ الزراعي ، ص ١٤٢ .

٢- سيد مرعي ، الزراعة ، ص ٣٠-٣٤ / الهام ذهني ، مصر ، ص ٢٠٠ / محمد الصياد ، مناخ غرب الدلتا ، ع٢ ، مجلد ١٥ ، ١٩٥٣، ص ٨١- ٨٢ / Boaz , Money , P 9.

٣- سيد مرعي ، الزراعة ، ص٣٣ .

٤- جامعة الدول العربية ، المناخ الزراعي ، ص ١٤٧ .

٥- الكندي ، فضائل ، ص ٤٧ / البكري ، مسالك ، ج١ ، ٥٠٥ / السيوطي ، حسن ، ج٢ ، ١٩٢ .

(٦) ٦- البكري ، مسالك ،ج١ ، ص٥٠٥ / السيوطي ، حسن ، ج ٢ ، ص٢٥٣ .

٧- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق ١ ، ص ٣٣٠ .

٨- محمد عوض ، نهر النيل ، ص ٢٥٣ .

٩- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص٣٤٤ .

(١٠) ١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٣١ .

١١- ابن حجر ، إنباء ، ج ٧ ، ص ٣٧٥ .

ويقل معدل الأمطار بالاتجاه من الشمال إلى الجنوب ، فتعتمد المنطقة الوسطى كالقاهرة وما جاورها على المنخفضات الخماسينية الرطبة التي تتميز بسقوط أمطار غزيرة ضمن فترة زمنية قصيرة ومتباعدة (١) . وقد اعتادت المصادر الإشارة إلى أن أمطار القاهرة تنزل ضمن فترات زمنية قصيرة كأفواه القرب (٢) ، وهذا ما جعل سكان هذه المناطق يتشاءمون من سقوطها ، لما تحدثه من أضرار صحية وفي الممتلكات العامة والخاصة والمزروعات (٣) .

ويسود المناخ الصحراوي القاري بين جنوب الفيوم حتى أسوان ، إذ إن نزول الأمطار في هذه المنطقة أمر نادر ، فقد يسقط في إحدى السنوات ، فتنبت بعض الأعشاب الصحراوية الصالحة للرعي ، ثم ينقطع لسنين ، حتى ينساه الناس (٤) ، ولذلك يكون لدرجة الحرارة دور مهم في طبيعة النباتات وأنواعها ونموها ، فيصل عدد الأيام التي ترتفع فيها درجة الحرارة بين ٤٠- ٤٥°م في منطقة الصعيد إلى ٧٨,٩ يوما في السنة ، وفي أسوان ١٠٦ أيام ، مقابل ٦ أيام في الوجه البحري (٥) ، ويشير بعض المؤرخين للصعيد بأنه حجازي ، أي يصلح لمحاصيل المناطق الجافة ، كالنخل والأراك والدوم والقرظ (٦) .

والنيل هو المصدر الأساس للمياه ، وعرف بالبحر لسعته ، ولكمية المياه الهائلة التي ينقلها كل عام ، ومياهه هي الأساس لقيام حياة زراعية على طول الشريط الضيق في منطقة الصعيد والوجه البحري ، وبالرغم من الاضطراب الواضح لدى الجغرافيين والمؤرخين في تحديد منابعه ، إلا أنهم يتفقون على أنه من جبل شامخ ، يدعى جبل القمر ، وموقعه إلى الجنوب من خط الاستواء بست عشرة درجة(٧) ، وقيل بإحدى عشرة درجة عرض(٨) ، (وتعرف منطقته حاليا بهضبة البحيرات) ، ويخرج من هذا الجبل عشرة أودية ، تتجمع في بطيحتين (مجاميع للمياه) ، يخرج من كل واحدة أربعة أنهار ، وتصب في بحيرة على خط الاستواء تعرف باسم كوري (فكتوريا) ، ومنها يخرج نيل مصر (٩) ، وتبلغ مساحتها ١٦٧ ألف كم٢ ، يدخلها من المياه ١١٤ مليار متر

١- جامعة الدول العربية ، المناخ الزراعي ، ص ١٤٣ .

٢- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ج ١ ، ق٣ ، ص٩٠ ، مجلد ٩ ، ق٢ ، ٣٤٤ / المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، ق٢ ، ص ٤٥٢ ، ج٤، ق١ ، ص ٢٨٠ ، ٣١٠ ، ج٤ ، ق٢ ، ص٦٤٧ ، ٩٤٤ ، ٩٤٥ ، ج٤ ، ق ٣ ، ١١٥٨ / ابن حجر ، إنباء ، ج ٧ ، ص ١٩٩، ج٨ ، ص٣٨ / العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥-٨٢٤ ، ص ١٩٨- ١٤٩ / الصيرفي ، نزهه ، ج ٢ ، ص٢٩٤ ، ٥١٢ ، ج٣ ، ص١٤٤ ، ٢٧٢، ٣١٦ ، إنباء ، ص١٥٢-١٥٣ .

٣- ياقوت ، معجم ، ج ٥ ، ص١٤٠ / ابن الوردي ، خريدة ، ص ٢٤٢ / الباكوي ، كتاب تلخيص ، ص٢٠ ب/ ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٥٦٨ .

٤- جامعة الدول العربية ، المناخ الزراعي ، ص ١٢٧ ، ١٤٥ / سيد مرعي ، الزراعة ، ص ٣٤ .

٥- جامعة الدول العربية ، المناخ الزراعي ، ص١٦٠-١٦١ / سيد مرعي ، الزراعة ، ص ٣٥ .

٦- الكندي ، فضائل ، ص ٤٧ / البكري ، مسالك ، ج ١ ، ص ٥٠٥ / السيوطي ، حسن ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .

٧- الإدريسي ، نزهة ، ج ١ ، ص ٣٢ / ابن خلدون ، مقدمة ، ص٤٧- ٤٨ .

٨- الأنصاري ، نيل الرايد ، ص ١٥ أ .

٩- سهراب ، كتاب عجائب ، ص١٣٨-١٤٠ / شيخ الربوة ، نخبة ، ص٨٨-٨٩ / ابن خلدون ، مقدمة ، ص٤٧-٤٨ / القلقشندي، صبح ، ج٣ ، ص ٣١٦ / الأنصاري ، نيل الرايد ، ص٧ب -٨ أ / مجهول ، تاريخ مصر والروضة ، ص ٧ب .

متر مكعب سنويا ، وفي أثناء مسير النيل حتى مدينة الخرطوم ، يرفده نهر العطبرة المكون من التقاء النيل الأزرق بالأبيض(١) ، وأما حوض النيل ، فيبلغ ٢,٩٠٠,٠٠٠ كم٢ (٢) .

ويبلغ طول النيل في مصر ٧٦٥ ميلا (٣) ، ويتفرع عنه خليج المنهي عند قرية صول على بعد ٤٦,٥ ميلا إلى الجنوب من القاهرة ، ثم ينقسم النيل مرة ثانية عند مدينة شطنوف على بعد ١٦ ميلا للشمال من القاهرة إلى فرعين ، يعرف الشرقي منهما بفرع رشيد ، والغربي بفرع دمياط ، وينتهيان في البحر الرومي حيث يصبان (٤) .

ويوجد في مصر بعض الأودية في الفيوم (٥) ، وفي الصحراء الشرقية (٦) ، إلا أن غالبيتها جفت ، كوادي سنور بقرب بني سويف ، وطرفه بالقرب من المنيا وأسيوط ، وقصاب قرب جرجا وقنا، وأبو واصل بالقرب من الأقصر ، وهذا ما يعلل انخفاض مستوى منسوب مياه النيل (٧) .

وتعتمد منطقة الواحات في زراعتها على الآبار والعيون ، وهي كثيرة الأعداد ، إذ تبلغ في مدينة سنترية نحو عشرين عينا (٨) ، وتستخرج هذه العيون بحفر الآبار ، ولهذه الآبار حفارون وغطاسون متخصصون ، يقدرون في البداية سعة الفوهة التي تكون عادة مربعة ، ثم يبدأون الحفر حتى الوصول إلى الصخر ، فيعملون في الصخر تابوتا يستمرون في حفره حتى الوصول إلى النداوة ، فيعلمون عندها قربهم من المياه ، فيتوقفون عن الحفر ، ويدقون وتدا من حديد مربع يشبه السكة ، وله أربعة أصابع أو خمسة ، وفي ذنبه أربع حلقات من حديد ، يربطونها بحبال من ليف ، ويبدأون ضرب السكة بالصخر إلى أن ينخرق ، وينفجر الماء من خلال السكة ، فيثبتون السكة ويخرجون من البئر ، ثم يسلطون عليه ماء بئر أخرى ، يصب فيها حتى يمتلئ ثلثها أو نصفها ، ثم يخلخلون السكة بالحبال ويقلعونها ، فعندها يخرج الماء من مكان السكة بشدة ، ويفور إلى أن يمتلئ ويفيض على وجه الأرض فلا ينقطع ، وجميع عيونهم على هذه الصورة ، أما أعماق الآبار فتتراوح بين ١٥-٨٠ ذراعا بشكل عام (٩) ، وقد وجدت بعض الآبار المالحة في وسط الرمال ، لكنها لا تصلح لقيام حياة زراعية عليها (١٠) .

١- سيد مرعي ، الزراعة ، ص١٩-٢٢ .

٢- محمد عوض ، نهر النيل ، ص٢٣-٢٤ .

٣- سيد مرعي ، الزراعة ، ص ٢ .

٤- الإدريسي ، نزهة ، ج ١ ، ص ٣٣٣ / أبو الفداء ، تقويم ، ص ٤٦ / الحميري ، الروض ، ص٥٨٧ / ابن السباهي ، أوضح ، ص٩ب / ابن إياس ، نشق ، ص٢٣٣ أ-ب .

٥- النويري ، نهاية ، ج ١ ، ص ٢٧٦ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٦٣ .

٦- Shirley ,The Egyptian , P 12 .

٧- محمد عوض ، نهر النيل ، ص ١٤٣ .

٨- المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ٢٣٥ .

٩- الحسن بن محمد الصفدي ، كتاب بذكر تاريخ مصر وفضلها ، ص٦ أ-ب .

١٠- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج٢ ، ص٢٦٣ .

وفي مصر مجموعة من البرك ، وخاصة في منطقة القاهرة والجيزة ، وهي مسطحات مائية منخفضة كانت تصلها مياه النيل عن طريق الخلجان كبركة السباعين ، وبركة الرطلي التي يصل إليها الماء من الخليج الناصري ، وبركة بطن البقرة ، وبركة الفيل التي تعد أكبرها ، ويدخل إليها الماء من الموضع المعروف بالجسر الأعظم (١) ، وبركة الحبش ، ويدخل إليها الماء من خليج بني وائل (٢) .

ومن هذه البرك ما كان يتكون بسبب بقاء مياه النيل فيها بعد الفيضان ، كالمستنقعات المنتشرة في المنطقة الواقعة بين الجيزة والأهرامات (٣) ، وبركة الفرائين ، وبركة أبو الشامات ، وبركة السقايين ، وبركة الدم ، وبركة السابر ، والفولة طرف القاهرة ، والملا جنوب الأزبكية (٤) .

وكانت هذه البرك تستغل للزراعة كبركة الرطلي التي تزرع بالقرط بعد جفافها ، أو لري بعض البساتين المجاورة ، فقد كانت بساتين القاهرة تسقى من البرك المحيطة بالمدينة ، أوتكون مراعي طبيعية بعد جفافها ونمو بعض الأعشاب التي تصلح للحيوانات (٥) .

ومعظم بحيرات مصر مراكز لتجمع المياه الزائدة على حاجة الري من الخلجان ؛ فخليج الفيوم كان يرفد بركة قارون الواقعة إلى الشمال الغربي من مدينة الفيوم (٦) ، ويستفاد منها في ري بعض المناطق التي تلي جبل الفيوم الذي يحصرها ، وري بعض أراضي قرى الفيوم كمنية البطس وقنى (٧) ، وتبلغ مساحة بحيرة قارون نحو ٢٠٠ كم٢ ، وتنخفض عن مستوى سطح البحر بنحو ٤٥م ، وقد أثبتت المكتشفات الأثرية أن مساحتها قديما كانت أكبر من ذلك (٨) .

وفي منطقة الوجه البحري تقع بحيرة التمساح من ناحية القلزم ، وتشكل نهاية خليج أمير المؤمنين (٩)، وتقع أيضا بحيرتا تنيس ودمياط المتصلتان ، وتنيس هي الشرقية، ويكون ماؤها أكثر السنة مالحا لغلبة مياه البحر عليها ، إذ يدخلها من موضع يقال له الكرباج (١٠) . وأما بحيرة دمياط الغربية ، فيدخل إليها الماء من خليج أشمون ،

١- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ٤٥ / المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص١٦١-١٦٢ .

٢- المقريزي ، خطط، ج ٢ ، ص ١٥٣ ، ١٥٥ .

٣- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٦٠٧ .

٤- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج ٢ ، ص٨٠-٨١ .

٥- المقريزي ، خطط ، ج ٢ ، ص ١٦٢-١٦٣ .

٦- أبو الفداء ، تقويم ، ص ٣٨ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٣٣٧ / ابن السباهي ، أوضح ، ص٣ب / الأنصاري ، نيل الرايد ، ص ١٦ب .

٧- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ١٥١-١٥٢ .

٨ -سيد مرعي ، الزراعة ، ص ٢ .

٩- المقريزي ، خطط ، ج ٢ ، ١٤٣ .

١٠- أبو الفداء ، تقويم ، ص ٣٩ ، ١١٩ / ياقوت ، معجم ، ج ٢ ، ص ٥١ .

المنفصل عن النيل عند جوجر والمنصورة (١) . وأخيرا بحيرة نسترّوة بالقرب من البرلس على بعد سبعة أميال من مدينة رشيد ، وفيها جزيرة تسمى نسترّوة ، وجميع أهلها يعتاشون من صيد السمك ، لأنهم لا مزدرع لهم (٢) .

وقد زاد افتقار مصر لموارد المياه الطبيعية من الأمطار والعيون والأودية أهمية النيل ، وجعله يشكل قوام الحياة الزراعية في مصر ، ومن هنا يأتي اهتمام أهل مصر بأوضاعه ومراقبتها ، وقيام كثير من المعتقدات الدينية والاحتفالات الاجتماعية المرتبطة به .

السكان :-

استقر *العرب* في مصر منذ فتحها ، وشهدت نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني خطوة بارزة في تاريخ استقرارهم وانتشارهم إلى الريف المصري ، عندما نقل عبيد الله بن الحبحاب ١٠٩-١١٧ هـ/٧٢٧-٧٣٥م بطونا من قيس وأسكنهم منطقة بلبيس والحوف الشرقي ، وشجعهم على فلاحة الأرض واتخاذ الزرع معاشا (٣) ، وزادوا بالتدريج حتى تمكنوا مع نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث من السيطرة على معظم المناطق الريفية ، ويتضح ذلك من ثورة سنة ٢١٦-٢١٧ هـ / ٨٣١-٨٣٢م .

وقد تتابعت هجرة العرب فيما بعد ، فهاجرت ربيعة في منتصف القرن الثاني ، وكنانة في أواسط القرن الرابع ، وهلال في القرن الخامس للهجرة ، إضافة إلى الانتشار التدريجي الذي لا يسجل في العادة (٤) .

وتعد قبيلة جذام من أوائل القبائل العربية التي استقرت في مصر بعد الفتح ، فاتخذوا من منطقة بلبيس والحوف الشرقي مقرا لهم (٥) ، ثم أخذت بطونهم بالانتشار حتى الدقهلية والمرتاحية غربا(٦) ، وعقبة أيله والكرك شرقا (٧) ، وعدوا في الفترة المملوكية " مشايخ وخفراء وملاك

١- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٣٣٩ / ابن السباهي ، أوضح ، ص ٨ أ .

٢- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٣٣٨-٣٣٩ / ابن السباهي ، أوضح ، ص٧ب-٨ أ / الأنصاري ، نيل الرايد ، ص ١٦ب .

٣- المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص٨٠ / الدوري ، التكوين ، ص٦٨ .

٤- الدوري ، التكوين ، ص ٦٩ .

٥- حول بطون جذام راجع : القلقشندي ، صبح ، ج١ ، ص ٣٨٦ ، ج ٤ ، ص ٧١-٧٢ ، نهاية الأرب ، ص ١١٤، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ٣٤٦ / المقريزي ، البيان ، ص ١٩-٢٠ ، ٢٣-٢٤ ، ٢٦-٢٧ / الصيرفي ، إنباء ، ص٤٤٢ / السويدي ، سبائك ، ص ١٦٢ ، ٢١١-٢١٢.

٦ – القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص ٢٤٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٦ ، ٣٦١ ، ٣٧٤ .

٧- ابن خلدون ، تاريخ ، مجلد ٢، ص٥٣٥ / القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص ٣٣٣ .

مـزارع " (١) ، ومـن قراهم : هـربيط وبسـطة وكفـر برسوط وتل محمد وأم الرماد ومنية غمر وريفها وبرهنموش وتل طنبول ودقـدوس ودمـريط من الشـرقية ، ونوب مـن القليوبيه (٢) ، وأشمـون الرمـان مـن الغربيـة (٣) ، ونـزل بعـض البطـون في الإسـكندرية (٤) ، وقـد بلـغ عـدد فرسـانهم الذين قدمـوا للمشـاركة في الحملـة ضـد تيمـور لنـك سنـة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠م نحو ٤,٠٠٠ فارس (٥) .

ووجدت قبيلة طيىء في منطقة سخا ودمياط ونواحيهما من الغربية (٦) ، وتمكنوا في الفترة المملوكية من الحصول على إقطاعات واسعة في هذه المناطق (٧) .

أما قبيلة فزارة في الوجه البحري فتوزعت على أعمال كثيرة ، بعد أن قدمت بعض بطونها من برقة(٨) ، فكان لهم في القليوبية خراب فزارة (٩) ، ومنهم جماعة بضواحي القاهرة (١٠) وسنديس (١١) ، وانتشروا في الغربية ما بين ناحيتي سخا وسنهور (١٢) ، وزفتى وما والاها (١٣) ، كما وجدت بعض بطونهم على أطراف الشرقية(١٤) والبحيرة (١٥) ، وساهمت العداوة بين بني مازن وبدر أكبر بطونهم في استقرار كل منهم في قرى خاصة (١٦) .

وتوزع بنو عذرة بدمياط (١٧) ، والدقهليه والمرتاحيه (١٨) ، وخاصـة في كـوم الثعـالب (١٩) ، وكـوم بني مراس ومنية محمود ومنية عدلان (٢٠) .

١- القلقشندي ، صبح ، ج١ ، ص ٣٨٦ / المقريزي ، البيان ، ص ٢١ / السويدي ، سبائك ، ص١٨١ .

٢- المقريزي ، البيان ، ص ٢٦-٢٧ / الخالدي ، المقصد ، ص١٤٤ ب .

٣- القلقشندي ، قلائد ، ص ٦٢ .

٤- القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص ٢٠٧ / المقريزي ، البيان ، ص ٢٦-٢٧ .

٥- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١٢، ١٩٩ .

٦- القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ٢٩٧ / السويدي ، سبائك ، ص ٢٤٩ .

٧- الخالدي ، المقصد ، ص ١٤٤ ب / إبراهيم طرخان ، النظم الإقطاعية ، ص ٢٣٥ .

٨- القلقشندي ، قلائد ، ص ١١٣-١١٤ .

٩- القلقشندي ، صبح ، ج ١ ، ص ٣٩٩ / المقريزي ، البيان ، ص٤٩ .

١٠- ابن فضل الله العمري ، القبائل العربية ، دوروتيا كرافولسكي ، ص ١٦٥ .

١١- القلقشندي ، قلائد ، ص١١٣-١١٤ .

١٢- أحمد بن زنبل ، تاريخ ، ص ٧ ب.

١٣- القلقشندي ، قلائد ، ص ١١٣.

١٤- المقريزي ، البيان ، ص ٤٩ .

١٥- السويدي ، سبائك ، ص ٢١٨ .

١٦- نفس المصدر ، ص ٢١٦ .

١٧- القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص ٣٥٩ .

١٨- نفس المصدر ، ص ١٢٩ ، ١٦٤ ، ٢٦١ ، ٢٩٧ ، ٣٠٨ .

١٩- نفس المصدر ، ص ١٥٥ .

٢٠- القلقشندي ، قلائد ، ص ٤٨-٤٩ / المقريزي ، البيان ، ص ٦٣-٦٤ / السويدي ، سبائك ، ص ١١٠-١١٢.

وضمت البحيرة القسم الأكبر من العربان في مصر ، كبني حفص من قريش (١)وفزارة (٢) وصندفا (٣) وبني خفاجة من عامر بن صعصعة (٤) ، وكانت الإمرة فيهم في بني التركية ، إلى أن هاجر القسم الأعظم منهم إلى الجيزه (٥) .

وتعد البحيرة محل البداوة ، حيث عاشت فيها قبائل نصف مستقرة كبني عزالة الذين اعتمدوا على تربية الأغنام ، وبني سليم من لبيد الذين قدموا من برقة (٦) ، بسبب جدب بلادهم وطلبهم للمرعى (٧) . وتتضح كثرة عدد أبناء القبائل العربية في البحيرة من مقتل ٣,٠٠٠ رجل في صراع داخلي بين بطونهم المختلفة (٨) ، وقدوم ٦,٠٠٠ فارس منهم في سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م للاشتراك في الحملة التي أعدت لمواجهة تيمور لنك (٩) .

وتوطنت قبيلة قيس عيلان في المنطقة الممتدة بين الإسكندرية وبرقة ، ومن أقوى بطونها لبيد (١٠) الذين نقل السلطان المؤيد شيخ سنة ٨١٨هـ / ١٤١٥م جماعة كثيرة منهم ، ووطنهم عمل البحيرة ، بعد إجلائه لقبيلة زنارة البربرية (١١) ، وتميزت لبيد بعلاقاتها العدائية مع السلطة وخسارتها الكبيرة للرجال والمواشي والأموال، وحفاظها على قوتها بالرغم من ذلك (١٢) .

ووجدت بعض الجماعات الصغيرة في الوجه البحري ، كبني غطفان الذين نزلوا إلى جانب بني سليم منطقة برقة (١٣) ، والعمريين الذين ينتسبون إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، والذين نزلوا منطقة البرلس (١٤) ، ونزلت فرقة من بني كنانة بن خزيمة المنطقة بين ثغر دمياط إلى ساحل البحر (١٥) ، ونزل عدد قليل من تغلب بن وائل بعض مناطق الشرقية (١٦) .

١- القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص ٤٢٢ .

٢- نفس المصدر ، ص ١٦٠ .

٣- ابن قاضي ، تاريخ ، ج٣ ، ص٦٣٦ .

٤- السويدي ، سبائك ، ص ١٧٠ .

٥- الخالدي ، المقصد ، ص ١٤٤ ب .

٦- آشتور ، التاريخ ، ص ٣٧٦ .

٧- المقريزي، السلوك ، ج٤ ،ق ٢ ،ص٩٣٩ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٤ ، ص ٢٤٤ / الصيرفي ، نزهة ، ج ٣ ، ص ١١٣ .

٨- ابن شاهين ، زبدة ، ص ٣٦ .

٩- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١٢ ، ص ١٩٩ .

١٠- القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص ٤١٠ / المقريزي ، البيان ، ص ٤٨ .

١١- القلقشندي ، قلائد ،ص ١٢٦ .

١٢- ابن إياس ، نشق ، ص ١٤ أ .

١٣- المقريزي ، البيان ، ص ٧٣ .

١٤- القلقشندي ، قلائد ، ص ١٤٢ / المقريزي ، البيان ، ص ١١ .

١٥- ابن فضل الله العمري ، القبائل العربية ، دوروتيا كرافولسكي ، ص ١٥٦ .

١٦- القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص ٢٩٧ / السويدي ، سبائك ، ص ٢٤٩ .

وقد تركز الاستقرار في الوجه القبلي على ضفتي النيل الشرقية والغربية ، وتميزت قراه بشدة تقاربها ، إذ لا تزيد المسافة بين القرية والأخرى على يوم أو نصف يوم (١) ، فنزل عمل الجيزة بنو كلاب ببيدق(٢) ، وعزالة (٣) وسنبس طيء حول سقارة (٤) ومنشأة دهشور (٥) ، ومحارب التي اعتادت انتجاع هذه البلاد وأطراف البهنساوية (٦) .

أما عمل الإطفيحية ، فكان مركزا لاستقرار البطون المختلفة من لخم ، ففي البر الشرقي بنو سماك بين طارف وببا إلى منحدر دير الجميزة ، وبنو عيسى وبنو حدان بدير الجميزه إلى ترعة صول ، وبنو راشد وبنومعمر في مسجد موسى ، وبنو جعد في ساحل إطفيح ، وبنو بحري بالحي الكبير ، وغنيم بالعدوية ودير الطين إلى جسر سوهاج ، ولبني عمر نصف حلوان ، ولجحرة نصف حلوان وطرا (٧) . ونزل إلى جانب لخم هذه المنطقة بطون من الخزرج بالحي الصغير (٨) ، وبعض بطون جذام ، بعد هجرة قسم من لخم للبر الغربي من النيل . ولوحظ أن القسم الأكبر من لخم احترف الزراعة (٩) .

وقد شكلت البهنسا إحدى مراكز استقرار القبائل المضرية ، كبني عدي من قريش (١٠) ، والزبيريين من نسل عبد الله بن الزبير (١١) ، والبكريين من بني عبد الرحمن بن أبي بكر بمدينة دهروط (١٢) ، وبني أسد(١٣) ، وبني عبد الدار بن قصي بن كلاب بن شيبة بمنطقة سفط وما يليها ، واشتهروا بجماعة نهار(١٤) ، إضافة إلى بطون من فزاره ولبيد بن سليم بن قيس عيلان (١٥) .

١- الإدريسي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٣١ .

٢- القلقشندي ، قلائد ، ص ١٤٦ .

٣- أحمد بن زنبل ، تاريخ ، ص ١٨ ب .

٤- القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص ٢٩٧ / السويدي ، سبائك ، ص ٢٤٩ .

٥- القلقشندي ، قلائد ، ص ٨٧ .

٦- نفس المصدر ، ص ١٢٨ .

٧- ابن فضل الله العمري ، القبائل العربية ، دوروتيا كرافولسكي ، ص ١٦٨ / القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٦ ، ٢٥٨، ٢٥٩ ، ٢٦٣ ، ٣٦٢ ، ٣٦٩ ، ٣٧٦ ، ٤٠٣ ، ٤٠٦ ، ٤١٧، ٤٢١، ٤٢٦ / المقريزي ، البيان ، ص٦٠-٦١ / السويدي ، سبائك ، ص١٦٣-١٧٣ .

٨- ياقوت ، معجم ، ج١ ، ص ١١٨ .

٩- القلقشندي ، قلائد ، ص٧١.

١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق ٢ ، ص٣٩٠ ، خطط ، ج١ ، ص ٢٣٨ .

١١- القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص ٣٣٩ .

١٢- نفس المصدر ، ص ١٢٢ .

١٣- القلقشندي ، صبح ، ج١ ، ص ٤١٠ .

١٤- القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص ٣٣٦ .

١٥- الخالدي ، المقصد ، ص١٤٤ب .

وشكل بنو كلاب معظم سكان عمل الفيوم ، إذ كان لهم ثلاث وستون قرية ، ويليهم بنو عجلان ولهم أربع وأربعون قرية من أصل مئة وست عشرة قرية في عمل الفيوم (١) ،كما نزل إلى جانبهم أعداد قليلة من بني سليم بن قيس عيلان (٢) .

وعرفت بلاد الأشمونين ببلاد قريش ، للدلالة على أن معظم سكانها قرشيون ، ومن أشهرهم الجعافرة من بني جعفر بن أبي طالب بدروط سربام ، التي عرفت بدروط الشريف (٣) ، وفي المنطقة الممتدة بين شمال منفلوط وحتى سملوط للغرب منها ، وفي حرجة منفلوط (٤) . ومنهم بنو الليث بن كنانة (٥) ، وبنو أمية ومنهم بنو مسلمة بن عبد الملك ، وبنو عسكر الذين يعودون في نسبهم لأحد موالي عبد الملك بن مروان، ويدعون أنهم صليبة ، وبنو خالد بن يزيد بن أبي سفيان في أرض دلجة (٦) ، وبنو حيدر من بني الوليد بن عبد الملك (٧) ، وجماعة من بني أبان بن عثمان (٨) .

ومن بطون قريش الأخرى : الزبيريون من بني عبد الله بن الزبير (٩) ، والعمريون الذين يدعون أن نسبهم يعود إلى عمر بن الخطاب (١٠) ، وبنو الحسن في حرجة منفلوط (١١) ، وبنو قنبر مولى علي بن أبي طالب (١٢) ، وبنو عرك في البدرمان والقايم ، وفي سفط أسكر والبرحين وطحا المدينة (١٣) ، وفي منطقة تنده وما حولها (١٤) ، وبنو مخزوم (١٥) .

وتعد قبيلتا جهينه وبلي من القبائل العربية القوية في الأعمال القوصية والمنفلوطية والسيوطية ، فانتشرت جهينة على الضفة الشرقية من النيل ، بين عقبة قاو من القوصية إلى عيذاب ، وبلي ما بين جسر سوهاج إلى قريب قمولة ، واشتهر من قراهم خراب بني شادي ، نسبة لأحد بطونهم ، وطوخ الجبل وفرشوط وبلاد إخميم شمالها وجنوبها (١٦) .

١- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ١٢-١٤ .
٢- السويدي ، سبائك ، ص ١٤٤ .
٣- الخالدي ، المقصد ، ص ١٤٣ ب .
٤- ابن فضل الله العمري ، القبائل العربية ، دوروتيا كرافولسكي ، ص ١٦١ / المقريزي ، البيان ، ص ٢٨ ، ٣٩-٤٠ .
٥- القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص ٧٢ .
٦- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٣٩ ،
٧- القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص ٣٦٠ .
٨- المقريزي ، البيان ، ص ٤٠-٤٣ .
٩- القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص ٣٦٠ .
١٠- المقريزي ، البيان ، ص ٤٣ .
١١- نفس المصدر ، ص٤٠ .
١٢- القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص ٣٦٠ .
١٣- القلقشندي ، قلائد ، ص١٤٣-١٤٤ .
١٤- القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص ٢٤١ .
١٥- القلقشندي ، صبح ،ج١ ، ص ٤٠٩ .
١٦- القلقشندي ، قلائد ، ص٤٤-٤٦ .

واستقرت جماعة عامر بن صعصعة بن هلال في أصفون (١) ، وساقية قلتة من الإخميمية (٢) ، وما بين إسنا وأسوان (٣) ، وخالطهم بنو كنانة بن خزيمة (٤) ، وبنو هذيل (٥) .

وسيطر بنو الكنز بن ربيعة على منطقة أسوان في نحوا العقد السابع من القرن الثامن الهجري ، وتمكنوا من تدمير قسم كبير من المدينة ، ثم هاجرت جماعات منهم إلى الواحات الداخلة (٦) ، وشاركهم منطقة أسوان جماعات من قريش وقحطان ومضر (٧) .

ويشير المقريزي ٨٤٥ هـ /١٤٤١م إلى " أن الغلبة والكثرة ببلاد الصعيد لست قبائل ، وهم بنو هلال وبلي وجهينه وقريش ولواته وبنو كلاب ، وكان ينزل مع هؤلاء عدة قبائل سواهم ، من الأنصار ومن مزينه وبني دراج وبني كلاب وثعلبة وجذام " (٨) .

اتجهت القبائل العربية في استقرارها إلى نمط معين ، هو نزول كل قبيلة في منطقة أو قرى خاصة بها ، وهذا يفسر ندرة وجود القرى المشتركة بين البطون والقبائل المختلفة ، ومما ساعد على ذلك اتجاه الدولة إلى سياسة تحجيم الهجرة من قرية إلى أخرى ، بربط أبناء القرية الواحدة بخدمات وضرائب محددة ، وعدم السماح للفلاحين التابعين لمقطع القرية بالانتقال من قرية إلى أخرى ، إلا بعد الحصول على إذن بذلك ، حتى لو كان الانتقال لفترة مؤقتة ، كي لا تتضرر المصالح الإقتصادية والإقطاعية (٩) ، ولكن ذلك لا يصدق أثناء انتشار الطواعين .

ويمكن التوفيق بين قول المقريزي " اعلم أن العرب الذين شهدوا فتح مصر ، قد أبادهم الدهر ، وجهلت أحوال اكثر أعقابهم ، وقد بقيت من العرب بقايا بأرض مصر فيمن بقي " (١٠) ، واستمرار تواجد أبناء القبائل العربية ، كجذام ولخم وبلي وبهراء في الفترة المملوكية ، وانتشارهم ضمن المناطق التي استقروا بها منذ بداية حركة الفتح ، وفي مطلع القرن الأول الهجري ، بما ذهب إليه الدوري من أن المقصود بذلك هو" تحول جماعات القبائل إلى مجتمعات حضريه ، وإلى اقتصار الحياة القبلية على مناطق اكثر ملاءمة لها، كما تعني أن اللغة

١- المقريزي ، البيان ، ص ٢٨ .

٢- السويدي ، سبائك ، ص ١٥٦ .

٣- الإدفوي ، الطالع ، ص ٣ / ابن خلدون ، تاريخ ، مجلده ، ص ١٠١٧ .

٤- المقريزي ، البيان ، ص ٤٧ .

٥- القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص ٤٣٥ .

٦- المقريزي ، السلوك ،ج٣ ، ق١ ، ١٠٩ / ابن إياس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٩ / محمد الحويري ، أسوان ، ص٤٠-٤٤ .

٧- الحميري ، الروض ، ص ١٥٨ .

٨- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٩٠ .

٩- Poliak , The Influence , (BSOAS) , VOL X , 1939- 42 , P 870 .

١٠- المقريزي ، البيان ، ص ٣ .

العربية والثقافة العربية ، كانت عامة تمكن من الإندماج الشامل " (١) .

ويمكن تصنيف العرب من الناحية الاقتصادية إلى ثلاث فئات ، مارست الفئة الأولى التجارة مع بلاد النوبة ، وحاولت السيطرة على تجارة الحبوب (٢) ، واهتمت الفئة الثانية بتربية الماشية مصدرا للثروة والغنى ، واستقر معظمهم في المنطقة الفاصلة بين الأراضي الخصبة والصحراوية ، واتخذوا من بعض الجهات والأراضي الخصبة مراعي لهم ، كالجماعات التي نزلت برقة ، فمارست الزراعة وتربية الماشية بالدرجة الأولى (٣) . وأما الفئة الثالثة ، فهم العرب الذين استقروا في المناطق الريفية والقرى المصرية ، امتهنوا الزراعة ، إلى جانب اهتمامهم بتربية المواشي ، فامتلكت جذام كثيرا من المزارع بالشرقية (٤) ، ووصف الزبيريون بأنهم " أهل ضرع وزرع وحرث وماشية " (٥) ، واشتغل قسم كبير من بني الكنز بالزراعة في منطقة أسوان (٦) ، وكان لبدو تروجه كثير من المزارع والضياع (٧) ، وزرع العربان كوم عجاج وكوم الحصة من الإسكندرية (٨) .

وقد زرع بعض مشايخ القبائل مساحات واسعة من الأراضي الزراعية ، فكان لشيخ مدينة زفتا مئة فدان من قصب السكر (٩) ، وزرع ابن فضيل شيخ ملوى خمسة آلاف فدان من قصب السكر في كل سنة (١٠) ، ونزل ابن شماس الناصرية بعد إنشائها سنة ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م ، وعمر السواقي والدواليب (١١) ، وأدى هذا التحول إلى الزراعة والاستقرار وفقدان العرب النجدة إلى عدهم عناصر لا أهمية لها في نظر الدولة ، بالرغم من كثرة عددهم وأموالهم (١٢) .

وتعد المنطقة الممتدة بين الإسكندرية وبرقة من المواطن الأولى للبربر في مصر ، ومنذ قيام الدولة الفاطمية بدأت كبرى قبائلهم التغلغل والانتشار نحو المناطق الداخلية كالبحيرة والغربية والمنوفية والجيزية والبهنساوية ، إضافة للإخميمية والأشمونين والفيوم .

١- الدوري ، التكوين ، ص ٧٠.

٢- آشتور ، التاريخ ، ص ٣٧٥ .

٣- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أيمن سيد ، ص١٠١ .

٤-القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص٢٨٧ .

٥- القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص ١٣٦ / المقريزي ، البيان ، ص ٤٢ .

٦- السخاوي ، التبر ، ص ٩٣ .

٧- الوطواط ، مباهج ، ص١٣١ .

٨- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ١٢٧ .

٩- ابن حجر ، إنباء ، ج٣ ، ص ٣٥ .

١٠- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص٤٧٢ .

١١- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص ١٢٩ .

١٢ - القلقشندي ، صبح ، ج ٤ ، ص ١٧٥ .

ومن أكبر قبائلهم لواتة ، ومن بطونها في البهنسا بنو زعازع وحديدي وبركين ، بين أقلوسنا إلى شمال طنبدى ، وبنو مغاله من بلار ما بين سملوط إلى الساقية ، وبنوحد وخاص في الكفور الصوليه وسفط جرجه وإهريت وتويرة ودلاص (١) .

ومن الأعمال الأخرى التي استقرت بها قبيلة لواتة عمل الفيوم ، إذ كان لهم به إحدى عشرة قرية (٢) ، وعمل الواحات وفيها آل عبيد خاصة (٣) ، واستقروا في مدينة سنترية ، وبلغ عددهم في بداية القرن الثامن الهجري نحو ٦٠٠ رجل (٤) ، وهي المدينة الوحيدة من مدن الواحات التي انفردوا بسكناها من غيرالعرب (٥) ، وفي عمل الجيزية ، بمنطقتي سقارة والبدرشين (٦) ، ثم انضم إليهم بنو زنارة في سنة ٨١٨ هـ/ ١٤١٥م ، عندما أجلاهم السلطان المؤيد شيخ من البحيرة (٧) .

وهاجرت هوارة من البحيرة إلى بلاد الصعيد سنة ٧٨٢هـ /١٣٨٠م لإخفاقها في التصدي لتحالف القبائل العربية وزنارة ضدها (٨) ، فانتشرت على طول مجرى النيل ، وأخضعت كثيرا من العربان لسلطتها بسبب كثرة أموالها وعددها (٩) البالغ حسب جريدتها ٢٤ ألفا (١٠) .

ونزلت فرقة من هوارة في الأعمال البهنساوية تحت إمرة بني مازن إلى أن استطاع أولاد غريب انتزاعها منهم بعد فترة وجيزة ، وفي سنة ٨٣١هـ / ١٤٢٧م عاود بنو مازن إنتزاعها منهم إلى حين انقسامهم إلى خمس فرق سنة ٨٣٨ هـ / ١٤٣٤م ، لكل منها شيخ يعودون إليه . أما القسم الأكبر فقد نزل الضفة الغربية لنهر النيل ، في الأعمال الإخميمية ، خاصة ما بين جرجا التي كانت خرابا وعمروها وجعلوها مقر إقامتهم ، حتى أسيوط على طول مجرى النيل ، وبوتيج وطما وطهطا والمراغة وشندويل وجزائرها ، ومنشأة والبلينه وفرجوط وهو إلى أرمنت وإسنا وفيما بينهما من البلاد والجزائر، ويقابلها في الجهة الشرقية من النيل أبويط إلى آخر جرجة

١- القلقشندي ، قلائد ، ص ١٧٣-١٧٤ / المقريزي ، البيان ، ص ٢٨ ، ٥٣-٥٦ / الخالدي ، المقصد ، ص ١٤٣ب-١٤٤ب .

٢- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ١٤ .

٣- ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٤٤ .

٤- القلقشندي ، قلائد ، ص١٧٤ .

٥- ياقوت ، معجم ، ج٣ ، ص٢٦١ .

٦- القلقشندي ، قلائد ، ص١٧٤ .

٧- نفس المصدر ، ص١٧٥ .

٨- القلقشندي ، صبح ، ج١ ، ص ٤١٨ .

٩- القلقشندي ، صبح ، ج ٤ ، ص ٤١٧ .

١٠- ابن شاهين ، زبدة ، ص ١٠٥ / إبراهيم طرخان ، النظم الإقطاعية ، ص ١٥٦ .

قوص. وبلغ إقطاع شيخهم إمرة طبلخاناة (١) ، واعتنوا بتربية المواشي وزراعة المناطق التي استقروا بها ، وإنشاء كثير من الدواليب ومعاصر قصب السكر (٢) ، فكان لابن زعازع كثير من القنود والأعسال والمعاصر (٣) .

أما *القبط* فتضم بلاد الصعيد القسم الأكبر منهم ، ويطلق عليهم لقب المريس ، ويطلق على من كان منهم في الوجه البحري اسم البيما (٤) . واستقروا في قرى خاصة بهم ، وبنوا كثيرا من الأديرة والكنائس (٥) ، خاصة أن الإسلام لم يمنعهم من البناء إلا في البلاد الممصرة فقط (٦) ، وبلغ عدد أديرتهم وكنائسهم ما يقرب الألف (٧) ، منها ٥٨ ديرا كانوا يحملون إليها النذور والقرابين (٨) ، وتوزعت هذه الأديره والكنائس على ضفتي النيل الشرقية والغربية ، مع تركزها على الضفة الغربية ؛ لأنها الأكثر عمرانا (٩) .

واحتفظ أكثر أقباط الصعيد بلغتهم الخاصة ، فكان معظم نسائهم وأولادهم لا يعرفون ولا يتكلمون إلا القبطية الصعيدية (١٠) ، ولم تفقد هذه اللغة قيمتها إلا بعد تحويلهم كثيرا من كتبهم وطقوسهم إلى اللغة العربية (١١) .

وتمكن أقباط المدن من الاستئثار ببعض الوظائف الحسابية في الدواوين ، وجمع بعض الضرائب ، وتسلموا منصب الوزارة في بعض الأحيان (١٢) . وكانت الفلاحة مهنة أقباط الأرياف (١٣) ، حتى إن بعض الرهبان مارسوا الزراعة ، كرهبان دير نهيا الذين كانوا يزرعون الأراضي التابعة لهذا الدير بعد انحسار مياه النيل عنه(١٤) .

١- الخالدي ، المقصد ، ص ١٤٤ أ .

٢- المقريزي ، البيان ، ص ٥٨ .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص٧٠١ .

٤- شيخ الربوة ، نخبة ، ص٢٦٦ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٢٨ .

٥- الإدريسي ، نزهة، ج١ ، ص ٣٤٣ / المقدسي ، أحسن ، ص ١٩٣ / الهام ذهني ، مصر ، ص ٢٧٩ .

٦- ابن نجيم ، رسائل ، ص ١٢٠ .

٧- ابن شاهين ، زبدة ، ص ٣٣ .

٨- سعيد عاشور ، المجتمع ، ص ٤٠ .

٩- البكري ، قطف ، ص ١٦٤ أ .

١٠- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٥٠٧ .

١١- إدوارد لين ، المصريون ، ص٣٩٩ .

١٢- ابن الأخوه ، معالم ، ص ٤٣ .

١٣- ابن خلدون ، تاريخ ، مجلد ٢ ، ص١٤٨ .

١٤- الشابشتي ، الديارات ، ص٢٩٤ / ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أحمد باشا ، ص٣٦٢ / الباكوي ، كتاب تلخيص ، ص ٢٢ ب.

وتتوزع الأقباط في مختلف أعمال الوجه القبلي ، فكانت حلوان من الإطفيحية تضم عددا كبيرا منهم (١) ، ووجد أكبر عدد في البهنساويه (٢) ، واختصوا بقرى أرجنوس ومدينة بيبج وصا ودياي وفرنوة(٣) ، وفي عمل الفيوم في دير القلمون . وبلغ عدد من يدفع الجزية منهم ١١٨٣ رجلا في سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م (٤) ، واختصوا بقريتي بني خفرا ومنشأة أولاد عرفة (٥).

وانتشر الأقباط في عمل الأشمونين (٦) ، ومن قراهم بلاود ودقشير (٧) ، وشكلوا معظم أهل أنصنا (٨) ، وسكان منية بني خصيب (٩) ، وفي المنفلوطية استقروا في أبنوب (١٠) . وفي عمل الأسيوطية بلغ عدد عائلاتهم في أسيوط مئة عائلة ، وانخفض عدد كنائسهم من خمس وسبعين كنيسة إلى ثلاث أو أربع في نهاية الدولة المملوكية (١٢) ، وانتشروا في قرى طما وأدرنكة وأصفون وما حولهما (١٣) .

أما في عمل القوصية والإخميمية فوجدوا في قوص (١٤) وقرية دمقرات بالقرب من إسنا (١٥) ، وفي إخميم ، حيث وجد لهم عدد كبير من الأديرة التي اعتمدت على الزراعة وتربية الحيوانات والطيور ، وخاصة الدجاج والإوز والحمام (١٦) ، وفي مدينة جرجا (١٧) ، وقرية دمنو (١٨) ، وأخيرا كان لهم في الواحات قريتا الفرفرون (١٩) والقلمون (٢٠) .

١- الشابشتي ، الديارات ، ص ٣٩٨ / ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أحمد باشا ، ص ٣٧١.

٢- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٥١٨ / البكري ، قطف ، ص ١٦٩ أ .

٣- ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٣٣-١٣٤ .

٤- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٢٤ .

٥- نفس المصدر ، ص ١٣ .

٦- النويري ، نهاية ، ج١ ، ص٢٧٧ .

٧- المقريزي ، خطط ، ج ٢ ، ص ٥١٩

٨- ياقوت ، معجم ، ج٢ ، ص ١٠٣ / الوطواط ، مباهج ، ص ٢٧ .

٩- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص ٢٥٤ .

١٠- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٢ ، ق٢ ، ص ٤٦٩ / ابن قاضي شهبة ، تاريخ ، ج٣ ، ص ٦٢٥ .

١١- ياقوت ، معجم ، ج ٢ ، ص ١٩٣ .

١٢- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٦١٢ .

١٣- الوطواط ، مباهج ، ص ١٩٥ / المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٥١٩ .

١٤- البكري ، قطف ، ص ١٦٧ أ .

١٥- ياقوت ، معجم ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ .

١٦- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أحمد باشا ، ص ٣٧٥ / ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٦١٤ .

١٧- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٦١٣ .

١٨- ياقوت ، معجم ، ج٢ ، ص ٤٧٢ .

١٩- ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٤٥ .

٢٠- ابن دقماق ، الإنتصار ، ج٥ ، ص١٢ .

وعاش الأقباط في الوجه البحري فكان لهم منية السيرج ، واهتموا بزراعة العنب (١) ، وفي سرياقوس (٢) والمطريه (٣) ، وفي القليوبية بمنية بني كنانة (٤) ، وسنديس (٥) ، وفي المنوفية بمدينة منف (٦) ، وفي الغربية بأشموم حريس (٧) ، وبرمة (٨) وشبرا الخيام التي تعد مركزا لصناعة الخمور (٩) .

وقد قطن قسم كبير من الأقباط مدينة دمياط وقراها ، كأبوان (١٠) وشطا (١١) ، وتنيس التي بلغ عدد من بها في القرن ٥هـ /١١م عشرة آلاف نسمة (١٢) .

وكان عدد الأقباط في الشرقية قليلا جدا ، وكثروا في المنطقة الممتدة بين الفيوم حتى البحيرة ، في وادي هبيب الذي احتوى سبع كنائس مشهورة (١٣) ، إضافة إلى وجودهم في المدن الرئيسية ، كالإسكندرية والقاهرة (١٤) .

أصبح الأقباط في الفترة المملوكية أقلية دينية (١٥) ،وأشار المقريزي ٨٤٥هـ /١٤٤١م إلى أنه " بعد المئة

١- المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ، ق٣ ، ص٦٥٦ .

٢- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أحمد باشا ، ص ٣٦٠ .

٣- ابن خلدون ، تاريخ ، مجلد ٢ ، ص ١٤٩ .

٤-ابن حجر ، إنباء ، ج٩ ، ص ١٤٧ / السخاوي ، الضوء ، ج٤ ، ص ٧٤ .

٥- ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٣٤ .

٦- ياقوت ، معجم ، ج ٢ ، ص ٥٤ .

٧- السخاوي ، الضوء ، ج١٠ ، ص ١٥٠.

٨- ابن حجر ، إنباء ، ج ٢ ، ص ١٢٦ .

٩- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ٥٦٥ .

١٠- ياقوت ، معجم ، ج١ ، ص ٨٠.

١١- المقدسي ، أحسن ، ص٢٠٢.

١٢- البكري ، مسالك ، ج٢ ، ص ٦٢٣ / المقدسي ، أحسن ، ص٢٠/ مجهول ، الإستبصار ، ص٨٨ .

١٣- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أحمد باشا ، ص ٣٧٤ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص١٨ .

١٤- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أيمن سيد ، ص ٧٥ .

١٥- Poppcr , Egypt , 2 , P 1/ Donald P . Little , History , P552.

الثانية من سني الهجرة كثر انتشار المسلمين في قرى مصر ونواحيها " (١) . ثم تتابع إسلام القبط خاصة بعد قمع الخلافة ثورة ٢١٦-٢١٧ هـ / ٨٣١-٨٣٢ م ، ومن "حينئذ ذلت القبط في جميع أرض مصر ولم يقدر أحد منهم الخروج على السلطان وغلبهم المسلمون على عامة القرى " (٢) .

ومن الدلائل الواضحة على هذا التحول أن عمل الفيومية الذي يعد من مراكزهم الأساسية لم يكن به سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢م سوى ١١٨٣ رجلا يدفعون الجزية ، موزعين على قراه بنسبة تتراوح بين شخص واحد إلى خمسة وعشرين شخصا في القرية الواحدة (٣) ، وانخفاض عدد أديرتهم في وادي هبيب بين البحيرة والفيوم من مئة دير إلى سبعة أديره فقط في الدولة المملوكية (٤) .

وكان لسياسة الدولة في الفترة المملوكية أثر في اسلام عدد كبير من أبناء القبط ، فقد اتسمت بالتسامح والتشدد ، إذ منعتهم من العمل في دواوين الأمراء ودواوين الدولة (٥) ، وألزمتهم بمركوب ولباس معينين (٦) ، وهدمت بعض كنائسهم بضغط من العامة (٧) ، فبلغ عدد الكنائس التي هدمت في سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠م ستين كنيسة (٨) . يضاف إلى ذلك رغبة القبط في الحفاظ على مناصب معينة والترقي في مؤسسات الدولة (٩) ، وضعف قوتهم الاقتصادية وصعوبة الحياة لأعداد كبيرة منهم ، وهذا ما جعل الإسلام مجالا لتحسين أوضاعهم الاقتصادية أحيانا (١٠) .

وتعد سنة ٧٥٥ هـ /١٣٥٤م نقطة تحول في التاريخ الديني لمصر ، إذ تواترت الأخبار بتحول عدد كبير من الأقباط في الوجهين القبلي والبحري إلى الإسلام ، والتزامهم الاختلاف إلى الجوامع ، وهدم كثير من الكنائس وتحويلها إلى مساجد ، ففي مدينة قليوب أسلم في يوم واحد نحو ٤٥٠ شخصا ، وفي عامة الأرياف كذلك بعد تعاظم فاقتهم وقلة أرزاقهم " لكي يستخدموا في المباشرات وينكحوا المسلمات ، فتم لهم مرادهم واختلطت بذلك الأنساب حتى صار اكثر الناس من أولادهم لا يخفى أمرهم على من نور الله قلبه " (١١) .

١- المقريزي ، البيان ، ص ١٠١-١٠٢ .

٢- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٤٩٤ .

٣- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٦٨ .

٤- البكري ، قطف ، ص ١٦٥ أ .

٥- المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٥٣ .

٦- نفس المصدر ، ص ٩١١ .

٧- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق١ ، ص٤٩ ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص١٠٣٤ ، ج٤ ، ق٣ ، ص١١١٩ / ابن حجر ، إنباء ، ج ٧ ، ص١٨٩ ، ج٩، ص ٦-٧ / الصيرفي ، نزهة ، ج ٣ ، ص٤٠٧ / عبد الباسط ، نيل ، ج ١ ، ص ٥٠ أ ،ج٢ ، ص٦ب .

٨- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ،ص ٢٩٩ .

٩- ابن خلدون ، تاريخ ، مجلد٢ ، ص ١٤٨ .

١٠- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٥٠٠ / Donald P . Little , History , P 569 , 589 .

١١- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص٥٠٠ .

ومن العوامل الثانوية التي أدت إلى تحول بعضهم إلى الإسلام : جهود بعض الأفراد في الدعوة إلى اعتناق الإسلام ، فأثمرت جهود الشيخ أحمد بن سلام قاضي المحلة بإسلام ثلاثين شخصا (١) ، كما أسلم جماعة للتهرب من العقوبة عند اتهامهم في سنة ٧٧٦هـ /١٣٦٥م بمما لأة الفرنج (٢) ، والتبني التدريجي للغة العربية (٣) ، ومصادرة أوقافهم (٤) . وقد أطلق على هذه الفئات التي تحولت إلى الإسلام اسم المسالمة . وهناك عوامل أخرى أدت إلى تخفيض أعدادهم وأعداد السكان في مصر في هذه الفترة ، كالأوبئة والطواعين والمجاعات والزلازل والعربان .

العوامل المؤثرة في النمو السكاني :-

تأثرت التجمعات الريفية والمدنية في مصر بمجموعة من العوامل ، أدت إلى إحداث تغيرات إيجابية أو سلبية ، يمكن تلمسها بفحص أعداد القرى في الفترات التاريخية المختلفة ، ومناقشة مجموعة العوامل المؤثرة في السكان ، مع التركيز على الفترة المملوكية الثانية ، وقد يساعد الجدول التالي على تقدير مدى هذه التغيرات :-

أعداد القرى

السنة	الوجه القبلي	الوجه البحري	عدد القرى	المصادر
٣٤٥هـ/٩٥٦م	٩٥٦	١٤٣٩	٢٣٩٥	المخزومي ، المنهاج ، ص٤٧ أ-ب/ ياقوت ، معجم ، ج٥ ، ص ١٣٩ / شيخ الربوة ، نخبة ، ص ٢٣٠-٢٣١ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٧٣ / ابن إياس ، نشق ، ص ٣١ب-٣٢ أ .
٤٢٠هـ/١٠٢٩م			٢٤٣٩	ابن إياس ، نشق ، ص ٣٢ أ .
٥٥٠هـ/١١٥٥م			٢١٨٤	حسين مؤنس ، أطلس ، ص ٢٢٣ .(نقلا عن مخطوط أبي صالح الأرمني)
٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩م			٢١٧٥	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٨٥-٢٠٠ .
٧١٥هـ /١٣١٥م	٥١٢	١٦٥١	٢٣٣٤	ابن الجيعان ، التحفة ، ص٣ ، ٧-١٩٥ / مؤلف مجهول ، وصف مصر ، ص ٣ أ .
٧٧٧هـ/١٣٧٥م	٦٦٥	١٥٨٩	٢٢٥٤	ابن الجيعان ، التحفة ، ص٣-٥ / مؤلف مجهول ، وصف مصر ، ص ٣ أ-٦ أ .
٨٣٧ هـ / ١٤٣٣م			٢١٧٠	المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق٢ ، ص ٩١٢-٩١٣ / ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٣٠٣ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١٤ ، ص٢١٣ / ابن ظهيرة ، الفضائل ، ص ١٣ .

١- السخاوي ، الضوء ، ج ١ ، ص٢٥٤ .

٢- نفس المصدر ، ج٣ ، ص ٢١٣ .

٣- Popper , Egypt , 2 , P 1 .

٤- Donald P . Little , History , P 568 .

يتضح من الجدول أن عدد قرى مصر في سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦م وصل إلى ٢٣٩٥ قرية ، كان في الوجه القبلي ٩٥٦قرية وفي الوجه البحري ١٤٣٩قرية ، ثم أخذ هذا العدد بالتزايد التدريجي حتى وصل إلى ٢٤٣٩ قرية في سنة ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م ، ولكن الأزمات السياسية والإقتصادية والمجاعات والأوبئة والطواعين التي عصفت بمصر منذ منتصف القرن ٥هـ /١١م حتى منتصف القرن ٦هـ / ١٢م أدت الى تراجع عدد القرى إلى ٢١٨٤ قرية ، أي بمعدل ٩٪ مما كانت عليه قبل قرنين (١) .

ولم يفض تغير الحكم في مصر من الفاطميين إلى الأيوبيين إلى إحداث تغيير إيجابي في السكان ، فمع نهاية القرن السادس الهجري ٥٩٦-٥٩٨هـ /١١٩٩- ١٢٠١م ، اجتاحت مصر مجاعة وطاعون أديا إلى هجرة أعداد كبيرة من سكان القرى والمدن ، وبالرغم من المبالغة في الأرقام الواردة حول عدد الوفيات على طول الفترات التاريخية، إلا أن هذه الأرقام تعكس النسبة العالية من الوفيات ، فترد إشارة إلى أن هذا الوباء لم يبق في القرية التي بها ٥٠٠ شخص سوى اثنين أو ثلاثة ، وأن عدد من كفنهم العادل أيوب في فترة قصيرة تراوح بين ٢٢٠-٣٠٠ ألف(٢) .

وشهدت سنة ٥٩٧هـ /١٢٠٠م زلزالا في بلاد الصعيد والقاهره أدى إلى هدم كثير من المنازل ، وموت عدد كبير من السكان تحت الأنقاض (٣) . ولذلك فإن النتيجة التي يوضحها إحصاء القرى لدى ابن مماتي ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م ، بأن الانخفاض كان تسع قرى فقط ، لا تتفق مع الوصف الوارد عن هذه المجاعة والطاعون والزلزال ، وأن هذا الإحصاء يعود إلى فترة أسبق منها .

وأثبت الروك الحسامي ٦٩٧هـ/١٢٩٧م وجود انخفاض ملموس في عدد التجمعات القروية في مصر بنحو ١١٣ قرية ، أي بمعدل ٥ , ١٣٪ عما كانت عليه في القرن الرابع الهجري ، ويعود سبب ذلك إلى أن معظم موارد مصر وظفت للدفاع عن العالم الإسلامي أمام خطري المغول والصليبيين ، وحدوث وباء في عام ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م واستمراره ستة شهور (٤) ، ووقوع طاعون ومجاعة ٦٩٤-٦٩٥هـ / ١٢٩٥-١٢٩٦م ، أديا إلى موت أعداد كبيرة من السكان . فإذا نظرنا إلى القاهرة نجد أن عدد من مات بها كان ١٢٧,٠٠٠ نسمة (٥) ، وكان إحصاء القرى في الفيوم لدى النابلسي ١١٦ قرية في سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م ، ولكنها انخفضت عند الروك الناصري ٧١٥هـ / ١٣١٥ م إلى ٩٧ قرية ، ذلك أن القرى عانت أكثر من القاهرة ، إذ لم يبق في القرية التي عدد سكانها مئة

١- المقريزي ، إغاثة ، ص ١٨-٢٩، خطط ج١ ، ص ٣٣٥-٣٣٧ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٥ ، ص ٥ ، ٨٥ ، ٤٥٩ .

٢- عبد اللطيف البغدادي ، الإفادة ، ص ١٦١-١٨٨ / الدواداري ، كنز ، ج٧ ، ص ١٤٧-١٤٩ / ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد٤، ج٢، ص ٢٠٧ -٢٠٨ / المقريزي ، إغاثة ، ص ٢٩-٣٢ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٦ ، ص ١٥٧ / الأنصاري ، نيل الرايد ، ص ١٥٤أ-١٥٦أ .

٣- الدواداري ، كنز ، ج ٧ ، ص ١٤٩ .

٤- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٦١٢ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ٣٣٣ .

٥- ابن الفرات ، تاريخ ، ج٨ ، ص ٢١٠ / المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص٨١٤-٨١٥ .

نفس سوى عشرين نفسا ، وألقيت الجثث في الطرقات بعد أن عجز الناس عن تكفين أمواتهم ولجأوا إلى الدفن الجماعي بإلقاء الجثث في الآبار والحفر من غير تكفين أو غسل (١) ، إضافة إلى رحيل جماعات كبيره إلى الأقطار المختلفة (٢) .

وشهدت فترة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة ٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤٠م حركة عمرانية واسعة، نجمت عن الاستقرار السياسي والاقتصادي والأمني ، وتنظيم مالية الدولة إثر الروك الناصري ٧١٥هـ / ١٣١٥ م ، وإخماد حركات العربان ، وتحسن مستوى الصحة العامة ، فانعكس ذلك بإعمار ظواهر القاهرة وازدياد أعداد القرى.

وعند ملاحظة حركة العمران في ظواهر القاهرة ، يتبين أنه شمل جميع جوانبها ، فامتدت المساكن من القاهرة حتى مصر (الفسطاط) ، ومن باب القرافة حتى بركة الحبش ، وفي الشمال عمرت سرياقوس والحسينيه ، وفي الجهة الشرقية جزيرة الفيل ، وفي الجهة القبلية خط دير الطين . واقتدى الأمراء بالناصر في إعمار الظواهر ، فحكروا كثيرا من البساتين و الجنائن ، وسمحوا للناس بالبناء فيها ، فأصبحت مناطق سكنية شديدة الاكتظاظ ، وقد قدرت الأحكار المستجدة بنحو ستين حكرا (٣) ، وبلغ عدد الأحكار في القاهرة نحو ١٢,٠٠٠ ألف حكر وفقا لرواية ابن صصري (ت ٨٠٠هـ / ١٣٩٧ م) (٤) .

ويعزى التوسع في منطقة القاهرة إلى ثلاثة عوامل : أولها هجرة أعداد كبيرة من أبناء بلاد الشام إلى مصر ، إثر التقدم العسكري للمغول باتجاهها ، حتى بالغ بعض المؤرخين بقولهم إن بلاد الشام خلت من سكانها ، وتقديم الدولة المملوكية التسهيلات لمثل هذه الهجرات بإعفاء القادمين من المكوس ، حتى من يقدم منهم في متجر ، فنزلوا القرافة ، وجامع ابن طولون (٥) ، وأطراف الحسينية ، التي تعزى نشأتها إلى هجرة مجموعة من الاويراتية المغول من بغداد إلى بلاد الشام ، واستدعاء السلطان لثلاثمئة من أكابرهم وإنزالهم هذه الحارة في سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥ م ، وتوزيع الباقي على السواحل الشامية ، ولما تثبت أقدام المهاجرين في مصر استدعوا أعدادا كبيرة من جماعاتهم الذين نزلوا بلاد الشام (٦) .

أما العامل الثاني فهو ارتفاع نسبة الزيادة الطبيعية ، بسبب تحسن الأوضاع الصحية العامة ، فالدفع

١- الدواداري ، كنز ، ج٨ ، ص ٣٦٣ .

٢- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٨ ، ص ٤٩ .

٣- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٦١ ، ٣٦٥ ، السلوك ، ج ٢ ، ق٢، ص ٥٣٨ - ٥٤٣ / ابن تغري بردي ، النجوم، ج ٩ ، ١٣٧ - ١٤٧ .

٤- ابن صصري ، الدرة المضيئة ، ص ٣ .

٥- النويري ، نهاية ، ج٣١ ، ص ٤١٢-٤١٣ / الدواداري ، كنز ، ج٩ ، ص ٤٥ / المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٤١٦ ، ٤٧٢ ، ج١ ، ق٣ ، ص٨٩٨ ، خطط ، ج١ ، ص ٣٩٤ - ٣٩٥ .

٦- المقريزي ، خطط ، ج١، ص٢٢ - ٢٣ .

بعض السكان للخروج إلى الظواهر والاستقرار بها ، بعد ارتفاع الكثافة السكانية داخل المدينة ، وظهور عدد من الضواحي ، وامتداد العمران . ويلاحظ عدم انتشار الأوبئة والطواعين ، إلا ما كان سنة ٧١٦هـ / ١٣١٦م بين بلاد أسوان والأشمونين ، وفي سنة ٧٢٤هـ / ١٣٢٣م الذي لم يكن له أي أثر في السكان (١) . ثم تضاعفت هذه الظواهر ، ولم يعد في القاهرة أي مكان خال من العمران ، وتحولت مناطق الرمال والحلفاء والكيمان إلى مناطق سكنية مكتظة بالسكان في هذه الفترة (٢) .

وثالث هذه العوامل : حفر الخليج الناصري الذي امتد البناء إلى ضفافه (٣) .

وتعد فعالية مشروعات الري العامل الأساسي لتطور الأرياف ، ولذلك فإن الناصر أولى هذه المشروعات عناية كبيرة ، بعد أن تمكن من تنظيم مالية مصر واستثمارها في البناء الداخلي ، فظهر خليج الإسكندرية ، وأدى ذلك إلى جريانه طوال السنة ، وإقبال الناس على السكن حوله ، وظهور أربعين قرية جديدة (٤).

واهتم الناصر بالجيزية وأحكم جسورها وترعها ، حتى رويت بلادها ، بعد أن كانت تشرق في أغلب السنوات ، فادى ذلك إلى استصلاح كثير من الأراضي ، ومنحها الأمراء والأجناد لتكون لهم إقطاعات (٥) ، وأصلح الناصر كثيرا من أحوال الشرقية وفوه وشباس ، ولم يدع قرية في الوجهين القبلي والبحري إلا وعمل ما تحتاج إليه (٦) ، فتحول كثير من القرى والبلدان إلى مدن منفردة (٧) ، حتى بلغت العمارة أوجها ، فكان الرجل يسافر من القاهرة إلى أسوان لا يحتاج إلى نفقة ، بل يجد كل ما يحتاج إليه من أكل وعلوفة في دور الضيافة ، في كل بلدة وناحية (٨) . وقد شجعت هذه الأعمال الأمراء على الاستثمار في القرى ، فأنشأ الأمير شمس الدين سنقر النحريرية ، وأسكنها الفلاحين ، حتى أصبح خراجها خمسة عشر ألف دينار (٩) .

وكانت أهم نتيجة لأعمال الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤٠م) ارتفاع أعداد القرى ، إذ بلغت في سنة ٧١٥هـ /١٣١٥م ٢٣٣٤ قرية*، أي بزيادة مقدارها ١٢,٧٪ مما كانت عليه في سنة

١- المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ، ق١ ، ص ١٦٢ ، ٢٥٠ ، ٢٥٧ .

٢- المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ، ق٢ ، ص ٥٣٩ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٩ ، ص ١٤٤ .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص٥٣٨ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٩ ، ١٣٩ .

٤- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص ١١٢ / الحنفي ، تاريخ مصر ، ص ٦٧ أ .

٥- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٩ ، ص ١٤٢ .

٦- المقريزي ، السلوك ،ج٢ ، ق٢ ، ص ٥٤١-٥٤٢ .

٧- الجبرتي ، عجائب ، ج١ ، ص ٣٤ .

٨- الحنفي ، تاريخ مصر ، ص ٦٠ أ .

٩ - ابن إياس ، نشق ، ص ٤٧ب ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ٤٥٨ .

* أخطأ آشتور عندما أشار إلى أن عدد القرى في هذه السنة كان ٢٤٥٤ ، إذ لم يأخذ بالرقم الكلي الذي أشار إليه ابن الجيعان ، عن عدد القرى في مصر دون الجيزية ، ولم يحاول إحصاء القرى الواردة في النص ، التي أكدت نفس العدد الكلي المذكور ، واكتفى بالعمل في جمع نواحي كل عمل ، ويبدو أن الناسخ قد زاد عددها مئتي قرية ، عندما جعل أعمال البهساوية ٢٥٦ قرية وهي ١٥٦ ، والمنوفية ٢٣٣ وهي ١٣٢ قرية ، وعدم ذكر قرى المنفلوطية (آشتور ، التاريخ ، ص٣٩٧) .

٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ ، إلا أنه بعد وفاة الناصر وحتى سنة ٧٧٧هـ / ١٣٧٥ م تراجعت أعداد القرى إلى ٢٢٥٤ قرية ، فكان عمال الخراج يسقطون في كل سنة القرى المندثرة إثر المسح الشامل لتحديد مقادير الخراج .

وتعد بداية النصف الثاني من القرن الثامن نقطة مهمة في تاريخ مصر الديمغرافي ، إذ أخذ عدد السكان بالتناقص التدريجي ، لتراكم عوامل كانت أقوى من أي محاولة أو هجرة ، لتعويض هذا النقص ، فلم تتمكن هجرة أعداد كبيرة من القدس والرملة ودمشق وصفد وحماة في سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م إلى مصر عند مهاجمة تيمور لنك بلاد الشام (١) ، ومحاولات السلطان برسباي ٨٢٥-٨٤١ هـ/ ١٤٢١-١٤٣٧م إعادة إعمار القرى التي خربت زمن من تقدمه من السلاطين (٢) من ايقاف هذا التناقص .

وكانت الأوبئة والطواعين العامل الأكثر تأثيرا في السكان في مصر ، ويعرف الطاعون أنه " بثر مؤلم جدا ، يخرج مع لهيب ، ويسود ما حواليه ، ويخضر ويحمر حمرة بنفسجية كدرة ، ويحصل معه خفقان في القلب والقيء" ، وقيل " انصباب الدم إلى عضو " ، " أو هيجان الدم وانتفاخه " ، " أو مادة سمية تحدث ورما قتالا في المواضع الرخوة والمغابن (مواضع الأفخاذ والآباط) من البدن " وأكثر ما تكون تحت الإبط وخلف الأذن ، وعند الأرنبة (قصبة الأنف) فيحدث القيء والغثيان * (٣) .

وتشير الدراسات الحديثة إلى أن البكتيريا المسببة للمرض هي المعروفة باسم Pasteurila Pestis ، وهي طفيلي يعيش داخل القوارض والجرذان خاصة ، ويصيب الإنسان بالصدفة في دورة تطوره في هذه القوارض بوساطة برغوث الفئران ، ويكون بالاتصال المباشر بين هذه القوارض والإنسان عن طريق تلويث الطعام ، وخاصة وصول الجرذان إلى مخازن القمح والأغذية الأخرى ، أو أن تحقن البراغيث الإنسان بوضع برازها مكان العض (٤) .

وتعتمد درجة العدوى وانتشار المرض على مدى التعرض للبكتيريا ، كالاتصال المباشر بين الأم والطفل ، فقد يصيب الاثنين في وقت واحد (٥) ، وسلوك الناس تجاه المرضى واتصالاتهم معهم ، والكثافة السكانية(٦)، وتوافر درجة الحرارة الملائمة وهي ٢٠° م ، ونسبة رطوبة تصل إلى ٧٠٪ ، لكي يبقى البرغوث على قيد الحياة(٧).

١- العيني ، عقد ، حوادث ، ص ٤٤ب- ٤٥ أ .

٢- ابن تغري بردي ، مورد اللطافة ، ص ٩١ب / مجهول ، كتاب في التاريخ ، ص ١١٧ب .

٣- الأنصاري ، تحفة ، ص ٢ب -٣ أ .

* حول أسباب الطاعون راجع :- ابن خلدون ، مقدمة ، ص ٣٠٢ / الأنصاري ، نيل الرايد ، ص ٦٦ب -٦٧ أ ..

٤- Dols , Black Death , P 69-70 / Boaz , Money , P 107 .

٥- Dols , Black Death , P186 .

٦- Ibid , P96 .

٧- Boaz , Money , P111 .

ويذكر أن هناك طاعونين وفدا إلى مصر ، هما طاعون سنة ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م من وسط آسية(١) ، التي تعد منطقة استيطانية ضخمة للقوارض والبراغيث ، وكان قد انتشر في هذه المنطقة منذ سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١ م وقضى على أعداد كبيرة من السكان قبل أن يصل إلى موانئ تنا Tana و القرم Crimea وكفا Kaffa وسغداق Sughdaq * على البحر الأسود ، واتجه غربا إلى أوروبا وجنوبا نحو الإسكندرية عن طريق البحر ضمن البضائع الرئيسية التي ينقلها التجار ، وخاصة المواد الغذائية التي تعد من أنجع الوسائل ، والفرو ، والعبيد ، والخيول ، والشمع (٢) ، إضافة للرياح التي كانت سرعتها تبلغ ١٠٠كم / ساعه ، فتنشط حركة الملاحة ، ويصل الفرد المصاب قبل أن يموت للمناطق الساحلية المصرية والشامية ، مما يودي الى إصابة السكان المحليين ويساعد على نشر العدوى ، أو عن طريق السفن نفسها (٣) . وأما الطاعون الثاني فهو طاعون سنة ٨٤١ هـ / ١٣٤٠م ، الذي انتقل إلى مصر من بلاد اليمن (٤) .

وللطاعون ثلاثة أشكال أولها الدبلي Bubonic ، ويعد البرغوث النيلي المعروف باسم Xenopsylla Cheopsis من أكثر البراغيث شيوعا في مصر ، ومن أفضل النواقل له ، إذ يمر في فصل الشتاء بفترة سبات وينشط في الجو المعتدل ، وعند نقله للمرض يبدأ تأثيره في الغدد اللمفاوية للجسم ، ، وتظهر أعراضه بثر ملتهب ومؤلم جدا ، يكون خلف الأذن ، أو تحت الإبط أو بأصل الفخذ ، ويتراوح حجم البثر بين لوزة إلى برتقالة ، ويعتمد في انتشاره على الكثافة السكانية ووجود القوارض (٥) .

وقد أشار المقريزي لمثل هذه الأعراض في طاعون سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨ م ، حيث كان يخرج للمريض بثرة خلف أذنه ثم صارت تحت إبطه أو بأصل الفخذ أو بين الأصابع فيموت سريعا ، ثم خرج بثر بحجم الخيارة فقتلت أعدادا كبيرة من السكان (٦)، ونسبة الفناء في هذا الطاعون تتراوح بين٦٠-٩٠٪ في غضون خمسة أيام(٧) .

أما الطاعون الثاني فهو الرئوي ، وقد أشار ابن خلدون ٨٠٨هـ / ١٤٠٥ م إلى أن الطاعون يقع في الرئة عند ازدياد فساد الهواء ، وإذا ما كان قليلا تنتشر الحميات والأمراض (٨) . ويتميز هذا الطاعون بسرعة العدوى لانتقاله عن طريق الهواء ، ويتبع الدبلي ولا ينشأ مستقلا عنه ، وتكون أعراضه قشعريرة مع سرعة وضيق في التنفس ، وبصق الدم الذي يعد علامة على التدمير الكبير الذي أصاب الرئتين ، ونسبة الوفيات به ١٠٠٪ ، ويوجد في

١- المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ، ق٣ ، ص ٤٧٣-٤٧٤ .

* القرم مدينة من بلاد السلطان المعظم أوزبك خان ، أما السغداق وتنا وكفا ، فهي موانيء على الساحل الشمالي للبحر الأسود ، ومن أشهرها ميناء كفا الذي كان يعرف زمن البيزنطيين باسم Theodesia ، ويعد أحد الموانيء المصدرة للرقيق ، وكان يستوعب ما يقرب من ٢٠٠ سفينة (ابن بطوطه ، رحلة ، ج٢ ، ص ٣٥٧ / . Hunlu , Kafe , EI2 , III , P 870 - 868

٢- Dols , Black Death , P 35-67 .

٣- Boaz , Money , P 113 .

٤- ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص ١٦٩ .

٥- Dols , Black Death , P 69-70 , 73 .

٦- المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٧٧٥ ، ٧٨٣ .

٧- Boaz , Money , P 108 .

٨- ابن خلدون ، مقدمة ، ص ٣٠٢ .

الغالب في فصل الشتاء لارتباطه بالرئتين (١) .

وقد أشار المقريزي ٨٤٥هـ /١٤٤١م إلى أنه بعد الكبه ودخول فصل الشتاء ، حدث نفث الدم ، وكان المريض لا يعيش أكثر من خمسين ساعة إذ "يحس الإنسان بحرارة وغثيان فيبصق دما ويموت فيما بعد ذلك ، ويتبعه أهل الدار واحدا بعد الآخر حتى يفنيهم بعد ليلة أو ليلتين " (٢) . ومن أمثلة هذا النوع من الطواعين ما حدث في السنوات ٧٤٨-٧٤٩ هـ / ١٤٤٤-١٤٤٥م ، ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م ، ٧٨٢هـ / ١٣٨٠م ، ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣م ، ٨١٣-٨١٤ هـ / ١٤١٠- ١٤١١م، ٨١٩هـ / ١٤١٦م ، ٨٢٢هـ / ١٤٠٩ م، ٨٣٣هـ /١٤٢٩م ، ٨٤١هـ / ١٤٣٧ م، ٨٥٢-٨٥٣هـ / ١٤٤٨-١٤٤٩ م، ٨٦٤هـ/ ١٤٥٩ ، ٨٨٨هـ /١٤٨٣ م ، ٨٩٧هـ م ١٤٩١م ، ٩٠٩-٩١٠هـ / ١٥٠٣-١٥٠٤م ، ولعل تكرار الطواعين من هذا النوع يشير إلى مدى الخسارة السكانية التي أصابت مصر حتى نهاية الدولة المملوكية .

أما النوع الثالث ، فهو عفن الدم أو حمجه الذي ينجم عن دخول البكتيريا إلى جهاز الدورة الدموية للإنسان بالحقن المباشر من البرغوث ، فيموت الإنسان فجاءة من غير ظهور علامات على الإصابة في بضع ساعات ، أي أن نسبة الوفيات ١٠٠٪ (٣) . وقد يكون استعمال عبارة الموت فجاءة مناسبا كما حصل سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م ، إذ " كان الناس يموتون فجأة ويسقطون على بعضهم البعض " (٤) ، "والوحي السريع " "والنزلات التي تنحدر من الدماغ إلى الصدر فيموت الإنسان في أقل من ساعة ، دون ظهور علامات للمرض" (٥) ، تعبيرا عن ظهور حالات من هذا النوع في السنوات ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م ، ٨١٩هـ /١٤١٦م ، ٨٢٩هـ / ١٤٢٥م ، ٨٣٣ هـ / ١٤٢٨م ، ٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م (٦) .

وقد أورد المؤرخون ثلاث وسائل لحساب عدد الوفيات بالقاهرة بسبب الطواعين ، تعتمد الأولى منها على إحصاء الجنازات التي تخرج من المصليات المشهورة في القاهرة ، التي تراوح عددها بين ١٣-١٧ مصلى ، أهمها مصلى باب النصر ، الذي وردت إشارة إليه سنة ٨٦٤هـ / ١٤٥٩ م تفيد أن كل مئة حالة وفاة مسجلة به تعادل ثلاثمائة وستين حالة وفاة بالقاهرة (٧) ، وأشار الصيرفي ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م إلى أنه في أحداث طاعون سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م كان يصلى به على عشر الوفيات (٨) .

١- Boaz , Money , P 108 , 111 / Dols , Black Death , P 27, 79 , 227.

٢- المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ق ٣ ، ص ٧٤٩ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٠ ، ص ١٦٢

٣- Dols , Black Death , P 73 .

٤- ابن إياس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٨٥

٥- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص٨٢٤-٨٢٥ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٤ ، ص١٧٢-١٧٣ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣، ص ١٧٤ ، ١٨٦-١٨٧ / عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص٣١١ أ-ب .

٦- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص٤٢-٤٣ ، ج٤ ، ق٢ ، ص٨٢٩ ، ١٠٣١ ، ج٤ ، ق٣، ص ١١٢٧ / الصيرفي ، نزهة ، ج ٢ ، ص٤٥٥ / عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٧٧ب .

٧- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٦ ، ص ٢١ .

٨- الصيرفي ، إنباء ، ص ٥٨ .

وبلغت إحصاءات المصليات في سنتي ٨٣٣هـ /١٤٢٩م ، ٨٦٤هـ / ١٤٥٩م كالتالي :-

السنة	التاريخ	المصليات	الديوان	نسبة التسجيل
٨٣٣هـ/١٤٢٩م	٧جمادى ٢	١٢٠٠	٣٥٠	٢٩٪
	٧جمادى ٢(الفسطاط)	١٠٠	٣٠	٣٠٪
	٩جمادى ٢	١٢٦٣	٤٠٠	٣١,٥٪ (١)
٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م	١٧ جمادى ١	٦٠٠	١٧٠	٢٨٪
	٢٦جمادى١	٢١٥٣	٢٣٥	١٠٪
	١جمادى ٢	١٩١٠	٣١٦	١٦,٥٪ (٢)

ويتضح من الجدول أن الوسيلة الثانية هي ديوان المواريث الحشرية ، وتشير هذه الأرقام إلى أن النسبة العامة لتسجيله تصل إلى ٢٥ ٪ *.

أما الوسيلة الثالثة لحساب الوفيات فتعتمد على الجنازات التي تخرج من أبواب القاهرة ، وقد استعملت في طاعون سنة ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م ، حيث خرج من أبواب القاهرة في (٤جمادى الآخرة) ١,٢٠٠ حالة ، سجل منها الديوان ٣٩٠ حالة ، أي بنسبة ٣٢,٥٪ ، وفي (١١جمادى الآخرة) ١٢,٨٠٠ حالة (٣) .

ولا يمكن الاعتماد على الأرقام الواردة عن الوفيات للوصول إلى عددها ، وتقدير الانخفاض السكاني في مصر ؛ لأنها تتسم بالمبالغة ، وعدم الترابط أوالتناقض ، وتتركز على مدينة القاهرة ، آخذين بالاهتمام أن ارتفاع عدد الوفيات في هذه المدينة ينجم عن هجرة كثير من أبناء الأرياف إليها في أثناء انتشار الأوبئة ، وهذا يلحق أضرارا اقتصادية بالغة بالريف ، بموت أعداد كبيرة من الفلاحين .

وبعد فترة وجيزة من موت السلطان الناصر محمد ٧٤١هـ / ١٣٤٠م ، والازدهار الاقتصادي والتوسع، الذي شهدته القاهرة وغيرها من البلاد ، اجتاح مصر طاعون يعد من أسوأ الطواعين في تاريخ الدولة المملوكية ، أطلق عليه الفناء أو الفصل الكبير ، واستمر من نهاية سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م إلى محرم سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤٩ م .

وتوضح الأرقام الواردة عن عدد الوفيات ما سببه هذا الطاعون من نقص في عدد السكان في القاهرة والفسطاط، إذ قدر عدد الوفيات في شهري شعبان ورمضان بنحو ٩٠٠ ألف، سوى وفيات الأحكار والحسينية والصليبة وباقي الخطط خارج القاهرة، وهي أضعاف ذلك (٤)، وهو رقم مبالغ به، ويزيد على عدد سكان القاهرة

١- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص٨٢٦- ٨٢٧ .

٢- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٦ ، ص ١١٧ .

*هذه النسبة ستستخدم في بعض الجداول لحساب نسبة الوفيات ، بضرب عدد ما يسجله ديوان المواريث الحشرية في أربعة .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق٢ ، ص ٨٢٦-٨٢٧ .

٤- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٧٨٢ .

وضواحيها في هذه الفترة ، وقيل إنه صلي في يوم واحد على على ٢٠ ألف جنازة ، وصلي في يومين في مصلى قتال السبع والمصليات خارج باب النصر ، وخارج باب زويلة ، وخارج باب المحروق ، وتحت القلعة على ١٣,٨٠٠ جنازة، سوى المناطق الأخرى ومن لم يمكن دفنهم (١) .

ويصف المقريزي آثار هذا الطاعون بأن القاهرة تحولت إلى مدينة مقفرة ، خالية من السكان ، وأن الإنسان صار يمر من باب زويلة إلى باب النصر من غير أن يجد من يزاحمه ، بعدما كان الإنسان لايستطيع المرور إلا بصعوبة (٢) .

ومن إحصاء الدور التي خلت من سكانها بعد زوال الطاعون في سنة٧٥٠هـ / ١٣٤٨م ، تبين أن معدل الدور الفارغة في كل حارة وزقاق بلغ عشرين دارا ، وفي حارة برجوان وحدها أربعين دارا ، وبما أن القاهره اشتملت على خمس وأربعين حارة وزقاقا ، فإن عدد الدور الفارغة في هذه الحالة يكون تسعمئة وعشرين دارا عدا المخازن والخانات والفنادق (٣) .

ويشير ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) إلى أن هذا الطاعون " تحيف ونهب بأهل الجيل ، وطوى كثيرا من محاسن العمران ، وجاء للدول على حين هرمها ، وبلوغ الغاية من مداها ، فقلص من ظلالها ، وفل من حدها ، وأوهن من سلطانها ، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها ، وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر ، فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم ، وخلت الديار والمنازل ، وضعفت الدول والقبائل ، وتبدل الساكن ، وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب ، لكنه على نسبته ومقدار عمرانه ، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض ، فبادر بالإجابة ، والله وارث الأرض ومن عليها " (٤) .

وبعد هذا الطاعون وحتى سنة ٧٨٣هـ / ١٤٧٨م اجتاح مصر تسعة طواعين ، بمعدل طاعون لكل ٣,٧ سنة ، منها طاعون سنة٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م الذي قدرت وفياته بنحو ٣٣٠٠(٥) . وفي سنة ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م ، وصل تعريف (تسجيل) ديوان المواريث الحشرية إلى ٤٠٠/ يوم ، وفي رجب الى٣٠٠٠/ يوم حتى نهاية شهر رمضان (٦)، واستمر طاعون ٧٦٩هـ / ١٣٦٧م أربعة شهور حتى وصل التعريف إلى ١٠٠٠ / يوم (٧) ، وبالغ ابن إياس عندما أشار إلى أنه كان يخرج من القاهرة ١٢,٠٠٠جنازة في كل يوم (٨) ، وقدرت وفيات طاعون

١- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق ٣ ، ص ٧٨٢ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ١٦٣ .
٢- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٧٨١ ، ٧٨٤ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٠ ، ص ١٦٣ .
٣- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص٧٨٢-٧٨٣ ، خطط ، ج٢ ، ص ٣٢٢ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٠ ، ص١٦٣ .
٤- ابن خلدون ، مقدمة ، ص ٣٣ .
٥- المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ٩٠٣ .
٦- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق١ ، ص٨١-٨٢ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق ٢ ، ص ٦ .
٧- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١١ ، ص ٤٢ .
٨- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٦٥-٦٦ .

٧٧٢هـ /١٣٧٠م بثماني وفيات لكل يوم (١) وقيل ٤٠ (٢) .

وابتدأ طاعون سنة ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م من نصف جمادى الاولى حتى رمضان ، وكان يخرج من القاهرة في كل يوم ٦٠٠ جنازة (٣) ، ووصل التعريف في بعض الأيام إلى ٥٠٠ في اليوم ومن الطرحاء مثلهم (٤) . ويشير النويري (ت بعد ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م) إلى أن عدد الوفيات في هذا الطاعون بلغ ٣٠,٠٠٠ وفقا لديوان المواريث الحشرية (٥) ، وقيل إنه في طاعون سنة ٧٨٣هـ / ١٣٨١م كان يصلى على ٣٠٠ جنازة في بعض الأيام (٦) ، ومهما كانت المبالغة في الأرقام ، فإنها تشير إلى أن حجم خسارة القاهرة كان كبيرا .

وأصبحت الطواعين ظاهرة مألوفة في الدولة المملوكية الثانية ، إذ اجتاح مصر بين ٧٨٤-٩٢٣هـ/ ١٣٨٢- ١٥١٧م واحد وأربعون طاعونا ، بمعدل طاعون لكل ٣,٤ سنة ، كما يتضح من الجدول التالي :-

اسم السلطان	فترة الحكم	عدد الطواعين	النسبة المئويه / التكرار
برقوق	٧٨٤-٨٠١هـ / ١٣٨٢- ١٣٩٨م	٦	٢,٥
فرج بن برقوق	٨٠١-٨١٥هـ / ١٣٩٨-١٤١٢م	٤	٣,٧٥
المؤيد شيخ	٨١٥-٨٢٤هـ ١٤١٢- ١٤٢١م	٧	١,١٤
برسباي	٨٢٤-٨٤١هـ/ ١٤٢١-١٤٣٧م	٨	٢
جقمق	٨٤٢-٨٥٧هـ / ١٤٣٨-١٤٥٣م	٣	٥
اينال	٨٥٧-٨٦٥هـ / ١٤٥٣- ١٤٦٠م	٣	٢,٣
خشقدم	٨٦٥- ٨٧١هـ / ١٤٦٠- ١٤٦٦م	--	--
قايتباي	٨٧٢-٩٠١هـ / ١٤٦٧-١٤٩٥م	٤	٧,٧٥
قانصوه الغوري	٩٠٢-٩٢٢هـ / ١٤٩٦-١٥١٦م	٦	٣,٢
المجموع	١٣٩	٤١	٣,٤

وتختلف الطواعين في شدة تأثيرها ، وفقا لفترة وقوعها ربيعا أم شتاء ومدتها ، ومعظمها ليست طواعين شاملة ، وأغلب ما تكون في منطقة دون أخرى .

وقد اجتاح القاهرة والفسطاط زمن السلطان برقوق ٧٨٤-٨٠١هـ / ١٣٨٢-١٣٩٨م ستة طواعين،

١- المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، ق١ ، ص ١٩٠ .

٢- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ١٠١ .

٣- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ١٣٨ .

٤- المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، ق١ ، ٢٣٣-٢٣٦ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١١ ، ص ٥١ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ١٤١ .

٥- النويري ، كتاب الإلمام ، ج٦ ، ص ٤٢٣ .

٦- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق١ ، ص ٤٠٩ .

أهمها طاعون سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م الذي ابتدأ والجو حار ، في شهر ربيع الأول ،حيث كان يطلع للمريض كبه، ثم صار يطلع له نقاطة على كتفه أو في مواضع أخرى من جسده ، فيموت في يوم أو يومين ، وقضى على عدد من المماليك السلطانية ، وكان يطلع للقلعة في كل يوم نحو عشرين تابوتا ، وقد بلغ عدد الوفيات في ديوان المواريث من ربيع الأول إلى الأول من جمادى الاولى ٢٥٣في اليوم ، ومن ١-١٧ جمادى الأولى ٣٠٠ في اليوم ومن ١٧جمادى الاولى الى الثامن من جمادى الآخرة ارتفع الطاعون بالكليه (١) ؛ وقيل أنه وصل إلى ٥٠٠في اليوم (٢) ، وبالغ ابن صصري ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م عندما جعله ٢٠,٠٠٠في اليوم (٣) . ثم وقع في السنة التي تليها طاعون جاوز ١٠٠في اليوم ، وفي ربيع الآخر ٢٠٠في اليوم (٤) ، وأما طاعون سنة ٧٩٨هـ / ١٣٩٥م ، فقدكان خفيفا (٥) .

وتداخلت في فترة السلطان فرج بن برقوق ٨٠١-٨١٥ هـ / ١٣٩٨-١٤١٢م الأوبئة والمجاعات الأكثر تأثيرا في تدمير البنية البشرية لمصر ، فابتدأ طاعون سنة ٨٠٩ هـ/١٤٠٦م في شوال حيث بلغ عدد من يرد اسمه للديوان ٢٣٥في اليوم في الوقت الذي قدرته العامة بنحو ١٥٠٠/ يوم عدا البيمارستان والطرحاء (٦) ، واستمر حتى بداية ٨١٠هـ / ١٤٠٧م (٧) . وأما طاعون سنة ٨١٣هـ /١٤١٠م فقد تركز في الفسطاط (٨) .

ومهما كانت المبالغة في الأرقام ، فإن تكرار الطواعين في فترتي المؤيد شيخ (٨١٦-٨٢٤هـ/١٤١٣-١٤٢١م) وبرسباي (٨٢٥- ٨٤١هـ/١٤٢١-١٤٣٧م) بمعدل طاعون لكل ١,٧ سنة ، يوضح أن هذه الفترة تعد من أسوأ فترات التاريخ الديمغرافي لمصر ، وبالاعتماد على ديوان المواريث الحشرية ، فإن الجداول التالية توضح مدى الخسائر البشرية التي منيت بها القاهره والفسطاط في أربعة من الطواعين الرئيسية ، من أصل خمسة عشر طاعونا ، مع الإشارة الى أن طاعون سنة ٨١٨هـ / ١٤١٥م استمر لمدة ستة أشهر بمعدل ٨٠ في اليوم (٩) ، وفي ربيع الأول سنة ٨٢٠ هـ / ١٤١٧م بمعدل ٤٠ في اليوم (١٠) :-

---

١- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد٩، ج ١ ، ص ٢٦ ، ٢٩ / المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، ق٢ ، ص ٥٧٥ / ابن قاضي شهبة ، تاريخ ، ج٣ ، ص ٢٣٩-٢٤٢ .

٢- ابن قاضي شهبة ، تاريخ ، ج٣ ، ص ٢٤٢ .

٣- ابن صصري ، الدرة المضية ، ص ٣ .

٤- ابن قاضي شهبة ، تاريخ ، ج٣ ، ص ٢٦٨، ٢٧٥ .

٥- نفس المصدر ، ص ٥٨٢ .

٦- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٢-٤٣ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج ١ ، ص ٢٠٤ أ / ابن إياس ، بدائع ، ج ١ ، ق٢ ، ص٧٧٠ .

٧- السخاوي ، وجيز ، ج ١ ، ص ٣٩٨ .

٧- السخاوي ، وجيز ، ج ١ ، ص ٣٨٢ / ابن إياس ، بدائع ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٨٠٣ .

٩- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق١ ، ص ٣١٠، ٣١٢ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ١٦٦ / السخاوي ، وجيز ، ج ٢ ، ص٤٣٧ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج ١ ، ص ٢٣٢ أ .

١٠- السخاوي ، وجيز ، ج ٢ ، ص٤٤٧ .

طاعون سنة ٨١٩هـ /١٤١٦م

التاريخ	المصليات	الديوان	المجموع = الديوان ×٤
١٨ محرم –١٠ صفر		٣,٠٠٠	١٢,٠٠٠
١٦–٢٥ صفر		١٥٠/ يوم	٥,٤٠٠
٢٢صفر	٧٢ باب النصر		
٢٦صفر		٢٠٠	٨٠٠
١–٢٢ ربيع الأول		٣٠٠/ يوم	٢٦,٤٠٠
٢٣ ربيع الأول	١٠٠٠	٥٠٠	٢,٠٠٠
١٠محرم –٣٠ربيع الأول		٢٠,٠٠٠	٨٠,٠٠٠
١ ربيع الآخر		١٢٠	٤٦٠
٥ربيع الآخر		٦٠	٢٤٠
٩ربيع الآخر		٢٣	٩٢
١٢ربيع الآخر		٢٩	١١٦
المجموع			٨٠,٩٠٨

طاعون سنة ٨٢٢ هـ / ١٤١٩ :–

التاريخ	الديوان	المجموع = الديوان × ٤
٢٠صفر – ٣٠ربيع الآخر	٧,٥٦٢	٣٠,٢٤٨
جمادى الاولى	٧٧	٣٠٨
المجموع		٣٠,٥٩٢
٢٠صفر–٣٠ربيع الآخر (المقريزي)	١٠,٠٠٠	٤٠,٠٠٠

طاعون سنة ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م:–

التاريخ	المصليات	الديوان	المجموع الديوان ×٤
ربيع الآخر		٤٧٧	١,٩٠٨
١–٢٩جمادى الاولى		١٠٠–٣٠٠/ يوم	٢٢,١٤٨
٣٠جمادى الاولى	٢,١٠٠	٤٠٠	١,٦٠٠
٧جمادى الآخرة	١,٢٠٠	٣٥٠	١,٤٠٠
٧جمادى الآخرة (بولاق)		١٢	٤٨
٩جمادى الآخرة	١,٢٦٣	٤٠٠	١,٢٠٠
	٤٥٠ (باب النصر)		
١٠ جمادى الآخرة	٥٠٥ (باب النصر)		٢,٠٢٠
١١ جمادى الآخرة	٢,٢٤٦		٨,٩٨٤
ربيع الآخر – ١١جمادى الآخرة (الأبواب)		١٢,٣٠٠	٤٩,٢٠٠
(القرافة)			٣,٠٠٠
تقدير المؤرخين			١٠٠,٠٠٠
مجموع الجدول			٩١,٩٤٤

طاعون سنة ٨٤١ هـ/ ١٤٣٧م :-

التاريخ	المصليات	الديوان	المجموع =الديوان ×٤
١رمضان		١٨	٧٢
١شوال		١٠٠	٤٠٠
١٢ شوال	١٠٠٠	٣٤٤	١,٣٧٦
		٤٠٠/ يوم	
رمضان ، شوال ، ذو القعدة			١٠٠,٠٠٠

ويلاحظ من الجداول أن هناك تباينا واضحا في أعداد الوفيات في الطواعين المختلفة ، وأن الأمر الأكثر أهمية هو تكرار الطواعين ، وفترة الطاعون ونوعه ومدته ، والمبالغة في أعداد الوفيات ، وأن الخسائر البشرية للقاهرة تتجاوز نطاق سكانها إذا ما أخذنا بالأرقام المعطاة ، وأن نسبة الزيادة الطبيعية العالية كانت تودي دورا أساسيا في تعويض هذه الخسائر .

وقد سجلت صورة أخرى لنطاق هذه الطواعين وأثرها ، فمع انقضاء شهر صفر سنة ٨١٩هـ / ١٤١٦ م كان في كل دار في القاهره وظواهرها حزن على ميت ، حتى توهم كل إنسان أنه ميت ، لسرعة موت من يطعن ، وكثرة من يموت في الدار نفسها (١) . أما إبن اياس فقدر خسائر القاهره سنة ٨٢٢هـ /١٤١٩م بنحو نصف سكانها (٢) .

راجع عن طاعون ٨١٩ هـ / ١٤١٦م:-

- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق١ ، ص ٣٤٤-٣٥٤ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٢٠٦ / عبد الباسط ، نيل ، ج ١ ، ص ٢٣٥ب -٢٣٦ أ / ابن اياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٢٦-٢٧ .

طاعون سنة ٨٢٢ هـ /١٤١٩م :-

- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق١ ، ص ٤٨١ ، ٤٨٣ ، ٤٨٦ ، ٤٩٢ / ابن حجر ، إنباء ، ج ٧ ، ص ٣٦٧ / العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥-٨٢٤هـ ، الطنطاوي ، ص٣٥٠ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١٣ ، ص ٢٢٩-٢٣٠ / الصيرفي ، نزهه ، ج٢ ، ص٤٥٥-٤٥٦ .

طاعون ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩م:-

- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق٢ ، ص ٨٢١-٨٢٢ ، ٨٢٤-٨٢٧ ، ٨٣٦ / ابن حجر ، إنباء ، ج ٨ ، ص ١٩٩-٢٠٠/ ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١٤ ، ص ١٧١ / الصيرفي ، نزهه ، ج ٣ ، ص ١٨٢-١٨٤ ، ١٨٦- ١٨٨ ، ٢٠١-٢٠٢ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج ١ ، ص ٣١٠ب-٣١٢ أ ، ٣١٤ب / ابن إياس ، بدائع ، ج ٢ ، ص ١٢٨-١٣٢ .

طاعون ٨٤١ هـ /١٤٣٧م :-

- المقريزي ، السلوك ،ج ٤ ، ق٢ ، ص ١٠٢٧ ، ١٠٤١ ، ١٠٤٨ / ابن حجر ، إنباء ، ج ٩ ، ص ١٢ / الصيرفي ، نزهه ، ج٣ ، ص ٤٠١-٤٠٣ ، ٤١٧-٤١٩ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج ٢ ، ص ٩ أ.

١- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق١ ، ص٣٥٢-٣٥٣ / ابن حجر ، إنباء ، ج ٧ ، ص٢٠٦ / القاضي عبد الباسط ، نيل ،ج١ ، ص ٢٣٥ ب-٢٣٦ أ .

٢- ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ق ٤٦ .

أما طاعون سنة ٨٣٣هـ/١٤٢٩م فقد أطلق عليه الفصل الكبير ؛ لأنه خالف الطواعين الأخرى عندما انتشر في فصل الشتاء ، بينما تكون الطواعين الأخرى في الغالب في فصل الربيع ، وصار الإنسان يموت في أقل من ساعة ، من غير ظهور علامات المرض (١) . وأطلق على طاعون سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م الفصل الصغير ، وقيل إنه استمر دائرا في البلاد ثلاث سنوات (٢) ، وهما من الطواعين الشاملة التي أصابت مصر .

وبعد نهاية حكم برسباي ٨٤١هـ / ١٤٣٧ م وحتى نهاية الدولة المملوكية ٩٢٣هـ/١٥١٧م ، بلغ عدد الطواعين ستة عشر ، كان أولها سنة ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م ، إذ ابتدأ في ذي الحجة من السنة التي سبقتها ، وانتشر وقوي في شهر المحرم ، فوصل التعريف (التسجيل) إلى ٣٠٠في اليوم ، وازداد في صفر حتى وصل إلى ٥٠٠في اليوم ،ثم أخذ في التناقص في نهاية الشهر حتى ارتفع في ربيع الأول من القاهرة وازداد في الضواحي (٣) .

أما طاعون ٨٥٣هـ / ١٤٤٩م فابتدأ في ذي الحجة من سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م ، وازداد التعريف منذ محرم كالتالي :-

التاريخ	المصليات	الديوان (المواريث الحشرية)
١٣ محرم		١٣
١٥محرم		١١٦
١٦ محرم	١٠٠ (باب النصر)	١١٤
١٧ محرم		١٨٢
صفر		١٠٠ / يوم
٢٠ صفر (نقص) - ١٣ ربيع الأول (ارتفع) (٤)		

ومن أهم الطواعين التي حدثت فيما بعد طواعين السنوات : ٨٦٤ هـ/١٤٥٩م ، ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م ، ٨٨١هـ / ١٤٧٦م ، ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م ، ٨٩٧ هـ / ١٤١٩م ، ٩٠٣هـ / ١٤٩٦م ، ٩١٠هـ / ١٥٠٤م ، ٩١٩هـ / ١٥١٣م .

وقد استمر طاعون سنة ٨٦٤ هـ/١٤٥٩م الشتوي مدة خمسة اشهر فأفنى عددا كبيرا من أهل مصر والقاهره ، وأخلى كثيرا من الدور (٥) ، ووصلت نسبة الوفيات إلى ٩٩٪ من المصابين (٦) ، وبالرغم من محاولة الدولة إحصاء عدد الوفيات بتعيين الكتبه بالمصليات المشهورة ، إلا أن انشغالهم بأعمالهم ، أدى إلى إهمالهم

١- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٨٢٤-٨٢٥ / ابن حجر ، إنباء ، ج ٢ ، ص ١٣٢.

٢- ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ق ١٨١ .

٣- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٢ ، ص ١٠٤ / السخاوي ، التبر ، ص ٧٦، ٨٧ .

٤ - ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٢ ، ص ٢٠١-٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ / السخاوي ، التبر ، ص ٥٤ .

٥- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ١٢٨ب / ابن إياس ، بدائع ، ج ٢ ،ص ٣٥٧ .

٦- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١٦ ، ص ١٢٠ .

هذا الواجب ، وقد فصل ابن تغري بردي آثار هذا الطاعون على النحو التالي :-

التاريخ	المصليات	الديوان (المواريث الحشرية)
١٩ ربيع الآخر		٣٥
١ جمادى الاولى		٦٠
١٧ جمادى الاولى	١٠٠ (باب النصر)	١٧٠
	٦٠٠ (كل المصليات)	
٢٠ جمادى الاولى		٢٠٩
٢٦ جمادى الاولى	١١٥٣ (كل المصليات)	٢٣٥
١ جمادى الآخرة	١٩١٠ (كل المصليات)	٣١٦
٣جمادى الآخرة	١٤١٧ (٢ مصلى)	٤٠٠٠
١١ جمادى الآخرة	٥٧٠ (باب النصر)	٢٨٠
١٤ جمادى الآخرة	٤٠٠٠ (١٢ مصلى)	٣٠٠
	٥٧٠ (باب النصر)	
	٤٧٠ (الباطره)	
	٣٩٦ (الأزهر)	
١٦ جمادى الآخرة ارتفع من بولاق	تراوحت النسبة ٢-٥-٧-١٠	٣٠٠-٤٠٠-٥٠٠ في اليوم
٢١ جمادى الآخرة	١٤٣٤(٤ مصليات)	
٢٨ جمادى الآخرة	٥٧١ (٤ مصليات)	
٦ رجب	٢٤٠ (٣ مصليات)	
١٣ رجب	٩٣(٤ مصليات)	
المجموع	١٣٤٢٤	٥٦٠٥
المصليات + الديوان	١٩٠٢٩	
عدد الوفيات (المصليات + الديوان × ٤)	٦٧١١٦	

وأما طاعون سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م ، فقد ابتدأ في شهر رجب ، واستمر عشرة شـهور ، وتركـز في الجزء الشمالي من مصر (١) . ويوصف طاعون ٨٨١هـ / ١٤٧٦ م ، بأنه كان طاعونا وطيا ، يموت فيه المريـض بين ٢-٣ أيام ، وإذا تجاوز الثالث رجي له الشفاء (٢) *.

١- الصيرفي ، إنباء ، ص ٥٨ -٦١ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٠٩ أ -ب .

٢- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٧٥ أ -ب .

*-راجع حول الطواعين:-

- طاعون ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م : الصيرفي، إنباء ، ص ٥٥ ، ٥٧ -٦١ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٠٩ب -٢١١ أ .
- طاعون ٨٨١هـ / ١٤٧٦ م : القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٧٥ب -٢٨٠ أ / ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ١٢٣ .
- طاعون ٨٩٧هـ / ١٤٩١ م : السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ١٢٣٧ / ابن إياس ، بدائع ، ج٣، ص ٢٨٩ ، ٢٩٢، ٢٩٤ .
- طاعون ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م : ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٣٨٨ ، ٣٩١ .
- طاعون ٩٠٤ / ١٤٩٨ م : نفس المصدر ، ص ٤١١ .
- طاعون ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م : نفس المصدر ، ج٤ ، ص٦٣-٦٤ .
- طاعون ٩١٢هـ / ١٥٠٦ م : نفس المصدر ، ص ١٠٩ .
- طاعون ٩١٩ هـ / ١٥١٣ م : أمين معلوف ، ليون الإفريقي ، ص٢٤١-٢٤٢ .

يتضح مما ورد أن الطواعين الأكثر فتكا هي التي تكون في فصل الشتاء ، فهي على الأغلب من الطواعين الرئوية التي تكون نسبة الوفيات فيها ١٠٠٪ ، ويكثر الطاعون الدبلي في فصل الربيع ، ونسبة الوفيات فيه بين ٦٠-٩٠ ٪ .

وتزداد نسبة الوفيات طرديا مع الكثافة السكانية ، وتعرض المدن للهجرات من أهل الأرياف في أثناء انتشار الطواعين ، وسوء التغذية ، وكثرة نسبة المتشردين في القاهره ؛ لأنهم الأكثر معاناة للأوضاع الصحية السيئة .

وتتوازى التأثيرات الديمغرافية لطاعون سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م في المناطق الريفية والحضرية ؛ فقد بدأ هذا الطاعون في المناطق الساحلية ، ثم تدرج إلى المناطق الداخلية ، بعد أن أفنى أهل مدينة قطيا ، حتى قيل : إن جثثهم رميت تحت النخيل ، وفي الحوانيت ، ولم يبق من أهلها سوى الوالي وغلامين وجارية عجوز (١) .

وانتقل هذا الطاعون من الإسكندريه إلى دمنهور قصبة البحيرة وتروجة ، حتى عم الإقليم بأكمله ، ولم يبق من الفلاحين إلا القليل ، ثم شمل مناطق نستراوة والبرلس ودمياط ، فعطل بساتينها وقضى على دوابها ، وجفت أشجارها ، لقلة من تبقى من الفلاحين . وعظم في المحلة ، وقيل : إن الوالي لم يجد من يشكو إليه ، ثم انتشر بالشرقية وخاصة في بلبيس ، فامتلأت مساجدها وحوانيتها وفنادقها بالموتى ، ومن لم يستطع منهم البقاء داخل المدينة خرج للبساتين ؛ لأن اكتظاظ العمران كان يودي إلى ازدياد نسبة الوفيات ، ولإدراكهم أن المناطق الواسعة الكثيرة التهوية أفضل من البقاء داخل المدن الرطبة والمتقاربة الأبنية ، ورحل القسم الأعظم منهم إلى القاهرة ، وبقيت الجثث مرمية في الوجه البحري لا تجد من يدفنها (٢) .

وشمل هذا الطاعون أيضا بلاد الصعيد فعطل الدواليب ، وقضى على أعداد كبيرة من الفلاحين ، فقيل: إن عدد الفلاحين المسجلين في ديوان الخراج في أسيوط انخفض من ٦,٠٠٠ فلاح إلى ١١٦ فلاحا (٣) ، ولم يدخل الطاعون أسوان ، إذ قيل : إن عدد من مات بها كان أحد عشر إنسانا فقط (٤) .

وتتضح شدة تأثير هذا الطاعون من محاولة المقطعين إغراء الفلاحين بإعطائهم نصف ما يحصدون ، إلا أنهم لم يجدوا من يقوم بذلك ، فاضطروا إلى العمل بأيديهم وأجنادهم ودوابهم ، فعجزوا عن كثير من الزرع وتركوه (٥) ، كما عجز أهل بلبيس عن معظم محاصيلهم (٦) ، وخربت مناطق بهتيت والأميرية وسرياقوس والخصوص والمطرية من الضواحي (٧) .

١- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٧٧٥ .
٢- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٧٧٨-٧٧٩ .
٣- المقريزي ، السلوك ، ٣ ، ق٢ ، ص ٧٨٦ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٠ ، ص ١٦٥-١٦٦ .
٤- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ص ٧٨٤ .
٥- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٧٨٦ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٠ ، ص ١٦٥ .
٦- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٨٧٨ .
٧- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٧٨٦ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٠ ، ص١٦٥ .

وقد أصيب الريف المصري بخسائر اقتصادية بليغة ، فثبت سعر القمح على (١-٠,٧٥) دينار / إردب بالرغم من عدم قدرة الفلاحين على جمع معظم محاصيلهم ، وانخفاض الإنتاج الزراعي نتيجة لموت أعداد كبيرة من سكان المدن والقرى ، ولم يجد بعض الفلاحين من يشتري محاصيلهم ، فترك في منطقتيّ ناي وطنان ١,٥٠٠ فدان برسيم من غير أن تجد من يشتريها للرعي ، وعندما هبط النيل وحان موسم الزراعة ، انخفضت مساحة الأراضي المزروعة إلى نصف ما كانت عليه (١) بسبب موت أعداد كبيرة من الفلاحين وهجرتهم ، وانخفاض عدد القادرين على القيام بالنشاطات الزراعية .

وقد صورت خسارة الوجهين القبلي والبحري بذكر عدد الوفيات في بعض المدن والقرى ، أو وصف سير الطاعون وتطوره في أثناء انتشاره ، والجدول التالي يبين أثر بعض الطواعين في المناطق الريفية :-

السنة	المدينة أو القرية	العمل	عدد الوفيات
٧٩٠هـ / ١٣٨٨ م	الإسكندرية	______	١٠,٠٠٠ (٢)
٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م	قوص	القوصية	١٧,٠٠٠
	هو		١٥,٠٠٠
	أسيوط	الأسيوطية	١١,٠٠٠
٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م	أسيوط	الأسيوطية	١٠,٠٠٠
	بوتيج		٣,٥٠٠ (٣)
٨٠٩ هـ/١٤٠٦ م	منوف	المنوفية	٤,٤٠٠ (٤)
٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م	قرى الشرقية والغربية		٧,٦٥٢-١٠,٠٠٠ (٥)
	بلبيس	الشرقية	١٠٠٠
	بردين	الشرقية	٥٠٠
	ديروط	الغربية	٣,٠٠٠
	النحريرية	الغربية	٩,٠٠٠ (٦)
٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م	الإسكندرية	______	١٠٠ / يوم (٧)
	المحلة	الغربية	٥,٠٠٠

١- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٧٨٦ .

٢- ابن حجر ، إنباء ، ج٣ ، ص ١٦٥ .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، ق٣ ، ص١١٢٦ ، ج٤ ، ق١ ، ص١٩-٢٠ / السخاوي، وجيز ، ج١ ، ص٣٨٢ / ابن إياس، بدائع، ج ١ ، ق٢ ، ص ٦٨٩-٦٩٠ .

٤- المقريزي ، السلوك ،ج١ ، ق١ ، ص ٤٢-٤٣ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج ١ ، ص ٢٠٤ أ .

٥- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص ٢٢٩-٢٣٠ .

٦- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٨٦ .

٧- المقريزي، السلوك ،ج٤ ، ق٢ ،ص٨٢٥ / ابن تغري بردي ، النجوم ،ج١٤، ص١٧٣ /الصيرفي ،نزهه ،ج٣ ، ص١٨٦ - ١٨٧ .

	صا	الغربية	٦٠٠ (١)
٨٦٤ هـ / ١٤٥٩ م	سرياقوس (ربيع الأول)	الضواحي	٢٠٠ في اليوم
	سرياقوس (جمادى الاولى)	الضواحي	٣٠٠-٤٠٠ في اليوم
	المحلة	الغربية	٢٥٠ في اليوم (٢)
٨٩٧ هـ / ١٤٩١ م	سرياقوس (ربيع الأول)	الضواحي	١٠٠ في اليوم (٣)

وهذه الأرقام تعطي فكرة عن خسارة الأرياف ، وخاصة في الطواعين الشاملة ،مما أدى إلى تراجع الإنتاج الزراعي للقرى الموبوءة ، وتدمير جزء من قدرتها الإنتاجية بعد موت عدد كبير من الفلاحين وإحداث نقص في الأيدي العاملة .

وقد حاول بعض المؤرخين وصف الطواعين في منطقة الأرياف ومدى تأثيرها في السكان بمراقبة سلوك الناس ، أو وصف طبيعة انتشار الطاعون نفسه ، فنتج من شدة طاعون سنة ٨٠٠ هـ/ ١٣٩٧ م واستمراره ثلاثة شهور عجز أهل الشرقية والغربية عن دفن موتاهم ، وممارسة الدفن الجماعي بالحفر والآبار ، أو إلقاء الجثث في نهر النيل (٤) ، وخسرت قرى الشرقية والغربية كثيرا من سكانها في طاعون ٨٢٢ هـ / ١٤١٩م (٥) ، وشنع طاعون ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م في مدن فوه وبلبيس وعمل الغربية (٦) ، وأصاب طاعون سنة ٨٦٤ هـ / ١٤٥٩م معظم قرى الوجه القبلي والبحري محدثا خسائر كبيرة ، حتى قيل : إنه إذا دخل قرية يفني معظم أهلها (٧) ، ولم يبق طاعون ٨٩٧ هـ / ١٤٩١ م في مدينة سرياقوس سوى عدد قليل من السكان (٨) ، وكان آخر الطواعين في قرى الشرقية والغربية سنة ٩٢٠ هـ/١٥١٤ م (٩) .

وتأثر عملا القليوبية والمنوفية في طاعون سنة ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩م ، وقيل : إنه مات في الكفر الواحد ما لا يقل عن ٦٠٠ إنسان (١٠) ، وخسرت مدينة دمنهور من عمل البحيرة في سنة ٨٣٣ هـ/ ١٤٢٩م معظم سكانها (١١) .

١- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٨٢٦ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج ١ ، ص ٣١١ ب .
٢- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٦ ، ص ١١١ ، ١١٣ ، ١١٥ .
٣- السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ١٢٣٧ .
٤- العيني ، عقد ، ص ١١ب .
٥- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٨٦ .
٦- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٢٦ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ١٨٧ .
٧- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١٦ ، ١١٣ .
٨- السخاوي ، وجيز ، ج ٣ ، ص ١٢٣٧ .
٩- ابن إياس ، بدائع ، ج ٤ ، ص ٣١٥ .
١٠- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق٢ ، ص ٨٢٥ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٤ ، ص ١٧٣ .
١١- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق١ ، ص ٧٨٨ ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٦٧ ، ٦٨٩ ، ٨٢٥ ، ج٤ ، ق٣ ، ص ١٠٥٧ / ابن حجر، إنباء ، ج٣ ، ص ١٦٥ ، ج٧ ، ص ٢٧٣ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ١٨٦ ، ٤٢٥/ السخاوي ، وجيز ، ج ١ ، ص ٤٤٧ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج ١ ، ص ٢٨٩ب ، ٢٨٧ أ ، ج٢ ، ١٠ب ، ٢٠٢ب ، ٢٠٣ ب ، ٢٠٧ ب .

وتعرضت بلاد الوجه القبلي لخسائر كبيرة ، فطاعون ٨٠٦ هـ/ ١٤٠٣م خرب كثيرا من بلاد الصعيد (١). وتكررت الطواعين في فترة المؤيد شيخ (٨١٦-٨٢٤ هـ / ١٤١٣- ١٤٢١ م) وبرسباي (٨٢٥-٨٤١ هـ / ١٤٢١ - ١٤٣٧ م) محدثة أثرا بليغا في بلاد الصعيد ؛ ففي سنة ٨١٧هـ / ١٤١٤م اجتاح الطاعون إقليم البهنساوية (٢) ، وقضى طاعون سنة ٨٣٣ هـ/ ١٤٢٩م على أعداد كبيرة من سكان بوتيج ومنشأة إخميم وما بنواحيهما من البلاد (٣) ، وأخلى هذا الطاعون البلاد من السكان (٤) .

ويلاحظ أن بعض الطواعين بدأت في بلاد الصعيد وانتشرت إلى المناطق الأخرى ، وتميزت بشدتها، فأصاب طاعون سنة ٨٤١هـ / ١٤٣٧ م معظم بلاد الصعيد ، ودخل منطقة الواحات ، التي تعد إحدى الأمكنة التي يلجأ إليها أهل المدن عند الهرب من الطواعين (٥) ، وانتشر طاعون سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م في الأعمال الأسيوطية ، وأهلك معظم أهالي مدينة أسيوط (٦) .

وبالرغم من ضعف المعلومات عن مناطق الأرياف ، إلا أن الأرقام الواردة والوصف يشيران إلى أن تأثرها لا يقل عن مدينة القاهرة ، لغياب العناية الصحية ، وتوافر الظروف البيئية المناسبة لعيش القوارض والبراغيث ، إضافة إلى الرطوبة لكثرة الأبخره والمستنقعات المتكونة بعد انخفاض مياه النيل ، ولكن لا بد من الإشارة إلى أن معدل الزيادة الطبيعية المرتفع في الأرياف ، كان يعوض جزءا كبيرا من هذا النقص .

وتوضح الروايات أن الفئات الأكثر تعرضا للطواعين هي : الأطفال والنساء والشباب ، وأن الطاعون غالبا ما يبتدئ بالأطفال ، ولذلك يشكلون النسبة العليا من عدد الوفيات ، ففي سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م قضى الطاعون على كل المواليد الجدد مع أمهاتهم (٧) ، وبلغت نسبة الوفيات في الأطفال ذكورا وإناثا في سنة ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م ٤٠ ٪ (٨) ، وبلغت سنة ٨٢٢هـ / ١٤١٩م ٥١٪ وفقا لإحدى الروايات (٩) . وأخلى طاعون سنة ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩م البلاد من الأطفال ، كالإسكندرية ورشيد والبحيرة ودمياط والشرقية والغربية والفيوم ، وكثير من قرى الصعيد (١٠) ، وتوفي سنة ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨م في إحدى القرى ٢٠٠ طفل في

١- المقريزي، السلوك، ج٤ ،ق١، ص١٩-٢٠/ ابن تغري بردي، النجوم ،ج١٣ ،ص١٥ /القاضي عبد الباسط، نيل،ج١ ، ص٢٠٢ أ.

٢- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص٢٩٠ / ابن حجر ، إنباء ، ج ٧ ،ص١٥٠ /القاضي عبد الباسط، نيل، ج ١ ، ص٢٣٠ ب .

٣ -ابن حجر ، إنباء ، ج ٨ ، ص ١٥١ .

٤- ابن إياس ، بدائع ، ج ٢ ، ص ١٣٢ .

٥- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق٢ ، ص ١٠٤٠ / الصيرفي ، نزهة ، ج ٣ ، ص ٤٠١-٤٠٣ .

٦- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٢٦٧ .

٧- المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٧٨٤ .

٨- النويري ، كتاب الإلمام ، ج٦ ، ص ٤٢٣ .

٩- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق١ ، ص ٤٩٢ / العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥-٨٢٤هـ ، الططاوي ، ص ٣٦٣ / ابن إياس ، ج٢، ص ٤٥٥-٤٥٦ .

١٠- ابن إياس ، بدائع ، ج ٢ ، ص ١٣٢ .

شهر واحد (١) ، واكتفى كثير من المؤرخين بالتعبير عن تأثير الطواعين بالقول : " إن الطاعون قد كثر لا سيما في الأطفال والشباب " (٢) .

ووصلت نسبة الوفيات في النساء سنة ٨٢٢هـ /١٤١٩م ٨٪ (٣) ، وبلغ عدد الفتيات في طاعون سنة ٨٩٧ هـ/١٤٩١م ١٢,٠٠٠ فتاة (٤) ، ويؤدي موت هذه الفئة إلى انخفاض نسبة الخصب في المجتمعات ؛ لأنه يعتمد على عدد الذكور والإناث بين سن ١٥-٤٩ سنة .

أما الفئة الأخرى الأكثر تعرضا فهي العبيد والإماء ، ولذلك تكثر الإشارات إلى أن الطاعون قد فتك فيهم(٥) ، ويبدو أن السبب الرئيسي يعود إلى الظروف الصحية السيئة التي كانوا يعيشونها .

وبلغ عدد موجات ***الغلاء والمجاعات*** الناجمة عن قصور النيل ضمن الفترة الواقعة بين ٧٧٦- ٩٠٨ هـ / ١٣٧٤- ١٥٠٢م خمس عشرة غلوة (٦) ، وكان أكثرها تأثيرا في السكان المجاعات التي حصلت في السنوات ٧٧٦-٧٧٧ هـ/ ١٣٧٤-١٣٧٥م / ٨٠٦-٨٠٨ هـ/١٤٠٣-١٤٠٥م / ٨٥٤- ٨٥٥ هـ/ ١٤٥٠-١٤٥١م ، والتي تفاوتت في تأثيرها وفقا لطبيعة الأمراض التي نشأت عنها ، ومدة استمرارها ، وموقف الدولة وسياستها تجاه الرعايا ، كاحتكار الغلال ، والأوضاع المناخيه وخاصة البرد ، والأوضاع الاقتصادية للفئات الاجتماعية المختلفة قبل المجاعة .

وعندما ترتفع الأسعار إلى معدلات أعلى بكثير من القدرة الشرائية للطبقات الفقيرة ، تزهق الأرواح من شدة الجوع ، ففي سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م وصل سعر الإردب إلى ٥,٢٥ دينار / إردب ، أي بزيادة خمسة أضعاف على ما كان عليه قبل المجاعة ، وهذا الجأ فئات كثيرة من الفقراء إلى أكل لحوم الميتة والقطط والكلاب ، والموت من شدة الجوع ، حتى صار الفقير يصيح :" لله لبابة قدر شحمة أذني ، أشمها وخذوها ، ويبقى على هذه الحال حتى يموت " (٧) فبلغ عدد الوفيات في جمادى الاولى ٦٠٠في اليوم(٨) ، وفي سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٦م توفي عدد كبير من الناس عندما ارتفعت الأسعار (٩) .

١- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق٣ ، ص ١١٢٧ .

٢- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٢-٤٣ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ١٠٣ / السخاوي ، وجيز ، ج ٢ ، ص ٤٢٢ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج ١ ، ٢٠٤ أ ، ج٢ ، ١٢٨ ب ، ٢٧٦ أ / أمين معلوف ، ليون الإفريقي ، ص٢٤١ .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٤٩٢ .

٤- ابن إياس ، بدائع ، ج ٣ ، ص ٢٨٩ .

٥- النويري ، كتاب الإلمام ، ج٦ ، ٤٢٣ / ابن إياس ، بدائع ، ج ٢ ، ص ١٢٨ .

٦- ابن إياس ، نشق ، ص ٢١٦ أ - ٢٢٧ ب .

٧- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق ١ ، ص ٢٢٣-١٣٦ / ابن حجر ، إنباء ، ج١ ، ص ٩٢-٩٣ .

٨- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ١٣٨ .

٩- نفس المصدر ، ج٣ ، ص٢٣٨ .

ومما كان يعمل على زيادة فترة المجاعة احتكار الغلال ، ورفع أسعارها إلى درجة تفوق القدرة المالية للفلاح، مما يؤدي إلى تبوير كثير من الأراضي ، حتى عندما يكون الري تاما (١) .

وكان يعقب الغلاء ازدياد أعداد المتشردين والصعاليك في الشوارع ، وانتشار الأوبئة بينهم ، وخاصة إذا كان الشتاء شديد البرودة ، بسبب سوء التغذية التي تضعف مقاومة أجسامهم ، ولأن الاحتياط الغذائي يشكل عامل جذب للقوارض ، فبذلك تتصل مباشرة مع الناس (٢) ، إضافة إلى أن الشتاء يساعد على انتشار الأمراض الرئوية ، كالسعال والأمراض الحادة . ففي رجب سنة ٧٧٦هـ /١٣٧٤م كثر الموت في الفقراء والمساكين من شدة البرد والجوع والعري ، وصاروا يستغيثون فلا يغاثون ، وبالرغم من محاولة الدولة تخفيف ذلك عن طريق توزيعهم على أصحاب الأموال ، إلا أن عدد الأموات وصل ـ حسب ديوان المواريث الحشرية ـ ٢٠٠ في اليوم و ٥٠٠ من الطرحاء (٣) .

ومع دخول الشتاء سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م انتشر السعال والحمى ، ففشا الموت في الفقراء ، وأهل المسكنة، حتى صار يموت في كل يوم ما يقرب من ١,٠٠٠ إنسان ، وبلغ عدد من كفنه الاستادار وحده في شهر شوال فقط ١٢,٨٠٠ إنسان ، ثم تزايدت نسبة الوفيات مع هبوب الريح المريسيه (٤) .

وتوعك الناس في سنة ٨٥٥هـ / ١٤٥١ م من الأمراض الحادة ، بسبب البرد والجوع والضعف العام الذي أصابهم ، نتيجة لاستمرار المجاعة لفترة طويلة تقرب من السنتين (٥) .

ويلاحظ أن الفئات المعدمة التي تعيش حالة الكفاف هي الأكثر تأثرا بالمجاعات ، وغالبا ما يكونون من أصحاب " الحرف والصنائع والعمال والفلاحين " الذين تبقى أجورهم ثابتة ، كما حصل ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م ، مع أن الدرهم لم يعد له تلك القيمة ، ولذلك فقد أفنت هذه المجاعة معظم الفقراء في القاهرة (٦) ، وإذا ما طالت هذه المجاعة فإنها تأخذ في التأثير على الفئات الأكثر غنى بالتدريج (٧) .

وتنشط أثناء المجاعات حركة الهجرة الخارجية الى بلاد الشام والحجاز ، والهجرة الداخلية إلى المدن الرئيسية وخاصة القاهرة ، حيث يأمل أبناء الأرياف بوجود بعض الأغذية ؛ فكان لمجاعة سنة ٨٠٧هـ /

١- المقريزي ، إغاثة ، ص ٤٢-٤٣ / ابن تغري بردي ، حوادث ، ج١ ، ص٢٣٣ / السخاوي ، التبر ، ص ٣٥٢ / الأنصاري ، نيل الرائد ، ص ٦٠ب .

٢- Dols , Black Death , P 22.

٣- المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، ق١ ، ص ٢٣٣-٢٣٦ .

٤- المقريزي ، السلوك ،ج٣ ، ق٣ ، ص ١١١٩-١١٢٠ / ابن حجر ، إنباء ، ج٥ ، ص ١٣٦-١٣٧ .

٥- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج١ ، ص ٢٩٢ ، ج٢ ، ص ٣٢٤ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ / السخاوي ، التبر ، ص٣٤٧، ٣٨٤ .

٦- المقريزي ، السلوك ،ج٣ ، ق١ ، ص ٢٣٤ .

٧- المقريزي ، السلوك ،ج٣ ، ق١ ، ص ٢٣٦ / ابن تغري بردي ، حوادث ، ج٢ ، ص٣٢٧ .

١٤٠٤م آثار بليغة في سكان مصر ، فقد باع أهل الصعيد عددا كبيرا من أولادهم في القاهرة ، ورحل القسم الأعظم منهم إلى بلاد الشام (١) ، وحاولت خمس سفن من أهل الإسكندرية الخروج إلى بلاد الشام (٢) ، وهاجر كثير من أهل البحيرة إلى القاهرة والمناطق المجاورة (٣) ، وخلت كثير من القرى من أهلها (٤) .

وأصبحت هجرة أهل الأرياف للقاهرة سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١م من الظواهر اللافتة للنظر ، فكثر في شهر رمضان السؤال منهم ، وصار الإنسان لا يمر في شارع إلا ووراءه كثير منهم (٥) ، وقدر عدد من هاجر للقاهرة من الأعراب والفلاحين بعدد من خرج منها لبلاد الشام ، حتى قيل : إن القاهرة كادت تخرب لكثرة ما هاجر منها إلى بلاد الشام (٦) .

ومهما كانت دوافع *حركات العربان* ، فإن حركاتهم تركت آثارا سلبية في بعض المناطق الحضرية والريفية في الوجهين القبلي والبحري ، وغالبا ما يزداد نشاطهم وإفسادهم عند ضعف السلطة القائمة ، وانشغال الدولة في صراعات داخليه أو حروب خارجية .

وقد أدى تنافس هوارة وبني الكنز بين (٧٩٠-٨١٥ هـ / ١٣٨٨-١٤١٢م) للسيطرة على بلاد أسوان ، إلى إلحاق كثير من الخراب بهذه المنطقة ، فيقول المقريزي : " لما كانت المحن سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م وخرب إقليم الصعيد ، فارتفعت يد السلطنة عن ثغر أسوان ، ولم يبق للسلطان وال في مدينة أسوان ، واتضع حاله عدة سنين ، ثم زحفت هواره في محرم سنة ٨١٥ هـ/١٤١٢م وحاربت أولاد الكنز وهزموهم وقتلوا كثيرا من الناس ، وسبوا ما هناك من النساء والأولاد واسترقوا الجميع ، وهدموا سور مدينة أسوان ، وتركوها خرابا يبابا ، لا سكن بها فاستمرت على ذلك " بعد أن بلغت الغاية في الرخاء الاقتصادي والعمراني (٧) .

واستغل العربان ثورة نائب الوجه القبلي في سنة ٨٠٢هـ / ١٣٩٩م لتخريب مدينة منفلوط وإفسادها(٨)، وهدم المناطق السكنية الواقعة على أطراف مدينة دلاص وتهجير عدد من سكانها وقتلهم (٩) .

١- المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، ق١ ، ص٢٣٤ .

٢- ابن حجر ، إنباء ، ج ٥ ، ص ١٩٥ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ١٩٧ .

٣- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ١٤٥ أ .

٤- المقريزي ، إغاثة ، ص ٤٦-٤٧ ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١١٦٧ .

٥- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج٢ ، ص ٣١٨ .

٦- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج٢ ، ص ٣٢٧ .

٧- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٩٨-١٩٩ .

٨- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص١٠٠٢ .

٩- الحميري ، الروض ، ص ٢٣٦ .

وكانت أعمال الوجه البحري مسرحا لكثير من حركات العربان ، ففي سنة ٧٨٣هـ /١٣٨١م تمكن العرب من تدمير جزء كبير من مدينة دمنهور لشعورهم بضعف السلطة (١) ، وتعرضت الشرقية والغربية في سنتي ٧٩٠-٧٩١ هـ /١٣٨٨م للخراب والإفساد على يد العربان في أثناء الصراع بين السلطان برقوق ومنطاش ، حتى عجز الكشاف والولاة عن إيقافهم (٢) ، وفي سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م هاجم عرب لبيد البحيرة وافسدوا بعض المناطق وخربوها (٣) . وتمكنوا في سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م من إجلاء أهالي مدينة منية غمر من عمل الغربية (٤) .

وشهدت الفترة بين العقد الثامن من القرن ٩هـ / ١٥م ونهاية الدولة المملوكية ٩٢٣ هـ / ١٥١٧م ، اعتداءات متكررة من العربان على إقليم البحيرة ، خاصة في أثناء انشغال السلطان قايتباي ٨٧٣-٩٠١ هـ / ١٣٨١-١٤٩٥م بالتجهيز لمحاربة التركمان ، فتمكنوا سنة ٨٧٣هـ/١٣٨١م من تدمير بعض المناطق من البحيرة حتى عجز الكاشف عن إصلاحها (٥) ، وازدادت قوتهم في سنة ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢م حتى أوشكوا على السيطرة على جميع البلاد المقطعة (٦) ، ونتج من تحالف سبع طوائف من عربان البحيرة سنة ٩١٨هـ /١٥١٢م تدمير كثير من المناطق وتخريبها (٧) .

ساهمت عوامل في تخريب بعض القرى ، كتعسف الولاة والكشاف والوزراء في جمع الضرائب من أهالي الأرياف (٨) ، وغلبت مياه بركة الفيوم المغلقة التي عجز الحكام عن إيجاد مخرج للمياه التي تصب فيها صيفا وشتاء من خليج المنهي ، ففاضت على القرى والضياع المجاورة لها ودمرتها (٩) ، وازداد هذا الأمر سوءا سنة ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م ، ودفع كثيرا من أهالي الفيوم إلى الرحيل للمناطق المختلفة (١٠) .

وكان التناقص التدريجي لعدد سكان مصر منذ منتصف القرن الثامن وحتى نهاية الدولة المملوكية سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧م أحد سمات تاريخ مصر الاجتماعي ، لكن من الصعب تحديد نسبة التناقص ، لتناقض المعلومات وغياب الإحصاءات الدقيقة لعدد سكان مصر قبل نهاية الفترة المملوكية وبعدها ، فكل ما ورد عن عدد السكان هو محض افتراضات، ولذا سيكتفى بتبيين تأثير الطواعين والمجاعات ومدى تضرر المدن والقرى، ورسم

١- ابن حجر ، انباء ، ج٢ ، ص ٤٦ .

٢- نفس المصدر ، ص٣٢٩ .

٣- الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص٥١ ب / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ١٤٢ ب .

٤- السخاوي ، التبر ، ص ٤٢٦ .

٥- الصيرفي ، إنباء ، ص٩-١٠/ القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص٢٠٥ أ .

٦- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٥١-٥٢ .

٧- نفس المصدر ، ص ٢٥٦ .

٨- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٣٦ ، ٦٨٨ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص١٢٧ / السخاوي ، الضوء ، ج٤ ، ص ٢٧٢ .

٩- ابن الوردي ، خريدة ، ص ٤٦ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص٤٥١ / الخالدي ، المقصد ، ص٨٥ أ .

١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٣ ، ص١٢٢٥ / القاضي عبد الباسط، نيل ، ج٢ ، ص٣٦ أ / ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص٢٢٨ .

صورة لبعض المدن قبل الفترة وبعدها ، ثم ينظر إلى الإحصاءات الواردة عن عدد القرى وعمرتها .

وقامت الطواعين والمجاعات بدور أساسي في تناقص السكان ، سواء بالوفيات أم بالهجرة إلى خارج البلاد، فقد قدرت خسارة مصر في طاعون سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م بنحو مليون نسمة (١) . وتأثر عدد السكان سلبا باضطراب الأوضاع السياسية وضعف السلطنة وتحكم الأمراء ، فكان لمجاعة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م وطاعونها أثر بليغ في أهل الأرياف ، فهجروا القرى واستقروا في القاهرة أو رحلوا إلى بلاد الشام ، ولم يستطع السلطان برقوق (٧٨٤-٨٠١ هـ/١٣٨٢-١٣٩٨م) فيما بعد تحسين الأوضاع ، فأخذ الصعيد والوجه البحري بالتدهور شيئا فشيئا ؛ لأن هم الولاة كان تحصيل أكبر قدر ممكن من العوائد ، وتقليل الإنفاق على احتياجات المناطق الريفية إلى أدنى حد ممكن، وهذا أدى إلى إهمال مشروعات الري التي تعد أساس الحياة الريفية .

واضطربت الدولة مع مجيء السلطان فرج (٨٠١-٨١٥ هـ/١٣٩٨-١٤١٢م) الصغير السن للحكم ، إذ اجتاح مصر سنة ٨٠٦ هـ/١٤٠٣م طاعون ومجاعة استمرت نحو ثلاث سنوات ، قضت على عدد كبير من سكانها ، وهاجر كثير من أهل الصعيد والوجه البحري إلى بلاد الشام ، فأصاب الخراب معظم الإسكندريه والبحيرة وبلاد الشرقية والغربية والفيوم والجيزيه ، ودثر ثغر أسوان ، ودمرت أجزاء كبيرة من مدن الصعيد ، واندثرت أربعون قرية منه (٢) . وتراوحت تقديرات نقص السكان بين الثلث (٣) والنصف (٤) و٦٠٪ (٥) والثلثين(٦) ، وتعطلت مساحات واسعة من الأراضي الزراعية لهجرة الفلاحين من القرى ، فعد هذا السلطان من أشأم ملوك الأرض ، إذ خرب معظم بلاد مصر والشام (٧) ، وأصبح الإنسان الذي كان يقطع بلاد الصعيد من الشمال إلى الجنوب من غير أن يحتاج أي علف ومأكل لانتظام العمارة فيها وضيافات أهلها ، لا يجد من يقدم له كسرة خبز بعد حوادث سنتي ٨٠٦-٨٠٨هـ / ١٤٠٣- ١٤٠٥م (٨) .

وازداد الأمر سوءاً في الفترات اللاحقة ، إذ اعتاد المؤيد شيخ (٨١٦-٨٢٤ هـ/ ١٤١٣-١٤٢١م) وبرسباي (٨٢٥-٨٤١ هـ/١٤٢١-١٤٣٧م) القيام بحملات تستهدف نهب مواشي الفلاحين وأموالهم ، وهذا ما دفعهم للهجرة (٩)، وتكررت الطواعين في فترتيهما بمعدل مرتفع جدا ، بنسبة طاعون لكل ١,٧سنة ، واشتهر

١- أحمد صادق ، تاريخ ، ص٤٢٢ .

٢- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص٢٢٧ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص١٠٩ .

٣- Lane Poole , History , P 328 .

٤- المقريزي ، إغاثة ، ص٤٣ .

٥- Shirley , The Egyptian , P 20 .

٦- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص٢٢٧ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص١٩٧أ .

٧- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص٢٢٥ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص١٠٨ .

٨- ابن إياس ، نشق ، ص٥٣أ .

٩- ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٢١١ .

منها ما كان في سنة ٨٠٩ هـ/ ١٤٠٦م ، ٨٢٢هـ/ ١٤١٩م ، ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م ، وتقدر خسارة الوجهين البحري والقبلي فيها بنحو ٢٠٠,٠٠٠ نسمه (١) .

ويبدو من المعلومات الواردة عن الطواعين في النصف الثاني من القرن التاسع وحتى نهاية الدولة المملوكية أن مجاعة سنة ٨٥٤-٨٥٥ هـ/ ١٤٥٠-١٤٥١م وطاعونها ، كان لهما تأثير كبير ، إذ هاجر كثير من أهل القرى إلى المدن وخاصة القاهرة ، وإلى بلاد الشام . وتكررت الطواعين في سنوات كثيرة محدثة أثرا بليغا في السكان ، ومن أكثرهذه الطواعين تأثيرا ما كان سنة ٨٦٤ هـ/ ١٤٥٩م ، ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨م ، ٨٨١ هـ / ١٤٧٦م، ٨٨٨ هـ/ ١٤٨٣م الذي عرف بالفصل الصغير ، وقدرت خسارة مصر سنة ٨٩٧ هـ/ ١٤٩١م ، ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م بنحو ٤٠٠ الف .

ويمكن دراسة الأوضاع الديموغرافية للقاهرة التي تتركز عليها معظم المعلومات لرسم صورة جزئية للتغيرات السكانية ، فالدمار الذي أصابها بين ٧٥٠-٨٥٠هـ / ١٣٤٩- ١٤٤٦م يعد انعكاسا للتناقص السكاني الذي عانته ، إذ يشير المقريزي إلى أن هذه المدينة أصبحت خرابا مقارنة بما كانت عليه في النصف الأول من القرن ٨هـ / ١٤م ، فتقلصت عمارة ظواهرها لتقتصر على المناطق الشمالية والجنوبية ، ودمر جزء كبير من مناطقها الداخلية والغربية والشرقية (٢) ، كما دمرت البيوت التي كانت تمتد بين منية السيرج وخط دير الطين البالغة نحو ٠,٥ بريد (١٢كم) في المنطقة الجنوبية من القاهرة (٣) ، إضافة الى خراب منشأة المهراني بالقرب من بولاق ، وهدم بيوت سويقة العرب المتصلة بالريدانية وبيعها ، ولم يتبق بها سوى بعض الدور والأحياء المعرضة للانهيار (٤) .

أما الحارات فخرب منها في النصف الأول من القرن التاسع الهجري حارة الصالحية (٥) ، وحارة العطوفية، وكانت من أجل مساكن القاهرة ، فبيعت أنقاضا وأقفرت (٦) . وخرب أيضا خط المناخ والسبيل وبستان ابن صيرم (٧) ، ودرب الأتراك ودرب الزراق ودرب ماينجار ودرب الجاكي زمن المؤيد شيخ (٨١٦-٨٢٤ هـ/ ١٤١٣-١٤٢١م) ، واتصل الخراب بدرب ملوخيا (٨) . ويشار إلى أن هذا الخراب كان بسبب الأوضاع التي مرت بها مصر سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م ، لعدم زيادة النيل وما رافقه من" ارتفاع أسعار الديار المصرية ، وكثرة الحروب والفتن بين أهل الدولة ، وخراب الصعيد ، وجلاء أهله عنه ، وتداعي أسفل أرض مصر من بلاد

١- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق٢ ، ص ٨٣٦ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ٢٠١-٢٠٢ .
٢- المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص١٣٢ ، ج٢ ، ص ٣٦١ .
٣- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص١٣٢ .
٤- نفس المصدر ، ص١٣٩ .
٥- نفس المصدر ، ص ١٢ .
٦- نفس المصدر ، ١٣ .
٧- نفس المصدر ، ص٣٦ .
٨- نفس المصدر ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٤ .

الشرقية والغربية إلى الخراب ، واتضاع أمور ملوك مصر وسوء حال الرعية ، واستيلاء الفقر والحاجة والمسكنة على الناس ، وكثرة تنوع المظالم الحادثة من أرباب الدولة بمصادرة الجمهور وتتبع أرباب الأموال ، واحتجاب ما بأيديهم من المال بالقوة والقهر والغلبة ، وطرح البضائع " فخرب كثير من أماكن القاهرة وظواهرها ، وصارت " كيمانا وخرائب موحشة يأويها البوم والرخم ومستهدمة وآيلة للسقوط والدثور " (١) .

وعندما زار ليون الإفريقي القاهرة ٩١٩- ٩٢٣ هـ / ١٥١٣-١٥١٧م ، ذكر أن عدد سكانها قد نقص نقصا كبيرا ، وأن هذا النقص سوف يزداد (٢) ، فلم يعد يسكن داخل المدينة سوى ٨,٠٠٠ أسرة ، وفي ربض باب زويلة ١٢,٠٠٠ أسرة ، وفي ربض باب اللوق ٣,٠٠٠ أسرة وفي بولاق ٤,٠٠٠ أسرة وفي القرافة التي غدت شبه خربة مقارنة بما كانت عليه ٢,٠٠٠ أسرة ، وفي جزيرة المقياس ١,٥٠٠ أسرة (٣) ، ولو افترضنا أن معدل الأسرة هو خمسة أفراد ، لبلغ عدد سكان هذه المناطق ١٥٢,٥٠٠ نسمة ، مع الإشارة إلى أنها تشكل القسم الأعظم من مدينة القاهرة ، وهذا يؤكد تراجع عدد السكان بهذه المدينة .

وقد خرب أيضا من ضواحي القاهرة كوم الريش (٤)، وهجرت منية الأمراء بعد هجوم المناسر (الحرامية) عليها ، ولم يبق فيها إلا عدد قليل ، وأصبحت تحتاج إلى طاحونة قمح واحدة بعد أن كان فيها ثمانون طاحونة (٥) ، وهجر سكان قرية الخندق خارج باب الفتوح شمال القاهرة بلدتهم (٦) ، وقدرت نسبة الدمار في أحياء القاهرة بالنصف (٧) ، وتحول القسم الأكبر من بيوت الفسطاط ومنشآتها إلى مراكز لبيع الأنقاض(٨) ، فكل هذه الإشارات تؤكد التراجع الديموغرافي الذي شهدته مصر في القرن التاسع الهجري .

وتعرضت الإسكندرية ومنطقتها إلى كثير من الدمار ، فكان نصيب الإسكندرية تسعة طواعين ، عدا الطواعين الشاملة للبلاد المصرية ، ويشير أحد الرحالة الإيطاليين في سنة ٩١٨هـ/١٥١٢م إلى نسبة التدمير العالية في هذه المدينة ، فقدرها بحوالي ٩٠٪ (٩) ، وهي نسبة تحتمل كثيرا من المبالغة ، كما خرب من كور الإسكندرية مريوط (١٠) ، وأبو قير (١١) ، واختفى كثير من القرى والضياع والبساتين بسبب إهمال

١- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٣٦٥ .

٢- أمين معلوف ، ليون الإفريقي ، ص ٢٤٢ .

٣- ليون الإفريقي ، وصف ، ص٥٧٩ ، ٥٨٢-٥٨٥ .

٤- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص١٣٠ / السخاوي ، الضوء ، ج٢ ، ص٢ .

٥- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص١٣٠ .

٦- نفس المصدر ، ص١٣٨ .

٧- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق١ ، ص ٢٢٧ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص ١٠٩ .

٨- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٣٣٧-٣٣٩ .

٩- Boaz , Money , P 117 .

١٠- ابن إياس ، نشق ، ص٤٧ ب .

١١- ليون الإفريقي ، وصف ، ص٥٧٣ .

خليج الإسكندرية في القرن ٩هـ / ١٥م (١) .

ومن النواحي و المدن التي عانت الدمار والخراب دمياط وفارسكور والمحلة (٢) ومدينة منوف (٣) ، وخربت بعض نواحي عمل الشرقية ، فيشير المقريزي إلى انخفاض عدد البساتين بمدينة بلبيس (٤) ، بسبب نقص الأيدي العاملة بالزراعة . وقد وصف ليون الإفريقي (٩٥٧هـ / ١٥٥٠م) الخراب الذي أصاب عمل الشرقية عندما زار مصر في نهاية السلطنة المملوكية بقوله : " ومن الخانقاه إلى سيناء لا يوجد أي مكان مأهول مسافة ١٤٠ ميلاً"(٥) .

وفي الوجه القبلي خسرت مدينة أسيوط في سنتي ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م و ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٨م ٢١,٠٠٠ نسمة ، وسيطر عليها الخراب مع نهاية الدولة المملوكية (٦) ، وفقدت سنة ٨٠٦ هـ/١٤٠٣م ١٥,٠٠٠ نسمة ، ومات معظم سكانها سنة ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦م ، واختفى عدد كبير من بساتين الفواكه بأنصنا وآلت للخراب (٧) . وأصبحت منفلوط غير مأهولة مقارنة بما كانت عليه ، وخربت إخميم حتى لم يبق منها شيء ، ونقلت حجارتها إلى المنشية (٨) . وأدت نسبة الوفيات في قوص سنة ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م إلى تخريب ١٥٠ مغلقا ، والمغلق عندهم هو كل بستان يشتمل على عشرين فدانا ، عدا البساتين الصغيرة وهي كثيرة جدا (٩) ، ومع ذلك استعادت مدن وقرى نشاطها كالجيزة والخانقاة وأسوان التي تعد من اكثر المناطق عمارة وسكانا ، والمحلة وديروط (١٠) ، وتراجعت بلاد الواحات من خمسين ناحية إلى أربع وعشرين في سنة ٨٠٩ هـ/١٤٠٦م (١١) ، وخلت من السكان بعد أن كانت عامرة (١٢) .

وقد أثبت المسح الشامل الذي قام به السلطان برسباي سنة ٨٣٧ هـ/١٤٣٣م أن هناك تراجعا في عدد المناطق الريفية والحضرية بحوالي ١٦٤ قرية مقارنة بما كانت عليه في سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م ، أي بنسبة ٧٪ ، وتوضح إشارات ابن الجيعان ٨٨٥ هـ/١٤٨٠م أن عدد القرى والجزر التي خربت كانت واحدة وأربعين قرية،

١- الحنفي ، تاريخ مصر ، ص ٦٧ أ .

٢- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٦ ، ص١١٣ .

٣- الحميري ، الروض ، ص٥٥١ / ابن شاهين ، زبدة ، ص٣٥ .

٤- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٨٤ / ابن إياس ، نشق ، ص٥٩ أ .

٥- ليون الإفريقي ، وصف ، ص٦٠٩ .

٦- نفس المصدر ، ص٦١١ .

٧- ابن إياس ، نشق ، ص٥١ ب.

٨- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٦١١-٦١٢ .

٩- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٢٣٧ .

١٠- ليون الإفريقي ، وصف ، ص٥٧٧-٥٧٨ ، ٦٠٧- ٦١١ .

١١- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص١٢ .

١٢- الحميري ، الروض ، ص٥٨ .

منها أربع وعشرون في بلاد الصعيد وسبع عشرة في الوجه البحري ، وأن المناطق التي انخفضت عبرتها بسبب تراجع الإنتاج الزراعي كانت ٤٥٤ قرية موزعة على النحو التالي :-

توزيع المناطق التي تراجعت عبرتها في القرن ٩هـ / ١٥م

أعمال الوجه البحري	عدد القرى	أعمال الوجه القبلي	عدد القرى
الضواحي	٢	الجيزية	٣
قليوب	٩	الإطفيحية	٨
الشرقية	٥٥	الفيومية	١٨
الدقهلية والمرتاحية	٣٥	البهنساوية	٦٠
الغربية	٩٣	الأشمونين	٤٠
المنوفية	٣٦	المنفلوطية	١
أبيار وجزيرة بني نصر	٨	السيوطية	٥
البحيرة	٧٢	الإخميمية	٣٣
فوه والمزاحمتين	١	القوصية	
نستراوة	١		
الإسكندرية	١		
المجموع	٣١٣		١٤١
النسبه المئوية	٪١٩		٪٢٧,٥

ونلاحظ أن نسبة التناقص في الوجه القبلي أعلى منها في الوجه البحري ، ويؤكدها أن عدد القرى التي أصابها الخراب في الوجه القبلي ودثرت ٢٤ قرية ، وفي الوجه البحري ١٧ قرية (١) .

وقبل الحديث عن نسبة الوفيات العامة تلزم الإشارة إلى حسابات بعض المؤرخين لعدد السكان في مصر قبل طاعون سنة ٧٤٩ هـ /١٣٤٨م ؛ فقد أشار رسل Russell - اعتمادا على ضريبة الخراج - إلى أن عدد السكان تراوح بين ٤-٤,٢ مليون نسمة (٢) ، لافتا النظر إلى أن الازدهار التجاري كان من العوامل المشجعة على الزيادة السكانية (٣) ، وأشارت جانيت أبو لغد Jannet Abu - Lughod إلى أن العدد وصل إلى ثمانية ملايين نسمة(٤). أما عدد سكان القاهرة فيمكن تقديره من رواية الحسن بن أبي محمد الصفدي ، الذي أشار إلى أن الاستهلاك اليومي للقاهرة من القمح زمن الناصر محمد بن قلاوون كان ٥,٢٠٠ إردب ، واستهلاك القاهره والفسطاط وضواحيهما ٦,٤٠٠ إردب (٥) ، فإذا ما ضربنا كمية الاستهلاك اليومي بالمعدل العام لاستهلاك الفرد ، وهو قدح في كل يوم (٦) ، يكون عدد السكان التقريبي للقاهرة ٥٠٠,٠٠٠نسمة (٥٢٠٠×٩٦قدحا) ، وعدد

١- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٧-١٩٥ .

٢- Russell , The Population , (JARCE) , VOL V , 1966 , P 76 .

٣- Ibid , P82 .

٤- Abu Lughod , Cairo , P 57 .

٥- الحسن بن أبي محمد الصفدي ، كتاب يذكر تاريخ مصر وفضلها ، ص ٨ أ- ب .

٦- ابن بسام ، الرتبة ، ص ١٦ .

سكان القاهرة والفسطاط وضواحيهما ٦١٥,٠٠٠ نسمة . وهذا يدعم ما توصل إليه كل من Dols الذي قدر عدد سكان القاهرة بـ ٦٠٠ ألف (١) ، وما توصلت إليه Jannet Abu - Lughod عندما قدرته بـ ٥٠٠,٠٠٠ نسمة (٢) .

وتختلف نسبة الوفيات العامة من منطقة إلى أخرى ، ويقدر بعض المؤرخين المحدثين نسبة الوفيات العامة في نهاية السلطنة المملوكية بين ٢٥-٣٠٪ (٣) ؛ وقيل : إنها ٢٠-٢٥ ٪ (٤) ، ويبدو أن النتيجة الأولى أكثر قبولا ، خاصة إذا ما لاحظنا اندثار ٧٪ من القرى بين ٧١٥-٨٧٣هـ / ١٣١٥- ١٤٣٣م ، وانخفاض عبرة ١٩٪ من القرى بين ٥٠-٨٠٪ مع نهاية القرن ٩هـ / ١٥م ، وتقدير المقريزي لخسارة القاهره بحوالي نصف سكانها في منتصف القرن ٩هـ / ١٥م (٥) ، وإشارة ليـون الإفريقـي إلى أن عدد الأسر في الأرباض الرئيسية بالقاهره لا يزيد على ٣٠,٠٠٠ أسرة في بداية العقد الثالث من القرن العاشر الهجري (٦) .

وقد أدت هذه النسبة العالية من الوفيات وتركزها في الشباب والأطفال والنساء والفلاحين ، إلى إضعاف قدرة المجتمعات القروية على القيام بالنشاطات الزراعية الكافية لزراعة معظم الأراضي ، وليس أدل على ذلك من خراب ٣٠٠٠ فدان من بساتين مدينة قوص في سنة ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م ، واختفاء معظم بساتين مدينة قليوب في سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م (٧) ، وهذه الأمثلة تنطبق على كثير من المناطق التي عانت النقص السكاني .

١- Dols , Black Death , P189 .

٢- Abu Lughod , Cairo , P57 .

٣- Dols , Black Death , P 218 \ Lane Poole , History , P 328 .

٤- Russell , The Population , (JARCE) , VOL V , 1966 , P 80 .

٥- المقريزي ، إغاثة ، ص ٤٣ .

٦- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٥٧٩ ، ٥٨٢-٥٨٥ .

٧- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ١٢٧ / ابن شاهين ، زبدة ، ص ٣٤ .

الفصل الثاني

أصناف الأراضي

أ – الإقطاع

ب – الأوقاف

ج– الرزق

د– الملكيات الخاصة

أصناف الأراضي

تقدر المساحة الحالية لبلاد الصعيد والوجه البحري بحوالي٧,٥ مليون فدان *، بما فيهما من البحيرات والأراضي الملحية والواحات (١) ، بينما تغيب الأرقام حول مساحة الأراضي القابلة للزراعة زمن الدولة المملوكية ، على الرغم من القيام بثلاث مسوحات شاملة في سنوات ٦٩٧ هـ /١٢٩٧م ، ٧١٥ هـ /١٣١٥م ، ٨٣٧ هـ / ١٣٦٣م . وأما الأرقام الواردة لدى ابن الجيعان فتشير إلى وجود ما يقرب من ٣,٥ مليون فدان من الأرض القابلة للزراعة ، باستثناء أراضي ٢١٠ قرى وناحية الواحات (٢) ، وهو ما أكده المسح الشامل الذي أجراه علماء الحملة الفرنسية في بداية القرن التاسع عشر ، وأثبت أن مساحتها بلغت ٣,٥٤١,٩١٢ فدانا (٣) .

وتنخفض مساحة الأراضي المستغلة مقارنة مع الأراضي الصالحة للزراعة ، فقد بلغت في أواسط القرن الثالث الهجري نحو ١,٠٠٠,٠٠٠ فدان (٤) ، بينما انخفضت في الفترة المملوكية إلى ٦٠٠,٠٠٠ فدان (٥) ، ومما يدل على هذا الانخفاض أن الأقصر التي كان بها ٢٤,٠٠٠ فدان لم يستغل منها سوى ١,٠٠٠ فدان في سنة ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م (٦) ، ولعل الأسباب الرئيسية لذلك تعود إلى نقص الأيدي العاملة في المناطق الريفية بسبب العوامل التي تحدثت عنها في الفصل السابق ، وإلى انخفاض الطلب على المحاصيل الزراعية بعد تدمير البنية البشرية لسكان المدن الرئيسية ،كالقاهره التي تعد السوق الإستهلاكية الأساسية .

وتعتبر الأراضي المفتوحة من الناحية الفقهية والتاريخية فيئا للأمة ، بإشراف بيت المال المسؤول عن جمع الضرائب المقررة عليها وصرفها في النفقات العامة . وقد قسمت في مصر إلى أربعة وعشرين قيراطا ، توزعت ما بين الإقطاعات والأوقاف والرزق والملكيات الفردية .

الإقطاع :

ترسخ النظام الإقطاعي في مصر منذ حكم السلطان صلاح الدين الأيوبي (٥٦٤-٥٨٩ هـ/ ١١٦٨-١١٩٣م) الذي يعد أول من وزع أراضي مصر كإقطاعيات للجند والأمراء (٧) ، فقد سار على نهجه من جاء

---

* الفدان : ٤٠٠ قصبة حاكمية طولا في عرض قصبة واحدة والقصبة = ٦,٦٦ ذراع بذراع القماش ، وخمسة أذرع بذراع العمل تقريبا (المقريزي ، خطط ، ج٢ ،ص ١٠٣ /ابن إياس ، نشق ، ص٤٠ب) / وتبلغ مساحته ٦٣٦٨متر مربع (هنتس،المكاييل، ص٩٧-٩٨) .

١- سيد مرعي ، الزراعة ، ص٩ .

٢- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ١-١٩٧ .

٣- علماء الحملة الفرنسية ، وصف ، ج١ ، ص١٣ .

٤- ياقوت ، معجم ، ج٥ ، ص١٣٨ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٩١ .

٥- أحمد سعد ، تاريخ مصر ، ص٤٢٤-٤٢٥ .

٦ - السخاوي ، الضوء ، ج٥ ، ص٢٦٦

٧- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٩٧ .

بعده من المماليك حتى عرفت دولتهم بأنها دولة إقطاعية عسكرية (١) .

وساد في الفترة المملوكية ثلاثة أنواع من الإقطاع : إقطاع تمليك الأراضي الموات ، وإقطاع إستغلال ، وفي مقدمة إقطاع الإستغلال يأتي إقطاع السلطان لبعض الأراضي التي يجوز له إقطاعها لجنده وأمرائه لاستغلالها من غير تمليك ولا تأبيد بما يستحقونه من الكفاية العسكرية ، وأصبح من أكثر أنواع الإقطاع شيوعا ، خاصة بعد إلغاء الناصر محمد بن قلاوون ٧٠٩- ٧٤١ هـ / ١٣٠٩-١٣٤٠م للصنف الثاني من الإقطاع ، وهو إقطاع شيء من الخراج للجند والأمراء بدلا من الرواتب المقررة لهم على بيت المال (٢) . والثالث : إقطاع الإرفاق ، وهو القائم على إقطاع المعادن التي تحتاج إلى جهد لاستخراجها كالذهب والفضة والنحاس ، أو إقطاع جزء من الطرق والشوارع والأسواق دون تملك (٣) ، واستعملت كلمة الإرفاق في هذه الفترة للدلالة على أن هذه الإقطاعات إقطاعات خدمة (٤) .

وتتعارض محاولة تملك القطائع مع المبدأ الأساسي للإقطاع ، وهو إعطاء المقطع حق المنفعة فقط ، دون ملك رقبة الأرض (٥) ، للحصول على مبلغ من المال ، يتناسب مع مقدار عطائه المقرر في بيت المال ، مقابل تفرغه للجهاد والدفاع عن البلاد الإسلامية، مما يعني أن على السلطان معرفة مقدار راتب كل مقطع قبل إطلاق إقطاعه(٦).

واقتصرت الأراضي المقطعة على الأرض الزراعية ، واستثني منها الغابات والمروج والقرى والجبال والصحاري (٧) . وتراوح وضع المراعي ما بين إضافتها للإقطاع كما يشير المقريزي حتى سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣م (٨) ، وإعادتها مرة ثانية في زمن السيوطي ٩١١هـ / ١٥٠٥ م الذي أكد أن المراعي قد أصبحت جزءًا أساسيا من الإقطاع ، ومنح المقطع حق استغلالها حسب مشيئته من تأجير أو بيع (٩) .

ويعد القيراط* وحدة التقسيم الأساسية المستعملة للأرض في مصر ، وقد قسمت الأراضي بناء على ذلك إلى أربعة وعشرين قيراطا ، موزعة على السلطان والجند والأمراء وفقا للترتيب التالي ، عشرة للأجناد ، وعشرة للأمراء ، وأربعة للسلطان (١٠) . واستمر ذلك حتى مجيء السلطان حسام الدين لاجين سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م الذي حاول إعادة هذا التوزيع ، على أساس عشرة للجند والأمراء ، وواحد للزيادة والإطلاقات،

١- الدوري ، مقدمة ، ص ١٠٢

٢- ابن جماعة ، تحرير ، ص ٣٧٩-٣٨٠ .

٣- ابن جماعة ، تحرير ، ص ٣٨٢

٤- الدوري ، مقدمة ، ص ١٠٤ .

٥- ابن نجيم ، التحفة ، ص ٤ب .

٦- ابن جماعة ، تحرير ، ص٣٨٠ /سوبرنهايم ، الإقطاع ، ص٤٧٧ .

٧- بولياك ، الإقطاعية ، ص ٦٠.

٨- المقريزي ، خطط ، ج١ ،ص ١٠٧ .

٩ - السيوطي ، الحاوي ، ص ١٤٩ .

* القيراط : عبارة عن مقياس وهمي يساوي١ /٢٤ من المساحة الكلية .

١٠- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق ٣ ، ص ٨٤١-٨٤٢ / ابن ، تغري بردي ، النجوم ، ج ٨ ، ص ٧٦ .

وثلاثة عشر للسلطان (١) ، وقيل أحد عشر للأمراء والأجناد ، وتسعة لعسكر جديد وأربعة للسلطان (٢) ، أو أربعة عشر للعسكر بأجمعه ، وأربعة للسلطان ، واثنين لمن عساه يتضرر ، وأربعة برسم عسكر جديد (٣) ، وبذلك كان الهدف الأساسي من هذا التوزيع هو تخفيض نسبة الإقطاعيات التابعة للجند والأمراء ، وزيادة نسبة السلطان ، وهو ما نجح به السلطان الناصر محمد سنة ٧١٥ هـ /١٣١٥ م ، عندما جعل أربعة عشر للجند والأمراء وغيرهم ، وعشرة للسلطان (٤) ، فحقق بذلك الاستقرار الاقتصادي والسيطرة المركزية على دخل الجيش ، وجعله في يد السلطان (٥) .

وتوزعت أراضي الإقطاع التابعة للسلطنة على عدد من الدواوين ، وهي : ديوان الوزارة ، وديوان الخاص، وديوان الذخيرة والأملاك الشريفة ، وديوان المفرد، وقد بلغت نسبتها ٤١,٦ ٪ من جملة أراضي الإقطاع .

ويشرف ديوان الوزارة على جمع بعض الضرائب ، وصرفها في النفقات الخاصة بالمماليك السلطانية ، وتكون رئاسته في بعض الأحيان للأقباط (٦) . ويختلف اللقب الذي يطلق على الوزير وفقا للفئة التي ينتمي إليها ، فإذا كان من أرباب الأقلام عرف متوليه بالوزير، وإذا كان من أرباب السيوف يطلق عليه لقب الصاحب، أو وزير المالية (٧).

تركزت الأراضي التابعة لديوان الوزارة في مصر ، لأنها مقر المماليك السلطانية ، ومن جهاتها قطيا التي تعد محطة جمركية بحرية وبرية ، ."وبلاد وحمايات وإقطاعات ومستأجرات ورسوم ، كرسم الخفير ، ومساحة القصب والقلقاس ، ومستأجرات السواقي ، وما يزدرع عليها " ، بينما واجباته توفير عليق المماليك السلطانية ، وعلف دواب القضاة والرسل ، وتجهيز أسمطة الخاص الشريف والبيوت السلطانية ، وصرف لحم حوامك المماليك ، وجراياتهم وعلف الأبقار وحمل الأتبان والدريس للإسطبلات السلطانية . وقد بلغ مصروف هذا الديوان زمن السلطان برقوق (٧٨٤-٨٠١هـ / ١٣٨٢-١٣٩٨م) ٥٠,٠٠٠ دينار شهريا ، ولكن عوائده تراجعت في النصف الثاني من القرن ٩ هـ /١٥ م (٨) ولم يعد قادرا على الوفاء بالتزاماته حتى نهاية الدولة المملوكية .

إن الاضطراب السياسي الناجم عن اعتلاء أولاد السلطان الناصر الصغار السن للعرش ، وتحكم الأمراء

١- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص٣٩٧ .

٢- المقريزي ، السلوك ، ج١، ق١ ، ص ٨٤١ - ٨٤٢ .

٣- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٨ ، ص ٧٧ .

٤- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٩٠-٩١/ بولياك ، الإقطاعية ، ص٧٥ .

٥- Dols , Black Death , P 272 .

٦- ابن خلدون ، مقدمة ، ص ٢٤٢-٢٤٣ .

٧- Popper , Egypt , I , P 96 .

٨ - ابن شاهين ، زبدة ، ص٩٧-٩٨ / الصوفي ، الصفوة ، ص٤٠ب-٤١ أ .

بالدولة ، وغلبة المصالح الفردية على المصالح العامة ، أدت إلى تدمير الكثير من المؤسسات التي أرسى قواعدها السلطان الناصر محمد بن قلاوون ٧٠٩ - ٧٤١ هـ / ١٣٠٩-١٣٤٠م . ففي سنة ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م انحطت الوزارة ، لكثرة الإطلاقات والإنعامات للخدام والجواري ومقربي السلطان ، حتى بلغت كلف ديوان الوزارة ضعف متحصلها ، وعجز الديوان عن توفير اللحم والسكر البالغ ٣,٠٠٠ قنطار في شهر رمضان (١) .

وأصبح العجز المالي من السمات الرئيسية لديوان الوزارة ، بعد قيام السلاطين بإخراج الكثير من البلاد والإقطاعات التابعة له ، فقد لجأ السلطان برقوق في سنة ٧٨١هـ / ١٣٧٩م إلى إخراج عدد من بلاد الوزارة وإقطاعها لأمرائه بعد قيام الوزير بقطع الكثير من المرتبات المقررة عليه (٢) ، ثم تكرر فعل ذلك في سنتي ٧٨٣ هـ / ١٣٨١م و ٧٨٤هـ / ١٣٨٣م ، عندما أخرج السلطان عددا من القرى وأقطعها لجماعة من جهته وأعوانه (٣) . ثم توالى انخفاض عدد القرى التابعة لهذا الديوان ، وبلغت الذروة بقيام السلطان قانصوه الغوري بإخراج معظم جهاته وإقطاعها للجند الذين استجدهم في الطبقة الخامسة في سنة ٩٢٠هـ /١٥١٤م (٤) .

ومن المشكلات الأساسية التي واجهها ديوان الوزارة ، إنشاء الديوان المفرد زمن السلطان برقوق ، حيث حول إليه ٥,٠٠٠ من المماليك السلطانية مع ما لهم من جوامك في ديوان الوزارة (٥) ، وخراب غالب بلاده (٦) ، واستحجار أهل الشوكة لمعظم أراضيه بنصف الايجار الفعلي ، بل وأقل من ذلك بكثير (٧) ، هذا إلى انقسامه إلى أربع مؤسسات وهي كتابة السر ، والإستادار ، وناظر الخاص ، والوزير . فانتزع منه الإستادار التصرف في نواحي أرض مصر ، والتحدث في الدواوين السلطانية ، وكشف الأقاليم ، وولاة النواحي . وأما ناظر الخاص فانتزع منه الأموال السلطانية وحولها لخزانة السلطان ، ولم يتبق للوزير سوى شيء يسير من النواحي ، وجمع بعض المكوس والضرائب (٨) ، فعجز عن تكفية ما عليه من اللحم والخبز والعليق للمماليك السلطانية (٩) ، وأصبح هذا الديوان من الممتلكات الخاصة للحامين ومورّدي اللحم ، لأن معظم عوائده رصدت لتوفير لحم المماليك السلطانية (١٠) .

حاول البعض التهرب من منصب الوزير ، لخراب بلاده ، وتدميرها والعجز في ميزانيته ، ومطالبة الدولة للوزارة بالقيام بما عليها من الواجبات ، حتى قيل إن البعض دفع الأموال للتخلص من تسلم هذا المنصب (١١) .

١- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص٦٦٥
٢- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص٢٥٢ .
٣- ابن حجر ، إنباء ، ج٢ ، ص٤٣ .
٤-ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص٣٦٨-٣٦٩ .
٥- Ayalon , The System , (JESHO) , VOL 1 , 1958, P280 .
٦- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٦ ، ص٦٤ .
٧- ابن قاضي شهبة ، تاريخ ، ج٣ ، ص٢٢٥ / الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص١٦١-١٦٢ .
٨- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص٢٢٣-٢٢٤ .
٩- ابن إياس ، بدائع ، ج٢، ص١٧ .
١٠- Ayalon , The System , (JESHO) , VOL 1 , 1958 , P 281 .
١١- السخاوي ، الضوء ، ج٦ ، ص١٨٠ .

وعندما علم الأمير خشقدم سنة ٨٧٩ هـ /١٤٧٤ م أن السلطان سيعينه وزيرا ، ورفض إعفاءه ، صار يلطم على وجهه كالنساء ، ورمى بعمامته على الأرض بين يدي السلطان ، وأخذ يتوسل كي يعفيه مدعيا الفقر والعجز ، ولكن دون طائل (١) .

ويأتي ديوان الخاص في المرتبة الثانية من حيث الأهمية ، باعتباره مسؤولا عن الإقطاع الخاص بالسلطان . وتتميز الأراضي التابعة له بالجودة ، والقرب من نهر النيل ، وقد يطلق عليها بلاد الخاص ، أو الخاص الشريف (٢) ، ويرأسه ناظر الخاص الذي يعتبر "المباشر لأموال السلطان الخاصة به من إقطاعاته أو سهمانه من أموال الخراج ، وبلاد الجباية ، مما ليس من أموال المسلمين العامة ... وهو تحت يد الخازندار لأموال السلطان من مماليكه المسمى خازندار لاختصاص وظيفتهما بمال السلطان الخاص " (٣) .

أنشيء ديوان الخاص في سنة ٧١٤ هـ /١٣١٤ م ، وازدادت قوته بعد أن عجز ديوان الوزارة ، وعندما كان ناظر الخاص من أكثر الناس قربا من السلطان (٤) ، وأقر له من البلاد : الجيزية والإسكندرية ودمياط وفوة والبرلس وتروجة ونستروه والإطفيحية وهو والكوم الأحمر (٥) ، ومنفلوط التي تزود الأهراء السلطانية في الفسطاط بأكبر كمية من الغلال (٦) ، وحمايات ومستأجرات وقرى وضياع ودواليب وزراعات ، موزعة في المناطق المختلفة إضافة إلى بعض الضرائب (٧) . ويشير ابن الجيعان ٨٨٥هـ / ١٤٨٠ م إلى أن عدد القرى التابعة لهذا الديوان كانت ١١٩ قرية (٨) .

ومن الواجبات الأساسية لديوان الخاص : توفيرالنفقات السلطانية ، والكسوة والخلع للأمراء والجند والأضاحي ، وخلع عيد الفطر ، وكساوي حرم السلطان (٩) ، إلا أن مهماته تراجعت في منتصف القرن ٩ هـ / ١٥م وأصبحت تقتصر على تزويد السلطان بالملابس التشريفية (١٠) ، بينما تمكن في بداية القرن العاشر من التدخل في الأموال العامة كالوزير (١١) .

١- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص٢٥٦ب-٢٥٧ أ.

٢- إبراهيم طرخان ، النظم الإقطاعية ، ص١٤٥-١٤٦ .

٣- ابن خلدون ، مقدمة ، ص ٢٤٦ .

٤- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١، ص٤٤٤ .

٥- النويري ، نهاية ، ج٣١ ، ص٣٤٦ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص٥٢٣-٥٢٤ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٩٠ / الأسدي، التيسير ، ص٧٢ .

٦- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص٤٥٢-٤٥٣ .

٧- الخالدي ، المقصد ، ص ١٦٣ أ -ب / ابن شاهين ، زبدة ، ص ١٠٨ / الصوفي ، الصفوة ، ص ١٤ أ - ب.

٨- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٧-١٩٥ .

٩- الصوفي ، الصفوة ، ص ٣٥ب ،٤٥أ؟

١٠- Popper , Egypt , 1 , P 97 .

١١- السيوطي ، حسن ، ج٢ ، ص٩٤ .

ويضم ديوان الذخيرة الإقطاعات التي يعود ريعها المباشر للسلطان ، وبعض الإقطاعات الشاغرة من جراء انتقال أصحابها أو وفاتهم ، ليستغلها بشكل مؤقت ، حتى يعيد السلطان إقطاعها مرة ثانية (١) ، إضافة إلى ما يستأجره السلطان من النواحي والمزارع والدواليب . ولمتوليه التحدث في هذه الجهات ، وفيما يبتاعه السلطان أو يبيعه، وما يؤجره أو يستأجره (٢) . وقد بلغ عدد قراه في سنة ٨٨٥ هـ /١٤٨٠م نحو خمس وأربعين قرية .

وأخذت نواحي ديوان الذخيرة في التناقص التدريجي منذ منتصف القرن ٩هـ/١٤م ، عندما لجأ السلاطين إلى إخراج أراضيه كإقطاعات للجند والأمراء ، ففي سنة ٨٥٨ هـ /١٤٥٤م أنعم السلطان منصور (محرم - ربيع الأول ٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م) على الأمير بردبك البجمقدار أحد أمراء العشرات ، ورأس نوبة بإقطاع من الذخيرة (٣) ، وعلى الأمير جانبك القجماسي الأشرفي بإمرة عشرة (٤) . وفي سنة ٨٦٥هـ/١٤٦٠م أخرجت إقطاعاته الثقيلة للمماليك السلطانية (٥) . و أخرج السلطان تمربغا (جمادى الاولى _ رجب ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م) بلادا من الذخيرة الشريفة (٦) ، وأخرج إقطاع جانبك الدوادار الذي كان مضافا للذخيرة ومنحه للأمير أينال اليحياوي (٧) . وبعد وفاة السلطان قايتباي ٨٧٢- ٩٠١هـ / ١٤٦٧-١٤٩٥م ، قام ابنه محمد (٩٠١-٩٠٢هـ/ ١٤٩٥-١٤٩٦م و٩٠٢-٩٠٤هـ /١٤٩٦-١٤٩٨م) بتفريق الإقطاعات التي حافظ عليها والده ، ولم يبق لهذا الديوان أي إقطاع ، بعدما بلغت حوالي الألف إقطاع (٨) .

وأما مصاريف هذا الديوان فإنها تتعلق برغبة السلطان ، إذ رتب السلطان جقمق ٨٤٢-٨٥٧ هـ / ١٤٨٣-١٤٥٣م) راتبا تقاعديا لأحد مشايخ الزوايا من هذا الديوان (٩) ، وأخرج منه السلطان قايتباي ٥,٠٠٠ دينار لعمارة الجامع العمري العتيق (١٠) .

ويعد الديوان المفرد من أهم الدواوين في الدولة المملوكية الثانية ، وقد أحدثه السلطان برقوق بعد وفاة ابنه محمد في سنة ٧٩٧ هـ/ ١٣٩٤م، حيث أفرد اقطاعه لمماليكه المشتروات ، فسمي لذلك بالديوان المفرد (١١) ، ثم

١- بولياك ، الإقطاعية ، ص٧٤ .

٢- الخالدي ، المقصد ، ص١٣٨ أ .

٣- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج٢ ، ص٤٠٤ .

٤- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٥ ، ص٨ .

٥ - ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص٣٨٣ .

٦- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١٦ ، ص٣٤١ .

٧- الصيرفي ، إنباء ، ص١٦٠ .

٨- ابن الشحنة ، البدر الزاهر ، ص ٥١ / ابن إياس ، بدائع ، ج ٣ ، ص٣٣٥ ، ج٤ ، ١٤ .

٩- السخاوي ، الضوء ، ج٣ ، ص١٦٩ .

١٠- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص٢٥٧ أ .

١١- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٢ ، ص١١٣ .

تزايدت قوة هذا الديوان وعظمته على حساب الوزارة ، بعد أن تمكن السلطان من تحويل ما يزيد على الخمسة آلاف من المماليك السلطانية التابعين لديوان الوزارة بما لهم من بلاد وإقطاعات إلى هذا الديوان (١) .

ويرأس ديوان المفرد الاستادار ، الذي تعاظمت قوته بعد أن صار يتصرف في غالب الأقاليم (٢) ، خاصة عندما كان يضاف إليه ديوان الذخيرة والأملاك الشريفة ونيابة الوجه القبلي ، وما للحاشية السلطانية من الإقطاعات(٣) ، وجمع خراج الإقطاعات والأوقاف (٤) .

ويترتب على هذا الديوان توفير الجوامك والعليق للمماليك السلطانية ولوازم الآدر الشريفة (٥) ، حيث بلغ متحصله في بعض السنوات حوالي ٤٠٠,٠٠٠ دينار و ٣٠٠,٠٠٠ إردب من الغلال (٦) ، ثم عجز عن القيام بالتزاماته ، فبلغ عجزه في سنة ٨٢٨ هـ /١٤٢٤م حوالي ١٢٠,٠٠٠دينار (٧) ، وفي سنة ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م ٦٠,٠٠٠ دينار (٨) . وأصبح وضعه المالي حرجا بين ٨٦٠-٨٧٠ هـ / ١٤٥٥-١٤٦٥م حيث فشل الاستادارات في عمل ميزانية له (٩) .

ويشير الصيرفي ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م إلى أن السبب الرئيسي في عجز هذا الديوان هو إخراج بلاده كإقطاعيات للجند والأمراء والخاصكية (١٠) ، مما يناقض الإحصاءات التي تثبت وجود ارتفاع في عدد البلاد التابعة له من ١٦٠ قرية (١١) إلى١٧٣ قرية (١٢) ، وأن عدد ما أضيف من الإقطاعات إليه يفوق عدد ما أخرج منه (١٣)، ولذلك فان السبب الرئيسي يكمن في تدهور الأوضاع السكانية في الريف المصري ، وسوء استغلال الاستادارات لمناصبهم ، حيث اعتمدوا على العسف والشدة والظلم في جمع الضرائب المقررة على بلاد المفرد ، مما أدى إلى خراب معظمها ، وتراجع مساحة الأراضي المزروعة مقارنة بما كانت عليه زمن السلطان برقوق.

١- المقريزي، خطط، ج٢، ص٢٢٣ / Ayalon ,Studies on the Structure , III ,(BSOAS),VOL XVI, 1954 , P61 .

٢- ابن شاهين ، زبدة ، ص١٠٦ / الصوفي ، الصفوة ، ص٤٣ ب .

٣- الخالدي ، المقصد ، ص١٢٦ب-١٢٧أ .

٤- إبراهيم طرخان ، النظم الإقطاعية ، ص ٢٢٧ .

٥- ابن شاهين ، زبدة ، ص١٠٩ / الصوفي ، الصفوة ، ص٤٤أ / Popper , Egypt , 1 , P 9 8 .

٦- ابن شاهين ، زبدة ، ص١٠٧ .

٧- المقريز ي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص٦٨٨ .

٨- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢، ص٧٩٦ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص٣٠٦ ب .

٩- Ayalon , The System , (JESHO) , VOL 1 , 1958 , P285 .

١٠- الصيرفي ، إنباء ، ص ٣٤ .

١١- ابن شاهين ، زبدة ، ص١٠٧ .

١٢- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٧- ١٩٥ .

١٣- المقريزي ، السلوك ،ج٣ ، ق٣، ص ١٠٦٧، ١٠٦٨، ج٤ ، ق٢ ، ص٧٧٩ ، ٩٠٦ / ابن حجر ، إنباء ، ج ٨ ، ١٤٨ ، ٢٩٩، ٤١٤ / العيني ، عقد ، حوادث ٨٢٤-٨٥٠ هـ ، الطنطاوي ، ص ٣٣٥ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٤ ، ص٢٠ ، ١٥٣ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ٣٠٤أ ، ٣٢٩ب .

يأتي الأمراء في المرتبة الثانية من حيث الحصول على الإقطاعات ، وتتميز الأراضي المقطعة لهم بالخصوبة والجودة ، ويطلق عليها "البلاد النفيسة الكثيرة المتحصل "(١) . وينقسم الأمراء إلى عدة فئات أعلاها أمراء المئة مقدمو الألف ، الذين كان عددهم حتى مجيء السلطان برقوق (٧٨٤-٨٠١هـ / ١٣٨٢-١٣٩٨م) أربعة وعشرين مقدما (٢) ، فجعلهم ثمانية عشر إلى عشرين مقدما خاصة بعد إنشائه الديوان المفرد (٣) ، ثم انخفض عددهم في سنة ٨٥٨هـ / ١٤٥٤م إلى النصف (١٢مقدما) (٤) . ويتساوى معهم في الإقطاع أولاد السلاطين(٥) ، وقد يصل إقطاع بعضهم إلى إمرة مئة وعشرين فارسا (٦) .

أما أمراء الطبلخانات فقد بلغ عددهم زمن الروك الناصري سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م مئتي أمير (٧) ، ثم أصبحوا لا ضابط لهم يزيدون ويتناقصون وفقا لرغبة السلطان ، ويكون الحد الأدنى لإقطاعاتهم أربعين فارسا (٨) ، وقد يصل إلى خمسين (٩) أو ستين (١٠) أو سبعين أو ثمانين فارسا (١١) .

ويشكل أمراء العشرينات الفئة الثالثة ، وكان عددهم قديما عشرين أميرا (١٢) ، ويليهم أمراء العشرات ، وبلغ عددهم زمن الناصر محمد مئتي أمير (١٣) ، وقد يحصل بعضهم على إقطاع عشرين فارسا . وأخيرا أمراء الخمسات،ويشكل أبناء الأمراء الذين توفي آباؤهم أو مرضوا العدد الأكبر منهم،بعد أن انتقلوا لرعاية السلطنة(١٤).

ويعتمد العائد الذي يتناوله المقطع على الرتبة العسكرية ، ومدى علاقة المقطع بالسلطان ، ولذلك لا يتساوى أمراء الفئة الواحدة في إقطاعاتهم ، فتتراوح عوائد إقطاعات أمراء المئة ما بين ٢٠٠,٠٠٠-٨٠,٠٠٠ دينار

١- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص٥٢٥ .

٢- القلقشندي ، صبح ، ج٤ ، ص١٤ / المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص٦٣٥ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١١ ، ص٢٧٢ ، الأسدي ، التيسير ، ص٦٩ .

٣- القلقشندي ، صبح ، ج٤ ، ص١٤ .

٤- Popper , Egypt , 1 , P 86 .

٥- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أيمن سيد ، ص ٣٠ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٦ ، ص ١٠١ / السخاوي ، الضوء ، ج٧، ص١٥٠ / ابن إياس ، بدائع ، ج ١ ، ق٢ ، ص٢٦٤ .

٦- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٤١٥ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٩ ، ص ١٦٥ .

٧- الأسدي ، التيسير ، ص٦٩ .

٨- القلقشندي ، صبح ، ج ٤ ، ص١٤ .

٩- العيني ، عقد ، ص٤٨ب / الصيرفي ، النزهة ، ج٢ ، ص ١٣١ .

١٠- ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص٧٥ / السخاوي ، الضوء ، ج ٣ ، ص ٢٧٥ .

١١- القلقشندي ، صبح ، ج ٤ ، ص١٤ .

١٢- ابن شاهين ، زبدة ، ص١١٣ .

١٣- الأسدي ، التيسير ، ص ٦٩ .

١٤- القلقشندي ، صبح ، ج١٤ ، ص ١٥ .

وأمراء الطبلخانات من ٣٠,٠٠٠ – ٢٣,٠٠٠ دينار ، وأمراء العشرات من ٧,٠٠٠ فما دونها (١) ، وأمراء الخمسات ٣,٠٠٠ دينار (٢) .

إن مكانة الأمير وقوته ، والعلاقة بينه وبين السلطان ، ورغبة السلطان في تحقيق بعض المكاسب السياسية، وانتشار الفتن الداخلية ، تعد من العوامل الأساسية في حصول المقطع على زيادة ملحوظة في إقطاعه المقرر له وفق رتبته العسكرية . فقد تمكن الأتابك أيتمش البجاسي زمن السلطان برقوق من الحصول على ثلاثة إقطاعات تقادم ألوف (٣) ، وحصل الأمير يلبغا الأحمدي في سنة ٧٩٨ /١٣٩٥م على تقدمة ألف زيادة (٤) . وحصل بعض الأمراء على إمرة طبلخاناة زائدة (٥) ، أو عدد زائد من القرى (٦) . ودفع ازدياد هذه الحالات السلطان فرج بن برقوق ٨٠١ –٨١٥ هـ / ١٣٩٨–١٤١٢م لاستعادتها في سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢م (٧) .

وقد قدر القلقشندي٨٢١هـ/١٤١٨م عدد القرى المقطعة للأمير بما بين قرية واحدة إلى عشر (٨) ، ولكن المعلومات الواردة لدى ابن الجيعان تثبت أن بعض الأمراء حازوا أعدادا أكبر من ذلك ، فقد بلغت إقطاعات الأمير تمراز الشمسي*عشرين قرية (٩) ، وإقطاعات أزبك الأتابكي**عشرين قرية أيضا (١٠) ،

١- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أيمن سيد ، ص ٢٩ / القلقشندي ، صبح ، ج٤ ص ٥١-٥٢ / المقريزي ، خطط ، ج ٢ ، ص٢١٦ .

٢- محمد العمايرة ، الجيش ، ص ٤٣ .

٣- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد٩ ، ج١ ، ص٥٩ / ابن قاضي شهبة ، تاريخ ، ج٣ ، ص٢٩٧ .

٤- الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص٤٢٢ .

٥- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٢ ، ٢٥٢ .

٦- ابن قاضي شهبة ، تاريخ ، ج٣ ، ص٣٦٨ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٥ ، ص٨١ .

٧- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١١٠٦ / العيني ، عقد ، ص ٦٣ أ .

٨- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٥٢٥ .

* تمراز الشمسي : ينسب للعزيز بن الأشرف برسباي ، لأنه معتقه ، وقدم للديار المصرية سنة ٨٣٦هـ / ١٤٣٢م ، وتسلم كشف التراب، واستقر على رأس نوبة النوب ، وأميرا لعمل البحيرة حتى توفي سنة ٨٩٥ هـ / ١٤٨٩م (السخاوي الضوء ، ج٣ ، ص٣٦-٣٧) .

٩-ابن الجيعان ، التحفة ، ص٢٠ ، ٦٦ ، ٧٣ ، ٨١ ، ٨١ ، ٩٨ ، ١٠٨ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٧١ ، ١٨١ ، ١٨٧ ، ١٨٩ .

** أزبك بن ططخ : اشتراه الأشرف برسباي ، ثم حقمق ، ولا يفهم من العربية كلمة واحدة ، أعتقه أستاذه ورقاه ، حيث صار ساقيا ثم أمير عشرة سنة ٨٥٨هـ / ١٤٥٤م ، ونفي للقدس ، ولكن السلطان اينال أعاده في سنة ٨٦١ هـ / ١٤٥٦م وصار يترقى إلى أن صار مقدما وأتابكا زمن قايتباي (السخاوي ، الضوء ، ج٢ ، ص ٢٧٠-٢٧٢) .

١٠- ابن الجيعان ، التحفة ، ص١٢، ١٦، ١٨ ، ١٩ ، ٥٩ ، ٨٠ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٦، ١٢٠ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٦٠، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ .

وإقطاعات خير بك بن حديد * ست عشرة قرية (١) ، وإقطاعات أزبك اليوسفي ست عشرة قرية أيضا ** (٢) .

يعود النصيب الأكبر من إقطاعات الأجناد للمماليك السلطانية ، وتخضع أعدادهم لرغبة السلطان في شراء المماليك ، ومدة حكمه ، والوضع المالي للدولة (٣) ، فبلغ عددهم زمن السلطان محمد إلى ٢,٠٠٠ مملوك ، صنفوا إلى أربع طبقات ، تراوحت إقطاعاتهم ما بين ١,٥٠٠-١,٠٠٠ دينار في السنة (٤) ، وغالبا ما يشترك اثنان منهم في قرية واحدة (٥) .

يتكون المماليك السلطانية في الفترة المملوكية الثانية من ثلاث فئات ، وهم الجلبان *** والقرانصة **** ، والسيفية ***** وأطلق عليهم في الدولة المملوكية الاولى المشتروات ، وتنافست هذه الفئات فيما بينها للحصول على الإقطاعات ، وخاصة بعد قيام الدولة المملوكية بتخفيض جوامكهم المقررة لهم على الدواوين المختلفة ، وعجزها عن القيام بالتزاماتهم .

يشكل الأجلاب الفرقة الأكثر بروزا بين المماليك السلطانية ، فاستغلوا فترات الإضطراب والضعف ، وطالبوا السلطنة بالإقطاعات الزائدة ، فكثر تعديهم - في سنة ٨٦٤ هـ /١٤٥٩م - على إقطاعات أولاد الناس****** والقرانيص ، وتمكنوا بالضغط على السلطان من الحصول على الكثير من الإقطاعات ، ووقفوا للأجناد في الحوانيت وصاروا كلما دخل جندي سألوه هل له إقطاع أم لا ، فإن كان له إقطاع وعرفهم به ضغطوا عليه حتى يتنازل عنه ، فأخذوا الكثير من إقطاعات الأجناد الأحياء والأموات (٦) ، وتكرر ضغطهم على السلطان قايتباي في

---

*خير بك بن حتيت لا حديد : من مماليك السلطان برسباي ، صار خازندارا ، وجعله السلطان جقمق دوادارا ، ثم جعله السلطان قايتباي أمير طبلخاناة ثم صيره أحد المقدمين (السخاوي ، الضوء ، ج٣ ، ص ٢٠٧) .

١- ابن الجيعان ، التحفة ص١٢؛ ٣٣، ٧٦، ١٠١، ١٠٩ ، ١١٧، ١٤٧، ١٥٠ ، ١٥٦؛ ١٥٧ ؛ ١٥٩، ١٦١، ١٦٨ ، ١٧٨ .

**أزبك اليوسفي : يقال له ناظر الخاص ، جلب زمن السلطان برسباي ، وأعتقه جقمق ، ورقاه الأشرف قايتباي للتقدمة ، وأرسله أميرا إلى حمص سنة ٨٨٦ هـ /١٤٨١م (السخاوي ، الضوء ، ج٢ ، ص٢٣٢) .

٢- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ١٦، ٥٤ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٧٠ ، ١٩٢ .

٣- القلقشندي ، صبح ، ج ٤ ، ص ١٥-١٦ .

٤- الأسدي ، التيسير ، ص ٦٩ .

٥- القلقشندي ، صبح ، ج٤ ، ص ١٦ .

***الجلبان : هم " الرجال الذين كانوا في بلادهم ما بين ملاح سفينة ، ووقاد في تنور خباز ، ومحول ماء في غيط أشجار ، ونحو ذلك، وصاروا زمن برقوق وما بعده من أرذل الناس وأدناهم وأخسهم ، وما فيهم إلا من هو أزنى من قرد وألص من فأرة وأفسد من ذئب " (المقريزي ،خطط ، ج٢ ، ص ٥٤) .

****القرانيص :مماليك السلاطين القدامى ، الذين انتقلوا إلى خدمة سلطان جديد ، وأطلق عليهم ابن شاهين " قديمو الهجرة " ويكونون في منزلة الأمراء الخمساوات ، وكان عددهم مئة نفر ، وأما في القرن ٨هـ/١٤م فدون ذلك (ابن شاهين ، زبدة ، ص ١١٥) .

*****السيفية :مماليك الأمراء الذين انتقلوا إلى خدمة السلطان نتيجة لوفاة أساتذتهم أو مصادرتهم أو تقاعدهم(ابن شاهين،زبدة،ص١١٦).

****** أولاد الناس :أبناء السلاطين والأمراء الذين ولدوا أحرارا بمصر /إبراهيم طرخان ، النظم الإقطاعية ، ص ١٤٧ /حول الفرق العسكرية للجيش المملوكي راجع : محمد العمايرة ، الجيش ، ص ٨٤-١١٩ .

٦- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٦ ، ص ١١٨ .

طاعون سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩١م للحصول على إقطاعات من توفي من الجند ، ففرقها السطان عليهم ، وأصبح معدل إقطاع الجندي منهم حوالي ٢٥,٠٠٠ درهم (١) . وازداد شره الأجلاب في بداية القرن ١٠هـ /١٦م حتى إن السلطان قانصوه الغوري هدد بالتبرؤ من السلطنة ، والإختفاء اذا ما استمروا على ذلك (٢) ، فأخرج إقطاعات أولاد الناس وفرقها عليهم (٣) .

ولجأ الجلبان في الفترة الأخيرة من حكم السلطنة المملوكية إلى قتل الجند والأمراء للحصول على إقطاعاتهم، وفعلوا ذلك خاصة في فئة القرانصة ، فقتلوا كل من تمكنوا منه ، والسلطان قانصوه الغوري عاجز عن وقف أعمالهم لانشغاله بمماليكه الخاصة ، وتوزيعه الإقطاعات عليهم سرا وعلنا (٤) . وبذلك فقدكانت فرقة القرانصة من أكثر الفرق معاناة من أعمال الجلبان ، فقتلوا الكثير منهم ، وأخذوا الكثير من إقطاعاتهم (٥) .

يشكل أجناد الحلقة أكبر فئة في الجيش المملوكي ، فبلغ عددهم زمن الروك الناصري ٨,٩٣٢ جنديا ، صنفوا إلى ست فئات ، تتراوح إقطاعاتهم بين ١,٥٠٠-٢٥٠ دينارا (٦) ، وتكون القرية عادة مشتركة بين مجموعة منهم ، بناء على حجمها ومقدار إقطاع الجندي (٧) . ومن فرقهم أولاد الناس من أبناء الأمراء والسلاطين الذين ولدوا أحرارا بمصر (٨) ، والبحرية الذين يحرسون القلعة ودهاليز السلطان أثناء سفره (٩) .

وبدأت أوضاع أجناد الحلقة بالتراجع منذ الروك الحسامي ، الذي عمل على تقليص حجم إقطاعاتهم ، ثم تسارع ذلك في القرنين ٨ هـ و ٩ هـ / ١٤م و ١٥ م (١٠) ، وخاصة بعد فشل المؤيد شيخ سنة ٨٢١ هـ/١٤١٨م بإصلاح أوضاعهم وإعادتها إلى ما كانت عليه ، وزيادة متحصل المتضرر منهم (١١) .

وفي النصف الثاني من القرن ٩هـ / ١٥ م خرب إقطاع كثيرين منهم ، ولم يتمكنوا من الحصول على عوائدها لكثرة ما كان عليها من الضرائب ، ولأن الكشاف لم يكن همهم سوى جمعها ، دون النظر لكون البلاد

١- ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٢٩٢ .

٢- نفس المصدر ، ج٤ ، ص ٧ .

٣- نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٩١ .

٤ - ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص٣٤٢ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ / Ayalon , Studies on the Structure III, (JESHO) ,VOL XVI , 1954 , P 87-88 .

٥- Ayalon , Studies on the Structure , III , (JESHO) , VOL XVI , 1954 , P 88 .

٦- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٢١٥-٢١٦ / الأسدي ، التيسير ، ص ٧٢ / السيوطي ، حسن ، ج٢ ، ص ٩٣ .

٧- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٢٥ .

٨- إبراهيم طرخان ، النظم الإقطاعيه ، ص ١٤٧ .

٩- القلقشندي ، صبح ، ج ٤ ، ص١٦ / ابن شاهين ، زبدة ، ص ١١٥ / الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص ٢٦٨ .

١٠- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٨ ، ص ٧٨ / Ayalon , The System , (JESHO) , VOL 1 , 1958 ,P 45 .

١١- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٦١-٤٦٢ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٣١٧ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج ١ ، ص ٢٤٧-٢٤٨ أ .

عامرة أو خرابا ، فحاول قسم كبير منهم إعادة إقطاعهم للدولة بعد أن أصبحوا لا يملكون ما يلبسون أو يركبون ، أو ما يتجهزون به للحرب (١) . وأخرج السلطان قانصوة الغوري سنة٩١٤هـ /١٥٠٨م أربعمئة إقطاع من إقطاعات أولاد الناس ، دون سبب موجب سوى توزيعها على مماليكه (٢) ، وتبين في سنة ٩١٩ هـ /١٥١٣ م أن معظم إقطاعاتهم قد أصابها الخراب نتيجة "لجور الكشاف ، ومشايخ العربان ، ووزن الحمايات " (٣) .

أما مماليك الأمراء فيحصلون على إقطاعاتهم من الأمير ، يوزعها بينهم حسب ما يراه مناسبا ، ثم يقدم لديوان الجيش أسماء جنوده ، وإقطاع كل واحد منهم ، على شرط أن يبلغ حجم إقطاعهم ثلثي الإقطاع الممنوح له ، ويبقى الثلث لخاصه (٤) . وقد تعمل السلطنة على تحديد إقطاعات الجند عند إصدار المنشور الإقطاعي ، وما يتبقى من الإقطاع لخاص الأمير ، ولا تسمح للأمير بالإعتداء على حقوق جنده ، وله الحق في التخلي عن جزء من خاصه لأجناده إذا ما رغب في ذلك ، وليس له فصل أي جندي منهم إلا بسبب مقنع ، وبعد موافقة السلطان ، ويمنع من فصل الجندي من الخدمة حتى لو عرض من هو أكفأ منه في فترة إدراك المغل (٥) ، حتى لا يتخذوا من الفصل وسيلة لحرمان الجند من إقطاعاتهم والسيطرة عليها . وقد حاولت الدولة في سنة ٧٦٧ هـ /١٣٦٥م أن تجعل الإقطاع متساويا بين الجند وأمرائهم(٦)، وهو ما دعا المقريزي ٨٤٥هـ/١٤٤١م إلى القول : أن الجند قد " ضاقت أحوالهم، وسيطر الأمراء على إقطاعاتهم، ولم يتمكنوا في الكثير من الأحوال من الحصول على شيء منها "(٧) .

ومهما كانت القواعد النظرية للإقطاع ، فان الناحية العملية تشير إلى وجود تجاوزات خطيرة كان لها أثر سلبي عليه ، فقد تمكن الأمراء بفضل قوتهم وضعف السلاطين من السيطرة على إقطاعات أجنادهم زمن السلطان برقوق وفيما بعد ، فاشتروا إقطاعات أجناد الحلقة ، وأخذوها باسم مماليكهم أو طواشيتهم وسجلوا مماليكهم بجامكيات ، فأصبح جنودهم جند حلقة ، ومماليك سلطانية ، وفي خدمة الأمير ، وحصلوا على رزق ثلاثة أنفس، "فلذلك كثر متحصل قوم وقل متحصل آخرين " ، وضعف عسكر مصر ، وانخفض إلى الثلث تقريبا (٨) . وخربت عدة إقطاعات لكثرة المغارم وعجز مقطعيها (٩)، واستولى الاستادار زين الدين زمن السلطان جقمق ٨٤٢- ٨٥٧هـ / ١٤٣٨-١٤٥٣م على عدة إقطاعات للجند والأمراء (١٠) ، وازدادت معاناة الأمراء وأجنادهم سنة

١- الصيرفي ، إنباء ، ص ٤٩٠ .

٢- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ١٥٠ .

٣- نفس المصدر ، ص ٣١٩ .

٤- النويري ، نهاية ، ج ٨ ، ص ٢٠٧ / المقريزي ، خطط ، ج ٢ ، ص ٢١٦ .

٥- النويري ، نهاية ، ج ٨ ، ص ٢٠٧-٢٠٨ .

٦- Ayalon ,The System , (JESHO) ,VOL 1 , 1958 , P 61-62 .

٧- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٨٨ ، السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص ٨٦٥ .

٨- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٦٢ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١٣ ، ص٢٢٠-٢٢١ .

٩- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٦٢ .

١٠- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج٢ ، ص ٤٠٤ .

٩٠٣هـ / ١٤٩٧م ، عندما قام السلطان محمد بن قايتباي ٩٠٢-٩٠٤ هـ / ١٤٩٧-١٤٩٨م بإضافة عدد زائد من المماليك الأجلاب إلى إقطاعات الأمراء ، فأضاف للأمير الكبير أربعين مملوكا ، ولأمراء الألوف ثلاثين مملوكا ، ولأمراء الطبلخانات عشرة مماليك ، ولأمراء العشرات خمسة مماليك ، وكل مملوك منهم يتناول عشرة آلاف درهم في السنة ، مما أضر بالمقطعين والإقطاعات (١) .

ويحصل الأمراء في كل سنة على إطلاقات لخيولهم ، وهي عبارة عن أراض تمنح لهم لزرع القرط والبرسيم والأعشاب الصالحة للرعي ، مع إعفائها من الخراج . بينما يحصل المماليك السلطانية على البرسيم المزروع على قدر مراتبهم ، كبديل عن عليق الشعير المقرر لهم في غير زمن الربيع ، بمقدار نصف فدان عن كل عليقة ولمدة ثلاثة شهور (٢) .

وحصل العربان على إقطاعات في مقابل إقامة خيل البريد ، ونقل الغلال ، ومعاقبة قطاع الطرق ، وإرسال الخيول الأصيلة في كل سنة للسلطان ، والتجنيد كقوى ثانوية عند الحاجة ، وحماية طرق التجارة (٣) .

وعلى الرغم من أن الدوْلة عاقبت البدو بشدة إلا أنها منحتهم الإقطاعات لضمان ولائهم (٤) ، فأصبحوا مع مرور الوقت حكاما إقطاعيين ، واسعي السطوة والملك (٥) ، فكانت قرية قلقاو من الأعمال الإخميمية مقطعة لأمير هوارة (٦) ، وكان دير جرجا من العمل نفسه مقطعا لأمرائهم (٧) ، وكان لإسماعيل بن مازن شيخ لهانة إقطاع بالبهنساوية (٨) ، ولأمير الخزاعلة من سنبس إمرة ألف (٩) . وأخذت الإقطاعات التي حصلت عليها هوارة عند استقرارها في منطقة جرجا بالتضاؤل مع مرور الزمن ، حيث لا نجد عند ابن الجيعان ٨٨٥هـ/١٤٨٠م أي إشارة لإقطاع أمرائهم .

وحجم الاقطاعات الممنوحة للعربان لا يتناسب مع عددهم في القرن ٩هـ / ١٥م ، وقد وتركزت في البلاد الشرقية والبحيرة والوجه البحري بشكل عام ، فكان لهم في الشرقية مئة وثلاث قرى من أصل ثلاثمئة وثمانين قرية ، وخمس وعشرين قرية مشتركة بينهم وبين الأجناد . ويعود السبب في ذلك لإحيائهم هذه المنطقة بعد أن كانت أراضي سباخ وموات ، ووصلت في البحيرة إلى ثماني عشرة قرية ، واشتركوا مع الأجناد في سبع عشرة قرية، ومع الأوقاف في قريتين ، ومع الديوان المفرد في قرية واحدة . وتناقصت في الأعمال

١- ابن إياس ، بدائع ، ج ٣ ، ص ٣٨٥ .
٢- القلقشندي ، صبح ، ج٤ ، ص ٥٦ / بولياك ، الإقطاعية ، ص ٢٦-٢٧ / إبراهيم طرخان ، النظم الإقطاعيه ، ص ٥٦ .
٣- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص٢١٠ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٢٥ / بولياك ، الإقطاعية ، ص ٣٨-٣٩ / Rabie , The Financial , P 34-35 .
٤- بولياك ، الإقطاعية ، ص ٨٣-٨٤ .
٥- الدوري ، مقدمة ، ص ١٠٥-١٠٦ .
٦- ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٥ ، ص ٢٧-٢٨ / الخالدي ، المقصد ، ص ١٤٤ ب .
٧- ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٥ ، ص ٢٧ .
٨- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق ٣ ، ص ١٢١٦ .
٩- الخالدي ، المقصد ، ص ١٤٤ب .

الأخرى حيث كان لهم في الغربية ثماني قرى ، وثماني عشرة قرية مشتركة مع الأجناد ، وفي المنوفية قرية واحدة ، ومع المقطعين قرية واحدة ، وفي أبيار وجزيرة بني نصر قرية واحدة . وأما الوجه القبلي فتكاد إقطاعاتهم تنعدم في معظم أعماله ، مع ملاحظة أن إقطاعاتهم قد تميزت بصغر مساحتها وانخفاض عبرتها .

وتوجد فئات أخرى لها نصيب من الإقطاعات ، فللخليفة بلاد يتعيش منها طوال حياته ، وتركزت في الأعمال الجيزية ، كجزيرة الصابوني ، وقرية إمبابه (١) ودهشور (٢) ، وأبو رجوان وترسا (٣) . وأقطع ملوك مكة منذ زمن الناصر بعض القرى التي استمرت في أيديهم حتى نهاية الدولة المملوكية (٤) . ولشريف المدينة النبوية محلة الأمير بالبحيرة ، وساقية قلته من الجيزية ، وقبيبات أسكر من الإطفيحية ، وقفط من الأعمال القوصية (٥) ، وللعازف محمد بن محمد إقطاع لإجادته الضرب على العود ، بلغت عبرته ١٠,٠٠٠ دينار في السنة (٦) ، ولإمام السلطان قايتباي إقطاع (٧) ، ولأقارب السلطان الظاهر برقوق إقطاع (٨) .

ورصدت بعض الإقطاعات للحاشية السلطانية (٩) ، وللبازدارية *(١٠) وللرماة أجناد دمياط ، ومعلوم الموقعين بديوان الأنشاء والأطباء (١١) ولخدام السلطان (١٢) .

ومما يلفت النظر في نظام الإقطاع في مصر ، توزع إقطاعات الأمير والأجناد في عدد من الأعمال وضمن العمل الواحد، اذ غالبا ماكانت القرى المقطعة بعيدة عن بعضها البعض ،حتى أن منها ما كان في الشام (١٣) .

وأما أسباب ذلك ، فهي الحد من قدرة الأمراء على تكوين أي نفوذ في مناطق إقطاعاتهم ، والثورة على الدولة (١٤) ، والتأكيد على أنها إقطاعات خدمة وبديل عن الراتب (١٥) ، ولأن السلطان غالبا ما يمنح الإقطاعات الشاغرة ، ولذا فإنها لا تكون في منطقة واحدة بل في عدة مناطق (١٦) ، والجدول التالي لاقطاعات بعض الأمراء يعطي صورة واضحة عن مدى توزعها :

١- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١٥ ، ص ٨ ، حوادث ، ج ٢ ، ص ٤٤٣ / الصيرفي ، نزهة ، ج ٣ ، ص ٤٨ب .

٢- السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص٩٩٨ .

٣- ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٤ ، ص ١٢٩ ، ١٣١ .

٤- نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٢٧ .

٥- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ١٣٢ ، ١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٩٥ .

٦- ابن حجر ، إنباء ، ج٢ ، ص ٨٢ .

٧- السخاوي ، الضوء ، ج١ ، ص ٦١ .

٨-ابن دقماق ، الانتصار ، ج٤ ، ص ١٣٢ ، ج٥ ، ص ١٩ .

٩- ابن الجيعان ، التحفة ، ص٤٦/ مؤلف مجهول ، وصف ، ص٣٨أ ، ٥٠أ ، ٧١أ ، ٧٧أ ، ١٠٧أ ، ١١٥أ ، ١٣١أ ، ١٣٢أ، ١٣٢ب .

* البازدار : الذي يحمل الطيور الجوارح للصيد راكبة على ظهور الخيل / القلقشندي ، صبح ، ج٥ ، ص ٨٨ .

١٠- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٧٣ ، ١٢٦ .

١١- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٨١ / مؤلف مجهول ، وصف ، ص ٨١أ .

١٢- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ج ١ ، ص١٦٨ .

١٣- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص ٨٠٧ ، ج٤ ، ق١ ، ص ٧٥ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٣ ، ص ٥١٣ ، ج ١٤ ، ص٢٣١ / السخاوي ، الضوء ، ج٦ ، ص ٢٨١ .

١٤- Rabie ,The financial , P 46 .

١٥- الدوري ، مقدمة ، ص ١٠٤

١٦- Rabie , The Financial , P 47.

اسم الأمير	الجيزية	الفيومية	المنفلوطية	البهنساوية	الأسيوطية	الأشمونين	القوصية والاخميمية	الشرقية	القليوبية	الغربية	المنوفية	البحيرة	المجموع
أزبك الأتابكي				١	١	٢	٣	٣	٢	٢	٣	٢	٢٠
تمراز الشمسي	١	٥		٢	٢	١	١	١		٥		٢	٢٠
قطلقتمر العلائي				٢	٢	١	٢	١	١	٥	١	٢	١٨
لاجين الظاهري		١		٣	١			٤		٤	١	٣	١٧
خير بك بن حديد		٢	٣	٤	٢	١			١	١	١		١٥
آرغون الأشرفي	١	١	١	١		١		٢	١	٢		٤	١٤
أزبك اليوسفي				٢			١	٢		٧	٢		١٤
طشتمر العلائي		١		١				٢	١	٥	٢	١	١٣
آقتمر عبد الغني		٢		١	١	١		٢		٤		١	١٢
يشبك الأشرفي					٢		٩						١١
الطنبغا العثماني	١			٢		١		٣	١	٢	١		١١
صرغتمش الاشرفي	١	١		١		١				٢	٢	١	٩

حول الجدول راجع : ابن الجيعان التحفة ، ص ٧-١٩٥ .

يشير المقريزي ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١م إلى أن الأقباط هم أول من شجع السلطنة على توزيع الإقطاعات لإضعاف جيش مصر وزيادة كلفة الجند (١) ، لأن عملية جمع الضرائب كانت تتطلب من المقطع تعيين وكيل وشادين في كل قطيعة ، مما يزيد من الأعباء المالية ، ويضعف الإلتزام العسكري ، لعدم قدرة المقطع على القيام بها ،مما الجأ الكثير من الأجناد للنزول عن إقطاعاتهم (٢) ، وهو ما أشار إليه البلقيني ٨٠٥هـ /١٤٠٢م الذي قال إن الإقطاعات لم يعد يستغلها صاحبها بل صار يخرج له فيها محاسبة (٣) .

ومن مساويء نظام الإقطاع وتوزع الإقطاعات عدم اكتراث المقطع بالحفاظ على البلاد المقطعة له ، وخاصة أنها لمدة محدودة ، مما أدى إلى خراب عدد كبير من الإقطاعات (٤) . وارتفاع كلفة الإشراف على الإقطاعات ، ودفع المقطعين لحمايتها بدفع أموال لأصحاب الشوكة والنفوذ للتخلص من قسم من الضرائب المقررة على إقطاعاتهم (٥) .

وتقدر قيمة الإقطاعات بالعبرة ، وتعرف بأنها ما يتناوله المقطع من الأراضي المقطعة له (٦) ، وأشار أحمد سعد إلى أنها تقابل ضمان الخراج الذي كان شائعا زمن الدولة الفاطمية (٧) . وتحسب بمعدل عائد أفضل سنة ، وعائد أسوأ سنة لقطعة الأرض الممنوحة ، بعد أخذ التغير في الأسعار ، والأحداث المحلية كالطواعين والحروب بالإعتبار (٨) ، ثم إضافة الهدية والجوالي المفروضة على فلاحي كل قطيعة إليها (٩) .

وفقدت العبرة قيمتها العملية منذ نهاية القرن ٨هـ /١٤م " لتطاول الزمان ، وخراب البلاد ، وتبدل الأحوال ، بتعمير ما كان خرابا وخراب ما كان عامرا ، وتغير سعر الدينار ، فلم يبق للعبرة عبرة ولكن يستأنس بها الآن (٨٨٥ هـ/ ١٤٨٠م) في الجملة"(١٠) ، ولذلك لم يعد مهما لدى كتاب ديوان الجيش ذكر عبرة الإقطاعات (١١) .

واستعمل الدينار الجيشي كوحدة نقدية لتقدير قيمة العبرة ، وهو مسمى لا حقيقة ، ويختلف من قطيعة إلى

١- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٩٠ .

٢- Rabie , The Financial , P 56 .

٣- البلقيني ، التحرد ، ص ٧٥ب .

٤- آشتور ، التاريخ ، ص ٣٧٢

٥- بولياك ، الإقطاعية ، ص ٦٣

٦- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٥٥ .

٧- أحمد سعد ، تاريخ ، ص ٤٤١ .

٨- النويري ، نهاية الأرب ، ج٨ ، ص ٢٠١ .

٩- Rabie ,The Financial , P 47-48 .

١٠- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٣ / مؤلف مجهول ، وصف ، ص ٣ أ .

١١- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٠٩ .

أخرى وفقا للرتبة العسكرية ، فقد كان زمن الناصر محمد يتراوح ما بين ٧-١٠ دراهم (١) ، وللعربان ثُمن درهم (٢) ، وأصبح منذ النصف الثاني من القرن ٨هـ /١٤م أربعين درهما سودا ، والدرهم منها ثُلث درهم أي ثلاثة عشر درهما وثلث درهم (٣) .

وتمنح الإقطاعات كبديل للرواتب مقابل الخدمة العسكرية ، وتتناسب سعتها وعدد الجند الذين يعتمدون عليها (٤) ، ففي سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م ألزم السلطان قانصوة الغوري كل أمير بتجهيز عدد زائد من الجند وفقا لرتبهم العسكرية وإقطاعاتهم ، تراوحت ما بين عشرة وخمسة وثلاثة وجندي واحد ، وهدد بإخراج إقطاع كل من لايلتزم بذلك (٥) .

وتقبل السلطنة من بعض المقطعين إخراج بديل عنهم (٦) ، أو دفع مبلغ معين من المال في بعض الحملات العسكرية (٧) ، إلا أنها غالبا ما تجبر أصحاب الإقطاعات الثقيلة على الخروج ولا تقبل منهم أي عذر (٨) ، إلا إذا تمكنوا من التخلص من ذلك بوساطة نفوذهم ، أو بدفع الرشوة ، وبالتالي خروج الأجناد الضعاف الذين لا عصبية لهم كما حصل في سنة ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م عندما أرسل السلطان برسباي أصحاب الإقطاعات الخفيفة كالعميان والأطفال والمشايخ لقتال التركمان ببلاد الشام ، وترك من كان إقطاعه ثقيلا لدفعهم الرشوة واستخدامهم لنفوذهم (٩) .

ويترتب على المقطع القيام ببعض الواجبات الاقتصادية ، فعليه إتقان الجسور (السدود) ، وصيانة مشاريع الري الداخلة في إقطاعه ، والمساهمة في حفر الخلجان التي تزود بلاده بالمياه في حالة ازدياد نسبة الترسيب ، وتوزع النفقات فيما بين المقطعين بشكل يتناسب وسعة كل إقطاع . ويعمل المقطع على جمع الفلاحين من منطقة إقطاعه للقيام بذلك (١٠)، وجمع ضريبة الخراج (١١) ، وتقديم التقادم للسلطان إذا مر في متصيداته بإقطاع كبير ، وتتكون

١- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٩٠/ الأسدي ، التيسير ، ص ٦٩-٧٠ .

٢- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٠٩ .

٣- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أيمن سيد ، ص ١٤ .

٤- الدوري ، مقدمة ، ص ١٠٤ .

٥- ابن إياس ، بدائع ، ج٥ ، ص ٢٣ .

٦- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق١ ، ص ٤٦٤ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص ٢٢١-٢٢٢ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢، ص ٢٨١ .

٧- المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، ق٣ ، ص ١٠٥أ / الصيرفي ، إنباء ، ص ٤٨ / ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص٢٦ .

٨- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٧٩٧ .

٩- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٤ ، ص ٢٥٣ .

١٠- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٣٣ / المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٣٨ أ ، خطط ، ج٢ ، ص١٤٥ / العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥- ٨٢٤هـ ، الطنطاوي ، ص٢٢٤ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٩ ، ص ٦٧ ، ١٥٤ / ابن إياس ، نشق ، ص ٣٨ أ / البكري ، قطف ، ص ١٢١ أ .

١١- Rabie , The Financial , P 41 .

التقادم من الإوز والدجاج وقصب السكر والشعير حسب رغبة المقطع (١) ، ولكنها أصبحت مع مرور الوقت ضريبة سنوية ، يدفعها المقطع في بداية كل عام (٢) . كما كان على المقطع أيضا شراء الجمال بعد انتهاء الموسم الزراعي ، مما كان يضر بهم ، وأدى إلى خراب عدة بلاد (٣) .

اتخذت الدولة من الإقطاع وسيلة لتأكيد سلطتها ومركزيتها الإدارية ، فربطت حق منح الإقطاعات بالسلطان فقط ، فاعتماد أي إقطاع وإخراجه لا يتم إلا بعد تعليم السلطان على المنشور الإقطاعي ، ولذلك عاقب السلطان برقوق ناظر الجيش سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤م عقابا شديدا حتى أشرف على الموت ، لقيامه باخراج زيادة لإقطاع زامل أمير عرب آل فضل دون موافقة السلطان ومشاورته (٤) ، ولم يستثن من ذلك سوى نائب السلطان ، حيث سمح له بإخراج بعض الإقطاعات الخفيفة (٥) . إلا أن بعض الشخصيات المتنفذة تمكنت في بعض الأحيان من انتزاع هذا الحق ، وخاصة في فترات الاضطراب السياسي ، وضعف شخصية السلطان (٦) . وحرص السلطان فرج بن برقوق سنة ٨١٣هـ/ ١٤١٠م على التأكيد على الأميرين نوروز وشيخ بعدم إخراج أي إقطاع دون مرسوم من السلطان (٧) ، لأن خروج هذه الإقطاعات يعني إنتقاصا من سلطات السلطان . وأخيرا لم تسمح الدولة بخروج أي أمير أو جندي لزيارة إقطاعه إلا بعد حصوله على دستور بذلك (٨) ، وغالبا ما يحصل على هذا الدستور في بداية الموسم الزراعي (٩) .

وتخضع إدارة الإقطاعات إلى ديوان الجيش ، وينقسم إلى قسمين ، أحدهما مسؤول عن إقطاعات بلاد الشام ، والثاني عن إقطاعات مصر ، ويرأسه ناظر الجيش المسؤول عن النظر في الإقطاعات وما يخرج منها وما يدخل إليها ، وتحرير جزئياتها (١٠) . وتحت يديه مستوفيين أصغر منه للإشراف على إقطاعات العربان والمتقاعدين (١١) .

١- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أيمن سيد ، ص ٣١ / القلقشندي ، صبح ، ج٤ ، ص ٦٤ .

٢- بولياك ، الإقطاعية ، ص ٦٠ .

٣- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٤٩ .

٤- ابن إياس ، بدائع ، ج١، ق ٢ ، ص ٣٤٧ .

٥- القلقشندي ، صبح ، ج٤ ، ص١٨/ المقريزي ، خطط ، ج ٢ ، ص ٢١٥ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج ٢ ، ص ١٢ب / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص٣١٠ / Ayalon , Studies n the Structure III , (JESHO) ,VOL XVI , 1954 , P 57 .

٦- ابن حجر ، إنباء ، ج٦ ، ص ٢٠٠ / العيني ، عقد ،حوادث ٨١٥- ٨٢٤هـ ، الطنطاوي ، ص ١٢٤ / ابن تغري بردي ، المنهل، ج٣ ، ص ٦٤-٦٥ ، النجوم ، ج ١٤ ، ص٨ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ٤٤٢ / السخاوي ، الضوء ، ج١٠ ، ص ٢٩٥ .

٧- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ١٦٤ .

٨- بيبرس المنصوري ، مختار ، ص ٩٥ / النويري ، نهاية ، ج٣١ ، ص٢٦٠ / المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٣٥١ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٨ ، ص ١٥٨.

٩- بولياك ، الإقطاعية ، ص ١٩٣ .

١٠- القلقشندي ، صبح ، ج٤ ، ص ٣١ / الخالدي ، المقصد ، ص ١٩٦ب / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ٣٤٩ .

١١- الخالدي ، المقصد ، ص ١٣٧ أ / Ayalon , Studies on the Structure III, (JESHO) , VOL XVI , 1954 , P .66

ويشتمل ديوان الجيش على تسجيل لجميع الأقسام الإدارية لمصر ، وسجل لقرى كل عمل حسب الترتيب الهجائي ، وما على المنطقة من العبرة . وفي جريدة الجيش يذكر اسم كل مقطع وما له من الخراج والتقاوي ، وعدد الفلاحين بإقطاعاته وحدود إقطاعه والجسور ، كمحاولة من الدولة لضمان أكبر عائد ، والحد من قدرة الأمراء والمقطعين على التهرب من دفع ما عليهم من الضرائب ، أو الإعتداء على الفلاحين بأخذ أكثر مما يستحقون (١) .

إن حرص الدولة منذ البداية على عدم إقامة المقطعين في إقطاعا تهم ، واستقرارهم في مدينة القاهرة أو بلاد الشام ، وكبر حجم اقطاعات بعض الأمراء ، وتوزعها ضمن أعمال متفرقة بعيدة عن مقر إقامتهم ، ألجأهم لتعيين الوكلاء والمتحدثين لإدارة هذه الاقطاعات (٢) ، واهتمامهم بالحصول على واردها فقط (٣) .

ومن الوظائف المهمة المرتبطة بالاقطاعات الشاغرة : وظيفة نظر المرتجعات ، فكان صاحبها مسئولا عن تحصيل تفاوت الإقطاعات عند انتقال الإقطاع من مقطع إلى آخر ، بسبب وفاة المقطع أو انفصاله لأي سبب من الأسباب ، ويتم حساب هذا التفاوت بتقدير ما يستحقه المقطع نظير خدمته منذ صدور المنشور بإقطاعه حتى انفصاله ، وما قبضه من المغل طوال فترة إقطاعه ، فإذا كان ما أخذه مساويا لاستحقاقه فلا يؤخذ منه شيء ، وإذا كان أكثر من حقه استردت منه الزيادة ، وإذا كان أقل من حقه صرف له مقدار النقص ، وذلك بعد إسقاط استحقاق أحد عشر يوما وربع من كل سنة طوال مدة إقطاعه ، وهو التفاوت ما بين السنة الشمسية والقمرية (٤)، كما كان لهذا الديوان التحدث في مواريث الأمراء ، وانتزاع ما توافر لهم ، نتيجة لتقليصهم عدد الجند الواجب عليهم استخدامهم وفقا لحجم إقطاعا تهم، أو أخذ أكثر مما يستحقون من الفلاحين وإضافته للديوان (٥) .

كانت معاناة الورثة ومباشري الأمراء كبيرة بسبب تفاوت الاقطاعات ، إذ ينتقل حق المحاسبة إليهم بعد وفاة المقطع ، ولا يستطيع أحد إعفاءهم من هذا الواجب غير السلطان (٦) ، وقد حاولت السلطنة سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م وقف هذه المعاناة بتحديد نسبة التفاوت على كل إقطاع وفقا للمرتبة العسكرية ، فقررت على مقدم الألف ٥٠,٠٠٠درهم ، وعلى أمير الطبلخاناة ٢٠,٠٠٠درهم ، وعلى أمير العشرة ١٠,٠٠٠درهم ، وعلى أمير الخمسة ٢,٥٠٠درهم . واستمر العمل بذلك حتى بداية القرن ١٠هـ/١٦م (٧) ، وكان التفاوت يصل إلى مبلغ كبير جدا يعجز الورثة عن دفعه ، ويضطرون للاستدانة إذا لم يسامحهم السلطان به (٨) ، فمثلا وصل تفاوت

١- الأسدي ، التيسير ، ص ٧٣- ٧٤ / Popper , Egypt , 2 , P 110 .

٢- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ / القلقشندي ، صبح ،ج ١٣ ، ص ١٠٤ / المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق ٣ ، ص١١٩٢ / العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥- ٨٢٤هـ، الطنطاوي ،ص ١٩٤ ، ٤١٤ / ابن تغري بردي ، حوادث ، ج ٢ ، ص٤٦٩ / الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص٤٥٥ ، ج٢ ، ص ٣٣٥ / السخاوي ، الضوء ، ج٣ ، ص ١٩٣ .

٣- الدوري ، مقدمة ، ص ١٠٤ .

٤- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٠١-٢٠٢ .

٥- الخالدي ، المقصد ، ص ١٣٥ ب .

٦- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أيمن سيد ، ص ٤٩ .

٧- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ٩٦٤ / ابن حجر ، إنباء ، ج٦ ، ص ١٣٤ / السخاوي ، الضوء ، ج١٠ ، ص ٢٨٩ .

٨- المقريزي ، السلوك ، ج ٢، ق ١ ، ص ١٩-٢٠ .

إقطاع الأمير طيبغا الناصري سنة ٧٤٤هـ /١٣٤٣م إلى ٤٠٠,٠٠٠ درهم عندما ترك إقطاعه ، ولم يتمكن مباشروه من دفع أكثر من ٣٠٠,٠٠٠درهم (١) .

ومنذ بداية القرن ٩هـ /١٥م انخفضت منزلة ناظر ديوان الجيش ، وصار يطلق عليه : مستوفي المرتجع (٢) ، وأصبحت وظيفته الأساسية في منتصف هذا القرن : الفصل في المنازعات بين المباشرين والأمراء والجند (٣) .

وقد ينتقل الإقطاع من مقطع إلى آخر ، وفي هذه الحالة يدفع المقطع الجديد ما تكلفه المقطع المنفصل في إصلاح الأرض الزراعية ، وتجهيزها وعمل جسورها منذ بداية السنة الهلالية (٤) ، وقد يتفق المقطعان على اقتسام متحصل تلك السنة وفقا لاستحقاق القراريط ، وذلك عن كل شهر قيراطين (٥) .

واتجه المماليك منذ البداية إلى إلغاء نظام الوراثة في الإقطاعات بعد أن كان سائدا في الفترة الأيوبية ، وعملوا بذلك على ربط المقطعين بالمركز بصورة متزايدة عن طريق الروك أو المسح وإعادة توزيع الإقطاعات بين فترة وأخرى (٦) ، وتأكيد سياسة الدولة المالية (٧) .

كان الاتجاه السائد في هذه الفترة هو عدم جواز تأبيد الإقطاع على الرجل وعقبه من بعده ، حتى لا يصبح بحكم الأملاك الموروثة (٨) ، ولذلك اعتبرت محاولة السلطان جقمق ٨٤٢-٨٥٧هـ /١٤٣٨-١٤٥٣م بتوريث الإقطاعات أمرا شاذا وغريبا ، سرعان ما انهار بعد وفاته (٩) . ولم تكن إقطاعات بعض السلاطين لابناء المقطعين سوى حالات فردية ارتبطت برغبة السلطان ومدى عنايته بابناء هولاء المقطعين (١٠) .

نجم عن غياب مبدأ الوراثة ، وعدم وجود فترة متعاقد عليها في الإقطاعات ، واعتبار قدرة المقطع على القيام بواجباته العسكرية وبقائه بصحة جيدة أساسا لحيازة الإقطاعات(١١)،ومنح الحق للسلطان بسحب الإقطاع متى

١- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٦٥١ .

٢- القلقشندي ، صبح ، ج٤ ، ص٢٣ .

٣- الخالدي ، المقصد ، ١٢٥ ب .

٤- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٣٣ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ،ص٥١٦ / المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ١٠١ .

٥- القلقشندي ، صبح ، ج ٤ ، ص٦٤ .

٦- الدوري ، مقدمة ، ص ١٠٤ .

٧- سوبرنهايم ، الإقطاع ، دائرة المعارف الاسلامية ، ج٤ ، ص٤٧٨ .

٨- ابن جماعه ، تحرير ، ص ٣٨١ / القلقشندي ، صبح ، ج١٣ ، ص ١٢٣ / السيوطي ، الحاوي ، ج ٢ ، ص ١٢٥ .

٩- ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص ٢٩٩ / Poliak , Some Notes , (JRAS),1937 , P 99 .

١٠- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج٢ ، ص ٣٥٧ / الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص١٣٩ / السخاوي ، التبر ، ص ٨٢ ، الضوء ، ج٧ ، ص١٥٩ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ٨٦ب .

١١- Rabie ,The Financial , P 60 .

شاء ، نجم عن ذلك ورافقه عدم إهتمام المقطعين بإصلاح إقطاعاتهم، وانما الإهتمام بالحصول على ارداتها فقط.

رصدت بعض أراضي الإقطاع للطرخانات (المتقاعدين) والبطالين من الجيش . والفرق بين الفئتين أن لفظ الطرخان أطلق على من يعفى من الخدمة العسكرية لكبر سنه وعجزه ، أو بطلان حركته بعارض أو عاهة ، مع إعطائه حق الإرتحال إلى أي منطقة يشاء داخل حدود السلطنة المملوكية ، وإقطاعه إقطاعا يتعيش منه (١) ، يتراوح ما بين إقطاع حلقة (٢) ، أو إمرة عشرة (٣) ، أو عشرين ، وفي بعض الأحيان طبلخاناة (٤) . بينما استعمل لفظ بطال للدلالة على من أعفي من الخدمة العسكرية بقرار من السلطنة ، بسبب غضب السلطان عليه (٥) ، وعوقب ونفي إلى إحدى المناطق كالقدس أو دمياط (٦) . وكان عدد البطالين أكبر من عدد الطرخانات (٧) ، وكانوا يفقدون لقب الإمارة في الوقت الذي يحتفظ الطرخانات بها (٨) .

وتداخلت مجموعة من العوامل - إلى جانب الكفاءة العسكرية - كأسس لمنح الإقطاعات في الدولة المملوكية الثانية ، فساد في هذه الفترة مصطلح المناقلات الإقطاعية للتعبير عن إنتقال الإقطاع من شخص لآخر بناء على رغبة السلطان ، بسبب ارتباط النظام الإقطاعي بالوظائف والخدمات التي يؤديها المقطع باعتباره موظفا في دولة شديدة المركزية (٩) .

وكان السلطان بمجرد اعتلائه للعرش يعمل على إحداث تغييرات واسعة في توزيع الإقطاعات للحصول على أفضل الإقطاعات لنفسه ولمماليكه الخاصكية (١٠) ، والإستيلاء على إقطاعات مماليك السلطان السابق ، وتجريدهم من قوتهم الإقتصادية ، وترقية مماليكه إلى أعلى الرتب ، ومنحهم الإقطاعات المتوافقة مع هذه الترقيات (١١) ، حتى أصبح الهدف الأساسي للسلطان تفريق " الإقطاعات على مماليك إصطفاها وزينها بأنواع الملابس والزراكش المحرمة ، وافتخر بركوبها بين يديه ، وترك الذين ينفعون الإسلام جياعا في بيوتهم " (١٢) .

١- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد٩ ، ج٢ ، ص ٣١٩ / الخالدي ، المقصد ، ص ٢٩٥ أ / السخاوي ، الضوء ، ج٦ ، ص ٢٢٨ب / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٣٦ب ، ٢٨٣ب ، ٣٠٩ أ ، ٣٦٤ ب / Popper , Egypt , 1 , P 26 .

٢- الصيرفي ، إنباء ، ص ١٦٧ / السخاوي ، الضوء ، ج٣ ، ص ٢ .

٣- القاضي عبد ، الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٣٦ب ، ٢٥٣ب .

٤- Ayalon , The Mamluk , P 28 .

٥- الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص ١٣١ ، ج٣ ، ص ١٢٢ أ .

٦- ابن قاضي ، تاريخ ، ج٣ ، ص ١٤٤ .

٧- Ayalon , The Mamluk , P 26 .

٨- Ibid , P 28 .

٩- إبراهيم طرخان ، النظم الإقطاعيه ، ص ٢٦٥ .

١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٢٣٤ ، ٥٧٢ - ٥٧٣ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ١٦٥ ، ٤٣٠ / ابن تغري بردي ، المنهل ، ج٤ ، ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ / الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص٢١٤ ، ج٣ ص ٤٩ب .

١١- الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص ٢١٤ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ١٠ب - ١١أ .

١٢- السبكي ، معيد ، ص ١٧ .

واستغل السلاطين هذه السياسة استغلالا سيئا في الفترة المملوكية الثانية ، فعندما تسلم برقوق السلطنة سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢ م أعاد توزيع الإقطاعات على خاصكيته وسائر جنوده (١) ، واستطاع مقربو ططر ٨٢٤هـ / ١٤٢١م وحاشيته السيطرة على معظم الإقطاعات ، على الرغم من أن حكمه لم يزد على خمسة شهور (٢) ، بينما استخدم السلطان جقمق ٨٤٢-٨٥٧ هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م هذا الحق لتوزيع الإقطاعات على المؤيدية (مماليك المؤيد شيخ) الذين دعموه في الوصول للسلطنة ، فاستولوا على الإقطاعات الهائلة ، بعد أن كانوا فقراء يعيشون بالكدية(٣). وترقى جماعة من الأوباش لم يكن لهم ذكر بين الناس قبل ذلك التاريخ "وفيهم من لم أره قبل تاريخه ولا أعرف شكله جملة كافية " فصار منهم السقاة ورؤوس النوب ، وأثرى جماعة منهم ممن كان يتعيش بالكدية والشحادة (٤) ، وأصبحت الإقطاعات في عهد السلطان اينال ٨٥٧- ٨٦٥ هـ/١٤٥٣-١٤٦٠م أرزاقا مقسومة للبر والفاجر (٥) .

ومن العوامل الأخرى التي أدت إلى إعادة توزيع الإقطاعات : وفاة المقطعين ، أو إلقاء القبض على بعضهم، ومعاقبة بعض الثوار (٦) ، وكبح نفوذ بعض الأمراء (٧) ، وحدوث تنقلات إدارية كانتقال بعض الأمراء إلى بلاد الشام ومنحهم إقطاعا جديدا (٨) ، والقرابة مع السلطان (٩) ، والأوبئة والطواعين (١٠) ، ورغبة السلطان في الحصول على اقطاع معين فيقوم بنفي المقطع أو إعفائه للاستيلاء على إقطاعه (١١) ، واستعفاء بعض المقطعين من الخدمة العسكرية بسبب مرض أو عجز أو ضعف (١٢) ، وانتشار البذل والبرطلة ، فسيطر بعض المتنفذين على الإقطاعات إما بشرائها أو بالتعهد بدفع مبلغ من المال ضمن فترة زمنية محددة (١٣) ، وقدوم بعض الوافدين ، وما يطرأ على البلد من إصلاح أرض ، أو إهمال تحسين وسائل الري ، وقلة عدد الفلاحين نتيجة للحروب والأوبئة والفتن، وحاجة السلطان للمال لإعداد الجيوش (١٤) ، أو تظلم الفلاحين وعجزهم عن دفع الخراج (١٥) .

١- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٣٢٢ .
٢- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٤ ، ص ٤٧ .
٣- نفس المصدر ، ج ١٥ ، ص ٣٧ .
٤- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٥ ، ص ٢٦٣ ، المنهل ، ج٤ ، ص ٢٩٣ .
٥- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٦ ، ص ١٣
٦- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص ١١٧٢ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص٤١١ / ابن تغري بردي ، حوادث ، ج١ ، ص٥٤، ٦٠ ، ١٠٥ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٧٤ ، ج٢ ، ص ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤٢٧ .
٧- إبراهيم طرخان ، مصر ، ص ٢٢١ .
٨- ابن قاضي شهبة ، تاريخ ، ج٣ ، ص ٣٦٩ / المقريزي ، السلوك ج٣ ، ق٣ ، ص ٩٩٤ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١١ ، ص١٧١، ج١٢ ، ص ١٥٥ ، حوادث ، ج١ ، ص ١٢٢ ، ١٣٤-١٣٥ ، ١٧١ .
٩- ابن تغري بردي ، المنهل ، ج٤ ، ص ٢٦٨ .
١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٧٨٣ .
١١- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٩٧ب ، ١٩٠أ .
١٢- ابن قاضي شهبة ، تاريخ ، ج٣ ، ص ٥٦٧ / السخاوي ، التبر ، ص ٣٨٤ ، الضوء ، ج١٠ ، ص ٢٨٨ .
١٣- أحمد عبد الرازق ، البذل ، ص ٤٣ - ٦٧ .
١٤- إبراهيم طرخان ، النظم الإقطاعيه ، ص ٦٥-٦٦ ، مصر ، ص ٢٢٠ .
١٥- بيبرس المنصوري ، كتاب التحفة ، ص ١٥٢ .

وأدى عدم وجود أي إرتباط بين المقطع والأرض المقطعة له ،كتحديد الفترة الزمنية التي سيمكثها المقطع ، وخضوع توزيع الإقطاعات لرغبة السلطان والأحداث إلى تغير ملموس في القدرة الإنتاجية للأرض الزراعية ، فالمقطع ينتقل من قطيعة إلى أخرى لا علم له بطبيعتها ، ولا اهتمام له بإصلاحها والحفاظ عليها ، لتوقعه الانتقال عنها في أي لحظة ، ولذلك يشير ابن جماعة إلى ضرورة ايجاد هذا الارتباط وطمأنة المقطع بأنه سيستمر على إقطاعه ، إذا ما حدث له عارض ، حتى لا ينشغل في نفسه وعياله وما يعود عليهم ، ويترك ما عليه من واجبات عسكرية (١) ، والاهتمام بزراعة الإقطاع وزيادة إنتاجيته .

وساد منذ النصف الثاني من القرن ٨هـ/١٤م وحتى نهاية الدولة المملوكية التزول عن الإقطاعات والمقايضة عليها ، وأنشأت الدولة لهذا لغرض ديوان البدل ، وفرض بيت المال على كل من يبيع إقطاعه أو يقايض عليه مبلغا يتساوى مع عبرته ، ونشأت الجماعة المعروفة بالمهيسين بهدف الطواف على الأجناد وإقناعهم بالنزول عن الإقطاعات في مقابل حصولهم على نسبة من ذلك ، فاستولى كثير من العامة والأراذل والسوقة والحرفيين وأرباب الصنائع والعميان وأصحاب العاهات والزمنى والنساء والأطفال على معظم الإقطاعات (٢) ، وامتلك الواحد منهم عدة إقطاعات بعد أن كان لا يملك إقطاعا واحدا ، ويتمنى الحصول على عشر ذلك (٣) ، فخرب الكثير من أراضي الإقطاعات (٤) وخاصة بعد أن تحولت في نهاية الدولة المملوكية إلى سلع تباع وتشرى عن طريق الدلالين (٥) .

ويتضح بذلك أن خضوع الإقطاعات إلى مبدأي الربح والخسارة ، واعتبارها نوعا من الاستثمارات التجارية، وتحول الإقطاع إلى نظام يسير وفقا للتيار والأهواء السائدة ورغبة السلاطين ، أدت إلى إضعاف الإنتاجية الزراعية وخراب عدد من البلاد والمناطق الزراعية .

الأوقاف :

يعرف الوقف بأنه حبس العين ، وزوال ملك الواقف إلى الله تعالى ، والتصدق بالمنفعة على الفقراء ، أو على جهة من سبيل الخيرات (٦) ، وتزول ملكية الواقف من الوقف إلى الله تعالى بمجرد صدور القول بوقفت ، أو بصدور لفظ من ألفاظ الوقف الخاصة به ، مع مراعاة كون الوقف صحيحا شرعيا (٧) .

١- ابن جماعه ، تحرير ، ص ٣٨٠-٣٨١ .

٢- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق ٣ ، ص٥٧٧ ، ٥٩٧ ، ٦١٤ ، ٦١٩ ، ٦٢١ ، ٦٧٢ ، ٧٠٩ ، ٧١٣ ، ٧١٩ ، ٧٤٧ ، ٧٥٩ ، خطط ، ج٢ ، ص ٢١٩ .

٣- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج٢ ، ص ٤٣١ .

٤- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٢١٩ .

٥- السخاوي ، الضوء ، ج ١٠ ، ص ١٠٩ .

٦- العيني ، البناية ، ج٦ ، ص ٨٨٩ ، ٩٠٠ .

٧- عبد اللطيف إبراهيم ، التوثيقات الشرعيه ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ع١، مجلد١٩ ، ١٩٥٧ ، ص ٣٢٤ .

ويستدل من أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم على تشجيع المسلمين على الإكثار من الأوقاف وفعل الخير كقوله :- "إذا مات ابن آدم إنقطع عمله إلا من ثلاث ، صدقة جارية أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له (١) " ، ومن ذلك قوله لعمر بن الخطاب عندما أراد حبس أرض جيدة بخيبر : " إن شئت حبست أصلها ، وتصدقت بها " ، فتصدق بها عمر على أن لا يباع أصلها ولا يورث ولا يوهب (٢) .

ولا بد في وثيقة الوقف من التأييد ، بأن يكون الموقوف على جهة لا تنقطع أبدا كالفقراء والجهاد والمساكين والمساجد (٣) ، وعدم جواز رهنها أو توريثها أو هبتها (٤) ، أو تمليكها أو حلها أو مخالفة أي شرط من شروط الوقف وتسبيله على وجوه الخير "حتى يرث الله الأرض ومن عليها " (٥) ، مما يعني عدم جواز تحديد الفترة الزمنية للوقف (٦) .

وبما أن الوقف صدقة وبر ، فيجب ألا يكون في معصية أو على محظور أو حرام ، وعلى أصل موجود (٧) ، بينما اكتفى الغمراوي بالقول بعدم " ظهور المعصية لا ظهور القربه " (٨) ، ورفض وجود شروط بالزيادة والنقصان وذلك ردا على محاولة السلطان جقمق (٨٤٢-٨٥٧ هـ / ١٤٣٨- ١٤٥٣م) جعل أوقاف مدرسته تحت إشراف ابنه اينال ، ومنحه حق إخراج وإدخال من يشاء وفقا لرغبته (٩) .

وعندما لاحظ الواقفون ازدياد الخراب والتدمير للأراضي الموقوفة ، حرصوا على إيراد شروط تضمن الحفاظ عليها ، كاشتراط عدم صرف أي درهم للمستحقين قبل تأمين ما تحتاج إليه الأرض ، من إصلاح وري ، وشق وتطهير للترع ، وإقامة الجسور (١٠) .

ويشير السيوطي (٩١١هـ / ١٥٠٥م) إلى أن بعض شروط الأوقاف كانت تتغير وتساير الفترة الزمنية من حيث التشديد والتسهيل ، فغالب أوقاف الأيوبيين خاصة ، بينما أوقاف الأتراك كثرت في نهاية القرنين السابع

١- ابن حجر ، بلوغ المرام ، ص ١٩١ / الدمشقي ، كفاية الأخيار ، ص ٤١١ .

٢- ابن حجر ، بلوغ المرام ، ص ١٩١ .

٣- العيني ، البنايه ، ج٦ ، ص ٩٠٤ ،٩١٢ / عبد اللطيف إبراهيم ، وثيقة وقف قراقجا الحسني ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ،ع٢ ، مجلد١٨ ، ١٩٥٦ ، ص ٢١٥-٢١٧ .

٤- أحمد دراج ، حجة وقف برسباي ، ص٢٧ / محمد أمين ، الأوقاف ، ص١ .

٥- حياة الحجي ، وثيقة وقف خانقاه سرياقوس ، ص٢٩٥ .

٦- العيني ، البنايه ، ج٦ ، ص ٩٠٤ .

٧- الدمشقي ، كفاية الأخيار ، ص ٤١٢-٤١٣ .

٨- الغمراوي ، السراج ، ص٣٠٣ .

٩- الصيرفي ، إنباء ، ص ٣٥٤ .

١٠- عبد اللطيف إبراهيم ، نصان جديدان ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ع١، ٢ ، مجلد ٢٧ ، ١٩٦٥ ، ص١٥٨ .

والشام ، عندما قطعت الأرزاق التي كانت تصرف للعلماء ، مما جعل العلماء ينظرون للأوقاف على أنها عوض عما كانوا يأخذونه وما يستحقونه من بيت المال في كل عام ، فأفتوا ورخصوا بها ، لأن ذلك حق لهم مقابل القيام والاشتغال بالعلم ، مع قطع راتب الطالب إذا توقف عن طلب العلم (١) .

وتعتمد مصادر أراضي الوقف إما على الملكيات الخاصة المملوكة بالطرق الشرعية أو على أراضي بيت المال (٢) . وتتأبد الأرض الموقوفة على الجهة الموقوفة عليها ، حتى لو دثرت هذه الجهة فإن ملكية الأرض لا تعود إلى بيت المال ، وإنما تصرف إلى إحدى جهات الخير كالفقراء والمساكين ، أو وفقا لما يراه السلطان من المصالح العامة (٣) .

وقام المبدأ الأساسي لصحة الوقف على أساس الملكية الشرعية للأرض الموقوفة ، ويعتبر عدم التملك أو التملك بصورة غير شرعية أساس إضعاف الأوقاف والاستيلاء عليها ، لعدم جواز وقفها في هذه الحالة (٤) ، فالملكيات الموقوفة تحمي نفسها ، ولا يجوز نقضها والاستيلاء عليها ، بل يجب مراعاة شروط الواقف لأنها خرجت من ملكيته إلى الجهة الموقوف عليها بشروط محددة (٥) .

وشهدت الفترة المملوكية الأولى والثانية بيع قسم من أراضي بيت المال ، وتحويلها إلى أوقاف (٦) ، مع ملاحظة تزايد ذلك في الفترة الثانيه ، حيث وجدت وثائق تشير إلى بيع الأراضي من قبل السلطان أو وكيله ، وأن هؤلاء المشترين وقفوا هذه الأراضي ، وخاصة في فترة السلطان الغوري ٩٠٢-٩٢٢ هـ / ١٤٩٦-١٥١٦ م الذي اتخذ من كلفة الغزاة والمجاهدين والعساكر المنصورة وحفظ الثغور ، ذريعة أساسية لتبرير ذلك (٧) . وقد طعن الفقهاء في عملية الشراء من ناحيتين ، بنيت الأولى على أن هذه الأراضي أخذت من بيت المال بالحيلة ، دون دفع ثمنها الحقيقي "وبطريق فيه شبهة " ، وأن معظم أوقاف السلاطين وأتباعهم وأشباههم على هذه الصورة ، وخاصة أن أموالهم ليست حلالا (٨) . فكانوا يشترون الأراضي بعقد صوري دون دفع ثمن الأرض ، أو التظاهر بدفع ثمنها إلى بيت المال للحصول على عقد شرعي بذلك ، ثم اللجوء إلى استعادة ما يدفعونه باستخدام جاههم وقوتهم (٩)، ولذلك يجوز للسلطنة العمل على استرجاعها والإستيلاء عليها .

١- السيوطي ، الحاوي ، ج١ ، ص١٥٧ .

٢- البلقيني ، التجرد ، ص٩٤ أ / ابن نجيم ، التحفة ، ص ٥ أ .

٣- البلقيني ، التجرد ، ص ٨٨ أ .

٤- الطرابلسي ، الاسعاف ، ص ٢١ / ابن نجيم ، التحفة ، ص ٥ أ .

٥- الأقحصاري ، رسالة ، ص ١٠ أ / محمد أمين ، الأوقاف ، ص ٣٢١ .

٦- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٨ ، ص٢٢٢ ، المنهل ،ج٤ ، ص٣٢ / ابن الجيعان ، التحفة ، ص ١٧٤ .

٧- محمد أمين ، الأوقاف ، ص ٣٠٠-٣٠١ .

٨- السبكي ، فتاوى ،ج٢ ، ص ١٠١ .

٩- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٢٩٦ ؛ السلوك ، ج٣ ، ق١ ، ص ٣٤٦ .

وعندما حاول الأتابك برقوق في سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م حل جميع الأوقاف مدعيا أن معظم الأراضي الموقوفة وقفت بطريق فيه شبهة ، واجه معارضة شديدة من الفقهاء ، وبخاصة من الفقيه سراج الدين بن عمر البلقيني ٨٠٥هـ / ١٤٠٢م الذي أشار إلى أن الأوقاف على المساجد والفقهاء والمدارس والمؤذنين والعلماء لا يجوز نقضها مهما كانت صورة وقفها ، لأنهم يعدون من مصارف بيت المال ، لما يستحقون من الخمس (١) ، وأنها ليست أوقافا في الحقيقة بل ارصادات لهم (٢) ، بينما الأوقاف الذرية المشكوك بملكية الواقف لها فمن الجائز نقضها وحلها (٣) .

أما الناحية الثانية للطعن فتقوم على أن أوقاف الأتراك ليست صحيحة ، حتى لو دفعوا الثمن الحقيقي للأرض ، لأنهم عبيد لبيت المال ، وإعتاق السلطان لهم مجانا أمر غير صحيح ، فلذلك فإن كل ما في أيديهم ملك لبيت المال (٤) .

يختلف الفقهاء في صحة وقف السلاطين لأراضي بيت المال ، فأشار السبكي ٧٥٦هـ /١٣٥٥م بعدم جواز هذه الأوقاف ، وأن الأكل منها فيه شبهه (٥) ، مع ترك أوقاف السلاطين القدامى على ما هي عليه ، وعدم تغييرها أو التعرض لها (٦) ، بينما يجيز البعض وقف السلاطين لأراضي بيت المال دون شرائها وتملكها ، وخاصة إذا ما كانت على مصلحة عامة ، كالمساجد والمدارس والمؤذنين والعلماء والفقهاء (٧) ، ولا يحق لأحد التعرض لهذه الأوقاف وتغييرها ، ويستدلون على ذلك بما فعله السلطان صلاح الدين الأيوبي ، عند وقفه جزء من أراضي بيت المال على مدرسته الصلاحية ، اعتمادا على فتوى ابن أبي عصرون شيخ الشافعية في عصره (٨) .

وفيما يتعلق بشراء السلطان من أراضي بيت المال ووقفها فهو جائز ، بشرط صحة عقد الشراء ، بينما دار الخلاف حول جواز الشراء من وكيل بيت المال مباشرة ، أم بطريق غير مباشر ، فأجاز ابن حجر ٨٥٢هـ/١٤٤٨م الشراء المباشر من وكيل بيت المال ، لأن وظيفة الوكيل ولاية عن الأمة لا نيابة عن السلطان (٩) ، مدللا على ذلك بشراء السلطان صلاح الدين الأيوبي جزء من أراضي بيت المال مباشرة ووقفها على مدرسته الصلاحية ، وتوثيق ذلك عند حاكم شافعي ، وانتقال هذا الأمر من واحد إلى آخر حتى نفذ في سنة ٧٤٠ هـ/١٣٣٩م مما يؤكد حق

١- السيوطي ، الحاوي ، ج١ ، ص ١٦٣ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص٢٣٦ / ابن عابدين ، رد المحتار ، ج٦ ، ص ٣٠١ .

٢- ابن عابدين ، رد المحتار ، ج٦ ، ص ٣٠١ .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق١ ، ص ٣٤٦ .

٤- السيوطي ، الحاوي ، ج١ ، ص١٦٣ .

٥- السبكي ، فتاوى ، ج٢ ، ص ١٠١ .

٦- السيوطي ، الحاوي ، ج١ ، ص ١٥٣ .

٧- ابن جماعه ، تحرير ، ص ٣٦٧ / ابن حجر ، مسألة هل للسلطان ، ص ٨٩ أ / السيوطي ، الحاوي ، ج١ ، ص ١٥٥-١٥٦ / ابن نجيم ، التحفة ، ص ٨ أ .

٨- السيوطي ، الحاوي ، ج١ ، ص ١٥٣ .

٩- ابن حجر ، مسألة هل للسلطان ، ص ٨٧ أ .

السلطان بالشراء المباشر (١) ، وبذلك فقد أجاز للسلطان برسباي شراء بعض الأراضي من الوكيل مباشرة ووقفها على جامعه في سنة ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م (٢) ، وشراء السلطان قايتباي ٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٧م أرضا من الخرطوم - بالقرب من جزيرة الروضة - ووقفها على جامعه الذي أنشأه في جزيرة الروضة (٣) .

ويبني المعترضون من الحنفية اعتراضهم على الشراء المباشر بأن السلطان عندما يشتري من وكيل بيت المال مباشرة فانه يشتري من نفسه ، وأجازوا الشراء غير المباشر ، حيث يقوم أحد الأمراء أو الأفراد بشراء الأرض من الوكيل ثم بيعها للسلطان (٤) . وقد لجأ السلطان الغوري ٩٠٢-٩٢٢هـ /١٤٩٦-١٥١٦م إلى هذه الوسيلة ، فكان أحد الأمراء يشتري أراضي الإقطاعات من الوكيل ثم يبيعها للسلطان ليقفها (٥) .

كان موقف الفقهاء واضحا من وقف أراضي الإقطاعات ، إذ أجازوا وقف إقطاعات التمليك من الأرض الموات (٦) ، بينما رفضوا وقف إقطاعات الإستغلال لأن المقطع لا يملك سوى حق المنفعة دون ملكية الرقبة (٧) .

وساد في الفترة المملوكية الثانية وقف إقطاعات الإستغلال ، فوقف الأمير جوهر اللالا إقطاعا على جامع المارداني ، وعندما تولى منطاش السلطنة سنة ٧٩١هـ/١٤٨٦م حاول الغاءها ، إلا أنه واجه معارضة شديدة من الفقهاء الذين رفضوا الإفتاء بحلها (٨) ، وأما السلطان ططر ٨٢٤هـ /١٤٢١م فوقف إقطاعا على زاوية شمس الدين الحنفي (٩) . وتميز نصر الله بن عبد الرحمن الأنصاري (ت ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩م) أحد علماء الحكمة والتصوف بالقدرة على شراء جزء من إقطاعات الأمراء وتحويلها إلى أوقاف (١٠) . وتشير المعلومات الواردة لدى ابن الجيعان ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م ومؤلف مجهول ، إلى أن القرن ٩هـ / ١٥م شهد تحويل مساحات واسعة من الإقطاعات إلى أوقاف(١١) ؛ وأن معارضة الفقهاء كانت على الإقطاعات الموقوفة على الذرية والمصالح الخاصة ، أما الإقطاعات الموقوفة على المصالح العامة ، فقد أفتوا بجوازها وعدم إعادتها وحلها بعد وقفها .

١- ابن حجر ، مسألة هل للسلطان ، ص ٨٧ أ .

٢- ابن حجر ، إنباء ، ج ٨ ، ص ١٣٧ / ابن عابدين ، رد المحتار ، ج ٦ ، ص ٦٥٤ .

٣- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٣٥١ أ .

٤- ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ١٧٥-١٧٦ .

٥- محمد أمين ، الأوقاف ، ص ٣٠١ - ٣٠٢ .

٦- الطرابلسي ، الاسعاف ، ص ٢٠-٢١/ ابن عابدين ، رد المحتار ، ج٦ ، ص ٣٠١ ، ٦٥٥/ ابن نجيم ، التحفة ، ص٥ أ.

٧- الأقحصاري ، رسالة في بيان الأراضي ، ص ٨ب .

٨- ابن حجر ، إنباء ، ج ٢ ، ص ٣٥٣ .

٩- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٤ ، ص ٤٧ .

١٠- ابن حجر ، إنباء ، ج ٨ ، ص ٢٢٣ .

١١- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٦ ، ٢٢ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٩٢ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٧٧ ، ١٨٧ ، / مؤلف مجهول ، وصف مصر ، ص ٦ب ، ٨أ ، ٩أ ، ١١أ-ب ، ١٩أ ، ٢١أ ، ٣٢أ ، ٣٩أ ، ٤٨ ب ، ٤٩ ب ، ٥٠ب ، ٥١أ ، ٥٢ب ، ٥٣أ ، ٥٧أ ، ٦٠أ ، ٦٠ ب ، ٦١ ب ، ٦٥أ ، ٦٦أ ، ٦٨ ب ، ٦٩ ب ، ٨٠أ .

وأراضي الحوز " هي ما حازها السلطان عند عجز أصحابها عن زراعتها وأداء مؤنها ، بدفعهم إياها لتكون منفعتها للمسلمين مقام الخراج ، ورقبة الأرض على ملك أربابها ، فلو وقفها من أدخله السلطان فيها لعمارتها لا يصح لكونه مزارعا " (١) .

تحدد إدارة كل وقف تبعا للشروط التي يقررها الواقف في وثيقة وقفه ، فقد يجعلها بيده أو بيد أحد ابنائه أو بيد قاضي المذهب التابع له ، أو لمسوول الجهة التي تم وقف الأرض عليها . إلا أن الأوقاف بأكملها تخضع لإدارة مركزية عن طريق ديوان الأوقاف .

وكانت إدارة الأوقاف الحكمية المشتملة على أوقاف الحرمين والصدقات والأسرى بمصر (الفسطاط) والقاهرة في القرن ٨ هـ / ١٤م بيد قاضي القضاة الشافعي (٢) ، ثم أطلق على متوليها إسم ناظر الأوقاف(٣) ، وتعود إدارة هذه الأوقاف تارة إلى رجل واحد ، وأحيانا إلى رجلين أحدهما يتولى أوقاف القاهرة والثاني أوقاف مصر ، ولكل منهما ديوان وجباة وكتاب ، ووصل متحصلها إلى نسبة عالية ، يحمل جزءٌ منه ليصرف على الحرمين وعلى الفقراء بمكة ؛ وقسم على الطلبة بمصر والقاهرة ، ولكنها ضعفت وانخفضت ميزانيتها في النصف الأول من القرن ٩هـ / ١٥ م (٤) .

وازدادت الأوقاف الأهلية على الخوانق والمدارس والجوامع والترب في الفترة المملوكية الأولى ، وتركزت إدارتها بيد أولاد الواقف أو ولاة السلطان أو نواب القضاة (٥) ، بينما توزعت إدارتها في الوجهين القبلي والبحري بين ثلاثة أمراء في سنة ٨٤٥ هـ/١٤٤٠م (٦) .

أما إدارة الأوقاف للمذاهب الأربعة ، فكان كل مذهب مسئول عن إدارة أوقافه الخاصة ، فالأوقاف الشافعية يشرف عليها قاض شافعي ، والحنفية قاض حنفي ، والمالكية قاض مالكي ، والحنبلية قاض حنبلي (٧) .

وحاول كثيرون جعل وثائق أوقافهم دساتير إدارية ، فاشترطوا شروطاً تتعلق بمتولي الوقف ، بجعله من أصحاب الجاه والنفوذ ، كوكيل بيت المال ، كما في وثيقة إسماعيل بن الناصر محمد بالوقف على كسوة الكعبة

١- الطرابلسي ، الاسعاف ، ص ٢٠-٢١ .

٢- السبكي ، معيد ، ص ٥٦ / الخالدي ، المقصد ، ص ١٣٣ أ .

٣- الخالدي ، المقصد ، ص ١٣٣ أ .

٤ - المقريزي ، خطط ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .

٥ - المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص٢٩٦ / حياة ناصر الحجي ، السلطان الناصر ، ص ٥٨ .

٦- ابن حجر ، إنباء ،ج٥ ، ص١٧٠ .

٧- الصيرفي ، إنباء ، ص ٤٤٥ ، ٤٩١ / السخاوي ، الضوء ، ج١ ، ص ١٢٢ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٢٧٢ أ .

الشريفة والمقصورة النبوية (١) ، أو بيد مقدم المماليك (٢) ، أو بيد من يكون أتابكا (٣) ، أو لمن يكون رأس نوبة النوب مع مشاركة أكبر علماء الحنفية ، كوثيقة وقف الأمير شيخو سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م على زاويته وجامعه (٤) ، كل ذلك لحماية أوقافهم من الخراب والتدمير أو من الاستيلاء عليها .

ونلاحظ أن معظم الواقفين في القرن ٩هـ / ١٥م ربطوا إدارة أوقافهم بأيدي رجال السيف ، أصحاب القوة والنفوذ ، بعد أن لاحظوا تراجع مكانة القضاة والفقهاء بنظر السلطنة ، وعجز أصحاب الوظائف الدينية عن حماية هذه الأوقاف (٥) .

تتصل بالأوقاف وظيفتا البرددار ونظر الصندوق ، فكان البردار يشرف على بريد الأوقاف الصادر والوارد، وما يحتاج إليه من " إخراج المراسيم الشريفة والعالية ، وإخراج وصول المعتدات *، وتعيين ما يحتاج إلى تعيينه من القصاد لاستخراج الأموال من النواحي والبلاد ، ويقضي حوايج الفلاحين ويفعل جميع ما يعين على خلاص مال الوقف ، ممن هو في جهته على عادة أمثاله في ذلك " (٦) . وكانت وظيفة نظر الصندوق الإشراف على جمع عوائد بعض النواحي في المحلة وبلبيس والفيوم وصرفها على رجال ونساء وأطفال مستحقين (٧) .

ومن شروط استغلال الأراضي أحاز الفقهاء الإستغلال المباشر ، فمتولي الوقف يقدم البذور للفلاحين مقابل الحصول على نصف المحصول ، إضافة لمنح المتولي حق إستدانة البذور على حساب الوقف (٨) . بينما شرط معظمهم أمورا تتعلق بإجارة الأرض والوقف ، وخاصة فيما يتعلق بمدة الإيجار ، بأن لا تزيد على ثلاث سنوات، وأن لا تؤجر الأرض إلا لفلاحيها لأنهم الأحق بها . جاء في وثيقة تغري بردي البكلمشي " لا تؤجر الأرض إلا لفلاحيها ، فإن عجزوا فلفلاح مشكور السيرة ، حسن المعاملة " (٩) . بينما احتوت وثيقة وقف السلطان بيبرس الجاشنكير على شروط تبيح للمستأجر زرع نصف الأرض حسب مشيئته ، والنصف الآخر برسيما وفولا ومقاثيا وذلك مراعاة لمصلحة الأرض (١٠) .

١- السخاوي ، التبر ، ص ٤٦٥ .
٢- السخاوي ، الضوء ، ج ٢ ، ص ٥٩ .
٣- الصيرفي ، إنباء ، ص٤٦٥ .
٤- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص٥٥٨ .
٥- الخالدي ، المقصد ، ص ١٣٣ أ / Abu -Lughod , Cairo , P 76-77 .
٦- محمد أمين ، الأوقاف ، ص٣١٧ .
٧- الخالدي ، المقصد ، ص ١٣٤ أ .
٨- الطرابلسي ، الاسعاف ، ص ٧٠ .
٩- محمد أمين ، الأوقاف ، ص ٢٨٠ ، ٢٨٢ .
١٠- نفس المرجع ، ص ٢٨١ .

*وصولات المعتدات :- هي أوراق مالية تعطى لمستأجري الأعيان الموقوفة من ديوان الوقف ، وتثبت أنهم قد سددوا ما عليهم من أموال الوقف من غلال أو غير ذلك (محمد أمين ، الأوقاف ، ص ٣١٧) .

كانت الشروط الموضوعة للأوقاف تفسح المجال لتنوع الجهات الموقوفة عليها وتعددها ، وخاصة أنها قد ارتبطت بمفهوم أعمال البر والصدقة ، فكثرت الأوقاف على المؤسسات العامة والخاصة في نهاية الدولة المملوكية ، بينما كانت قليلة الأهمية في بداية القرن ٩ هـ / ١٥ م وفقا لرواية القلقشندي ٨٢١ هـ / ١٤١٨م (١) .

ولعبت الأوقاف دورا أساسيا في تطوير المؤسسات التعليمية ، حيث اعتاد السلاطين والأمراء وأصحاب الجاه بناء المدارس ووقف الأراضي عليها للإنفاق على مرافق المدرسة وموظفيها (٢) ، حتى لو كانت هذه الأوقاف مغصوبة كالأراضي التي وقفها الأمير تغري بردي البكلمشي (ت ٨٤٦هـ/١٤٤٢م) على مدرسته (٣) .

وتتكون أوقاف المدارس إما من قطع صغيرة كالبساتين والمزارع ، أو من قرى بأكملها ، فكان على مدرسة السلطان الناصر حسن (٧٤٨-٧٥٢هـ / ١٣٤٧-١٣٥١م و٧٥٥-٧٦٢هـ/١٣٥٤-١٣٦٠م) منية صرد وقفها ومحلة الخادم (٤) ، وللمدرسة المالكية المعروفة بالقمحية* قريتا الحنبوشية والأعلام من الفيومية (٥) .

وفي سنة ٨٤١ هـ / ١٤٣٨م وقف السلطان برسباي (٨٢٥- ٨٤١ هـ/١٤٢١-١٤٣٧م) على مدرسته جزيرة بناحية السويد من الأعمال الإطفيحية ومساحتها مئتا فدان ، وجزيرة الضافية من عمل البحيرة ، وأربع قطع من أراضي بركة الحجاج بلغت مساحتها مئة وخمسين فدانا ، وقطعتين من الأعمال القليوبية مساحتهما أربعون فدانا (٦) .

ويوجد الكثير من القرى والأراضي الموقوفة على المدارس ، فمثلا وقف على المدرسة الصرغتمشية منية حلفا من القليوبية (٧) ، وعلى المدرسة المجدية الخليلية المبنية سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م" غيطا بناحية تطويس ، وربع غيط بظاهر رشيد ، ونصف بستان بناحية بلقس"(٨) وغيط وأراضي الموز من المرتاحية ، وقرية سفط عبد الحق (٩) ، وعلى المدرسة المالكية بالفيوم ناحية شوبيس (١٠) ، مع الإشارة إلى أن معظم الواقفين كان يحدد عدد الطلبة والموظفين

١- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٢٢ .

٢- سعيد عاشور ، المجتمع ، ص١٤٧-١٤٨ .

٣- ابن حجر ، إنباء ، ج٩ ، ص ١٩٢ -١٩٣ .

٤- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ١٣ / الإسحاقي ، لطائف ، ص ٣٤ / مجهول ، وصف مصر ، ص٨ أ ، ١٠ أ ، ٨٨ ب .

* المدرسة القمحية :- عرفت بهذا الإسم لأن مستحقيها كانو يتناولون مستحقاتهم قمحا .

٥- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٤ ، ص٩٥ / المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٣٦٤ / النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص١٩ ، ٦٠ .

٦- أحمد دراج ، حجة وقف برسباي ، ص٦٧-٦٨ .

٧- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٧ .

٨- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٤٠ .

٩ - ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٤ ، ص ٩٦ .

١٠- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ١٥٦ .

الذين يتناولون من ريع الوقف * (١) .

تعددت الأوقاف على الخوانق والزوايا والأربطة ، وكانت الخانقاة الصلاحية التي بنيت في سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م وعرفت فيما بعد بسعيد السعداء من أعظم الخوانق أهمية وأوقافا ، فوقف عليها من النواحي بستان الحبانية بجوار بركة الفيل من القاهرة ، وأبو رويش من الجيزية ، وأبو كعب ودهمرو وسلقوس من البهنساوية(٢) . ثم الخانقاة الشيخونية التي بناها الأمير شيخو سنة ٧٥٧هـ /١٣٥٦م وأوقف عليها قرية القصيعة من الأعمال الغربية ، وأبو قوارير والواقية من الأشمونين (٣) . والخانقاة الناصرية ولها من الوقف منى جعفر من القليوبية (٤) ، والخانقاة المعروفة بالواصلة ولها بستان الجرف بالقاهرة (٥) ، وخانقاة ناظر الخواص كريم الدين المتوفى سنة ٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م بالقرافة الصغرى ولها عدة جهات (٦) .

أما الزوايا فأهمها زاوية بيبرس الجاشنكير وقف عليها منية المخلص من الجيزية وأراض بالوجهين القبلي والبحري (٧) ، وقرية العادلية من ثغر دمياط (٨) ، وناحية بلجهوره على زاوية شمس الدين الحنفي(٩)، وزاوية السلطان برسباي أراضي ناحية طوخ تكريمة ، وأراض من أدرنكة من الأعمال السيوطية ، وجزء من أراضي ناحية دوينه من القليوبية ، والحمراء لقارىء المصحف بالقبة ، وأراض بناحية الخيزران من الجيزية (١٠) ، إضافة إلى وجود أوقاف على الأربطة كقرية أنفينه بالوجه البحري على الرباط الصاحبي التاجي ، وبستان المعشوق على رباط الآثار (١١) .

---

* حول أوقاف المدارس راجع :-

- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ١٣ ، ٣٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١٢٧ ، ١٣٦ ، ١٥٢ ، ١٥٤ .
- مؤلف مجهول ، وصف مصر ، ص ٨ أ ، ١٠ أ ، ٨٠ أ ، ٨٧ أ ، ٨٨ب ، ٨٩ب ، ٩١ ب ، ٩٧ب ، ١٣٢ أ .
- الإدفوي ، الطالع ، ص ١٠٢-١٠٣ .
- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٢ ، ص ٨٨ ، المنهل ، ج ٤ ، ص٢٣٥ .
- ابن قاضي شهبة ، تاريخ ، ج٣ ، ص ١١٤-١١٥ .
- السخاوي ، الضوء ، ج٦ ، ص ٢١٦ ، ج٩ ، ٢٤٨ .
- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٥٣٣ ، ٧٨٥ .

١- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٣٧٤ ، ٤٠٠ .

٢- ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٥ ، ص٨ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٤١٧ / المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٤١٥ / مجهول ، وصف ، ص ١٣٨ أ ، ١٤٢ أ .

٣- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ١٧٧ ، ١٨٢ .

٤- نفس المصدر ، ص ١٣ .

٥- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٣٤٤ .

٦- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ٤٥٤ .

٧- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٤١٧ .

٨- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٦٢ / مجهول ، وصف مصر ، ص ٦٣ ب .

٩ - مجهول ، وصف مصر ، ص ٤٩ أ .

١٠- أحمد دراج ، حجة وقف برسباي ، ص ٤٥- ٤٨ ، ٥٨ ، ٦١ .

١١- ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٤ ، ص ١٠٢ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٣٤٧ .

وللأوقاف دور في توفير العناية الصحية ، فتعد أوقاف البيمارستان المنصوري الذي بناه السلطان قلاوون سنة ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م من أعظم أوقاف مصر وأكثرها برا (١) ، وبلغت عوائدها ١٠٠,٠٠٠ دينار(٢) ، ومن المناطق الموقوفة عليه جزيرة الفيل (٣) ، وقرية نادر من أبيار ، وجزيرة بني نصر (٤) ، والكوم الأسود من الجيزية (٥) .

ويعد الوقف على الجوامع من أفضل القربات ، وقد شجع الفقهاء السلاطين والأمراء الوقف عليها، وأجازوا ذلك دون ملكية الرقبة ، بالوقف من أراضي بيت المال ، وإسقاط خراج الأراضي الموقوفة عليها ، ورفض حلها تحت أي ظرف من الظروف ، لأنها من مصارف بيت المال (٦) . ومن القرى الموقوفة على الجوامع قرية أندونة من الجيزية على الجامع الطولوني (٧) ، وقرية الخنافس على الجامع الأزهر (٨) ، والفرقة من الدقهلية والمرتاحية على جامع السبع سقايات (٩) ، وايلوق على الجامع العمري بثغر الإسكندرية (١٠) ، ودحطوط الحجارة على جامع الأمير موسى بن اللمطي بالقاهرة (١١) ، وساقية محفوظ من البهنساوية على الجامع المؤيدي بالقاهرة (١٢) وطندتا على الجامع الحاكمي (١٣) . بينما كانت أوقاف السلطان برسباي على جامعه تتكون من نصف قرية قرموط من أعمال الدقهلية والمرتاحية ، وأراضي ناحية بشتيل من الجيزية ، وأراضي ناحية بشكالس من الغربية ، وربع أراضي سنديون من القليوبية ، ومئة فدان من أراضي أوسيم بالجيزية (١٤) ، وجميع الأراضي الصالحة للزراعة بناحية هتفا من البهنساوية (١٥) .

واعتبر الوقف على الأشراف ضرب من القربات ، لاتصال نسبهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ، فنتج عن ذلك كثرة أوقافهم وإنشاء ديوان خاص بهم وظيفته الأساسية تحقيق أنسابهم وضبطها ، وجمع الأموال من مصادر وقفهم ، وتوزيعها بالسوية بين الصغير والكبير والذكر والأنثى ، في يوم معلوم من السنة ، وربما أنفق في

١- الخالدي ، المقصد ، ص ١٣٣ أ .

٢- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٥٨٢ .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص٣١٤ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص١٨٠ .

٤- ابن الجيعان ، التحفة ، ص١١٦ .

٥- نفس المصدر ، ص ١٤١ .

٦- الأقحصاري ، رسالة في بيان الأراضي ، ص ٨ أ -ب .

٧- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص٨٢٧ / ابن الجيعان ، التحفة ، ص ١٤٦ .

٨- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٦ .

٩- نفس المصدر ، ص٤٩ .

١٠- نفس المصدر ، ص ١٣٨ .

١١- نفس المصدر ، ص ١٦٥ .

١٢- ابن الجيعان التحفة ، ص ١٦٧ / النابلسي ، الحقيقة والمجاز ، ص ٢٢٨ .

١٣- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٢٧٩ .

١٤- أحمد دراج ، حجة وقف برسباي ، ص١٠-١٢ .

١٥- نفس المصدر ، ص ٤٨ .

بعض السنوات على من كان منهم بمكة والمدينة ، ومن يرد منهم إلى مصر أثناء صرف المستحقات (١) .

ومن القرى والنواحي الموقوفة على الأشراف بركة الحبش (٢) ، وحصة المغنى والقرين من القليوبية وبلقس وبجيحه كفرها من الضواحي ، وتعرف بكوم الهوى والمغطس ودمسيس وشاش الملح ومنية الأشراف من الغربية وقلشان من البحيرة وهي الشرفا وحقوقها وطرا من الإطفيحية (٣) ، إلا أن بعض الأوقاف خرجت من أيديهم كحصتهم من عدوة صبيح (٤) ، وبقطارس والمشعلية من الدقهلية التي تحولت إلى أوقاف الأشرف أينال (٥) ، وقفط التي أصبحت إقطاعا باسم أمير المدينة النبوية (٦) .

ورصدت بعض الأوقاف لأغراض الجهاد ، فتم وقف قرية بوصيربنا والقصيعة من الأعمال الغربية برسم الشواني بثغر دمياط (٧) ، وشبرا ملق وأم دينار وأتينة ومنيتها من البحيرة ، واللهون من البهنساوية (٨) ، وزاد عليها الأمير يشبك سنة ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م أراض بالوجه البحري بناحية صندلا من الغربية ، ومنية خلف من المنوفية ، وأراض بالشرقية وناحية ماكوسة من الغربية ، ومنية بني خصيب من الأشمونين للبرج الظاهري بالإسكندرية (٩) . ثم ابتنى الأمير فيروز العرامي (ت ٨٥٠ هـ/ ١٤٤٦م) برجا بثغر الإسكندرية ووقف عليه وقفا (١٠) ، وبنى السلطان قايتباي سنة ٨٨٤ هـ/ ١٤٧٩م برجا بثغر رشيد ووقف عليه عدة أوقاف (١١) .

يعارض الفقهاء الوقف على القبور ، باعتباره أمرا منافيا للقربة التي تعتبر القاعدة الأساسية لجواز الوقف ، وعدم جواز تمليك الميت ، والإنفاق يجب أن يكون في عمارة البلاد ، لا على ما هو سائر نحو الفناء والبلاء (١٢) ، ومع ذلك فقد وقف السلاطين والأمراء الأراضي على الترب وقبور الأولياء . ومن القرى والنواحي الموقوفة على

١- الخالدي ، المقصد ، ص ١٣٢ أ - ب .

٢- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٣٨١ / المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ١٥٣ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ٤ / السيوطي ، حسن ، ج٢ ، ص ٢٢٩ .

٣- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٦ ، ٩ ، ١٠ ، ٣٧ ، ٦٩ ، ٨١ ، ٩٤ ، ١٢٠ ، ١٣٥ / مؤلف مجهول ، وصف مصر ، ص ٧ أ ،٤٠أ ، ٤٣ أ ، ٦٨ ب ، ٨١ ب ، ٨٢ أ ، ٩٢ ب ، ١١٢ أ ، ١٢٥ ب .

٤- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٤٣ .

٥- نفس المصدر ؛ ص ٥١ .

٦- نفس المصدر ؛ ص ١٩٥ .

٧- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ١٦٩ / مؤلف مجهول ، وصف مصر ، ص ٧٣ أ .

٨- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ١٢٦ ، ١٦٢ / مجهول ، وصف مصر ، ص ٤٨ ب ، ١١٠ أ .

٩- محمد أمين ، الأوقاف ، ص ٢٢٦ .

١٠- السخاوي ، الضوء ، ج٦ ، ص ١٧٦ .

١١- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٩٧ أ .

١٢- البلقيني ، التجرد ، ص ٨٥ب - ٨٦ أ .

الترب والقبور : منية عباد وقحافة وأبو الغزلان من الغربية على قبر السيد أحمد البدوي (١) ، وجزيرة دسوق على قبر إبراهيم الدسوقي (٢) ، ووقف السلطان برقوق على قبور إخوة سيدنا يوسف عليه السلام بالقرافة (٣) ، وأوقاف الأمير صرغتمش على تربته في سنة ٧٥٧ هـ/١٣٥٦م (٤) ، وأوقاف السلطان قايتباي على تربته (٥) .

وتحتل الأوقاف على مكة والمدينة والحجاج أهمية كبيرة نظرا لكبر حجمها ، وقد ابتدأت منذ أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي(٥٦٤ - ٥٨٩هـ / ١١٦٩-١١٩٣م) الذي وقف ناحية نقادة من القوصية وثلث سنديس من القليوبية على أربعة وعشرين خادما للكعبة الشريفة ، إلى أن أضاف إليها السلطان إسماعيل بن محمد بن قلاوون سنة ٧٤٣ هـ/١٤٤٢م ثلثي ناحية سنديس ليصل عدد الخدم إلى أربعين خادما (٦) ، وناحيتي بيسوس وسردوس وأراض بقليوب لتجهيز كسوة الكعبة من الذهب والحرير في كل سنة ، والإنفاق على الحجرة النبوية في كل خمس سنوات(٧)، ثم أضيف إليها بطينة من النستراوية ، وبارنباره من الدقهلية والمرتاحية ، والنبيره من البحيرة ، ودمتنو من الغربية ، والنعناعيه من المنوفية ، وشبرا اللمية من أبيار وجزيرة بني نصر ، والودى من الإطفيحية والسلموني من السيوطية ، ودمامين من القوصية (٨) .

ويدل على رصد بعض الأوقاف لمساعدة الحجاج ، ما أشار إليه السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩-٧٤١هـ / ١٣٠٩-١٣٤٠م) في وثيقة وقفه على خانقاة سرياقوس " إذا توفر شيء يصرف لتجهيز من لا حج من الفقراء والصوفية المقيمين بالخانقاة ، ليحج حجة الإسلام الواجبة عليه " (٩) ، بينما وقف السلطان برقوق ناحية بهتيت لشراء جمال لحمل الحجاج عليها ، وتوفير ما يحتاجونه من دواب ومؤن ذهابا وإيابا ، على أن يكون فيهم أربعون حاجا من بلاد المغرب (١٠) .

ورصدت الأوقاف أيضا لمساعدة الفقراء والمحتاجين ، فتشير وثيقة وقف قراقجا الحسني (ت٨٥٣ هـ / ١٤٤٩م) ، إلى تحول ريع أوقافه إلى الفقراء والمحتاجين المقيمين بمكة والمدينة ، فان تعذر ذلك فعلى مصالح الحرمين الشريفين بمكة ويثرب ، إذا ما انقرض أعقابه (١١). كما وقف السلطان قايتباي (٨٧٢ -٩٠١هـ/١٤٦٧- ١٤٩٥م)

١- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٩٧ / مجهول ، وصف مصر ، ص ٨٦ أ ، ٩٤ ب .
٢- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٧٤ .
٣- المقريزي، السلوك ،ج٣ ، ق٢، ص٩٤٤/ ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٢ ، ص٨٦ / مجهول ، كتاب في التاريخ ، ص١١٤ ب.
٤- السخاوي ، الضوء ، ج٦ ، ص ٢٢٦ .
٥- الإسحاقي ، لطائف ، ص ١٣٧ .
٦- الخالدي ، المقصد ، ص ١٣٣ ب .
٧- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ٣٣ ، ١١٤ / الخالدي ، المقصد ، ص ١٣٣ أ / المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص٦٣٣/ السخاوي ، التبر ، ٣٣١ - ٣٣٢ .
٨- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٧١ ، ١٠٤ ، ١١٤ / ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٩ ، ١١ ، ٧٧ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ١٩٥ / مؤلف مجهول ، وصف مصر ، ص ٨ب ، ٧٨ أ ، ٩٨ب ، ١٠٧ ب ، ١٠٨ أ ، ١٢٤ب .
٩- حياة ناصر الحجي ، السلطان الناصر (وثيقة وقف سرياقوس) ، ص ٢٩٣ .
١٠- ابن تغري بردي ، مورد اللطافة ، ص ٨٢ب / الاسحاقي ، لطائف ، ص ١٤٥ .
١١- عبد اللطيف إبراهيم ، وثيقة وقف قراقجا الحسني ، مجلة كلية الآداب ،جامعة القاهرة ، ع٢، مجلد١٨ ،١٩٥٦ ، ص ٢١٥- ٢١٧ .

بعض القرى على فقراء المدينة (١) ، وعدد من القرى على المدرسة التي بناها بجانب الحرم الشريف (٢) .

ومن الخدمات الإجتماعية الأخرى التي قدمتها الأوقاف : بناء صهاريج مياه الشرب وتسبيلها من أجل خدمة أبناء الطبقات الفقيرة ، الذين لا يستطيعون شراء المياه بسبب ارتفاع أسعارها (٣) ، وعلى الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام والعاجزين المتصفين بالفقر والفاقة وأهل الحاجة (٤) ، ووفاء ديون تتراوح بين ١٠٠-١٠٠٠ درهم من فلوس معاملة القاهرة (٥) ، وكسوة العرايا والمقلين وستر عورات الضعفاء والعاجزين كسوة تقيهم برد الشتاء وحر الصيف ، وكفالة وإرضاع الأطفال عند وفاة أو عجز أمهاتهم (٦) ، والتصدق على الفقراء المجاورين للأزهر ممن لا وظيفة له(٧) ، وعلى تكفين الفقراء والطرحاء أثناء انتشار الطواعين ، وهذا من أهم الأوقاف وأكثرها برا وفائدة (٨) ، وعلى فكاك الأسرى (٩) ، والمسجونين في سجون الرحبة والمقشرة والديلم (١٠) ، وعلى دور الخيل التي بلغت عوائد أوقافها السنوية ٣٠٠ ألف دينار سوى خيل أهل الجهاد والأربطة (١١) .

يتميز موقف الإسلام من أوقاف أهل الذمة بالوضوح التام ، فالأصل في جوازه أن يكون قربة (١٢) ، ولذلك لا يجوز لهم الوقف على بيعهم وكنائسهم وأديرتهم ، باعتبارها مواطن إقامة شعائر دينهم ، بينما أجيز لهم الوقف على الكنائس التي تقدم المساعدة للمارة (١٣) .

ويسمح لأهل الذمة بالوقف الأهلي دون شروط ، سوى جعل نهايته على جهة لا تنقطع ، كالفقراء والمساكين ، أو على إحدى المصالح العامة كإصلاح الطرق (١٤) ، وبقاء إدارتها بيدهم ، إلا إذا تعلق بها حق أحد من المسلمين ، فعندها تصبح إدارتها بيد المسلمين (١٥) .

١- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ٣٠٤ أ .

٢- الإسحاقي ، لطائف ، ص ١٣٧ .

٣-أحمد دراج ، حجة وقف برسباي ، ص ٤٢ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٠ ، ص ١٠٣ ، ١٧٢ / النابلسي ، الحقيقة والمجاز ، ص ٢٤٨ / محمد أمين ، الأوقاف ، ص ١٤٨ .

٤- عبد اللطيف إبراهيم ، وثيقة وقف قراقجا الحسني ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ع٢ ، مجلد ١٨ ، ١٩٥٦ ،ص٢١٦/ ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص١١٣ / ابن الجيعان ،التحفة ، ص ٦ .

٥- عبد اللطيف إبراهيم ، وثيقة وقف قراقجا الحسني ، مجلة كلية الآداب ، ع٢ ، مجلد ١٨ ، ١٩٥٦ ، جامعة القاهرة ، ص ٢١٧ .

٦- محمد أمين ، الأوقاف ، ص ١٣٥ .

٧- نفس المرجع ، ص ١٣٩ .

٨- عبد اللطيف إبراهيم ، نصان جديدان (بقيه) ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ع١ ، ٢ ، مجلد ٢٨ ، ١٩٦٦ ، ص١٨٣/ المقريزي، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٦٣٨.

٩- عبد اللطيف إبراهيم ، وثيقة وقف قراقجا الحسني ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ع٢ ، مجلد ١٨ ، ١٩٥٦ ، ص٢١٦ / ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص٥٠.

١٠- عبد اللطيف إبراهيم ، نصان جديدان (بقيه) ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ع١ ، ٢ ، مجلد ٢٨ ، ص١٨٣ / ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٣٧ .

١١- ابن ظهيرة ، نزهة الناظر ، ص ٢٦ ب .

١٢- ابن قيم الجوزيه ، أحكام ، ج١ ، ص ٢٢٣ / الدمشقي ، كفاية الأخبار ، ص ٤١٤ / الطرابلسي ، الإسعاف ، ص ١٤١ / ابن عابدين ، رد المحتار ، ج٦ ، ص ٥٢٤ .

١٣- ابن قيم الجوزيه ، أحكام ، ج١ ، ص ٢٢٤- ٢٢٥ / الغمراوي ، السراج ، ص ٣٠٣ .

١٤- البلقيني ، التجرد ، ص ٩٦ أ / الطرابلسي ، الإسعاف ، ص ١٤١ .

١٥- البلقيني ، التجرد ، ص ٩٥ أ - ب .

يلاحظ من الناحية العملية وجود أوقاف على الأديرة والكنائس والرهبان ، حتى بلغت مساحتها في سنة ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤م خمسة وعشرين ألف فدان ، مما دفع الدولة للسيطرة عليها ومصادرتها (١) ، بينما سمح لدير سانت كاترين بجبل الطور وحده بالاحتفاظ بأوقافه ، لما كان يقدمه هذا الدير من خدمات للحجاج والمارة . وقد أكد السلطان برقوق في سنة ٨٠٠ هـ / ١٣٩٧م هذا الحق لهم ، وأصدر مرسوما ينص على حماية أوقافهم ، وإسقاط ما عليها من خراج ورسوم ، وتسهيل السبل لرهبانها بجمع ما لهم من حقوق في البلاد الموقوفة عليهم (٢) ، إلا أن الدولة عادت في سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٥م وفرضت عليه دفع الخراج ، واستئجار الأراضي المحيطة بالدير إذا أرادوا زراعتها (٣) .

وكانت الأوقاف بشكل عام موزعة على الأشراف والفقهاء الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية ، والصوفية والفقراء والقراء والأسرى وابن السبيل والمريض والمجنون وتجهيز الموتى ، وأسوار الثغور ، وقناطر الطرقات ، وعمارة المساجد ، ومصالح المدارس والرباطات والخوانق والمشاهد ومواطن العبادة (٤) .

تعد الأوقاف الذرية * من أهم أصناف الوقف ، وأهم دوافع ازدياد الأوقاف في الفترة المملوكية ، ولكي يضمن الواقفون استمراريتها وعدم التعرض لها ربطوها بإحدى المؤسسات العامة كالمساجد والمدارس والخوانق ، أو إحدى جهات الخير الأخرى ، مع أنه من الجائز وقفها ، إذا ما امتلك الواقف الأرض الموقوفة ، حتى بلغت عوائدها نسبة عالية (٥) ، وأصبح هم الواقفين الإكثار من الأوقاف على أنفسهم وأعقابهم (٦) .

وتحدد وثيقة الوقف نصيب الذرية ، فمنهم من يحصل على الريع كامل (٧)، ومنهم من يحصل على الفائض بعد الإنفاق على الجهات الموقوفة عليها (٨) ، ومنهم من يحصل على النصف كما ورد في وثيقة السلطان برسباي الذي قسم الوقف بين جامعه ومدرسته وزاويته وبين أبنائه وأعقابهم من بعد (٩) . وحدد البعض نصيب الأبناء

١- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٦٩ ، ٤٩٩ ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٩٢١ / ابن إياس ، نشق ، ص ٢٣٦ أ .

٢- محمد أمين ، مرسوم السلطان برقوق ، مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم ، ع٥ ، ١٩٧٤ ، ص ٩٢ - ١٠٦ .

٣- الصيرفي ، نزهه ، ج ٣ ، ص ١٤٤ أ -ب .

٤- ابن ظهيرة الحنفي ، روضة الأديب ، ص١٠٩٢-١٠٩٣ .

* راجع حول الأوقاف الذرية :- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ١٥٩ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ١٠٤ / السخاوي ، الضوء ، ج٢ ، ص٣٠-٣١ ، ج٧ ، ص١٤٧ ، ج٩ ، ص٢٨١ / مجهول ، وصف مصر ، ص٧أ ، ٤٩ب ، ٥٠ب ، ٩٣أ / البكري ، قطف ، ص١٣٢ب .

٥- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٩٧ ، ج٢ ، ص٢٩٧ .

٦- أحمد دراج ، حجة وقف برسباي ، ص٥ / الصيرفي ، إنباء ، ص٤٨٠ / Abu - Lughod , Cairo , P 77.

٧- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ج٢ ، ص٢٣٦ / ابن سباط ، تاريخ ، ج٢ ، ص٧٢٠ / السخاوي ، الضوء ، ج٣ ، ص ٢١ .

٨- عبد اللطيف إبراهيم ، حجة وقف قراقجا الحسني ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ع٢ ، مجلد ١٨ ، ص ٢١٤ / أحمد دراج ، حجة وقف برسباي ، ص ٥ .

٩- أحمد دراج ، حجة وقف برسباي ، ص ٢٠-٢٣ ، ٢٧-٢٨ ، ٣٢-٣٣ ، ٣٩-٤٠ ، ٤٣-٤٤ ، ٥١-٥٢ .

بمبلغ محدد يتقاضونه في كل سنة (١) ، مما دفعهم إلى إيقاف مساحات واسعة من الأراضي ليضمنوا عائدا كبيرا لأولادهم (٢) .

ويشير ابن خلدون إلى اهتمام سلاطين وأمراء الدولة المملوكية " بإنشاء المدارس لتدريس العلم ، والخوانق لإقامة رسوم الفقراء ، والتخلق بآداب الصوفية السنية ، في مطارحة الأذكار ونوافل الصلوات ، أخذوا ذلك عمن قبلهم من الدول الخلافية ، فيختطون مبانيها ويقفون الأراضي المغلة للإنفاق منها على طلبة العلم ومتدربي الفقراء ، وان بقي من الريع شيء جعلوه في أعقابهم خوفا على الذرية الضعاف من العيلة (الفقر) ، واقتدى بسنتهم في ذلك من تحت أيديهم من أهل الرياسة والثروة " (٣) . يشير هذا النص إلى أن السبب الرئيسي لكثرة الأوقاف هو رد فعل من الأمراء وأصحاب الجاه والنفوذ على نظام المصادرة الذي طبقه الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩ -٧٤١هـ/ ١٣٠٩-١٣٤٠م) بشكل واسع ، وعدم وجود ضمانات لحماية الملكيات الفردية من ذلك ، وحتى لحماية الأمير نفسه من القتل ، وخوف الأمراء على أبنائهم من الفقر ، وضمان ريع دائم لهم (٤) ، بعد أن نتج عن نظام المماليك فصل الجندي عن أبناء المجتمع المحكومين ، وحرمان أبنائهم من الوظائف العالية في الجيش والدولة ، مما دفع الأمراء للبحث عن وسيلة لتمكين أبنائهم من الانخراط في مجتمع أكبر وأضخم ، بالإضافة إلى تحقيق أهداف خيرية وعائلية ودينية (٥) .

وكانت الرغبة في عمل الخير والبر (٦) ، واشتداد قوة الشعور الديني ، وتيار الصوفية في مصر ، وإنشاء عدد كبير من الخوانق والربط والزوايا والوقف عليها (٧) ، وحرص السلاطين على الظهور بالحرص على إقامة الشعائر الدينية ببناء المساجد لكسب الرأي العام (٨) ، والتهرب من نظام الإرث الموزع حسب الشريعة الإسلامية ، وتجنب تقسيم الملكيات الكبيرة عند ازدياد عدد الذرية (٩) ، ومحاولة من لا وارث لهم منع أموالهم من الذهاب إلى ديوان المواريث الحشرية ، كان ذلك كله دوافع للإكثار من الأوقاف في الفترة المملوكية (١٠) .

وقد انصب اهتمام الواقفين على ضمان حماية أوقافهم واستمراريتها ، فاشترطوا توثيق أوقافهم وتجديد هذه

١- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٥ ، ص٦٤ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص٢٦ب / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص٥٩ب .

٢- محمد أمين ، الأوقاف ، ص٧٣-٧٨ .

٣- ابن خلدون ، التعريف ، ص ٣٠٤ .

٤- لابدوس ، مدن الشام ، ص ١٢٧ / أحمد سعد ، تاريخ مصر ، ص ٤٦٠ ، ٤٦٧ / كامل العسلي ، مؤسسة الأوقاف ، ص ٩٥ / Fernandez ,The Evolution of Khanqah , P 10 .

٥- لابدوس ، مدن الشام ، ص١٢٧ .

٦- حياة ناصر الحجي ، السلطان الناصر ، ص ٤٩ ، ٧٧ / محمد أمين ، الأوقاف ، ص ٧١ .

٧- سعيد عاشور ، المجتمع ، ص ١٦٨ .

٨- محمد أمين ، الأوقاف ، ص ٨٨ .

٩- Abu - Lughod , Cairo , P 77 .

١٠- محمد أمين ، الأوقاف ، ص ٩٤ .

الوثائق بشكل منتظم في كل عشر سنوات على أكثر تقدير عند ناظر الأوقاف ، ووضعوا الكثير من الشروط التي تحاول تحديد تصرف الإدارة ، حتى لا يتمكنوا من الاعتداء عليها ، إلا أن ذلك لم يكن ذا فائدة ، لأن السلاطين وأصحاب الجاه والنفوذ تمكنوا ضمن الفترات التاريخية المختلفة من السيطرة على الأوقاف والإستيلاء عليها ، دون أي اهتمام بشرط الواقف وموقف الفقهاء والقضاة ، الذين لم يبيحوا حل الأوقاف أو بيعها ، إلا إذا تم إثبات أن الأوقاف كانت من أموال بيت المال (١) ، هذا إذا لم تكن الجهة الموقوف عليها من مصارف بيت المال .

وكان الفساد الإداري من المشكلات الكبرى التي عانت منها الأوقاف ، ظهر ذلك من خلال انتشار البرطلة للحصول على الوظائف الإدارية ، وإبعاد أصحاب الكفاءات ، وبيع الوظائف التي أصبحت بمثابة ضمان يعتمد على الربح والخسارة (٢) ، ومخالفة النظار والمباشرين لشروط الواقفين ، بتقرير من لا يستحق وإبعاد المستحقين ، واستغلال الأوقاف لحسابهم الخاص ، والاستيلاء على جزء كبير من أموالها ، وإهمال أمورها وما تحتاج إليه من الاصلاح كشق الترع وعمل الجسور ، مما أدى إلى خراب عدد من البلدان التابعة لها (٣) .

ومع ازدياد هذا الفساد ، حاول بعض السلاطين اصلاح أوضاع الأوقاف ، فأمر السلطان برقوق (٧٩٢هـ / ١٣٨٩م) بمصادرة ناظر الأوقاف ومحاسبته (٤) ، وأمر في سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٠م بعمل ميزانية الأوقاف الحكمية للسنوات العشر الأخيرة ومحاسبة مباشريها ، وعزل مباشر أوقاف الحرمين ، واجراء حساب لميزانية أوقاف الأيتام (٦) .

وحاول السلطان برسباي سنة ٨٢٥هـ / ١٤٢١م إلزام النظار والمباشرين بالتقيد بشروط الواقفين ، والتشديد على مباشري أوقاف المدارس والجوامع والمساجد والخوانق والزوايا وأحواض السبيل ، إلا أن الناظر الجديد سرعان ما أخذ الرشوة وأهمل ذلك (٧) ، واعتبر ابن تغري بردي ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م أن محاولة هذا السلطان سنة ٨٣٨هـ/١٤٣٤م" تعادل فتح قبرص لضياع مصالح أوقاف الجوامع والمساجد بالديار المصرية ولاستيلاء الطمعة عليها ، وتقرير من لا يستحق في كثير من وظائفها ومنع من يستحق بشرط الواقف " . غير أن محاولته فشلت

١- عبد اللطيف إبراهيم ، التوثيقات الشرعية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ع١ ، مجلد ١٩ ، ١٩٥٧ ، ص٣٣٢ ، نصان جديدان ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ع١ ،٢ ن مجلد ٢٧ ، ١٩٦٥ ، ص١٤٥ / المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٨٨٨-٨٨٩ .

٢- السبكي ، معيد النعم ، ص١٨ / الصيرفي ، إنباء ، ص ٣٣١ / السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ٩٣٨ / ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص١٦٦-١٦٧ .

٣- الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ١١٤ب ، إنباء ، ص ٤٥٥، / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٩ ، ص ١٤٢ .

٤- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ق١ ، ص ٢٠٨ .

٥- ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص١١٣.

٦- عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ١٥٩ أ .

٧- ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٤٦٩-٤٧٠ .

أمام جشع النظار الذين اعتادوا بيع الأوقـاف وحلها مقـابل مبلـغ معين ، وأمام أصحاب الجاه والنفـوذ المستفيدين الأساسيين من شراء أراضي الأوقاف (١) .

ويشار إلى أن السلطان قايتباي (في سنة ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) حاول إصلاح أوضاع أوقاف الأشراف ، عندما بلغه أن نقيب الأشراف وأخاه أخربا عـددا مـن البـلاد وخـالفا شـروط الـواقفين بتـوزيع الحصص بشـكل متسـاو بين الأشراف (٢) .

وتبقى هذه المحاولات دون جدوى لما قام به السلاطين أنفسهم من الاعتداء على الأوقاف ، ففي سنة ٨٥٠هـ /١٤٤٦م قرر السلطان جقمق (٨٤٢ - ٨٥٧ هـ / ١٤٣٨-١٤٥٣م) ناظرا جديدا للبيمارستان المنصوري " فـأخذ ما لا يستحق ودفعه لمن لا يستحق " (٣) ، ثم خفض عدد المرضى في البيمارسـتان إلى عشـرة أفـراد ، لتحويـل فـائض الأموال إلى خزانة السلطان (٤) . ووصف السخاوي ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م سياسة نظار الأوقـاف زمـن السـلطان أينـال ٨٥٧ - ٨٦٥ هـ / ١٤٥٣-١٤٦٠م "بأنهـا لا أبلـغ في الظلـم منهـا " (٥) . واكتفـت السـلطنة في سـنة ٨٩٢هـ / ١٤٨٦م بتحميل الفقهاء والقضاة مسئولية إهمال الأوقاف وأكلهم لأموالها (٦) .

وتأثرت ميزانية السلطنة من ازدياد حجم الأوقاف ، فلجأ السلاطين إلى حـل ومصـادرة كثـير منهـا ، وقـد بدأت محاولات السـلطان برقوق في هذا المجال قبل توليه أعمـال السـلطنة ، ففـي سنة٧٨٠هـ / ١٣٧٨م جمع القضـاة لاستفتائهم في حل الأوقاف التي على المدارس والجوامع والربـط والخوانـق والزوايـا وأولاد الأمـراء والفقهـاء (٧) ، ثـم حاول مرة ثانية في سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م ، ولكنه فشل في الحصول على فتوى بذلك (٨) .

ازدادت مصـادرة وحـل الأوقـاف منـذ مطلـع القـرن ٩هـ / ١٥م ، ففـي سـنة ٨١٢ هـ / ١٤٠٩م حـل السلطان فرج بـن برقـوق أوقاف الإستادار جمال الدين ، وأوقاف الأمير فـيروز الخـازندار ، الموقوفـة علـى مدارسـهم وأضافها إلى أوقاف تربة والده (٩) . ومـزق السلطـان برسبـاي وثيقـة وقف المدرسـة الأشرفيـة بالقاهرة ، واستـــولى

١- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٤ ، ص ٢٤٤ .

٢- الصيرفي ، إنباء ، ص ١٤١-١٤٢ .

٣- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٥ ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

٤- الصيرفي ، نزهه ، ج٣ ، ص ١٤٦ ب .

٥- السخاوي ، الضوء ، ج ٤ ، ص ٣١ .

٦- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٣٩٢ ب .

٧- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق١ ، ص ٣٤٥ -٣٤٦ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٢٣٥ .

٨- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ج ١ ، ص ١٤ .

٩- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ١٧٦ / ابن حجر ، إنبـاء ، ج٧ ، ص ٤٠ ، ٦٩ / السـخاوي ، الضـوء ، ج٦ ، ص ١٧٥ ، ج١٠ ، ص ٢٩٧.

عليه (١) ، ثم شجع ناظر الأوقاف على تحويل الأوقاف إلى ملكيات خاصة (٢) . وتمكن السلطان عثمان بن جقمق ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م من الحصول على فتوى بحل ومصادرة أوقاف زين الدين الاستادار (٣) .

وشهد عصر السلطان الغوري ٩٠٢-٩٢٢هـ / ١٤٩٦-١٥١٦م حل ومصادرة الكثير من الأوقاف ، ففي سنة ٩١٢ هـ / ١٥٠٦م لجأ الأمير طراباي رأس نوبة النوب إلى مصادرة نسبة كبيرة من أوقاف البلاد والبيوت ، وصار يعذب كل من يعترض على ذلك حتى يعتذر إليه (٤) ، واكتفى السلطان الغوري في سنة ٩١٨هـ/١٥١٢م بالحصول على مبلغ ١٠,٠٠٠ دينار في كل سنة بدلا من إخراج بعض أوقاف الأشراف كناحيتي بلقس وبركة الحبش (٥) .

أصبح التذرع بحاجة الدولة للمال ، لتجهيز الحملات العسكرية ، من الوسائل المهمة لاعتداء الدولة على أراضي الأوقاف وأموالها ، فحاول برقوق سنة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م الحصول على فتوى لحل جميع الأوقاف ؛ لأن كثرتها من الأراضي الخراجية أضعفت الجيش ، واكتفى في سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م بالحصول على مبلغ من الأوقاف للتجهيز لحملة تيمور لنك على إثر تقدمه نحو بلاد الشام (٦) ، وفي سنة ٨٠٣هـ /١٤٠٠م فرض الأمراء على الأوقاف دفع كراء شهر للتجهيز لمحاربة تيمور لنك ، وعلى كل فدان عشرة دراهم (٧) ، بينما اتخذ قايتباي ٨٧٢- ٩٠١ هـ / ١٤٦٧ - ١٤٩٥م من محاربة التركمان وسيلة لذلك ، فعقد مجلسا في سنة ٨٧٢هـ بحضور القضاة ، وتكلم كاتب السر باسم السلطان " أن بيت المال مشحوت من المال ، وأن سوار الباغي قد استطال على البلاد ، ... وإن الأوقاف قد كثرت على الجوامع والمساجد ، وإن قصد السلطان أن يبقي لهم ما يقوم بالشعائر فقط ، ويدخل الفائض إلى الذخيرة " (٨) .

كثر في الفترة المملوكية الثانية إخراج أراضي الأوقاف كإقطاعات ، فقام برقوق في سنة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨م بإخراج عدد من أراضي الوقف واقطاعها بالرغم من معارضة الفقهاء (٩) ، والاستيلاء على أوقاف السلطان الناصر حسن (١٠) ، وإدخال قسم منها لديوان الوزارة (١١) ، وأقطع السلطان برسباي سنة ٨٢٥ هـ / ١٤٢١م

١- ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٤٤ .
٢- ابن حجر ، إنباء ، ج٩ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .
٣- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج٢ ، ص ٤١٠ - ٤١١ .
٤- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ١٠٩ - ١١٠ .
٥- نفس المصدر ، ص ٢٦٠ .
٦- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ج١ ، ص١٠ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١١ ، ص٢٠٣-٢٠٤ .
٧- ابن حجر ، إنباء ، ج ٤ ، ص ١٩٢ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٢ ، ص ٤٧٥- ٤٧٦/ الصيرفي ، نزهة ، ج ٢ ، ص٩٨ .
٨- ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ١٤ .
٩- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١١ ، ص١٣٦ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٢٣٦ .
١٠- النابلسي ، الحقيقة والمجاز ، ص ٢١٦ .
١١- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ١٢٨ .

ناحيتي الحنبوشية والأعلام من الفيومية لاثنين من مماليكه بعد أن كانت أوقافا على المدرسة القمحية (١) .

وعندما ازدادت مطالبة الجلبان بالإقطاعات ، لجأ بعض السلاطين إلى حل أراضي الأوقاف وإقطاعها لهم ، فأخرج السلطان عثمان بن جقمق (٨٥٧ هـ / ١٤٧٣م) أوقاف الزيني الإستادار وأقطعها لمماليكه الخاصة (٢) ، وحل السلطان خشقدم في سنة ٨٦٥هـ /١٤٦٠م أوقاف السلطان أينال وحواشيه ، وأقطعها للمماليك (٣) ، وازدادت اعتداءات السلطان قانصوه الغوري في سنة ٩٠٦ هـ /١٥٠٠م ، ٩٠٧ هـ / ١٥٠١م ، ٩١٤ هـ / ١٥٠٨م، فأخرج عددا من البلاد كإقطاعات لأجناده وخاصة الجلبان (٤) .

يعد استبدال الأوقاف من الظواهر المألوفة في الفترة المملوكية الثانية ، ويتم إما بمنزل مقابل أرض أو العكس ، أو بمبلغ من المال ، مما كان يؤدي إلى تدهور الأوقاف ، لأن الاستبدال يتعارض عادة مع مصلحتها ، ولذلك لجأ الواقفون والفقهاء لمقاومة هذا التيار بوضع شروط محددة للاستبدال ، فأشار السلطان برسباي في حجة وقفه سنة ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م إلى عدم جواز استبدال شيء من الأراضي التي وقفها مهما بلغت من الخراب ، بل يقطع جزء من المستحقين حتى يتم اصلاح أوضاعه (٥) ، ويشير محمد أمين إلى أن شروط منع الاستبدال أصبحت من أكثر الأمور أهمية وترددا في وثائق الوقف (٦) .

وضع الفقهاء مجموعة من الشروط لجواز استبدال الأوقاف ، تصب في الدرجة الأولى في مصلحتها ، وذلك بعدم السماح بالاستبدال إلا للقاضي ، على أن يكون في ذلك مصلحة ظاهرة ، كإصابة الأرض بآفة حولتها إلى أرض غير صالحة للزراعة ، أو عند زيادة كلفة الأرض على إنتاجها . على أن يتم الاستبدال في المنطقة نفسها لأن إنتاج الأرض وكلفتها يختلف من منطقة لأخرى ، هذا إذا ما أحاز الواقفون الاستبدال (٧) ، وقبل القيام بذلك يجب مسح الأرض ، والتأكد أن الاستبدال في مصلحة الوقف فعلا (٨) ، والاحتراز من المباشرين والنظار ، الذين أصبحوا يأكلون ويستولون على معظم أموال الاستبدالات (٩) .

١- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦١٦ ، خطط ، ج٢ ، ص ٣٦٤ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص٤٦١ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٢٧١ أ .

٢- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج٢ ،ص ٤١٠ / السخاوي ، التبر ، ص ٤٢٧ .

٣- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٦ ، ص ٢٢٨ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ١٤١ أ - ب .

٤- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ١٤-١٥ ، ١٣٦ ، ١٥٠ .

٥- أحمد دراج ، حجة وقف برسباي ، ص ٦ .

٦- محمد أمين ، الأوقاف ، ص ٨٢ .

٧- الطرابلسي ، الاسعاف ، ص ٣٢ .

٨- الصيرفي ، إنباء ، ص ٤٨٠- ٤٨١ .

٩- ابن نجيم ، رسائل ، ص ٥٤ ، ٩١ .

وكثرت الاستبدالات في بداية القرن التاسع الهجري ، وخاصة على يد القاضي الحريري الحنفي ، والاستادار جمال الدين اللذين كادا أن يخربا الأوقاف الحكمية من المباني بعد أن استبدلا بها أراضي ضعيفة الإنتاجية في النواحي المختلفة وبأبخس الأثمان (١) ، حتى صار كل من يريد شراء وقف أو بيعه يذهب إلى القاضي المذكور بجاه أو مال ليحكم له بذلك (٢) . كما ازداد الاستبدال في نهاية الدولة المملوكية ، حتى اتهم القاضي ابن الشحنة بالإفراط بالاستبدالات مما دفع الشاعر جمال الدين السلموني للقول :-

ألست ترى الأوقاف كيف تبدلت

وكانت على تقديرها وثباتها

ولو أمكنته كعبة الله باعها

وأبطل فيها الحج مع عمراتها (٣) .

تعددت الأسباب التي دفعت البعض لبيع الأوقاف ، فمنها الحاجة المالية لأصحاب الوقف (٤) ، أو لتسديد بعض الضرائب التي تفرضها الدولة على الأوقاف (٥) ، وطمع أصحاب الجاه والنفوذ في بعض الأراضي لقربها من النيل ، أو الحصول على مبلغ من المال (٦) ، ومصادرة الدولة لصاحب الوقف واحتياجه للأموال لتسديد ما فرض عليه (٧) ، وعجز الوقف عن تسديد ما عليه من الديون (٨) ، وضعف إنتاج الأرض ، حتى أصبح البيع وشراء أرض أخرى ، أكثر فائدة من إبقائها (٩) .

وكان تأجير الأرض لأصحاب الجاه والنفوذ من المشكلات الأساسية التي واجهت الأوقاف ، فبعضهم يستأجرها بثمن بخس عن طريق برطلة القضاة والنظار (١٠) ، ويؤجرها للفلاحين بأجرة تزيد كثيرا على الإيجارات الفعلية ، وخاصة بعد موت الظاهر برقوق في سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٨م وسيطرة الأمراء على معظم أراضي الأوقاف مصرا وشاما ، فمنهم من دفع عشر الإيجار ، ومنهم من لم يدفع شيئا البتة (١١). وذهب بعضهم إلى تحويل

١- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٢٩٦ / ابن حجر ، إنباء ، ج ٦ ، ص٢٠٠-٢٠١ / السخاوي ، الضوء ، ج١٠ ، ص ٢٩٦ .

٢- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص٢٩٦ .

٣- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص١١٣ .

٤- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٢١ أ .

٥- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص٤٦٤ .

٦- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ١٥٩ / ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٣٤٣ .

٧- ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص٢٦ ، ج٩ ، ص ٩٥- ٩٦ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١٥ ، ص ١٢ / ابن إياس ، بدائع ، ج٤، ص ٤٣ .

٨- السخاوي ، وجيز ، ج ٣ ، ص ٨٨١ .

٩- ابن نجيم ، رسائل ، ص ٨١ -٨٢ .

١٠- ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٢٤٥ ، ج٩ ، ص ١٤٥ / السخاوي ، الضوء ، ج٨ ، ص ٢٣٥ .

١١- المقريزي ، خطط ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .

الأوقاف المستأجرة إلى ملكيات خاصة بعد إدراكهم لقوة إنتاجية الأرض ، وذلك عن طريق رشوة القضاة (١) ، مما يفسر أسباب اشتراط السلطان برسباي في حجة وقفه سنة ٨٣٧ هـ/١٤٣٣م عدم تأجير أراضي وقفه إلى أصحاب الجاه والنفوذ والسمعة السيئة (٢) ، واشتراط السلطان جقمق سنة ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨م على ابن حجر عدم تأجير الأوقاف للمتجوهين ، بعد أن أعاده إلى منصب قاضي القضاة (٣) .

ويمكن تبين حجم الأوقاف في الفترة المملوكية الثانية من خلال أربعة أمور ، وهي : وثيقة ابن الجيعان المتوفى سنة ٨٨٥ هـ /١٤٨٠م ، والقيمة المادية لبعض الأوقاف ، وحجم أوقاف بعض السلاطين أو إحدى الجهات ، ومن المسح الذي أجرته الدولة العثمانية بعد فتح مصر .

يشير ابن الجيعان إلى أن عدد القرى الموقوفة حتى فترته بلغ مئتين وثلاث وثلاثين قرية ، أي بنسبة ١٠٪ من مجموع القرى في مصر ، توزعت ما بين ثمان وتسعين قرية في بلاد الصعيد ، ومئة وخمس وثلاثين قرية في الوجه البحري ، بلغت مساحة مئتي قرية منها ١٩٤,٥٩٦ فدانا، هذا عدا عن القطع المتفرقة في عدد كبير من القرى (٤) .

تعطي بعض الأرقام حول عوائد بعض الأوقاف ومصروفاتها فكرة عن حجم الأوقاف ، فقد قدرت أوقاف ناظر الخاص زمن السلطان الناصر محمد بنحو ٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم (٥) ، والمصروف الشهري لمدرسة السلطان برسباي بنحو ١٢٠,٠٠٠ درهم (٦) ، وقيل إن جملة عوائد البيمارستان المنصوري بلغت نحو ٤٠,٠٠٠دينار عند بنائه زمن السلطان قلاوون ٦٧٨-٦٨٩هـ / ١٢٧٩-١٢٩٠م (٧) ، بينما وصلت إلى ١٠٠,٠٠٠دينار مع نهاية الدولة المملوكية سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م (٨) ، وقومت الأوقاف التي اشتراها السلطان قايتباي سنة ٨٨٨هـ /١٤٨٣م ووقفها على المدينة المشرفة بنحو ٢٠٠,٠٠٠ دينار (٩) ، وقيل إن متحصل مدرسة الناصر حسن يزيد على متحصل مملكة ضخمة (١٠) .

وتعطي أوقاف السلاطين والأمراء صورة جزئية عن حجم الأوقاف ، فبلغت أوقاف المدرسة الصرغتمشية سنة ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦م خمسمئة وتسعة وعشرين فدانا من ناحية منية حلفا ، ومئتين وثمانية وستين فدانا في قليوب،

١- الأسدي ، التيسير ، ص ٨٢-٨٣ .
٢- أحمد دراج ، حجة وقف برسباي ، ص ٦ .
٣- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق٣ ، ص ١٠٩٧ .
٤- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٧- ١٩٥ .
٥- المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ، ق١ ، ص ٢٤٢ .
٦- ابن تغري بردي ، المنهل ، ج٣ ، ص ٢٧٦ .
٧- ابن شاهين ، زبدة ، ص ٢٩ / الصوفي ، الصفوة ، ص ٢٤ أ .
٨- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٥٨٢ .
٩- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ أ .
١٠- ابن شاهين ، زبدة ، ص ٣١ .

وستين فدانا بالنحريرية من الأعمال الغربية ، وقرية السندفاوية (١) ، بينما بلغت أوقاف السلطان برقوق خمس عشرة قرية ونصف ، بلغ مساحة اثني عشرة قرية منها ٤٨,٥١١ فدانا (٢) . وبلغت أوقاف السلطان برسباي ثلاث عشرة قرية ، مساحة تسع منها ١٠,١٥٠ فدانا (٣) ، وأوقاف الأمير قراقجا الحسني (ت٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م) خمسين فدانا من خصوص عين شمس من الضواحي ، وأراضي أبو العز من البحيرة ، وناحية سمـوا ودبحي بالوجه القبلي وحقوقهما كقرية بني عيسى (٤) ، ومساحة أربع قرى من أوقاف السلطان قايتباي ٧,٣٨٨ فدانا ، وأجزاء من أراضي نواحي قويسنا بالغربية ، ومنية القرعان ونصف أدموه من الأشمونين ، وقرية حاجر لبني سليمان بالبهنساوية ، وجزء من أراضي ناحية سلمون الغبار بالغربية ، وقيراطين من ناحية طريفه بالغربية ، ونصف أبي النمر من الجيزية ، وثلث قيراط من أرض القايات بالبهنساوية (٥) .

ويشير المسح الشامل الذي أجرته الدولة العثمانية بعد الفتح إلى أن حجم الأوقاف بلغ عشرة قراريط من أرض مصر ، أي بنسبة ٤١,٦٪ من جملة أراضي مصر (٦) ، بينما يجعلها محمد أمين حوالي نصف الأراضي (٧) .

لقد تزايدت الأوقاف في الفترة المملوكية الثانية بسرعة ، على الرغم من محاولات الدولة وأصحاب الجاه والنفوذ للحد من هذا التزايد ، وتميز موقف الفقهاء بمعارضة محاولات الاستيلاء على الأوقاف أو حلها ، وخاصة ما كان منها على المؤسسات التي تعتبر من مصارف بيت المال ، وما كان ملكية خاصة للواقف ، إذ كانت الملكية بمثابة قوة وضمان للحفاظ على الأوقاف واستمراريتها .

ونتج عن كثرة الأوقاف والرغبة في الوقف للحفاظ على مستقبل الابناء والأحفاد ازديادا في عدد المؤسسات التعليمية والصحية والإجتماعية والربط والخوانق والزوايا (٨) .

ويمس نظام الوقف معظم جوانب حياة المجتمع المصري : الإجتماعية والإقتصادية والدينية والعلمية والصحية، من خلال رعاية الفقراء ، ومساعدة المحتاجين ، وتكفين موتى الطاعون عند عجز أهالي الميت عن الدفن، وتوفير النفقات اللازمة للمدارس والخوانق والربط والزوايا ، و المساهمة في جزء كبير من الإنتاج الزراعي.

١- عبد اللطيف إبراهيم ، نصان جديدان ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ع٢،١ ، مجلد ٢٧ ، ١٩٦٥ ، ص ١٣٤-١٣٥ .

٢- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٨٤ ، ١٠٠، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٨٥ ، ١٨٧ .

٣- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٦٦ ، ٨٣ ، ٩٥ ، ١٠٦ ، ١٣٩ ، ١٥١ ، ١٥٦ ، ١٧٣ / مجهول ، وصف مصر ، ص٩ أ ، ٣٣ أ ، ٦٧ أ ، ٨٣ب ، ٩٣ ب ، ١٢٣ ب / محمد أمين ، الأوقاف ، ص ٢٧٨ .

٤- عبد اللطيف إبراهيم ، وثيقة قراقجا الحسني ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ع٢ ، مجلد ١٨ ، ١٩٥٦ ، ص ٢٠٥ .

٥- محمد أمين ، الأوقاف ، ص ٩٦-٩٧ .

٦- الإسحاقي ، لطائف ، ص ١٤٣- ١٤٤ .

٧- محمد أمين ، الأوقاف ، ص ١ .

٨- ابن خلدون ، التعريف ، ص٣٠٤ / حياة ناصر الحجي ، السلطان الناصر ، ص٦٥ .

رافق التزايد التدريجي لحجم الأوقاف تناقص مواز في الميزانية العامة للدولة ، لأن وقف الأراضي الخراجية على أحد مصارف بيت المال يؤدي إلى إسقاط ما عليها من الخراج ، إضافة إلى تحويل المقطعين لجزء من إقطاعاتهم إلى أوقاف ذرية على أنفسهم وأبنائهم ، لضمان ريع ثابت لهم في ظل النظام العسكري ، الذي يعتمد على شراء المماليك وتربيتهم ، وإهمال أبناء الجيش وحرمانهم من الرواتب التقاعدية ، وقد بدأت هذه المشكلة منذ أيام السلطان برقوق ، الذي عزا ضعف الجيش نتيجة إلى كثرة الأوقاف .

ويلاحظ وجود هوة بين التطبيق العملي والمفهوم النظري للأوقاف ، فبالرغم من وضوح موقف الفقهاء من استبدال الأوقاف إلا أن الأمراء والسلاطين والقضاة لجأوا إلى القوة للحصول على أراضي الوقف وحلها ومصادرتها ، دون اكتراث بالفقهاء الذين أخذت هيبتهم وحرمتهم بالتدهور في فترة السلطان برقوق وابنه .

وكان الفلاح الضحية الأولى لاستغلال أصحاب الجاه لنفوذهم للسيطرة على الأوقاف ، فكانوا يستأجرون الوقف بثمن بخس ، بينما يؤجرونه للفلاحين بثمن مرتفع مما يؤدي إلى تبوير الأرض وتنشيط حركة الهجرة من الريف إلى المدينة .

الرزق الأحباسية :-

تعرف الرزق بأنها أراض يمنحها السلاطين والخلفاء على سبيل البر ، وقد تزايدت منذ أيام السلطان الظاهر بيبرس ٦٥٨- ٦٧٦ هـ / ١٢٥٩-١٢٧٧م وحتى نهاية السلطنة المملوكية (١) . وتقسم إلى قسمين ، الرزق الدينية على المساجد والجوامع والمدارس والربط والزوايا والخوانق ، وعلى أناس معينين على سبيل الصدقة (٢) . والرزق الجيشية التي تمنح للأمراء كراتب تقاعدي أو لزوجاتهم (٣) . واستمر إشراف ناظر الأحباس على الرزق بنوعيها حتى عهد الأشرف شعبان ٧٤٦-٧٤٧هـ / ١٣٤٥-١٣٤٦م ، حيث انقسمت في عهده " فهي تارة يتحدث فيها السلطان بنفسه ، وتارة النائب (الكافل) * ، وفي غالب الوقت يتحدث فيها الدوادار الكبير** على ما استقر عليه الحال آخرا " (٤) .

١- القلقشندي ، صبح ، ج٤ ، ص ٣٩ / المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١٠٥٢ ، خطط ، ج١ ، ص ٩٧ ، ج٢ ، ص٢٩٥/ الخالدي ، المقصد ، ص ١٣٢ب / ابن إياس ، نشق ، ص ٣٤ أ / بولياك ، الإقطاعية ، ص ٩٦ .

٢- القلقشندي ، صبح ، ج٤ ، ص ٣٩ / المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٢٩٥ .

٣- الخالدي ، المقصد ، ص ١٣٧ أ / بولياك ، الإقطاعية ، ص ٩٥ .

* النائب الكافل :- يطلق عليه كافل الممالك الإسلامية ، ويحكم في كل ما يحكم به السلطان ، ويتدخل في تعيين أصحاب الوظائف الجليلة كالوزراء وكتاب السر ، فهو " سلطان مختصر ، بل السلطان الثاني " (القلقشندي ، صبح ، ج٤ ، ص ١٧) .

** الدوادار :- " موضوعها تبليغ الرسائل عن السلطان ، وإبلاغ عامة الأمور وتقديم القصص إليه ، والمشاورة على من يحضر إلى الباب الشريف ، وتقديم البريد " ومنذ منتصف القرن ٨هـ/١٤م، لا يلي هذه الوظيفة إلا أمير مئة (القلقشندي ،صبح ، ج٤ ، ص١٩-٢٠) .

٤- القلقشندي ، صبح ، ج٤ ، ص ٣٩ .

وتقترب الرزق في حقيقتها من الإقطاعات وفقا لتعريف السيوطي ٩١١ هـ /١٥٠٥م الذي يرى أنها إقطاع من السلطان ، فإذا ما كانت مواتا وأحياها صاحبها فتصبح ملكية خاصة ، وإذا كانت من أراضي الخراج فلا سبيل إلى ملكيتها ، ولا يملك صاحبها إلا حق المنفعة ، ويجوز للسلطان استعادتها في أي وقت شاء (١) .

أصبحت الرزق وراثية ، حيث وجد فيها الأمراء وسيلة لتمرير بعض ممتلكاتهم إلى أبنائهم ، ففي غالب الأحيان يرثها الابن عن أبيه ، والأخ عن أخيه ، وابن العم عن ابن عمه ، وعندما يخرجها عنهم السلطان كان الابناء يقدمون قصة للسلطان الذي كان يعيدها لهم في غالب الأحيان (٢) .

تشكل أراضي الإقطاع مصدر الرزق الأول سواء ما كان منها تابعا للأجناد أم الدواوين ، حتى شهد النصف الثاني من القرن التاسع الهجري تحول عدد كبير من القرى إلى رزق لتشكل معظم الرزق الجيشية (٣) ، ويؤكد هذه الحقيقة ابن تغري بردي (٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) إذ أشار إلى خروج جزء كبير من " الإقطاعات في وجه الرزق ... وهو شيء يخرج عن الحد " (٤) . وفي سنة ٩٠١هـ / ١٤٩٥م أخرج الناصر بن قايتباي جملة قطائع كانت في الذخيرة من أيام والده الأشرف قايتباي ، وكانت نحو ألف إقطاع ، وفرقها على المماليك الجلبان كرزق وإقطاعات (٥) .

تزايد حجم الرزق في الفترة المملوكية الأولى إلى مئة وثلاثين ألف فدان سنة ٧٤٠ هـ /١٣٣٩م (٦) ، خرج معظمها من ديوان الجيش بطريق غير شرعية وخاصة بالبرطلة والتقرب للأمراء ، حتى صار أكثرها بيد أناس من فقهاء الأرياف ، لا يفقهون الفقه ويسمون أنفسهم الخطباء ، ولا يعرفون الخطبة ولا قراءة القرآن ، كما أن كثيرا منها كان على مساجد اندثرت وزوايا تعطلت (٧) ، بينما بلغت في نهاية الدولة المملوكية ألفا وثمانمئة رزقة (٨) .

وتتعدد الجهات التي رصدت لها هذه الرزق، فكان قسم منها للأمراء الذين لم يتمكنوا من القيام بواجباتهم

١- السيوطي ، الحاوي ، ج١ ، ص ١٢٧ .

٢- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أيمن سيد ، ص ٥٠ / المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٢٢٤ / بولياك ، الإقطاعيه ، ص ٩٥ .

٣- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٢٨ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٨ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٩٢ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٤٨ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨١ / مؤلف مجهول ، وصف مصر ، ص ٨ب ، ١١أ ، ١١ب ، ٣١ب ، ٥٠ب ، ٥٢ب ، ٦٣ ب ، ٦٨ب ، ٧٠ أ ، ٧٥أ، ٧٥ب ، ٧٦أ ، ٧٧أ ، ٧٩ أ ، ٨٩ أ ، ٩١ أ ، ٩٣ب ، ٩٥ أ ، ٩٥ب ، ١١٢ب ، ١١٣ب ، ١٣١ أ -ب ، ١٣٥ أ ، ١٣٧أ، ١٥١أ .

٤- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١٣ ، ٢٢١ .

٥- ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٣٣٥ .

٦- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٢٩٥ ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٤٧٤ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٩ ، ص ١٠٠ .

٧- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٢٩٥ .

٨- بولياك ، الإقطاعية ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

العسكرية نتيجة لمرض أو إصابة أو تقدم في السن لتحل محل الرواتب التقاعدية (١) ، وبعضها على الذرية (٢) ، والأرامل من زوجات الأمراء والأجناد والأيتام وأحفاد السلاطين والفقهاء المتعممين (٣) ، وللخدام والعجائز والجواري (٤) ، والطواشية الذين استولوا في سنة ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م على معظمها وصاروا يتحكمون في إخراجها لمن شاءوا (٥) ، وأهل الأرياف من الفقهاء والخطباء والقضاة والمشايخ (٦) ، والفقراء (٧) ، ومشايخ الصوفية (٨) ، ونقيب الأشراف (٩) .

كما كان جزء منها مرصودا للمباني والمؤسسات العامة والخاصة كالخانقاوات والزوايا (١٠) ، والمدارس (١١) ، والأديرة والمساجد (١٢) ، وأحواض السبيل (١٣) ، وبعض القبور (١٤) ، والأضرحة المشهورة للأولياء (١٥) .

واستخدم السلاطين حقهم في استعادة هذه الرزق من أصحابها ، فبعد وفاة السلطان فرج بن برقوق سنة ٨١٥ /١٤١٢م تمت مصادرة جميع الرزق التي وقفها على مدرسته (١٦) ، وحاول الاستادار منع من له رزقة أخذ خراجها في سنة ٨٢٠ هـ / ١٤١٧م (١٧) . وحاول السلطان جقمق ٨٤٢- ٨٥٧ هـ /١٤٣٨-١٤٥٣م إخراج جميع الرزق الأحباسية واستعادتها في سنة ٨٤٤هـ /١٤٤٠م إلا أنه بعد المفاوضات اكتفى بالحصول على مئة درهم عن كل فدان (١٨) ، ثم استولى على الرزق الموقوفة على الجامع الحاكمي وصادرها (١٩) ، وأخرج السلطان

١- السخاوي ، الضوء ، ج٣ ، ص ٦١ .

٢- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٥٨ ، ٧٩ ، ٩٢ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٣٥ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٧٢ ، ١٧٧ .

٣- بولياك ، الإقطاعية ، ص ٩٧ / محمد أمين ، الأوقاف ، ص١١٠ .

٤- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٧٢٤ .

٥- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٦٧٩ .

٦- أحمد دراج ، حجة وقف برسباي ، ص ٢٥ / ابن حجر ، إنباء ، ج ٥ ، ص ٥٢ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٩ ، ص ١٩ / الصيرفي ، إنباء ، ص ٦٤ .

٧- أحمد دراج ، حجة وقف برسباي ، ص٤٦ .

٨- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج١ ، ص ٩٨ ، ج٢ ، ص ٥٠١ / السخاوي ، الضوء ، ج١ ، ص ٣٨ .

٩- السخاوي ، الضوء ، ج٣ ، ص ١٦١ .

١٠- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق٣ ، ص ١٢٢١ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١٥ ، ص ١٠٦ .

١١- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٣ ، ص ١٢٢٣ .

١٢-ابن تغري بردي ، حوادث ، ج ٢ ، ص ٤٠٤ .

١٣- ابن إياس ، بدائع ، ج ٤ ، ص ١٢٦ .

١٤-نفس المصدر ، ص ٢٤٢ .

١٥- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ١٦٦ .

١٦- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٢٣٧ .

١٧- ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٢٧٢ .

١٨- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٣ ، ص ١٢٢١ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٥ ، ص ١٠٦ .

١٩- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٣ ، ص ١٢٢٣ .

عثمان بن جقمق سنة ٨٥٧ هـ/١٤٥٣م عددا من رزق المساجد والربط كإقطاعات (١) . كما قام السلطان قانصوه الغوري في سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨م بمنح عدد كبير من الرزق كإقطاعات للجند (٢) ، وفي سنة ٩١٧هـ/١٥١١م بيعت أملاك ورزق كان قد وقفها على مدرسته ، للحصول على أموال للإنفاق على المماليك الجلبان (٣) .

وبذلك فإن صاحب الرزقة لا يملك سوى حق المنفعة ، ويجوز للسلطان استعادة الرزقة متى شاء . إضافة إلى إقبال أصحاب الجاه والنفوذ على امتلاكها نظرا لإعفائها من الضرائب ، مما أخرجها عن الهدف الخيري الذي قصد منها .

الملكيات الخاصة :-

تشكل الملكيات الخاصة قسما من أراضي مصر ، يجوز لأهلها التصرف بها بيعا وشراء وتوريثا (٤) ، ومصدرها الأساسي من أراضي بيت المال ، إذ أجاز الفقهاء للدولة بيع جزء من الأراضي عند الحاجة ، وعند وجود مصلحة عامة بذلك ، وإعطاء وكيل بيت المال ، المسؤول عن عمليات الشراء والبيع ، الحق في الإمتناع عن البيع ، إذا ما رأى أن المصلحة في بقاء الأرض ، وخاصة بعد ازدياد حجم المبيعات في منتصف القرن الثامن الهجري (٥) .

شهدت الفترة المملوكية الأولى بيع مساحات واسعة من الأراضي ، إلا أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون استعاد معظم ما اشتراه المماليك البرجية من بيت المال في سنة ٧١٥ هـ /١٣١٥م (٦) ، ويبدو أن اعتراض السلطان ليس على الملكية بحد ذاتها بل على طريقة التملك ، على اعتبار أن عملية البيع تمت بصورة غير شرعية ، لأن الناصر نفسه ـ عندما حفر الخليج الناصري سنة ٧٢٥ هـ /١٣٢٤م ـ سمح لوكيل بيت المال ببيع الأراضي الواقعة على جانبي الخليج ، مما دفع الكثيرين لشرائها وتحويلها إلى بساتين (٧) .

وشهدت الفترة الجركسية توسعا كبيرا في بيع أراضي بيت المال ، فيشير ابن تغري بردي سنة ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م إلى خروج مساحات واسعة من الإقطاعات على سبيل الأملاك (٨) ، ويؤكد ابن الجيعان ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م هذه الحقيقة بشكل لا يدع مجالا للشك ، إذ يشير إلى أن الكثير من أراضي الإقطاع تحول إلى رزق

١- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج٢ ، ص ٤٠٤ .
٢- ابن إياس ، بدائع ، ج ٤ ، ص ١٢٦ .
٣- نفس المصدر ، ص ٢٤٢ .
٤- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٩٧ / ابن إياس ، نشق ، ص ٣٤ ب .
٥- السبكي ، معيد ، ص٦٥ / ابن طولون ، نقد الطالب ، ص ٩٠ .
٦- المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ، ق١ ، ص ١٥٣ ، ١٥٦ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٩ ، ص ٤٥ .
٧- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ١٤٥ / البكري ، قطف ، ص ١٢١ أ .
٨- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص٢٢١ .

وأوقاف وأملاك ، وإلى خروج الكثير من الأراضي بالبيع من بيت المال ، وإلى تحول قرى بأكملها إلى ملكيات خاصة (١) .

وهناك تشكيك بشرعية البيع وخاصة من قبل السلاطين ، ولذلك فابن تغري بردي يشير إلى أن بيع الإقطاعات من بيت المال " شراء لا يعبأ الله به قديما وحديثا "، وذلك لعدم وجود سوابق للبيع ، ولأن القرية تشترى " من بيت المال ، ثم يهب السلطان ثمنها للشاري ، فهذا البيع وإن جاز في الظاهر لا يستحله الورع ، ولا فعله السلف" كما أن السلطان لا يحق له التصرف في أموال بيت المال إلا بالمعروف ، لأنها أموال المسلمين وليست أمواله الخاصة (٢) .

ويعبر التزايد الملحوظ في بيع الأراضي في القرن التاسع عن حاجة الدولة للمال ، نتيجة لتحول قسم من أراضي الإقطاعات إلى أوقاف ورزق وأملاك ، وللتناقص السكاني الذي خفض مساحة الأراضي المزروعة ، ولإدراك الفلاح أن كل ما يبذله من جهد يذهب إلى مصلحة السادة . وترافق ذلك مع الضغط العسكري الخارجي على حدود الدولة المملوكية خاصة من التركمان والعثمانيين في نهاية القرن التاسع ، وتزايد ضغط المماليك الأجلاب للحصول على الأموال ، والإكثار من الإنشاءات المعمارية ، كل ذلك دفع الدولة لبيع الأراضي لسد هذه الاحتياجات، فعندما احتاج السلطان فرج سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤م المال للانفاق على المماليك السلطانية ، اقترض من أوقاف الأيتام وباعهم بدلا منها أرضا من بلاد الجيزية (٣) .

ومما أدى إلى ازدياد بيع الأراضي انخفاض أسعارها ، بسبب التناقص السكاني نتيجة لكثرة الطواعين ، وعدم توافر الأيدي العاملة للقيام بالنشاطات الزراعية ، وبالتالي تبوير مساحات واسعة ، مما ألجأ أصحاب الجاه والنفوذ إلى استغلال هذه الفرصة ، وشراء الأراضي التي تم هجرها بسعر رخيص نسبيا .

ويؤكد عبد اللطيف إبراهيم أن وثائق العصر المملوكي توضح أن الأزمات المالية والأوضاع الحربية التي عاشتها الدولة المملوكية ، والدفاع عن المناطق الحدودية ، وتجهيز الجيوش وعمارة الحصون والأبراج ، وخاصة بعد أن أصيبت التجارة الخارجية على يد البرتغاليين في نهاية القرن ٩هـ / ١٥ م ، من الأسباب الأساسية لازدياد بيع عقارات بيت المال وأراضيه (٤) .

ومن الوسائل الأخرى لتوسع الملكية الخاصة وضع اليد، سواء أكانت الأرض من بيت المال أم وقفا أم

١- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٥ ، ٣٢ ، ٤٩ ، ٦٠ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥٨ ، ١٦٩ ، ١٧٥ ، ١٨٢ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٣ .

٢- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٩ ، ص ٤٢ .

٣- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٢ ، ص ٢٤٦ / ابن اياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٧١٦ .

٤- عبد اللطيف إبراهيم ، وثيقة وقف قراقجا الحسني ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ع٢ ، مجلد ١٨ ، ١٩٥٦ ، ص ٢٣٧ .

مواتا ، فاستمرار وضع اليد عليها يحولها إلى ملكية خاصة لأصحابها (١) . وكذلك إحياء الأراضي الموات ، إذ كان في مصر أراض مشاع لا تزرع لعدم وصول مياه فيضان النيل إليها ، فإذا أحياها أحد بشق الترع وإيصال الماء إليها تصبح ملكية خاصة (٢) ، كملكيات العرب في بعض أقاليم الشرقية والبحيرة والمنيا (٣) . ومنهم من امتلك عن طريق الهبة إذ كان " للسلطان أن يملك من أموال بيت المال من يرى تمليكه " (٤) .

لجأ أصحاب الجاه والنفوذ إلى استغلال قوتهم للسيطرة على أراضي الإقطاع والأوقاف ، فبسبب غياب مبدأ الوراثة في الإقطاعات ، حاول البعض تمرير جزء من إقطاعاتهم إلى أبنائهم عن طريق تحويلها إلى ملكيات خاصة ، وقد ساعدهم على ذلك الظلم الذي عانى منه أصحاب الملكيات الصغيرة ، مما جعلهم يطلبون الحماية ، فألجأوا أراضيهم للأمراء الذين سرعان ما حولوها إلى ملكيات خاصة ، وأصبح الفلاح بمثابة مستأجر (٥) . بينما شاع تملك أراضي الأوقاف بدفع مبلغ من المال بدلا منها ، أو اضطرار الناظر لتأجيرها إلى أحد أصحاب الجاه والنفوذ الذين سرعان ما يحاولون تحويلها إلى ملكيات خاصة ، عند إدراكهم لقوة إنتاجية الأرض وخصوبتها (٦) .

ويعد السلاطين رأس الفئات المالكة في الدولة المملوكية * ، وتدار أملاكهم بوساطة ديوان الأملاك الشريفة ، الذي أنشأه السلطان برقوق سنة ٧٨٢ هـ / ١٤٧٧م للإشراف على ما للسلطان وأقاربه من البلاد والضياع والبساتين (٧) . بينما يشتري السلطان أراضي بيت المال بشكل غير مباشر ، إذ يشتري الأرض أحد الأمراء أو الأفراد ثم يبتاعها السلطان منه (٨) .

وتتميز ملكيات السلاطين بكبر مساحتها وتعدد القرى المملوكة ، فالسلطان الأشرف شعبان ٧٦٤-٧٧٨هـ / ١٣٦٢ -١٣٧٦م كان من أملاكه : منية صرد ودمنهور شبرا من الضواحي ، وبرنشت والقليوبية وسفط

١- ابن عابدين ، رد المحتار ، ج٦ ، ص٢٩٦- ٢٩٧ .

٢- الأقحصاري ، رسالة في بيان الأراضي ، ص ٧ ب / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٩٧ / العيني ، البناية ، ج ٦ ، ص ٦٤٦ / ابن إياس ، نشق ، ص ٣٤ ب .

٣- سعيد عاشور ، المجتمع ، ص ٤٩ .

٤- ابن حجر ، مسألة هل للسلطان ، ص ٨٩ أ .

٥- الدوري ، مقدمة ، ص ١٠٥ .

٦- الأسدي ، التيسير ، ص ٨٢- ٨٣

* راجع حول ملكيات السلاطين :- بيبرس المنصوري ، مختار الأخبار ، ص ٦٧ / المقريزي ، السلوك ج١ ، ق٢ ، ص ٥٦٤ ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٦٦ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص ٢٢٤ ، ج١٤ ، ص ١٤٨ / ابن إياس ، بدائع ، ج ٢ ، ص ٦٣ ، ج٣ ، ص٢٧٨ ، ج٤ ، ص ١٠٢ .

٧- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٥٢٤ ، ج٤ ، ص ٣٢ / ابن حجر ، إنباء ، ج ٢ ، ص ١٧ / الخالدي ، المقصد ، ص ١٣٨ أ / Popper , Egypt ,1 , P 98 .

٨- ابن نجيم ، التحفة ، ص٤أ / ابن عابدين ، رد المحتار ، ج٦ ، ص ٢٩٨ .

الحنا من قليوب ، وتمرى البصل وقوخ طوخ من الغربية ، وسفط الملوك من جزيرة بني نصر ، وسوهاي من الإخميمية (١) . ومن أملاك الظاهر برقوق ٧٨٤-٨٠١ هـ/١٣٨٢-١٣٨٨ م : قرية صنبوا (٢) وبركة بيديف (٣) وبستان العالمة بالفسطاط (٤) .

ويشكل الأمراء الفئة الثانية من أصحاب الملكيات الخاصة ، فمنهم من استطاع تملك قرية كاملة ، حيث بلغ عدد الأمراء الذين يملك الواحد منهم قرية كاملة خمسة وعشرين أميرا ، وفقا لما أورده ابن الجيعان (٥) ، وامتلك العدد الأكبر منهم بعض البساتين والغيطان في مناطق مختلفة (٦) .

وتوجد بعض الملكيات بيد أصحاب الوظائف الدينية كالقضاة (٧) ، وبيد المغنين (٨) ، وبيد شيوخ العربان (٩) ، وبيد بعض أصحاب النفوذ الديني كالأولياء (١٠) .

وهكذا تكون الملكيات الخاصة قد انحصرت في إطار ضيق من الأعيان على رأسهم السلاطين، ثم الأمراء، ثم بعض شيوخ العربان ، وأصحاب رؤوس الأموال ، وأصحاب الوظائف الدينية ، بينما انعدمت الملكية الخاصة بين صغار الفلاحين تقريبا ، وتحولوا إلى مستأجرين أو أجراء في الأرض (١١) .

١- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ٧ ، ٨ ، ٣١ ، ١٤٢ ، ٨٦ ، ٩٩ ، ١١٤ ، ١٩٠ .

٢- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٢ ، ج٢ ، ص ٤٣٣ .

٣- ابن الجيعان ، التحفة ، ص ١٥٣ .

٤- ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٤ ، ص ٣٧ .

٥- ابن الجيعان التحفة ، ص ٧ ، ٨ ، ٣١ ، ٤٢ ، ٦٠ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٨ ، ١٢٠ ، ١٢٩ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٥١ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٨ ، .

٦- أحمد دراج ، حجة وقف برسباي ، ص ٤٣ ، ٤٦ ، ٦٨ / ابن حجر ، إنباء ، ج ٧ ، ص ٢٧٢ ، ج٨ ، ص ٣٣٨ / العيني ، عقد ، حوادث ٨٢٤ - ٨٥٠ هـ ، الطنطاوي ، ص ٥١٩ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٠ ، ص ٦ - ٧ ، ج١٣ ، ص ٢٥٠ ، ج١٥ ، ص ٤٦ ، ج١٦ ، ص ٢٨٩ ، حوادث ، ج٢ ، ص٣٦٢-٣٦٣ / الصيرفي ، نزهة ، ج ٣ ، ص ٣٥٨ ، ج٣ ، ص ٦٢ب / السخاوي، الضوء ، ج ٣ ، ص ٥٨ ، ٢٠٨ ، ج٦ ، ص ٢١٣ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج ٢ ، ص ٣٨٤ أ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٥٥ ، ٤٨٠ ، ج٢ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ٢٠٢ ، ج٣ ، ١١٥ ، ١٦٠ ، ج٤ ، ص ٤٣ .

٧- ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٨٣ / المقريزي ، خطط ، ج ٢ ، ص ١٣١ / ابن حجر ، إنباء ، ج ٩ ، ص ١٩٧ / العيني، عقد ، حوادث ٨١٥ - ٨٢٤ هـ ، الطنطاوي ، ص ٣٩٠ / الصيرفي ، إنباء ، ص ٨٣ .

٨- ابن تغري بردي ، المنهل ، ج ١ ، ص ٥٨ .

٩- ابن حجر ، إنباء ، ج ٣ ، ص ١٥ / السخاوي ، الضوء ، ج ٣ ، ص ١٨٨ / ابن إياس ، بدائع ، ج ٤ ، ص ٢١٤ / سعيد عاشور ، المجتمع ، ص ٤٩ .

١٠- الصيرفي ، إنباء ، ص ٤٢٢ ، ٤٤٥ / السخاوي ، الضوء ، ج ١٠ ، ص ١٠ .

١١- Lapidus , The Grain , P 4 .

الفصل الثالث

النظام الزراعي

أ- التعامل الزراعي

ب- الأساليب والأدوات الزراعية

ج- نظام الري

د- التقويم الزراعي

هـ- سياسة الدولة الزراعية

و- مشكلات النظام الزراعي

النظام الزراعي

التعامل الزراعي

تركزت معظم أراضي مصر بيد المقطعين والأوقاف ، وانخفضت ملكيتها بيد الفلاحين الصغار ، وهذا أدى إلى تعدد أساليب استغلالها ، وتعيين المقطعين ومتولي الأوقاف وكلاء على ذلك ، لتنظيم العلاقة ما بين صاحب الأرض والفلاح ، أو استغلالها مباشرة .

وتعد **الإجارة** من أكثر وسائل التعامل الزراعي شيوعا في الفترة المملوكية ، يتضح ذلك من مناقشات الفقهاء لشروطه وشرعيته ، للتوفيق بين الناحيتين النظرية والعملية ، وتحقيق المصلحة العامة ، وتنظيم العلاقة بين المؤجر والمستأجر .

ويترتب على المؤجر والمستأجر توثيق الإيجار بعقد شرعي يتضمن شروط التأجير ، وحقوق كل طرف وواجباته ، وطبيعة الأرض المؤجرة ، وطريقة الاستغلال (١) ، والمنفعة التي يحققها المستأجر مقابل ما ينفقه ، ولذلك عرفت الإجارة أنها "عقد منفعة على عين معينة " (٢) .

ويتوجب على المؤجر أن يكون مالكا للمنفعة (٣) ، وقادرا على تسليم الأرض المؤجرة (٤) ، وإنهاء عقد الإيجار السابق إن وجد ، إذ لا يجوز له عقد عقد على عقد (٥) ، في حين يحق له تحديد نوع المزروعات (٦) ، ومنع المستأجر من زراعة أي صنف لا يمكن إدراكه قبل انتهاء مدة الإيجار (٧) .

وواجب المستأجر توفير البذور اللازمة للزراعة ، لكي يعد العقد إجارة على منافع الأرض (٨) ، وقد يوفرها رب الأرض للمستأجر ، على سبيل الإعانة والتسهيل والإقراض ، ويطالبه بها متى شاء ، أو إذا سلم الأرض أو ترك زراعتها ، أما إذا ما سددها المستأجر في أثناء مدة الإيجار ، فعليه أن يحصل على وثيقة تثبت ملكيته للبذور (٩) .

١- البلقيني ، التجرد ، ص ٨١ أ .
٢- ابن مفلح ، المبدع ، ج ٥ ، ص ٦٢ / الغمراوي ، السراج ، ص ٢٨٧ .
٣- ابن قيم الجوزيه ، أحكام ، ج١ ، ص ٩٧ / الدمشقي ، كفاية ، ص ٤٠١ / ابن مفلح ، المبدع ، ج٥ ، ص ٧٣ .
٤- الدمشقي ، كفاية ، ص ٤٠٠ .
٥- البلقيني ، التجرد ، ص ٧٧ أ .
٦- السبكي ، فتاوي ، ج١ ، ص ٤٤٦ .
٧- ابن مفلح ، المبدع ، ج٥ ، ص ١١٨-١١٩ .
٨- القونوي ، مسألة ، ص ٦٠ ب .
٩- ابن قطلوبغا ، مسألة ، ص ٦١ أ .

ويشترط في الأرض المستأجرة الوثوق من إمكان ريها ، وتوافر مصادر المياه لذلك ، وإلا فإن الإجارة تعد باطلة ، ولذلك يفضل الموجرون في مصر إيراد عبارة " مقبلا مراحا " في عقود إيجارهم ، لتأكيد ري الأراضي (١) . وتتم عملية إبرام العقود في مصر بعد انحسار فيضان النيل ، وقيام الدولة بمسح شامل لتحديد ما اصطلح عليه بقانون الري ، أي تحديد مساحة الأراضي التي أمكن ريها بوساطة الفيضان ، من أجل توزيعها على الفلاحين (٢) ، كما تذكر حدود الأرض ومساحتها بدقة ، والمنطقة الواقعة بها ، وما تحتوي عليه من آبار وسواق وبنايات وأشجار كالنخل والكروم والزيتون والتين (٣) ، وإقرار المستأجر لمعرفته طبيعة الأرض بالمشاهدة ، لاختلاف خصب الأرض وصلابتها ورخاوتها بين منطقة وأخرى (٤) .

ويعد الاستغلال المباشر لأراضي الإقطاع أمرا مستحيلا ، إذ لا يمكن للجندي أن يكون فلاحا ومحاربا في وقت واحد ، ولذلك شاع في الفترة المملوكية تأجير أراضي الإقطاع للفلاحين ، وأصبح هذا الأمر مجال جدل كبير بين الفقهاء ، فمنهم من رفض ذلك قياسا على الاستعارة ، التي لا يجوز للمستعير تأجيرها ، ولأن مدة الإقطاع غير معلومة ، فيجوز للإمام إخراجها في أي وقت (٥) .

ولم تصمد آراء الرافضين أمام الرأي القائل بجواز تأجير الأجناد أراضي الإقطاع ، لشيوع هذا الأمر وتكراره ، وحاجة الناس إليه في كل زمان ومكان ، وإقرار الشرع حق المقطع في استغلال الأرض المقطعة حسب مشيئته ؛ لأن الإقطاع ملك منفعة ، والإيجار عقد على هذه المنفعة ، والصحابة مارسوا ذلك ، ولأن الجندي وكيلا عن السلطان في إدارة الأرض ، وتعارض استغلاله المباشر لها مع الجنديه التي تتطلب تفرغ الجندي لأعمال الجهاد والقتال (٦) ، وعلم السلطان بتأجير الجندي أرض الإقطاع وعدم اعتراضه ، يعد إذنا وإقرارا منه بحق المقطع في الانتفاع بالإقطاع وفقا لما يراه مناسبا (٧) . في حين أن الاختلاف الوحيد بين إيجار المقطع وغيره، انفساخ عقد الإيجار بمحض خروج الإقطاع عن الجندي (٨) .

وقد دفعت تعديات المستأجرين على أراضي الوقف كثيرا من الواقفين إلى تحديد شروط إيجارها ؛ فاشترط

١- السبكي ، فتاوي ، ج١ ، ص ٤٣٠ .
٢- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٤٨ -٢٤٩ .
٣- نفس المصدر ، ج٩ ، ص ١٠٢ .
٤- ابن مفلح ، المبدع ، ج٥ ، ص ٨٧ .
٥- ابن تيميه ، الحسبة ، ص ٣١ .
٦- ابن تيميه ، الحسبة ، ص٣١-٣٢ / القونوي ، مسألة ، ص٥٩ أ -٦٠ب ، ٦٥ ب -٦٦ أ / البلقيني ، التحرد ، ص٧٥ أ -٧٦ أ / الدمشقي ، كفاية ، ص ٣٩٩ / ابن قطلوبغا ، مسألة ، ص ٧٦ أ / السيوطي ، الحاوي ، ج١ ، ص ١٢٥ / ابن عابدين ، رد المحتار ، ج٦، ص ٣١٥ / ابن نجيم ، رسائل ، ص ١٤٦ .
٧- القونوي ، مسألة ، ص ٦٦ أ .
٨- البلقيني ، التحرد ، ص ٧٦ أ / ابن قطلوبغا ، مسألة ، ص ٧٦ أ / السيوطي ، الحاوي ، ج١ ، ص ١٢٥ .

معظمهم ألا تزيد مدة التأجير على ثلاث سنوات (١) ، وإذا خالف وكيل الناظر شروط الواقف يجوز للناظر إلغاء كل العقود المخالفة (٢) ، وليس لأحد غير القاضي مخالفة شروط الواقف في حال وجود مصلحة بذلك (٣) . وقد ركزت بعض الوثائق على تأجير الأراضي للفلاحين المقيمين في منطقة أرض الوقف (٤) ، والابتعاد عن أصحاب الجاه والنفوذ ، لتهربهم من دفع الإيجار ، أو دفع جزء بسيط منه ، وخشية سيطرتهم على أراضي الوقف وتحويلها إلى ملكيات خاصة (٥) .

ويعد عقد الإيجار ملزما للطرفين ، إذ لا ينفسخ بموت أحدهما ، بل تنتقل الحقوق والواجبات المفروضة على كل طرف إلى الورثة (٦) ، ولا يجوزللمستأجر فسخ عقد الإيجار إلا في الحالات التالية : انقطاع مصادر الري ، وهو ما يعرف بمصر بالشراقي (٧) ، وتلف العين الموجرة كالإستبحار ، وذلك ببقاء مياه الفيضان فترة طويلة ، مما يؤدي لانقضاء موسم الزراعة (٨) ، وإذا ما اكتشف المستأجر أن المساحة الفعلية للأرض الموجرة أقل من المساحة المذكورة في عقد الإيجار ، يجوز له الفسخ ، أو تخفيض قيمة الإيجار بمقدار النقص (٩) .

وإبرام العقد إلزام للمستأجر دفع الإيجار ، سواء زرع الأرض أم تركها بورا (١٠) ، ويدفعه وفقا للاتفاق مع المؤجر معجلا أو على أقساط (١١) ، ولا يسقط جزء منه ، إلا عندما تصيب المزروعات آفة طبيعية كالبرد والفئران والجراد ، أو حدوث خلل يتعلق بالأرض ، كانعدام مصادر مياه الري أو الاستبحار ، الذي يؤدي إلى إسقاط مقدار يتساوى مع الجزء المتبقي من مدة الإيجار (١٢) . ويشير العيني ٨٥٥ هـ/١٤٥١م إلى أن الإيجار ملزم حتى لو أصاب الزرع آفة (١٣) ، ويتوجب على المقطع إعادة جزء من الإيجار في حال خروج الإقطاع عنه ، بسبب انفساخ العقد ، ويكون متساويا مع ما تبقى من مدة الإيجار (١٤) .

١- عبد اللطيف إبراهيم ، نصان جديدان (بقية) ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ع١،٢ ،مجلد ٢٨ ، ١٩٦٦ ، ص ١٥٨ ، وثيقة قراقجا الحسني ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ع٢ ، مجلد ١٨ ، ١٩٥٦ ، ص ٢٤٩ / البلقيني ، التحرد ، ص ٨٢ أ / الطرابلسي ، الاسعاف ، ص ٦٣ .

٢- البلقيني ، التحرد ، ص ٨٢ أ .

٣- الطرابلسي ، الاسعاف ، ص ٦٤ .

٤- عبد اللطيف إبراهيم ، نصان جديدان (بقية) مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ع ١،٢ ، مجلد ٢٨ ، ١٩٦٦ ، ص١٥٨ ، وثيقة قراقجا الحسني ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ع٢ ، مجلد ١٨ ، ١٩٥٦ ، ص ٢٤٩ .

٥- عبد اللطيف إبراهيم ، وثيقة قراقجا الحسني ، مجلة كلية الآداب ، ع٢ ، مجلد ١٨ ، ١٩٥٦ ، جامعة القاهرة ، ص٢١٩ / حياة ناصر الحجي ، وثيقة وقف سرياقوس ، ص ٢٨٥ .

٦- الدمشقي ، كفاية ، ص ٤٠١-٤٠٢ / ابن مفلح ، المبدع ، ج٥ ، ص ١٠٣ / الغمراوي ، السراج ، ص ٢٩٥ .

٧- البلقيني ، التحرد ، ص ٧٨ أ .

٨- الدمشقي ، كفاية ، ص٤٠٢ / البلقيني ، التحرد ، ص ٧٧ أ/ ابن عابدين ، رد المحتار ، ج٦ ، ص٣١٠ .

٩- البلقيني ، التحرد ، ص ٧٥ أ ، ٧٨ أ .

١٠- البلقيني ، التحرد ، ص ٧٣ أ- ب / العيني ، البناية ، ج٦ ، ص ٦٥٦ .

١١- الصيرفي ، إنباء ، ص ٨٥ / محمد أمين ، الأوقاف ، ص ٢٨٢ .

١٢- البلقيني ، التحرد ، ص ٧٤ ب ، ٧٧ أ / ابن عابدين ، رد المحتار ، ج ٦ ، ص ٣١٠ .

١٣- العيني ، البناية ، ج٦ ، ص ٦٥٦ .

١٤- إبراهيم طرخان ، النظم الإقطاعيه ، ص ٢٣٩ .

تتساوى قيمة الإيجارات مع قيمة الخراج المقدر على الأرض(١) ، ولذلك فإن قيمتها تختلف من منطقة إلى أخرى وفقا لتوافر مصادر الري ، والقرب من نهر النيل ، والخصب وطبيعة التربة ، ونوع المحاصيل ، وكمية الإنتاج للفدان الواحد ، إضافة إلى الأوضاع الاقتصادية والسياسية السائدة كالطواعين والمجاعات والفتن بين رجالات الدولة ، وضعف السلاطين ورغبتهم في تحصيل الأموال . ويستعمل بيت المال مصطلح المتأجرات للدلالة على " نواح مفصولة له ومضمنة على أربابها بشيء معلوم ، يؤخذ عند إدراك المغل " (٢) ، وتدرج عوائدها تحت اسم الأجور (٣) .

وقد أدى اقتصار الفئة المؤجرة والمستأجرة على السلاطين والأمراء والأجناد المقطعين ، إلى آثار سلبية في الفلاحين وأراضي الأوقاف ؛ فقد اعتاد السلاطين استئجار الأراضي وتأجيرها منذ زمن الناصر محمد بن قلاوون ٧٠٩ -٧٤١ هـ / ١٣٠٩ -١٣٤٠ م ، الذي أضاف المستأجرات إلى ديوان الخاص ، ثم صار لها ديوان خاص في عهد السلطان برقوق ٧٨٤ - ٨٠١ هـ / ١٣٨٢ - ١٣٩٨ م يعرف بديوان المستأجرات (٤) .

وتمكن الأمراء بعد وفاة الناصر محمد بن قلاوون من استئجار معظم الأراضي التابعة للسلطنة بنصف الثمن، وقيل : إن قسما منهم استأجرها بأقل من ذلك ، وهذا ما دفع السلطان برقوق إلى محاولة استعادتها منهم(٥) . وقد تراوحت أجرة الفدان في الفترة بين ٧٠٠-٧٩٠هـ /١٣٠٠-١٣٨٨م بين ٣٠-٤٠ درهما ، ثم تزايدت لتصل بين ٨٠ -٢٠٠ درهم بين ٧٩٠-٨٠٥ هـ / ١٣٨٨- ١٤٠٢م (٦) ، واستمرت في التزايد بعد ذلك ، إذ استغل مباشرو الأمراء انتشار الأوبئة والطواعين بين سنة ٨٠٦ - ٨٠٩ هـ / ١٤٠٣ -١٤٠٦ م ، والصراع بين رجال الدولة ، واتخذوا من الإيجار وسيلة للتقرب إلى الأمراء " وأحضروا مستأجري الأراضي من الفلاحين ، وزادوا مقادير الايجار ، فثقلت لذلك متحصلات مواليهم من الأمراء ، فاتخذوا من ذلك يدا يمنون بها إليهم ، ونعمة يعدونها إذا شاءوا عليهم، فجعلوا الزيادة ديدنهم كل عام ، حتى بلغ الفدان لهذا العهد (٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) ، نحوا من عشرة أمثاله قبل هذه الحوادث " (٧) ، فأصبحت أجرتها بين ٨٠٥ - ٨٢٠هـ / ١٤٠٢-١٤١٧م بين ٤٠٠-٦٠٠ درهم (٨) .

واستأجر الأمراء أراضي الوقف بأثمان رخيصة ، حتى إن قسما منهم لم يكن يدفع شيئا ، وأجروها الفلاحين بأثمان مرتفعة(٩). ويذكر أن الأمير قنقباي (ت ٨٤٤ هـ / ١٤٤٠ م) استغل نفوذه ومكانته عند السلطان برسباي،

١- الأقحصاري ، رسالة في بيان الأراضي ، ص ٦٠ أ .

٢- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٦٠ .

٣- ابن ظهير الحنفي ، روضة الأريب ، ص ١٠٨٦ .

٤- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٥٢٣ - ٥٢٤ / المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٨٥٩ / الخالدي ، المقصد ، ص ١٣٦أ / ابن شاهين ، زبدة ، ص ١٠٨ / السخاوي ، الضوء ، ج٤ ، ص ٢٤ .

٥- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٥٦٩ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١١ ، ص٢٥٦ ، المنهل ، ج١ ، ص٨٥ .

٦- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٢١ .

٧- المقريزي ، إغاثة ، ص ٤٥ - ٤٦ .

٨- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٢١ .

٩- المقريزي ، خطط ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .

فعمد إلى استئجار أراضي الوقف ، فكان يستأجر الأرض التي إيجارها الحقيقي مئة دينار بخمسين دينارا ، فيسدد الأجرة بصرف الدينار لهم بأحد عشر درهما وربع وزنا ، مع أنه كان أربعة عشر درهما وربعا ، ثم يسدد جزءاً آخر ببيعهم العسل بثلاثين درهما ، وسعره عشرون درهما ، فلا يدفع في النهاية أكثر من عشر الإيجار ، وكثيرا ما لا يدفع شيئا ، مدعيا أن الأرض شراق ، مع أنه يستأجرها مروية (١) . ص

وقد شاع في الفترة المملوكية التعامل على أساس دفع الأرض للفلاح ، مقابل حصول كل طرف على جزء معين من الإنتاج ، يتراوح بين النصف والثمن ، وفقا للاتفاق بين الفلاح وصاحب الأرض ونوع المحصول ، وأطلق على هذا النظام مصطلحات عدة ، ***كالمزارعة والمخابرة والمحاقلة والمشاطرة والمقاسمة*** (٢) ، في حين فرق بعض الفقهاء بين المخابرة والمزارعة ، من ناحية مسؤولية توفير البذور ، فإذا كانت من الفلاح فهي مخابرة ، وإذا كانت من صاحب الأرض تعد مزارعة ، وتقترب في هذه الحالة من الإيجار ؛ لأنها تنعقد على منافع الأرض (٣) . إلا أن أصحاب الإقطاعات ، لجأوا إلى تقديم البذور للفلاحين على سبيل القرض ، يأخذونه قبل اقتسام المحصول ، مخالفين بذلك الشرط القائل بتحريم اشتراط حصول أي طرف على كمية مقدرة من الإنتاج ؛ لأن الأرض قد لا تنتج غير هذه الكمية ، فتذهب إلى صاحب البَذر (٤) .

وانتشرت في مصر *المساقاة* ، أو المعاملة بلغة أهل المدينة ، وتعني دفع الشجر والكروم إلى من يصلحها ويعتني بها لقاء جزء من الإنتاج ، كالنصف أو الثلث ، حسب الاتفاق بين الطرفين (٥) ، وانحصرت المساقاة في شجرتي النخل والكرمة لاشتراكهما بالخرص (تقدير كمية الإنتاج لتقدير ما يجب عليها من الزكاة) ، ولاحتياجهما إلى التعهد والعناية ، فالنخل يحتاج إلى التأبير (التلقيح) ، والكروم إلى الكسح (٦) ، ولا تجوز في الزروع والثمار التي لا أصل لها ؛ لأن المساقاة " استحقاق العامل جزء من ثمار الأصل " (٧) .

وتحدد وثيقة المساقاة واجبات كل طرف وحقوقه ، فربطت واجبات صاحب الأرض بكل ما يتعلق بأصول الشجر ، وتوفير الآلات الزراعية ، كالفؤوس والمحاريث والمناجل والمساحي ، والثور الذي يدير الساقية،

١-ابن حجر ، إنباء ، ج٩ ، ص ١٤٥ / السخاوي ، الضوء ، ج ٣ ، ص ٤٨٣ .

٢- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٥٩ / النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٣٢ ، ٩٢ / ابن تيميه ، الحسبة ، ص٣١ / السبكي ، فتاوي ، ج١، ص ٤١٧ ، ٤٢٦ / البلقيني ، التجرد ، ص ٧٣ أ / العيني ، البناية ، ج ١٠ ، ص ٥٧١ - ٥٧٢ / ابن ظهير الحنفي ، روضة الأريب ، ص ١٠٨٧ / ابن عابدين رد المحتار ، ج٩ ، ص ٣٩٧ .

٣- الدمشقي ، كفاية ، ص ٤٠٥ / القونوي ، مسألة ، ص٦٠ ب - ٦١ أ / العيني ، البناية ، ج١٠ ، ص ٥٧٠ / ابن قطلوبغا ، مسألة، ص ٦٠ أ / ابن مفلح ، المبدع ، ج٥ ، ص ٥٨ ، ٦٠ / ابن عابدين ، رد المحتار ، ج٩ ، ٣٩٩ .

٤- ابن تيميه ، الحسبة ، ص٢٩-٣٠/ الدمشقي ، كفاية ،ص٤٠٤ / القونوي ، مسألة ، ص٦١ب/ ابن عابدين ، رد المحتار ، ج٩ ، ص٣٩٧ - ٣٩٨ .

٥- الدمشقي ، كفاية ، ص ٣٩٧ / السبكي ، فتاوي ، ج١ ، ص ٤١٣ / العيني ، البناية ، ج١٠ ، ص ٦١٣ .

٦- الدمشقي ، كفاية ، ص ٣٩٧ / ابن قيم الجوزيه ، أحكام ، ج١ ، ص ٩٨ -٩٩ / السبكي ، فتاوي ، ج١ ، ص ٤٢٠ ، ٤٢٥ / العيني ، البناية ، ج١٠ ، ص ٦١٤ - ٦١٥ / ابن مفلح ، المبدع ، ج٥ ، ص ٤٥ .

٧- السبكي ، فتاوي ، ج١ ، ص ٤٢١ .

وشق الترع والآبار الجديدة ، وبناء الجدران حول البساتين ، ونصب الأبواب والدواليب ، وإنشاء السواقي.

وكان على الفلاح كل عمل يتكرر في كل سنة ، ويرتبط بنماء الثمرة وتحسينها والعناية بها ، كالتأبير والري وتطهير الترع من الرواسب الطينية ، وإصلاح الأحاجين (الحفر حول الشجرة لحصر المياه (أحواض الري) وإزالة الحشائش الضارة ، وتعريش الكروم على الأعواد ، وتشميس الثمر إذا كان من النوع الذي يحتاج إلى ذلك، وفتح رأس الساقية وشدها عند السقي ، وتقليب الأرض ، وتقويتها بالزبل (١) . ولا يجوز للفلاح ترك الأرض قبل انتهاء المدة ، وإذا ما فعل ذلك ، فلصاحب الأرض أن يستأجر شخصا آخر على حساب الفلاح (٢) ، ويمتلك صاحب الأرض سعف النخل والألياف ، فاشتراط العامل الحصول عليها يفسد العقد (٣).

الأساليب والأدوات الزراعية :-

أدى تجدد التربة بمصر بما يحمله نهر النيل من مادة الغرين ، التي يرسبها في أثناء فيضانه السنوي ، إلى زراعة أراضي مصر في كل سنة مع مخالفة الأصناف عليها (٤) ؛ وتميزت أراضي الفيوم بزراعتها مرتين في السنة ، تكون الاولى مع بداية الزراعة في مصر بشكل عام في تشرين الأول ، وحصادها مع أهل مصر في شهر نيسان ، وبعد ذلك بشهر تتم السقية الثانية ، التي تحصد مع بداية انخفاض مستوى مياه النيل ، وبداية موسم الحراثة في مصر(٥) . واتبع نظام التبوير بزراعة الأرض سنة ، وإراحتها في السنة التالية في أراضي السباخ الواقعة إلى الشمال من عمل الشرقية (٦).

وبعد انحسار مياه فيضان النيل ، يأخذ فلاحو مصر بحراثة الأرض وزراعتها ، ويحتاجون لذلك بين خمسين يوما إلى ستين (٧) ، مبتدئين من شهر بابه القبطي (٢٧ أيلول-٢٦ تشرين الأول) (٨) ، ويختلف عدد الحرثات التي تحتاج اليها الأرض وفقا لنوع المحصول ، فيحتاج القطن والدخن إلى حرثات كثيرة ، وكلما زادت نعومة التربة ، كان أفضل للحاصل ، ويحتاج القمح إلى ثلاث حرثات ، والشعير من حرثتين إلى ثلاث ، وأما القطاني فأفضلها ما زرع بعد الحرثة العاشرة (٩) .

١- النويري ، نهاية ، ج٩، ص ١٠٣ -١٠٤ / العيني ، البناية ، ج ١٠ ، ص ٦١٥ / ابن مفلح ، المبدع ، ج٥ ، ص ٥٣ / الغمراوي ، السراج ، ص ٢٨٦ .

٢- الغمراوي ، السراج ، ص ٢٨٦ .

٣- النويري ، نهاية ، ج ٩ ، ص ١٠٤ / الدمشقي ، كفاية ، ص ٣٩٠ .

٤- البغدادي ، الإفادة ، ص ٦٨ .

٥- البكري ، المسالك ، ج١ ، ص ٥١٥ / الحميري ، الروض ، ص ٤٤٥ / مجهول ، الاستبصار ، ص٩٠-٩١ .

٦- البلقيني ، التجرد ، ص ٧٧ ب .

٧- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٧٨ / المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٣ ، ص ١٢٠٩ ، ١٢١٢ / ابن ظهير الحنفي ، روضة الأريب ، ص١٠٨٢ / البكري ، النزهة ، ص ١٣١ أ .

٨- القلقشندي ، صبح ، ج ٢ ، ص ٤١٠ - ٤١١ .

٩- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

وتعد الأبقار والثيران من أهم الحيوانات التي يجب على الفلاح امتلاكها ؛ لأنها الأساس الذي تقوم عليه كثير من العمليات الزراعية ، وعلى رأسها الحراثة ، فيستطيع الزوج من الثيران أن يحرث في اليوم الواحد ثلثي فدان فما دون من الأرض الصلبة ، وفدانا فما دون من الأرض اللينة (١) ، وتبلغ أجرة زوج الثيران أربعة دراهم فضية ، يدفعها المستأجر ، وعلى المؤجر توفير العلف والمحراث (٢) ، ومن الفلاحين من يستأجر زوج الثيران بإردبين من القمح (٣) .

ويستعمل في مصر نوعان من المحاريث وهي البلدية (راجع الشكل رقم ١)، وتتكون في الوجه القبلي من قطعتين من الخشب ، إحداهما أفقية والأخرى عمودية ، وتتصلان ببعضهما بزاوية خمسين درجة إلى ستين ، ويمكن توسيع هذه الزاوية وتضييقها بوتد ينفذ في ثقب بالقطعة العمودية ؛ وفي أسفل القطعة العمودية السلاح الحديدي ، وطوله ٢٠ سم وعرضه ١٣ سم ، وفي نهاية القطعة الأفقية النير ، الذي يصل أفقيا بين الثورين ، ويربط بحبال ليف (٤) . والمحاريث الكبار المعروفة بالمقلقلات ، وتستعمل لحراثة الأرض المعدة لزراعة قصب السكر (٥) .

ويلجأ الفلاحون في حراثة بعض المناطق المرتفعة ، كتلك التي بين سقارة وبني سويف ، إلى استعمال المجرفة ، ويتطلب الفدان الواحد عشرين يوم عمل (٦) ، وفي بعض المناطق ، يكتفون بتسوية سطح الأرض ، بتكسير القطع الطينية الكبيرة التي جلبها النيل في أثناء الفيضان (٧) .

وعند استكمال الحراثة وتجهيز الأرض ، يبدأ الفلاحون بذر البذور بأنفسهم أو بوساطة عمال يحملون جعاب البذور على أكتافهم ، ويستخدمون وسائل كثيرة لتغطية البذور ، كإطلاق الحيوانات ذوات الأظلاف كالثيران والأغنام والماعز ، لتدوسها بأظلافها وتدفنها في التربة (٨) ، أو بتمرير قطعة من الخشب يجرها بين أربعة رجال إلى خمسة ، أو جذع نخلة يجرها ثوران (٩) ، أو بتغطية البذور بلوح من الخشب لحمايتها من الندى والرطوبة التي تنتج من النهر (١٠) ، أو بحرثة خفيفة (١١) .

١- البكري ، النزهة ، ص ١٣١ أ .

٢- ابن ظهير الحنفي ، روضة الأريب ، ص ١٠٨٢ .

٣- البكري ، النزهة ، ص ١٣١ أ .

٤- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج١ ، ص ٢٢ - ٢٤ .

٥- النويري ، نهاية الأرب ، ج ٨ ، ص ٢٦٤ .

٦- علماء الحملة الفرنسية ، ج ١ ، ص ٢٤ .

٧- سيد مرعي ، الزراعة ، ص ٤٧ .

٨- نفس المصدر ، ص ٤٨ .

٩- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج١ ، ص ٢٤ ، ٤٤ ، ٦٢ / عبد الفتاح وهيبه ، جغرافية مصر ، ص ٧١ .

١٠- Suriano , Treatise , P 194 .

١١- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج١ ، ص ٦٤ .

ويستعمل المزارع الأزبال للتسميد ، وتصنف إلى أنواع كثيرة من ناحية الفائدة والأهمية للنباتات ، وفقا للترتيب التالي : زبل الحمام ، وزبل الخيل والبغال والحمير ، وزبل الآدمي ، والزبل المضاف المجموع من الكناسات ، وزبل الغنم والبقر ، ورماد الحمامات ، والزبل المولد المستخرج من وضع العشب والتبن والرماد في حفرة وصب الماء عليه وتقليبه مرارا (١) ، والزبل المستخرج من حرق أصول النباتات كالشعير والقمح وأوراق التين ، على أن يضاف رماد كل شجرة أو نبتة إلى مثلها (٢) .

ويقوم الفلاحون بالتزبيل في الفترة بين آب وكانون الثاني ، وتزداد الحاجة إلى الزبل كلما انخفضت درجة الحرارة (٣) ، ويجب أن يراعى في الزبل المستعمل ، ألا يقل عمره عن عام ؛ لأنه مضر قبل ذلك ، ويكثر خروج الديدان منه ، وأفضله ما بلغ عمره عامين إلى ثلاثة (٤) .

والمصادر الأساسية للزبل عند فلاحي مصر الحيوانات والطيور ، كالحمير والأبقار والدجاج والحمام ، ثم السماد المضاف ، الذي يعرف بأسماء كثيرة كالسماد الكفري والمروج والسباخ ، ويحتل الرماد والتراب أعلى نسبة فيه . ويتميز باحتوائه على نسبة عالية من نترات الصوديوم والبوتاس الذي تفتقر إليه أراضي مصر ، ويستخرج السماد المضاف في منطقة الصعيد من الهضبات المحاذية لنهر النيل ، في حين يعتمد أهل الدلتا على استخراجه من خرائب المدن والقرى (٥) .

تتم عملية التزبيل بوسائل كثيرة ، فإما أن يضع الفلاح الزبل بالساقية ، أو يرشه على سطح الأرض (٦) ، أو يحفر له حفرة تحت الشجرة المراد تزبيلها ، وخاصة عند تزبيل الكروم ، مع مراعاة عدم وضع كميات تزيد على الحاجة ، وعدم ملامسة الزبل للجذوع والأوراق ؛ لأنه يؤدي إلى إحراقها (٧) .

أما الأشتال فيستخدم الفلاحون وسائل كثيرة للحصول عليها ، كالبذور في الرمان والخشخاش (٨) ، والنوى في النخيل والخيار شنبر (نوع من الخروب) والجوز والخوخ (٩) ، على ألا يزيد عمر البذور

١- ابن بصال ، كتاب الفلاحة ، ص ٤٩ - ٥٢ / أبو الخير الأندلسي ، كتاب الفلاحة ، ص ٨٩ - ٩١ / مجهول ، مفتاح الراحة ، ص١١٢ ، ١١٥ - ١١٨ .

٢- الغزي ، جامع فوائد ، ص ٣٤ .

٣- نفس المصدر ، ص ٢٠ .

٤- ابن بصال ، كتاب الفلاحة ، ص ٥٠ / أبو الخير الأندلسي ، كتاب الفلاحة ، ص ١٠ - ١١ .

٥- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج٢ ، ص٢٠٤ / عبد الفتاح وهيبه ، جغرافية مصر ، ص٥٥ / محمد الحويري ، أسوان ، ص٨٦ .

٦- الغزي ، جامع فوائد ، ص ٣٣ / مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ١٣٥ .

٧-الغزي ، جامع فوائد ، ص ٣٤ / مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ١١٨ .

٨- مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ١٣٢ ، ١٦٨ .

٩- ابن بصال ، كتاب الفلاحة ، ص ٨٨ ، ١٧٣ / النابلسي ، علم الملاحة ، ص ٣٦ / ابن الوردي ، خريدة ، ص ٢٠١ .

عن سنة واحدة (١) ، كما يتكاثر بعضها بوساطة الفسوخ كالبلسان (٢) ، أو الملوخ ، بتمييل الأغصان وغمرها بالتراب أو زراعتها على السواقي حتى تنبت لها جذور (٣) ، أو بأوتاد ، يتراوح طول الوتد بين شبر وشبر ونصف (٢٤-٣٦سم) ، وسمكه سمك ذراع ، وقبل غرسه في الأرض يصنع وتد من بلوط أو خشب صلب ، يدق في الموضع الذي يراد الزراعة به ، ثم يخرج ويوضع الوتد المأخوذ من الشجرة مكان الوتد الخشبي ويضاف إليه التراب المخلوط بالزبل (٤) ، ويتميز الكباد المصري بأنه لا يتكاثر إلا بالأوتاد (٥) . وأخيرا بوساطة التكبيس ، بأن يقصد إلى الفروع التي تقوم حول الشجرة ، ويحفر لها حفر طويلة وتوقر فيها الفروع ، وتخرج أطرافها على الوجه ، ويطرح عليها التراب ، وتترك على تلك الحال حتى تتم عامين ، وهي من أفضل الوسائل ؛ لأنها تنقل في أي وقت من أوقات السنة (٦) . وتنقل الغراس بشتى أصنافها بعد عام أو عامين من زراعتها .

وقد أدرك أهل الفلاحة ضرورة نقل الغراس مع تربتها ؛ لأن الأشجار لا تنبت أو تضعف ولا تثمر إذا نقلت من غير تربتها الأصلية (٧) ، ولذلك لجأ الفلاحون إلى التشتيل ، باستعمال أدوات فخارية مخرومة من الأسفل ، ومملوءة بالتراب والزبل ، وعند نقل الغراس للزراعة في الأرض ، يكسر الإناء ، مع مراعاة عدم تخلخل التربة (٨) ، وهذا الأسلوب ساعد بعض السلاطين على نقل أنواع النباتات والأشجار التي كانت بالشام وزراعتها في مصر (٩).

وعند زراعة الغراس في البساتين يجب مراعاة أمور كثيرة ، كعمق الحفرة ، الذي يتقرر بناء على نوع الغرسة،واختيار الوقت الملائم، بناء على الأوضاع المناخية السائدة في المنطقة، ففي المناطق الباردة ، تبدأ بعد كسر حد الشتاء ، وفي الحارة في فصل الخريف من تشرين الأول - كانون الأول (١٠) ، والالتزام بالبعد المناسب بين الأشجار، خوفا من تشابك الأغصان والجذور ، فيضعف إنتاجها (١١) ، وأخيرا مراعاة بعض النواحي الجمالية ، كزراعتها في خطوط مستقيمة ، وعدم زراعة التي تعظم مع التي لا تعظم ، والتي تتساقط أوراقها مع التي لا تتساقط (١٢).

وقد مارس الفلاحون التطعيم بأنواعه المختلفة ، ويشير المقريزي وابن تغري بردي إلى أن مصر قد عرفت صناعة التطعيم في سنة ٧١٣ هـ / ١٣١٣ م وأصبحت المهنة الأساسية لسكان جزيرة الفيل ، وذلك عندما جلب الناصر محمد بن قلاوون المطعمين من بلاد الشام للاعتناء بالأشجار التي زرعها في بستانه (١٣) ، ومن الصعب

١- الغزي ، جامع فوائد ،ص ٣٧٠ .
٢- البغدادي ، الإفادة ، ص ٨١ .
٣- الغزي ، جامع فوائد ، ص ٧٤- ٧٦ .
٤- نفس المصدر ، ص ٧٧ .
٥- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ٥١ .
٦- ابن بصال ، كتاب الفلاحة ، ص ٦٥ - ٦٦ .
٧- ابن بصال ، كتاب الفلاحة ، ص ٦٠ / مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ١٩٨ .
٨- الغزي ، جامع فوائد ، ص٧٣ / النابلسي ، علم الملاحة ، ص ٣٤ .
٩- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ١٧٢ ، ١٩٥ .
١٠- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ٣١ .
١١- الغزي ، جامع فوائد ، ص٦٤ / النابلسي ، علم الملاحة ، ص ٣٠ .
١٢- الغزي ، جامع فوائد ، ص ٦٤ .
١٣- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق ١ ، ص ١٣٠ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٩ ، ص ٣٢ .

الوثوق بمثل هذه الرواية ؛ فالبغدادي (ت٦٢٩هـ / ١٢٣١م) يشير إلى أن أهل مصر كانوا يركبون أصناف الأترج على بعضه ، فتتولد أصناف كثيرة جدا (١) ، ويركبون النخل على القلقاس ؛ لأنهما من جنس واحد (٢) ، وربما أريد بهذه الرواية أن أهل مصر في هذه الفترة عرفوا كيفية تطعيم الأشجار والورود الشامية ، التي لم تكن تزرع في مصر ؛ لأن معظم الورود والأشجار في بستان الناصر جلبت من بلاد الشام .

ويستعمل في التركيب سكين حادة ، لأخذ الأقلام ، وشق اللحاء ، وتشبه في شكلها السكين التي يستعملها الحداد لتشفير حوافر الدواب (٣) .

وتحتاج الأشجار إلى التقليم ، ويمتد موسم تقليمها ما بين طوبة (٢٦ كانون الأول- ٢٤كانون الثاني) وأمشير (٢٥ كانون الثاني ـ ٢٣ شباط) ، وتقلم الكرمة في برمهات (٢٤ شباط ـ ٢٥ آذار) ، والسدر في برموده(٢٦ آذار - ٢٤ نيسان) (٤) . ويتناول التقليم تنظيف ما يطلع على العروق من فروع ، وما جف من الأغصان ، حتى تنتقل المادة للأقوى (٥) .

ويختلف التقليم من شجرة إلى أخرى ، فمنها ما لا يحتاج إلى التقليم الكثير ، كالنارنج والليمون وأشباههما من الأشجار التي لا تتساقط أوراقها ، وتزداد الحاجة للتقليم في ذوات الألبان كالتين ، والمتساقطة الأوراق، كالتوت والجوز والكرمة (٦)، ويستعمل في كسح الكرمة المنجل، لقطع الأغصان الغلاظ ، واليد لقطع الرقاق (٧) .

وتحتاج معظم الأشجار إلى التأبير ، وتختلف من شجرة إلى أخرى ، فمثلا يكون تلقيح شجرة النخل بأخذ كش من النخل المذكر، حينما تصبح الثمار كالأقماع ، وتحريكها فوق النخلة (٨) ، أو بأخذ خمس حبات من النخل المذكر، ونظمها في خيط وتعليقها على الشجرة المراد تأبيرها ، أو الاعتماد على حركة الرياح وهبوبها ، من الجهة التي يكون فيها الذكور(٩)،بينما تتلقح أشجار النارنج والأترج بالليمون ، والتين بالتين الذكر،وهو الفج الأبيض(١٠).

١- البغدادي ، الإفادة ، ص ٨٩ .

٢- عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٢٨٣ ب .

٣- ابن بصال ، كتاب الفلاحة ، ص ٩٦ .

٤- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٧٢ / ابن إياس ، نشق ، ص ٤٠ أ .

٥- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٧٣ / النابلسي ، علم الملاحة ، ص ٥٩ ، ٦١ .

٦- الغزي ، جامع فوائد ، ص ٢٣٨ / النابلسي ، علم الملاحة ، ص ٥٧ ، ٥٩ - ٦٠ .

٧- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ٨٦ .

٨- الغزي ، علم الملاحة ، ص ٢٤٩ .

٩- أبو الخير الأندلسي ، كتاب الفلاحة ، ص ١٠٩ .

١٠- الغزي ، جامع فوائد ، ص ٢٤٥ .

ويعالج الفلاح الحشرات والآفات بمجموعة من الأدوية المركبة ، التي يمكن تصنيفها إلى الفئات التالية : الأدوية التي تؤثر على الحشرة بملامسة جسمها ، ودهن الغصن المصاب (١) ، والأدوية التي تؤثر عن طريق الجهاز التنفسي(٢) ، والأدوية العصارية التي تضاف لمياه الري (٣) ، كعلاج سوسة قصب السكر ، وذلك بوضع القطران في قادوس مبخوش من الأسفل ، وسد البخش بالحلفاء ، وتعليق القادوس فوق الجدول ، وصب الماء به للامتزاج مع القطران ، ليتسرب من البخش على شكل نقاط ، فيمتزج مع الماء ، ويصل إلى القصب (٤) ، وأخيرا الأدوية الوقائية، كعلاج المن بدهن جذوع الأشجار ببعض المواد ، التي تمنع وصول النمل إلى الأغصان (٥) ، لإدراك الفلاحين وجود علاقة تبادلية بين النمل والمن ، إذ يحضن النمل بيض المن حتى يفقس ، ويعيد يرقاته إلى الأغصان للاستفادة من المواد السكرية الناجمة عن امتصاصه لعصارة النبات .

ويقضى على الأعشاب الضارة كالحلفاء بزراعة الترمس والخربق* حتى النضج ، ثم تقلع وتلقى على الأرض ، وتضرب بالخشب ، ويجرى الماء عليهما حتى يتعفنا ، وبذلك يأكلان أصول الحلفاء وما عداها من الحشائش الضارة ، في حين يعالج النجيل (الثيل) والشوك ، باستخراج مادة سامة من خلط أوراق البنج والترمس والصفصاف ، أو الغلي المتكرر للماء العذب ، وإضافة ورق الحلتيت (صمغ الأنجذان) والخربق بعد دقهما دقا ناعما ، ثم صب الماء على الأصول بعد قلعها (٦) .

أما الوسائل التي اتبعها الفلاح للتخلص من الفئران ، فهي تدخين جحورها بمادة القطران أو القار ، وهذا يؤدي إلى هربها ، واستعمال مادة الرهج الشديدة السمية ، التي تعرف بسم الفأر ، وتصوير بعض الحيوانات كالكلاب والأسود والقطط ، ونصبها على أعواد من الخشب وتفريقها في مواضع مختلفة من المزرعة (٧) ، وبناء الجدران المقلوبة الرأس حول مزارع قصب السكر ، فإذا ما تسلق الفأر ووصل إلى أعلى الجدار ، منعته تلك الحافة وأصابت رأسه ، فيسقط على الأرض (٨) .

وتبدأ فترة حصاد المحاصيل الشتوية نهاية شهر آذار وبداية شهر نيسان، فمنها ما تقلع جذوره كالقطاني ، ومنها ما يقطع بالمنجل كالقمح والشعير . والمنجل أداة معدنية نصف دائرية ، ومسننة من الداخل ، ولها مقبض خشبي (٩) . ويراعى عند حصاد الشعير أن يكون فيه لدونة ، وأن يكون القمح يابسا ، والقطاني عندما يكون فيها بعض الرطوبة. ويحزم الشعير والقمح في أثناء الحصاد إلى حزم صغيرة تجعل سنابلها باتجاه المشرق، وموضع قطع المنجل باتجاه المغرب (١٠)، لتجمع فيما بعد في جرن القرية أو في مكان يخصصه

١- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ٨٤ - ٨٥ ، ٩١ - ٩٢ .
٢- نفس المصدر ، ص ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ .
٣- نفس المصدر ، ص ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٤ .
٤- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٦٣ .
٥- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ٩٤ - ٩٥ .
* الخربق :- نبات له ورق أبيض وأسود كلسان الحمل ، وزهر أحمر اللون .
٦- النويري ، نهاية ، ج ١١ ، ص ١١ - ١٣ .
٧- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٧٤ - ١٧٦ .
٨- النويري ، نهاية ، ج ٨ ، ص ٢٦٧ .
٩- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٢١٨ .
١٠- أبو الخير الأندلسي ، كتاب الفلاحة ، ص ١٦ / النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١١٠ .

الفلاح لذلك (١) .

وبعد جمع المحاصيل في الجرن (بيدر القرية) ، بدوائر تبلغ من ١٥ - ٢٠ م ، يباشر الفلاحون دراسها ، فيفكون قسما منها وينثرونها نثرا دائريا ، لدرسها بالآلة المعروفة بالنورج . والنورج آلة على شكل مقعد خشبي ، تسير على عجلات صغيرة ، يبلغ عددها إحدى عشرة عجلة ، مثبتة في ثلاثة محاور ، وبينها سكاكين دائرية ، ويجرها زوج من البقر ، يدوران في حلقة دائرية فوق الحبوب ، فتعمل الثيران بأظلافها لتخليص الحبوب من السنابل ، والسكاكين لتقطيع القش ليصبح أعلافا للحيوانات ، ويتميز النورج المستخدم في الوجه البحري بثقله ، ودقة صنعه ، مقارنة بالنورج المستخدم في بلاد الصعيد ، وأما النورج المستخدم للأرز في دمياط ورشيد ، فهو أكبر حجما من النورج المستخدم للحبوب (٢) .

وفي أثناء الدراس تضاف حزم جديدة في كل نصف ساعة، وتبدل الثيران في كل ساعة ، ويجمع القش الذي هرس على أطراف الجرن ، ليعمل المذري لتذريته وتخليص الحب من التبن بالمذراة . والمذراة آلة خشبية على شكل شوكة ، إذ يقذف المذري القش المهروس بها إلى الأعلى ، فتطير الريح التبن ، وينزل الحب لثقل وزنه ، ويستغرق دراس الفدان من يوم إلى يومين ونصف ، وتعطي كل ٧٢ حزمة ما يقرب من ١٢٥ كغم تقريبا (٣) .

ويلجأ الفلاحون إلى استعمال العصي ، لفصل حبوب بعض المحاصيل ، فيخلص الترمس بضربه بالعصي بعد أن يجف تماما (٤) ، والذرة كذلك ، إذ يحتاج العامل إلى عشرة أيام للحصول على محصول فدان واحد(٥). وأما السمسم فيجمع في حزم صغيرة يضعها الفلاح على سطح بيته ، أو في مناطق تخصص لذلك ، من غير بسطها بل يسند بعضها بعضا ، حتى تجففها الشمس وتتفتح أغلفة ثمارها ، ثم تضرب هذه الحزم بالعصي لكي تخلص البذور (٦) ، ويلاحظ أن استعمال العصي يكون في المحاصيل التي تستعمل عروقها وقودا ، ولا تستخدم غذاء للحيوانات (٧) .

أما الأرز ، فيطرح لتقشيره في مزاود مصنوعة من الجلود ، فتملأ منه وتضرب بالمرازب (عصا من خشب البلوط أو الحديد)، ويدق شيئا بعد شيء ، وقد يضاف إليه الملح للإسراع في تقشيره ، ثم يغربل ما دق،

١- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج ١ ، ص ٢٤ - ٢٥ .

٢- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج ١ ، ص ٢٦ ، ج٣ ، ص ٢٢٦ / إدوارد لين ، عادات المصريين ، ص٢٤٥ / Kelly , Egypt , P 184 .

٣- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج١ ، ص ٢٦ .

٤- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج ١ ، ص ٦٥ .

٥- نفس المصدر ، ص ٥١ .

٦- ابن بصال ، كتاب الفلاحة ، ص ١١٤ .

٧- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج ١ ، ص ٢٦ ، ٧٨ .

ليخرج ما تقشر منه ، ويعاد ما لم يتقشر ليضرب مرة ثانية (١) .

نظام الري :-

أدى انخفاض كمية الأمطار السنوية في مصر ، واقتصارها على بعض المناطق الشمالية ، وانعدامها تقريبا في بلاد الصعيد (١) ، إلى اعتماد الحياة الزراعية على نهر النيل ، بوصفه مصدرا وحيدا لمياه الري . وتوقف القدرة الإنتاجية على كمية المياه السنوية التي يجلبها هذا النهر عند فيضانه ، وقدرة الدولة على إنشاء وصيانة شبكات الري ، وإتقان الجسور لري المحاصيل الشتوية والصيفية ، واهتمام الفئات السكانية بمعرفة مقادير الزيادة السنوية لمياه النيل ، وحرص الأمراء والسلاطين على الاستحواذ على الأراضي القريبة من ضفاف نهر النيل والخلجان ، لضمان ريها السنوي ، وتخفيض تكاليف الري ، وعدم تعطلها حتى في سنوات انخفاض مستوى نهر النيل .

ولأهمية الزيادة السنوية لمياه النيل ، حاول المصريون منذ القدم إدراك أسبابها ، وتوصل العرب منذ القرن الثالث الهجري إلى أن السبب الحقيقي يعود إلى الأمطار الغزيرة التي تسقط على الحبشة (زنجبار / الإقليم الأول والثاني) ، وتمتد من شهر نيسان حتى شهر تشرين الأول (٢) .

ومن مظاهر العناية بزيادة النيل الأساليب المتعددة للتنبؤ بها ، فشاع بين الناس أن الزيادة تحسب بالنظر إلى مقدار النيل في اليوم الأول من مسرى (٢٤ تموز)، وزيادة ثمانية أذرع عليها، حتى ادعى

١- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٣٤٤/ الغزي ، جامع فوائد ، ص ٣٨٦ .

٢- البغدادي ، الإفادة ، ص ٦٧ / ياقوت ، معجم ، ج٥ ، ص ٣٣٥ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٥٦ / السيوطي ، حسن ، ج٢ ، ص ٢٠٦ / الحلبي ، نيل مصر ، ص ١٩ب / الحنفي ، تاريخ مصر ،ص ٥٣ ب / ابن السباهي ، أوضح المسالك ، ص ٩ب / محمد معتوق ، ذكر كلام الناس ، ص ٤ ب / Suriano ,Treatise . P194 / مجهول ، تاريخ نهر النيل ، ص١٠ب . وحول الأسباب الأخرى انظر : ياقوت ، معجم ، ج٥ ، ص ٣٣٤ / ابن الوردي ، خريدة ، ص١٦٣/ المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٩٢ / السيوطي ، حسن ، ج٢ ، ص ٢٠٥ / ابن إياس ، نشق ، ص ٢٠٣ب / الحنفي ، تاريخ مصر ، ص ٥٣ ب / محمد معتوق ، ذكر كلام الناس ، ص ٢ب - ٥ أ / مجهول ، تاريخ نهر النيل ، ص ٨ أ - ١٠ ب .

البعض أن ذلك لا يخطئ (١) ، ومنهم من يأخذ طينا معلوما عندهم في ليلة محددة يزنه في الصباح ، فيجدونه قد زاد ، فيحكم على مقدار الزيادة ، وقوم يتكهنون بحمل النخل ، وآخرون بتعسل النخل(٢)، وكان أهل أسوان عندما تحين الزيادة في بونه (حزيران) ، يضعون قنديلا على صخرة معروفة عندهم، فإذا زاد الماء وطغى عليها ، أرسلوا البشارة لأهل مصر بأنها ستكون سنة جيدة (٣) . بينما كان قبط مدينة أرحنوس ، يحتفلون في الخامس والعشرين من بشنس (أيار) بعيد بئر سيرس ، الذي يفيض فيه الماء بعد بضع ساعات من النهار ، ويدعون أن تلك الزيادة في البئر تتوافق مع زيادة النيل (٤) .

وتعد المقاييس الطريقة الأكثر دقة وأهمية ، لمعرفة تدرج زيادة النيل ، فتذكر المصادر عددا من المقاييس التي تعود إلى قبل الإسلام والفترة الإسلامية ، ومن أهمها في الفترة المملوكية المقياس الجديد أو الهاشمي ، الذي يعود بناؤه إلى سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م ، عندما أمر الخليفة المتوكل واليه على مصر يزيد بن عبد الله بن دينار ببنائه ، وعزل النصارى عن القياس ، فعين أبا الرداد المعلم ، الذي أصبحت هذه الوظيفة بيد أبنائه منذ ذلك التاريخ (٥) .

وتقع دار المقياس في الطرف الجنوبي من جزيرة الروضة ، وصفتها برج عظيم ، ودائر هذا البرج بسطتان ليردا عنه جريان الماء ، وفي داخل البرج أبنية كثيرة على عمد ، وفي الجهة الشرقية منه الشباك الذي كان يعلق عليه الستار الخليفتي ، للدلالة على وفاء النيل ، وفي جانب الدار فسقية عظيمة وعميقة ، تحتوي على المقياس ، وبينها وبين دار المقياس باب فقط (٦) .

ويتكون المقياس من عمود رخام أبيض مثمن ، ويقسم إلى عدد من القطع ، قدر كل واحدة منها ذراع سوداء (٧) ، يبلغ طوله (٥٤,٠٤سم) (٨) ويختلف عددها ، فيذكر ابن دقماق أنها تسع عشرة قطعة(٩) ، ويبين المقريزي والحميري أنها اثنتان وعشرون قطعة (١٠) ، ويرى الباكوي أنها أربع

١- ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٣٩٣ / مجهول ، تاريخ نهر النيل ، ص٩٦ أ، ١٠٠ أ .

٢- البغدادي ، الإفادة ، ص ١٥٦ .

٣- ياقوت ، معجم ، ج٢ ، ص ١٦٦ / المقريزي ،خطط ، ج١ ، ص ٥٥ .

٤- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٠٣ .

٥- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٧٥ / ياقوت ، معجم ، ج ٥ ، ص ١٧٨ / ابن دقماق ، الإنتصار ، ج ٥ ، ص ١٧ / القلقشندي ،صبح ، ج ٣ ، ص ٣٢٧ / الصوفي ، الصفوة ، ص ١٠ أ - ١٠ ب / السيوطي ، حسن ، ج ، ص٢٢٠-٢٢١ / ابن إياس ، نشق ، ص ٢٠٥ ب -٢٠٦ أ ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ١٥٣ -١٥٤ / محمد معتوق ، ذكر كلام الناس ، ص ١٩ ب / مجهول ، تاريخ نهر النيل ، ص ٢٦ ب - ٢٧ أ .

٦- ابن دقماق ، الإنتصار ، ج ٤ ، ص ١١٤ / قاسم عبده قاسم ، النيل ، ص ٤٢ .

٧- ابن الأخوة ، القربة ، ص ٨٧ .

٨- هنتس ، المكاييل والأوزان ، ص ٨٣ ، ٨٨ .

٩- ابن دقماق ، الإنتصار ، ج ٤ ، ص ١١٤ .

١٠- المقريزي ، خطط ، ج ١ ،ص ٥٩ / الحميري ، الروض ، ص١٨٣ .

وعشرون قطعة (١) ، وابن إياس أنها ثمان وعشرون قطعة (٢) . ويبلغ طول كل ذراع من الإثني عشرة الأولى ، ثمانية وعشرين إصبعا ، والتي تليها أربعة وعشرين إصبعا (٣) ، وينقسم كل إصبع إلى ستة أقسام (٤) . ويدخل الماء إلى فسقية المقياس بوساطة ثلاثة مسارب ، بعضها فوق بعض ، يبلغ طول الواحد منها ٧٠ ذراعا (٤٠,٥ م) (٥) .

وتحتاج مصر لاكتمال ريها في كل سنة إلى زيادة منتظمة ومتدرجة وثابتة ، وتظهر علامات الزيادة منذ الخامس من بونه (حزيران) ، وفي الثاني عشر منه يكون عيد ميكائيل عند القبط ، فيزيد النيل في تلك الليلة ، ويؤخذ القاع لأجل أخذ القاعدة (٦) . ولا يتم النداء وإعلان الزيادة ، قبل السابع والعشرين من بونه ، فتعلن الزيادة بالأصابع دون الأذرع ، إذ يأخذ صاحب المقياس مقدار الزيادة في عصر كل يوم ، ليعلنها المشاعلية في صباح اليوم التالي ، في حين يكتب للأعيان ، من الأمراء وأصحاب السيف والقلم ، كقاضي القضاة وكاتب السر وناظر الخاص وناظر الجيش والمحتسب ، أوراقا بمقدار الزيادة ، وما بلغ إليه النيل من الأذرع والأصابع ، وما كان عليه في السنة الماضية من اليوم نفسه ، مع عدم السماح للعامة بالاطلاع على ذلك ، حتى يتم الوفاء ببلوغه ستة عشر ذراعا ، وعندها فقط يصرح لهم بالأذرع (٧) ؛ لأن معرفتهم بالأذرع ، وتوقف الزيادة في بعض الأيام ،كانت تحدث اضطرابات اجتماعية ، وتدفع الدولة إلى التوقف عن النداء في بعض الأحيان (٨) .

وتستمر زيادة النيل طوال شهر أبيب (تموز) ومسرى (آب) وتوت (أيلول) ، ثم يأخذ بالانخفاض بعد اثني عشر يوما من انتهاء الزيادة ، وغالبا ما يكون الانخفاض في الفترة بين ٤ - ٢٠ بابه (تشرين الأول) ، وبذلك تكون مدة الزيادة ثلاثة أشهر وخمسة وعشرين يوما ، تروي معظم أراضي

١- الباكوي ، كتاب تلخيص ، ص ٣٠ ب - ٣١ أ .

٢- ابن إياس ، نشق ، ص ٢٠٦ ب .

٣- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ / المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ٥٩ / ابن إياس ، بدائع ، ج١، ق١، ص١٥٤ / محمد معتوق ، ذكر كلام الناس ، ص ٢٢ أ .

٤- الباكوي ، كتاب تلخيص ، ص ٣٠ ب .

٥- ابن دقماق ، الإنتصار ، ج ٤ ، ص ١١٤ .

٦- ابن إياس ، نشق ، ص ٢٠٤ ب .

٧- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٣٢٥ .

٨- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٨٠٩ ، ٨١١ ، ٨٦٣ .

مصر سقية كافية لزراعة المحاصيل الشتوية (١) .

واصطلح على أن الوفاء يكون عندما يصل النيل إلى ست عشرة ذراعا (٩,٧٣ م) ، وغالبا ما يتم ذلك في النصف الأول من شهر مسرى (آب) ، وإذا ما تأخر الوفاء أو تقدم عن ذلك يعد أمرا نادرا . ويطلق على هذه الست عشرة ذراعا ماء السلطان ، لاستحقاق الخراج عند بلوغ هذا القدر ، ولذلك كانت الدولة تهتم بإعلان ذلك ، بكسر سد خليج أبي المنجا ، بمشاركة السلطان نفسه ، كما في عهد السلطان برقوق ، أو بإخراج مرسوم لكبار الأمراء والأعيان بذلك ، والاحتفال بالافتتاح حتى صباح اليوم التالي . ويكون هذا القدر من الزيادة قادرا على ري نصف الأراضي وتوفير حاجة مصر للسنة القادمة ، وأي زيادة بعد ذلك لها أهميتها ، فزيادة إصبع واحد بعد ذلك يكفي لري ١٠,٠٠٠ فدان ، في حين أن زيادة ذراع واحد تكفي لزيادة الخراج بنسبة قدرت بمئة ألف دينار ، لما يروى من الأراضي العالية ، والزيادة بعد الثماني عشرة ذراعا تعرف في مصر باللجة الكبرى ، إذ تعمل لاستبحار ربع الأراضي ، أي بقاء النيل فوق الأرض الزراعية مدة تزيد على حاجة الأرض ، وتؤدي إلى فوات موسم الزراعة (٢) .

ولا تتساوى زيادة النيل في كل المناطق ، فإذا كان في مقياس الروضة ثماني عشرة ذراعا ، يكون في بلاد الصعيد اثنين وعشرين ذراعا ، لارتفاع الأراضي التي يمر عليها (٣) ، ولا يرتفع عند مصبي رشيد ودمياط أكثر من ذراعين في كل عام (٤) .

ومنذ بداية القرن ٩ هـ / ١٥ م تغيرت معظم هذه القواعد ، ما عدا علامة الوفاء ، ويعزى ذلك إلى عدم إتقان الجسور ، وإهمال مشروعات الري ، وارتفاع منسوب الأراضي ، بسبب ما كان يرسبه النيل من الغرين في كل سنة ، وأصبحت الزيادات متقاصرة وهي ست عشرة ذراعا وما حولها ، ومتوسطة وهي من سبع عشرة ذراعا إلى ثمانية عشر ذراعا ، وعالية فوق ثماني عشرة ذراعا ، وربما زادت إلى العشرين (٥)، وأصبحت الست عشرة ذراعا لا تروي سوى الأراضي المنخفضة تماما ، وإذا بلغت

١- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٧٤ / القلقشندي ، صبح ، ج٤ ، ص٣٢١ - ٣٢٢ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٥٩-٦٠ / ابن إياس ، نشق ، ص ٢٠٤ ب ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ١٥٥ / محمد معتوق ، ذكر كلام الناس ، ص ٥ أ / مجهول ، تاريخ نهر النيل ، ص ١١ أ .

٢- البغدادي ، الإفادة ،ص١٠٢ / البكري ، المسالك ،ج١، ص٥٠١ -٥٠٢/ شيخ الربوة ، نخبة ، ص ٩٠ / القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٣٢٠ - ٣٢٢ / المقريزي، خطط ، ج ١ ، ص ٥٩ - ٦٠ / الحميري ، الروض ، ص ٤٤٢ - ٤٤٣ / السيوطي ، حسن ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ ، ٢٢١ / محمد معتوق ، ذكر كلام الناس ، ص ٣ أ / مجهول ، تاريخ نهر النيل ، ص٣١ أ - ب .

٣- النويري ، نهاية ، ج ١ ، ص ٢٦٣ / شيخ الربوة ، نخبة ، ص ٩٠ / محمد معتوق ، ذكر كلام الناس ، ص ٣ أ .

٤- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج١ ، ص ١٤ .

٥- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٣٢٩ / قاسم عبده قاسم ، النيل ، ص ١٥ .

الزيادة إلى سبع عشرة ذراعا فلا تروي جميع الأراضي (١) .

ويذكر المقريزي أنه منذ سنة ٨٠٦ هـ/ ١٤٠٣ م إذا بلغ النيل إصبعا من عشرين لا يعم الأراضي كلها ، في حين كانت هذه الزيادة في الفترة السابقة تؤدي إلى غرق الضياع والبساتين (٢) ، وأن ما يعرف باللجة الكبرى قديما ، وهو ثماني عشرة ذراعا فأصبحت سببا للغلاء والمجاعات (٣) .

وأدى عدم وجود قاعدة محددة تحكم زيادة النيل وتناقصه ، وعدم وفائه في الوقت المناسب (النصف الأول من شهر مسرى / آب) ، والهبوط السريع ، وعدم ثبات الزيادة حتى يتمكن الفلاحون من استكمال ري النواحي المختلفة ، وعدم إتقان الجسور ، وإهمال مشروعات الري ، أدى ذلك كله إلى تكرر سنوات الشراقي في الفترة المملوكية الثانية (٤) ؛ ففي سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م كسر خليج أبي المنجا دون وفاء النيل ، وهذا أدى إلى شراقي غالب البلاد (٥) ، وفي سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ م تأخر الوفاء عن موعده فشرق عدد كبير من بلاد الصعيد والوجه البحري (٦) ، وفي سنة ٨٥٤ هـ / ١٤٥٠ م أدى عدم الوفاء ، انخفاض منسوب المياه في الخلجان ، فشرق غالب ضواحي القاهرة كالمطرية وبركة الحبش وعدد من البلاد القبلية والبحرية ، وعم البلاء جميع الناس ، حتى ارتفع سعر إردب القمح إلى خمسة دنانير (٧) .

ويؤدي وقوع الزيادة في غير أوانها إلى أضرار في الإنتاج الزراعي، وتعجيل الزيادة يؤدي إلى إغراق المحاصيل الصيفية ؛ ففي سنة ٨٣٤هـ/١٤٣٠م أدى تقدم الزيادة إلى إغراق مزارع البطيخ والسمسم (٨) ، وعندما حدثت الزيادة في الواحد والعشرين من بشنس (أيار) سنة ٨٣٨ هـ/

١- ابن إياس ، نشق ، ص ٢٠٥ أ .

٢- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٥٩ .

٣ - المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٦١ / محمد معتوق ،ذكر كلام الناس ، ص٢٣ أ / مجهول ، تاريخ نهر النيل ، ص٣١أ.

٤- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٥٤٨ ، ٨١٧ ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١١١٥ ، ١١٣٠ ، ج٤ ، ق ١، ص٥٠٠ ، ٥٠٣ ، ٥٠٥ ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٦٩ ، ٦٧٢ ، ٧٥٢ ، ٧٦٤ ، إغاثة ، ص ٤١ / ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٤٧ ، ١٥٠ ، ٢٨٨ ، ٣٣٦ ، ٣٤٧ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١٢ ، ٢٨٨ ، ج ١٥ ، ص ١٧١ ، ج ١٦ ، ٢٨١ ، حوادث ، ج ١ ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٣٠٣ / الصيرفي ، نزهة ، ج ١ ، ص ١٣٤ ، ٣٩١ ، ج٣ ، ٥٧ / السخاوي ، وجيز ، ج١ ، ص٣٧١ ، ج٢ ، ص ٦٤٧ ، التبر ، ص ٣١٠ ، ٣١٢ / عبد الباسط ، نيل ، ج ١ ، ١٩٤ أ ، ٢٥٣ أ ، ٢٨٤ أ ، ٢٩٩ ب – ٣٠٠ أ ، ٣٢٨ أ / ج٢ ، ٣٣٨ أ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق ٢ ، ص ٣٧٥ ، ٦٨١ ، ج٢، ١١٦ ، ١٢٢ ، ج٣ ، ص٢٠ ، ٢١١ ، ٣٦٩ – ٣٧٠ ، ج٤ ، ص ٥٥ ، ٥٩ ، نشق ، ص٢١٧ ب ، ٢٢١ أ ، ٢٢٧ب / محمد معتوق ، ذكر كلام الناس ، ص٦٠ ب / مجهول ، تاريخ نهر النيل ، ص٩٣ ب ،٩٤أ.

٥- المقريزي ، السلوك ،ج٣، ق٢، ص١١٥/ابن تغري بردي ،النجوم،ج١٢ ،ص٢٨٨ / ابن إياس ، نشق ،ص ٢١٧ ب.

٦- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٦٩ / ابن حجر ، إنباء ، ج ٨ ، ص ٤٧ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ٥٧ / عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٢٨٤ أ .

٧- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج١ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٣٠٣ / السخاوي ، وجيز ، ج٢ ، ص ٦٤٧ ، التبر ، ص ٣١٠، ٣١٢ / ابن إياس ، نشق ، ص ٢٢١ أ .

٨- ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٢٣٦ / الصيرفي ، نزهة ، ج ٣ ، ص٢٢٨ ، ٢٣٩ ،– ٢٤٠ ، ٢٤٩ / السخاوي، وجيز، ج٢ ، ص ٥١٤ / عبد الباسط ، نيل، ج ١، ص ٣١٩ أ.

١٤٣٤م غرق كثير من الأمقثة والسمسم والبطيخ بالجزائر (١) ، وزاد النيل في سنة ٨٤٥ هـ /١٤٤١ م في الرابع من بونه (حزيران) فغرق الأمقثة (٢) ، وقد تحصل زيادة متأخرة عن أوانها وتودي الى الإضرار بالفلاحين ، فقد نجم عن الزيادة في العشر الأخير من هاتور (تشرين الثاني) سنة ٨٢٤ هـ /١٣٢٣ م - بعد انتهاء وقت الزيادة بأربعين يوما - إغراق بذور البرسيم ، وهذا ما دفع الفلاحين الى إعادة البذر مرة ثانية (٣) ، وتكرر ذلك في سنة ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م ، عندما زاد النيل في منتصف هاتور ثمانية أصابع ، فغرقت البذور التي بذرت في منطقة الجيزة عند هبوط النيل (٤) .

ويؤدي إلى فوات أوان الزراعة ثبات النيل إلى ما بعد العشرين من بابه (تشرين الأول) ، حيث يغمر الماء المناطق المنخفضة (٥) ، ففي سنة ٧٩٨ هـ /١٣٩٥ م ثبت النيل إلى السادس من هاتور (تشرين الثاني) على ثمانية عشر إصبعا من تسع عشرة ذراعا ، وأدى ذلك إلى فوات أوان الزراعة (٦) ، وفي سنة ٨١٢ هـ /١٤٠٩م ثبت إلى منتصف هاتور ، فغرق ما يقرب من مئتي ضيعة ، وعدد من البساتين في جزيرة الفيل (٧) ، واستمرت الزيادة في سنة ٨٢٤ هـ/ ١٣٢٣ م إلى العاشر من هاتور ، فغرق كثير من الزروع ، وتأخر الفلاحون عن أوان الزراعة (٨) ، ودخل السادس عشر من هاتور سنة ٨٢٩ هـ / ١٤٢٥م والنيل في تسع عشرة ذراعا (٩) ، وثبت سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م و ٩١٩ هـ / ١٥١٣م و٩٢١هـ / ١٥١٥م و ٩٢٢ هـ/ ١٥١٦م إلى منتصف هاتور ملحقا الضرر بالفلاحين (١٠) .

ويلاحظ أن زيادة النيل تشكل العنصر الأساسي لنظام الري في مصر ، وهذا ما دفع الدولة والسكان من الفلاحين وأهل المدن إلى مراقبة هذه الزيادة ، ومعرفة تقدمها التدريجي ؛ لأنها تقرر حالة الرخاء ، أو المجاعة للسنة القادمة ، والقضية الأساسية للزيادة ليست في عدد الأذرع التي يصل إليها النيل عندما يصل إلى الذروة في نحو منتصف شهر توت (أيلول) ، بل ثبات النيل بعد ذلك لفترة تتراوح بين ٢٠ - ٣٠ يوما ، لكي يستكمل

١- المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق١ ، ص ٩٣١ ، ٩٧٤ / ابن حجر ، إنباء ، ج ٨ ، ص ٣٣٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥٤ / ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص ١٥١ .

٢- ابن حجر ، إنباء ، ج ٩ ، ص ١٥٥ ، ١٥٩ / السخاوي ، التبر ، ص ١١ -١٢ / عبد الباسط ، نيل ، ج ٢ ، ص٣٧أ .

٣- ابن حجر ، إنباء ، ج ٧ ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

٤- ابن إياس ، بدائع ، ج ٤ ، ص١٦٠ ، ١٧٢ .

٥- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٣٢٨- ٣٢٩ .

٦- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد٢، ج٢ ، ص ٤٤١-٤٤٢/ المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٨٤٩ / الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص٤٢٠ .

٧- ابن حجر ، إنباء ، ج ٦ ، ص١٧١ / عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٢١٤ أ / ابن إياس ، نشق ، ص ٢١٧ ب - ٢١٨ أ .

٨- ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٤٣٠ - ٤٣١ .

٩- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٢٩ .

١٠ - ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ١٦٠ ، ١٧٢ ، ٣٩٦ ، ٤٧٣ ، ٤٧٨ ، ج ٥ ، ٨١ ، ٨٤ ، نشق ، ص ٢٢٩ أ - ب .

الفلاحون ري المناطق المختلفة ، وأي خلل في الزيادة من تقدم أو تأخر ، يؤدي إلى حدوث آثار سلبية في الإنتاج الزراعي ، وحتى يستفيد الفلاحون من ذلك ، لا بد لهم من إقامة الجسور ، وتطهير الخلجان في كل سنة .

وللإفادة من الزيادة ، وحبس المياه في الخلجان ، حتى يستوفي أهل النواحي ري مناطقهم ، والتغلب على تفاوت ارتفاع الأراضي الزراعية ، وحماية الأراضي المنخفضة من التحول إلى مستنقعات ، احتاجت بلاد الوجه البحري إلى إنشاء الجسور ، وهي سدود تتكون من التراب والحشائش التي تعرف باللبش ، وعدد من المراكب التي تحمل بالطين والحجارة ، وتغرق في النهر . وقد احتاج السلطان الناصر محمد بن قلاوون لإنشاء جسر حكر ابن الأثير إلى اثني عشر مركبا ، حمولة كل واحد منها ألف إردب من الغلة ، وثلاثة عشر ألف مركب مملوءة بالحجارة، سوى الأخشاب والحلفاء (١). ويبلغ طول الجسور الكبيرة كجسر المقياس نحو ٢٣٠ قصبة (٩٠٧,٧ م) (٢) ، والجسر الذي أنشأه الأمير منجك ، بين جزيرتي أروى والروضة ، ثلاثمئة قصبة (١١٩٧ م) ، وعرضه عشر قصبات (٣٩,٩م) (٣) ، كما استخدمت هذه الجسور طرقا لربط القرى مع بعضها ، ونقل المحاصيل في أثناء فيضان نهر النيل (٤) .

وتقسم الجسور إلى قسمين : البلدية وهي الخاصة النفع بناحية دون أخرى ، ويتولى إقامتها المقطعون والفلاحون من أصل مال الناحية ، ولا تتدخل الدولة فيها ؛ لأن منفعتها خاصة ، وإذا ما انفصل المقطع في أثناء السنة ، فإنه يأخذ من المقطع الجديد ما أنفقه على إقامة الجسور في تلك السنة (٥) . وتختلف حاجة الفدان من الجسور الصغيرة التي يتراوح ارتفاعها بين ٢٠ - ٣٠ سم ، مع درجة القرب من مصادر المياه ، فالفدان القريب من نهر النيل يحتاج إلى مثتي جسر ، في حين يزداد العدد كلما ابتعدنا عن النهر (٦) .

والقسم الآخر هو الجسور السلطانية ، العامة النفع ، ومهمتها الحفاظ على البلاد ، وحمايتها من الغرق أثناء الفيضان ، وتقع مسؤولية إنشائها وصيانتها على عاتق الدولة ، التي كانت تستخرج لها رسوما من النواحي المختلفة ، ليصرف جزء منها على بنائها ، ويحمل ما يزيد منها إلى خزينة الدولة (٧) . وقد بلغ مصروف هذه الجسور زمن الناصر محمد بن قلاوون ربع خراج الإقطاعات (٨)، إلا أن هذه الأوضاع تغيرت بعد وفاته ،

١- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٤٠٠ -٤٠١ / ابن تغري بر دي ، النجوم ، ج ٩ ، ص ٩٧ .

٢- مجهول ، تاريخ نهر النيل ، ص ٨١ أ.

٣- المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، ق٢ ، ص ٤٦٩ -٤٧٠ .

٤- محمد المناوي ، نهر النيل ، ص ١٣٥- ١٣٦ .

٥- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٣٣ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥١٦ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠١ / ابن ظهور الحنفي، روضة الأريب ، ص ١٠٨٣ / ابن شاهين ، زبدة ، ص ١٢٩ .

٦- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج ١ ، ص ٤٨ .

٧- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٣٢ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥١٥ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠١ .

٨- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٣٠٦ .

وأصبحت مسؤوليتها تقع على عاتق الأعيان ، ثم أهملت الدولة عمل الجسور في عهد السلطان فرج بن برقوق ، وأدخلت كل أموالها إلى الخزينة ، وسخرت الناس للعمل (١) .

ويقع العبء الأكبر في إنشاء الجسور السلطانية والبلدية على كاهل الفلاحين الذين سخروا لذلك ، إذ تعمل الدولة على تحديد مكان الجسر وقياساته ، وتوزيعه أقصابا على الأمراء والمقطعين الذين سيستفيدون من إنشائه بما يتناسب مع حجم إقطاعاتهم ، ثم يجمع هؤلاء الأمراء الفلاحين من النواحي والقرى التي تقع فيها إقطاعاتهم ، مع الأدوات اللازمة لذلك ، كالجرافات والمحاريث والأبقار (٢) . كما استخدمت الدولة في بعض الأحيان معظم فئات الشعب من فلاحين وتجار وعمال ، وأمراء ومماليك ومتصوفة ، وباعة متجولين ، ويهود ونصارى (٣) ، واستخدمت القوة في جمع هذه الفئات ، فقد هددت الدولة عند إنشائها الجسر بين الجامع الجديد الناصري وجزيرة الروضة بشنق كل من يفتح دكانا ، لكي يتوجه التجار للعمل ، وفي سنة ٩١٤هـ/ ١٥٠٨ م ، ألقت القبض على العوام والفلاحين، وربطتهم بسلاسل من حديد ، للتوجه بهم لإصلاح جسر أم دينار الذي تعتمد عليه منطقة الجيزة(٤) .

وتبرز أهمية الجسور في حفظ المناطق المنخفضة من الغرق ، وذلك بإقامة الجسور العرضية الموازية للنهر أو الترع أو الخلجان ، ولحجز مياه الفيضان فوق الأراضي . وتمتد هذه الجسور بين الصحراء والنيل في منطقة بلاد الصعيد ، ومن الشرق للغرب في بلاد الوجه البحري (٥) . وترفع الجسور التي تقام داخل الخلجان منسوب المياه لمستوى الأراضي العالية التي لا تصل إليها مياه الفيضان وصولا طبيعيا ، فتفتح كل مجموعة من الجسور ضمن فترات تحددها الدولة ، ففتح جسر خليج أبو المنجا عند إعلان الوفاء ، لتسير المياه إلى حد معين تقف عنده ، ليروي البلاد التي تحته ، ثم في عيد النوروز (٢٧ آب /١توت) تفتح السدود النوروزية ، لتصل إلى حد معين لتروي البلاد التي تحتها ، وتستمر حتى عيد الصليب في(١٧ توت / ١٤ أيلول) ، حيث تفتح السدود الصليبية ، ، ثم تفتح هذه السدود فيما بعد لتصريف المياه الزائدة إلى بحيرة التمساح (٦) ، وغالبا ما تغلق هذه السدود بعد انتهاء موسم الفيضان ، وبداية تراجع النيل ، لحصر المياه فيما بينها، والإفادة منها لأطول فترة ممكنة (٧) .

وتنتدب السلطنة في كل سنة أميرا لكل ناحية ، لصيانة الجسور ، يطلق عليه لقب كاشف التراب أو

١- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠١ .

٢- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٤ ، ص١٣ / المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ١٦٦ ، ١٧٠ / البكري ، قطف ، ص ١٣١ أ ، ١٣٢ أ .

٣- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١٣ ، ص ١٧٩ - ١٨١ .

٤- ابن إياس ، نشق ، ص ٢٢٨ أ .

٥- عبد الفتاح وهيبه ، جغرافية مصر ، ص ٦٥ .

٦- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢١٨ - ٢٢٧ / ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ج ١ ، ص ١٤١ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٥٧ .

٧- Lane Poole , Cairo , P 234 .

كاشف الجسور (١) ، وقد تجمع هذه الوظيفة في بعض الأحيان إلى والي المنطقة (٢) ، ما عدا منطقة الجيزة التي تختص دائما بوجود كاشف لها (٣) . ويكون لكل منطقة ديوان خاص ، يشرف عليه كاتب منفرد ، وفيه ما على كل منطقة من الجراريف والأبقار والمقلقلات ، وعدد الخولة والمهندسين الذين سيساعدون الكاشف (٤) . وتؤخذ خطوط الولاة بأنه قد تم إنجاز الجسور ، حسب المراسيم السلطانية ، وأي خلل في ذلك يعاقب عليه الوالي ، وتصادر أمواله (٥) .

وقد تخلت السلطنة عن مسؤولياتها منذ بداية القرن التاسع الهجري ، فاقتصرت عمارة الجسور على الشيء اليسير الذي لا يستفاد منه ، ولولا الزيادة العالية ووصول النيل إلى ما فوق العشرين ذراعا (٦) ، لعانت مصر المجاعات المستمرة ، كما أهمل الكشاف واجباتهم ، فركزوا على جمع الأموال لهم ولأعوانهم ، بدلا من صرفها على الجسور (٧) ، واستبدلت الدولة بجمع الرجال والأبقار المقرر على الفلاحين في كل عام من أجل صيانة الجسور ، ضريبة نقدية تجمعها للخزينة (٨) .

ونجم عن إهمال الجسور إضعاف نظام الري ؛ لأن انقطاع الجسور يودي إلى انخفاض زيادة النيل في غير أوانها ، وقبل استكمال ري النواحي المختلفة ، وتكرار سنوات الشراقي (٩) ، حتى عندما يبلغ النيل ارتفاعا عاليا، فبالرغم من وصوله سنة ٨٣٩ هـ /١٤٣٥ م إلى عشرين إصبعا وعشرين ذراعا ، فقد شرقت نواح من الجيزة ، كانت تروى من ست عشرة ذراعا (١٠) ، كما ألحق أضرارا إقتصادية بليغة ، إذ أتلف المحاصيل الصيفية من البطيخ والمقاثي والسمسم والنيلة (١١) ، وأغرق الغلال وهي في الجرون سنة ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨ م (١٢) ، وعددا من القرى والنواحي كبلدة زفتة (١٣) ، وبلدة شبرا وناحيتها سنة ٨٣٨ هـ/ ١٤٣٤م (١٤) . وفي سنة ٨٥٩ هـ /

١- ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٩١ - ٩٢ / ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ج١ ، ص ١٧٢ / المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق ٢ ، ص ٥٤٤ ، ٧٦٦ / الصيرفي ، نزهة ، ج ٣ ، ص ٢٧٧ ، إنباء ، ص ٤١ / عبد الباسط ، نيل ، ج ١ ، ص ٢٠٧ أ ، ٢١٥ أ ، ٢١٨ أ .

٢- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥١٥ .

٣- نفس المصدر ، ج٤ ، ص ٦٦ .

٤- نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٥١٥ .

٥- نفس المصدر ، ج ١٣ ، ص ١٠٢ .

٦- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٥١٦ .

٧- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق ٢ ، ص ٦٧٨ .

٨- نفس المصدر ، ص ٨٧٤ .

٩- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق ٢ ، ص ٦١٨ / العيني ، عقد ، حوادث ٨٢٤- ٨٥٠ ، الطنطاوي ، ص ٢٠٨ .

١٠- ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٣٧٠ .

١١- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٧٤ / ابن حجر ، إنباء ، ج ٩ ، ص١٥٥ / عبد الباسط ، نيل ، ج ١ ، ق ٣٢٢ب .

١٢- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق ٢ ، ص ٨٠٦ ، ٨٧٤ / عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٣٢٢ب .

١٣- ابن حجر ، إنباء ، ج ٨ ، ص ١٧٤.

١٤ نفس المصدر ، ص ٣٣٢ .

١٤٥٤م أغرق غالب البلاد التي تحت جسر بحر أبي المنجا بعد انقطاعه ، ومنطقة شبين القصر ، إذ وصلها الماء قبل أوانه ، فأغرق معظم غلال الفلاحين وزروعهم (١) . وأدى انقطاع الجسور سنة ٨٨٢ هـ /١٤٧٧م إلى غرق شبرا والروضة والفسطاط ، وغالب دور القاهرة وكوم الريش وبولاق وجزيرة الفيل (٢) ، كما شرق أجزاء كثيرة من الفيوم والجيزة بين سنتي ٩١٥ - ٩٢٢ هـ / ١٥٠٩ -١٥١٦م بسبب انقطاع جسورها (٣) .

وأدى صغر مساحة الأراضي التي يرويها النيل بفيضانه الطبيعي إلى إنشاء شبكة منظمة من الخلجان والترع ، تكفي لتنظيم استغلال زيادة النيل ، ووصول المياه إلى أكبر مساحة ممكنة ، بدلا من غمر الأراضي عشوائيا ، والإضرار بالإنتاج الزراعي ، وتتمشى هذه الخلجان في شقها مع الانحدار العام للسطح ، ويكون مستوى قاعها منخفضا حتى مستوى ماء النهر وقت التحاريق ، فتجف بعد انتهاء الفيضان (٤) ، إلا أن الفلاحين كانوا يغلقون أفواهها منذ بداية تراجع النيل ، لحبس أكبر كمية ممكنة من المياه (٥) .

وتتركز هذه الخلجان في منطقة الوجه البحري ، بسبب اتساع أرضها مقارنة ببلاد الصعيد ، التي تمتد أراضيها الزراعية ضمن شريط ضيق من الأراضي الخصبة ، المنتشرة على ضفاف نهر النيل (٦) ، ويبتدئ افتتاحها منذ إعلان الدولة للوفاء ، ثم يفتح قسم آخر وقت النوروز (١توت) ، وفي عيد الصليب (١٧ توت) لا يبقى خليج ولا ترعة إلا فتحت (٧) .

واشتهر في مصر سبعة خلجان ، منها في الوجه القبلي خليج الفيوم ، الذي يبتدئ من قرية ديروط السربام (ديروط الشريف) ، ويسير باتجاه شمالي مواز لحافة الصحراء الغربية، فإلى الشرق من مدينة البهنسا التي تعتمد عليه في الري ، وأخيرا إلى سد اللهون ، نسبة لبلدة اللهون ، إحدى قرى الفيوم (٨) ، فيبلغ طوله من مبتدئه حتى دخوله لإقليم الفيوم نحو ٢٧٢ ميلا (٩) ، ويسقي الفيوم طوال السنة ، ويصب الماء الزائد في بحيرة قارون (١٠) ،

١- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج ٢ ، ص ٥٤١ - ٥٤٢ .

٢- ابن إياس ، نشق ، ص ٢٢٤ أ .

٣- ابن إياس ، بدائع ، ج ٤ ، ص ١٥٩ ، ٢٩١ ، ٣٢٩ .

٤- عبد الفتاح وهيبة ، جغرافية مصر ، ص ٦٧ .

٥- المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ١٠٧- ١٠٨ / ابن إياس ، نشق ، ص ٢٠٩ أ .

٦- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٠٦ / المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ٧٠ ، ابن إياس ، نشق ، ص ٣٦ أ / الحنفي ، تاريخ مصر والنيل ، ص ٦٦ ب / Kelley , Egypt , P 183 .

٧- ابن بطوطه ، رحلة ، ج ١ ، ص ٥٧ / القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٣٢١ / ابن إياس ، نشق ، ص ٢٠٨ أ ، ٢٧٦ أ .

٨- الإدريسي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٣٠- ١٣١ / النابلسي ، تاريخ ، ص ١١ - ١٢ / أبو الفداء ، تقويم ، ص ١٠٧ / القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠ / المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ٧١ / ابن السباهي ، أوضح ، ص ٣٥ ب .

٩- قاسم عبده قاسم ، النيل ، ص ٣٠ .

١٠- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أحمد باشا ، ص ٦٩ .

وقد سهل ريه لمنطقة الفيوم ارتفاعه عن مستوى أراضيها (١) .

ويتكون سد اللاهون من بناء من الحديد والرصاص والحجر ، لمنع المياه من التسرب إلى المنطقة الصحراوية القريبة ، وهو مدرج على ستين درجة ، وفيه فوارات عليا لري الأراضي المرتفعة ، ووسطى لري الأراضي المتوسطة ، وسفلى لري الأراضي المنخفضة ، بقدر لا يزيد ولا ينقص (٢) ، مع تحديد عدد القبضات لكل قرية بناء على مساحة أراضيها الزراعية (٣) . وتغلق فوهة اللاهون عندما يصل النيل إلى اثنتي عشرة ذراعا ، وهي الفوهة التي يخرج منها الماء أيام النيل ، وتدخل فيه المراكب ، ويستعمل في إغلاق الفوهة القطعة ، وهي جذع نخلة ملفوف بالقش وحبال الليف ، يجذبه عدد من الرجال يقفون على ضفة الخليج حتى يوجهوه نحو الفتحة بمساعدة المياه (٤) ، وبحضور أمراء النواحي ومهندسيها وشهودها وأهلها ، حتى لا يبقى عذر لمن يدعي نقص الماء (٥) ، ولا ينقطع جري الخليج بسبب عيون تنفجر منه (٦) .

وتتوزع بقية الخلجان في بلاد الوجه البحري ، ومن أشهرها خليج القاهرة ، الذي يعتقد أنه عرف بقناة سيزوستريس زمن الفراعنة (٧) ، وقد جدد حفره عمرو بن العاص سنة ٢٣ هـ/ ٦٣٤م ليتصل بالسويس ، لارسال الميرة إلى بلاد الحجاز . ويبتدئ من شمال الفسطاط ، ويمر في الجانب الغربي من مدينة القاهرة ، حتى مدينة عين شمس ، ويعتقد أنه كان يبتدئ منها قديما ، ثم يسير في الجزء الجنوبي من عمل الشرقية، لكن نهايته طمت سنة ١٤٥هـ / ٧٦٢م لقطع الإمدادات عن ثورة محمد النفس الزكية ،وأصبحت عند بحيرة ذنب التمساح (٨). ويتراوح عرضه بين ٥-١٠ م (٩) ، ويعرف الآن بقناة الإسماعيلية (١٠) ، ويفتح السد الذي عليه عند إعلان الوفاء ، ببلوغ النيل إلى ست عشرة ذراعا ، ويقام لافتتاحه احتفال يحضره العامة والخاصة (١١) .

١- ياقوت ، معجم ، ج٤ ، ص ٢٨٦ .

٢- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٣٣٠ / مجهول ، الإستبصار ، ص ٦٩ .

٣- ياقوت ، معجم ، ج ٤ ، ص ٨٧ / النابلسي ، تاريخ ، ص ١١ ، ٣١ ، ٣٤ / ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أحمد باشا ، ص٧٠ / القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٣٣٠ / الصوفي ، الصفوة ، ص ١٤ أ - ب .

٤- النابلسي ، تاريخ ، ص ١٢ / قاسم عبده قاسم ، النيل ، ص ٣٠ - ٣١ .

٥- الحميري ، الروض ، ص ٤٤٥ .

٦- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أحمد باشا ، ص ٧٠ / القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٣٣٠ / الحنفي ، تاريخ مصر والنيل ، ٦٧ ب / الحسن بن محمد الصفدي ، كتاب يذكر تاريخ مصر وفضلها ، ص ١٤ ب - ١٥ أ .

٧- قاسم عبده قاسم ، النيل ، ص٣٠ .

٨- ياقوت ، معجم ، ج ٢ ، ص ٣٨٦ / ابن عبد الظاهر ، الروضة البهية ، ص ١١٥ - ١١٦ / ابن دقماق ، الإنتصار ، ج ٤ ، ص١٢٠ / القلقشندي، صبح، ج ٣، ص ٣٣١ / المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ٧١ ، ج ٢ ، ص ١٣٣ ، ١٣٩ - ١٤٠ ، ١٤٢ / السيوطي، حسن، ج ٢، ص٢٢٨ /محمد معتوق ، ذكر كلام الناس ، ص٣٢ أ - ب / الحنفي ، تاريخ نهر النيل ، ص٦٧ أ - ب .

٩- جومار ، وصف مصر ، ص ١٥٧ .

١٠- محمد المناوي ، نهر النيل ،ص ١٢٧ .

١١- المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

وقد أعاد السلطان الناصر سنة ٧٢٤ هـ /١٣٢٣ م حفر خليج الذكر لضعف جريان الماء فيه ، وسماه الخليج الناصري ، لإيصال المياه إلى الخانقاة السرياقوسية ، ونقل الغلال إلى سكانها ، ويبتدىء فمه من عند موردة البلاط ، من أرض بستان الخشاب ، التي تعتبر أخفض بقعة ، على بعد ٩٠٥,٢٥٦ م للشمال من مدينة القاهرة ، ليمر بالميدان الظاهري الذي أنشأه السلطان الناصر ، بدلا من ميدان القبق ، ثم إلى بركة قرموط ، وإلى بركة الطبالة ، ليصب في خليج القاهرة ، ويروي البساتين التي حول مجراه (١) ، إلا أن السلطان جقمق أعاد حفر خليج القاهرة ، وألغى الخليج الناصري ، وجعله جزءًا من خليج القاهرة (٢) .

وتقدم المزارعون إلى الأفضل أمير الجيوش سنة ٥٠٦ هـ/ ١١١٢م لحفر خليج لري عمل الشرقية ، الذي كان يشرق معظم بلاده ، بسبب عدم قدرة خليج السردوس على إمداده بالمياه ، فحفر خليج أبي المنجا ، الذي استمر العمل فيه لمدة سنتين ، حتى انتهى إلى مدينة بلبيس قصبة عمل الشرقية (٣) ، ولأهميته لهذه المناطق اتخذ بعض الأمراء والسلاطين يوما له كخليج القاهرة (٤) ، فكان يفتح سده في ٢٢ توت (١٧ أيلول) ، ثم تغير إلى عيد الصليب في ١٧ توت (١٢ أيلول)(٥) ، واستقر منذ بداية القرن التاسع الهجري في عيد النوروز ١توت (١٧ آب) حرصا على استكمال ري البلاد (٦) .

ويتفق تاريخ حفر خليج الإسكندرية مع بناء المدينة سنة ٣٣ ق.م ، لري منطقة الإسكندرية وبلاد مريوط والبحيرة (٧) ، وعرف بخليج شابور أيضا (٨) ، وتعتمد مدة جريان الماء فيه على مستوى الفيضان ، فيبدأ دخول الماء إليه عندما يرتفع النيل إلى ثلاث عشرة ذراعا بعدما كان يحتاج إلى اثنتي عشرة ذراعا ، كما أنشئ له ثلاثة سدود لحجز المياه فيه بعد انخفاض مياه نهر النيل وتراجعها (٩) .

وكانت فوهة هذا الخليج من أسفل مدينة بيج عند قرية الظاهرية(١٠) ، إلا أن الملك الناصر محمد بن

١- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٤٥/ السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص٢٦١ / ابن تغري بردي ، النجوم ،ج٩ ،ص٦٧ / ابن إياس ،بدائع ، ج١، ق١، ص٤٥٥ / البكري ، قطف ، ص١٢٠ب ، ١٢١أ /محمد المناوي ، نهر النيل ، ص١٢٣/ Popper , Egypt , I , P 25

٢- ابن إياس ، نشق ، ص ٢٣١ أ .

٣- ابن عبد الظاهر ، الروضة البهية ، ص ١٢٨ -١٣٠ / أبو الفداء ، تقويم ، ص ١١٩ / ابن دقماق ، الإنتصار ، ج ٥ ، ص ٤٦ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ / المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ٧١ ، ٧٢ ، ٤٨٧/ ابن إياس ، نشق ، ص٣٨ أ / ابن السباهي ، أوضح ، ص ٣٤ أ / الحنفي ، تاريخ مصر والنيل ، ص ٦٦ ب .

٤- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٣٣٦ .

٥- ابن دقماق ،الإنتصار ، ج ٥ ، ص ٤٧ .

٦- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٣٣٧ .

٧- قاسم عبده قاسم ، النيل ، ص ٢٩ - ٣٠ .

٨- الإدريسي ، نزهة ، ج ١ ، ص ٣٣١ .

٩- النابلسي ، لمع القوانين ، ص ٣٥ أ - ب .

١٠- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٣٣٤ .

قلاوون حولها في سنة ٧١٠ هـ /١٣١٠م إلى فوهة العطف مقابل مدينة فوة (١) ، ليبلغ طوله نحو ثلاثين ألف قصبة حاكمية (١١٩,٧كم) ،وعرضه من قصبتين ونصف إلى ثلاث قصبات ونصف (٩,٩٧٥-١٣,٩٦م) ، بعمق ست قصبات (٢٣,٩٤م) (٢) ، لكن المقريزي يشير إلى أن قياساته سنة ٨٤٠ هـ/١٤٣٦م أثبتت أن طوله ٢٣,٠٠٠ قصبة (٩١,٧٧كم) وعرضه عشر قصبات (٣٩,٩م) (٣) ، ويتصل معه خليج الطيرية الذي يبلغ طوله ست آلاف وستمئة قصبة (٢٦,٣كم) وعرضه ثلاث قصبات (١١,٩٧كم) ، ويروي بعض مناطق البحيرة (٤) .

وتحتاج الخلجان في كل فترة إلى التطهير من الترسبات الطينية التي يخلفها نهر النيل في كل سنة ، ولذلك حفر خليج الإسكندرية مرات كثيرة زمن الدولة المملوكية ، أولاها سنة ٦٦٤ هـ/١٢٦٥م عندما امتلأت فوهته بالطين ، وانخفضت نسبة المياه فيه (٥) ، ثم أعاد السلطان الناصر حفره سنة ٧١٠ هـ /١٣١٠م ونقل فمه إلى قرية العطف ، فاستمر الماء فيه صيفا وشتاء (٦) إلى ما يقرب من سنة ٧٧٠ هـ /١٣٦٨م ، حيث انخفضت نسبة المياه فيه مرة ثانية ، وهذا أدى إلى خراب أكثر بساتين الإسكندرية ، وتلاشي كثير من القرى التي نشأت عليه زمن السلطان الناصر (٧) ، وفشلت محاولة السلطان فرج بن برقوق في حفره سنة ٨٠٥ هـ/١٤٠٣م(٨) ، إلى أن أعاد السلطان برسباي في سنة ٨٢٦ هـ/١٤٢٢م تطهيره وحفره على أكمل وجه ، وجرت فيه السفن ، ورويت كثير من المناطق والسباخ (٩) ، ولم يستمر طويلا حتى احتاج إلى إعادة الحفر سنة ٨٤٠ هـ/ ١٤٣٦م (١٠) ، ولكن الرمل غلب عليه مرة ثانية ، ولم تستطع السفن السير فيه إلا أيام الزيادة فقط (١١) .

وتبتدئ فوهة بحر أبيار من عند قرية أبي نشابه ، على الفرقة الغربية من نهر النيل ، ويسير إلى الشرق من جزيرة بني نصر ، حتى يلتقي مرة ثانية مع نفس الفرقة ، عند قرية الفرستق من عمل الغربية ، بالقرب من مدينة أبيار المنسوب إليها هذا الخليج (١٢) .

١- بيبرس المنصوري ، كتاب التحفه ، ص ٢١٨ .

٢- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٢١ / المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ٧١ .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ١٠٠٦ .

٤- النويري ، نهاية ، ج ٣١ ، ص ٩٥.

٥- ابن عبد الظاهر ، الروضة البهية ، ص ١٩٣ ، ٢٨٩ / المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٥١٠ ، ٥٤٣ - ٥٤٤ .

٦- بيبرس المنصوري ، كتاب التحفه ، ص ٢١٨ / المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص ١١١- ١١٢ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٩ ، ص ١٥٤ .

٧- المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ١٧٢ / الحنفي ، تاريخ ، ص ٦٧ أ .

٨- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق٢ ، ص ٦٠٩ .

٩- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق٢ ، ص ٦٤٠ - ٦٤١ / عبد الباسط ، نيل ، ج ١ ، ص ٢٧٧ أ / ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص ٨٧ .

١٠- المقريزي السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ١٠٠٤ -١٠٠٥ / ابن حجر ، إنباء ، ج ٨ ، ص ٤٢٠ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص٣٧٩/ عبد الباسط ، نيل ، ج ١ ، ص ٣٤٩ ب / ابن إياس ، بدائع ، ج ٢ ، ص ١٧٤ .

١١- المقريزي ، خطط ، ج ١ ،ص ١٧٢ .

١٢- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٣١٨ .

أما خليج أشموم فينسب إلى أشموم طناح (أشموم الرمان) قصبة الدقهلية والمرتاحية (١) ، ويتميز بانخفاضه عن مستوى نهر النيل ، وجريان الماء فيه طوال السنة (٢) ، ويطلق عليه أيضا خليج الذهب لكثرة ما على شطه من البساتين (٣) ، وقد أعيد حفره سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١م (٤) .

ومن الخلجان الأخرى خليج المنزلة ، بين الدقهلية والمرتاحية (٥) ، وقد تم تطهير سنة ٨٥٥ هـ/ ١٤٥١م بعد أن كثرت فيه الرمال (٦) ، وخليج منف (٧) ، وخليج المحلة ويخرج من أسفل طنطا من جهة الغرب حتى يجاوز شرمساح فوهة خليج دمياط (٨) .

ويعتمد الري على بعض آلات الضخ لري الأراضي المرتفعة ، والزراعات الصيفية عند انخفاض مستوى نهر النيل ، ومنها آلة الشادوف (راجع الشكل ١) ، التي تعتبر أقدم الآلات لري المساحات الصغيرة ، وتكثر في بلاد الوجه القبلي ، لارتفاع أراضيه مقارنة بأراضي الوجه البحري ، وبساطة صنعه ، وانخفاض تكاليفه (٩) ، ويحتاج فدان واحد من القطن أو قصب السكر أو فدانين من الشعير إلى عمل ستة رجال من الصباح إلى الغروب ، وهذا يشير إلى انخفاض قيمته العملية (١٠) .

ويتكون الشادوف من ناطورين (مصطبتين) من طين على جانب البحر ، وفيهما نقرة مثل الحوض الصغير ، ويوصل بين الناطورين بخشبة صغيرة عرضية ، وتتجه مع ضفة النيل ، ثم تعلق عليها خشبة أيضا بالعرض ، وثلثاها من جهة النيل والثلث الآخر من جهة البر ، ويعلق ثقل في الجزء الذي من جهة البر ، ودلو أو قطوة من جهة البحر ، ويقف الفلاح على طرف النهر فينزل الدلو إلى النهر حتى تمتلئ ، ثم يتركها لترتفع بالثقل ، ويفرغها في الحوض ، ويسمون مجموع الآلة والناطورين(أبو شادوف)، أي الغرف (١١). وقد يستخدم ثلاثة طوابق من

١- ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٥ ، ص ٦٨ .

٢- النابلسي ، لمع القوانين ، ص ٣٦ أ .

٣- الوطواط ، مباهج ، ص١٢٧.

٤- بيبرس المنصوري ، مختار الأخبار ، ص ٢٣ .

٥- الصوفي ، الصفوة ، ص ١٥ أ .

٦- ابن تغربردي ، حوادث ، ج٢ ، ص ٣٢٣ / السخاوي ، التبر ، ص ٣٤٦ .

٧- ابن إياس ، نشق ، ص ٣٧ ب .

٨- الإدريسي ، نزهة ، ج ١ ، ص٣٤٠ / ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٥ ، ص ٨٢ .

٩- عبد الرحيم عبد الرحيم ، الريف المصري ، ص ٢٠٠ .

١٠- Lane Poole , Cairo , P 240 .

١١- الشربيني ، هز القحوف ، ص ١٦٢ / علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج ١ ، ص ٢٩ / إدوارد لين ، المصريون المحدثون ، ص ٢٤٣ / Lane Poole , Cairo , P 238 .

الشواديف ، وفقا لمدى ارتفاع الأرض المراد ريها ، ويستطيع العامل أن يرفع ٤٩ لترا من الماء في كل ١٦ ثانية ، إلى ارتفاع يبلغ بين ٢,٥ - ٢,٩ م (١) ، وتتكون الدلو من سعف النخل المبطن من الداخل بالجلد الأسود ، أو من الجلد (٢) .

وتحتل السواقي (راجع الشكل ٥) المرتبة الأولى من الناحية العملية ، وتعرف بالمحال (٣) ، والهمايل (٤) والنواعير (٥) ، وهي عجلات مسننة تكون الأولى منها أفقية ومثبتة بجذع شجرة عمودي ، تتصل بجذع آخر أفقي ، لربط الثيران والدوران ، ويتصل بالعجلة الأفقية عجلة عمودية ، تربط بها القواديس* (راجع الشكل ٦) التي تمتلىء عند انخفاضها بالمياه ، وعند الارتفاع تفرغ ما فيها من الماء في الحوض الموصل إلى ترعة الأرض المراد ريها . ويبلغ قطر هذه القواديس ١٦ سم ، وعمقها ٢٦ سم ، والمسافة بين كل قادوس والآخر ٥٠ سم ، والمحيط الذي تدور به الثيران ١٨,٨٦م ، وعدد دورات الثيران ١٥٠ دورة في كل ساعة ، وتستبدل الثيران كل ثلاث ساعات (٦) .

وتصنع السواقي من خشب السنط المشهور بالخرير (٧) ، وتركب على الآبار أو الترع أو الخلجان ، أو على خزان يصل الماء إليه بإحدى القنوات المشتقة من الترع (٨) ، أو على الأراضي المستبحرة (٩) ، وتكثر الزراعة على السواقي في بلاد الصعيد في سنوات الجدب (١٠) .

وتختلف قدرة السواقي على الري وفق نوع المحاصيل ، والقرب من نهر النيل ، وقوة الأبقار ، فيمكن لثماني أبقار أن تروي في كل يوم عشرة فدادين قريبة ، أو ثمانية من قصب السكر ، وسبعة فدادين بعيدة ، ومن ٤-٦ فدادين من القصب ، ومن الذرة من خمسة إلى ستة فدادين ، بطاقة إنتاجية تبلغ خمسة أضعاف الشادوف ، وكل خمسة وعشرين رأسا من البقر لا بد لها من رجل ينظر في مصالحها (١١) ، ويشرف على

١- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج ١ ، ص ١٩ / إدوارد لين ، المصريون المحدثون ، ص ٢٤٤ .

٢- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ .

٣- النويري ، نهاية ، ج ٨ ، ص ٢٥٤ .

٤- الغزي ، جامع فوائد ، ص ٣٩ .

٥- المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ٢٢٤ .

٦- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج ١ ، ص ١٨- ٢٠ ، ج٢ ، ص ١٤٩ - ١٥٠ ، ج٣ ، ٢٢٤ - ٢٢٥ .

٧- النابلسي ، لمع القوانين ، ص ٣١ ب / النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٥٤ .

٨- النويري ، نهاية ، ج ٨ ، ص ٢٥٣ / العيني، عقد ، حوادث ٨١٥ - ٨٢٤ ، الطنطاوي ، ص ٣٢٤ / ابن تغري بردي ، النجوم، ج ٩ ، ص ١٢٣.

٩- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٠٤ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥١٩ / المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ١٠١ / الغزي ، جامع فوائد ، ص ٣٩ .

١٠- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٣٤٤ .

١١- النويري ، نهاية ، ج ٨ ، ص ٢٦٦ / ابن ظهير الحنفي ، روضة الأريب ، ص ١٠٨٢ / البكري ، النزهة الزهية ، ص ١٣٠ ب - ١٣١ أ / علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج ١ ، ص ٤٩ / عبد الرحيم عبد الرحيم ، الريف المصري ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ / Lane poole , Cairo , P 240.

السواقي السلطانية الوزير ، وفي بعض الأحيان يعين لها شاد يعرف بناظر السواقي (١) .

ويكثر في بلاد الوجه البحري استعمال آلة تعرف بالتابوت لرفع المياه إلى ارتفاع بسيط ، ويمكنها رفع كمية أكبر مما ترفعه السواقي ، وتتشابه مع السواقي إلى حد كبير ، لكن الفرق الوحيد هو وجود تجاويف في جسم العجلة بدلا من القواديس (٢) .

ومن الآلات البسيطة التي تحتاج إلى جهد كبير آلة المنطال (راجع الشكل ٤) ، وهي قفة أو جردل ، مربوط بحبلين في كل طرف ، يمسك بهما فلاحون نصف جالسين على كومة من الطين ، فيقذفون القفة إلى الماء ، وعند امتلائها يحدثون حركة ارتداد إلى الخلف ، فترتفع القفة ، ثم تفرغ في خزان على مستوى الترعة(٣) .

وتحدد السلطنة نظام توزيع المياه وفقا لحاجات كل منطقة ، ومدة زيادة النيل ، فيحدد الوقت الذي يقطع فيه كل سد ، ومدة بقاء المياه محصورة في السدود ، وكمية المياه المقررة لكل قرية ، وتكون الوثائق المتعلقة بذلك بيد مشايخ البلاد ومهندسيها وخولتها ، ومع انتهاء فترة كل سد ، يقطعه الخولة ، ليسير الماء إلى مسافة معينة ، ويواجه سدا آخر يرفع مستوى المياه لري المناطق المحصورة بين السدين (٤) . ويحدد في منطقة الفيوم قبضات كل قرية ، وتوزع بوساطة المقاسم كما في بلاد الشام ، كما يحدد عدد الساعات التي تصل فيها المياه لكل قرية (٥) ، وتضع السلطنة الحراس على السدود خوفا من قطع الفلاحين أو أصحاب الإقطاعات الجسور قبل أوانها وسرقة المياه (٦) . وغالبا ما تروى أراضي كل قرية من ترعة رئيسية ، تشتق من أقرب خليج إليها (٧) .

ولم يتغير نظام الري بالأحواض في أثناء العصور ، إذ تقسم الأراضي إلى أحواض صغيرة وكبيرة ، تتراوح بين ٢٠٠٠- ٥٠٠٠ / فدان ، وقد تقسم إلى أحواض أصغر من ذلك ، تخصص لزراعة المحاصيل الصيفية ، وتتحدد هذه الأحواض بوساطة جسور عرضية ، تتصل بالتلال المجاورة ، أو بالجسور الطولية ، وتصل إليها المياه بوساطة إحدى القنوات (٨) ، ويوجد في نهاية الأحواض مصارف ، تفتح عند الحاجة للتخلص من المياه الزائدة ، أو تخفيف حدة ضغط الفيضان عند زيادة النيل العالية (٩) .

١- الصيرفي ، إنباء ، ص ٢١٤ / السخاوي ، التبر ، ص ٢١٥ ، الضوء ، ج ٧ ، ص ٦٣ .

٢- إدوارد لين ، المصريون المحدثون ، ص ٢٤٤ / عبد الرحيم عبد الرحيم ، الريف المصري ، ص ٢٠٠ .

٣- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ .

٤- المقريزي ، خطط ، ج ٢ ، ص ١٤٨ / البكري ، النزهة الزهية ، ص ٩٧ ب .

٥- البكري ، المسالك ، ج ١ ، ص٥١٤ / القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص٣٣٠ / الخالدي ، المقصد ، ص٨٥ أ / ابن شاهين ، زبدة، ص ٣٢ / ابن إياس ، نشق ، ص ٤٦ أ / مجهول ؟ وصف مصر ، ص ١٢٦ أ .

٦- المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٤ / المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ١٧١ / ابن قاضي شهبة ، تاريخ ، ج ٣ ، ص ٥٧٥ .

٧- أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص١٠٦ / ابن السباهي ، أوضح ، ص٥٠ ب .

٨- النويري ، نهاية ، ج ٨ ، ص ٢٦٥ / المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص١٠٢ / عبد الرحيم عبد الرحيم ، الريف المصري ، ص١٩١ / عبد الفتاح وهيبه ، جغرافية مصر ، ص ٦٦ / Boaz , money , P 12 .

٩- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ١٥١ / محمد الحويري ، أسوان ، ص ٨٣ / عبد الفتاح وهيبه ، جغرافية مصر ، ص ٦٦ .

وتحتاج النباتات للري في كل الفصول ؛ ففي فصل الشتاء لتدفئة الأصول ، وقتل الهوام والدود المتولد في أصول الشجر ، وفي الخريف لتخفيف حدة الأزبال التي تتعرض لها ، وفي الربيع للنمو ، وفي الصيف لارتفاع درجة الحرارة ، مع مراعاة عدم الإفراط في كمية المياه في أثناء الحر الشديد ؛ لأنه يؤدي إلى جفاف الأشجار (١) .

وتختلف كمية الماء التي تحتاج إليها كل نبتة أو شجرة ، فتروى أشجار البساتين في طوبه (كانون الثاني) بماء يعرف بماء الحياة ، ولا سيما إذا سقيت الأشجار المنقولة ، ثم تسقى في أمشير (شباط) عند إخراج الزهر ، ثم لا تسقى إلا في آخر برمهات (آذار) ، حتى ينعقد الثمر ، ثم تسقى في بشنس (أيار) ثلاث مرات ، وفي بؤونه (حزيران) وأبيب (تموز) ومسرى (آب) أربع مرات ، وفي توت (أيلول) وبابه (تشرين الأول) وهاتور (تشرين الثاني) مرة واحدة تغريقا ، ولا تسقى في كيهك (كانون الأول) لملوحة المياه ، وتغرق الأشجار ثلاث غرقات أجودها ما كان في طوبه (٢) . ويسقى قصب السكر عند نصبه في الربيع مرة كل أسبوع ، وإذا نبت سقي ماء الراحة ، ذلك بأن يقطع عليه من جانب جسر يكون قد أدير عليه لبقيه الغرق عند ارتفاع مياه النيل ، فيدخل الماء من تلك الثلمة حتى يعلو قدر شبر ، فتسد عند ذلك إلى أن تسخن ويصرف من جانب آخر ، ويجدد عليه مرة أخرى ، ويتعاهد ذلك في أيام متفرقة بقدر معلوم ، ثم يفطم بعد ذلك ، ويبلغ عدد سقياته السنوية إلى ثمان وعشرين ماء (٣) ، وتروى النيلة مرة كل خمسة أيام (٤) .

وتعتمد القدرة الإنتاجية للحياة الزراعية في مصر على ثلاثة عوامل رئيسية ترتبط بنظام الري ؛ أولها استغلال الزيادة الطبيعية لفيضان النيل ، لغياب مياه العيون والأمطار ، وثانيها بناء شبكة متكاملة من الخلجان والترع ، تضمن وصول المياه إلى الأراضي الزراعية في موعدها ، وثالثها إتقان الجسور ، حتى تحفظ الأراضي من الغرق ، وترفع منسوب مياه الخلجان إلى الأراضي المرتفعة ، وضمان حصول كل منطقة على حاجتها من المياه ، وتحديد فترة فتح كل جسر وإغلاقه .

وقد نجم اعتماد الفلاح المصري على آلات الري البسيطة الصنع كالمنطال والشادوف ، من ضعف قدرته المالية على إنشاء السواقي ، وتربية الأبقار اللازمة لذلك ، ولكنها في الوقت نفسه أدت إلى انخفاض بقعة أراضي الزراعات الصيفية ، واستهلاك معظم وقت الفلاح المصري .

١- الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٠ / النابلسي ، علم الملاحة ، ص ٢٥ - ٢٦.

٢- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٧٣ / المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ١٠٣ / ابن اياس ، نشق ، ص ٤٠ أ / البكري ، النزهة الزهية ، ص١٣٠ ب / مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ١٢١ .

٣- النويري ، نهاية ، ج ٨ ، ص ٢٦٦ .

٤- ابن اياس ، نشق ، ص ٢٧٩ أ - ب .

التقويم الزراعي :-

يقصد به تحديد مواعيد الأعمال الزراعية ، وما يجب على الفلاح القيام به على مدار السنة ، للحصول على أفضل إنتاج، ويعتمد التقويم الزراعي في مصر على السنة القبطية التي تتساوى مع السنة الشمسية، ولكن بدايتها من شهر توت (٢٧ آب - ٢٦ أيلول) ، يشير المقريزي إلى ذلك بقوله :- " اعلم أن المصريين القدماء ، اعتمدوا في تاريخهم السنة الشمسية ، ليصير الزمان محفوظا ، وأعمالهم واقعة في أوقات معلومة ، من كل سنة ، لا يتغير وقت عمل من أعمالهم ، بتقديم ولا تأخير البتة " (١) .

ويلاحظ وجود اختلافات بسيطة بين مواعيد الأعمال الزراعية في الوجه البحري والوجه القبلي ، فيبدأ الموسم الزراعي في الوجه القبلي قبل البحري بنحو خمسة عشر يوما (٢) ، إذ تبدأ الزراعة ببلاد الصعيد في نهاية شهر توت ، وفي الوجه البحري في منتصف بابه(تشرين الأول) (٣) ، ويتقدم حصاد الحبوب في بلاد الصعيد على الحصاد في بلاد الوجه البحري (٤) ، ويستحق خراج البرسيم في بلاد الصعيد قبل بلاد الوجه البحري (٥) .

ويمكن إعادة اختلاف المواعيد إلى ثلاثة أمور : الأول التباين في مستوى ارتفاع منسوب الأراضي ، فالأراضي العالية تتأخر زراعتها لتأخر ريها ، وثانيها زيادة النيل وصرفه ، إذ تصرف المياه عن أراضي الوجه القبلي ، وتروى قبل مناطق الوجه البحري التي تحتاج إلى فترة طويلة نتيجة لاتساع أراضيها مقارنة ببلاد الوجه القبلي ، واعتمادها على الخلجان والترع التي تفتح في مواعيد محددة ، وثالثها اختلاف المناخ ، فتتميز بلاد الصعيد بارتفاع درجة حرارتها ، وهذا يؤدي إلى سرعة إنبات المحاصيل وجفافها ، في حين تنخفض درجات الحرارة كلما اتجهنا نحو الشمال .

والجدول التالي يبين مواعيد الأعمال الزراعية وفقا للتقويم القبطي ، وذلك اعتمادا على المصادر التاريخية ، وكتب الفلاحة ، والجغرافيا : -

---

١- المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ٢٧٠ .

٢- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج ١ ، ص ٤٣ .

٣- ابن زولاق ، فضائل مصر ، ص ٢١١ أ / القلقشندي ، صبح ، ج ٢ ، ص ٤١٠ / المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ٢٧٠ / ابن إياس، نشق ، ص ٢٧٦ ب / ابن ظهيرة ، الفضائل ، ص ١٣٨ .

٤- ابن مماتي ، قوانين ، ص٢٥٨ / المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ١٠١ / ابن إياس ، نشق ، ص ٢٧٦ أ .

٥- البكري ، النزهة الزهية ، ص ١٢٦ .

الشهر	المحصول	الأعمال الزراعية	المصادر
توت (٢٧آب – ٢٦ أيلول)	النخل	يدرك التمر ويكون أطيب من سائر الشهور (١) ؛ ما عدا رطب الفرما إذ تبتديء في الكانونين حتى الربيع (٢) .	(١) – ابن زولاق ، فضائل مصر ، ص ٢١١ أ /ابن مماتي قوانين ، ص ٢٣٥ / القلقشندي ، صبح ج٢ ، ص ٤١٠ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٢ ، ٢٧٠ / ابن ظهيرة ، الفضائل ، ص ١٣٨ (٢) – المخزومي ، المنهاج ، ص٣٥ أ.
	الخوخ والسفرجل والرمان	ينضج	المخزومي ، المنهاج،ص٣٥ أ / القلقشندي ،صبح،ج٢،ص٤١٠/ الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٩ / البكري ، النزهة الزهية،ص١٢٥ب.
	العنب الشتوي	يكثر	ابن زولاق ، فضائل ، ص٢١١أ / المخزومي ، المنهاج ،ص٣٥ أ/ ابن مماتي ، قوانين ،ص٢٣٦/ القلقشندي ،صبح ،ج٢،ص ٤١٠ .
	الزيتون	يلتقط	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٧٠ / القلقشندي ، صبح ، ج ٢ ، ص٤١٠ / المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ١٠٣ / البكري ، قطف ، ص ٢٧ أ .
	الحمضات	تبتدئ	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٣٥ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص٤١٠ / المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ١٠٢ ، ٢٧٠ .
	الحناء	يقلع	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٩ .
	القطن	يلتقط	القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٠ / ابن إياس ، نشق ، ص٣٩ب / البكري ، النزهة الزهية ، ص ١٢٥ ب .
	الكتان	يبتدئ نقله	ابن زولاق ، فضائل ، ص ٢١١ أ .
	البلسان	يشرط ويستخرج دهنه	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٣٦ / القلقشندي ، صبح ، ج ٢ ، ص٤١٠ / ابن إياس ، نشق ، ص ٣٩ ب .
	البرسيم	يبذر	ابن زولاق ، فضائل ، ص ٢١١ أ / ابن ظهيرة ، الفضائل ، ص١٣٨ .
	الكراويا والكمون واللوبياء وبزر الأحباق والأرز والكزبرة	تجمع	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٩ .
	الجزر	يزرع	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٩ .
	الثوم البلدي والكرنب والسلق المتأخر والخس	ينقل شتلا	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٩ .
	اللفت (السلجم)	يزرع ويدرك بعد أربعين يوما	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٦٩ / المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ١٠٣ / الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٩ .
	البصل	يزرع وتستمر زراعته حتى تشرين الثاني	مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ١٤٨ – ١٥٠ .
	الفجل	يزرع على طول السنة	النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٢٧ .
	الحنطة	تبذر الحنطة المبكرة	مجهول ، مفتاح الراحة ، ١٢٥ .
	قصب السكر	يظهر بأسواق مصر	البكري ، النزهة الزهية ، ص ١٢٥ ب .

	المنثور الخيري	يزرع	مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ٢٦٠ .
	الهليون	يزرع في آخر الشهر	القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٠ .
		تفتح أكثر الترع والجسور	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٣٦ / القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص٤١٠ / ابن إياس ، نشق ، ص ٣٩ ب .
		تطلق التقاوي لتحضير البلاد	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٣٣ / المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص١٠٣ .
		ترسم الحدائق التي تحتاج إلى التركيب ، وربما يركب كثير من الشمر في الكروم	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٩ / النابلسي ، علم الملاحة ، ص١٨٧ – ١٨٨ .
		يعمل شراب البحر وهو ماء وعسل لعلاج من به وجع الكلى والمثانة	ابن ظهيرة ، نزهة الناظر ، ص ٢٧ ب .

الشهر	المحصول	الأعمال الزراعية	المصادر
بابه (٢٧ أيلول – ٢٦تشرين١)	الرمان	أطيب ما يكون	ابن زولاق ، فضائل ، ٢١١أ/ المخزومي ، المنهاج ، ص ٣٥ أ/ القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٠ / المقريزي ، خطط ، ج ١ ، ص ٢٧٠ / ابن ظهيرة ، نزهة ، ص ٢٧ ب / ابن إياس ، نشق ، ص ٢٦٧ ب .
	الزبيب والحمضيات والتمر والقلقاس	تدرك	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٣٩ / القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٠ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٢٧٠ / ابن اياس ، نشق ، ص ٢٧٦ ب / البكري ، قطف ، ص ٣٧ أ .
	النخل	يجرد	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٨٠ .
	الكتان	يزرع وتستمر زراعته إلى ٥ كانون الثاني	المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٧٠ / ابن إياس ، نشق ، ص٢٧٦ب / مجهول ، مفتاح الراحة ، ص١٣٤ .
	قمح ، شعير ، فول ، قرط	تبتدئ زراعته ويبذر كل ما تشق له الأرض ، وتشق الأرض في آخر هذا الشهر بلاد الصعيد ويسمون بذر الحبوب في هذه الفترة بالبدري	ابن زولاق ، فضائل ، ص ٢١١ أ / المخزومي ، المنهاج ، ص٣٥أ / ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٣٩ / القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٠ –٤١١/ المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠١ ، ٢٧٠ / ابن ظهيرة ، نزهة ، ص٢٧ب / ابن إياس ، نشق ، ص٢٧٦ ب / البكري ، النزهة الزهية ، ص ١٢٧ ب .
	الآس والنيلوفر	يستخرج دهنه	ابن زولاق،فضائل ،ص٢١١ أ/ المخزومي ، المنهاج ، ص ٣٥ ب/ ابن مماتي،قوانين،ص٢٣٩/ القلقشندي ،صبح ، ج ٢ ، ص ٤١١.
	الزعفران والبنفسج	تجمع	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٨٠ .
	السلجم	تستمر زراعته	القلقشندي ، خطط ، ج٢ ، ص٤١١ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٧٠ / ابن إياس ، نشق ، ص ٢٧٦ ب .
	البصل	يجمع بزره	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٨٠ .
	الثوم الكبير والهندباء	تزرع	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٨٠ /مجهول ، مفتاح الراحة ، ص١٣١ ، ١٥٣ / النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٨٨ .
	القصب الفارسي	يقطع	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٨٠ .
	الرز	يحصد	ابن زولاق ، فضائل ،ص٢١١ أ / المخزومي ، المنهاج ، ص٣٥أ / ابن مماتي ، قوانين،ص٢٣٩ / القلقشندي ،صبح ،ج٢، ص٤١٠/ المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٧٠.
	المنثور	يغرس	المقريزي ،خطط، ج١، ص٢٧٠/ البكري ، قطف ،ص ٣٧ ب .
	الورد	يبتدئ طلوعه	ابن زولاق ، فضائل مصر ، ص ٢١١ أ .

	الضأن والماعز والبقر الخيسية	تضع أولادها	ابن زولاق ، فضائل ،ص٢١١أ/ المخزومي ، المنهاج ، ص٣٥ب/ ابن مماتي ، قوانين ،ص٢٣٩/ القلقشندي ،صبح ،ج٢،ص٤١٠ .
	السمك البوري	يملح	المخزومي ، المنهاج ، ص ٣٥ ب / المقريزي ،خطط ، ج١،ص٢٧٠/ ابن ظهيرة ، نزهة ، ص ٢٧ ب .
		يقطع الخشب	المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٧٠ .
		٧ منه انتهاء زيادة النيل وفي ١١ منه يخرج المزارعون لتحضير الأراضي، وتصرف جميع المياه التي على أراضي أوطأ من أراضي مصر	القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٠ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٧٠ / ابن إياس ، نشق ، ص ٢٧٦ ب .

الشهر	المحصول	الأعمال الزراعية	المصادر
هاتور (٢٧تشرين١ -٢٧تشرين٢)	البلوط وحب الآس والقسطل	يجمع	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٨٠ .
	الأشجار والخضار	تزبل (١) ، وتسقى الأشجار مرة تغريق المساطب (٢)	(١) – الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٨١ . (٢) – المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٣ / مجهول ، مفتاح الراحة ، ص١٢١ / ابن إياس ، نشق ، ص ٤٠ أ .
	الكتان	يصرف الماء عن أراضيه وعن جميع الأراضي الواطيه، وفي النصف منه يبذر الكتان ويسبخ .	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٤٠ –٢٤١ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٧٠ / ابن إياس ، نشق ، ص٢٧٦ب .
	قصب السكر	يكسر ما يحتاج إليه برسم المعاصر	المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٧٠ / ابن إياس ، نشق ، ص٢٧٦ب .
	القلقاس	يدرك	المقريزي ،خطط ، ج١ ،ص١٠٣ / ابن إياس ، نشق ، ص٣٩ب
	القمح	يبذر في نصفه الأخير ، وفي العوالي ، وتستمر زراعته للنصف من الشهر القادم	المخزومي ، المنهاج ، ص٣٥ب/ ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٥٨ / القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١١ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠١ / ابن ظهيرة ، الفضائل ، ص ١٣٩ / النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٨٨ .
	العنب	يكثر غرسه في المناطق الحارة ، ويكثر المجلوب من النواحي ومن قوص	ابن زولاق ، فضائل ، ٢١١ ب/ المخزومي ، المنهاج ، ص٣٥ب/ القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١١/ المقريزي ،خطط ، ج١ ، ص ٢٧٠ / الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٨١ .
	البقول	تطلع	المخزومي ، النهاج ،ص٣٥ب/ البكري ،النزهة الزهية،ص١٢٥أ .
	العدس والحمص	تزرع	ابن إياس ، نشق ، ص ٣٨ ب .
	الزعفران	يجمع	القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١١ .
	الخشخاش	يزرع	القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١١ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٢٧٠ / ابن إياس ، نشق ، ص ٢٧٦ ب .

	الباذنجان	يجمع ما بقي منه وكذلك كل ما يسقى	ابن زولاق ، فضائل ، ص ٢١١ ب / القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١١ / البكري ، النزهة الزهية ، ص ١٢٥ أ .
	الكرنب	يدرك	ابن مماتي ، قوانين، ص ٢٧ / المقريزي ،خطط ، ج١، ص١٠٣ .
	الخس البري	يغرس	النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٨٩ .
	البصل الأحمر	يزرع	النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٢٩ .
	النحل	تفرخ	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٨٠ .
	الأبقار والجمال	يباع ما عجز من أبقار وجمال المعاصر	ابن مماتي ، قوانين ، ص٢٤١ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٢٧٠ .
	الورد والنرجس	يكثر	ابن زولاق ، فضائل ،ص٢١١ب/ ابن مماتي ،قوانين ،ص٢٤١ .
	البنفسج والمنثور	يطلع	القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١١ .

الشهر	المحصول	الأعمال الزراعية	المصادر
كيهك (٢٦ تشرين ٢ ـ كانون١)	الشجر والكروم	تزبل ويكثر غرسها ويبدأ تقليمها في نهايته	القلقشندي ، صبح ، ج ٢ ، ص ٤١١ / الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٨٢ / البكري ، قطف ، ص ٣٧ ب .
	الموز	يغرس	النابلسي ، علم الملاحة ، ص ٥٧ .
	الرز	آخر حصاده	البكري ، النزهة الزهية ، ص ١٢٦ أ .
	المليون	يزرع	المقريزي ،خطط ، ج١ ،ص٢٧٠/ ابن إياس ،نشق ،ص٢٧٦ب .
	الخيار	يزرع بعد إغراق أرضه	المقريزي،خطط ،ج١ ، ص٧٠ / ابن إياس، نشق ،ص٢٧٦ ب .
	الحبوب	يتكامل بذر القمح والشعير والبرسيم الحراني ويستخرج خراج البرسيم بالوجه القبلي وتربط الخيول على البرسيم البدري	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٥٨ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص١٠١ / ابن إياس ، نشق ، ص ٢٧٦ ب .
		تستمر بذر القمح بالبحائر	ابن زولاق ، فضائل ، ص ٢١١ ب / القلقشندي ، صبح ، ج٢، ص ٤١١ / ابن ظهيره ، الفضائل ، ص ١٣٩ .
	قصب السكر	يكسر الرأس ويعتصر ويستخدم الطباخين لطبخ القنود (١) ويغرق آثاره ويغرق لتثبت الخلفة (٢) .	(١) – المخزومي ، المنهاج ، ص ٣٣ب / ابن مماتي ، قوانين ، ص٢٤٢ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠١ ، ٢٧١ . (٢)– النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٦٧ .
	الفول الأخضر ، الباقلاء ، الكرنب ، الجزر ، الكسرات الأبيض ، واللفت ، والحمضات ، والنرجس والبنفسج	تدرك	المخزومي ، المنهاج ، ص ٣٥ب / ابن مماتي ، قوانين ، ص٢٤٢ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٧١ / ابن إياس ، نشق ، ص٢٧٦ب / البكري ، قطف ، ص ٣٧ ب .
	البصل والثوم	تنتهي زراعته في نصف هذا الشهر	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٦٣ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص١٠٢ .
	الخشخاش الأبيض	يزرع	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٨٢ .
	الأترج	يطيب	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٨١ .
	الإبل	تلقح	القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٢ .

الشهر	المحصول	الأعمال الزراعية	المصادر
طوبه (٢٦كانون١- ٢٤ كانون٢)	النخل والآس والخيار شنبر	تغرس	ابن بصال ، الفلاحة ، ص ٨٥ / ابن زولاق ، فضائل ، ص٢١١ب / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٧١ / ابن ظهيره ، الفضائل ، ص ١٤٠ / ابن إياس ، نشق ، ص ٢٧٨ أ .
	الخوخ واللوز والمشمش	تبل نواه ثلاثة أيام وتغرس وتقلم الأشجار إلا النبق	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٧١ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٣ / البكري ، النزهة الزهية ، ص ١٣٠ أ .
	الكروم	تنصب وتقلم	القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص٤١١ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٧١ / ابن إياس ، نشق ، ص ٤٠ أ .
	الحمضيات	تجمع وتنقى البساتين من الحشائش	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٨٢ .
	اللوز الأخضر والنبق والهليون والباقلاء الأخضر والجزر	أطيب ما يكون	المقريزي ، خطط ، ج١ ،ص ٢٧١ / ابن إياس ، نشق ، ص٢٧٨أ.
	الأشجار	يسقى جميعها ماء الحياة	ابن مماتي ، قوانين، ص٢٧٣/مجهول ، مفتاح الراحة ، ص١٢١ .
	قصب السكر	يكسر الرأس بعد إفراز ما يحتاج إليه من الزريعة	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٤٤ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٢٧١ / ابن إياس ، نشق ، ص ٢٧٨ أ .
	القرط	يدرك في ثانيه ويتكامل إدراكه في نهايته وتربط عليه الخيول للتربيع	القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٢ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٧١ .
	القمح و الشعير والفول	تنظف الحقول من الحشائش وزراعته فيه تغرير	المخزومي ، المنهاج ، ص٣٥ب/ ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٤٣ / القلقشندي،صبح،ج٢،ص٤١٢/ المقريزي ،خطط،ج١،ص٢٧١ .
	الكتان	ينظف من الفجل وغيره	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٧١ .
	المقاثي والكمون والورد الشستوي والترمس والحمص والجلبان والعدس والترمس والقطن والأنيسون	تزرع ، وتقلع ولا يبقى شيء مدفون بالأرض	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٧٢ / القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص٤١٢ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٣ ، ٢٧١ / ابن إياس ، نشق ، ص ٢٧٨ أ / مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ١٢٩-١٣٠ ، ١٣٧ / البكري ، النزهة الزهية ، ص ١٣٠ أ .
	الباذنجان والقنبيط والرجلة والبصل والكراث والكتان	تزرع بذورها	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٨٣-٥٨٤ .
	الخس	يزرع	ابن مماتي ، قوانين ، ص٢٦٩-٢٧٠.
	البصل	العاشر من طوبه آخر موعد لزراعة البصل الزريعة	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٦٣ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص١٠٢ .
	النرجس	يتكامل	القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٢ .
	الإبل	أفضل نتاجها	المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٢٧١/ ابن إياس ، نشق ، ص٢٧٨أ
	الأبقار	يهتم بشرائها وعمارة السواقي وحفر الآبار	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٤٥ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٧١ .
		تشق الأرض للقصب والقلقاس والمقاثي والسمسم والقطن برسم الزراعات الصيفية	ابن زولاق ، فضائل مصر ، ص ٢١١ ب / القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٢ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٧١ / ابن ظهيره ، الفضائل ، ص ١٤٠ / ابن إياس ، نشق ، ص ٢٧٨ أ / النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٩٠ .

الشهر	المحصول	الأعمال الزراعية	المصادر
أمشير (٢٥ كانون٢ –٢٧ شباط)	الأشجار	تسقى ماء	المخزومي ، المنهاج ، ص٣٤ أ / ابن مماتي قوانين ، ص ٢٧٣ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٣ / مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ١٢١ / ابن إياس ، نشق ، ص ٤٠ أ .
	المشمش والرمان	يزرع ويحول غرسه بعد شهر	مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ١٩٣ .
	الكروم	تقلم ويستمر تقليمها إلى أيام من برمهات وتزرع نقلا وترقيدا	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٧١ ، ٢٧٣ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٣ / البكري ، النزهة الزهية ، ص ١٣٠ أ / النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٩١ .
	التين	يطلع	البكري ، النزهة الزهية ، ص ١٢٥ أ .
	التفاح	تبدأ زراعته	مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ٢٢٦ .
	النبق واللوز الأخضر	يدرك	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٤٦ / القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص٤١٣ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٢ .
	المرسين	يغرس	ابن مماتي ، قوانين ،ص٢٧٢ / المقريزي ، خطط ، ج١،ص٢٧٢ .
	الشهدانج ، بزر القرع الرجله الورد الصيفي ، الياسمين القثاء والقصب	تزرع	القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٣ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٧٢ / البكري ، النزهة الزهية ، ص ١٢٦ ب / النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٠٨ ، ١٣٢ ، ١٤٢ .
	اللفت المدحرج الأبيض	يزرع ويؤكل بعد شهرين	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٨٣-٥٨٤ .
	القرط الحراثي	يدرك	المقريزي ،خطط ،ج١، ص١٠٢ / البكري ، قطف ، ص٣٨ أ .
	النفسج والمنثور	يكثر	ابن زولاق، فضائل ،ص٢١١ب/ المخزومي ، المنهاج ،ص٣٦أ/ ابن مماتي ، قوانين ، ص٢٤٦ / المقريزي ،خطط ، ج١، ص٢٧٢.
	السلجم	يقلع	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٤٦/ المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٢٧٢ .
	الكتان	تحضر الأراضي لزرع الكتان البعل	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٨٣-٥٨٤ .
	المراعي	تخرج الدواب إليها	القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٣ .
	الدجاج	يرقد البيض بالمعامل ويستمر التوقيد أربعة أشهر	ابن مماتي ،قوانين، ص٢٤٦/ المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٢٧٢ / ابن إياس ، نشق ، ص ٢٧٨ أ / البكري ، قطف ، ص ٣٨ أ .
		تعمل مقاطع الجسور	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٤٦/ المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص١٠٣ .
		تمسح الأراضي الزراعية	ابن إياس ، نشق ، ص ٢٧٨ أ .
		يثنى ويثلث برش أراضي الصواقي	ابن إياس ، نشق ، ص ٢٧٨ أ / البكري ، قطف ، ص ٣٨ أ .

الشهر	المحصول	الأعمال الزراعية	المصادر
برمهات ٢٤ شباط – ٢٥ آذار)	الأشجار	تزهر الأشجار ويعقد أكثر ثماره (١) وتنقى أصولها ويقلب ما تحتها (٢) وتسقى ماء بن (٣)	(١) ابن زولاق ، فضائل ، ص٢١١ب/ القلقشندي ،صبح ، ج٢ ، ص٤١٣/ ابن ظهيره ، النزهة الزهية ، ص ٢٨ أ / البكري ، قطف ، ص ٣٨ أ (٢) الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٥ . (٣)- المخزومي ، المنهاج ، ص٣٤ أ/ ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٧٣ / مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ١٢١.
	النخل	يذكر	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٥ .
	الكروم	تشذب وتقطع قضبانها ، وتركب قبل طلوع الأغصان من العيون	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٥-٥٧٦ .
	التوت	يقلم ويغرس	ابن مماتي ، قوانين ، ص٢٧١ / البكري ، النزهة الزهية ، ص٣٠أ .
	الخيار شنبر	يحول.	ابن مماتي ، قوانين ، ص٢٧٢/ المقريزي ،خطط ،ج١ ، ص١٠١.
	قصب السكر	يزرع في الأرض المبروشة المختارة ، البعيدة العهد عن الزراعة ، وينظف المقشرون الأرض من القش ، ويقطع القطاعون الزريعة ، ويرمي المزارعون قطع القصب	المخزومي ، المنهاج ، ص٣٢ أ- ٣٣ب/ ابن مماتي ، قوانين ،ص٢٤٨ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٧٢ .
	الكتان	يقلع	ابن مماتي ،قوانين ،ص٢٤٨/ القلقشندي،صبح ،ج٢ ، ص٤١٣ .
	الفول والعدس	يدرك	ابن مماتي ، قوانين،ص٢٤٨/ المقريزي ،خطط ، ج١ ، ص٢٧٢ .
	السمسم	يزرع أوائله بنهاية الشهر	المخزومي ، المنهاج ،ص٣٦أ / القلقشندي ،صبح،ج٢ ،ص٤١٣ .
	البطيخ الأخضر والأصفر واللوبياء	تبدأ زراعته	المخزومي ، المنهاج ، ص ٣٢ أ / ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٦٥ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٣ .
	الباذنجان	يزرع وتستمر زراعته لمدة ثلاث شهور	ابن مماتي ، قوانين ، ص٢٦٧ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص١٠٣ / ابن إياس ، نشق ، ص ٣٩ ب .
	بزر الخيار الباكر والحمص والمقاثي والقطن والعصفر والريحان والحبق	تزرع	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٦ .
	الدخن	تبدأ زراعته وتستمر شهرا	النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١١٦ .
	البلسان	أجود ما يكون طبخ دهنه	ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٤٤٤ .
	الورد والسوسن الكسروي	يظهر	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٦ .
	الأبقار	تشترى لتربيتها	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٤٨ .

الشهر	المحصول	الأعمال الزراعية	المصادر
برموده (٢٦ آذار – ٢٤ نيسان)	الخيار شنبر	يدرك	المخزومي ، المنهاج ، ص٣٦ أ/ ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٥٠ / القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٤ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠١ .
	الموز	ينقل	ابن مماتي ،قوانين،ص٢٧١/ البكري ، النزهة الزهية ،ص١٣٠ أ .
	السنط	تقطع أخشابه ويجر للسواحل ليسير في النيل إلى ساحل مصر	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٥٠ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص١٠١ / ابن إياس ، نشق ، ص ٢٧٨ أ .
	الجوز	يزرع	مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ١٦٣ .
	التين	يعقد (١)	
	الأترج	تضرب أوتاده (٢)	
	النخل	يقلم سعفه (٣)	
	الحناء واللوبياء والتفاح	تزرع (٤)	(١–٤) –الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٦ .
	الجميز	يدرك البطن الأول	المخزومي ، المنهاج ، ص٣٦ أ/ القلقشندي،صبح ، ج ،ص٤١٤ .
	السدر	يقلم	البكري ، النزهة الزهية ، ص ١٣٠ أ .
	الكتان	ينفض بزره	القلقشندي ،صبح ،ج٢،ص٤١٤/ ابن ظهيره،الفضائل،ص١٤١ .
	القمح والشعير	يبتدئ حصاد البدري	المخزومي ، المنهاج،ص٣٦أ/ القلقشندي ،صبح،ج٢،ص ٤١٤ / المقريزي ،خطط ،ج١، ص٢٧٢ / ابن اياس ،نشق ، ص٢٧٨ أ .
	الفريك	يؤكل	القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٤ .
	الفول	يبتدئ كساره	ابن مماتي ، قوانين ، ص٢٤٩ / المقريزي،خطط ، ج١،ص١٠١ .
	الباقلاء	تكثر	ابن زولاق ، فضائل ، ص ٢١١ب .
	البقول	في ٢٠ منه ينتهي أكله	القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٤ .
	الحمص والجلبان والعدس والبصل والثوم والترمس والكراويا والكمون والسلجم	تدرك	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠١ .
	البطيخ الأخضر والأصفر واللوبياء	في نصفه تنتهي زراعته	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٦٥ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠١ .
	الملوخيا والقطن والباذنجان والسمسم والريحان	تزرع	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٦٥ ، ٢٧٢ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ / ابن إياس، نشق ، ص ٣٩ ب .
	الياسمين	يفرع	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٦ .
	الورد الأحمر والجوري والنصيبي	يكثر	ابن زولاق ،فضائل ،ص٢١٢أ/ ابن مماتي ،قوانين،ص٢٥٠ / القلقشندي ،صبح، ج٢ ،ص٤١٤/ ابن ظهيره ، نزهة ،ص٢٨ أ .
	النعام	يبيض	القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص٤١٤ .
	النحل	يقطف أوائل العسل	المخزومي ، المنهاج ، ص ٣٦ أ/ القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص٤١٤ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٢٧٢ / ابن ظهيره ، الفضائل ، ص ١٤١ .

الشهر	المحصول	الأعمال الزراعية	المصادر
		تطلق فحول الخيل على الإناث لمدة ٧٠ يوما	الغزي ، جامع فوائد، ص ٥٧٦ .
		تطبخ النصارى نيدة العسل	ابن زولاق ، فضائل ، ص ٢١٢ أ / ابن ظهيره ، الفضائل ، ص١٤١ / البكري ، النزهة الزهية ، ص ١٢٦ ب .
		تمسح الأعمال ويطالب الفلاحين بنصف مال الصيفي	ابن إياس ، نشق ، ص ٢٧٨ أ .
بشنس (٢٥ نيسان - ٢٩ أيار)	الأشجار	تسقى ثلاث مياه	المخزومي ، المنهاج ، ص ٣٤أ/ ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٧٣ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٣ / مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ١٢١ ، ابن إياس ،نشق ، ص٤٠أ .
	البطيخ العبدلي والحوفي والمشمش والخوخ الزهري والورد الأبيض	تبتدئ	ابن زولاق ، فضائل ،ص٢١٢أ / المخزومي ، المنهاج ،ص٣٦أ / ابن مماتي ،قوانين،ص ٢٦٥/ القلقشندي ،صبح ،ج٢ ، ص٤١٥ / المقريزي ، خطط ،ج١ ، ص٢٧٢ / ابن ظهيره ، نزهة ، ص٢٨أ
	اللوز الرطب والجميز	تكثر في الأسواق	ابن زولاق ، فضائل ، ص ٢١٢ أ .
	الزيتون والعنب	تعقد	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٧ .
	الحبوب	تحصد ولا يبقى أي نوع منها في الأرض	ابن زولاق ، فضائل ، ص ٢١٢ أ / القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص٤١٤ / ليون الإفريقي، وصف ، ص ٥٦٨ .
	الرز والسمسم	تبتدئ زراعته في منتصفه	ابن زولاق ، فضائل ، ص ٢١٢ أ / ابن مماتي ، قوانين ، ص٢٥٨ / القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٤ .
	الخشخاش والعصفر	تجمع	القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٤ .
	التقاوي والأتبان	تقبض	ابن مماتي ، قوانين ، ص٢٥١/ المقريزي ،خطط ، ج١ ،ص٢٧٢ .
	الفول والكتان	يقلع وينفض بزره	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٥١ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٢٧٢ / الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٦ .
	الزعفران	يغرس	مجهول ، مفتاح الراحة ، ص٢٦٣ .
	السوسن	يظهر زهره	الغزي ، جامع فوائد ، ٥٧٦ .
	النيلة	تزرع وتستمر زراعتها إلى أبيب	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٦٨ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص١٠١ / ابن إياس ، نشق ، ص ٣٩ .
	البصل	يدرك المعد للزريعة	ابن مماتي ، قوانين ،ص٢٦٣/ المقريزي ،خطط ، ج١ ، ص١٠٢ .
	القرع	يدرك	ابن إياس ، نشق ، ص ٣٩ ب .
	البلسان	يزرع ويقلم ويسقى ويستخرج دهنه	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٥١ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٢٧٢ / ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٤٤٤ .
	الأبقار	تطلق فحول البقر على إناثها وتترك أربعين يوما	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٧ .

الشهر	المحصول	الأعمال الزراعية	المصادر
بونه (٢٥أيار-٢٣حزيران)	الأشجار	تسقى أربعة مياه ويستمر سقيها على ذلك أبيب ومسرى	المخزومي ، المنهاج ، ص ٣٤ أ/ ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٧٣ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٣ / مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ١٢١ / ابن إياس، نشق، ص ٤٠ أ .
	البلح	يطلع	المخزومي ، المنهاج ،ص ٣٦ أ/ ابن مماتي ، قوانين ،ص٢٥٤/القلقشندي ، صبح ،ج٢ ،ص٤١٥ .
	الجوز والصنوبر	يعقد	القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٥ .
	التين الفيومي والخوخ المزهر والمشعر والكمثرى البوهي	تطيب	المخزومي ، المنهاج ، ص ٣٦ أ/ القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص٤١٥/ المقريزي ،خطط ،ج١ ، ص ٢٧٢ / ابن ظهيره ، الفضائل ، ص ١٤٠ .
	التوت	يطيب الأسود منه	ابن مماتي ،قوانين ،ص٢٥٤ .
	الكروم	يبتدئ الحصرم وبعض العنب (١) ويخرص(٢)	(١) - القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص٤١٥ / الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٧ . (٢) - ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٥٤ .
	الكتان	يندى ويقلب أربعة أوجه	ابن مماتي ، قوانين ،ص٢٥٤ / المقريزي ، خطط ،ج١، ص٢٧٢.
	البطيخ	يدرك في آخره	القلقشندي ،صبح،ج٢،ص٤١٥/الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٧ .
	الباذنجان	يدرك في بونه وأبيب ومسرى	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٦٨/ المقريزي ، خطط ،ج١،ص١٠٣ / ابن إياس ، نشق ، ص٢٧٩ أ .
	السمسم النيلي	يزرع في آخره	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٦٨ .
	النيله	تبتدئ زراعتها في الصعيد الأعلى وتحصد كل مئة يوم لمدة ثلاث سنوات	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٥٤ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٧٢ .
	الشهدانج	يحصد	مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ١٣٤ .
	العصفر	يبتدئ إدراكه	ابن مماتي ، قوانين ،ص٢٥٤/ المقريزي ، خطط ،ج١،ص٢٧٢.
	العسل	يقطف معظمه	المخزومي ، المنهاج ، ص ٣٦ أ/ ابن مماتي ، قوانين ،ص٢٥٤/ القلقشندي ،صبح ،ج٢،ص٤١٥.
	الضأن	تجز أصوافه وتطلق الكباش على الإناث	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٧ .

		تسفر المراكب لإحضار الغـــلال والقنـــود والأعسال من الأعمـال القوصية ونواحي الوجه البحري	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٥٤ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٢٧٢ / ابن إياس ، نشق ، ص ٢٧٩ أ .
		يبـدأ تنفـس النيـل في عاشـره ويعلـن عـــن الزيـــادة في الثـــامن ولعشرين منه	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٥٤ / القلقشندي ، صبح ، ج٢ ،ص٤١٥ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٢٧٢ / ابن إياس ، نشق ، ص ٢٧٩ أ .

الشهر	المحصول	الأعمال الزراعية	المصادر
أبيب (٢٤ حزيران –٢٣ تموز)	النخل	يطيب البلح ويحمر البسر	ابن زولاق ، فضائل ، ص ٢١٢ أ / القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٦ / المقريزي ، خطـط ، ج١ ، ص ٢٧٣ / ابن ظهيرة ، نزهة ، ص ٢٨ب / النابلسي ، علم الملاحة ، ص١٨٦ .
	الكروم	يكـثر العنـب ويجـود ، ويعصـر الخمـر منـه (١) والزبيب أجود ما يكـون لعمل الخمر (٢)	(١)- ابن زولاق ، فضـائل ، ص ٢١٢ أ / المقريزي ، خطـط ، ج١ ، ص ٢٧٣ / ابن ظهيره ، نزهـة ، ص ٢٨ب / البكـري ، قطف ، ص ٣٨ ب . (٢)- ابن إياس ، نشق ، ص ٢٧٦ ب .
	الرمان	يدرك	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٨ .
	الخشب	يقطع	المقريزي،خطط ،ج١ ،ص٢٧٣/ ابن إياس ، نشق ،ص٢٧٩ ب .
	التين المقرون بالعنب	يجود	ابـن زولاق ، فضـائل ، ص٢١٢أ / المخزومـي ، المنهـاج ، ص٣٦ب / المقريزي ،خطط ،ج١ ،ص٢٧٣/ ابن ظهيره ، نزهـة، ص٢٨ب.
	الرسيم والقرط الخطمي والريحان والحس والحبق والبطيخ ولقثاء والخيار	يجمع بزره	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٨ .
	البطيخ العبدلي	يتغير وتقـل حلاوتـه لغلبـة الماء على أرضه	ابن زولاق ، فضائل ، ص٢١٢أ / المخزومي ،المنهاج ،ص٣٦ب / المقريزي ، خطط ، ج١ ،ص٢٧٣.
	السماق	يجمع	القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٦ .
	الفستق	يدرك	القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٦ .
	القصب القبطي	يقطع	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٨ .
	السمسم	يدرك	ابن مماتي ، قوانين،ص٢٦٥/ المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص١٠٢.
	النحل	تقطف بقايا العسل	ابن زولاق ،فضائل ، ص٢١٢أ / المخزومي ، المنهاج ،ص٣٦ب.
		تقوى زيادة النيل وتقل مياه الآبار	ابن زولاق ، فضـائل ، ص ٢١٢ أ / المقريزي ، خطـط ، ج١ ، ص ٢٧٣ / البكري ، قطف ، ص ٣٨ ب .

الشهر	المحصول	الأعمال الزراعية	المصادر
مسرى (٢٤ تموز- ٢٧ آب)	البسر والموز والليمون التفاحي	تدرك ويكثر البسر ويخرص	ابن زولاق ، فضائل ، ص ٢١٢ أ / المخزومي، المنهاج،ص٣٦ب/ ابن مماتي ، قوانين ، ٢٥٧ / المقريزي ، خطط ، ج١، ص ٢٧٣ / مجهول ، مفتاح الراحة ، ص١٣٥ .
	الرمان	يبدأ إدراكه	المقريزي ، خطط ، ج١، ص٢٧٣ / مجهول ، مفتاح الراحة ، ص١٣٥ .
	الكروم	يعصر القبط الخمر ويعمل منه الخل	ابن زولاق ، فضائل مصر ، ص ٢١٢ أ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٧٣ / ابن ظهيره ، الفضائل ، ص ١٤٢ .
	الخوخ الأملس	يؤكل (١)	
	العناب	ينضج (٢)	
	البلوط	يعقد (٣)	
	الخروب	يجمع (٤)	(١-٤) - الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٨-٥٧٩ .
	الفواكه	يتغير طعمها لغلبة الماء على أرضها	ابن زولاق ، فضائل ، ص ٢١٢ أ /المخزومي ، المنهاج، ص٣٦أ / ابن مماتي ، قوانين ،ص٢٥٧/ مجهول ، مفتاح الراحة ، ص١٣٥ .
	الكروم وأكثر الأشجار	تغرس	ابن زولاق ،فضائل ،ص٢١٢أ.
	الرز	يحصد	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٨ .
	القطن	يجمع	المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٧٣ .
	النرجس	يدفن بصله	ابن مماتي ، قوانين ،ص٢٧٢ / المقريزي ،خطط ،ج١ ، ص٢٧٣ .
	اللفت المدحرج والطويل والخيار المتأخر	يزرع	الغزي ، جامع فوائد ، ص ٥٧٩ .
	الغلال	تسافر المراكب بالغلال إلى خليج الإسكندريه	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٥٦ -٢٥٧ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٧٣ .
	النعام	يهيج (١)	
	الألبان	تقل (٢)	(١-٢) - مجهول مفتاح الراحة ، ص ١٣٥ .

سياسة الدولة الزراعية :-

تنطلق السلطنة في سياستها الزراعية من مبدأ تحقيق أكبر قدر ممكن من الضرائب ، وضمان عدم تهرب الفلاحين والمقطعين من ذلك ، وتركزت سياستها في عدد من الجوانب ، أهمها صيانة مشروعات الري ، والمسح السنوي للأراضي المزروعة ، وتقديم التقاوي والقروض للفلاحين .

ولأهمية صيانة مشروعات الري ، احتلت المرتبة الأولى في أولويات السلطنة ، وعينت لذلك عددا من الموظفين للقيام بتطهير الخلجان من الرواسب الطينية السنوية ، وعمل الجسور ، وتنظيم توزيع المياه ، فترسل السلطنة في فصل الربيع أميرا من مقدمي الألوف أو الطبلخانات ، يعرف بكاشف الجسور أو كاشف التراب أو كاشف الكشاف ، لعمل مقاطع الجسور ، ولضبط زيادة النيل وتنظيم استغلالها ، وشق الترع والقنوات الجديدة عند الحاجة ، واستخراج ما على القرى من ضرائب تتعلق بتطهير الخلجان وإنشاء الجسور ، وفي بعض الأحيان تضم هذه الوظيفة للوالي (١) .

ويختلف عدد الكشاف من فترة لأخرى ، فكانوا في سنة ٧١٥ هـ /١٣١٥م عشرة ، أربعة في الوجه القبلي ، وستة في الوجه البحري (٢) ، ثم انخفض عددهم إلى ثلاثة واحد بالوجه البحري ، وتحت يده سبعة ولاة يعينهم ويعزلهم متى شاء ، وكاشف في الوجه القبلي له الصلاحيات نفسها ، وكاشف بالجيزة (٣) . وارتفع عددهم مرة ثانية في منتصف القرن ٩هـ / ١٥م إلى أربعة ، واحد في الجيزة ، وواحد في القليوبية والمنوفية ، وواحد في الغربية ، وواحد في الشرقية (٤)، وقد أشار ابن شاهين (ت ٨٧٣هـ /١٤٧٨م) إلى أنهم أصبحوا ثلاثة ، واحد في الفيوم ، وواحد في الصعيد الأدنى ، وواحد في الصعيد الأعلى (٥) ، لكن الدولة أهملت هذه الولاية ، وجعلتها من اختصاصات الاستادار ، بعد أن كانت خلعهم تصدر من السلطان ، فأدى هذا إلى ضياع حقوق الفلاحين ، وإضعاف كلمتهم ، وإهمال السلطنة للواجبات التي تترتب عليها تجاه مشروعات الري (٦) .

وتحرص السلطنة على إقامة المهندسين والخولة الدائمة في كلا الوجهين القبلي والبحري، وتكون مهمة المهندسين مراقبة شبكات الري وإصلاحها ، سواء أكان ذلك في أثناء الفيضان أم بعده ، وشق الترع والقنوات

١- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد٢ ، ق١ ، ص ٤٢٨ ، ٤٣٣ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص٥١٥ / المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١٠٠٠ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٤ ، ص ١١ / ابن شاهين ، زبدة ، ص ١٢٩ -١٣٠ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص٣٣٠ب / ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٥١ / Popper , Egypt , 1 , P 102.

٢- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٩ ، ص ٣٣ .

٣- ابن شاهين ، زبدة ، ص١٣٠ / الصوفي ، الصفوة ، ص ٦١ أ .

٤- الخالدي ، المقصد ، ص ١٤٣ أ - ب .

٥- ابن شاهين ، زبدة ، ص ١٣٩ .

٦- نفس المصدر ، ص ١٣٠ .

الجديدة لإيصال المياه إلى أكبر مساحة ممكنة من الأراضي (١) ، وتكون وظيفة الخولة الإشراف على توزيع المياه، وقطعها عن المناطق التي تستكمل ريها ، وفتح الجسور لري المناطق الأخرى (٢) .

وعلى الدولة توفير الحماية للفلاحين ، وحراسة الجسور والخلجان في أثناء فيضان النيل ، ولذلك كان الكشاف يصطحبون معهم حاميات عسكرية (٣) ، تكون مهمتها ردع العربان المفسدين (٤) ، وحراسة مقاسم المياه والجسور ، خوفا من إحداث الفلاحين أو العربان مقاطع غير قانونية في الجسور ، وسد المقاطع التي تنجم عن قوة ضغط المياه في أثناء الزيادة (٥) ، لضمان زراعة أكبر مساحة ممكنة من الأراضي الزراعية .

ويبدأ التدخل المركزي من الدولة للسيطرة ، وتوجيه النشاطات الزراعية ، عند انتهاء زيادة النيل ، لضمان تحصيل الضرائب المفروضة على كل منطقة ، فترسل أمراء من مقدمي الألوف أو الأتابك لتحضير البلاد في كلا الوجهين (٦) ، وأميرين لتحضير البلاد السلطانية بالوجهين القبلي والبحري (٧) .

ويقصد بالتحضير قيام الدولة بمسح سنوي شامل لتحديد قانون الري ، فعندما ينزل الأمير الولاية ، يطلب مشايخ البلاد وسجلات كل بلد ، والمساحين الذين يجرون العمليات الحسابية لمعرفة المناطق التي رويت ، والأدلاء الذين ينظمون أوراق سجلات المساحة ، ويميزون أنواع الأراضي وأسماء الفلاحين (٨) .

ويشير المسح إلى الاختلاف بين كمية المياه الواصلة لكل منطقة ، وما استبحر من الأراضي ، وما شرق ، وما أحيي وعمر من البساتين (٩) ، وتقرير المحصول الذي سوف يزرع في كل قطعة ، وفق نوع المزروعات التي زرعت في السنة السابقة (١٠) ، وما في كل منطقة من أراض للخاص السلطاني ، أو للأمراء ، وإقطاعات الأجناد والرزق ، وما على كل منطقة من الضرائب (١١) .

١- المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ، ق٢ ، ص ٤٥٠ / البكري ، قطف ، ص ١٣١ أ .

٢- النويري ، نهاية ، ج١ ، ص ٢٦٥ .

٣- الصيرفي ، إنباء ، ص ٤١ / ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٣٨٢ .

٤- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٨٦٧ .

٥- النابلسي ، لمع القوانين ، ص ٢٦ أ ، تاريخ الفيوم ، ص ١٤٢ / ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٣٣٢ -٣٣٣ / الصيرفي ، إنباء ، ص٢٤، ٤٣ / علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج٣ ، ص٢٦٢ / قاسم عبد قاسم ، النيل ، ص١٢٠/ أحمد صادق ، تاريخ مصر، ص٤٥٠ .

٦- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٣١ ب .

٧- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد٩ ، ق٢ ، ص ٢٩٦ / العيني ، عقد ، حوادث ٨٢٤-٨٥٠ ، الطنطاوي ، ص ٣٧٣ .

٨- ابن ظهير الحنفي ، روضة الأريب ، ص ١٠٨٤ .

٩- النابلسي ، لمع القوانين ، ص ١٦ ب .

١٠- Cooper , Land Classification , JESHO , VOL XVII , Part I , 1974 , P 92 .

١١- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص ١٤٩ ، خطط ، ج١ ، ص ٨٨ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٩ ، ص ٣٦ .

وبعد الإنتهاء من التحضير ، توزع الأراضي أو الأحواض على الفلاحين القرارية (الدائمي الإقامة) ، والطوارئ (القادمين من النواحي المختلفة) ، ويبسط المباشر بذلك أوراقا تسمى أوراق المسجل أو السجلات ، يفصل فيها اسم كل فلاح ، وما يستلمه من الفدن ، وما عليه من الضرائب والضمان (١) ، وغالبا ما يتبع في تقسيم الأراضي النظام العشائري ، ذلك بمنح أحد البطون الساكنة بالقرية الأراضي الزراعية، وتخصيص أصحاب المواشي منهم (٢) ، كما تشير أوراق المسجل إلى التعامل الزراعي ، وهذا يفسر وجود منصب " قاضي الفلاحة " في المناطق الريفية (٣) ، للعمل على إبرام العقود الشرعية بين الفلاحين ، وأصحاب الأراضي ، والفصل في المنازعات الناشئة بينهم وفقا لمبادئ الفلاحة .

وعند استكمال عملية التحضير ، تبدأ الدولة صرف التقاوي في نهاية شهر توت (الأيام الأخيرة من شهر أيلول) (٤) ، وقد قسمت هذه التقاوي إلى قسمين :- التقاوي السلطانية ، وهي البذور التي تصرف لأصحاب الإقطاعات من الجند والأمراء ، عند منحهم إقطاعاتهم ، وتبقى دينا عليهم سداده عند خروج الإقطاع عنهم (٥) ، وقد بلغ حجم التقاوي زمن الناصر محمد بن قلاوون مئة وستين ألف إردب (٦) .

أما القسم الآخر فهو التقاوي البلدية ، وهي البذور التي تمنحها السلطنة الفلاحين ، ويراعى فيها أن تكون من أفضل الغلال وأطيبها وأنصعها (٧) ، وأن لا يزيد عمرها على سنة واحدة ؛ لأن ما زاد عمرها على ذلك لا خير فيها (٨) ، وأن تتوافر شروط التخزين الجيد الملائم لكل نوع منها (٩) ، وتستعاد من الفلاحين عند حصاد المحاصيل في شهر أيار (١٠) ، التي تفصل بذور السنة القادمة منها (١١) .

وتحدد الدولة في كل سنة مقدار التقاوي اللازمة لكل قرية ، فمثلا كانت التقاوي المقررة لقرية أطسا من الفيوم اثنين وثلاثين إردبا من القمح ، وأربعة عشر من الفول ، وأربعة عشر من الشعير (١٢) .

١- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص٢٥٠ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٢٥ .

٢- بولياك ، الإقطاعية ، ص ٦٣ ، ١٨٩ .

٣- السخاوي ، الضوء ، ج٣ ، ص ١٩٤ .

٤- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٣٧ .

٥- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٩١ .

٦- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٩١ ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص٤٧٣ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٩ ، ص ١٠٠ .

٧- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٢١ ، ٢٥٠ .

٨- أبو الخير ، كتاب الفلاحة ، ص ١١-١٢ / مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ١٢٥ .

٩- أبو الخير ، كتاب الفلاحة ، ص ١٧ / الغزي ، جامع فوائد ، ص ٣٧٣ / النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١١٠ -١١١ ، ٢٠٢ - ٢٠٣ .

١٠- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٥١ / النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٦٠ .

١١- الأسدي ، التيسير ، ص ١٤١ .

١٢- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٤٤ .

وقد نتج عن محدودية البذور المقررة لكل قرية ابتزاز الفلاحين من قبل الدولة ، وأصحاب البذور كالأمراء والتجار ومشايخ والقرى ، فكانت الدولة في القرن ٨ هـ /١٤ م تأخذ ضريبة ربوية تصل إلى ١٠٪ ، وكان مشايخ القرى والملاك وتجار الغلال والأمراء ، يأخذون ١١٪ ، لقاء إقراضهم الفلاحين البذور (١) . ويزداد الأمر سوءًا في سنوات الغلاء والأوبئة ، إذ يرفعون نسبة الفائدة أو سعر الغلال ، ففي سنة ٧٩٧ هـ / ١٣٩٤م لم يتمكن الفلاحون من زراعة معظم الأراضي ، بسبب ارتفاع أسعار البذور (٢) ، وازداد الأمر سوءًا في سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤م ، فعندما زاد النيل ، احتاج الفلاحون إلى البذور ، ولم يتمكنوا من شرائها بسبب انخفاض إنتاجها في سنة ٨٠٦ هـ /١٤٠٣م ، وحصر ملكيتها في يد فئة قليلة من الأمراء والتجار ، واحتكار الدولة لها ، وعدم السماح ببيعها للفلاحين إلا بأسعار مرتفعة ، مما أدى إلى تبوير مساحات واسعة من الأراضي ، وهجرة الفلاحين لأراضيهم (٣) .

وتحاول الدولة ضمان سير الأعمال الزراعية على أفضل وجه ، فتحرص منذ البداية على زراعة كل المناطق التي رويت بمراقبة الولاة لذلك ، وجعلها من مهماتهم الأساسية (٤) ، ومنح الولاة حق استخدام القوة لمنع الفلاحين من هجرة أرضهم ، وإعادة الذين هاجروا (٥) ، ومصادرة الأراضي الخراجية عند عجز أصحابها عن زراعتها ، ومنحها غيرهم بالإيجار أو المزارعة ، أو بيعها ، حتى لا تتأثر ميزانية الدولة (٦) ، وإجراء مسح شامل بعد طلوع الزرع ، للتأكد من مطابقة أوراق المسجل مع المسح الجديد (٧) ، وتزويد كاتب السر بنسخة من تعداد الأراضي المزروعة في الإقليم (٨) ، ومقاومة المباشرين بعض الآفات كالفئران (٩) ، وحماية المحاصيل الزراعية في أثناء المجاعات من اعتداءات أهل المدن ، إذ كان يشيع بين أهل المدن التوجه نحو الأرياف لأكل المزروعات (١٠) .

ويجمل الأسدي مهمات الدولة " بالأمر بالعمارة ، واستنباط الأراضي ، وإزالة الشواغل ، والنظر في عمارة كل ما هو مبور وعاطل ، والرفق بالزراع ، والتقوية لهم بالبذار والبقر ، وما يصلح لهم من الآلات ، والمؤن والمتاع ، ومنع من يعتدي عليهم ، وإزالة ضررهم " " وحفر الخلجان والترع ، وإزالة الموانع والشواغل المضرة للزروع في الأراضي والبقاع ، وإصلاح الجسور والقناطر ، وتعديل مصارف الماء ومسيلاته في كل قطر " (١١) .

١- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٥٢ .

٢- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد٢ ، ق٢ ، ص ٣٩٩ / المقريزي ، إغاثة ، ص ٤١-٤٢ .

٣- المقريزي ، إغاثة ، ص ٤٢ - ٤٣ .

٤- Margolioth , Cairo , P 78.

٥- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٩٨ / ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ١٠٤ .

٦- العيني ، البناية ، ج٦ ، ص ٦٥٦ .

٧- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٢٥ - ٥٢٦ .

٨- ليون الإفريقي ، وصف إفريقيا ، ص٥٦٠ .

٩- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص ١٥٧ .

١٠- المقريزي ، إغاثة ، ص ٣٦ .

١١- الأسدي ، التيسير ، ص ٩٠ ، ٩٣ .

ويتضح مما سبق أن سياسة الدولة تقوم على أساس زراعة أكبر مساحة ممكنة من الأراضي الزراعيـة ، وأن الـهدف من ذلك ليس تحقيق مصلحة الفلاح ، وتحسين أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية ، بل تحقيق أكبر قدر ممكن من الضرائب ، وتقرير الإجراءات الكفيلة بذلك ، حتى لا تتأثر الميزانية العامة للدولة .

ومنذ بداية القرن ٩هـ / ١٥م ، أصبح تحقيق المصلحة الذاتية للأمراء والسـلطان وأصحـاب الغـلال ظـاهرة مسيطرة على سياسة الدولة ، وأصبحت البذور الوسيلة الأولى لابتزاز الفـلاح المصري ، فـارتفعت أسـعارها ، وصـار الإنتاج لا يكفي لسـد عـوز الفلاح ، فانخفضت وفـق ذلك مسـاحة الأراضي الزراعيـة ، ورافق ذلك تراجـع في صيانة شبكات الـري ، فتأثرت ميـزانية الدولـة ، لأن الضـرر الذي أصاب شبكات الـري كـان كبيرا ، فبـاءت المحـاولات الكثيرة للسلطانين قايتباي وقانصوة الغوري لاصلاح ذلك بالفشل (١) .

مشكلات النظام الزراعي :-

تعرضـت الحيـاة الزراعيـة في الفـترة المملوكيـة الثانيـة لمجموعـة مـن المشـكلات ، نجمـت عـن الممارسـات والظروف المناخية ، وأدت في مجموعها إلى عدم استقرار الإنتاج الزراعي .

وقد ساهم الفساد الإداري ، من بيع الوظائف وانتشـار الـبرطلة (الرشـوة) ، التي أصبحـت الوسـيلة الأولى للحصول على الوظائف الدينية والدنيـوية في تـراجع الحيـاة الزراعيـة ، فمـنذ عهـد الســلطان بـرقــوق ، صــارت ولاية الأعمـال تمنح من يتعهـد دفـع مبلغ معـين ، حـتى لوكـان لا يمتلك ذلـك ، فيضطـره إلى الإسـتدانة لتسـديد تعهـده ، وعنـد مطـالبة أرباب الديون له يلجأ إلى جمع ذلك مـن أهـل النواحـي ، باسـتخدام شـتى الوسـائل ، ويـزداد الأمـر سـوءا إذا مـا اسـتبدل قبـل تسـديـد تـعهـده ، إذ يضطـر للتعهـد بـدفـع مـبلـغ جـديـد ، فيـزداد ظلـم الفـلاحين (٢) ، وخاصـة أن مثل هذه الفئـة مـن الـولاة وجـدت مـن يحميهـا مـن الأعيـان ، باعتقـال المتظلمـين مـن الفلاحين ، وعدم السـماح بوصول شكاواهم إلى السلطنة (٣) .

ونجم عن هذا الفساد أيضا جور الـولاة والكشـاف والجباة ، فتعدوا على الفلاحين بـالضرب والحبس، ونهب الأمـوال والمتاع والبهـائم ، والقتل في بعض الأحيان ، وإلزامهم ضرائب جديـدة (٤) ، " فدهـي أهـل الريـف،

١- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٨٦ ب ، ٢٨٨ ب ، ٣٠٣ ب ، ٣٠٥ ب ، ٣٠٦ ب ، ٣١٢ أ ، ٣٢١ ب ، ٣٩٦ب / ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٢٥ ، ٢١٥ ، ج٤ ، ٢٣٢ ، ٣٧٣ .

٢- المقريزي ، إغاثة ، ص ٤٣ -٤٤ .

٣- الأسدي ، التيسير ، ص ٩٥ - ٩٦ .

٤- نفس المصدر ، ص ٩٤ - ٩٥ .

بكثرة المغارم ، وتنوع المظالم ، فاختلت أحوالهم ، وتمزقوا كل ممزق ، وجلوا عن أوطانهم ، فقلت مجابي البلد ومتحصلها ، لقلة ما يزرع ، ولخلو أهلها ، ورحيلهم عنها ، لشدة الوطأة من الولاة عليهم وعلى من بقي منهم "، وازداد الأمر سوءًا بعد وفاة السلطان برقوق ، واحتدام الصراع بين الأمراء ، فثارت الأرياف ، وانتشر الزعار من اللصوص ، والمتشردين ، وقطاع الطرق (١) .

ومنذ نهاية القرن الثامن الهجري ، وبداية القرن الخامس عشر الميلادي ، ابتدأ الفلاح المصري يعاني ازدياد كلفة الإنتاج الزراعي على عوائده بسبب ازدياد الضرائب المفروضة عليه ، باسم صيانة مشروعات الري كالترع والجسور ، وارتفاع أجرة الأعمال الزراعية ، من الحراثة والحصاد والدراس ، وارتفاع أجرة الأطيان ، بعد انهيار قيمة العملة النحاسية ، وارتفاع قيمة الذهب ، وازدياد الصراع السياسي بين الأمراء ، واتخاذ الأمراء رفع الأجور وسيلة لتحقيق مصدر دخل مرتفع وثابت ، واتخاذ وكلائهم من رفع الإيجارات ، وسيلة للتقرب إلى أصحاب الإقطاعات ، حتى بلغت الإيجارات عشرة أمثالها (٢) .

وقد واجه الفلاح المصري مشكلة ارتفاع أسعار البذور خاصة في سنوات المجاعات ، ففي سنة ٧٩٧ هـ/١٣٩٤م عجز الفلاحون عن زراعة الأراضي بسبب ارتفاع أسعار البذور ، نتيجة لشراقي معظم الأراضي في سنة ٧٩٦ هـ/١٣٩٣م وانخفاض الإنتاج الزراعي (٣) ، وازداد الأمر سوءًا في السنوات ٨٠٦ هـ/١٤٠٣م و٨٠٧ هـ /١٤٠٤م و ٨٠٨هـ/١٤٠٥م فارتفعت أسعار البذور ، خاصة في فترة الزراعة ، ويوضح الجدول التالي تسلسل هذا الارتفاع قبيل بداية الموسم الزراعي وفي شهري ربيع الأول وربيع الثاني في أثناء زراعة المحاصيل واحتياج الفلاحين للبذور :-

---

١- المقريزي ، إغاثة ، ص ٤٤- ٤٥ .

٢- المقريزي ، إغاثة ، ص ٤٥ -٤٧ ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٢٨ -٢٩ ، ٢٢٦ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١٣ ، ص١٠٨/ ابن إياس ، بدائع ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٧٥٨ - ٧٥٩ .

٣- المقريزي ، إغاثة ، ص ٤٦ - ٤٧ .

السنة	البذور	الشهر	السعر
٨٠٦هـ /١٤٠٣م	القمح	١ محرم	١٠٠ درهم / إردب
		نهاية محرم	١٢٠ درهم / إردب
		١ صفر = ٢٧ مسرى	١٣٠ درهم / إردب
		١ ربيع الأول	١٨٠ درهم / إردب
		٢٠ ربيع الأول	٢٥٠ درهم / إردب
	الشعير	١ محرم	٦٠ – ٧٠ درهم / إردب
		١ ربيع الأول	١٠٠ درهم / إردب
		٢٠ربيع الأول	٢٣٠ درهم / إردب
	الفول	١ محرم	٧٠ درهم / إردب
		٢٠ ربيع الأول	٢٣٠ درهم / إردب
	الأرز	١ محرم	٢٠٠ درهم / إردب
	لب القرع		١٠٠ درهم / قدح
	الرجلة		٧٠ درهم / قدح بعد ٢ درهم / قدح
٨٠٧ هـ / ١٤٠٤م	القمح	ربيع الأول	٤٠٠ درهم / إردب
	الشعير	ربيع الأول	٢٠٠ درهم / إردب
	الفول	ربيع الأول	٣٢٠ درهم / إردب
	الحمص	ربيع الأول	٥٠٠ درهم / إردب
	البرسيم	ربيع الأول	٨٠٠ درهم / إردب
	الرجلة	ربيع الأول	٦٠ – ٨٠ درهم / قدح
	القرع	ربيع الأول	١٢٠ درهم / قدح
٨٠٨ هـ / ١٤٠٥م	القمح	ربيع الأول	٢٢٠ درهم / إردب
		ربيع الثاني	٢٦٠ درهم / إردب
	زريعة الجزر		٥٠٠ درهم / إردب
	الفجل		١٥٠ درهم / قدح
	اللفت		٨٠ درهم / قدح *

القدح = ٧١٦,٨٣ غم (هنتس ، المكاييل والأوزان ، ص ٦٥ / وكل إردب = ٩٦ قدح (المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١١٢٠ / هنتس ، المكاييل والأوزان ، ص ٦٥) .

* حول الجدول راجع :- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق ٣ ، ص ١١١١ ، ١١١٣ ، ١١١٥ ، ١١١٦ ، ١١٢٥ ، ١١٣٣ ، ١١٣٤ ، ١١٥٢ ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣ ، ٤ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق ٢ ، ص ٦٩٧ ، ٧٣٧ .

و نتج عن هذا الارتفاع تعطل مساحات واسعة من الأراضي الزراعية في بلاد الصعيد في سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤م ، وانخفاض عدد الفلاحين وتشردهم ، وعجز أرباب الأراضي عن شراء البذور . وأصبح انخفاض الإنتاج الزراعي في بلاد الصعيد ظاهرة ملموسة ، حتى تحولت إلى مستورد للقمح من القاهرة في سنة ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م ، بعد أن كانت المصدر والمخزن الأول (١) ، وارتفع سعر بذر البرسيم في سنة ٧٢٧ هـ/١٤٢٣م إلى ١٢٠٠ درهم / إردب (٢) ، وأدى الشراقي في سنة ٨٥٥ هـ /١٤٥١م إلى ارتفاع أسعار التقاوي ، وعجز الفلاحين عن شرائها(٣)، وبلغ القمح في سنة ٩٠٣ هـ/١٤٩٧م ٣ دنانير / إردب (٤) ، وبذر البرسيم في سنة ٩١٧ هـ/١٥١١م ٥دنانير / إردب (٥) .

ويتكون العربان من أهل البوادي الرحل ، وعدد كبير من الفلاحين الذين أجبرهم إهمال الولاة لصيانة مشروعات الري ، والاعتداءات المتكررة عليهم من الولاة والجباة ، واستيلاء أصحاب الجاه والنفوذ على أراضيهم ، وإدراكهم أن كل الجهود التي يبذلونها تذهب إلى هذه الفئة الغريبة التي تحكمهم ، إلى الهجرة ، وترك زراعة الأرض، والانتماء إلى حركات العربان وسيلة للعيش والتعبير عن رفضهم لهذه الأوضاع (٦) ، وهذا يفسر ترادف كلمة الفلاحين مع العربان (٧) ، وعدم تفرقة السلطنة في قمعها لحركات العربان بين الفلاحين وأهل البادية ، وقتل رجال الطرفين ، وسبي أطفالهم ونسائهم (٨) .

وتنشط حركات العربان عند إدراكهم لضعف السلطنة ، وتدهور الأوضاع السياسية ، فقد استغلوا الصراعات الداخلية بين الأمراء في سنة ٧٥٥ هـ/١٣٥٤م لنهب المحاصيل ، وحواصل قصب السكر والقنود والأعسال ، وذبح أبقار السواقي (٩) ، ولجأوا في سنة ٩٠٢ هـ /١٤٩٦م إلى حرق الغلال وهي في الجرون ، عند احتدام الصراع بين الأمراء على السلطنة بعد وفاة السلطان قايتباي ، فوقع الغلاء (١٠) ، كما انتهزوا خروج الجيوش لقتال التركمان في سنة ٨٩٣ هـ / ١٤٨٧م (١١) ، وانهزام المماليك أمام التركمان في سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧م (١٢) ، وأمام العثمانيين في معركة مرج دابق في سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦م لشن غاراتهم ، ونهب

---

١ – المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق ٢ ، ص ٦٠٣ .

٢– الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ٧٠ .

٣– ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٥ ، ص ١٧٩ ، حوادث ، ج٢ ، ص ٣٣٣ .

٤– ابن إياس ، بدائع ، ج ٣ ، ص ٣٨٢ .

٥– نفس المصدر ، ج٤ ، ص ٢٤١ .

٦– الأسدي ، التسير ، ص ٩٣ –٩٤ .

٧– ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١١ ، ص ٢٧٧ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٦٢ ب / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١، ص٥٥٠ ؛ ج٥ ، ص ٥٦ .

٨– السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ٩٩٣ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٠٧ ب ، ٣٦٣ ب – ٣٦٤ أ .

٩– المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٩٠٨ .

١٠– ابن إياس ، بدائع ، ج٥ ، ص ٧٩ .

١١– القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٣٧٦ ب .

١٢– ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ١٣ .

الغلال في مناطق البحيرة والشرقية وبلاد الوجه القبلي (١) .

وتتميز حركات العربان بأنها ردة فعل تجاه سياسة السلطنة والولاة (٢) ، وتجاه مقتل شيوخ القبائل العربية وأبنائها ، ونهب الأموال ، وسبي النساء والأطفال ، واستحلال الفروج ، وعدم تمييز الأمراء في قمعهم للحركات بين الفلاحين البسطاء والعربان (٣) ، وتمثلت بأعمال استهدفت الحياة الزراعية ، ففي سنة ٨٣٤هـ / ١٣٣٣ م أحرق أبناء هوارة الغلال ، بعد قبض السلطان على شيخهم وتوسيطه (٤) ، وفي سنة ٨٧٣ هـ /١٤٦٨م نهبت هلباء بن سويد بن حذام المحاصيل في الوجه القبلي ، بسبب سبي الدوادار يشبك ٤٠٠ امرأة وعددا من الأطفال ، وإرسالهم للقاهرة (٥) ، ونهبت حذام الغلال في منطقة الشرقية ، بسبب توسيط الكاشف لجماعة منهم في سنة ٨٧٦ هـ/١٤٧١م (٦) ، كما نهبت في سنة ٩١٩ هـ/١٥١٢م الغلال وقطعت جسر الحلفاية ، فتدفقت المياه على الأراضي قبل أوانها ، وألحقت أضرارا اقتصادية بمنطقة الشرقية ردا على قتل كاشف الشرقية لأحد مشايخهم (٧) .

واتخذت بعض حركات العربان من نهب محاصيل السلاطين والأمراء وغلالهم وخيولهم هدفا لها ، فسيطروا في سنة ٧٩٢ هـ /١٣٨٩م على أموال الخراج السلطانية ببلاد الصعيد (٨) ، ولجأ قسم منهم إلى الهجوم على مراكب الأمراء وغلالهم في سنة ٨٢٥ هـ /١٤٢١م (٩) ، وهدموا سواقي الأمراء في سنة ٨٤٢ هـ /١٤٣٨م (١٠) ، ونهبوا الخيول وهي في مرابعها في سنة ٨٧١ هـ /١٤٦٦م وفي سنة ٨٧٩ هـ /١٤٧٤م (١١) ، وهاجم بنو عقبة والنعايم في سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م ضياع الشرقية ، ونهبوا غلالها ، وأربعمئة رأس من أغنام السلطان والدوادار (١٢) .

واستخدمت بعض حركات العربان قوتها لكسب العيش والتخريب ، ويزداد نشاط هذه الفئة ، في فترة جمع الغلال في الجرون (١٣) ، فنهبوا في سنة ٧٨٥ هـ /١٣٨٣ م نواحي الفيوم (١٤) . وانتشر عربان الزهيرية

١- ابن إياس ، بدائع ، ج٥ ، ص ٥٦ .

٢- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج ٢ ، ص ٣٥٥ أ .

٣- السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ٩٩٣ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٣٦٣ ب -٣٦٤ أ .

٤- ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٢٣٤ .

٥- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٠٧ ب .

٦- نفس المصدر ، ص٢٣٠ ب .

٧- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٣٢٥ .

٨- ابن حجر ، إنباء ، ج٣ ، ص ٣٢ .

٩- ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٤١٤ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٢٦٣ أ .

١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ١١٣٢ .

١١- ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص ٤٤٧ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٦٢ أ .

١٢- ابن إياس ، بدائع ، ج٥ ، ص ٧٩ .

١٣- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق ١ ، ص٣٥٢ / ابن حجر ، إنباء ، ج٣ ، ص١٩٥ .

١٤- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٤٩٨ .

الزهيرية في سنة ٧٩١هـ /١٣٨٨م ببلاد الريف ينهبون ويفسدون (١) ، وأحرقوا في سنة ٨٢٥ هـ/ ١٤٢١م نواح كثيرة بما فيها من الغلال (٢) ، وهاجمت هوارة بالوجه القبلي بعض القرى ورعت زروعها في سنة ٨٤٢ هـ/ ١٤٣٨م(٣) . ودمر بنو بقر قطيا ، وأحرقوا أشجارها في سنة ٨٧٥ هـ /١٤٧٠م (٤) ، وأدت هجمات بني غريب إلى عدم استكمال تحضير بلاد البحيرة (٥) ، وقطع العربان في سنة ٩١٢ هـ/١٥٠٦م جسر سبنيت والحلفاية ، وهذا أدى إلى عدم زيادة النيل لأحل هذه المقاطع (٦) ، ونهبوا ضياع الشرقية في سنة ٩١٣ هـ /١٥٠٧م (٧) ، وتحركت عربان عزالة بالبحيرة في سنة ٩١٨ هـ/ ١٥١٢م ، وزحفوا على البلد فنهبوا المغل وأفسدوا الزروع ، وطردوا كاشف الشرقية وغيره من البلاد (٨) .

ويلاحظ أن الحملات العسكرية التي ترسلها السلطنة لحماية المحاصيل في الفترة لقبض المغل أو لقمع حركات العربان ، شكلت عبئا جديدا على الفلاح المصري والزراعة ، بما يقوم به أفرادها من رعي ونهب وإفساد للغلال والزروع (٩) .

ويصاحب الأوبئة والطواعين نقص في الأيدي العاملة ، وهذا ما دفع بعض الجنود والمقطعين في سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م، إلى الخروج لضم المزروعات ، ومحاولة إغراء الفلاحين بمنحهم نصف المحصول ، لقاء جمعه ، ومع ذلك لم تتمكن الفئة الباقية من الفلاحين من جمع غالب الزروع (١٠) ، وعجز أهل بلبيس والمحلة عن ضم الزروع ، لكثرة موت الفلاحين (١١) ، وتعطلت بساتين منطقة دمياط وسواقيها ، وضعفت أشجارها (١٢) . ويدل استعمال عبارات: أدى طاعون سنة ٨٠٠ هـ/١٣٩٧م إلى خلو أكثر البلاد من سكانها (١٣) ، وطاعون سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م إلى إخلاء عدة بلاد بالوجه القبلي (١٤)، وموت معظم أهل هو في سنة ٨١٩ هـ/١٤١٦م (١٥) ،

١- الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص ٢٣٢ .
٢- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق ٢ ، ص ٦٠٣ .
٣- الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ٧٩ أ .
٤- الصيرفي ، إنباء ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .
٥- نفس المصدر ، ص ٣٥١ .
٦- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٩٦ .
٧- نفس المصدر ، ص ١١٥ - ١١٦ .
٨- نفس المصدر ، ص ٢٥٦ .
٩- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٣٠ ، ج٤ ، ق٣ ، ص ١٠٧٧ ، ١١٦٠ - ١١٦١ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ١٨٤، ١٨٥ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ٤٠٦ ، ٥٦ أ / ابن إياس ، بدائع ، ج ٣ ، ص ٢٤٧ .
١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٧٨٥ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٠ ، ص ١٦٥ .
١١- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص٧٧٩ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٠ ، ص ١٦٠ .
١٢- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٧٧٩ .
١٣- العيني ، عقد ، ص ١١ ب / ابن الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص ٤٧٢ .
١٤- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص١٩ / السخاوي ، وجيز ، ج١ ، ص٣٨٢ / ابن إياس ، بدائع ، ج ١ ، ق٢ ، ص٧٥١ .
١٥- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق١ ، ص ٣٤٨ - ٣٤٩ / السخاوي ، وجيز ، ج٢ ، ص ٤٤١ .

وموت ما لا يقل عن ستمئة إنسان في كل كفر من كفور الوجه البحري في سنة ٨٣٣ هـ /١٤٢٩م(١) ، وإخلاء القرى والديار في سنة ٨٨١ هـ /١٤٧٦م (٢) ، ولم يبق إلا النزر اليسير في بلبيس في سنة ١٤٩١/٨٩٧م (٣) ، على موت عدد كبير من الفلاحين ونقص الأيدي العاملة في الزراعة .

وتساهم الأوبئة والطواعين في القضاء على الحيوانات والأبقار ، التي تعد رأس مال ثابت للفلاح ، إذ يعتمد عليها في جميع أعماله الزراعية ، كالحراثة وإدارة السواقي ودراسة المحاصيل ، وتشغيل معاصر قصب السكر ، ولذلك فإن أي فقدان لها يعني ازديادا في أجرتها وفي كلفة الإنتاج الزراعي (٤) . ففي حين كان سعر البقرة في سنة ٧٩٤هـ/١٣٩١م خمسمئة درهم (٥) ،(١٨,٨٦٧ دينارا *) ، ارتفعت أسعارها في سنة ٨٠٨ هـ /١٤٠٥م إلى ٨٠٠٠ درهم (٥٧,١٤٣ دينارا **) ، بسبب إصابتها بالطاعون (٦) ، وفي سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٥م إلى ١٣,٠٠٠ درهم تقريبا أو مئة دينار (٧) ، ووصل سعرها في سنة ٨٥٥ هـ/١٤٥١م إلى ١٢٠ دينارا ، وبعضها إلى ٤٠,٠٠٠ درهم (١٢٥ دينارا) (٨) . كما تلحق الطواعين خسائر مادية بالفلاح ، فقد انخفضت أسعار الأبقار في سنة ٧٩٤ هـ/١٣٩١م إلى خمسة دراهم (٠,١٨٦٦٧٩٧ دينارا) بعدما كان سعرها ١٨,٨٦٧ دينارا أو خمسمئة درهم(٩) ، وماتت العجول الحديثة الولادة في سنة ٨٤١ هـ/ ١٤٣٧م لإصابتها بالطاعون (١٠) .

وساهمت الظروف المناخية القاسية ، كالأمطار والرياح والبرد والصقيع والجفاف في إلحاق خسائر مادية كبيرة بالفلاحين في بعض السنوات ، فنتج عن انحباس الأمطار في سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥م و ٨٢٢ هـ/١٤١٩م عدم صلاح الزروع بنواحي الوجه البحري بأكمله ،كما في الشرقية والغربية والبحيرة (١١) ، وتكرر انخفاض الإنتاج في سنة ٨٣١ هـ/١٤٢٧م في منطقتي الجيزة والوجه البحري ، وأدى إلى ارتفاع الأسعار (١٢) .

١- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٨٢٥ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ١٨٦ - ١٨٧ .
٢- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٨٠ أ .
٣- السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ١٢٣٧ .
٤- بيبرس المنصوري ، مختار ، ص ١١٥ ، كتاب التحفة ، ص ١٦١ / Tucker , Natural disasteres , (JESHO) , VOL. XXIV , 1981 , P 230.
٥- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ج٢ ، ص ٣٠٨ / ابن قاضي شهبة ، تاريخ ، ج٣ ، ص ٤٣ / المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٤٥٤ / السخاوي ، وجيز ، ج١ ، ص ٧٦٩ / ابن حجر ، إنباء ، ج٣ ، ص ١١٨ .
* سعر صرف الدينار كان ٢٦,٥ درهم (المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ٨٠٧) .
** سعر صرف الدينار ١٤٠ درهما (المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١١٧٠ .
٦- المقريزي ، إغاثة ، ص ٦٣ ، السلوك ، ج٤ ، ق ١ ، ص ٥ ، ٦ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٧٣٨ .
٧- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق ٢ ، ص ٧٥١ .
٨- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١٥ ، ص ١٧٩ ، حوادث ، ج٢ ، ص ٣٣٣ / السخاوي ، التبر ، ص ٣٥٢ - ٣٥٣ .
٩- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ج٢ ، ص ٣٠٨ .
١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ١٠٣١ ، ١٠٤٦ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٥ ب .
١١- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٣٠ ، ٥١٠ .
١٢- نفس المصدر ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٦٧ .

ولا يقل تأثير غزارة الأمطار عن تأثير انحباسها ، إذ أغرقت الأمطار في سنة ٧١٦ هـ/١٣١٦م بلبيس ومزارعها (١) ، وأتلف سقوطها في غير أوانها في سنة ٧٥٦ هـ/١٣٥٥م كثيرا من مزارع الوجه البحري (٢) ، وأغرقت زروع طرا في سنة ٧٨٣ هـ/١٣٨١م (٣) وأهلكت بعض قطعان الماشية في الغربية في سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨م (٤) ، وأتلفت المقاثي وبعض الأشجار في الوجه البحري في سنة ٨٢٦هـ/١٤٢٢م(٥) ، كما دمرت بعض البيوت والأمتعة في سنة ٨٣٨هـ/١٤٣٤م (٦) .

وتحدث الرياح تأثيرا كبيرا في الأشجار ، والزروع والحيوانات في بعض الأحيان ، فقد أفسدت في سنة ٧٠٧ هـ/١٣٠٧ م زروع البلاد " فهافت الغلة ، ورجعت كثرتها إلى القلة ، وجف الزرع بكل مكان ، وجف الضرع من كل حيوان " (٧) . وشمل هبوب الرياح في سنة ٧١٤ هـ/١٣١٤م الوجهين القبلي والبحري ، مهلكا كثيرا من الأغنام (٨) ، وفي سنة ٧١٨ هـ/١٣١٨م غطت الرياح النباتات بتراب أصفر في منطقة الوجه البحري ، وأتلفت بعض الغلال (٩) ، وألقت الرياح النخيل في سنة ٧٢٠ هـ /١٣٢٠م (١٠) ، وأفسدت الثمار والغلال في سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣م (١١) ، واقتلعت في سنة ٧٢٤ هـ/١٣٢٣م من بلاد قوص وأسوان ٤,٠٠٠ نخلة في ليلة واحدة (١٢) ، ومن ناحية عرب قمولة ٤٠٠٠ نخلة في ساعة واحدة ، وأهلكت كثيرا من دوابها (١٣) ، وألقت ٢,٥٠٠ نخلة في منطقة عرب قمولة ، وكثيرا من أشجار النخيل في أسوان في سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧ م(١٤) ، وألقت الكثير من نخيل الغربية والبحيرة في سنة ٧٤٠ هـ/١٣٣٨م(١٥) .

وشملت في سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م الوجهين القبلي والبحري واقتلعت كثيرا من أشجار النخيل (١٦) ، وأثرت على الغلال في سنة٧٤٢ هـ /١٣٤٢م وأتلفت كثيرا من مزروعات البحيرة والغربية والمنوفية والشرقية

١- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص ١٦٠ .

٢- نفس المصدر ، ج٣ ، ق١ ، ص ٢٢ .

٣- ابن حجر ، إنباء ، ج٢ ، ص ٥٧ .

٤- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٤ .

٥- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق ٢ ، ص ٦٣٤ / ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٩ .

٦- ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٣٥٣ .

٧- بيبرس المنصوري ، كتاب التحفة ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

٨- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٥١٤ .

٩- نفس المصدر ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٣٥٢ - ٣٥٣ .

١٠- نفس المصدر ، ج٢ ، ق١ ، ص ٢٢١ .

١١- نفس المصدر ، ص ٢٥٠ .

١٢- نفس المصدر ، ص ٢٥٤ .

١٣- نفس المصدر ، ص ٢٥٧ .

١٤- نفس المصدر ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٤٥٤ .

١٥- نفس المصدر ، ص ٤٨٨ .

١٦- نفس المصدر ، ص ٥١٤ .

والإسكندرية ، لا سيما الفول الذي تلف عن آخره (١) . واقتلعت أشجار الغيطان في سنة ٧٥٩ هـ / ١٣٥٧م (٢) ، وأسقطت كثيرا من النخل في سنة ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م(٣) ، وكادت تقضي على محصول الشعير كله في سنة ٨١٣هـ / ١٤١٠م (٤) ، وأسقطت بناحية أبيار من الغربية ١٢٠٠ نخلة ، وكثيرا من السنط والسدر والجميز في سنة ٨٢٦هـ/١٤٢٢م(٥) ، وأتلفت كثيرا من أشجار قرى الوجه البحري (٦) ، ودمرت كثيرا من زروع الوجه القبلي والشرقية (٧) ،وقلعت كثيرا من نخيل وأشجار دمياط ، ولا سيما الموز ، وأفسدت الأقصاب (٨) ، واقتلعت الأشجار في سنة ٨٦٢ هـ / ١٤٥٧م (٩) ، وبعض الأشجار بدمياط (١٠) ، وأسقطت غالب المشمش في سنة ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢م (١١) ، وأتلفت أشجار الموز بدمياط ونواحيها ، وقلعت كثيرا من الأشجار في سنة ٨٨٨ هـ/١٤٨٣م (١٢) ، وأدت في سنة ٨٩٠هـ/١٤٨٥م إلى قلع النخيل وهيجان البحر ، وتغطية مياهه كثيرا من بساتين دمياط وفارسكور (١٣) .

ويلحق البَرَد ضررا بليغا بالثروة الزراعية والحيوانية ، فعندما سقط في شهر طوبه في سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م بمنطقتي الدقهلية والمرتاحية ، أتلف مزارع واحد وسبعين بلدا من الغربية وحيواناتها، واثنين وثلاثين بلدا من البحيرة (١٤) ، ودمر سنابل قمح ثمانية وعشرين بلدا عندما سقط في أوان الحصاد في سنة ٧٣٨ هـ/١٣٣٧م ، وأهلك عددا من الحيوانات في سنة ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م (١٥) وبعض المزارع ، وعددا كبيرا من الأغنام ببلاد البحيرة والغربية في سنة ٧٤٠ هـ/١٣٣٩م (١٦) . وسقط البرد في سنة ٧٤١ هـ/ ١٣٤٠م ببلاد الشرقية والغربية والمنوفية ، وأتلف كثيرا من الغلال وهي في الأجران ، وقتل من الغنم والدجاج شيئا كثيرا (١٧) ، وبعض الأغنام في سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م (١٨) ، وأتلف زروعا كثيرة آن حصادها في الغربية، منها مارس بلغت مساحته ٨,٠٠٠ فدان ،

١- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٦٩٥ .
٢- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ٥٦٢ .
٣- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق١ ، ص١٧١ .
٤- نفس المصدر ، ج٤ ، ق١ ، ص ١٣١ .
٥- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٣٥ / ابن إياس ، بدائع ، ج ٢ ، ص٨٦ .
٦- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٣٥ .
٧- العيني ، عقد ، حوادث ٨٢٤ - ٨٥٠هـ ، الطنطاوي ، ص ٢٠٠ .
٨- ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٢٩٨ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ٢٧٥ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٣٢٩ ب .
٩- السخاوي ، وجيز ، ج٢ ، ص ٧١٢ .
١٠- ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ١٨٧ .
١١- السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ٩٣٠ .
١٢- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٣٢٥ أ .
١٣- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٦٠ .
١٤- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص ٢٤٠ .
١٥ - نفس المصدر ، ج٢ ، ق٢ ، ص٤٥٤ .
١٦- نفس المصدر ، ص ٤٨٨ .
١٧- نفس المصدر ، ص ٥٢١ .
١٨- نفس المصدر ، ج٣ ، ق١ ، ص ٢١ - ٢٢ .

وعددا كبيرا من الأغنام في سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م (١) ، وأتلف قسما من نخيل الوجه البحري وأشجاره في سنة ٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م (٢) . ونتج عن سقوطه بمنطقة بني عدي بالبهنسا في سنة ٨٣٢ هـ/١٤٢٨م ، نفوق كثير من الدجاج والغنم والأبقار ، فمثلا بلغت خسائر رجل ٦٠ رأسا من الضأن وآخر ٥٠ رأسا من الماعز (٣) ، وأتلف في سنة ٨٦٠هـ/١٤٥٥م زروع قرى نامول وسنديون ونوى من بلاد القليوبية (٤) ، ونفوق كثير من الحيوانات والطيور، وأتلف معظم مزروعات بلاد الشرقية والمنوفية والغربية وبعض مناطق البحيرة (٥) ، ونفوق كثير من طيور الغربية في سنة ٨٨٦ هـ/١٤٨١م (٦) ، ودمر مزروعات قرية دمروة من الغربية في سنة ٨٨٧ هـ /١٤٨٢م (٧) ، ونفوق بعض طيور منطقة دمياط وبهائمها في سنة ٨٩٨ هـ/١٤٩٢م (٨) ، وأدى سقوطه في سنة ٩١٦ هـ/١٥١٠م إلى نفوق البهائم بالشرقية والغربية والمنوفية ، وعطب أولاد الفلاحين ، وبعض الزروع (٩) .

وقد أدى تكون الصقيع في بعض السنوات إلى الإضرار بالدواب والمزروعات ، فأهلك في سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٣م عددا كبيرا من الدواب في الأرياف ، وجفف بعض الزروع (١٠) ، وأفسد كثيرا من مزارع الحمص والفول ببلاد الصعيد في سنة ٨٣١ هـ/١٤٢٧م(١١) ، وجفف أوراق الأشجار ، وكثيرا من المزروعات كالخيار والفول والجزر ، وأصبحت وقودا للأفران في سنة ٨٤٤ هـ/١٤٤٠م (١٢) ، وتكرر إحراقه لأوراق الأشجار كأشجار الفواكه ، والمزروعات كالقرط والقمح والقثاء في سنوات ٨٧٠ هـ/١٤٦٥م و٨٩٥ هـ/١٤٨٩م و ٩١٤هـ/١٥٠٨م و٩١٧ هـ/ ١٥١١م (١٣) .

أما الرياح الحارة والجافة ، فقد أدت في سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م إلى إحراق عدد من جرون الغلال(١٤)، وفي سنة ٧٤٥ هـ/١٣٤٤م إلى حرق رؤوس الأشجار ، وبعض زريعة الباذنجان والكتان (١٥) ، و في سنة ٨٣٢ هـ/١٤٢٨م أتلفت الزروع وأضرت بالخضروات (١٦) .

١- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٤٤٠ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٣٠٠ .
٢- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٦٣٥ .
٣- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٩٠ .
٤- ابن تغري بردي،حوادث،ج٢ ،ص ٥٧٠ /القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ١١١ أ / ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص ٣٣٢ .
٥- ابن تغري بردي، النجوم، ج١٦ ،ص١٩٨ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص١٣٨ أ / ابن إياس ،بدائع ، ج٢ ، ص ٣٧٤ .
٦- السيوطي ، حسن ، ج٢ ، ص ٤٨ .
٧- السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ٩٢٩ - ٩٣٠ .
٨- ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٢٩٤ .
٩- نفس المصدر ، ج٤ ، ص ١٨٩ - ١٩٩ .
١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٥٦ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٢٧٩ أ .
١١- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٧٨ / ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ١٥٠ .
١٢- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٣ ، ص ١٢١٥ ، ١٢٢٠ / ابن حجر ، إنباء ، ج٩ ، ص ١٢٨ .
١٣- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ١٧١ أ ، ٢٣٩١ أ / ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٢٩٥ ، ج٤ ، ص ١٥٠ ، ٢٣٥ .
١٤- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص ١٦٢ .
١٥- نفس المصدر ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٦٧٣ .
١٦- ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٣٩٠ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ١٦٠ .

وتعرضت المزروعات لبعض الآفات الزراعية كالجراد والديدان والفئران ، فانتشر الجراد في منطقة طرا في سنة ٨٣٠ هـ/١٤٢٦م وأهلك بعض الزروع (١) ، وكثر في سنة ٨٣٥ هـ/١٤٣١م (٢) ، وفي مصر وضواحيها والقاهرة في سنة ٨٤٠ هـ/١٤٣٦م(٣) ، وأتلف في سنة ٨٤١ هـ/١٤٣٧م كثيرا من المقاثي كالخيار والبطيخ والقثاء والقرع (٤) ، وكثر في ربيع الأول سنة ٨٧٧ هـ/١٤٢٧ م (٥) ، وأكل كثيرا من الخضروات والنجيل والأشجار في سنة ٨٨٥ هـ /١٤٨٠م و ٨٩٠ هـ/١٤٨٥م (٦) .

وتكثر الديدان عند هبوط النيل في غير أوانه ، وتقدم مواعيد الزراعة ، وارتفاع درجة الحرارة ، ويتركز تأثيرها في محصول القرط (البرسيم) ، لأنه أول المحاصيل زراعة ، وأسرعها إنباتا ، فرعى الدود في سنة ٨٢٢ هـ / ١٤١٩م معظم البرسيم ، وبلغ حجم ما أتلفه من ناحية طهرمبس فقط بين ١,٦٠٠ - ٢,٠٠٠ فدان(٧)، فارتفع سعر القرط إلى ٢,٠٠٠ درهم (٨) ، وقضى في سنة ٨٢٥ هـ/١٤٢١م على أكثر البرسيم (٩) ، وأكل ١,٥٠٠ قتة دريس ، أي حمولة خمسة عشر جملا في سنة ٨٢٦ هـ/١٤٢٢م (١٠) ، وافسد كثيرا من القرط في السنوات ٨٤٢ هـ/١٤٣٨م و ٨٤٤ هـ/ ١٤٤٠م و٨٩١ هـ/١٤٨٦م حتى أعيدت زراعة بعض الأراضي مرتين ومنها ثلاث مرات (١١) ، فارتفعت أسعار البرسيم نحو الضعف (١٢) . وهاجمت الديدان البرسيم المزروع بمنطقتي الجيزة والبهنسا في سنة ٨٥٥هـ م ١٤٥١م ، وكانت ترعى من ٥٠-١٠٠ فدان في كل يوم ، حتى أتت على المحصول بأكمله ، وارتفع سعر القرط الأخضر إلى ٢٠ دينارا للفدان ، واحتاج الفلاحون إلى التقاوي مرة ثانية (١٣) ، كما قضت على مساحات واسعة من البرسيم في سنة ٨٩٠هـ / ١٤٨٥م (١٤) ، فقد أتلفت في سنتي ٨٢١هـ/١٤١٨م و٨٣١ هـ/١٤٢٧م بعض القمح والفول (١٥) .

١- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص٧٣٧ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص٢٩٦ب -٢٩٧ أ / ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص١١١ .

٢- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٦٣ / الصيرفي ، زهة ، ج٣ ، ص ٢٢٨ .

٣- الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ٤٠٦ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٦ أ .

٤- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ١٠٤٦ .

٥- الصيرفي ، إنباء ، ص ٤٨١ .

٦- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٣٠٧ أ ، ٣٤٤ ب .

٧- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٥١١ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٣٦٠ / الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص ٤٥٣ .

٨- الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص ١٥٢ - ١٥٣ / العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥ - ٨٢٤ هـ ، الطنطاوي ، ص٣٦٠ .

٩- ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٤٦٥ .

١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٤٩ .

١١- المقريزي، السلوك، ج٤ ، ق٣ ، ص١٠٩٨ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص١٦ أ / ابن إياس، بدائع ، ج٣ ، ص٢٢٤ .

١٢- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص ١٢١٥ / ابن حجر ، إنباء ، ج٩ ، ص ١٦ .

١٣- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج٢ ، ص ٣٢٨ .

١٤- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٣٥١ أ .

١٥- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق ١ ، ص ٤٦٥ ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٦٦ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٣٢٤ ، ج٨ ، ص ١٥٠ - ١٥١ / العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥ - ٨٢٤ ، الطنطاوي ، ص ٣٢٥ ، حوادث ٨٢٤ - ٨٥٠ ، الطنطاوي ، ص ٣٢٨ / الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص ٤٢٠ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ٣٠١ أ .

وعندما تكثر الفئران تأتي على مساحات واسعة من المزروعات في فترة زمنية قصيرة ، وخاصة قصب السكر والكتان (١) والغلال ، فقد تمكنت الفئران في سنة ٦٩٧ هـ/١٢٩٧م من القضاء على معظم الغلال ، وكانت لا تغادر بلدة وفيها سنبلة قائمة (٢) ، وانتشرت في سنة ٧١٥ هـ/١٣١٥م في منطقة أم القصور من المنفلوطية ، فبلغ مقدار ما قتله المباشرون في بضعة أيام ٣١٦,٦٦٦ إردبا ، وبلغ عدد أحدها ٨,٤٠٠ فأر ، وكل ويبة ١,٤٠٠ فأر أي ٢,٦٥٩,٩٩٤ فأر (٣) . وحصدت الفئران الزروع وأتلفت الجرون في سنة ٧٣٨ هـ/١٣٣٧م ، وصار الفلاحون يبيتون بالمشاعل لحماية الجرون ، ويقتلونه ليل نهار ، واستمروا على ذلك مدة شهرين ، يحرقون أو يلقون نحو مئة حمل في النيل كل يوم (٤) ، وانخفض إنتاج الوجه البحري من الغلال في سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥م لكثرة ما أتلفت من الغلال (٥) ، وهاجمت الغلال والزروع في سنة ٨٢٨ هـ/١٤٢٤م و ٨٣١هـ/١٤٢٧م (٦) ، وهاجمت مزارع المقاثي كالبطيخ ، وأكلت الغلال وهي في سنابلها ، وأكثر ما في جرون الغربية ، حتى إن بعض المناطق لم ترد بذارها في سنة ٨٣٤ هـ/١٤٣٠م ، إذ كان يجتمع في الموضع الواحد أكثر من ثلاثمئة فأر (٧) ، وهاجمت الزروع في سنة ٨٤٢ هـ/١٤٣٨م وقضت على معظم زراعات البهنسا (٨) ، وهاجمت الجرون في سنة ٩١٦ هـ/١٥١٠م ، وتسلطت على القمح والشعير وهو في سنابله (٩) .

وهكذا تعرض الفلاح المصري لكثير من الخسائر الطبيعية ، والتسلط الإنساني على مقدراته ، وأدى ذلك في النهاية الى إضعاف الفلاح المصري اقتصاديا ، ولم يجد من يعوضه عن هذه الخسائر .

١- مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ١٣٤ .

٢- بيبرس المنصوري ، مختار الأخبار ، ص ١٠٧ .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص ١٥٧ .

٤- نفس المصدر ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٤٥٤ - ٤٥٥ .

٥- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٣٠ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ١٨٦ .

٦- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٧٨ / السخاوي ، وجيز ، ج٢ ، ص ٤٨٤ .

٧- المقريزي ، السلوك، ج٤، ق٢ ، ص ٨٥٩ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٣١٩ أ / ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص ١٣٩ .

٨- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٣ ، ص ١١٣٢ ، ١١٤٠ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ٨٣ أ .

٩- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٢١٧ .

الفصل الرابع

الإنتاج النباتي والحيواني

١- الإنتاج النباتي

أ- المحاصيل الغذائية

ب- النباتات الصناعية

ج- الأشجار المثمرة والفواكه

د- الخضروات والنباتات الصبغية والبهارات

هـ- النباتات الطبية

و- الغابات والمراعي

ز- نباتات الزينة

٢- الإنتاج الحيواني

الإنتاج النباتي والحيواني

المحاصيل الغذائية :

أدى تباين أنماط المناخ السائدة في مصر إلى تنوع المحاصيل الزراعية ، بين المناطق الشمالية والوسطى والجنوبية ، ومن أهم هذه المحاصيل وأكثرها شيوعا الغلال (قمح ، فول ، شعير) ، لكونها المادة الغذائية الأولى لسكان المدن . ولوصفها البدائل الثلاث عند حدوث نقص في إنتاج أي سلعة منها ، فلم ينخفض سعر القمح في سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م إلا عند دخول الشعير الجديد (١) ، وبسبب انخفاض إنتاج الشعير سنة ٨٠٦ هـ/١٤٠٣م اضطر السلطان فرج بن برقوق إلى إعطاء المماليك الفول بدلا من الشعيرعليقا لخيولهم (٢) ، واستعاض الناس عن نقص الخبز في سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥م بأكل الفول الأخضر وفريك الشعير (٣) . ويضاف إلى هذه المحاصيل الذرة والحمص والعدس والأرز .

وتنتشر زراعة الغلال في جميع أنحاء مصر ، وتجود في ولايات طيبة وجرجا وأسيوط والمنيا والقاهرة والمنوفية ومنطقة المنصورة (٤) ، وتمتد زراعة القمح والشعير من إدفو جنوبا حتى الطرف الشمالي من الوجه البحري ، أما الفول فتتركز زراعته في ولايات جرجا وأسيوط والمنيا ، وتندر في المنطقة الواقعة إلى الجنوب من قوص ومنطقة الوجه البحري (٥) .

وتختلف القدرة الإنتاجية للفدان بين الوجه البحري والوجه القبلي ، إذ تتراوح بين اثنين إلى عشرين إردبا (٦)، وقد بلغ المعدل العام في سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢م إثني عشر إردبا (٧) ، مع ملاحظة ارتفاع القدرة الإنتاجية لأراضي بلاد الصعيد ، فقد ينتج الفدان ثلاثين إردبا من القمح ، أو أربعين من الشعير ، أو أربعة وعشرين من الذرة (٨) ، فبلغ إنتاج الفدان في سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣م في بلاد الصعيد بين ثمانية إلى عشرة إلى ثلاثين إردبا(٩) ، ووصل في أرض انحسرت عنها مياه بركة الفيوم إلى سبعين إردبا فيوميا* من القمح ، أي مئة وخمسة أرادب مصرية (١٠) ، وتسعين إردبا من الشعير (١١) ، وبسبب هذه القدرة الإنتاجية العالية لأراضي

---

١ - ابن حجر ، إنباء ، ج٢ ، ص ٨٤ .

٢- الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص ١٨١ .

٣- ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ١٨٧

٤- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج ١ ، ص ٤٣ ، ٤٧ ، ٥٩ ، ٦٠ .

٥- نفس المصدر ، ص ٦٥ - ٦٦ .

٦- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٥٩ / المقريزي ، مخطط ، ج١ ، ص ١٠١ / البكري ، النزهة الزهية ، ص ١٢٧ ب / عبدالرحيم عبد الرحيم ، الريف المصري ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

٧- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٢٠٥ .

٨- الإدفوي ، الطالع ، ص ٢٨ / ابن ظهيرة ، الفضائل ، ص ٦٧ .

٩- ابن حجر ، إنباء ، ج٥ ، ص ١٣٥ .

* الإردب بكيل الفيوم ، يساوي تسع ويبات ، وفي مصر ست ويبات (ابن إياس ، نشق ، ص ١٢٧ ب) .

١٠- المقريزي ،السلوك، ج٣ ،ق٣ ،ص١١٢٥-١١٢٦ / ابن حجر ،إنباء ،ج ٥ ، ص١٣٥ / ابن إياس، بدائع ، ج١، ق٢، ص٦٩٠ .

١١- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ١٩٦ .

الصعيد ، شاعت زراعة الأرض سنتين متتابعتين بالقمح أو الشعير (١) .

ويطلق على مصر سلة الخبز (٢) لارتفاع حجم إنتاجها من الغلال ، ولأنها المخزن الأول لبلاد الشام والحجاز عند حصول المجاعات ، أو نقص الإنتاج ، ولاستمرار تصديرها للقمح إلى إيطاليا وعدم اضطرارها للاستيراد إلا في فترات المجاعات (٣) .

وقد اعتادت مصر تصدير كميات كبيرة من الغلال إلى بلاد الحجاز في كل سنة ، وعند ارتفاع أسعارها لأغراض تجارية ، فكان إعادة حفر خليج أمير المؤمنين سنة ٢٣ هـ /٦٤٣م لتسهيل وصول الميرة إلى الحجاز ، وبلغ حجم الدقيق والكعك الذي ترسله مصر إلى الحجاز في منتصف القرن ٤هـ/١٠م ثلاثة آلاف حمل جمل في كل أسبوع (٤) ، وحجم شحنات الظاهر بيبرس ٢٠٠,٠٠٠ ألف إردب في كل عام (٥) ، وعند ارتفاع الأسعار في سنة ٧٢٢ هـ /١٣٢٣ م أرسل السلطان الناصر ٢,٠٠٠ إردب لبلاد الحجاز (٦) ، وفي سنة ٧٦٦ هـ/١٣٦٤م أرسل ١٢,٠٠٠ إردب لتفرق على الفقراء ،(٧) وفي سنة ٧٨٧ هـ/١٣٨٥م أرسل الأمير جركس الخليلي ٥٠٠ إردب ليعمل منها ١,٠٠٠ رغيف في كل يوم ، لتوزع على فقراء المدينة ومكة ، هذا عدا ما أرسله الأمراء (٨) ، كما اعتاد برقوق إرسال ٣,٠٠٠ إردب في كل سنة ، لتفرق على أهل الحرمين (٩) ، إضافة إلى مايصدره ديوان الأوقاف بمصر إلى مكة والمدينة ، فقد بلغ إنتاج الأراضي التي وقفها السلطان قايتباي على الأماكن المقدسة والفقراء بمكة والمدينة وصادراتها أكثر من سبعة آلاف إردب من القمح في كل عام (١٠) .

وبلغ عدد مطاحن مدينة القاهرة في النصف الأول من القرن ٨هـ/١٤م ألفا ومئتين وتسعين طاحونة(١١). وكان توزيع الغلال في القاهرة وفق نظام ثابت ، على أساس إحصاء المحتسب لكمية الغلال الواردة إلى ميناء بولاق ، وتوزيعها على المطاحن وفقا لعدد السكان ، وعدد المطاحن ، فتمنح كل مطحنة ستة أرادب في اليوم ، وهي أعلى طاقة إنتاجية لها (١٢) .

وتقدر حاجة القاهره اليومية من القمح(النصف الأول من القرن ٨هـ / ١٤م) بـ٥,٢٠٠ إردب ، أي ١,٨٧٢,٠٠٠ إردب بالسنة ، سوى ما يطحن بالرحى ، وتقدر حاجة القاهرة وضواحيها والفسطاط بـ٦,٤٩٠ إردب ، وفي الشهر ١٩٤,٠٠٠ إردب ، وفي السنة ٢,٣٢٨,٠٠٠ إردب (١٣) .

١- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٥٨ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠١ / البكري ، النزهة الزهية ،ص ١٢٧ ب .

٢-ابن زولاق ، فضائل ، ص ٢٠٨ أ .

٣- Ashtor , The Wheat , (AAS) , VOL 18 , Number 1 , 1984 , P 283 .

٤- المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٩٥ .

٥- ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٥٢ .

٦- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص ٢٣٨ .

٧- نفس المصدر ، ج٣ ، ق١ ، ص ٩٧ .

٨- الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص١٢٢/ القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ١٣٩ب / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص٣٦٦ .

٩- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٩٤٥ / ابن تغري بردي ، مورد اللطافة ، ص ٨٣ أ ، المنهل ، ج٣ ، ص ٣٣٩ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٥٣١ / مجهول ، كتاب في التاريخ ، ص ١١٥ أ .

١١- الحسن بن محمد الصفدي ، كتاب يذكر تاريخ مصر وفضلها ، ص ٨ ب .

١٠- السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ٩٣٨ - ٩٣٩ .

١٢- إبن بسام ، الرتبة ، ص ١٦ .

١٣- مجهول ، كتا ب يذكر تاريخ مصر وفضلها ، ص ٨ ب (يشير الأسدي الى أن حاجة القاهره كانت ١,٠٠٠إردب يوميا ، خمسمئة للفئة الحاكمة ولاحتياجاتها ، وخمسمئة للسكان ، الأسدي ، التيسير ، ، ص ١٤٢ -١٤٣)

وتتعدد الجهات المالكة للغلال ، ويأتي على رأسها السلاطين ، فبلغ حجم ما في حواصل السلطان برقوق سنة ٧٨٩ هـ/١٣٨٧م ٣٦٠,٠٠٠ إردب (١) ، واتخذ السلطان برسباي من تجارة الغلال هدفا رئيسيا ، محاولا احتكارها أكثر من مرة (٢) ، بشراء جميع ما ترسله المناطق الريفية ، ومنع البيع إلا من غلال السلطان (٣)، إلا أن هذه السياسة قد فشلت ؛ لأنها تحتاج إلى رؤوس أموال ضخمة ، وتؤدي إلى خسارة كبيرة في بعض الأحيان (٤) .

ويستخدم السلطان مخزونه في تموين الجيش في أثناء فترات الحرب والسلم ، ودفع الجزء العيني من الجوامك الشهرية المقررة للمماليك السلطانية ، وأرباب الأقلام والسيوف ، فاحتاج برقوق في أثناء تسييره حملة لقتال الأمير يلبغا الناصري في سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨م الى ست عشرة عليقة لكل أمير من رؤوس النوب ، وعشر علائق لأكابر المماليك، وخمس علائق لأرباب الجوامك ، في كل يوم (٥) ، وبين ١٢ - ١٣ ألف إردب من القمح لجوامك خمسة آلاف مملوك ، وأحد عشر ألف إردب من الشعير لخيول الإسطبل السلطاني وجمال النفر وحمير التراب في كل شهر (٦) . وخمسة آلاف إردب للمباشرين (٧) ؛ كما بلغ عليق السلطان فرج بن برقوق عند مسيره لبلاد الشام في سنة ٨١٠ هـ/١٤٠٧م ١,٥٠٠ إردب في كل يوم ، سوى عليق الأمراء (٨) .

ويصرف جزء من غلال السلطان لنائب الشام ، وبلغ زمن السلطان برقوق ١,٠٠٠ إردب في كل عام(٩)، وللخليفة تسعة عشر إردبا من القمح ، وعشرة من الشعير في كل شهر (١٠) .

ومن الجهات الأخرى التي يستهلك السلطان فيها جزءاً من غلاله المناسبات الدينية ، ومن ذلك مسيره للحج ، إذ استهلك السلطان الناصر محمد بن قلاوون ١٣٠,٠٠٠ إردب في سنة ٧١٩ هـ / ١٣١٩م(١١)، وفي الاحتفالات بعيد المولد النبوي ، وجزء على مشايخ الزوايا (١٢) . وجزء على الضعفاء والفقراء

١- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص٥٦٩ / ابن حجر ، إنباء ، ج٢ ، ص ٢٦٢ / ابن تغري بردي ، المنهل ، ج ١ ، ص٧٥ / الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص ٦١ .

٢- الصيرفي ، نزهة ، ج ٣ ، ص ٣٧٨ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٣٠٧ ب .

٣- Boaz , Money , P 65 .

٤- لابدوس ، مدن الشام ، ص ٩٦ - ٩٧ .

٥- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١١ ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

٦- المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، ق٢ ، ص ٩٣٨ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٢ ، ص٨٥ ، مورد اللطافة ، ص ٨٢ أ ، المنهل ، ج ٣ ، ص ٣٢٨ / ابن إياس ، بدائع ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٥٢٧ / مجهول ، كتاب في التاريخ ، ص ١١٤ ب .

٧- المقريزي ، السلوك، ج٤ ، ق ٢ ، ص٦٩٠ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص٢٨٧ أ / ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص٩٨ .

٨- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٥٤ .

٩- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ١٠٠ .

١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٥٠٣ .

١١- نفس المصدر ، ج٢ ، ق١ ، ص ١٩٦ .

١٢- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٢ ، ص ٦١ .

وأرباب البيوت (١) ، وجزء على الصوفية ، والأعمال الخيرية ، وبلغت زمن السلطان برقوق ٨,٠٠٠ إردب في كل عام (٢) . وجزء لمواجهة الحاجات الاقليمية في فترة الأزمات ، وتموين العمال في أثناء إقامة المشروعات السلطانية (٣) .

ويأتي الأمراء في المرتبة الثانية ، فلكل أمير شونه الخاصة ، لتوفير حاجاته ، وعليق مماليكه وجراياتهم ، والتجارة بالفائض ، وقد تركزت شونهم في مدينة القاهرة (٤) والوجه القبلي (٥) . وتوضح المعلومات الواردة عن ملكيات بعضهم ، وما تركوه بعد وفاتهم عظم ملكياتهم ، فمن جملة الأراضي التي كانت مزروعة للأمير فخر الطنبغا في سنة ٦٩٦ هـ/١٢٩٦م خمسمئة فدان من الفول (٦) ، وترك الأمير سلار بعد وفاته سنة ٧١٠ هـ /١٣١٠م ، ٣٠٠,٠٠٠ إردب من الغلال ، بالإضافة إلى ما كان بيد مباشريه وحواشيه (٧) ، وتصدق الأمير آقوش في سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م بـ ٣,٠٠٠ إردب (٨) ، وترك بكتمر الساقي (ت٧٣٣هـ/١٣٣١م) ٣٦,٠٠٠ إردب (٩) ، والخازن علم الدين الأشرفي (ت ٧٣٥هـ / ١٣٣٤م) ٤,٠٠٠ إردب (١٠) ، والوزير ابن زنبور (ت٧٥٣هـ / ١٣٥٢م) ٢٠,٠٠٠ إردب (١١) ، وأرسل الصاحب ابن مكانس للتجارة في الحجاز سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م ١٥,٠٠٠ إردب (١٢) . وبلغ ما تركه الأمير أيتمش سنة ٨٠٢ هـ/١٣٩٩م ٦,٠٠٠ إردب من القمح ، و ٢,٠٠٠ إردب من الشعير ، و ١,٠٠٠ إردب من الحمص (١٣) . وقدرت الغلال التي تركها الأمير خشقدم الخصي الظاهري (ت٨٣٩ هـ / ١٤٣٥م) بستة عشر ألف دينار (١٤) ، وصودر للقاضي عبد الباسط ناظر الجيش سنة ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨م ٥٠,٠٠٠ إردب (١٥) ، واشترى الإستادرار عند نقص الشعير سنة ٨٥٩هـ/١٤٥٤م من الأمير بردبك الظاهري صهر السلطان ١,٥٠٠ إردب (١٦) ، وتميز الأمير جانبك الظاهري (ت ٨٦٧ هـ / ١٤٦٢م) ،

١- الصيرفي ، نزهة ، ج ٣ ، ص ٢٨٥ .
٢- ابن تغري بردي ، المنهل ، ج ٣ ، ص ٣٣٨ .
٣- Lapidus , The Grain , (JESHO) , VOL XII , 1969 , P 9 .
٤- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٦١٤ .
٥- النويري ، نهاية ، ج ٣١ ، ص ٢٤٨ .
٦- المقريزي ، إغاثة ، ص ٣٦ .
٧- ابن سباط ، تاريخ ، ج٢ ، ص ٦٠٧ .
٨- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٣١٧ .
٩- نفس المصدر ، ص ٣٥٧ .
١٠- المقريزي ، خطط ، ج ٢ ، ص ١٣٥ .
١١- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق ٣ ، ص ٨٨١ .
١٢- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ج ١ ، ص ١٤٨ .
١٣- العيني ، عقد ، ص ٣٠ ب / الصيرفي ، نزهة ، ج ٢ ، ص ٤٥ .
١٤- ابن حجر ، إنباء ، ج ٨ ، ص ٣٩٧ .
١٥- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق٣ ، ص ١١٥٥ / الصيرفي ، نزهة ، ج ٣ ، ص ٩١ ب .
١٦- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ١٠٦ ب .

بكثرة الصدقات ، فكان يطلق في بعض الأحيان ١,٠٠٠ إردب ، وأقل ما تصدق به عشرة أرادب في المرة الواحدة (١) ، وطرح الأمير ابن عمر الهواري في سنة ٨٧٣ هـ/ ١٤٦٨م كمية كبيرة من الغلال ، وهذا ما دفع السلطنة إلى تحديد الأسعار لمقاومته (٢) .

وتمكن تجار الحبوب المقيمون في بولاق من السيطرة على كمية من الغلال ، بشراء ما يخرجه الفلاحون للبيع في أسواق القاهره في أثناء موسم الحصاد ، لمواجهة الأعباء المالية المترتبة عليهم (٣) ، أو باستغلال الحاجات المالية المتزايدة للفلاحين ، فعند مطالبة السلطنة الفلاحين بتسديد ما عليهم من ضرائب ، وعجز القسم الأكبر منهم عن الوفاء بذلك ، يلجأ التجار إلى شراء محاصيلهم قبل إدراكها ، ودفع ما على الفلاحين من التزامات للديوان ، والحصول على ورقة من الجهبذ تبين المبلغ المدفوع ، ثم نقل الغلال من البيادر إلى شونهم عند إدراكها (٤) .

واستطاع أرباب الأقلام من ذوي الجوامك السيطرة على جزء من الغلال ، بكونها جزءًا من جوامكهم الشهرية (٥) ، أو بزراعة بعض الأراضي والمستأجرات والإقطاعات ، فامتلك القاضي عبد الله الإسنائي في سنة ٧٣٥ هـ/١٣٣٤م زيادة على ٢,٥٠٠ إردب (٦) ، وانشغل القاضي محمد بن أبي بكر (ت ٨٧٣ هـ/١٣٨١م) بزراعة الغلال عند تعيينه واليا على مدينة منفلوط (٧) ، وبذل القاضي شرف الدين الصغير في سنة ٩٢٠هـ/١٥١٤م ٥٠٠ إردب من الشعير لإعادته إلى وظيفة ناظر الدولة وكاتب المماليك (٨) ، وأصبح الموظفون تجار حبوب في المدن الإسلامية ، واستخدموا العمال لبيع الفائض عن متطلبات أسرهم . واشترت بعض الفئات الغنية كالتجار والأمراء والوزراء هذه الكميات الصغيرة من هؤلاء الموظفين .كما ظهر بعض الأسواق التي يمكن فيها للموظفين تحويل المؤن الصغيرة الممنوحة لهم إلى نقد ، أو بيعها لبعض الموظفين الذين قاموا بدور السماسرة (٩) .

وبالرغم من غياب المعلومات عن حجم الغلال التابعة للأوقاف ، إلا أن ارتفاع نسبة أراضي الأوقاف ، التي بلغت ٤١,٦٪ من مجمل أراضي مصر ، يشير إلى أن للأوقاف دورا هاما في سوق الغلال ، فغالبا ما تصرف الأوقاف لموظفيها والتابعين لها كمية من الغلال ، فمثلا كانت المدرسة القمحية لا تصرف معاليم أساتذتها وطلبتها إلا قمحا (١٠) ، وكانت الربط والخوانق والزوايا والمساجد توزع على طلابها في كل يوم عددا من الأرغفة ، وتمنح موظفيها جزءًا من الغلال ، عند صرف جوامكهم الشهرية (١١) .

١- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٦ ، ص ٢٨٩ .
٢- الصيرفي ، إنباء ، ص ٢٨ .
٣- Lapidus , The Grain , (JESHO), VPL XII , 1969 , P 6 .
٤- المقريزي ، إغاثة ، ص ٢٠ - ٢١ / الأنصاري ، نيل الرائد ، ص ٤٩ أ .
٥- القلقشندي ، صبح ، ج٤ ، ص ٥٣ .
٦- الإدفوي ، الطالع ، ص ٥٤٥ .
٧- الصيرفي ، إنباء ، ص ٩٨ .
٨- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٣٧٠ - ٣٧١ .
٩- لابدوس ، مدن الشام ، ص ٩٥ - ٩٦ .
١٠- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٣٦٤ .
١١- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق ٢ ، ص ٨٣٤ / الصيرفي ، إنباء ، ص ٢٢٢ .

أما الفلاحون الذين يزرعون الغلال ، فلا يتبقى لديهم ، بعد تسديد ما عليهم من التزامات ضريبية ، سوى نسبة ضئيلة من الإنتاج ، يستخدمونها في استهلاكهم المنزلي ، أو يبيعونها أو يقايضون بها ، أو يدخرونها بذورا للسنة القادمة ، وهكذا فإن السيطرة الفعلية على سوق الغلال تتوزع بين السلاطين والدواوين المركزية ، والأمراء أصحاب الإقطاعات الواسعة ، وبعض الملاك المتنفذين (١) .

وتوضح العوامل المؤثرة في أسعار الغلال جانبا مهما من تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي ، فقد اتحدت العوامل الطبيعية والإنسانية لاحداث نقص في الإنتاج الزراعي ، أوخلخلة التوازن بين العرض والطلب ، وتذبذب الأسعار ، والإضرار بأصحاب الدخل المحدود والفقراء ،وإحداث بعض الاضطرابات الاجتماعية .

ويتحدد الإنتاج الزراعي في مصر بناء على زيادة النيل ، ووفائه وثباته وهبوطه ، فتسيطر مراقبة هذه الأوضاع ورسم صورة اقتصاد السنة القادمة على أذهان السكان ، منذ ابتداء الزيادة حتى انتهائها ، وأي خلل في هذه الزيادة ، كان كفيلا بإحداث سلوك غير عادي بين السكان ، إذ يبدأ الأفراد الاقبال على شراء الغلال ، للتموين أو للتجارة ، ويتوقف جلابة القمح من بلاد الصعيد والوجه البحري عن تزويد القاهرة بحاجاتها ، وأصحاب الغلال والخزان عن بيعها ، واحداث خلل في التوازن بين العرض والطلب ، وارتفاع الأسعار (٢) ، وهذا يؤدي إلى إفقار بعض الفئات من أصحاب الدخل المحدود ، وبعض الأغنياء (٣) ، وكساد الغلال بعد انتهاء الأزمة ؛ لأن الناس خزنوا أكثر من كفاياتهم (٤) .

وكان انخفاض الإنتاج الزراعي السبب الأساسي لارتفاع الأسعار في بعض السنوات ؛ فقد شهدت سنة ٨٠٦ هـ/١٤٠٣م شراقي معظم أراضي مصر ، بسبب قصور النيل ، وانعدم القمح من السواحل في سنة ٨١٨ هـ/ ١٤١٥م ، وفرغت مخازن الأمراء والتجار (٥) ، وازداد تدهور أوضاع بلاد الصعيد منذ بداية العقد الثاني من القرن ٩هـ/١٥م ، فقد شهدت سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م ارتفاع أجرة الفدان من ٤٠٠ إلى ٦٠٠ درهم (٦) ، وانخفض

١- Lapidus , The Grain , (JESHO) , VOL XII , 1969 , P 5 .

٢- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ق ٢ ، ص ٢٦٣ / المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣١٨ ، ٣٣٠-٣٣١ ، ٥٣١ ، ، ج٤ ، ق٢ ، ص٦٦٠ ، ٦٦٨ ، ٧٥٣ ، ٧٦٧ ، ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٩٠٢ ، ٩٠٣- ٩٠٤ ، ٩٠٤ / ابن حجر ، إنباء ، ج ٥ ، ص١٣٥ - ١٣٦ ، ١٩٥، ج٨ ، ص ١٧٢ ، ٢٩٦ ، ٣٥٤ ، ٣٧٠ / ابن قاضي شهبة ، تاريخ ، ج٣ ، ص ٥٢١ - ٥٢٢ ، ٥٤٣ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٥ ، ص١٤٧ ، ١٧١ ، حوادث ، ج١ ، ص٢٩٧ ، ج٢ ، ص ٣٢٩ / ابن الصيرفي ، إنباء ، ص١٣-١٤ ، ١٦ ، ٢٠٥، نزهة ، ج٣ ٢٧٣ ، ٤٤٣/ السخاوي ، وجيز ، ج١ ، ص٢٧٢ ، ج٢ ، ص٧٤٦ ، التبر ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٣١٠ - ٣١١ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١، ص ٢٨٣ أ ، ٢٩١ب ،٢٩٩أ - ٢٩٩ب ، ٣٠٤ ب ، ٣٢٨ ب ، ٣٣٣ أ ،ج ٢ ، ص٧٣ أ ، ٢٥٥ب / ابن إياس ، بدائع، ج١ ، ق٢ ، ص ٣٠٦ ، ٤٧٠ ، ج٢ ، ص ٣٢ ، ج٣ ، ص ١٠٠ ، ج٤ ، ص ٦٦ ، نشق،ص٢٢١أ .

٣- ابن تغر بردي ، حوادث ، ج٢ ، ٣٢٤ .

٤- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٥٣ .

٥- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ٣٣٨ .

٦- نفس المصدر ، ص ٣٤٥ .

إنتاج الغلال في سنة ٨٢٢ هـ/ ١٤١٩ م (١) ، وحملت الغلال من بلاد الوجه البحري إلى بلاد الصعيد (٢) ، وعز وجود الغلال عند أهل الصعيد في سنة ٨٢٣ هـ/١٤٢٠م ، حتى بلغ الإردب دينارين ، واعتمدوا في غذائهم على أكل الذرة ، وأكثروا زراعتها بسبب سوء أوضاعهم الإقتصادية ، وبوار أراضيهم وخراب قراهم (٣) . وانقلب الأمر في سنة ٨٢٥ هـ/١٤٢٢م ، فصارت القاهرة تصدر الغلال إلى الوجه القبلي ، بعد أن كانت السلطنة تلجأ إلى بلاد الصعيد للتغلب على نقص الغلال ، ويعزى سبب ذلك إلى مهاجمة العربان للقرى ، وإحراق ما فيها من الغلال ،" وخراب بلاد الصعيد ، ودثور أكثر قراها ، بحيث (تسير) العشرة أيام ببلاد الصعيد ، لا يوجد فيها أحد ، ولا تزرع أرضها ، فقلت الأغنام عندهم ، وصار أهلها إلى فقر وبؤس ، وجور الولاة فيهم فاش ، لا يمكن وصفه ، ولعل هذا إن تمادى أن تهلك بلاد الصعيد كلها " (٤) .

وازداد بؤس أهل الصعيد في سنة ٨٢٩ هـ / ١٤٢٥م ، حيث انعدمت النقود الفضية والذهبية في أيديهم ، وصاروا يتقايضون بالغلال بسبب إنخفاض إنتاجها (٥) ، كما تكرر إنخفاض الإنتاج بين ٨٥٤ -٨٥٦ هـ / ١٤٥٠ - ١٤٥٢م ، ولم يعد يقدر على شراء الغلال سوى الأغنياء ، ومن له شوكة ووجاهة ، وانعدم نصيب الضعفاء والفقراء منها (٦) .

وقد ساهمت سيطرة السلاطين والأمراء والتجار على القسم الأكبر من مخزون الغلال ، في خدمة هدفهم الأساسي ، وهو رفع الأسعار إلى أقصى درجة ممكنة ، معتمدين على الاحتكار وسيلة أساسية لتحقيق هدفهم ، وأصبح الاحتكار من المميزات المهمة لاقتصاد الغلال في العصر المملوكي ، وبخاصة أن رأس المحتكرين هم السلاطين ، الذين شجعوا الفئات الأخرى من الأمراء والتجار والطحانين والسماسرة والمدولبين على ممارسة الدور نفسه .

ويؤدي السلاطين والأمراء الدور الأساسي في الاحتكار ، ففي سنة ٧٩٨ هـ/١٣٩٥م ارتفعت أسعار الغلال، في حين كانت مخازن السلطان والأمراء مليئة بها (٧) ، وسيطرت الدولة والأمراء في سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م على معظم الغلال ؛ لأن الأراضي التي رويت في سنة ٨٠٦ هـ/ ١٤٠٣ م تعود إليهم ، وقد شرقت معظم المناطق الأخرى ، فتحكموا بالأسعار و لم يتمكن أي شخص من شرائها إلا بالأسعار التي يفرضونها (٨) .
وحجر الأمراء في سنة ٨١٧ هـ/١٤١٤م على الغلال في أثناء غيبة السلطان ببلاد الشام ، حتى فقد الخبز

١- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٥٠٣ .
٢- ابن حجر ، إنباء ، ج ٧ ، ص ٣٦٠ / العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥ - ٨٢٤ ، الطنطاوي ، ص ٣٦٠ .
٣- المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ، ق١ ، ص ٥٢١ .
٤- نفس المصدر ، ج٤ ، ق ٢ ، ص ٦٠٣ .
٥- نفس المصدر ، ص ٧٠٥ ، ٧١١ .
٦- ابن تغري بردي ، حوادث ،ج ١ ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .
٧- العيني ، السيف المهند ، ص ٢٦٧ .
٨- المقريزي ، إغاثة ، ص ٤٢ - ٤٣ .
٩- ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

من الأسواق ، وصار يباع على أسطح المنازل ، خوفا من النهب (٩) ، وأكثر الأمراء خزن الغلال في سنة ٨٢٢هـ/ ١٤١٩م من أجل رفع أسعارها (١) ، وارتفعت أسعارها في سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٤م بسبب رفض الأمراء بيعها ، بالرغم من كثرتها في مخازنهم (٢) ، وامتنع الأمراء في سنة ٨٢٩ هـ/١٤٢٥م من البيع بأقل من ٣٠٠ درهم للإردب، بعدما كان يباع بـ ٢٥٠ درهما ، بسبب توقف السلطان عن بيع الغلال لقلة وجوده في مخازنه (٣) ، وازداد تخزين الأغنياء والأمراء في سنة ٨٣١ هـ/١٤٢٧م حتى فقدت الغلال من العراص (الساحات) وارتفع سعرها (٤) . وحجر السلطان برسباي في سنة ٨٣٢ هـ/ ١٤٢٨م على الغلال ، وجعلها من المتجر السلطاني(٥)، ورسم في سنة ٨٣٥ هـ / ١٤٣١م بشراء جميع غلال النواحي ، فأرسل المباشرين إلى الوجهين البحري والقبلي ، وأمر السماسرة ببولاق وسواحل مصر بعدم بيع أي شيء من الغلال لغير السلطان (٦) ، ثم رسم في سنة ٨٤٠ هـ/ ١٤٣٦م بشراء ثلاثين ألف إردب وخزنها أملا في ارتفاع الأسعار ، وهذا ما كان يدفع الناس إلى الإقبال على شراء الغلال خوفا من القحط (٧) . كما لجأ المحتسب في سنة ٨٥٣ هـ/ ١٤٤٩م إلى تحجير بيع الغلال على مجموعة من الحوانيت ، إلا أن السلطنة تراجعت عن ذلك بضغط من العامة (٨) ، واحتكر يشبك الدوادار غلال الوجه القبلي في سنة ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م فكان الغلاء (٩) .

و تتنوع الأساليب التي يلجأ إليها التجار لرفع الأسعار ، وتقوم على افتعال الأزمات ، بنشر الإشاعات بتوقف زيادة النيل ، وتوقع عدم الوفاء ، وشراقي معظم البلاد ، مستغلين عدم إعلان السلطنة الزيادة في بعض الأيام(١٠) ، أو بمراقبة حركة الملاحة في نهر النيل ، وانخفاض عدد المراكب القادمة من بلاد الصعيد والوجه البحري(١١) ، أو شراء الغلال الموجودة في السواحل حتى تنكشف (١٢) ، ونسبة ذلك إلى الأوضاع الأمنية السيئة في بلاد الريف ، كالفتن والثورات ، التي تعيق جلب الغلال (١٣) .

ومما يزيد في قوة الإحتكارات وتأثيرها ، شراء الطحانين والمدولبين كميات كبيرة من الغلال عند ازدياد الطلب عليها ، وتخزينها في أماكن مجهولة ، أو ضرب رنوك الأمراء على بعض المخازن ، وبرطلة أصحاب

١- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق ٢ ، ص ٤٩٨ .

٢- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٩١ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٢٩٠ أ .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧١١ .

٤- نفس المصدر ، ص ٧٨٢ - ٧٨٣ .

٥- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٠١ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ١٥٥ .

٦- المقريزي، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٧٢ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ٢٧٩ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٣٢٢ أ .

٧- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ١٠٠٤ / ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٤١٩ .

٨- السخاوي ، التبر ، ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

٩- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢١٩ أ / ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٤٢ .

١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق ٢ ، ص ٤٧١ ، ج٤ ، ق ١ ، ص ٣٣٠ - ٣٣١ ، ج٤ ، ق ٢ ، ص٨٩٣- ٨٩٤ ، ٩٢٠ ، خطط ، ج١ ، ص٤٧ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص٣٢٧ ب ، ج٢ ، ص ٢٦ أ .

١١- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٦٠٦ .

١٢- الإدريسي ، نزهة ، ج٣ ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

١٣- Boaz , Money , P 67 .

الشوكة لتوفير الحماية لهم ، وخلطها بأنواع الحبوب الأخرى ، ومطالبة ناظر الحسبة بما هو مقرر لهم من القمح في كل يوم ، للتظاهر بنقص الغلال لديهم (١) .

وتتباين العوامل التي تؤدي إلى ارتفاع أسعار الغلال ، فمنها ازدياد صناعة المزر المتخذ من القمح (٢) . وتحرك العساكر نحو بلاد الشام ، إذ يزداد الطلب على البقسماط (الكعك) لتموين الجند ، وتقلب أسعار الصرف الذي يدفع تجار الغلال لعدم البيع ، ويؤدي إلى ازدياد الطلب على العرض (٣) . وتوقف جلابة القمح من الوجهين القبلي والبحري عن تزويد القاهرة بالغلال عند شعورهم بتراجع وانخفاض الأسعار ، ففي سنة ٧٩٨ هـ/١٣٩٥م حول الجلابة شحناتهم إلى الإسكندرية عندما شعروا أن البيع بالقاهرة لن يعيد رأس مالهم ، وهذا أدى إلى انخفاض كمية الغلال بالأسواق (٤) ، كما يدفع حدوث الغلاء والمجاعات في بلاد الشام والحجاز أصحاب الغلال كالسلاطين والأمراء والتجار المصريين ، وتجار البلاد المنكوبة الى القدوم الى مصر ، وتصدير كميات كبيرة من الغلال بقصد التجارة والربح (٥) .

ومنذ بداية النصف الثاني من القرن ٩هـ / ١٥م أصبحت الغلال وبخاصة الشعير هدفا رئيسا للمماليك الجلبان ، بعد عجز ديوان الوزارة والديوان المفرد عن كفاية حاجاتهم من العليق ، فازداد تعديهم على الغلال ونهبها في سنة ٨٥٤هـ/١٤٥٠م من غير دفع ثمنها ، وهذا دفع أصحابها للتوقف عن بيعها (٦) . وارتفعت أسعار الشعير في سنة ٨٥٩هـ/١٤٥٤م من ٨٠ درهما إلى ١٤٠ درهما ، بسبب نهب المماليك لشون الأمراء وساحل بولاق (٧) ، واستولوا في سنة ٨٦٠ هـ/١٤٥٥م على الشعير والدريس والتبن الموجود في ظواهر القاهره من غير دفع ثمنه (٨) ، وعز وجود الشعير بسببهم في سنة ٨٦٣هـ / ١٤٥٨م ، وتمكنوا في سنة ٨٦٤هـ /١٤٥٩م من السيطرة على كميات كبيرة من الشعير ، حتى ارتفعت أسعاره وعز وجوده في الأسواق ، وهذا ألجأ الأمراء والأجناد إلى الخروج لظاهر القاهره ، لحماية أجمالهم ، وترك الناس لبيع الشعير وإظهاره (٩)، ولم تنخفض أسعار الغلال إلا بعد وفاة قسم كبير منهم بالطاعون (١٠) .

١- الأسدي ، التيسير ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .

٢- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٣٦٨

٣- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد٩ ، ج١ ، ص ١٩٧ / المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٠ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص١٩٧ ب - ١٩٨ أ / ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٧١٥ ..

٤- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد٩ ، ج٢ ، ص ٤٣٩ / المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٨٥٩ / ابن قاضي شهبه ، تاريخ ، ج٣ ، ص٥٨١ / ابن حجر ، إنباء ، ج٣ ، ص ٢٨٢ ، ٢٩٢ .

٥- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ق١ ، ص ٢٥ /المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٤٤٦ ، ج٢ ، ق١ ، ص ٢٥٤ ، ج٣ ، ق٣ ، ١٠٥٩ ، ج٤ ، ق١ ، ص٣٣٠ ، ج٤ ، ق٢ ، ص١٧١١ / ابن تغري بردي ، حوادث ، ج٢ ، ص ٥٦٩-٥٧٠ / الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٦٧ / ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٣٠٢-٣٠٣ .

٦- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج١ ، ص ٢٨٩ / السخاوي ، التبر ، ص ٣١١ .

٧- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج٢ ، ص ٥٢٧ / ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص ٣٢٤ .

٨- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج٢ ، ص ٥٩٢ .

٩- السخاوي ، وجيز ، ج٢ ، ص ٧٢١ .

١٠- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١٦ ، ص ١٠٥ ، ١١٧- ١١٨ .

ونهب المماليك في سنة ٨٧٨هـ/١٤٧٣م ما في جهة بولاق وشونة الأمير يشبك الدوادار (١) ، وكسروا في سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م أبواب شون السلطان والأمراء ، ونهبوا ما فيها من القمح والشعير (٢) ، وادعوا أن الهدف من ذلك تخفيض الأسعار ، لتنضم إليهم العامة (٣) ، وازدادت تعدياتهم في سنة ٨٩٢ هـ/ ١٤٨٧م ، وسنة ٨٩٤هـ/١٤٨٨م(٤)، وتوجهوا في سنة ٩١٧هـ/١٥١١م إلى شون السلطان ونهبوا ما فيها من الشعير (٥) .

وتشير المعلومات إلى حدوث تغير في متوسط أسعار الغلال منذ بداية الحكم المملوكي حتى نهايته ، فيقدره ابن فضل الله في النصف الأول من القرن ٨هـ/١٤م بخمسة عشر درهما (٠,٧٥ دينار) لكل إردب من القمح ، وعشرة دراهم(٠,٥ دينار) لكل إردب من الشعير (٦) ، في حين يشير ابن حجر ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م إلى أن " عبرة الديار المصرية أن يكون الإردب (القمح) بدينار ، فما زاد عن ذلك فهو غلاء بحسبه ، وما نقص عن ذلك فهو رخص بحسبه" (٧) ، وقد أكد الأسدي ذلك بقوله " ومن القواعد المعلومة في الحسبة الشريفة ، إذا كان سعر الإردب في الديار المصرية بدينار من الذهب ... يكون السعر وسطا ، وإن كان بدينارين ... يكون السعر غلاء ... وإن كان الإردب بأقل من دينار فبحسابه ويكون السعر رخاء " (٨) . وجعل لابدوس سعر الشعير والفول ثلثي سعر القمح (٩) . أما آشتور فأشار إلى أن متوسط سعر مئة كغم من من القمح في القرن ٧هـ/١٣م كان ١,٠٧ دينار ، وفي القرن ٨هـ/١٤م ٠,٨٩ دينار ، وفي القرن ٩هـ/١٥م ٠,٥٦ دينار ، محاولا تفسير ذلك بأن مصر قد شهدت في القرن السابع حتى نهاية النصف الأول من القرن الثامن الهجري نموا كبيرا ومستقرا في عدد السكان ، ثم أخذ هذا العدد بالانخفاض منذ بداية النصف الثاني من القرن الثامن ، بسبب تكرار الطواعين وفتكها بسكان المناطق الحضرية الذين يمثلون أسواق الاستهلاك الرئيسية ، فازداد العرض على الطلب (١٠) .

وتبين قوائم الأسعار منذ بداية القرن ٩هـ/١٥ م حتى نهاية السلطنة المملوكية أن أسعار الغلال سارت على النحو التالي : -

---

١- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٦ ، ص ١٢٢ .

٢- ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٩٤ .

٣- السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ٩٧١ .

٤- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٣٨٢ ب .

٥- ابن إياس ، بدائع ، ج ٤ ، ص ٢٤١ .

٦- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥١٤ .

٧- ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٧ .

٨- الأسدي ، التيسير ، ص ١٤٣ .

٩- لابدوس ، مدن الشام ، ص ٤٩ .

١٠- Ashtor , The Wheat , (AAS) , VOL 18 , Number 1 , 1984 , P 292 - 194 .

أسعار الغلال ما بين ٨٠١-٨٤٩ هـ / ١٣٩٨-١٤٤٥م بالدينار الإفرنتي

السنة	الشهر	القمح		الشعير		الفول		سعر الصرف	المصادر
		درهم /إردب	دينار إفرنتي / إردب	درهم /إردب	دينار إفرنتي /إردب	درهم / إردب	دينار إفرنتي / إردب	درهم /دينار	
٨٠١هـ/ ١٣٩٨م	١٥ شوال	٢٥	٠,٩	١٥	٠,٥٤			٢٨	المقريزي ، السلوك ، ج٣ ،ق٣ ، ص٩٦٧، ٩٦٨ ، ٩٦٩ .
	١٦ شوال	٤٠	١,٤٣	٢٥	٠,٩	٢٥	٠,٩		ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٥٤-٥٥٥ .
٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م	محرم	٤٠	١,٦	٢٥	١	٢٧	١,٠٨	٢٥	المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص٩٧٧ .
	صفر	٦٠	٢,٤	٣٥	١,٤	٣٥	١,٤		المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ٩٨٢ .
	ربيع١	٧٠	٢,٨						المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ٩٩٣ .
	٣٠ربيع١	٥٠	٢						المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ٩٩٣.
	شعبان	٧٥	٣						المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص١٠١٣.
٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م	محرم	٥٠	١,٧٢	٣٠	١,٠٣	٣٠	١,٠٣	٢٩	المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١٠٢٧ .
	رمضان							٣٥	المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص١٠٥٩ .
	ذو الحجة							٣٧	المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١٠٧٠ .
٨٠٤هـ/ ١٤٠١م	محرم	٥٠	١,٤٧	٢٥	٠,٧٤			٣٤	المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص١٠٧٦.
٨٠٥هـ / ١٤٠٢م	محرم	٦٠	١,٢٨	٤٠	٠,٨٥			٤٧	المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١٠٩١ .
	جمادى٢	٧٠	١,١٧	٧٠	١,١٧	٩٠	١,٥	٦٠	العيني ، عقد ، ص٦١أ / الصيرفي، نزهة ، ج١، ص١٦١.

السنة	الشهر	القمح		الشعير		الفول		سعر الصرف	المصادر
		درهم /إردب	دينار إفرنتي / إردب	درهم /إردب	دينار إفرنتي /إردب	درهم / إردب	دينار إفرنتي / إردب	درهم / دينار	
٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م	رجب	٧٠	١,١٧	زاد على القمح		٩٠	١,٥	٦٠	المقريزي ، السلوك . ج٣ ، ق٣ ، ص ١١٠٠ .
	ذو الحجة	٩٥	٢,١	٦٠	١,٣	٨٠	١,٨	٤٥	المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١١٠٥، ١١٠٧ / العيني ، عقد ، ص٦٣ب .
٨٠٦هـ / ١٤٠٣م	محرم	١٠٠	٢٠٢	٦٠-٧٠	١,٣-١,٥٥	٧٠	١,٥٥	٤٥	المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص١١١١.
	١٥محرم	١٢٠	٢,٧						المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص١١١٣ .
	١ربيع١	١٨٠	٣	١٠٠	٢٠٢			٦٠	المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١١١٦ .
	٢٠ربيع١	٢٥	٤,١٧	٢٣٠	٣,٨	٢٣٠	٣,٨		المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١١١٦.
	جمادى٢	٢٦٠	٤,٣						المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص١١١٩.
	١رجب	٣٢٠	٥,٣	١٩٢	٣,٢	١٨٠	٣		المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١١٢٠.
	٢٠رجب	٣٥٠	٥,٨						العيني ، عقد ، ص ٦٧ ب .
	شعبان	٤٠٠	٦,٧	٢٥٠	٤,٢	٢٥٠	٤,٢		المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١١٢٢ .
	شوال							٧٥	المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١١٢٣ .
	ذوالقعدة	٢٥٠	٣,٣						المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١١٢٣ .
٨٠٧هـ / ١٤٠٤م	محرم	٢٥٠	٣,٦			٢٥٠	٣,٦	٧٠	المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١١٣٠ .
	٣٠ محرم	٤٠٠	٥,٧	٢٠٠	٢,٩				المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١١٣٣.
	٣٠ صفر	٢٢٠	٣,١٤	١٤٠	٢				المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١١٣٤.
	٣٠ ربيع١	٤٠٠	٥٠٧	٣٢٠	٤,٥٧	٣٢٠	٤,٥٧		المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١١٣٤.
	جمادى١			٣٦٠	٤,٥	٤٠٠	٥	٨٠	المقريزي ، السلوك، ج٣ ،ق٣ ،ص١١٣٤-١١٣٥.
	شوال	٢٠٠	٢,٥					٨٠	المقريزي ، السلوك ،ج٣ ، ق٣ ، ص١١٥٣، ١١٥٥.
	٣٠شوال	١٠٠	١,٢٥					٨٠	المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١١٥٥ .

السنة	الشهر	القمح		الشعير		الفول		سعر الصرف	المصادر
		درهم /إردب	دينار إفرنتي / إردب	درهم /إردب	دينار إفرنتي /إردب	درهم / إردب	دينار إفرنتي / إردب	درهم / دينار	
٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م	محرم	١٧٠	١,٤	١٥٠	١,٢٥	١٥٠	١,٢٥	١٢٠	المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١١٧٠ .
	ربيع ١	٢٢٠	١,٧	١٢٠	٠,٩٢	١٢٠	٠,٩٢	١٣٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص٣ .
	جمادى ٢	١٣٠	١,٠٨					١٢٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص١٩ .
	ذو الحجة	١٢٠	١					١٢٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٢٢ .
٨٠٩هـ / ١٤٠٦م	محرم	١٣٠	١٠١٣	١٠٠	٠,٨٧	١٠٠	٠,٨٧	١١٥	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٢٧ .
	شعبان	٦٠	٠,٤٤	٣٥	٠,٢٦	٢٥	٠,١٩	١٣٥	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٠ .
٨١٠هـ / ١٤٠٧م	محرم	١٨٠	١,٢٨					١٤٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٥١ .
٨١١هـ / ١٤٠٨م	محرم	١٠٠	٠,٧١	٧٠	٠,٥	٦٠	٠,٤٣		المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٦٠ / ابن حجر ، إنباء ، ج٦ ، ص ٨٩ .
٨١٢هـ / ١٤٠٩م	محرم	١٥٠	١,٠٧						المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص٩١ .
٨١٣هـ / ١٤١٠م	محرم	٢٠٠	١,٢٥					١٦٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ١٣١ .
	ربيع١	٢٥٠	١,٥٦	١٥٠	٠,٩٤	١٦٠	١		المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ١٢٨ .
	٣٠ ربيع١	١٢٠	٠,٧٥	٦٠	٠,٣٨	٩٠	٠,٥٦		المقريزي، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ١٣٨ .
	نهاية السنة	١٣٠	٠,٦٥	٨٠	٠,٤	١٠٠	٠,٥	٢٠٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ١٦٥ .

السنة	الشهر	القمح		الشعير		الفول		سعر الصرف	المصادر
		درهم /إردب	دينار إفرنـ / إردب	درهم /إردب	دينار إفرنـ /إردب	درهم / إردب	دينار إفرنـ / إردب	درهم / دينار	
٨١٤هـ / ١٤١١ م	محرم	١٤٠	٠,٧٤	١٠٠	٠,٥٣	١٠٠	٠,٥٣	١٩٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ١٧٢ .
	جمادى ١							١٩٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ١٨٢.
	شوال							٢١٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ١٩٢ .
٨١٥هـ / ١٤١٢م	محرم	١٥٠	٠,٦٨					٢٢٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٢٠٤، ٢٠٥.
٨١٦هـ / ١٤١٣م	محرم	١٨٠	٠,٧٨					٢٣٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٢٥٦ .
٨١٧هـ / ١٤١٤م	محرم	١٤٠	٠,٦١					٢٣٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٢٥٦ .
	شعبان		٠,٣٣		٠,٢٥				المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٢٨٧ .
٨١٨هـ / ١٤١٥م	صفر							٢٣٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٠٥ .
	جمادى ٢	١٦٠	٠,٧	١٣٠	٠,٥٧				المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٢٠ .
	شوال	٢٠٠	٠,٨٧						المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٣١ .
	١ذو القعدة	٥٠٠	٢					٢٥٠	المقريزي، السلوك، ج٤ ، ق١، ص ٣٢٣، ٣٣٥ .
	٣٠ذو القعدة	٨٠٠	٣,٢	٣٠٠	١,٢	٢٥٠	١		المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص٣٣٥ .
	ذو الحجة	٦٠٠	٢,٣١	٤٠٠	١,٥٤			٢٦٠	المقريزي، السلوك ج٤ ، ق١ ، ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

السنة	الشهر	القمح درهم /إردب	القمح دينار إفرنتي / إردب	الشعير درهم /إردب	الشعير دينار إفرنتي /إردب	الفول درهم / إردب	الفول دينار إفرنتي / إردب	سعر الصرف درهم / دينار	المصادر
٨١٩هـ / ١٤١٦م	١ – ١٨ محرم		٣,١٣		٢,٠٩			٢٣٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٤٢.
	١٨ محرم	٦٠٠	٢,٤					٢٥٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٤٤ .
		٩٠٠ الوجه البحري							المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٤٢ .
	٣٠ محرم	٨٠٠	٣٠٢						ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص٢٠٤ .
	صفر	٢٧٠	١,٠٨					٢٥٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٤٩ .
	ربيع٢							٢٦٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٥٤ .
	جمادى٢							٢٦٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٦٠ .
٨٢٠هـ / ١٤١٧م	محرم	١٠٠	٠,٣٨					٢٦٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص٣٨١ / العيني ، عقد، حوادث٨١٥-٨٢٤هـ الطنطاوي،ص٣٠١.
	جمادى ٢							٢٦٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٩٦ .
	ذو القعدة							٢٦٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٢٧ .
	محرم - ذو القعدة	١٥٠	٠,٥٨	٩٠	٠,٣٥	٩٠	٠,٣٥		المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٣١ .
	ذو الحجة	٢٤٠	٠,٩٢	٢٠٠	٠,٧٧	٢٠٠	٠,٧٧		المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٣١ .
٨٢١هـ /١٤١٨م	محرم							٢٦٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٣٧ .
	رجب							٢١٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٥٥ .
	ذو الحجة	٢٦٠	١,٢٢	٢٥٠	١,١٩	٣٠	١,٤٣		المقريزي ، السلوك، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٧٠، ٤٧١ .

السنة	الشهر	القمح درهم /إردب	القمح دينار إفرنتي / إردب	الشعير درهم /إردب	الشعير دينار إفرنتي /إردب	الفول درهم / إردب	الفول دينار إفرنتي / إردب	سعر الصرف درهم / دينار	المصادر
٨٢٢هـ / ١٤١٩م	رجب	٢٥٠	١,٠١٩	١٨٠	٠,٨٦	١٧٠	٠,٨١	•	المقريزي، السلوك ، ج٤، ق١، ٥٠٠ .
	شعبان	٣٠٠	١,٤٣						ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص٣٦٠ .
	رمضان	٣٠٠	١,٤٣						المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٥٠٣ .
	ذو القعدة	٣٥٠	١,٧	٢٥٠	١,١٩	٢١٠	١	٢١٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٥١٠ .
٨٢٣هـ / ١٤٢٠م	محرم	٤٠٠	١,٩	٢٥٠	١,١٩	٢٥٠	١,١٩	٢١٠	الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص ٤٨٠ .
	شعبان	٣٠٠	١,٤٣	١٨٠	٠,٨٦				الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص ٤٨١ .
٨٢٤هـ / ١٤٢١م	محرم	٢٨٠	١,٣	١٧٠	٠,٨١	١٦٠	٠,٧٦	٢١٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٥٤٨ .
٨٢٥هـ / ١٤٢١م	صفر	٩٠	٠,٤١	٦٥	٠,٣	٧٥	٠,٣٤	٢٢٠	العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥ – ٨٢٤ هـ ، الطنطاوي ، ص ١٩٧ .
	رمضان	١٥٠	٠,٦٨	٨٥	٠,٣٩	٨٠	٠,٣٦		المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٦١٨ .
		٢٥٠	١,١٣	١٨٠	٠,٨٢	١٨٠	٠,٨٢		الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص ٥٢٠ .
٨٢٦هـ / ١٤٢٢م	محرم		٠,٢						المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٣١ .
	جمادى ١	٨٠	٠,٣٦					٢٢٥	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٣٤ .
	ربيع ٢	٦٠	٠,٢٧						ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٧ .
	ذو القعدة	١٤٠	٠,٦١	٧٠	٠,٣	٧٠	٠,٣	٢٣٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٦٤٦ .

السنة	الشهر	القمح		الشعير		الفول		سعر الصرف	المصادر
		درهم /إردب	دينار إفرنتي / إردب	درهم /إردب	دينار إفرنتي /إردب	درهم / إردب	دينار إفرنتي / إردب		
٨٢٧هـ / ١٤٢٣م	محرم – ربيع٢	١٤٠	٠,٦١						المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٦٠ .
	ربيع٢	٢٠٠	٠,٨٧						المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٦٠ .
	شوال	٢١٠	٠,٩١						المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٦٩ .
	ذو القعدة	١٨٠	٠,٨	٨٥	٠,٣٧	٨٠	٠,٣٥		المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٧٢ .
٨٢٨هـ / ١٤٢٤م	محرم	٢٠٠	٠,٨٩	١٢٠	٠,٥٣	١٢٠	٠,٥٣	٢٢٥	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٧٢ .
	شعبان	٢٠٠	٠,٨٩						المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٩١ .
	رجب					٢٠٠	٠,٨٩		المقريزي ، السلوك ، ج٤ ،ق٢ ، ص ٦٨٧، ٦٨٨ .
	ذو القعدة	٣٠٠	١,٣	٢٨٠	١,٢٤	٣٠٠	١,٣		العيني، عقد، حوادث ٨٢٤-٨٥٠هـ، الطنطاوي، ص ٢٥٢ .
٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م	محرم	٢٥٠	١,١	٣٠٠	١,٣	٣٠٠	١,٣	٢٢٥	ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٩٤
	١٥ صفر	٣٠٠	١,٣			٢٨٤	١,٧١		المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧١٠ .
	١ ربيع١	٣٠٠	١,٣					٢٢٥	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧١٥ .
	١٥ ربيع١					٤٠٠	١,٨		المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧١٨ .
	ربيع٢	٤	بلاد الصعيد						المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧١٨ .
	١ جمادى ١	٤٦٠	٢,٠٤	٤٦٠	٢,٠٤				المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧١٨ .
	٣٠ جمادى١	٢٣٠	١,٠٢	٢٣٠	١,٠٢				المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧١٨ .
	ذو الحجة					٤٠٠	١,٨		ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٩٤ .

السنة	الشهر	القمح		الشعير		الفول		سعر الصرف	المصادر
		درهم /إردب	دينار إفرنتي / إردب	درهم /إردب	دينار إفرنتي /إردب	درهم / إردب	دينار إفرنتي / إردب		
٨٣٠هـ / ١٤٢٦م	محرم	١٥٠	٠,٧	١٠٠	٠,٤	١٥٠	٠,٧		المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٣٤.
	رجب	١١٠	٠,٤٩		٠,٢٩				المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٤٤ .
	شعبان		٠,٣٤		٠,٢٥		٠,٣٤		المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٤٦ .
	٣٠ذوالقعدة	٢٠٠	٠,٨٩	١٥٠	٠,٧	١٥٠	٠,٧		المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٥٠ .
٨٣١ هـ/ ١٤٢٧م	محرم	١٧٠	٠,٧٦	١٣٠	٠,٨٥	١٣٠	٠,٥٨		المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٦٤ .
	صفر	١٤٠	٠,٦٢	٩٠	٠,٤	٩٠	٠,٤		المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٦٦.
	رجب	١٦٠	٠,٧١	١٢٥	٠,٥٦	١٦٠	٠,٧١		المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٧٨ .
	رمضان	٢٦٠	١,١٦	٢٠٠	٠,٨٩	٢٠٠	٠,٨٩		المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٨٠ .
	ذو القعدة	٣٠٠	١,٣	٢٣٠	١,٠٢	٢٦٠	١,١٦		المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٨٢ .
	ذو الحجة	٤٠٠	١,٨	٣٠٠	١,٣	٣٠٠	١,٣		المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٨٣ .
٨٣٢هـ / ١٤٢٨م	١ ربيع٢	٥٠٠	٢,٢						المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٩٤ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ١٤٨ .
	٣٠ ربيع٢	٤٠٠-٤٥٠	١,٨-٢	١٨٠	٠,٨	١٨٠	٠,٨		الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ١٤٨ .
	جمادى٢	٢٨٠	١,٢٤	١٣٠	٠,٥٨				المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٩٩ .
	رجب	٢٤٠	٠,٩٦	١٢٠	٠,٥٢			٢٥٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٠٠ .
	٣٠ رجب	٢٠٠	١,٢						المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٠١ .
	شوال	٢٥٠	٠,٩٦	١٢٠	٠,٥			٢٦٠	المقريزي، السلوك،ج٤ ،ق٢ ،ص ٨٠٤ ، ٨٠٥.
	ذو القعدة	٣٠٠	١,١٥						المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٠٩ .

السنة	الشهر	القمح		الشعير		الفول		سعر الصرف	المصادر
		درهم/إردب	دينار إفرنتي/ إردب	درهم/إردب	دينار إفرنتي/إردب	درهم / إردب	دينار إفرنتي / إردب	درهم/ إفرنتي	
٨٣٣هـ / ١٤٢٩م	محرم							٢٦٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨١٩ .
	ربيع١	٣٦٠	١,٣٨						المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٢٠ .
	ربيع٢	٢٥٠	٠,٩٦	١١٠	٠,٤٢				المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٢١ .
	رجب	٢٠٠	٠,٧٧	٩٠	٠,٣٥				المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٣٠ .
	شعبان	١٥٠	٠,٥٨	٩٠	٠,٣٥	٧٠	٠,٢٧		المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٣٢ .
٨٣٤هـ / ١٤٣٠م	محرم		٠,٤٩		٠,٢٥		٠,٢٥		المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٥٠ / ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٢٦٦ .
	صفر	١٣٠	٠,٥٧	٦٠	٠,٢٦	٥٠	٠,٢٢	٢٣٠	ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٢٦٨ .
	ربيع١							٢٧٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٨٥٣ .
	ربيع ٢							٢٢٥	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٥٣ .
٨٣٥هـ / ١٤٣١م	شوال	١٣٠	٠,٥٨	٨٠	٠,٣٦	٨٠	٠,٣٦		المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٧٢ .
٨٣٦هـ / ١٤٣٢م	محرم	١٣٠	٠,٥٢	٨٠	٠,٣٢	٨٠	٠,٣٢	٢٥٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٨٠ .
	جمادى٢							٢٧٠	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٨٨ .
	ذو القعدة	١٣٠	٠,٤٨	٨٠	٠,٣	٨٠	٠,٣		المقريزي ، السلوك ، ج٤ ن ق٢ ، ص ٨٩٣ .
	ذو الحجة	١٥٠	٠,٥٦						المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٩٤ .

السنة	الشهر	القمح درهم/إردب	القمح دينار إفرنتي/إردب	الشعير درهم/إردب	الشعير دينار إفرنتي/إردب	الفول درهم/إردب	الفول دينار إفرنتي/إردب	سعر الصرف درهم/إردب	المصادر
٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م	محرم	١٤٠	٠,٤٩					٢٨٥	المقريزي، السلوك، ج٤، ق٢، ص ٩٠٢.
	صفر	١٨٠	٠,٦٣	١٤٠	٠,٤٩				المقريزي، السلوك، ج٤، ق٢، ص ٩٠٤.
	شوال	١٧٠	٠,٦						المقريزي، السلوك، ج٤، ق٢، ص ٩١٩.
	ذو الحجة	٢٠٠	٠,٧	١٧٠	٠,٦	٢٠٠	٠,٧		المقريزي، السلوك، ج٤، ق٢، ص ٩٢٠.
٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م	محرم	٢٥٠	٠,٨٩					٢٨٠	ابن حجر، إنباء، ج٨، ص ٣٥٥.
٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م	ربيع٢	٣٦٠	١,٢٩	٢١٠	٠,٧٥	٢١٠	٠,٧٥		المقريزي، السلوك، ج٤، ق٢، ص ٩٦٤.
		٤٠٠	١,٤٣	١٧٠	٠,٦١	٢٠٠	٠,٧١		ابن حجر، إنباء، ج٨، ص ٣٧٤.
٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م	جمادى١	١٤٠	٠,٥					٢٨٠	ابن حجر، إنباء، ج٨، ص ٤١٩.
٨٤٣هـ/ ١٤٣٩م	صفر	١٩٠	٠,٦٨	١٥٠	٠,٥٤	٢٠٠	٠,٧١		المقريزي، السلوك، ج٤، ق٣، ص ١١٦٠-١١٦١.
	جمادى٢	٣٠٠	١,٠٧						المقريزي، السلوك، ج٤، ق٣، ص ١١٨٠.
	رمضان	٣٦٠	١,٣						الصيرفي، نزهة، ج٣، ص ١٠٠ب.
	شوال	٢٥٠	٠,٨٩						المقريزي، السلوك، ج٤، ق٣، ص ١١٨٤.
٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م		٢٠٠	٠,٦٩					٢٩٠	ابن تغري بردي، حوادث، ص ١٠٣.
٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م		١٢٠	٠,٤١	٩٥	٠,٣٣				العيني، عقد، حوادث ٨٢٤-٨٥٠هـ، الطنطاوي، ص ٦٤٨
		١٨٠	٠,٦٢	١٤٠	٠,٤٨	١٣٠	٠,٠,٨٣		

أسعار الغلال ما بين ٨٥٣-٩١٧ هـ / ١٤٤٩- ١٥١١م بالدينار الأشرفي

السنة	الشهر	القمح		الشعير		الفول		سعر الصرف	المصادر
		درهم/اردب	دينار أشرفي/اردب	درهم/اردب	دينار أشرفي /اردب	درهم /اردب	دينار أشرفي /اردب	درهم /دينار	
٨٥٣ هـ/	جمادى ١	٣٠٠	١,٠٣	٢٩٠	١	٣٠٠	١,٠٣	٢٩٠	ابن تغري بردي ، حوادث ، ج١ ، ص
١٤٤٩م	جمادى٢	٢٩٠	١	١٦٠	٠,٥٥	٢٤٠	٠,٨٣		٢١٠-٢١٢ .
		٤٠٠	١,٣٨						
	رمضان	٦٠٠	٢,٠٧	٤٠٠	١,٣٨	٥٠٠	١,٧٢		ابن تغري بردي ، حوادث ، ج١ ، ص
									٢١٢ / السخاوي ، التبر ، ص ٢٦١ .
	ذو الحجة	٨٠٠	٢,٧٦						السخاوي ، التبر ، ص ٢٦١ .
		٨٠٠	٢,٧٦			٥٠٠	١,٧٢		ابن تغري بردي ، حوادث ، ج١ ، ص
									٢٢٧ / السخاوي ، وجيز ، ج٢ ، ص
									٦٣٣
٨٥٤هـ /			٧						ابن إياس ، تشق ، ص ٢٢١ أ .
١٤٥٠م									
	محرم	٨٠٠	٢,٧٦	٨٠٠	٢,٧٦				ابن تغري بردي،حوادث، ج١ ،ص ٢٤٨ .
	جمادى ١	٥٠٠	١,٧٢	٢٥٠	٠,٨٦	٣٦٠	١,٢٤		ابن تغري بردي،حوادث،ج١ ، ص ٢٧٣ .
	رجب	٦٠٠	٢,٠٧	٤٠٠	١,٣٨	٤٠٠	١,٣٨		ابن تغري بردي، حوادث، ج١ ،ص٢٨٥ .
	شعبان	١٠٠٠	٣,٤٥	٦٠٠	٢,٠٧	٦٠٠	٢,٠٧		ابن تغري بردي،حوادث ،ج١ ،ص ٢٩٣ .

السنة	الشهر	القمح درهم/إردب	القمح دينار أشرفي/إردب	الشعير درهم/إردب	الشعير دينار أشرفي/إردب	الفول درهم / إردب	الفول دينار أشرفي /إردب	سعر الصرف درهم/دينار	المصادر
٨٥٤هـ /١٤٥٠م	شوال					٧٠٠	٢,٤١	·	ابن تغري بردي ، حوادث ، ج١ ، ص٢٩٩ .
	نهاية السنة	١,٥٠٠	٥,١٧	١,٠٠٠	٣,٤٥	١,٠٠٠	٣٠٤٥		السخاوي ، التبر ، ص ٣١٢ .
٨٥٥هـ / ١٤٥١م			٧						ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص ٢٩١ .
		١٥٠٠	٥,١٧	١٠٠٠	٣,٤٥	١٠٠٠	٣,٤٥		ابن تغري بردي،حوادث ،ج٢،ص٣١٧.
	ربيع ١	١٠٠	٣,٤٥						
	ربيع٢	٨٠٠	٢,٧٦	٧٠٠	٢,٤١	٧٠٠	٢,٤١		السخاوي ، التبر ، ص ٣٤٦ .
٨٥٦ هـ/ ١٤٥٢م	محرم	٨٠٠	٢,٥	٤٠٠	١,٢٥	٥٠٠	١,٥٦	٣٢٠	ابن تغري بردي،حوادث،ج٢ ، ص٣٥٧ .
	ربيع ٢	٤٠٠	١,٢٥	٢٠٠	٠,٦٣	٣٠٠	٠,٩٤		ابن تغري بردي،حوادث، ج٢ ،ص ٣٦٠ .
	ذو القعدة	٣٢٠	١	٢٤٠	٠,٧٥	٣٠٠	٠,٩٤		ابن تغري بردي،حوادث ،ج٢ ،ص ٣٩٧ .
٨٥٧هـ / ١٤٥٣م	رجب	١٤٠	٠,٤٤	٩٠	٠,٢٨	٩٠	٠,٢٨	٣٢٠	ابن تغري بردي، حوادث، ج٢ ،ص٤٤٤ .
	نهاية السنة	١٤٠	٠,٤	٧٠	٠,٢٢	٨٠	٠,٢٥		ابن تغري بردي ،حوادث،ج٢ ،ص ٤٧٧ .
٨٥٩هـ /	شعبان	١٧٠	٠,٤٦	١٣٠	٠,٣٥	١١٠	٠,٣		ابن تغري بردي، حوادث،ج٢ ،ص ٥٤٢ .
١٤٥٤		١٤٠	٠,٢٨	١٠٥	٠,٢٨	٩٠	٢,٤	٣٧٠	
٨٦٠هـ / ١٤٥٥م	ربيع٢	٢٠٠	٠,٥٦	١٥٠	٠,٤٢	١٥٠	٠,٤٢	٣٦٠	ابن تغري بردي ،حوادث، ج٢ ،ص٥٧٢ .

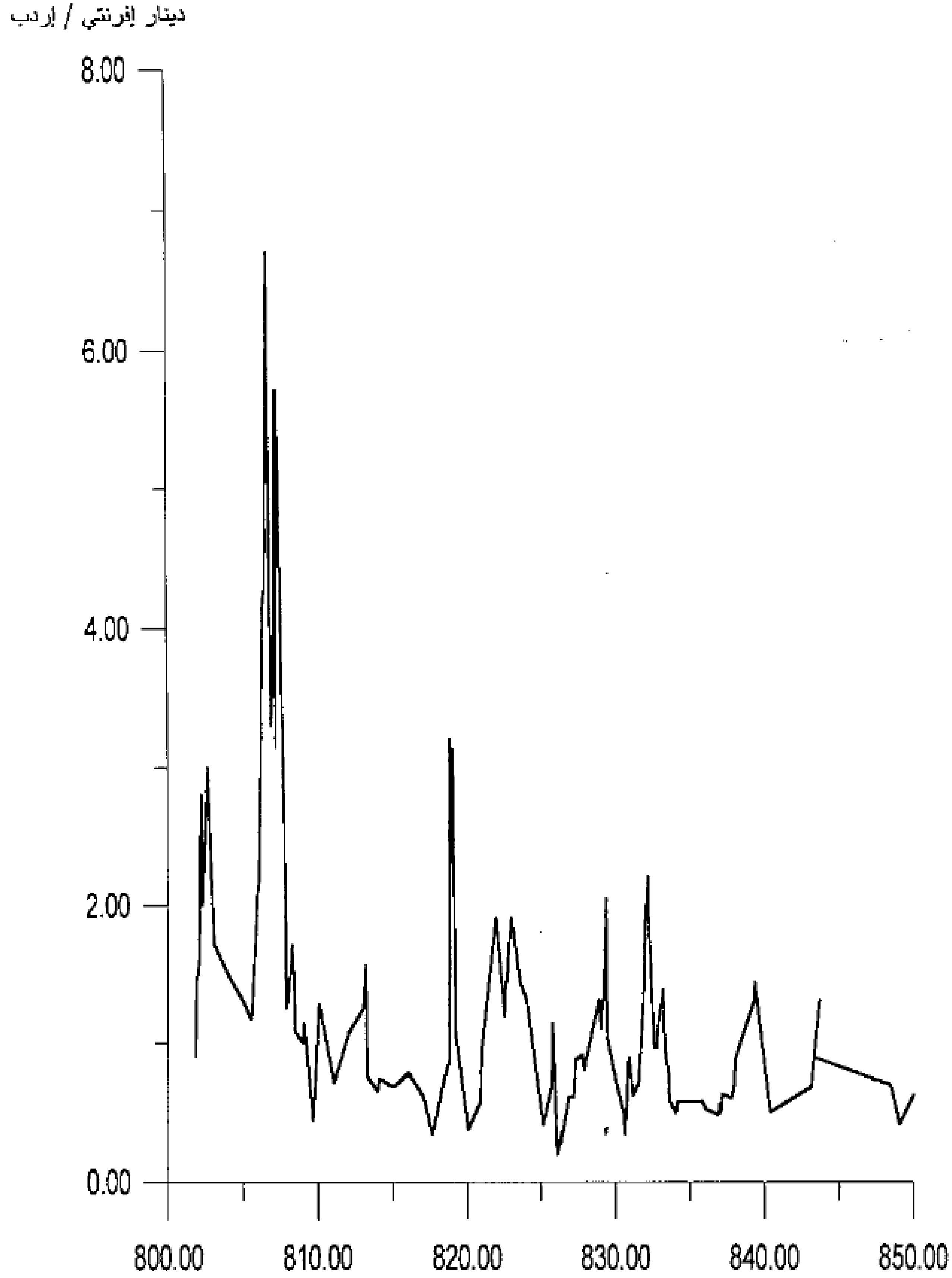
السنة	الشهر	القمح درهم / إردب	القمح دينار أشرفي/ إردب	الشعير درهم / إردب	الشعير دينار أشرفي / إردب	الفول درهم / إردب	الفول دينار أشرفي / إردب	سعر الصرف درهم / دينار	المصادر
٨٦٠هـ / ١٤٥٥م	رمضان			٢٤٠	٠,٦٧				ابن تغري بردي،حوادث ،ج٢ ، ص٥٩٢ .
٨٦٤هـ / ١٤٥٩م	جمادى ٢	٦٠٠	١,٧	٤٠٠	١,١	٤٠٠	١,١		ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٦ ، ص ١١٧-١١٨ .
٨٦٦هـ / ١٤٦١م	شوال	٢٧٠	٠,٨١	٢٠٠	٠,٦	٢٨٠	٠,٨٤	٣٣٣	
		٥٠٠	١,٥						Boaz , Money , P242 .
٨٦٨هـ / ١٤٦٣م	رجب	٣٦٠	١,٠٨	٣٢٠	٠,٩٦	٣٠٠	٠,٩		
٨٦٩هـ / ١٤٦٤م	شوال	٣٥٠	١	٢٠٠	٠,٥٧	٢٠٠	٠,٥٧	٣٥٠	
٨٧٠	جمادى٢	٤٢٠	١,٢	٢٤٠	٠,٦٩	٢٢٨	٠,٦٥		
	رجب	٦٠٠	١,٧						
	شعبان	٥٤٠	١,٥٤						
		١٠٠٠	٢٠٨٦						
	رمضان	٤٠٠	١,١٤						
٨٧٢هـ / ١٤٦٧م	شوال	٦٠٠	١,٧	٢٤٠	٠,٦٩	٢٠٠	٠,٥٧		Shoshan Boaz , Money , P 242 .
	ذو الحجة	٧٠٠	٢	٣٠٠	٠,٩	٢٠٠	٠,٥٧		القاضي عبد الباسط،نيل،ج٢ ،ص٢٠٠ب .

السنة	الشهر	القمح		الشعير		الفول		سعرالصرف	المصادر
		درهم/ إردب	دينار أشرفي/إردب	درهم/ إردب	دينار أشرفي / إردب	درهم/ إردب	دينار أشرفي / إردب	درهم/ إردب	
٨٧٢هـ /	صفر	٦٠٠	١,٧	٣٠٠	٢٠٠	٠,٥٧			الصيرفي، إنباء، ص١٣ -١٤/ القاضي عبد
١٤٦٨		٧٠٠	٢	ارتفع	ارتفع				الباسط، نيل، ج٢، ٢٠٣أ – ٢٠٣ب .
	ربيع١	٩٠٠	٢,٥٧	٤٥٠	١,٢٩				الصيرفي، إنباء، ص ١٧ .
	ربيع٢	٩٠٠	٢,٥٧	٤٥٠	١,٢٩			٣٥٠	.
	جمادى٢	٩٠٠	٢,٥٧						الصيرفي، إنباء، ص ٤٦ .
	رمضان	٦٠٠	١,٧	٣٠٠	٠,٩	٣٠٠	٠,٩	٣٥٠	
		١٠٠ب	٢,٨٦						
			٤						الصيرفي، إنباء، ص ٦١، ١١٤
٨٧٤هـ /	محرم	٦٠٠	١,٧					٣٥٠	
١٤٦٩م		الوجه القبلي							الصيرفي، إنباء، ص ١٢٥ .
	ربيع٢	١٢٠٠	٣,٣٤	٧٠٠	٢	٧٠٠	٢٠		الصيرفي، إنباء، ص ١٥٢.
	جمادى ١	١٢٠٠	٣,٣٤	٧٠٠	٢	٧٠٠	٢		عبد الباسط، نيل، ج٢، ص ٢١٨ ب .
	رجب	١٢٠٠	٣,٣٤	١٢٠٠	٣,٣٤	١٢٠٠	٣,٣٤		الصيرفي، إنباء، ص ١٥٩ .
	شعبان	١٣٠٠	٣,٧	٩٠٠	٢,٥٧				الصيرفي، إنباء، ص ١٦١، ١٦٢ .
	رمضان	١٠٠٠	٢,٨٦	٦٠٠	١,٧				الصيرفي إنباء، ص ١٦٢ .
٨٧٥هـ /	محرم	٨٠٠	٢,٢٩	٣٨٠	١,٠٩	٣٨٠	١,٠٩		
١٤٧٠									الصيرفي، إنباء، ص ١٨٧ .

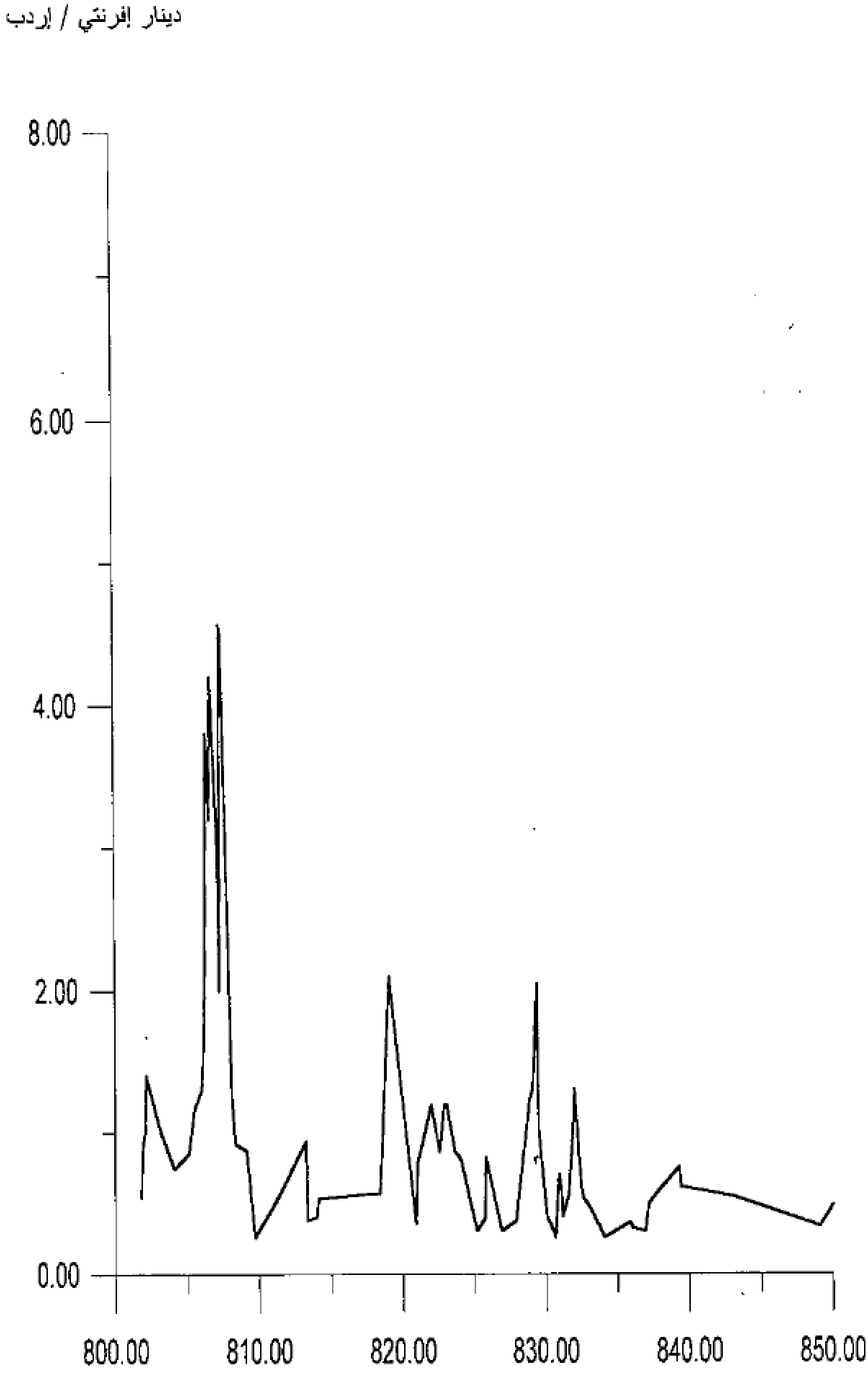
السنة	الشهر	القمح درهم/ إردب	القمح دينار أشرفي/إردب	الفول درهم/ إردب	الفول دينار أشرفي / إردب	الشعير درهم/ إردب	الشعير دينار أشرفي/ إردب	سعر الصرف درهم/ دينار	المصادر
٨٧٦هـ / ١٤٧١م	ذو القعدة		١	٢٦٥	٠,٧٦				الصيرفي ، إنباء ، ص٤٣١ .
٨٧٧هـ / ١٤٧٢م	ربيع١	٢٠٠	٠,٥٧					٣٥٠	الصيرفي ، إنباء ، ص ٤٧٦ .
٨٧٨هـ / ١٤٧٣م	محرم	٢٠٠	٠,٥٧						القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٤٦ ب .
٨٨٣هـ / ١٤٧٨م		١٧٥	٠,٥						السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ٨٩٣ .
٨٨٩ هـ/ ١٤٨٤م	جمادى١	٢٠٠	٠,٥					٤٠٠	ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٢٠٧ .
٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م	رجب	٤٠٠	١						القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٣٣٨ أ .
٨٩١هـ/١٤٨٦م	شوال	١٠٠٠	٢,٥						القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٣٥٨ أ .
	ذو القعدة	١١٠٠	٢,٧٥						القاضي عبد الباسط، نيل، ج٢ ،ص٣٦٠ أ.
٨٩٢ هـ / ١٤٨٧	محرم		٦						القاضي عبد الباسط، نيل،ج٢ ،ص٣٦١ أ .
			٥						ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٢٣٨ .
			٤						القاضي عبد الباسط،نيل، ج٢،ص٣٦١ب .

السنة	الشهر	القمح درهم / إردب	القمح دينار أشرفي/إردب	الفول درهم / إردب	الفول دينار أشرفي/ إردب	الشعير درهم / إردب	الشعير دينار أشرفي / إردب	سعر الصرف درهم / دينار	المصادر
٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م			٠,٣٣						القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٨٤ / ابن إياس، بدائع، ج٣ ،ص ٢٨٤ .
٨٩٧هـ/١ ٤٩١م			٠,٥						السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ١٢٦٤ .
٨٩٨هـ / ١٤٩٢		١٨٠	٠,٤٥	١٥٠	٠,٣٨	١٥٠	٠,٣٨		السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ١٢٦٥ .
٩٠٠هـ / ١٤٩٤م	رجب		٠,٣٣						ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٣٠٨ .
٩٠١هـ / ١٤٩٥م			٠,٥						ابن إياس ، بدائع ، ج٣، ص٣١٨ .
٩٠٢هـ / ١٤٩٦م		١٠٠٠	٢,٥						ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٣٧٠ .
٩٠٣هـ / ١٤٩٧م		١٢٠٠	٣						ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص٣٨٢ .
٩١٤هـ /١٥٠٨م	رجب	٥٠٠	١,٠٢٥						
	ذو الحجة	٨٠٠	٢						ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٣٧٠ ، ٣٨٢
٩١٧هـ/١ ٥١١م	صفر	٤٠٠	١						
	ذو الحجة	٨٠٠	٢						ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص٢١٧ ، ٢٥٣

*لقد تم استعمال الدينار الإفرنـ والأشرفي ، لأنهما متساويان من حيث الوزن (المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧١٠) ، ولأن التعامل بالدينار الإفرنـ قد انتهى منذ منتصف القرن ٩هـ / ١٥ م .

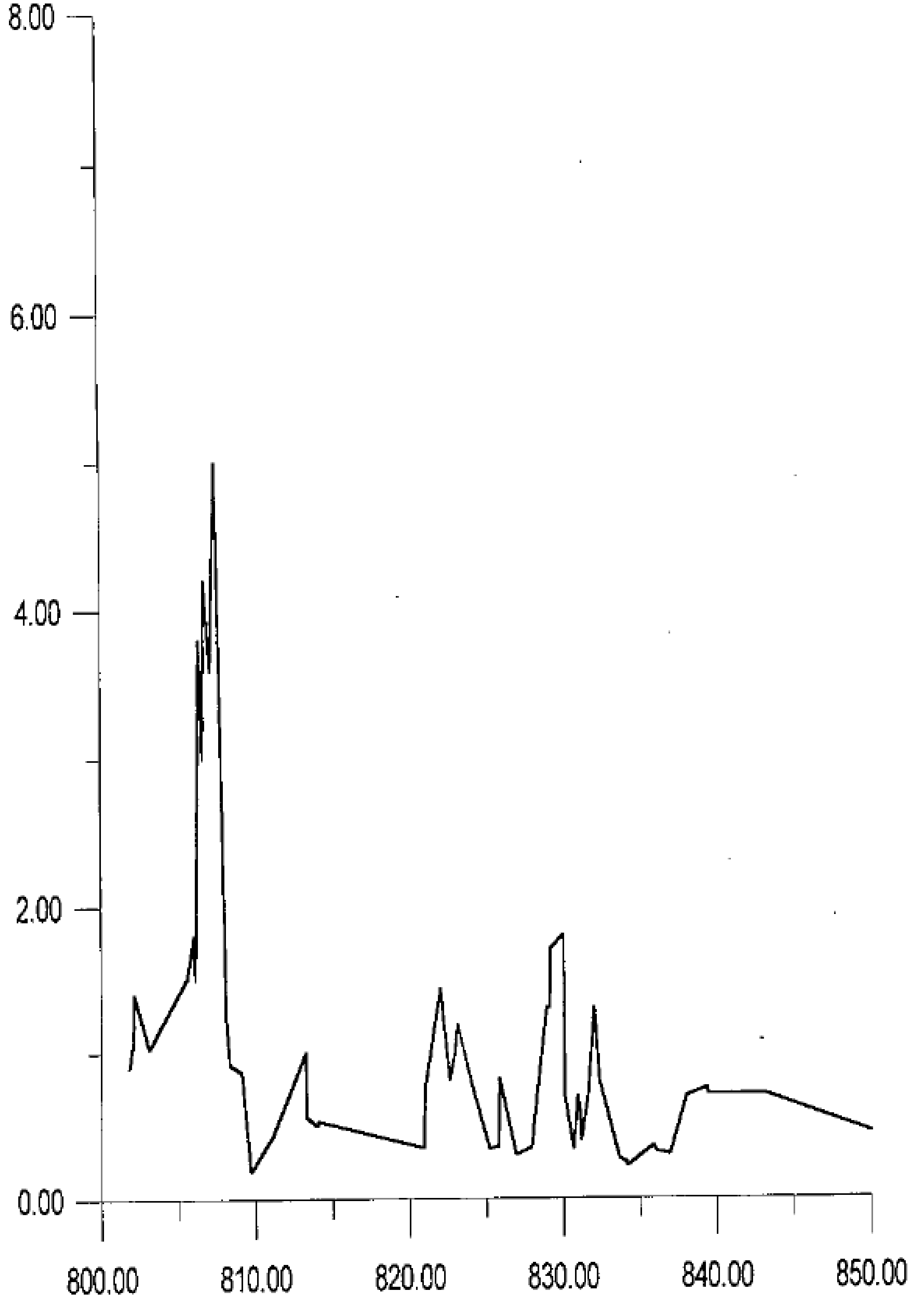


أسعار القمح ما بين ٨٠٠هـ - ٨٥٠هـ

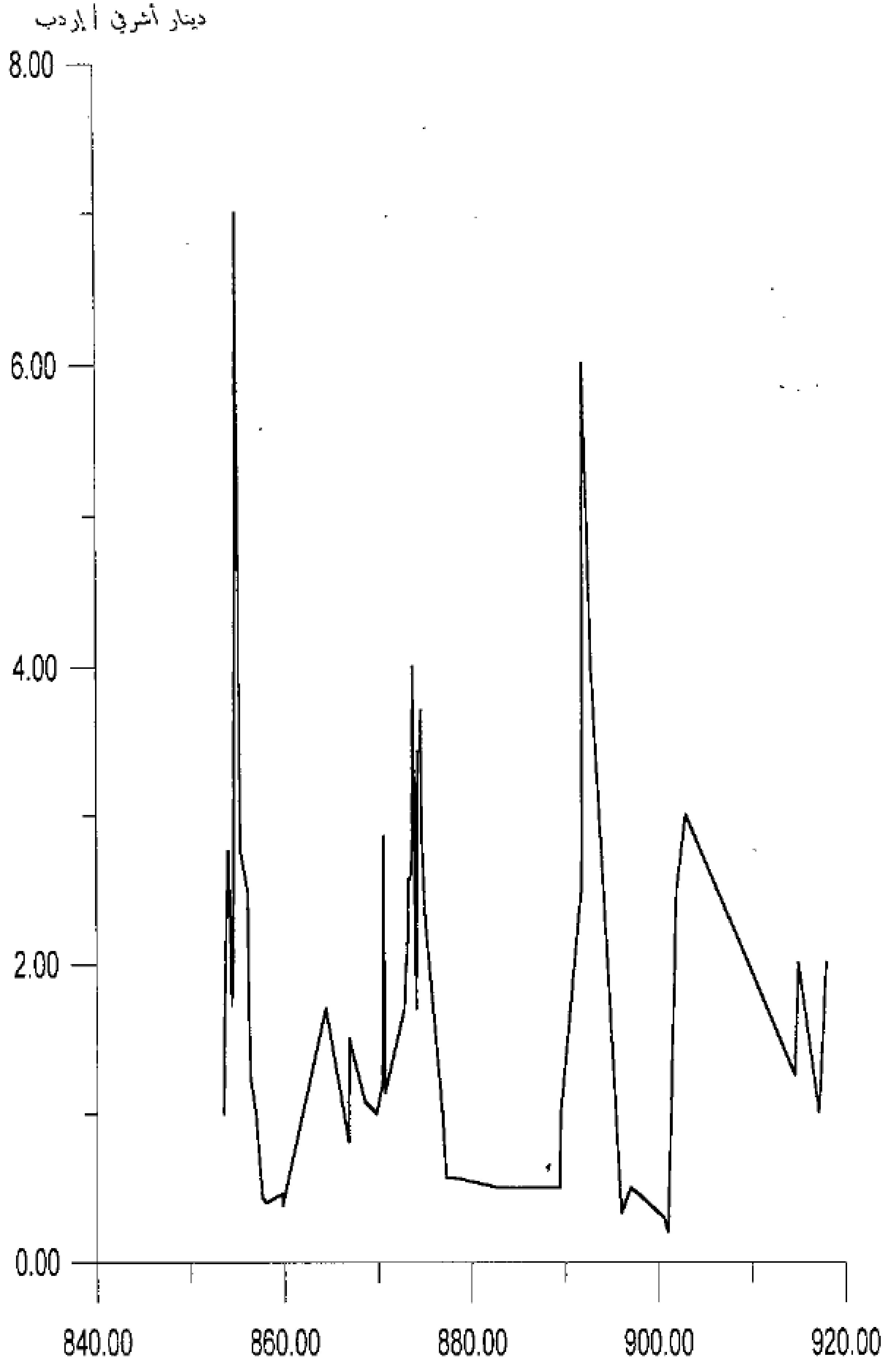


أسعار الشعير ما بين ٨٠٠هـ- ٨٥٠هـ

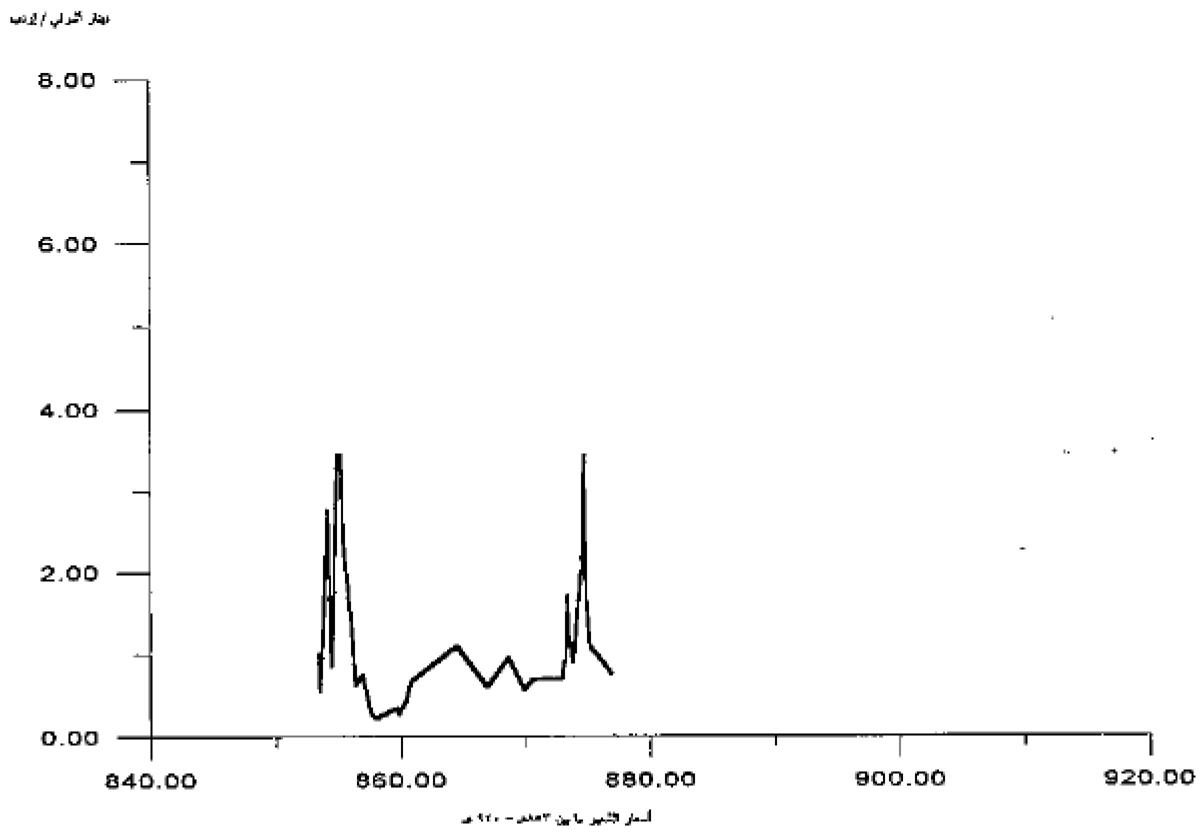
دينار إفرنتي / إردب

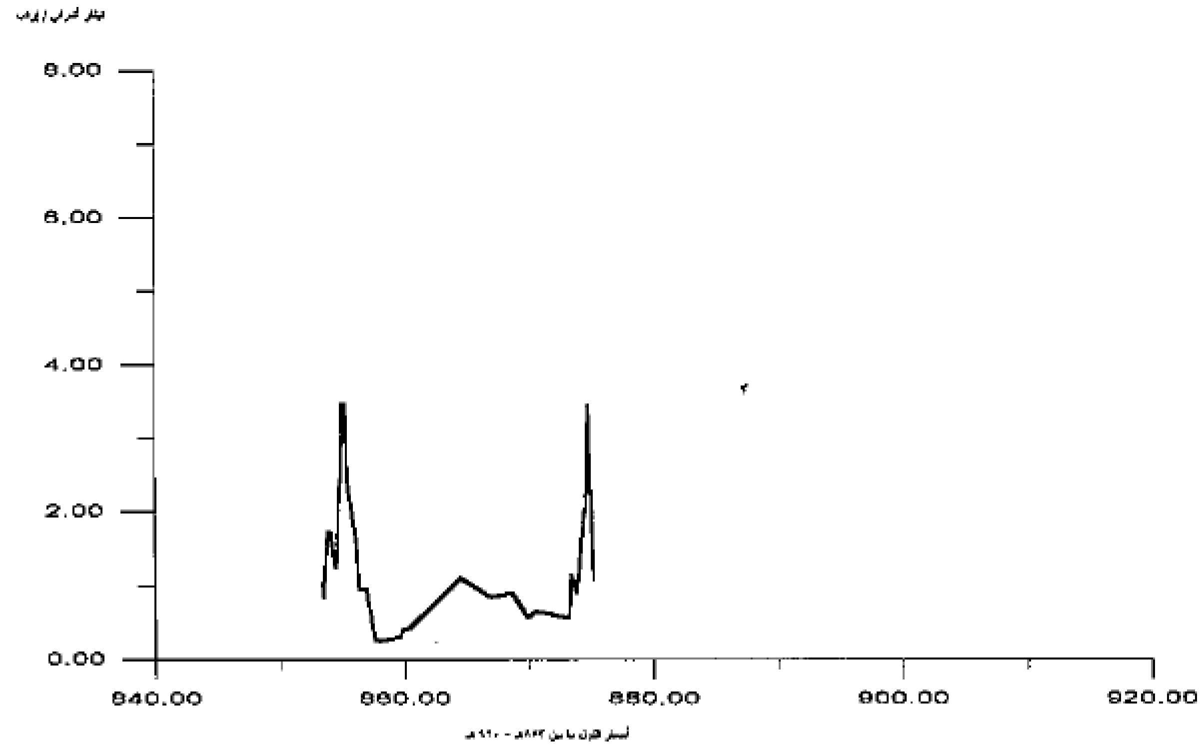


أسعار الفول ما بين ٨٠٠هـ- ٨٥٠هـ



أسعار القمح ما بين ٨٥٣ هـ - ٩٢٠ هـ


8.00
6.00
4.00
2.00
0.00
840.00
860.00
880.00
900.00
920.00


8.00
6.00
4.00
2.00
0.00
840.00
860.00
880.00
900.00
920.00

ويتضح من الجدول والمنحنيات أن مصر شهدت ارتفاعا ملحوظا في أسعار الغلال بين ٨٠٦ ــ ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٣- ١٤٠٥م ، و٨٥٣-٨٥٦ هـ/ ١٤٤٩-١٤٥٣م ، بسبب عدم الزيادة الكافية للنيل ، واحتكار أرباب السلطة للغلال ، وعدم تقديمهم قروضا وتقاوي للفلاحين ، ورفع أسعارها إلى أقصى حد ممكن ، فعطل الفلاحون مساحات واسعة من الأراضي الزراعية ، لعجزهم عن شراء البذور ، خاصة في بلاد الصعيد التي تتميز بقدرتها الإنتاجية العالية . كما ارتفعت أسعارها في السنوات ٨١٨ هـ / ١٤١٥م و ٨٢٢-٨٢٤ هـ / ١٤١٩ -١٤٢١ م و٨٢٩هـ / ١٤٢٥م و ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م و٨٧٣ - ٨٧٧ هـ / ١٤٦٨-١٤٧٢م و٨٩١-٨٩٢ هـ / ١٤٨٦- ١٤٨٧م و ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م و ٩١٧ هـ/١٥١١م ، بسبب تزايد قوة الاحتكارات .

وتؤكد المعلومات عن أسعار الغلال ما ذهب إليه ابن حجر والأسدي بأن مصر شهدت ارتفاعا في متوسط أسعار الغلال في القرن التاسع الهجري ، ويبدو أن السبب الرئيسي يعود إلى أن انخفاض الإنتاج الزراعي كان أعلى بكثير من انخفاض عدد السكان في مصر ، فازداد الطلب على العرض . كما أن المستفيدين من ارتفاع متوسط الأسعار كانوا أصحاب الغلال من السلاطين والأمراء والتجار الذين عملوا على المضاربة بالأسواق . أما الفلاحون البسطاء فلا يمكنهم الدخول في مثل هذه المضاربات ، واكتفوا ببيع إنتاجهم لوسطاء أصحاب الغلال الذين اعتادوا التجول في المناطق الريفية لشرائها .

وتتأثر أسعار الغلال سلبا بعوامل كثيرة ، منها انتشار الأوبئة والطواعين (١) ، وإقبال الناس على استهلاك الخبز المصنوع من المواد الأخرى ، كخبز الذرة ، الذي أكثر السكان أكله في سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٦ م (٢) ، والاستيراد من الخارج الذي أدى في سنة ٨٩٢ هـ/١٤٨٦م إلى انخفاض أسعار القمح من ٦ -٣ دنانير(٣)،وعند دخول الغلال الجديدة واضطرار أصحاب الغلال للتخلص مما في مخازنهم من الغلال القديمة ؛ لأن إقبال الناس يتجه نحو شراء الغلال الجديدة ، وتصبح القديمة أكثر عرضة للتسوس ، فهذا يدفع أصحابها إلى طرح كميات كبيرة في الأسواق (٤) .

وقد يحتكر السلطان الأسواق أحيانا ، ففي سنة ٨٣٣ هـ/١٤٢٩م منع السلطان برسباي أصحاب الغلال والتجار من بيع الغلال ، وطرح كميات كبيرة من الأهراء السلطانية ، فأشبعت الأسواق ، وعندما سمح لأصحاب الغلال الآخرين ببيع ما لديهم ، انخفضت الأسعار (٥) .

وتتبع السلطنة مجموعة من السياسات تجاه الغلال ، فتحتفظ في مخزونها بنوعين من المخازن ، يعرف الأول

١- يشير آشتور الى أن مصر شهدت انخفاضا في معدل أسعار الغلال في القرن ٩هـ / ١٥م ، ويعزو السبب إلى الانخفاض الشديد لعدد السكان في هذا القرن ، إضافة لرواية كتاب "جواهر السلوك " لمؤلف مجهول ، الذي يشير إلى أن معدل الأسعار زمن السلطان قايتباي كان نصف دينار / إردب.(آشتور ، التاريخ الإقتصادي ، ص ٤٠٥ - ٤٠٧).

١- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج ١ ، ص ٣١٥ أ / ابن إياس ، بدائع ، ج ٢ ، ص ٣٦٠ .

٢- ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٢٣٨ .

٣- السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ١٠٠٢ .

٤- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٤٤ ، السلوك ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٦٣١ ،٦٧٣ ،ج٤ ، ق٣ ، ص ١١٨٧.

٥- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص٨٢٠ / الصيرفي ، نزهة ،ج٣ ، ص١٨٠-١٨١/ القاضي عبد الباسط ، نيل ،ج١ ،ص٣١٠أ .

بالشون السلطانية ، وتستعمل لسد الحاجات اليومية لأرباب الرواتب والخدم والصدقات وأرباب الجوامع ،والمساجد والجرايات والطواحين السلطانية ومناخات الجمال (١) . والأخرى الأهراء السلطانية ، ولا تفتح إلا عند الضرورة وفي فترات محددة (٢) ، وتوصف بأنها "خزانة المسلمين ، كلما نظروا إليها ملآنة ، شبعت نفوسهم " (٣) ، وتتركز في القاهرة والفسطاط (٤) ، وتستخدم لصرف التقاوي للفلاحين ، وتوفير الغذاء عند اشتداد نقص الغلال وحدوث الغلاء (٥) . وتتعدد قراها بالوجهين القبلي والبحري ، ومن أشهرها منفلوط ، التي تعد أكبر مزود للأهراء (٦) ، ومما يدل على كبر حجم الغلال بها أن السلطان برسباي تمكن في سنة واحدة من تحقيق أرباح قدرت بثلاثمئة ألف دينار عندما باع جزءًا من غلالها (٧) ، وتنقل اليها الغلال بالمراكب ، ومن أشهرها الدرمونة التي تبلغ حمولتها نحو ٥,٠٠٠ إردب (٨) .

وتلجأ السلطنة إلى وسائل كثيرة للتغلب على نقص الغلال ، وارتفاع أسعارها ، إذ تبدأ فتح بعض الشون أو الأهراء السلطانية ، والبيع بسعر أقل من سعر السوق (٩) ، وتحديد الكمية المسموح بشرائها ، وقد حددها السلطان بيبرس سنة ٦٦٢ هـ/١٢٦٣م بويبتين (٣/١ إردب) فما دون في كل يوم (١٠) ، وحددت في سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م بإردب واحد ، وتوزيع ما يجلبه جلابة القمح على الطحانين ، لطحنه وبيعه في حوانيت الخبازين (١١) ، وحددت في سنة ٨٣٠ هـ/١٤٢٩م بعشرة أرادب للحد من قوة أصحاب الأموال ، الذين كانوا يشترون كميات كبيرة ويخزنونها من أجل الربح ، وقد لوحظ أن قسما منهم قد اشترى ما يقرب من ١,٠٠٠ إردب (١٢) .

وبناء على إجازة الفقهاء للسلطنة إجبار المحتكرين على بيع ما لديهم من الطعام عند ازدياد حاجة السكان إليها وتحديد أسعارها (١٣) ، لجأت السلطنة في سنة ٧٩٦ هـ/١٣٩٣م الى إجبار المتولين والطحانين والأمراء على

١- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٤٩ / ابن شاهين ، زبدة ، ص ١٢٢/ الصوفي ، الصفوة ، ص ٥٥ ب .

٢- ابن شاهين ، زبدة ، ص ١٢٢ - ١٢٣ / الصوفي ، الصفوة ، ص ٥٥ ب - ٥٦ أ .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧١٧ .

٤- ابن دقماق ،الانتصار ، ج٤ ، ص١٢ ،ج٥، ص١٨-١٩ ، ٩٩/ ابن شاهين ، زبدة ، ص٢٧ -٢٨/ الصوفي ، الصفوة ، ص٢٢ب .

٥- Poliak , The Influence , (BSOAS) , VOL X , 1939-42 ,P 874 .

٦- القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٥٤٩ ، ٤٥٢ - ٤٥٣ ، ٥٢٣ .

٧- ابن شاهين ، زبدة ، ص ١٢٣ .

٨- الصوفي ، الصفوة ، ص ٥٦ أ .

٩- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٣١ - ٣٣٢ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ١٩٨ ، ج٨ ، ص١٤٨ ، ٣٧٤ / السخاوي ، التبر ، ص ٣٤٦ ، وجيز ، ج٢ ، ص ٦٤٧ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٠٠ ب/ ابن الشحنة ، البدر ، ص ٥٣ / ابن إياس، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٢٩٨ / مجهول ، تحفة الأحباب ، ص ٥٦ب .

١٠- بيبرس المنصوري ، مختار الأخبار ، ص ٢٦ - ٢٧ / ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٨٨ .

١١- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق ١ ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ١٨٦ - ١٨٧ / العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥ - ٨٢٤ هـ ، الطنطاوي ، ص ٢٤٤ .

١٢- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق ٢ ، ص ٧٥٠ - ٧٥١ .

١٣- السبكي ، معيد ، ص٦٦ / ابن تيمية ، الحسبة ، ص ٢٣ - ٢٥ .

فتح شونهم ، والبيع بسعر معتدل (١) ، وهددت في سنة ٧٩٨هـ / ١٣٩٥م بتسميرهم إذا ما استمروا في تخزين الغلال (٢) ، وأحصى المحتسب في سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥م ، وسنة ٨٩٠ هـ/١٤٨٥م مخازن غلال الأمراء ، وأجبرهم على بيع ما لديهم ، وفتح شونهم ، وتوزيع الغلال على الطحانين ، كل حسب حاجته(٣) ، وعاقب السلطان جقمق الأمير سودون السودوني لرفضه بيع نصف مغله ، عندما عز وجود القمح سنة ٨٥٣ هـ/ ١٤٤٩م (٤) . كما لجأت السلطنة إلى تسعير الغلال والخبز والطحين في سنة ٨١٨هـ / ١٤١٥م ، ٨٢١هـ / ١٤١٨م ، ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م ، ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨م ، ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠م ، ٨٧٩ هـ / ١٤٧٤م ، ٨٩٢ هـ / ١٤٨٦م ، ٩١٩ هـ / ١٥١٣م ، وهددت من يبيع بأكثر من السعر المحدد (٥) .

ومن السياسات المهمة التي اتخذتها السلطنة ، توكيل ديوان الجيش إحصاء عدد الفقراء ، وتوزيعهم على الأمراء والتجار والأعيان ، وإلزامهم بتوفير الغذاء لهم ، حتى انتهاء الغلاء (٦) . وإطلاق السلطان لكمية من الغلال من الشون والأهراء السلطانية ، وطحنها وخبزها في المخابز السلطانية ، وإقامة المراكز لتوزيعها على الفقراء ، فأحصى السلطان برقوق سنة ٧٩٨هـ/١٣٩٥م خمسة آلاف فقير ، وأطلق لهم في كل يوم عشرين إردبا ، لتوزع عليهم وعلى المساكين ، وأهل الحبوس ، وأهل القرافتين ، والأماكن المعروفة بأهل الخير (٧) ، حتى قيل : لم يمت أحد من الجوع ، وبعض الفقراء قد اغتنى ، إذ كانوا يبيعون الخبز الذي يأخذونه (٨) . وفرق المؤيد شيخ في سنة ٨١٩هـ /١٤١٦م ستة آلاف رطل على الفقراء في كل يوم ، لمدة شهرين ، أي ١٢,٠٠٠ رغيف في كل يوم ، ومنح شيوخ المدارس والخوانق والمدارس إردبا من القمح في كل شهر (٩) ، ووزع في كل يوم ٢٠,٠٠٠ رغيف من الدقيق الأبيض على الفقراء والمساكين والغرباء القادمين للقاهره ، والقاطنين بالجوامع والمدارس والخوانق والزوايا(١٠)، وفرق السلطان برسباي سنة ٨٢٩ هـ / ١٤٢٥م الخبز على الفقراء (١١) ، ومنح السلطان قايتباي المدرسة

١- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ج٢ ، ص ٣٨٧ / المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٨١٨ .

٢- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ق٢ ، ص ٤٣٩ .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ١٨٧ ، ٢٠٤ / العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥ - ٨٢٤ هـ ، الطنطاوي ، ص ٢٤٤ .

٤- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج١ ، ص ٢١٢ / السخاوي ، التبر ، ص ٢٦١ .

٥- المقريزي ، السلوك، ج١ ، ق٢ ، ص ٥٠٦ - ٥٠٧ ، ج٤ ، ق١،ص٣٣٧ / العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥ - ٨٢٤ هـ ، الطنطاوي ، ص ٢٤١- ٢٤٢ ، ٣١٤ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص١٩٠ / الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص ٣٥٨ ، إنباء ، ص ٢٨ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ١٩١ أ ، ٣٦٦ أ ، ٣٧٠ أ / ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .

٦- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٥٠٧ - ٥٠٨ .

٧- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد٩ ، ق٢ ، ص ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦ / ابن حجر ، إنباء ، ج٣ ، ص ٢٨٢ / ابن قاضي شهبة ، تاريخ ، ج٣، ص ٥٧٦ / الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص ٤٢٤ - ٤٢٧ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٤٨٢ .

٨- الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص ٤٢٥ .

٩- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٤٧ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٢٠٤ / العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥ - ٨٢٤هـ ، ص٢٥٤ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٢٣٥ ب .

١٠- العيني ، السيف المهند ، ص ٢٦٦ - ٢٦٨ .

١١- ابن إياس ، بدائع ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .

السيفية كمية من الغلال ، لتغذية الأيتام المقيمين فيها في سنة ٨٨٩هـ/١٤٨٤م (١) ، وأطلق السلطان طومان باي لكل زاوية خمسة أرادب من القمح في سنة ٩٢٢ هـ/١٥١٦م (٢) .

وتشكل بلاد الصعيد المخزن الاحتياطي الذي تلجأ إليه السلطنة عند اشتداد نقص الغلال ، فتطلب السلطنة إلى الأمراء ألا يدعوا مطمورة ولا مخزنا ولا أحدا عنده غلة ، وأن يحملوا ذلك إلى مصر ، بالسعر الذي تحدده ، وتنهب من يرفض بيع ما لديه (٣) ؛ ففي غلاء ٨١٨ -٨١٩ هـ/١٤١٥-١٤١٦م وجهت السلطنة مرجان الخازندار إلى بلاد الصعيد لشراء القمح ، فأرسل عددا من المراكب ، بلغت حمولتها ٢,٠٠٠ إردب (٤) ، ثم تواصل قدوم المراكب ، بعد أن خرج أهل المدن إلى الأرياف لشراء الغلال ، وإطلاق أهل بلاد الصعيد أيديهم بالبيع ، عند اقتراب موعد الحصاد(٥). كما رسم السلطان برسباي في سنة ٨٣٢ هـ/١٤٢٨م بمصادرة شعير النواحي ، عندما عجز ديوان المفرد عن سد عليق خيول المماليك السلطانية (٦) .

ويكثر في أثناء المجاعات وارتفاع الأسعار استيراد القمح من المناطق المجاورة ، وخاصة من جزيرة قبرص وصقلية وإيطالية ، فقد بلغ حجم الاستيراد في سنة ٦٩٤ هـ/١٢٩٤م ٢٠٠,٠٠٠ إردب ، وكثر الاستيراد في مجاعة سنة ٨٠٦ -٨٠٨ هـ/١٤٠٣-١٤٠٥م ، وفي أثناء الغلاء في الفترة بين ٨٢٣-٨٣٤هـ/١٤٢٠-١٤٣٠م . وأرسل السلطان جقمق فارس التركماني إلى قبرص لشراء الغلال وتصديرها في سنة ٨٥٤ هـ/١٤٥٠م ، كما كثر استيراد القمح في سنة ٨٩٢ هـ/١٤٨٦م ، فانحط السعر إلى النصف (٧) .

ويتخذ سلوك السكان تجاه نقص الغلال أشكالا كثيرة ،تتمثل في إقبال الناس على شراء كميات كبيرة زائدة على الحاجة وتخزينها ، فترتفع الأسعار ، لازدياد الطلب على العرض ، ولجوء أصحاب الغلال إلى الاحتكار وتخفيض الكمية المطروحة في الأسواق . واتهام العامة المحتسب ورجمه ونهبه في بعض الأحيان بوصفه المسؤول الأساسي عن النقص ، وتوجه الناس نحو سواحل الغلال لملاقاة مراكب الغلال ، والتزاحم على الأفران وحوانيت الخبز ، حتى إن قسما منهم كان يقوم بذلك منذ منتصف الليل ، وهذا يؤدي في بعض الأحيان إلى مقتل بعض الفقراء والضعفاء والنساء ، واضطرار السلطنة إلى توجيه المماليك والأمراء لحماية المخابز ، وشون الأمراء ، ومراكب

١- السخاوي ، الضوء ، ج٥ ، ص ١٣٧ .

٢- ابن إياس ، بدائع ، ج٥ ، ص ١٢٨ .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٢٩٦ .

٤- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق ١ ، ص ٣٤٣ / العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥ - ٨٢٤ هـ، ص ٢٥٦ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٣ ، ص ١٩١ / الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص ٤١٨ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٢٣٥ أ .

٥- ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ١٨٧ - ١٨٨ / العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥ - ٨٢٤ هـ ، الطنطاوي ، ص ٢٤٤ .

٦- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق ٢ ، ص ٧٩٩ /الصيرفي ، نزهة ، ج ٣ ، ص ١٥٤ .

٧- بيبرس المنصوري ، كتاب التحفة ، ص ٧٨ / ابن تغري بردي ، حوادث ، ج١ ، ص٢٩٢ / السخاوي ، وجيز ، ج٢ ، ٦٤٩ ، ج٣، ص ١٠١١ ، التبر ، ص ٣١٢ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج ٢ ، ص ٧٨ أ / Ashtor , The Wheat , (AAS) , VOL 18 , Number 1 , 1984 , P285- 286 , , 290.

الغلال بساحل بولاق (١) .

وقد تعاون العامة في سنة ٨٩١ هـ/١٤٨٦م مع الجلبان ، وساعدوهم على نهب شون الأمراء بالقاهرة والفسطاط (٢) .

وللتخلص من فائض الغلال عند اقتراب دخول الغلال الجديدة ، وتحقيق الأهداف التجارية للسلطان ، اتبعت السلطنة سياسة الطرح أو الرمايات ، إذ كانت تجبر التجار على شراء الغلال بسعر زائد على سعر السوق ، ويشير ابن خلدون إلى أن هؤلاء : "المنسلخين للتجارة والفلاحة من الأمراء والمتغلبين ، يتعرضون لشراء الغلات والسلع من أربابها الواردين على بلدهم ، ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاؤون ، ويبيعونها في وقتها لمن تحت أيديهم من الرعايا ، بما يفرضون من الثمن " (٣) .

وقد طرح الوزير أرنان في سنة ٧٨٧ هـ/١٣٨٥م الغلال على الطحانين (٤) وأخرج في السنة التي تلتها ١٢٠,٠٠٠ إردب من القمح العتيق ، وباعه التجار والطحانين بمعدل دينار لكل إردب (٥) ، وازدادت رمايات المحتسب في سنة ٧٩١ هـ/١٣٨٨م (٦) ، وفي سنة ٧٩٢هـ/١٣٨٩م أحصى أرباب الأموال والتجار ، ورمي الفول عليهم (٧) ، وارتفع سعر إردب القمح في سنة ٧٩٨هـ/١٣٨٧م من ستين درهما إلى مئة وعشرة دراهم ، بسبب كثرة الرمايات (٨) ، ورمى السلطان المؤيد في سنة ٨١٩ هـ/١٤١٦م القمح على الطحانين ، وأخذ منهم الذهب ، بسعر مئتين وعشرين درهما للدينار ، مع أنه كان مئتين وخمسين درهما (٩) ، ولم يعف السلطان برسباي أحدا من الرمايات في سنة ٨٣٢ هـ/١٤٢٨م (١٠) ، وطرح في سنة ٨٣٨ هـ/١٤٣٤م ثمانية آلاف إردب من القمح ، وثمانية عشر ألف إردب من الفول على الناس (١١) ، وتضرر الضعفاء في سنة ٨٤٢ هـ/١٤٣٨م ، في حين تهرب أصحاب الجاه من الرمايات (١٢) ، كما كثرت الرمايات في سنة ٨٩٧ هـ/١٤٩١م (١٣) .

١- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ق ١ ، ص ٩٠ ، ٩٣ ، مجلد ٩ ، ق٢ ، ص ٤٤٠ / المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٨٥٩ ، ج٤، ق١ ، ص ١٣٥، ١٩٥، ٣٣٢-٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٤٣-٣٤٤ ، ج٤ ، ق٢ ، ص٧١١ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ١٨٦-١٨٧ ، ٢٠٤/ العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥ - ٨٢٤ هـ ، الطنطاوي ، ص ١٧٠ ، ٢٤٢ - ٢٤٤ ، ٢٥٥ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١٤ ، ص ١١٧ - ١١٨ ، حوادث ، ج١ ، ص ٢١٩ ، ج٢ ، ص ٣٣٤ / الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص ٣٩١ ، ٤٣٠ ، ج٢ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٤٨٧ ، إنباء ، ص ٢٨ ، ٤٣٠ - ٤٣١ ، ٤٧٦ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٢٢٤ أ -ب / ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص ٢٤ ، ٢٥ ، ١٠١، ج٣ ، ص ١١ ، ١٦٥ ، ج٤ ، ص ١٤٦ .

٢- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٣٥٨ أ -ب .

٣- ابن خلدون ، مقدمة ، ص ٢٨٣ .

٤- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ،ص٥٣٨/ الصيرفي ، نزهة ،ج١، ص١٢٣-١٢٤/ القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص١٣٩ب .

٥- المقريزي ، السلوك، ج٣ ، ق٢ ، ص٥٥٣ / ابن حجر ، إنباء ، ج٢ ، ص٢٢٣ / الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٤٣ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص١٤٢أ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص٣٧٩ .

٦- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ق ١ ، ص ١٤٤ .

٧- نفس المصدر ، ص ٢١٩ .

٨- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ق ٢ ، ص ١٢٧ - ١٢٨ / ابن حجر ، إنباء ، ج٣ ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

٩- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٤٤ .

١٠- نفس المصدر ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٠١ .

١١- نفس المصدر ، ص ٩٣٤ .

١٢- نفس المصدر ، ج٤ ، ق ٣ ، ص ١١٢٧ .

١٣- السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ١٢٦٥ .

ومن المحاصيل الأخرى الحمص ، ومن أنواعه الأبيض والأحمر والأسود ، وتجود زراعته في الأرض الندية(١)، ويكثر ببلاد الصعيد ، وينتج الفدان في مصر بين ٤-١٠ أرادب (٢) . وقد حجر بيع هذا المحصول وشراؤه في القرن ٩هـ /١٥م على أفراد معينين ، وعاقبت السلطنة الضعفاء والفقراء والمتكسبين إذا باعوه مسلوقا (٣) .

وتعد الذرة محصولا غذائيا مهما لسكان الأرياف الذين يعتمدون في غذائهم على الخبز المصنوع منه ، فكثرت في سنة ٨٢٣هـ/١٤٢٠م زراعة الذرة بالوجه القبلي ، وأصبح القوت الأساسي لهم بعد بوار أراضيهم ، وخراب قراهم ، وقلة مواشيهم (٤) ، في حين ندر تصديره ووجوده في العاصمة ؛ لأن ضريبته تدفع نقدا (٥) . ولم يضطر سكان القاهرة إلى استعمال خبزه إلا في سنة ٨٧٥هـ/١٤٧٠م وسنة ٨٩٢ هـ/١٤٨٦م ، بعد أن أكثر أهل بلاد الوجه القبلي زراعته ، واستعان به الناس لا سيما الفقراء ، فكثر استيراده للقاهرة ، فانخفضت أسعار القمح من ٦ -٤ دنانير (٦) .

ويزرع هذا المحصول في معظم أنحاء مصر ، فتزرع الذرة الشامية في الوجه البحري ، والرفيعة في الوجه القبلي، وينتج الفدان بين ٦ -١٠ أرادب (٧) . وتتركز زراعته في المنطقة الممتدة بين إدفو وجزيرة الفانتين أو الصعيد الأعلى ، حيث يزرع مرتين في العام ، ويزرع في باقي المناطق مرة واحدة في الصيف ، ويزرع في الأراضي القريبة من ضفاف نهر النيل والترع ، لسهولة ريها ، وبقاء المياه فيها معظم أيام السنة (٨) .

ويشكل الرز جزءًا من غذاء الطبقة الغنية في المدن وبخاصة القاهرة ، ويتميز بارتفاع أسعاره ، لانخفاض إنتاجه، وكثرة تكاليفه ، فقد بلغ سعر الإردب في سنة ٨٩١ هـ/١٤٨٦م اثني عشر دينارا أشرفيا (٩) ، وفي سنة ٨٩٢هـ / ١٤٨٧م ، بلغ القدح أربعين درهما (٩,٦ دينارا/ إردب) (١٠) .

ويبلغ إنتاج الفدان من الرز بين ٧-٨ أرادب (١١) ، وتنتشر زراعته بين عين شمس والفرما (١٢) ، وفي

١- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١١٥ .

٢- البكري ، النزهة الزهية ، ص ١٢٨ أ .

٣- الأسدي ، التيسير ، ص ١٤٤ .

٤- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص٥٢١ .

٥- Popper , Egypt , 2 , P 106 .

٦- السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ١٠٠٢ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٣٦١ ب ، ٢٢٢ب/ ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص٤٧، ٢٣٨ / Popper , Egypt ,2 , P 106 .

٧- عبد الرحيم عبد الرحيم ، الريف المصري ، ص ٢٤١ .

٨- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج ١ ، ص ٤٧ -٤٨ .

٩- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٣٥٩ أ / ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٢٣٤ .

١٠- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٣٧٦ ب .

١١- عبد الرحيم عبد الرحيم ، الريف المصري ، ص ٢٠٢ .

١٢- ابن ظهيرة ، الفضائل ، ص ٥٤ ، نزهة الناظر ، ص ٢٥ أ .

عمل الدقهلية والمرتاحية ، لتوافر الري بالماء السائح ؛ لأن مستوى خليج المنزلة أعلى من مستوى الأراضي التي حوله (١) ، وتنتشر زراعته إلى الشمال من الخط الممتد بين الرحمانية على الفرع الغربي والمنصورة على الفرع الشرقي (٢) ، وبخاصة في دمياط والمنزلة ورشيد التي تكثر حولها مصانع تقشير الأرز ، ويبلغ حجم إنتاجها ٣,٠٠٠ كيل في كل شهر (٣) ، وفي برنبال* التي تعد مركزا لضاربي الأرز (٤) . وأما في الوجه القبلي ، فتتركز زراعته في عمل الفيوم، الذي يعد من أكثر حبوبه (٥) ، وفي منطقة الواحات ، حيث يزرع في سبع عشرة ناحية (٦) .

ومن الحبوب الأخرى العدس الذي تمتد زراعته بين إدفو والجيزة ، وبخاصة في منطقتي أسيوط والمنيا ، وتنقطع زراعته في الوجه البحري وجنوب إدفو (٧) ، وينتج الفدان بين ٤-١٠ أرادب (٨) ، أما الترمس فتكثر زراعته في منطقة إمبابة (٩) ، ويعرف بالباقلي المصري (١٠) ، وينتج الفدان نحو ٢٠ إردبا (١١) . وأما الحلبة فتستعمل عليقا للحيوانات في مصر الوسطى ، وتنقطع زراعتها في الوجه البحري وجنوب إدفو (١٢) .

النباتات الصناعية : -

يحتل قصب السكر أهمية كبيرة بين المحاصيل الزراعية في مصر ، لجدواه الاقتصادية العالية ، إذ يعمر في الأرض أكثر من ثلاثة أعوام ، ويدخل في صناعة شتى أنواع الحلويات (١٣) والبناء ، وصناعة الرماح والأقواس ، والبندق الطيني لرمي الطيور(١٤) ، وحاجة المرضى إليه عند انتشار الأوبئة والطواعين(١٥)، لذا ترتفع أسعاره طوال

١- ابن شاهين ، زبدة ، ص ٣٤ .

٢- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج ١ ، ص ٥٣ .

* بلغ أنتاج رشيد في القرن الثامن عشر ١٨٠,٠٠٠ إردب (الهام ذهني ، مصر ، ص ١٦٤) .

٣- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٥٧٤ - ٥٧٥ .

٤-نفس المصدر ، ص ٥٧٥ .

* برنبال : تقع على الضفة الشرقية (الآسيوية) من نهر النيل .

٥- ابن زولاق ، فضائل ، ص ١٩٩ب / الإدريسي ، نزهة ، ج١ ، ص ٣٢٧ / ابن حوقل ، صورة ، ص ١٤٩ / النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٩١ ، ١١١ ، ١٥٧ .

٦- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ١٢ .

٧- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج١ ، ص ٦٢ - ٦٣ .

٨- البكري ، النزهة الزهية ، ص ١٢٨ أ .

٩- الهام ذهني ، مصر ، ص ١٦٤ ، ٢١٥ .

١٠- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٢٠ .

١١- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٦٤ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٢ .

١٢- علماء الحملة الفرنسية ، وصف ، ج ١ ، ص ٧٤ .

١٣- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٣٤٥ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٤٤ / ابن ظهيرة ، نزهة الناظر ، ص ٢٧ أ / ابن إياس ، بدائع، ج١ ، ق ١ ، ص ٣٩ / سعيد عاشور ، المجتمع ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

١٤- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ٥٥ .

١٥- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٢٦٩ ، ج٤ ، ق٢ ، ص٨٢٦/ ابن حجر ، إنباء ،ج٧ ، ص١١٤/ ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٤ ، ص١٧٤ / القاضي عبد الباسط ، نيل ،ج١ ، ص٢٢٧ أ / ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص٧٦/ ابن الأخوة ، معالم ، ص ١١٥ .

السنة ، لانخفاض إنتاجه ، واقتصار زراعته على فئة محدودة (١) ، لارتفاع تكاليف إنتاجه ، بخاصة مع نقص الأيدي العاملة بسبب فتك الطواعين بالسكان (٢) ، ومن أشهر أنواعه ، قصب السكر الحلو ، والقصب الفارسي ، وقصب الأقلام (٣) .

ويحتاج قصب السكر إلى تكلفة وجهد كبير ، من ناحية حراثة الأرض سبع سكك ، وتنظيفها من شتى أنواع الحشائش وخاصة الحلفاء ، وتزبيلها وريها ، والقدرة على انتقاء العيون الصالحة للزراعة (٤) ، وأن تكون الأرض المختارة لزراعته" معتدلة مستخرجة مستصلحة ، بعيدة من زراعة الأقصاب ... وإن كانت لم تزرع قصبا فيما تقدم ، فهو الغاية ، وتكون أرضا لا تميل إلى الرمل ، ويكون ما يزرع منه في أثر باق ، أو كان فيها بعد تعطيلها منه عدة سنين ، فأقله أربعة أعوام ، وفي أثر الفول والسمسم الشتوي ، والبرش المعطل " (٥) .

ويتراوح إنتاج الفدان بين ٤٠-٨٠ أبلوجة*قند(١٨٠٠-٣٦٠٠ كغم)، فتسع كل أبلوجة قنطارا مصريا وما حوله** (٦) في حين يبلغ إنتاج الفدان في البرلس وتنيس ودمياط نحو ٤٠ قنطارا بالفوي ، وتساوي مئة قنطار مصري (٤,٥٠٠ كغم) (٧) . وعند تكرير القند يعطي بين الربع إلى السدس سكرا، والباقي قطارة ، وقد يضاف إليه الحليب، للحصول على السكر البياض ، الذي قد يكرر مرة ثانية ، للحصول على سكر النبات الشديد البياض والنقاء (٨) .

وقد ساهم توافر المناخ الملائم والمياه وخصب الأرض في انتشار زراعة قصب السكر في معظم أنحاء مصر ، ولكن بعض المناطق قد اشتهرت أكثر من غيرها ، فكان يزرع بمنطقة بولاق التكرور(٩) ، وعلى طول خليج الذكر إلى الشرق من القاهرة، وفي الضواحي (١٠) ، ويذهب إنتاج هذه المناطق الى دار القصب بالفسطاط ، للطبخ والتصنيع -

---

١- المقريزي ، السلوك ، ج٣، ق٣ ، ص ١١٠٠ - ١١٠١ / العيني ، عقد ، ص ٦٨ أ / الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص ١٦١ ، ١٨٦ / السيوطي ، حسن ، ج٢ ، ص ١٩٧ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٦٨٩ .

٢- Ashtor , Leaventine Sugar , (IOS) , VOL VII , 1977 , P 248.

٣- الغزي ، جامع فوائد ، ص ٢٣٢- ٢٣٣ .

٤- المخزومي ، المنهاج ، ص ٣٢ أ - ٣٣ ب / النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٦٧ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٢ / ابن إياس ، نشق ، ص٣٩ ب / البكري ، النزهة الزهية ، ص ١٢٩ أ -ب .

٥- المخزومي ، المنهاج ، ص ٣٢ ب .

* الأبلوجة :- بناء مستطيل كالمذاود ، في بيت الصب ، له فتحة من الأسفل (النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٧٠) ، يسع قنطارا مصريا ، أي ٤٥ كغم (القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥١١ - ٥١٢ / هنتس ، المكاييل ، ص ٣٢) .

** قدر آشتور القدرة الإنتاجية للفدان بستمئة قنطار ، ونجم الخطأ عن قراءة كلمة "تَسَع"، بتسعة قناطر , Ashtor , Leaventine Sugar , (IOS), VOL VII , 1977 , P 248 .

٦- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٤٨ / المقريزي ، خُطط ، ج١ ، ص ١٠٢- ١٠٣ ، ٢٤٨ / ابن إياس ، نشق ، ص ٣٩ ب / البكري ، النزهة الزهية ، ص ١٢٩ أ-ب .

٧- ابن ظهيرة ، الفضائل ، ص ٥٤ .

٨- النويري ، نهاية ، ج١ ، ص ٢٧١-٢٧٣ .

٩- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ١٣١ .

١٠- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٤ ، ص ٤١-٤٦ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٣٤٢ / , Ashtor, Leaventine Sugar , (IOS) , VOL VII , 1977, P 231.

بمطابخ السكر بالقاهرة والفسطاط (١) .

وتشكل بلاد الصعيد منطقة مهمة لزراعة القصب ، فاشتهرت منية القائد بعمل الجيزية (٢) ، وكثرت زراعة القصب في منطقة الفيوم (٣) ، إذ يلاحظ من حديث النابلسي ت ٦٤١ هـ/١٢٤٣م انتشار زراعته في معظم قرى الفيوم ، وتعود معظم الأراضي المزروعة للخاص السلطاني ، إضافة إلى تحديد المساحة المسموحة لكل قرية (٤) ، ويبدو أن التحديد يتناسب وكمية المياه المحددة لكل قرية ؛ لأن القصب يحتاج إلى كمية كبيرة من المياه .

وتوضح المناطق المشهورة بزراعة القصب وانتشار المعاصر في المناطق المختلفة مدى انتشار هذا المحصول ، فاشتهرت بالبهنساوية مدينة القيس (٥) وترفة وسمسطا (٦) ، وفي عمل الأشمونين منية بني خصيب (٧) ، وأنصنا والمراغة بالقرب منها (٨) ، وفي القوصية ميرد وميسارة (٩) ، واشتهرت ملوي بجودة قصبها ، وآخر من كان فيها أولاد فضيل زمن الناصر محمد بن قلاوون ، فقد بلغت مساحة الأراضي المزروعة لهم نحو ١,٥٠٠ فدان ، إضافة إلى وجود أحجار كثيرة فيها (١٠) . واشتهرت منفلوط (١١) ، وكان فيها إحدى عشرة معصرة (١٢) ، وأسيوط التي يعد قصبها من أفضل القصب وأطيبه (١٣) ، وطهنهور وسقلقيل وبوتيج في الأسيوطيه (١٤) ، وسوهاي بالإخميمية (١٥) . واشتهرت قفط بالأعمال القوصية ، إذ وجد بها في نهاية القرن ٧ هـ/١٣م سبعون مسبكا وست معاصر (١٦) ، ثم انخفضت في منتصف القرن ٨هـ / ١٥م إلى أربعين مسبكا وست معاصر (١٧) ، وكان في سمهود للشمال من جرجا سبعة عشر مسبكا (١٨) ، وفي البلينا مسابك كثيرة (١٩) ، وفي دشني بساتين ومعاصر كثيرة (٢٠) ،

١- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ١٤٥ .

٢- الإدريسي ، نزهة ، ج١ ، ص ٣٢٩ .

٣- ابن الوردي ، خريدة ، ص ٤٦ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٣٣٧ .

٤- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٢٣ ، ٢٧ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٧٢ ، ١٠١ ، ١٢٥ ، ١٣٠- ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٤٢ ، ١٤٩ ، ١٥٠ .

٥- الإدريسي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٢٤ .

٦- الإدريسي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٣١ / الحميري ، الروض ، ص ٤٨٨ ، ٥٤٨ .

٧- الإدريسي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٢٤ .

٨- الإدريسي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٢٥ / الحميري ، الروض ، ص ٥٣٥ .

٩- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ٢٢ .

١٠- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٢٤ / ابن إياس ، نشق ، ص٤٨ ب / الحنفي ، تاريخ مصر ، ص ٦٥ ب .

١١- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ٢٢ .

١٢- Ashtor , Leaventine , (MW) , P 231.

١٣- البكري ، المسالك والممالك ، ج٢ ، ص ٦١٧.

١٤- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ٢٤-٢٥ .

١٥- نفس المصدر ، ص ٢٧ .

١٦- الحنفي ، تاريخ مصر ، ص ٦٢ أ .

١٧- الإدفوي ، الطالع ، ص ١٣ / ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ٣٢ / Ashtor , Leaventine ,(MW) , P 230.

١٨- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ٣٢ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٠٣ / ابن ظهيرة ، الفضائل ، ص ٦٤ .

١٩- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٠٣ .

٢٠- ياقوت ، معجم ، ج٢ ، ص ٤٥٦ .

وفي بهجورة (١) ، وقمولا(٢) ، وأبنود بالقرب من قفط (٣) . وقد بلغ عدد المعاصر في إقطاع الأمير منكوتمر المكون من مرج بني هميم وكفورها وسمهود وكفورها وقوص وحرجة قوص وإدفو سبعا وعشرين معصرة ، وذلك في سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧م (٤) ، كما يزرع القصب في منطقة الواحات وقراها (٥) .

ومن النواحي والقرى التي اشتهرت بزراعة القصب في الوجه البحري بلبيس (٦) وصهرجت الكبرى والصغرى بالقرب من منية غمر في الشرقية (٧) ودمياط ، إذ كانت تنتج كميات كبيرة يصدر جزء منها للخارج (٨) ، وسنهور (٩) ، وترنوط وفرنوه للغرب من بيبج ، وصاي ودياي ودمي جمول من الغربية (١٠) ، مع تركز واضح لزراعته على ضفاف فرع رشيد ، وخاصة في منطقتي فوه ورشيد ، حتى إن بعض الرحالة قد اكتفى بالإشارة إلى أن زراعة قصب السكر تكثر في المنطقة الممتدة بين الإسكندرية وفوة (١١) . وقد أشار ليون الإفريقي (ت٩٥٧هـ/١٥٥٠م) إلى اشتهار منطقة ديروط بزراعة القصب ، ووجود عدد كبير من المصانع التي تشبه القصور ، والمراجل والمعاصر لاستخراج السكر وطبخه ، واستخدام عدد كبير من العمال في هذه الصناعة ، وبلغت تكلفتهم اليومية ٢٠٠ دينار أشرفي ، كما يكثر القصب في مدينة فوة التي لا يصلح قصبها لاستخراج السكر المكرر ، بل لاستخلاص نوع من العسل الشبيه بالدبس (١٢) .

وقد دفعت الجدوى الاقتصادية العالية لزراعة قصب السكر أصحاب رؤوس الأموال للإستثمار في هذا المحصول، فكان السلاطين وأبناؤهم يستحوذون على القسم الأكبر من هذا الإنتاج ومعاصره ، واستخدم السلاطين جزءًا من مخزونهم من السكر في الاحتفالات الخاصة والعامة ، فبلغ استهلاك السلطان المؤيد شيخ في احتفال بمناسبة إنشاء جامعه بباب زويلة سنة ٨٢٢ هـ/١٤١٩م ثلاثين قنطارا من السكر المصري الخاص (١٣) ، وأخرج السلطان قانصوه الغوري من مصنعه الخاص سنة ٩٢١ هـ/١٥١٥م جرما (نوع من السفن) من السكر النقي (١٤) ، وامتلك السلاطين وأبناؤهم عددا كبيرا من مطابخ السكر ، ومن أشهرها سبعة مطابخ بخط دار الملك بالفسطاط(١٥) ،كما امتلكوا عددا

١- ياقوت ، معجم ، ج١ ، ص ٥١٤ .

٢- ابو الفداء ، تقويم ، ص ١٠٤ .

٣- ياقوت ، معجم ، ج١ ، ص ٧٩ .

٤- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق ٣ ، ص ٨٤٤ .

٥- الحميري ، الروض ، ص ١٧٨ .

٦- الجيعان ، تحفة ، ج٣ ، ص ٥ .

٧- ياقوت ، معجم ، ج٣ ، ص ٤٣٦ .

٨- ابن شاهين ، زبدة ، ص ٣٥ / Ashtor , Leaventine , (MW) , P258/ إبراهيم طرخان ، مصر ، ص ٢٨٢.

٩- ابن حوقل ، صورة ، ص ١٣١ .

١٠- نفس المصدر ، ص ١٣٤ .

١١- Ashtor , Leaventine , (MW) , P 229 . 258.

١٢- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٥٧٧ -٥٧٨ .

١٣- الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص ٤٥٠ .

١٤- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٢٦٧ .

١٥- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٤ ، ص ٤١ ، ١٠٨ .

من المصانع الموزعة في القرى والأعمال المختلفة ببلاد الصعيد (١) ، تحت إشراف شاد الدواليب السلطانية وإدارته(٢) .

وتوضح الروايات أن السلطان برسباي ذهب لأبعد من ذلك ، إذ تكررت محاولاته لجعل القصب صنفا خاصا بالسلطان ؛ فقد أصدر مرسوما في سنة ٨٢٦ هـ/١٤٢٢م ينص على ختم المطابخ ، وأخذ العهود على المدولبين بالامتناع من طبخ السكر ، وأنشأ ديوانا خاصا لبيع السلطان وشرائه له فقط (٣) ، واستمر هذا التحجير حتى شهر صفر سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٣م ، حيث أعاد السلطان السماح للناس بطبخه (٤) ، ثم تكررت محاولاته في سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٤م ، وسنة ٨٣٢هـ/١٤٣١م بتحجير بيعه على السلطان (٥) ، في حين حاول في سنة ٨٣١هـ/ ١٤٣٠، وسنة ٨٣٣ هـ/١٤٣٢م قصر زراعته على السلطان ، وعدم السماح بزراعته في غير المزارع السلطانية (٦) . إلا ان هذه المحاولات فشلت أمام ضغط الفئات الأخرى من الأمراء والأعيان المعنيين بزراعة القصب واستخراج السكر .

وقد شهد النصف الثاني من القرن ٧ هـ / ١٢م تزايد استثمار الأمراء والأعيان والتجار في زراعة قصب السكر ، الذي شكل جزءاً مهما من الاقتصاد المصري (٧) ؛ فالمعلومات المتناثرة عن ملكيات بعضهم توضح ضخامة هذه الاستثمارات ، ودور هذه الفئات في السيطرة على هذا المحصول ، فعندما استقر ابن شماس بالناصرية على خليج الإسكندرية في سنة ٧١٣ هـ/١٣١٣م ، أنشأ عددا من الدواليب (٨) ، ووجد لناظر الخاص ووكيل السلطان الناصر في سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣م ثمانين ألف قنطار من السكر ، وثلاثة وخمسين ألف مطر* من عسل السكر(٩) ، وزرع أولاد فضيل في ملوى ١,٥٠٠ فدان ، ووجد لهم في سنة ٧٣٨ هـ/١٣٣٧م عشرين ألف قنطار (١٠) . ومن جملة ما منحه الأمير بشتاك للأمير قوصون سنة ٧٤٢ هـ/١٣٤١م حجران من معاصر قصب السكر بما فيهما من القند والأعسال ، وخمسمئة فدان من القصب المزروع في أرض يملكها (١١) . وكان لابن زعازع بالبهنساوية عددا من الدواليب(١٢)، وامتلك ابن زنبور الوزير (ت ٧٥٣ هـ/١٣٥٢م) خمسا وعشرين معصرة (١٣) ، واشتغلت

١- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ق ٢ ، ص ٣٦٦ / ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ٢٢ ، ٢٤-٢٥ ، ٢٧ .
٢- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد٩ ، ق٢ ، ص ٤٦٥ / المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٧٢٨ .
٣- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٤٧ / ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ١٩ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص٢٧٨أ-ب.
٤- المقريزي ، السلوك ، ج٤، ق٢ ، ص ٦٥٤ ، ٦٥٧ / Ashtor , Leaventine , (MW) , P 242- 243.
٥- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٩٥- ٧٩٦ / ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ١٦٩ ، ١٧٥ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص١٤٩-١٥٠ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٢٨٧ ب ، ٣٠٧ أ .
٦- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٦٦ / ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ١٣٧ ، ٢٠٢ .
٧- آشتور ، التاريخ الإقتصادي ، ص ٣٩١ .
٨- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص ١٢٩ .
مطر :- معيار للسوائل ويقدر وزنه بحوالي نصف قنطار ليثي ، أي ٣١ كغم (حاشية رقم ٦ ، المقريزي ، السلوك ،ج٤، ق١ ، ص ٢٤٣-٢٤٤ / هنتس ، المكاييل والأوزان ، ص ٤١) .
٩- نفس المصدر ، ص ٢٤٣ .
١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٤٣١ / ابن إياس ، نشق ، ص ٤٨ ب/ الحنفي ، تاريخ مصر ، ص ٦٥ ب .
١١- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٥٦١ .
١٢- نفس المصدر ، ص ٧٠ .
١٣- نفس المصدر ، ص ٨٨ .

هوارة عندما استقرت في منطقة جرجا سنة ٧٨٢ هـ/١٣٨٠م بزراعة القصب ، وأنشأ أميرها محمد بن عمر بن عبد العزيز عددا من الدواليب والمعاصر (١) ، ووجد للأمير قطلوبغا ت ٨٠١ هـ/ ١٣٩٨م عددا من الدواليب (٢) ، وكان لناظر الجيش عدد من المعاصر في منطقة دمياط في سنة ٩١٧ هـ/١٥١١م (٣) ، كما يذكر عدد من الأمراء الذين كان لهم أهراء ودواليب ومعاصر في بلاد الصعيد والفسطاط (٤) ، في حين لم يكن للتجار في الفسطاط سوى مطبخين(٥) .

أما الأوقاف ، فلم يكن لها دور كبير في زراعة القصب ، فلم تملك سوى ثلاثة مطابخ بالفسطاط ، واحد للمارستان المنصوري ، ومطبخ وقفه الأمير نور الدين فخر الدين بن عثمان ، ومطبخ للأوقاف الحكمية (٦) .

وتؤكد المعلومات عن توزع مراكز الإنتاج بالوجهين القبلي والبحري صلاحية جميع أراضي مصر لزراعة القصب ، وأن بلاد الصعيد هي المنتج والمزود الأساسي لهذا المحصول ، وأن اقتصار زراعة القصب على فئة محددة من السلاطين والأمراء والأعيان تعود إلى التكاليف العالية التي تحتاج إليها زراعته ، وهو ما لا يتفق مع حالة البؤس والعوز التي يعيشها الفلاح المصري ، إضافة إلى قدرة هذه الفئات على التهرب من دفع الضرائب وتسخير الفلاحين .

وقد ازدهرت زراعة قصب السكر في القرن ٨هـ/١٤م ، ومما يؤكد ذلك بلوغ عدد المطابخ في مدينة الفسطاط ستة وستين مطبخا في سنة ٧٢٥ هـ/١٣٢٤م (٧) ، وتصدير كميات كبيرة من السكر إلى مرسيلية وبرشلونة وجنوة والبندقية ، وكبر حجم الكميات المستهلكة في الاحتفالات العامة (٨) .

ومنذ بداية القرن ٩هـ/١٥م ، أخذت زراعة القصب واعتصاره بالتراجع تدريجيا (٩) ، فتراجع عدد المطابخ في الفسطاط من ستة وستين مطبخا إلى ثلاثة وثلاثين ، وتحول الباقي إلى خراب دائر ، ومخازن للفحم ، وللملح ، وفنادق ، ووكالات لبيع الموز ، وحوانيت وصبانات ، ومسابك لصناعة النحاس (١٠) ، وانهارت صناعة الحلويات بأكملها ، إذ يشير المقريزي في أحداث سنة ٨١٧ هـ / ١٤١٤م إلى أن الحلويات التي كانت منتشرة في الأرياف والمدن على شكل الحيوانات كالقطط والكلاب مات أكثر صناعتها ، لخراب الدواليب التي كانت في الوجه القبلي

١- المقريزي ، البيان والإعراب ، ص ٥٨ .

٢- العيني ، عقد ، ص ٦٩ ب / الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص ١٩٢ / السخاوي ، الضوء ، ج٦ ، ص ٢٢٤ .

٣- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٢٤٥ .

٤- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٤ ، ص ٤١ ، ٤٢ ، ٤٦ / المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص ١١٦ ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٤٩٢ .

٥- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٤ ، ص ٤١ .

٦- نفس المصدر ، ص ٤١ ، ٤٣ .

٧- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٣٤٣ .

٨- آشتور ، التاريخ الاقتصادي ، ص ٣٩١ .

٩- المقريزي ، إغاثة ، ص ٨٣ .

١٠- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٤ ، ص ٤١-٤٦ .

والفسطاط (١) . ويمكن إعادة السبب إلى سياسة الحكام ، وخاصة برسباي ، الذي حاول احتكارها غير مرة(٢)، وإلى تراجع مشروعات الري ، إذ يحتاج القصب إلى كمية كبيرة ومنتظمة من المياه .

واشتهرت مصر منذ القدم بصناعة الملابس الكتانية ، فلذلك يكثر الفلاحون زراعة الكتان ، ويكثر عدد الحاكة من الرجال والنساء في المدن والأرياف ، وخاصة بالقرب من مناطق زراعته (٣) . ويصنف الكتان إلى أصناف كثيرة ، ومن أجوده الكتان الجنري القص ، والناعم المورق (٤) ، والكتان المحض الذي يطلق عليه " دق مصر " ، إذ يبلغ سعر الحمل منه ألف دينار (٥) ، وكانوا يجتنبون خلط الجيد بالرديء ، والصعيدي بالبحري (٦) .

وتتحسن أسعار الكتان في فترات الأوبئة والطواعين ، حيث تكثر الحاجة إليه لتكفين الموتى ، وقد شهدت سنتا ٨١٥ هـ/١٤١٢م و ٨١٦ هـ/١٤١٣م ارتفاعا ملحوظا في أسعاره (٧) ، وحاول السلطان برسباي احتكار الكتان الصعيدي المجلوب في سنة ٨٣٢ هـ/١٤٢٨م ، للتغلب على الحاجات المالية للدواوين المختلفة (٨) .

وتستعمل بذور الكتان في صناعة الزيت الحار (٩) ، وتخلص البذور من ضرب أشلاف الكتان في قاع بلاص (جرة) (١٠) ، ويراعى عند زراعة الكتان اختيار الأرض الطينية التي يخالطها الرمل ، وفيها نز ورطوبة (١١) ، وينتج الفدان من ثلاثين شدة إلى ما دون ذلك ، ومن البزر بين ٣ - ٦ أرادب (١٢) .

وإذا ما تتبعنا أشهر مناطق زراعته من الجنوب إلى الشمال ، فإنها تمتد من أرمنت بالقوصية، وأنصنا

١- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ١٠٠ .

٢- Ashtor , Leaventine , (MW) , P 230.

٣- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أيمن سيد ، ص ٧٢ ، ٨٨-٨٩ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص٤٦ / ليون الإفريقي ، وصف، ص٦٠٩ .

٤- ابن الأخوة ، معالم ، ص ١٤٣ .

٥- ابن الوردي ، خريدة ، ص ٢٤١ .

٦- ابن بسام ، نهاية الرتبة ، ص ٧٤ .

٧- ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٧٦ ، ١٠٠ / العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥- ٨٢٤هـ ، الطنطاوي ، ص ١٥٢ .

٨- الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص١٥٥ .

٩- ابن بسام ، نهاية الرتبة ، ص١٨٩ / ابن دقماق ، الانتصار ، ج٤ ، ص ٥١ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠١-١٠٢ .

١٠- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج١ ، ص ٨٢ .

١١- مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ١٣٤ .

١٢- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٦١-٢٦٢ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠١-١٠٢ .

بالأشمونين (١) وأسيوط (٢) ، والبهنسا (٣) ، ويتركز الكتان في عمل الفيوم ، وخاصة بناحية دلاص ، التي يعد كتانها من أشهر كتان مصر (٤) ، وفي قرى بدموسية ودموة اللاهون وسنورس ، والميشة المفردة باللاهون(٥) ، وبوصير (٦)، وفي الجيزية بالجيزة وسفط نهيا ووسيم (٧) ، وفي الضواحي على جانب خليج الذكر (٨) ، وفي بهبيت والأميرية ومنية الأمراء وبنها (٩) وطنان (١٠) ، وفي الغربية بسمنود وبنا بوصير وأبيار وسخا (١١) ، وبني سويف التي يصنف كتانها من الدرجة الأولى ، ويصدر إلى تونس لصناعة قماش شديد النعومة والمتانة (١٢) ، وقرية بلوس عند أنتوهي (١٣) ، وسنهور (١٤) ، وفي منطقتي دمياط وتنيس التي تشتهر بصناعة الثوب المعروف بالبدنة ، إضافة إلى طرز تنيس ودمياط(١٥) .

ويعظم القطن حتى يصير كشجر المشمش ، ويعمر في الأرض ما يقرب من عشرين عاما (١٦) ، ويتراوح إنتاج الفدان بين ٢-٨ قناطير جروية * (١٧) ، وبلغ سعر القنطار في سنة ٨٩٠ هـ/١٤٨٥م ٢,٤٠٠ درهم ، أي ستة دنانير أشرفية (١٨) ، ويدخل القطن في صناعة الأقمشة والملابس ، وتستخدم بذوره أعلافا لتسمين الأغنام ، وكثر استخدامها بين أهالي بركة الحبش ، فكانت تزيد وزن الخروف لدرجة عجزه عن المشي في بعض الأحيان، وهي ما يعرف بمصر بالكباش البركاوية (١٩) .

١- ابن ظهيرة ، الفضائل ، ص ٥٦ .

٢- الكندي ، فضائل ، ص ٥٨ .

٣- الإدريسي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٣٠ .

٤- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٦٢ / ابن بطوطة ، رحلة ، ج١ ، ص ٦٣ .

٥- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٥٥ ، ٩٤ ، ١٠١ ، ١٠٧ .

٦- ابن ظهيرة ، نزهة ، ص ٢٧ ب .

٧- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ١٢٩ .

٨- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٣٦٧ .

٩- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٣٣٧ / المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ١٢٩ / ابن ظهير الحنفي ، روضة الأريب ، ص ١٠٨٦ .

١٠- ابن ظهيرة ، الفضائل ، ص ٥٦ .

١١- ابن زولاق ، فضائل ، ص ١٩٨ أ / البكري ، المسالك والممالك ، ج١ ، ص ٥٠٧ .

١٢- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٦٠٩ .

١٣- الإدريسي ، نزهة ، ج١ ، ص ٣٣٥ .

١٤- ابن حوقل ، صورة ، ص ١٣١ .

١٥- الحميري ، الروض ، ص ١٣٧ .

١٦- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٢٠ .

* القنطار الجروي = ٩٦,٧ كغم (هنتس ، المكاييل ، ص٤١) .

١٧- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ١٠١ - ١٠٢ / ابن إياس ، نشق ، ص ٣٩ أ .

١٨- ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٢١٣ .

١٩- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ١٦٤ .

ومن مراكز زراعة القطن الواحات (١) ، والبهنساوية (٢) ، وفي عمل الفيوم بقرى المهمسي ، وبيبج أنشو ، وتطوف ، وقميسا ودقدنو وطبهار (٣) .

وقد انخفض عدد الأنوال في الإسكندرية من أربعة عشر ألفا في سنة ٧٩٧ هـ/١٣٩٤م إلى ثمانمئة في سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٣م ، أي بنسبة ٩٤,٤ ٪ ، وهذا يدل على تراجع صناعة الأقمشة الصوفية والكتانية (٤) ، ويعود إلى تزايد الضرائب المفروضة على الفلاحين ، وسياسة الحكام الخطأ تجاه الرعية (٥) ، وانخفاض مساحة الأراضي المزروعة بالكتان والقطن .

ومن المحاصيل المحدودة الزراعة النيلة ، وتتخذ لاستخراج مادة زرقاء تدخل في صباغة الأقمشة ، وتقتصر زراعتها على فئات محددة من كبار الملاك كالأمراء والسلاطين ، وتزرع في ولايتي سيوط والمنيا وبني سويف بالجيزة(٦) ، وفي الفيوم بقرى طليت وقميث (٧) ، في حين تنقطع زراعتها إلى الشمال من القاهره والوجه البحري (٨) .

ونظرا لغياب زيت الزيتون ، أعتمد المصريون على زيت السيرج المستخرج من السمسم في جميع أطعمتهم ، وتصلح جميع أراضي مصر لزراعته ، وخاصة الأراضي الرطبة كالجزائر والقيعان (٩) ، وينتج الفدان من إردب إلى ستة أرادب (١٠) ، وتكثر زراعته ببلاد الصعيد وخاصة قنا (١١) ، وبعض قرى الفيوم كدقدنو وذات الصفا ، وشفة وطليت وقانو وقميسا (١٢) ، وفي الوجه البحري تشتهر قرية المعيصرة على بعد عشرين ميلا الى الشمال من القاهرة ، بزراعة السمسم وكثرة المعاصر لاستخراج زيته (١٣) .

١- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ١٢ .

٢- الإدريسي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٣٠ .

٣- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٥٦ ، ٧٤ ، ٨٦ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٩٧ .

٤- ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٣٠٣ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٤ ، ص ٢٢٤ / السخاوي ، وجيز ، ج٢ ، ص ٥٣٠ .

٥- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٤ ، ص ٢٢٤ .

٦- عبد الرحيم عبد الرحيم ، الريف المصري ، ص ٢٠٣ .

٧- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ١٢٩ ، ١٤٣ .

٨- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج١ ، ص ٩٠ .

٩- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٠٨ .

١٠- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٦٥ ، ٢٦٨ / ابن إياس ، نشق ، ص ٣٩ أ .

١١- جومار ، وصف ، ص ٢٧٩ .

١٢- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٩٦-٩٧ ، ١٠٤ ، ١١٩-١٢٠ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٤٣ .

١٣- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٦٠٩ .

الأشجار المثمرة والفواكه :-

شكلت الأشجار المثمرة جانبا مهما من الاقتصاد الزراعي والعوائد المالية للسلطنة ، بسبب زراعتها في جميع أنحاء مصر ، مع غلبة أصناف معينة في كل وجه ، تبعا للتباين الكبير بين درجات الحرارة والرطوبة من الجنوب إلى الشمال ، فتكثر في بلاد الصعيد الأشجار التي تتحمل درجات الحرارة العالية كالنخيل ، مع زراعة بعض أنواع الفواكه في قوص (١) ، والفيوم (٢) ، والواحات (٣) ، والجيزية (٤) وفي مدينة أسيوط (٥) . وتكثر في بلاد الوجه البحري زراعة أشجار الفواكه التي تحتاج إلى مناخ معتدل (٦) .

وتزرع أشجار النخيل في جميع أنحاء مصر ، وقد قدرت المساحة المزروعة بها في بلاد الصعيد في منتصف القرن ٨هـ/١٤م بعشرين ألف فدان ، تمتد على طول ضفتي النيل الشرقية والغربية (٧) ، ومن أهم مراكز زراعتها أسوان وضواحيها ، ويبلغ إنتاجها السنوي ثلاثين ألف إردب (٨) .

وتتنوع أصناف التمور في أسوان ، فمنها ما يتمر قبل أن يصير رطبا ، ويكون لونه أحمر مغبرا ، وآخر لين ، يتمر بعد أن يصير رطبا ، والنوع الأبيض الذي يتمر وهو بلح (٩) ، والسلقي الشديد الخضرة (١٠) ، والنوع الذي تسل منه النواة وهو على عرجونه ، ونوع لا يمكن تأخيره ساعة بعد جنيه ، لنعومته وكثرة سقره (الدبس)(١١) ، ومنه صنف شديد اليبوسة ، يطحن وينخل منه سكر يسمى القند ، ويستخدم في كثير من الأطعمة ؛ لأنه يصبح كالقند أو العسل بعد إذابته (١٢) .

ويحتل عمل القوصية مركز الصدارة في إنتاج التمور ، ومن أشهر مناطق زراعته قوص (١٣) ، وإسنا التي

١- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، ، أيمن سيد ، ص ٨٦ .
٢- الإدريسي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٢٧ / النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص٢٦ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ١٠٣ ، ١٥٩ / الوطواط ، مباهج ، ص ٨١ / مجهول ، الاستبصار ، ص٩١.
٣- ابن ، إياس ، نشق ، ص ١٣ ب .
٤- الإدريسي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٢٤ .
٥- البكري ، كتاب الممالك والمسالك ، ص ٨١ .
٦- النويري ، نهاية ، ج١ ، ص ٣٥٧.
٧- الإدفوي ، الطالع ، ص ٢٥ -٢٦ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٨٩ / ابن ظهيرة ، نزهة ، ص ١٢٤ أ / ابن إياس ، نشق ، ص٤٩ب / الحنفي ، تاريخ مصر ، ص ٦٠ أ .
٨- الإدفوي ، الطالع ، ص ٢٦ .
٩- ابن زولاق ، فضائل ، ص ٢٠٠ أ / ياقوت ، معجم ، ج١ ، ص ١٩٢ .
١٠- ابن إياس ، نشق ، ص ٥٣ ب .
١١- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ٣٤ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٩٩ / ابن ظهيرة ، نزهة ، ص ١٢٤ أ -ب / الصيرفي ، الدر الثمين ، ص١٧٠ أ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص٢٠ / الحنفي ، تاريخ مصر ، ص ٦٠ ب .
١٢- شيخ الربوة ، نخبة ، ص ٢٣٣ .
١٣- الإدفوي ، الطالع ، ص ٢٧ / ابن ظهيرة ، الفضائل ، ص٦٦ .

يبلغ إنتاجها السنوي أربعين ألف إردب (١) ، وقفط (٢) ، وإدفو (٣) ، وقموله (٤) ، وأرمنت (٥) ، ودمامين (٦) ، ودمقرات (٧) ، والأقصر حتوبي قوص (٨) ، ودندرة (٩) . وينتج عمل القوصية جميع الأصناف الموجودة في أسوان ، إضافة إلى قرن الغزال ، والهلالية (١٠) ، وهناك نوع لا يقدر على أكله حتى يدق بالهاون ، ويستخدمه السكان في العصائد بديلا من السكر (١١) ، وهناك النوع الذي يؤكل نواه كالفستق بمنطقة قمولا (١٢) .

وتساهم أعمال بلاد الصعيد الأخرى بنصيب من زراعة النخيل ، فيكثر في إخميم والبلينا بالقرب منها(١٣)، وبوتيج من السيوطيه (١٤) ، وفي أشمون وأنصنا من الأشمونين (١٥) ، وفي قرى عمل الفيوم (١٦) ، حتى إن رطب هذا العمل لا ينقطع صيفا ولا شتاء (١٧) ، وفي منطقة الجيزة كأبو رجوان (١٨) ، وفي دير شعران ودير البغل في لحف جبل المقطم (١٩) ، وفي جزيرة الروضة (٢٠) ، وتتميز الواحات بكثرة تمورها ونخيلها ، وبخاصة مدينة سنتريه قصبة الواحات الأولى ، التي يعرف تمرها باسم "البيدور" ، ويأكله أهل مصر مع السمسم (٢١) ، وفي منطقة الأزاهر(٢٢) .

١- الإدفوي ، الطالع ، ص٢٦/ أبو الفداء ، تقويم ، ص١١٣/ ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص٣٠/ ابن ظهيرة ، الفضائل ، ص٦٥ .

٢- الباكوي ، كتاب تلخيص ، ص ٢٨ ب .

٣- ابن ظهيرة ، نزهة ، ص ٢٤ ب .

٤- ياقوت ، معجم ، ج٤ ، ص ٣٩٨ .

٥- الإدريسي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٢٩ - ١٣٠ / أبو الفداء ، تقويم ، ص١١١/ ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ٣٠ .

٦- ياقوت ، معجم ، ج٢ ، ص ٤٦٢ .

٧- نفس المصدر ، ص ٤٧٠ .

٨- أبو الفداء ، تقويم ، ص ١١١ .

٩- ياقوت ، معجم ، ج٢ ، ص ٤٧٨ .

١٠- ابن زولاق ، فضائل ، ص ٢٠٠ أ .

١١- ياقوت ، معجم ، ج١ ، ص١٢٦ / ابن ظهيرة ، الفضائل ، ص ٦٧ .

١٢- ابن زولاق ، فضائل ، ص ٢٠٠ أ .

١٣- الإدريسي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٢٥ - ١٢٦ / الصيرفي ، الدر الثمين ، ص ١٧ أ .

١٤- ياقوت ، معجم ، ج١ ، ص ٥٠٦ .

١٥- ياقوت ، معجم ، ج١ ، ص ٢٠٠ / ابن السباهي ، أوضح المسالك ، ص ٢٤ ب .

١٦- الإدريسي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٢٥ / النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٣٢ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٧ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠١ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٧٤ .

١٧- البكري ، المسالك والممالك ، ج١ ، ص٥١٤ / الحميري ، الروض ، ص ٤٤٥ / مجهول ، الاستبصار ، ص ٩١ .

١٨- علي مبارك ، الخطط ، ج٨ ، ص ٣٣ .

١٩- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أحمد باشا ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٨ .

٢٠- المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٠ .

٢١- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ١٤ .

٢٢- الوطواط ، مباهج ، ص ١٠٤ .

وتتركز زراعة النخيل في الوجه البحري في المناطق المتاخمة للصحراء الشرقية والغربية، ومن أشهر نتاجها التمر الفرماوي ، نسبة لمدينة الفرما ، الذي يتميز بكبر حجمه ، فقد يبلغ وزن البسرة منه عشرين درهما (٦٢,٥غم)، ويبدأ نضجه وتسويقه في الفترة التي ينتهي بها جني تمور المناطق الأخرى ، ويستمر في الأسواق مدة أربعة شهور (١) ، والتمر القطوي نسبة إلى مدينة قطيا (٢) . ويكثر النخيل في الأعمال النستراوية والبرلس (٣) ، وما بين العباسة والصالحية ، وإلى الشرق من مدينة بلبيس وحتى الخانقاة السرياقوسية والفسطاط (٤) . أما إلى الشرق من الفرع الغربي ، فإن مناطق زراعته تمتد من فوة ورشيد حتى برقة على ساحل المتوسط (٥) .

وتحتل الكرمة المرتبة الثانية بعد النخيل من حيث انتشارها ، ويراعى عند زراعتها عدم اختلاط العنب الأسود بالأبيض (٦) ، وتعريشها على أوتاد ، تتصل بينها بحبال ليف ، وتعرف لدى الفلاحين " برابير الكرمة " (٧) ، أو على الأشجار ما عدا الرمان والتين والزيتون (٨) . ومن أصناف الكرم المشهورة عيون البقر ، وهي كالجوز وأصابع العذارى ، وتشبه الأصابع المخضوبة ، وربما بلغ العنقود منه طول ذراع والعنبة أوقية بالمصري (٣٧,٥غم) (٩) .

ويصعب حصر مناطق زراعة الكرمة ، لصلاحية جميع أراضي مصر لذلك ، ولكن أشهر المناطق في إنتاج الاصناف الجيدة قوص (١٠) ، وإسنا التي يبلغ إنتاجها في السنة ١٢,٠٠٠ إردب من الزبيب (١١) ، وإدفو (١٢) ، والأقصرين (١٣) ، وقمولة التي يعد عنبها من أفضل الأصناف ، إذ قد يبلغ وزن الحبة منه اثني عشر درهما (٣٧,٥غم)، وفي الأعمال القوصية (١٤)، وفي الفيوم بتلات وبيبج إنشو ، وببيج أنقاش وجرد ،وذات الصفا

١- الكندي ، فضائل ، ص ٥٣ / المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٩٥ / البكري ، المسالك والممالك ، ج٢ ، ص ٦٢٥ / ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ٥٢ ، ٥٣ / الصيرفي ، الدر الثمين ، ص ١٦١ ب / مجهول ، الاستبصار ، ص ٨٩ .

٢- ابن شاهين ، زبدة ، ص ٣٤ / ابن إياس ، نشق ، ص ٦٧ أ .

٣- ابن بطوطة ، رحلة ، ج١ ، ص ٤٨ .

٤- المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٢٦ / ياقوت ، معجم ، ج٤ ، ص ٧٥ / أبو الفداء ، تقويم ، ص١١٩ / الخياري ، تحفة الأدباء ، ج٣ ، ص ٦-٧ / الحنفي ، تاريخ مصر ، ص ٦٤ ب / النابلسي ، الحقيقة والمجاز ، ص ١٧٧ .

٥- ابن حوقل ، صورة ، ص ١٣٢ / ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ١١٤ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٦٣ ، ١٨٣ ، ٢٣٥ / الحميري ، الروض ، ص ٦٤ / ليون الإفريقي ، وصف ، ص٥٦٩ ، ٥٧٤-٥٧٧ .

٦- أبو الخير الأندلسي ، كتاب الفلاحة ، ص ٢٢ .

٧- ابن عابدين ، رد المحتار ، ج٧ ، ص ٨٠ .

٨- أبو الخير الأندلسي ، كتاب الفلاحة ، ص ٢٤ / النابلسي ، علم الملاحة ، ص ٥٠ .

٩- ابن الوردي ، خريدة ، ص ٢١١ .

١٠- القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١١ .

١١- الإدريسي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٢٩ / الإدفوي ، الطالع ، ص٢٦ / ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص٣١ .

١٢- الإدفوي ، الطالع ، ص٢٦ .

١٣- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ٣١ .

١٤- الإدريسي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٢٩ / الحميري ، الروض ، ص ٤٧٣ .

وسنورس وطبهار (١) . وفي الواحات في القصر وأفطيمه وأتيان وشكول وعين حديد البحرية وعين حديد القبلية ، وبرقس والقلمون والقلول (٢) . ويتميز عنب الصعيد بكبر حجم القطف ، فقد يصل وزنه إلى ثمانية أرطال بالليثي (٥كغم) (٣) ، وفي الوجه البحري ، تكثر زراعة الكرم في ضواحي القاهرة كمنية الأمراء وشبرا التي تقتصر عليه ، وطنان ، وفي عمل الشرقية وبخاصة بلبيس (٤) ، وفي الغربية بسخا (٥) ، ونقانة (٦) ، والمنية ومحلة قيس من عمل البحيرة ، وترتفع معظم أراضيها عن مستوى النيل ، فلا تزرع غير العنب ، الذي تصدره للقاهرة والإسكندرية (٧) .

وبالرغم من كثرة إنتاج العنب فإن أسعاره تبقى مرتفعة طوال السنة ، بسبب تحول معظم إنتاج الأرياف إلى صناعة الخمور (٨) ، فمنطقة شبرا التي تزرع كلها بالكرمة ، لا تصدر شيئا للقاهرة ، بل تعتصره خمرا للبيع في عيد الشهيد ، وتسديد الخراج مما يبيعونه (٩) . وقد شارك بعض الأمراء في هذه الصناعة ، فكان للنشو زمن الناصر محمد بن قلاوون عدد من معاصر العنب ، في أحد بساتينه بجزيرة الفيل (١٠) ، وابتكر الأمير تمربغا المنجكي سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٤م الخمر التمربغاوي ، وذلك بخلط رطل من الزبيب بأربعين رطلا من الماء ، ودفنها بزبل الخيل حتى تشتد (١١) ، ووجد للأمير فخر الدين الإستادار في سنة ٨١٤ هـ/١٤١١م كثيرا من جرار الخمر (١٢) .

وقد حاولت السلطنة في بعض الأحيان مقاومة صناعة الخمور ، فتم في سنة ٨٠٣ هـ/١٤٠٠م إراقة خمسين ألف جرة من منية الأمراء وشبرا (١٣) ، وألزم والي القاهرة اليهود والنصارى في سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م حمل الخمور وتوزيعها على الأسارى (١٤) ، وأصدر السلطان برسباي في سنة ٨٣١ هـ/١٤٢٧م مرسوما بمنع اعتصار العنب (١٥)، ومرسوما في سنة ٨٤٠ هـ/١٤٣٦م بإراقة الخمور (١٦) ، وفي الوقت نفسه كان السلاطين والأمراء هم الذين يزودون اليهود والنصارى بالعسل اللازم للخمر في أثناء فترة اعتصار العنب (١٧) .

١- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٧٢ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ٤٠٣ ، ١٠٧ ، ١٣٠ .

٢- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ١٢ .

٣- الإدفوي ، الطالع ، ص ٢٦ / ابن ظهيرة ، نزهة ، ص ٢٤ ب .

٤- الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص ٩٥ .

٥- الحسن بن محمد الصفدي ، كتاب يذكر تاريخ مصر وفضلها ، ص ٧ ب .

٦- الوطواط ، مباهج ، ص ١٣٣ .

٧- أبو الفداء ، تقويم ، ص ١٠٥ / ابن الساهي ، أوضح المسالك ، ص ٤ ب / ليون الإفريقي ، وصف ، ص٥٧٨ .

٨- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٣٦٨ / الحباري ، تحفة الأدباء ، ج٣ ، ص ١٤٩ .

٩- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص ٩٤١-٩٤٢ ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٤٠٠-٤٠١/ ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص٥٦٥ .

١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٤٧٨-٤٧٩ .

١١- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٨٢٦ / ابن حجر ، إنباء ، ج٣ ، ص٢٤٠-٢٤١ .

١٢- ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ١٢ .

١٣- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١١٣٠ / العيني ، عقد ، ص ٤٣ ب / الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص ٩٥ / السخاوي ، الضوء ، ج١٠ ، ص ٢٨٩ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٥٩٤-٥٩٥ .

١٤- ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ١١٥ .

١٥- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٣٠٢ أ .

١٦- الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ٤٠٦ .

١٧- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٤٤ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ٤٠٦ .

وقد ساهمت منطقة القاهرة وأعمال الوجه البحري بالقسم الأكبر من إنتاج الأصناف الأخرى من الفواكه ، فقد أكثر السلاطين والأمراء والأعيان إنشاء البساتين فيها (١) . وازداد انشاء هذه البساتين في القرن ٨هـ/١٤م ، حيث بلغ عددها في جزيرة الفيل زمن الناصر محمد بن قلاوون ١٥٠ بستانا بعد ٢٠ بستانا (٢) ، وانخفض عددها في بداية القرن ٩هـ/ ١٥م إلى مئة بستان (٣) ، وازداد عدد البساتين في عمل القليوبية كذلك ، حتى وصف خليج السردوس كأنه ممر مائي بين أشجار الفاكهة المتشابكة (٤) ، وبلغ عدد البساتين بمدينة قليوب ١,٧٠٠ بستان ، إلا أن عددها انخفض في النصف الأول من القرن ٩هـ/١٥م ولم يتبق منها إلا القليل (٥) ، وأطلق على مدينة أبيار دمشق الصغرى ، لكثرة فواكهها (٦) ، وكثر كذلك إنتاج الفواكه بمنطقة الإسكندرية وضواحيها (٧) ، وكانت نواحي عمل الفيوم (٨) والواحات (٩) ، والقوصية (١٠) وأسيوط تنتج بعض أنواع الفواكه (١١) . ويلاحظ أن فواكه مصر تتميز بغلبة المياه على طعمها ، بسبب الزيادة السنوية للنيل (١٢) .

ومن أصناف الفواكه بمصر الموز ، وتحتل دمياط مركز الصدارة في إنتاجه (١٣) ، و يزرع في البرلس (١٤) ، ورشيد وقرية ذيبة بالقرب منها (١٥) ، وفي فوة (١٦) ، ومحلة مسروق على خليج الإسكندرية (١٧) ، وقمولة بالقوصية (١٨) ، وعنقيش بالنواح القبلي (١٩) . والرمان ومن أنواعه النزلاوي (٢٠) ، والعريشي نسبة

١- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٩٣ / لين بول ، سيرة القاهرة ، ص ٢٢١ .

٢- المقريزي ،خطط ، ج٢ ، ص ١٣١ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٩ ، ص ١٣٩ .

٣- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ٤٦ .

٤- ابن الوردي ، خريدة ، ص ٤٤ / ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ٤٧ .

٥- ابن الوردي ، خريدة ، ص ٤٤ .

٦- السيوطي ، حسن ، ج١ ، ص ١٢ .

٧- المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٩٧ / ياقوت ، معجم ، ج١ ، ص ٣٨٩ / أبو الفداء ، تقويم ، ص١١٣ .

٨- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٤، ٥٩، ١٠٣ ، ١٥٧ / ليون الإفريقي ، وصف ، ص٥٧٦-٥٧٧ / مجهول ، الاستبصار ، ص٩١ ، ١٠١ .

٩- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ١١ / ابن إياس ، نشق ، ص ١٣ ب .

١٠- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أيمن سيد ، ص ٨٦ .

١١- البكري ، كتاب الممالك والمسالك ، ص ٨١ .

١٢- ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٣٥٣ / ابن إياس ، نشق ، ص٢٧٩ ب .

١٣- السبكي ، فتاوي ، ج١ ، ص٤٤٤ / ابن بطوطة ، رحلة ، ج١ ، ص ٤٨ / ابن فضل الله العمري، مسالك ، أيمن سيد ، ص ٩٤ / الصوفي ، الصفوة ، ص ١٥ أ -ب / ليون الإفريقي ، وصف ، ص٦٥٩ .

١٤- ابن ظهيرة ، نزهة ، ص ٢٥ أ .

١٥- البكري ، المسالك ، ج٢ ، ص ٤٢٧ / شيخ الربوة ، نخبة ، ص ٢٣١ / الحميري ، الروض ، ص٢٧٣ .

١٦- الوطواط ، مباهج ، ص ١٢٦ .

١٧- ابن حوقل ، صورة ، ص ١٣٤ .

١٨- الحميري ، الروض ، ص ٤٧٣ .

١٩- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ١٢ .

٢٠- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ٤١ .

للعريش (١) . ومن أهم مناطق زراعته بالوجه البحري الدقهلية والمرتاحية (٢) ، وجزائر الرمان بفارسكور(٣) ، وأشمون الرمان (طناح) (٤) ، ورشيد (٥) ، والإسكندرية (٦) ، وفي بلاد الصعيد بقمولة من القوصية (٧) ، وفي أبشاية الرمان من الفيوم (٨) .

وتتميز مصر بزراعة الجميز (التين الفرعوني) والتين ، ومن أشهر مناطق زراعة الجميز دمياط (٩) ، والإسكندرية (١٠) ، والفيوم (١١) ، وتتصف أشجاره بالضخامة ، وتماثل الثمار ، وغزارة الإنتاج ، إذ تعطي سبعة بطون في السنة ، وتكون ثمارها على الجذوع ، ولا تنضج إلا عند قيام الفلاحين بإحداث ثقب في الثمرة في المساء ، حتى يجدها في الصباح قد نضجت (١٢) . وتستعمل أخشابها في صناعة المراكب ، وبعض الأدوات المنزلية كالأبواب (١٣) . هذا ويزرع التين البوني (الديفور) (١٤) ، والتين البرشومي (١٥) ، وبخاصة في عمل الفيوم (١٦) .

ومن الفواكه الأخرى الخوخ بأنواعه الشعري والأقرع والزهري ، ونوع نصفه كلون الزعفران والآخر بلون الدم (١٧) ، والمشمش (١٨) ، والتفاح السكري (١٩) والقاسمي والمسكي (٢٠) ، وتكثر زراعته حول مدينة دمياط (٢١) . والكمثرى البلدي (٢٢) ، والبوهي (٢٣) ، ولكن إنتاجها قليل ، لهذا تضطر مصر إلى استيراد

١- ابن ظهيرة ، نزهة ، ص ٥ب / ابن إياس ، نشق ، ص ٦٠ ب .
٢- ابن شاهين ، زبدة ، ص ٣٥ / الصوفي ، الصفوة ، ص ١٥ أ .
٣- الحسن بن محمد الصفدي ، كتاب بذكر تاريخ مصر وفضلها ، ص ٧ ب .
٤- ابن بطوطة ، رحلة ، ج١ ، ص ٥٠ / الوطواط ، مباهج ، ص ١٢٧ .
٥- الحميري ، الروض ، ص ٢٧٣ .
٦- ابن الوردي ، خريدة ، ص ٤٠ .
٧- الحميري ، الروض ، ص ٤٧٣ .
٨- ياقوت ، معجم ، ج١ ، ص ٧٣ .
٩- Fra Nicolo , Avoyage , P 120.
١٠- البكري ، معجم ، ج٢ ، ص ٦٢٨ .
١١- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٥٢ ، ٨٦ ، ٩٤ ، ١٠١ ، ١١٦ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٢ .
١٢- البغدادي ، الإفادة ، ص ٧٨ / Fra Nicolo , Avoyage , P 121 .
١٣- البغدادي ، الإفادة ، ص ٧٨ .
١٤- القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٥ .
١٥- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ٤١ .
١٦- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٩١ ، ١٠٧ ، ١١٩ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٥٠ ، ١٦٠ ، ١٦٩ ، ١٧٢.
١٧- مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ١٩٦ .
١٨- الوطواط ، مباهج ، ص ١٠٥ .
١٩- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ٤١ .
٢٠- القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٤ .
٢١- Fra Nicolo , Avoyage , P 120 .
٢٢- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ٤١ .
٢٣- القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٥ .

معظم حاجاتها من الكمثرى من بلاد الشام (١) ، وبخاصة في فترات الأوبئة والطواعين ، حيث تزداد حاجة المرضى إليه (٢) ، أما التوت الأبيض فيزرع في رشيد ودمياط ، والأسود في الوجه البحري (٣) .

وتزرع الحمضيات في الوجه البحري ، ومن أنواعها الأترج الأحمر الحاقي (٤) ، والأترج المكعب (٥) ، والليمون فمنه المركب بقدر البطيخة والمختم الشديد الحمرة والاستدارة ، ونوع بقدر الإبهام ، ونوع كالبيضة ، وفيه ما هو مخروط صحيح ، ويشبه الأترج في لونه ورائحته (٦) ، والأحمر الإفرنسيسي المنقول إلى مصر في نحو سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م (٧) والليمون التفاحي (٨) . وتزرع في القليوبية وبخاصة في بنابوصير وسمنود (٩) ، وفيما بين عين شمس إلى الفرما (١٠) ، وفي الجيزية (١١) والفيوم (١٢) والأشمونين (١٣) وحول قفط من القوصية (١٤) ، والواحات (١٥) .

ويعد البطيخ والشمام أو اللفاح بلغة أهل الصعيد (١٦) من أكثر الفواكه شيوعا بمصر ، ولذلك فإن أسعارها تنخفض في الأوقات العادية ، لكثرة زراعتها وإنتاجها (١٧) ، ولا ترتفع إلا في أوقات الأوبئة والطواعين ، فقد وصل سعر البطيخة في طاعون ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م خمسين درهما (١٨) ، والقنطار المصري منه في سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م بمائة درهم (١٩) ، وبيعت بطيخة في سنة ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م بمائتين وسبعين درهما (٢٠) ، ونصف بطيخة

١- البغدادي ، الإفادة ، ص٩٤ / المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٩٢ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص٤١ .
٢- ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٢٨٧ .
٣- الهام ذهني ، مصر ، ص ١٦٧ .
٤- ابن زولاق ، فضائل ، ص ١٩٩ ب .
٥- ابن ظهيرة ، نزهة ، ص ٢٥ أ .
٦- البغدادي ، الإفادة ، ص ٨٨-٨٩ .
٧- ابن ، إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص٤١ .
٨- القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٦ .
٩- ابن زولاق ، فضائل ، ص ١٩٨ أ .
١٠- ابن ظهيرة ، نزهة ، ص ٢٥ أ .
١١- ابن ظهيرة ، الفضائل ، ص ٦٩ .
١٢- ابن زولاق ، فضائل ، ص ١٩٩ ب / النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ١٤٥ .
١٣- ابن ظهيرة ، الفضائل ، ص ٦٢ .
١٤- ياقوت ، معجم ، ج٤ ، ص ٣٨٣ .
١٥- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ١٣ .
١٦- النويري ، نهاية ، ج١١ ، ص ٣١ .
١٧- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٨١٦ ، ج٤ ، ق٣ ، ص١٢٠٥ / العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥-٨٢٤ هـ ، الطنطاوي ، ص١٥٢ / الصيرفي ، إنباء ، ص ١٨٨ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ١٦٥ أ .
١٨- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ق١ ، ص ٢٧ / ابن قاضي شهبة ، تاريخ ، ج٣ ، ص ٢٣٩ .
١٩- ابن حجر ، إنباء ، ج٥ ، ص١٣٧ .
٢٠- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٣ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٧٣٧ ، ٧٧٠ .

في سنة ٨١٦ هـ / ١٤١٣م بخمسمئة درهم (ديناريين) (١)، وخمس بطيخات بنحو ألفي درهم (٨ دنانير) (٢).

وتتعدد أصناف البطيخ والشمام في مصر، فمنها العبدلاوي، الذي يعرف أيضا بالدراع (٣)، والخراساني(٤)، والسندي (٥)، والدميري نسبة إلى قرية دميرة، إحدى قرى تنيس (٦)، وقد أدخل زراعة هذا الشمام والي مصر عبدالله بن طاهر بين ٢٠١-٢٠٥ هـ/٨١٦-٨٢٠ م، ويأكله أهل مصر صغيرا كهيئة الخيار ويسمونه عجورا، وعندما يكبر يسمى خرشا، ويجنى وما زال فيه لون الخضرة، ويلف في أوراقه إلى أن يصفر ويصير ناعما، ولا يتحمل وضع اليد عليه إلا بلطف (٧)، وغالبا ما يتراوح وزن الحبة منه بين رطل إلى عشرة أرطال، وقد يصل إلى ثلاثين رطلا(٨)، وتكثر زراعته في عمل القليوبية (٩)، وعلى ضفاف النيل والجزائر (١٠).

أما البطيخ الهندي وهو الأخضر، فقد يصل وزن البطيخة منه إلى خمسين رطلا وأكثر، وله أشكال كثيرة، الأخضر المدور، والمخطط، والأبيض، والطويل، والمخطط بالأبيض (١١)، وبزره مختلف الألوان، فمنه البنفسجي والأسود والأحمر والأصفر (١٢). وتكثر زراعة البطيخ الأخضر في إدفو (١٣) وأسوان (١٤)، ومنه البطيخ الصيني ويسمى الأصفر، وهومدور ومقسوم إلى أضلاع، وله رائحة عطرية (١٥)، ويأكله أهل مصر بالسكر (١٦)، ومن أصنافه الشتوي، ويشبه القثاء، رقيق الجلد جدا، ولا يقطع عند الأكل بالسكين، بل يمتص فيخرج ما في البطيخة ويبقى جلدها كالظرف، وأكثر ما يزرع في إسنا من القوصية (١٧)، وهناك البطيخ الغيثاوي، والبطيخ الضمير، ونقلت زريعته من قرية ضمير - إحدى قرى غوطة دمشق - في أوائل القرن ٨ هـ / ١٤ م (١٨)، والبطيخ

١- المقريزي، السلوك، ج٤، ق١، ص ٢٥٨ / ابن حجر، إنباء، ج٧، ص ١٠٣ / العيني، عقد، حوادث ٨١٥-٨٢٤ هـ، الطنطاوي، ص ١٦٥ / القاضي عبد الباسط، نيل، ج١، ص ٢٢٦ ب.

٢- المقريزي، السلوك، ج٤، ق١، ص ٢٥٨.

٣- النابلسي، علم الملاحة، ص ١٣٤.

٤- النويري، نهاية، ج١١، ص ٣١ / القلقشندي، صبح، ج٢، ص ٢٠٠.

٥- النابلسي، علم الملاحة، ص ١٣٤.

٦- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٩٦ / البغدادي، الإفادة، ص ٩٢.

٧- النابلسي، علم الملاحة، ص ١٣٥.

٨- البغدادي، الإفادة، ص ٩٢.

٩- علي مبارك، الخطط، ج٨، ص ٣٦.

١٠- الهام ذهني، مصر، ص ١٦٦.

١١- مجهول، مفتاح الراحة، ص ١٤١-١٤٢.

١٣- ابن ظهيرة، الفضائل، ص ٦٧.

١٤- الحميري، الروض، ص ٥٧.

١٥- مجهول، مفتاح الراحة، ص ١٤١.

١٦- الغدادي، الإفادة، ص ٩٢.

١٧- النويري، نهاية، ج١١، ص ٣١.

١٨- ابن إياس، بدائع، ج١، ق١، ص ٤٢.

الصواصلي الذي يتميز بطيب رائحته ، وشدة حلاوته ، وبزره أبيض بدائر أسود (١) ، وفلاحة هذه الأصناف واحدة، وقد جرت العادة أن يقطف الفلاحون في كل يوم الثمار الصغيرة التي لا حاجة لها ، للإسراع في نمو بعض الثمار التي يتركونها (٢) .

ومن الأشجار المثمرة الزيتون ، ولكنه قليل في مصر ، ولا يستفاد منه في استخراج الزيت ، بل يؤكل أخضر مملحا(٣)، وتنحصر زراعته في بعض قرى الفيوم (٤) ، والواحات(٥)، والمناطق الساحلية من الإسكندرية حتى برقة(٦). وهناك الآس ويصنع من بزره الأسود نوع من الخبز ، يلجأ إليه السكان بديلا عن الخبز في أيام القحط (٧) ، واللبخ ويكثر في جميع أنحاء مصر ، مع تركز كبير في أنصنا ، ويقترب شكل ثمرته ولونها وطعمها من البلح (٨) ، والإهليلج ، وهي شجرة هندية ، يشبه ثمرها حب الصنوبر ، وتكثر في إخميم (٩) . وأخيرا الحناء (١٠) .

الخضروات والنباتات الصبغية والبهارات :-

تدخل الخضروات في الوجبة اليومية لسكان المدن والأرياف على السواء ، ولذلك احتلت زراعتها مكانة كبيرة لدى الفلاحين ، مع اختصاص بعض المناطق بصنف دون الآخر (١١) . ومن أصنافها الكرنب والقرنبيط (١٢) والباذنجان (١٣) ، والبامية التي يطبخها أهل مصر مع اللحم (١٤) ، والملوخية ، وأفضلها ما اشتدت خضرتها مع ميل عروقها إلى الاحمرار (١٦) ، والجرجير (١٧) ، والأمقثة كالقثاء ، والخيار البلدي (١٨) ، والفقوس الذي لا

١- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٣٥ - ١٣٦ .

٢- البغدادي ، الإفادة ، ص ٩٢ .

٣- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٣٤٤-٣٤٥ / ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٦١٠ .

٤- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٤٨-٤٩ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ١٠٩ ، ١٣٩ ، ١٦٧ ، ١٦٩ / ياقوت ، معجم ، ج١ ، ص ٢٨٤ .

٥- سيد مرعي ، الزراعة ، ص ١٤٨ .

٦- المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٩٧ / الكندي ، فضائل ، ص ٤٧ .

٧- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ٣٦ .

٨- ياقوت ، معجم ، ج١ ، ص٢٦٦ / مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ٨٨ .

٩- ابن ظهيرة ، نزهة ، ص ٢٤ أ .

١٠- ابي الخير الأندلسي ، كتاب الفلاحة ، ص ١٦٧-١٦٨ .

١١- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ٤٢ .

١٢- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٧٠ / البكري ، النزهة ، ص ١٣٠ أ .

١٣- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٦٨ .

١٤- البغدادي ، الإفادة ، ص ٧٤ .

١٥- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٤٥ .

١٦- نفس المصدر ، ص ١٥٠ .

١٧- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ٤٢ .

١٨- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ٤٢ .

يزيد حجم الواحدة منه على إصبع ، ومتوسط طولها فتر (١) ، ولكنه انقطع من مصرفي بداية القرن ١٠ هـ/١٦م (٢) . والفجل(٣) ، واللفت المدحرج والمستطيل (٤) ، والخس (٥) ، وتشتهر قفط (٦) ، والأشمونين (٧) ، وبعض قرى الفيوم بزراعتهما (٨) ، واستخراج زيوتهما لصناعة الصابون (٩) .

ويختص أهل مصر بزراعة القلقاس (١٠) ، ويشبه الفجل المدور (١١) ، وقيل الخيار ، وله قشرة تميل إلى الحمرة ، ويشق كاللفت ، ويقترب طعمه من الموز الأخضر ، وفيه حرقة قوية ، ولذلك يعتقد أنه زنجبيل مصري ، ولا تذهب حرقته إلا عند الطهي (١٢) ، ويدوم في الأسواق طوال السنة (١٣) ، ومن أشهر مراكز زراعته دمياط والبرلس (١٤) ، ورشيد (١٥) ، وبعض قرى الفيوم (١٦) .

ويزرع الثوم والبصل جنبا إلى جنب ، فيشتهر عمل البحيرة بزراعة البصل ، وبخاصة في منطقة الرحمانية التي تنتج أفضل أنواعه (١٧) ، وفي قرية دمشقين من الفيوم نوع من البصل كالبطيخ ، ولكن لا حراقة فيه (١٨) ، ويستهلك إنتاج البصل أخضرا أو جافا ، وتبلغ الطاقة الإنتاجية للفدان نحو عشرة أرادب من البصل (١٩) . أما الثوم ، فينتج الفدان بين مئة إلى مئة وخمسين حزمة (٢٠) .

١- البغدادي ، الإفادة ، ص ٩١ .
٢- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ٤٢ .
٣-ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٦٩ / البكري ، النزهة ، ص ١٢٩ ب .
٤- ابن بصال ، كتاب الفلاحة ، ص ١٤١ .
٥- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٦٩ / البكري ، النزهة ، ص ١٣٠ أ .
٦- الإدريسي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٢٨ .
٧- ابن ظهيرة ، الفضائل ، ص ٦٢ .
٨- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ٨٩ ، ١٠٦ ، ١٣٨ .
٩- الإدريسي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٢٨ .
١٠- مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ١٤٧ .
١١- المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٤ .
١٢- البغدادي ، الإفادة ، ص ٨١ ، ٨٤ .
١٣- الحسن بن محمد الصفدي ، كتاب يذكر تاريخ مصر وفضلها ، ص ٨ أ .
١٤- ابن ظهيرة ، نزهة ، ص ٢٥ أ .
١٥- الهام ذهني ، مصر ، ص ١٦٥ .
١٦- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٨٨ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١٢٠ ، ١٣٥ ، ١٧١ .
١٧- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج٢ ، ص ١٢ .
١٨- ياقوت ، معجم ، ج٢ ، ص ٤٧٠ .
١٩- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٦٣ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٢ .
٢٠ - ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٦٣ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص١٠٢ / ابن إياس ، نشق ، ص ٣٨ ب-٣٩ أ .

ويستعمل السكان في أغذيتهم مجموعة من البهارات المحلية ، كالزعفران الذي يعرف أيضا بالجاري، والكركم(١)، وتشتهرمنطقتا برقه (٢) والواحات بزراعته(٣) . وينتج الكمون بأصنافه : الأسود والأصفر الفارسي والنبطي (٤) ، وتشتهر منطقة تروجه من البحيرة بزراعته (٥) ، وتزرع الكزبرة في قرى الفيوم (٦) ، وحبة البركة أو الحبة السوداء ، التي تكثر زراعتها بالصعيد ، وتستعمل مع الطعام (٧) ، وظهرت محاولة في سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م لزراعة الفلفل الأسود في عمل الأشمونين ، لكنها فشلت لأن الثمار لم تعقد ، ولكن الناس استمروا في استعمال فروعها بدلا عن الفلفل (٨) .

النباتات الطبية :-

تستخدم مادة الأفيون لتسكين جميع الأوجاع بطليها على مكان الوجع ، أو تناولها بالفم ، ولا تزيد الجرعة على حبة عدس أو دانقين (٩) ، وتستخرج هذه المادة من النبات المعروف بالخشخاش ، ويبلغ طوله قدر ذراع (١٠) . وتعتمد جودته على لون زهرته ، فمنه الأبيض والأحمر والأزرق ، وأفضله المستخرج من الزهرة السوداء (١١) ، إذ تخلف هذه الزهور بعد انعقادها رؤوسا مستطيلة يلجأ الفلاحون عند جمع الأفيون إلى شرط الثمرة من الرأس إلى الأسفل ، من غير النفاذ إلى الجانب الآخر ، وهذا يؤدي إلى خروج لبن يؤخذ بالإصبع ، ويوضع في صدفة(١٢) ، ويلجأ الصيادلة إلى غشه بعصارة ورق الخس البري أو بالصمغ (١٣). وتشتهر أبوتيج (١٤) ، وأسيوط (١٥) ودمياط بكثرة زراعته (١٦) ، ولكن القسم الأكبر من إنتاجه يصدر إلى الخارج ، وخاصة إلى بلاد الهند (١٧) .

١- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٢٣ .

٢- ابن الوردي ، خريدة ، ص ٤٠ / ابن إياس ، نشق ، ص ١٤ أ .

٣- الإدريسي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٢٣ .

٤- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٢٣ .

٥- ياقوت ، معجم ، ج٢ ، ص ٢٧-٢٨ .

٦- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٧٠ ، ٧٢ ، ١١٢ ، ١٤٣ .

٧- الهام ذهني ، مصر ، ص ١٧٠ .

٨- النويري ، نهاية ، ج١١ ، ص ٩ .

٩- النويري ، نهاية ، ج١١ ، ص ٢٣-٢٤ / النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٢٠ .

١١- علي مبارك ، الخطط ، ج٨ ، ص ٣٠ .

١١- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٢٠-١٢١ .

١٢- مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ٢٩٦ .

١٣- ابن بسام ، الرتبة ، ص ٨٥ / ابن الأخوة ، معالم ، ص ١٢٣ / النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٢١ .

١٤- أبو الفداء ، تقويم ، ص ١١٥ / ابن السباهي ، أوضح ، ص٢٠ ب .

١٥- أبو الفداء ، تقويم ، ص ١١٥ / مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ٢٩٦ .

١٦- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أيمن سيد ، ص ٦٨ .

١٧- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ٤٢ .

ويدخل القنب أو الشهذانج أو حشيشة الفقراء في بعض الأدوية ، ويبلغ طول نبتته ذراعا ، وعلى أوراقها بعض البقع البيضاء ، وينقسم إلى نوعين : البري الذي تطبخ أصوله لتضميد الأورام الحارة ، والبستاني الذي له ثمرة كالفلفل ، فتشرط فيستخرج دهنها (١) ، وتشتهر ضواحي القاهرة (٢) ودمياط (٣) وبني سويف بكثرة زراعته (٤) .

واكتسب هذا النبات اسم حشيشة الفقراء ، لإدمان الفئات الدنيا من أبناء الشعب المصري على تعاطيه بالرغم من تحريمه (٥) ، وحاولت السلطنة مقاومة انتشاره ، فأمر السلطان برسباي في سنة ٨٣١ هـ/ ١٤٢٧م بإحراقه ومنع زراعته ، إلا أن هذه السياسة لم تنجح أمام ضغط الأمراء والأعيان الذين كانوا يضمنونه في كل عام ، ويكون جزءًا من إقطاعاتهم ، ونجحوا بإعادة زراعته كما كان (٦) .

وتنفرد مصر بزراعة البلسان أو البلسم بلغة العامة ، الذي يدخل في تركيب معظم الأدوية ، ويستعمل علاجا للفالج وارتخاء الأعصاب ووجع الظهر خاصة ، ولكثير من الأمراض البلغمية (٧) ، ولا تصلح زراعته بأي منطقة في مصر أو غيرها إلا في بستان بالمطرية ، بالقرب من عين شمس، ويشرب من بئر أو نبع بالقرب منه ، والخاصية في ماء البئر ، فإذا سقي من غيره يموت ، ولذلك فشلت محاولات السلاطين في إكثار زراعته (٨) ، وتبلغ مساحة هذا البستان سبعة فدادين (٩) ، وهو محاط بسور ، وحراسة قوية ، حتى لا يسمح لأحد بالدخول إليه (١٠) . وأما شجرته فتشبه شجرة الرمان ، أو الحناء في بداية حياتها ، وأوراقه كأوراق الملوخية ، ولكنها أصغر حجما (١١) ، وتغطى أشجاره في فصل الشتاء بالكتان ، خوفا عليه من البرد الذي يعد من أقوى أعدائه (١٢) .

وتولي السلطنة استخراج دهنه اهتماما خاصا ، فترسل مجموعة من الأمراء أو الخازندار للإشراف على ذلك (١٣) ، وغالبا ما يكون ذلك في شهر برمهات (٢٤ شباط-٢٥ آذار) . ويستخرج الدهن جماعة متخصصون بهذه الصنعة ، فيشرطون لحاءه بطريقة دقيقة ، حتى لا يلمس الخشب ، وإلا فإن الدهن لن يخرج ، ثم يأخذون السائل ويضعونه في أوان زجاجية ، ويعرضونه للشمس ، ثم يطبخ قليلا (١٤) ، ليعطي دهنا صمغيا

١- علي مبارك ، الخطط ، ج٨ ، ص ٣٠ .

٢- ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ١٣٩ .

٣- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٣٠٢ أ .

٤- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٦٠٩ .

٥- ابن تيميه ، الحسبة ، ص ٦٤ .

٦- ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ١٣٩ ، ١٤٩ .

٧- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أيمن سيد ، ص٦٨ / ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص٤٤٤ / الحنفي ، تاريخ مصر ، ص٤٧ أ .

٨- القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص١٩٩ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٢٣٠/ طافور ، رحلة طافور ، ص٧٠-٧١ .

٩- البغدادي ، الإفادة ، ص ٧٩-٨٠ .

١٠- Fra Nicolo , Avoyage , P 93 / ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٥٨٨ .

١١- الباكوي ، كتاب تلخيص ، ص ٣٢٩ .

١٢- Suriano, Treatise , P 195 .

١٣- طافور ، رحلة طافور ، ص ٧١ .

١٤- البغدادي ، الإفادة ، ص ٧٩-٨٠ .

ذهبي اللون (١) . ويبلغ حجم الإنتاج السنوي مئتي رطل مصري (٢) ، تنقل وتودع في خزانة السلطان ، ويرسل قسم منه إلى القلاع والبيمارستانات، ويحفظ ما تبقى ، ولا يصرف أي جزء منه إلا بمرسوم سلطاني(٣) .

ويرتبط دهن البلسم بالعقائد الدينية للنصارى ، إذ يروى أن السيدة مريم عليها السلام قد غسلت في هذه البقعة ثياب المسيح عليه السلام ، ثم ازدادت أهميته بربط صحة التعميد بوجود الدهن في ماء المعمودية ،وهذا ما دفع ملوك الحبشة والفرنج إلى وزن ثمنه ذهبا (٤) ، إلا أن هذه النبتة انقطعت في بداية القرن ١٠هـ/١٦م ، ولكن السلطان الغوري أعاد زراعتها مرة ثانية (٥) ، لتنقطع بعد دخول الدولة العثمانية بفترة قصيرة (٦) ، وكان غش البلسان يتم بدهن السوسن ، ويفحص المغشوش منه بأن ينقط بالماء ؛ لأن كثافته أقل من كثافة الماء (٧) .

وتتركز زراعة الخيار شنبر في منطقة الإسكندرية (٨) ، وتدخل ثماره في تركيب كثير من الأدوية المخصصة لعلاج الأمراض الداخلية (٩) ، وتشبه شجرتها الخروب الشامي ، مع زهور صفراء كبيرة ، إذا عقدت تدلى منها ثمر كالمقارع (١٠) .

ومن النباتات الأخرى التي تستعمل في العلاج الشيرخشك (١١) وبذر الرجلة وبذر الهندبة والإهليلج والعوسج والحبة السوداء والعرق سوس (١٢) .

الغابات والمراعي :-

تفتقر مصر للأشجار الحرجية ، ولذلك استوردت الأخشاب من الخارج ، لسد جزء من حاجاتها

١- مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ٢٥٦ .

٢- الباكوي ، كتاب تلخيص ، ص ٣٢٩ .

٣- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص٣١١-٣١٢ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٢٣٠ / ابن إياس ، نشق ، ص٥٨ب-٥٩ أ .

٤- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أيمن سيد ، ص١٣ ، ٦٨ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص٣١١-٣١٢ / ابن إياس ، نشق ، ص٥٨ب - ٥٩ أ .

٥- ابن إياس ، بدئع ، ج١ ،ق١ ، ص ١٥ ، ج٤ ، ص ١٤٩ .

٦- البكري ، قطف ، ص ٢٩ ب .

٧- ابن بسام ، نهاية الرتبة ، ص ٩١-٩٢ .

٨- مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ٢٠٣ .

٩- ابن الوردي ، خريدة ، ص ٢١٧ .

١٠- البغدادي ، الإفادة ، ص ٩٤ .

١١- المقريز ي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ١١٥٢/ ابن حجر ، إنباء ، ج٥ ، ص ١٩٥ .

١٢- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ٤٣ .

السنوية (١) ، ولكنها تنتج خشب السنط الذي كان ينقل من بلاد الصعيد إلى ساحل السنط بالقاهرة ، ليدخل في بناء المراكب والآلات الخشبية والمعاصر ، أو ليكون وقودا في فصل الشتاء ، لسرعة اشتعاله وبطء احتراقه وقلة رماده (٢) .

وتعد الغابات ملكا لبيت المال ، وقد اقتصر حق المنفعة قبل القرن ٧هـ / ١٣م على الدولة فقط ، فلم يكن يسمح لأحد بقطع أي شيء منها ، واستهلك كل إنتاجها في صناعة السفن ، إلا أن تنبه الولاة والمقطعين لقيمتها الاقتصادية ، وحصولهم على الغابات لتكون إقطاعات لهم أدى إلى تدهور مساحات واسعة ، وخاصة الغابات التي كانت تمتد بين قوص إلى قفط (٣) . وحاول السلطان برسباي في سنة ٨٣٢ هـ/١٤٢٨م احتكار الأخشاب المجلوبة من بلاد الصعيد ، وجعلها من المتجر السلطاني ، إلا أنه فشل وأبطل ذلك بعد فترة وجيزة (٤) .

وقد كثرت زراعة الأشجار الحرجية حول القاهرة ، والضواحي كناي وطنان وفي عمل القليوبية(٥) ، وكانت معظم الغابات بالوجه القبلي في عمل الفيوم وسفط رشين ومنبال وسطال من البهنساوية ، وفي الأشمونين ، وأسيوط ، وإخميم ، والمنطقة الممتدة ما بين قوص وقفط (٦) ، إضافة إلى زراعة الأشجار الحرجية حول معظم المزارع ، لحمايتها من الرمال والرياح (٧) .

وتشكل المراعي الطبيعية نسبة ضئيلة من الأراضي في مصر،وتتركز في المناطق التي لا تصل إليها مياه الفيضان، وتسقط عليها كميات قليلة من الأمطار ، لتنبت أنواعا مختلفة من الأعشاب كالنيف ، الذي يستعمل مراعي للأبقار(٨)، وكثرت المراعي في وادي هبيب من البحيرة (٩) ، وبعض قرى الفيوم وأعمال الوجه القبلي (١٠) ، واعتادت العربان انتجاعها مجانا ، إلا أن السلطنة فرضت عليها ضريبة معينة ، وهذا ما أدى إلى ثورة العربان في بعض السنوات(١١) .

ويولي الفلاحون والسلاطين والأمراء زراعة القرط أهمية كبيرة ، إذ يعد من أفضل المحاصيل العلفية ، وتنتشر زراعته في جميع أنحاء الديار المصرية ، باستثناء المنطقة الممتدة إلى الجنوب من قوص (١٢) ، وغالبا ما يباع علفا

١- Fra Nicolo , Avoyage , P 91 .

٢- الكندي ، فضائل ، ٦٩/ البغدادي ، الإفادة ، ص ٩٠-٩١ / النويري ، نهاية ، ج١ ، ص ٣٥٥ / المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٨٨ / السيوطي ، حسن ، ج٢ ، ص ١٩٣ ، ١٩٥ / الحسن بن محمد الصفدي ، كتاب بذكر تاريخ مصر وفضلها ، ص ٧ أ .

٣- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٧ / النابلسي ، لمع القوانين ، ص ٣١ ب .

٤- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٠١ .

٥- النابلسي ، لمع القوانين ، ص ٣١ ب .

٦- البكري ، المسالك والممالك ، ج٢ ، ص٦١٨-٦١٩ / ابن مماتي ، قوانين ، ص ٣٤٤ / علي مبارك ، الخطط ، ج١٠ ، ص٢-٣ .

٧- علي مبارك ، الخطط ، ج١٠ ، ص ٣ .

٨- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٢٧٦ .

٩- مجهول ، وصف مصر ، ص ١٢٣ أ .

١٠- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٢٧ .

١١- الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ٣١٣ .

١٢- عبد الرحيم عبد الرحيم ، الريف المصري ، ص ٢٠٤ .

أخضر في شهر كانون الثاني بعد أربعين يوما أو خمسين يوما من زراعته (١) . أما السلاطين فيزرعون مساحات واسعة وخاصة في منطقة الجيزة ، لتربيع خيولهم وخيول الأمراء والمماليك السلطانية (٢) ، وقد أكلت خيول السلطنة في سنة ٦٦٢ هـ/١٢٦٣م بقيمة خمسين ألف دينار (٣) . كما يوزع السلطان في كل سنة الإطلاقات على الأمراء ، وفقا لرتبهم العسكرية ، وبقي هذا التوزيع ثابتا حتى سنة ٩١٨هـ/١٥١٢م ، عندما خفض السلطان قانصوة الغوري مئتي فدان من حصة الأتابك ، ومئة من كل أمير مئة ، وعشرين من كل أمير طبلخاناه ، وخمسة عشر من كل أمير عشرة (٤) ، وأما الأمراء فيفردون جزءًا من إقطاعاتهم لزراعتها بالقرط ، وتربيع خيولهم وخيول مماليكهم (٥) .

نباتات الزينة :-

تتنوع أصناف الورود في مصر ، وتتصل مواعيد إزهارها طوال العام (٦) ، وتزرع في المفترجات (الحدائق العامة) المنتشرة حول القاهرة والجيزة ، وعلى طول خليج الذكر ، لتشكل مراكز جذب للسكان في أثناء الأعياد والاحتفالات العامة (٧) ، ويستهلك معظم الإنتاج في القاهرة على شكل باقات ، وقد بلغ متوسط سعر باقة البنفسج نصف درهم (٨) ، وبيع في سنة ٨٢٤ هـ/١٤٢١م كل خمس عشرة ألف وردة بدينار ، وكل ألف وردة بعشرين درهما (٩) ، أما القسم الآخر من الإنتاج فيذهب لصناعة ماء الورد ، واشتهرت الفيوم بإنتاج أكبر كمية منه (١٠) .

ويحتل البنفسج بأصنافه : البستاني العريض ، والجبلي الدقيق الورد ، والأزرق ، والمائل للحمرة ، والأبيض اللازوردي المضاعف ، والعراقي والأرجاني (١١) ، والكوفي الأبيض بلون الشمع المرتبة الأولى بين أصناف نباتات الزينة بمصر (١٢) ، وتزرع جميعها في الظلال ، تحت الأشجار أو بجانب الحوائط (١٣) .

١- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق١ ، ص ٢١٣ ، ٢٢٤ ؛ ج٤ ، ق١ ، ص ٣٤٥ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٢٠٥ .

٢- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٢٣ / ابن ظهير الحنفي ، روضة الأريب ، ص ١٠٨٦ .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٠٦ / David Ayalon , The System , (JESHO) , P 269 - 270 .

٤- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٢٨٣ .

٥- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٦ ، ص ٣٤٦ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٣٨٩ ب .

٦- الخياري ، تحفة ، ص ١٤٨ .

٧- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٤٨١ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ٥٣-٦٣ .

٨- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٧٢-٣٧٣ .

٩- ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص٤١٤ / ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص ٦٧ .

١٠- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص٢٦ .

١١- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٥٦ .

١٢- مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ٥٥١ .

١٣- ابن بصال ، كتاب الفلاحة ، ص ١٦٦ .

ويكثر النيلوفر الأبيض في مصر ، ويصنف إلى الجزيري والعربي ، وينبت على سطح المستنقعات في أثناء زيادة النيل ، ويعرف بالجلجان والبشنين ، وله رأس منبسط ، يتفتح عند شروق الشمس ، وينقبض ويغوص برأسه في الماء عند الغروب ، ويأكله أهل مصر نيئا أو مطبوخا مع اللحم ، ويشبه طعمه صفار البيض ، وقد يجففونه ويأخذون بزره ليعمل منه خبز (١) .

ومن نباتات الزينة الأخرى النيل واللبلاب ، ويتعلق بكل ما قاربه ، وقد ينصب له القصب ويربط بالحبال ليتسلق عليها (٢) ، والياسمين الأبيض والأصفر الذي يتخذ منه دهن الزنبق وخاصة في دمياط (٣) ، والسوسن(٤) والنرجس ويعرف بالعبهر ، ومنه الخفيف والمضاعف (٥) ، والريحان (الحبق) ومن أنواعه الحماحمي والصنوبري والصعتري وله زهر أخضر ، والقرنفلي والمشرقي والترنجاني ورائحته كالأترج ، والسروي والرومي والصقلي(٦) ، وتكثر زراعتها في قوص (٧) . والمنثور وتكثر زراعته في الإسكندرية (٨) ، والنسرين وهو أعظمها رائحة وماء (٩) ، والورد الجوري والنصيبي والبان والمرسين (١٠) .

الثروة الحيوانية :-

دفعت الحاجة الماسة للحيوانات في بعض الأعمال إلى اهتمام جميع الفئات السكانية بالعناية بتربيتها ، فتستخدمها الفئة الحاكمة في الأعمال الحربية وتموين الجيوش وسكان المدن وسيلة للتنقل ونقل البضائع وإدارة الطواحين والدواليب ، ويستخدمها الفلاحون في معظم الأعمال الزراعية ، كالحراثة والدراس ، وحفر الخلجان ، وإقامة الجسور، وإدارة آلات الري ،وتوفير بعض حاجاتهم من الألبان والأجبان ، وتصدير الفائض إلى المناطق الحضرية .

وقد أنشأت السلطنة مجموعة من الإصطبلات، تركز القسم الأعظم منها إلى الشمال من مدينة القاهرة ، في بقعة بلغت أطوالها ٣٥٠,٥ م من الشرق إلى الغرب ، و ٤٠٠ م من الشمال إلى الجنوب (١١) ، وفي الجيزة

١- مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ٢٥٣-٢٥٤/ النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٥٨-١٥٩ .

٢- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٦٥-١٦٦ .

٣- البغدادي ، الإفادة ، ص٩٣ .

٤- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٥٧ .

٥- ابن بصال ، كتاب الفلاحة ، ص ١٦٧ / النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٥٧ .

٦- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١٥٤ .

٧-الإدفوي ، الطالع ، ص ٢٧ .

٨- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٣٤٤ .

٩- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٢٦ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ٤٠ .

١٠- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٧٢ / ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أيمن سيد ، ص ١٦ / ابن إياس ، نشق ، ص ٢٢ أ .

١١- Popper , Egypt , 1 , P 19 .

وأوسيم (١) ، وسرياقوس للشمال من القاهرة أيضا (٢) . وتنقسم الإصطبلات السلطانية إلى إصطبل للخاص ، وفيه مراكب الخاص الشريف ، وإصطبل الحجور الشريفة ، لانتخاب الخيول للعب الأكرة ، وإصطبل الجوق ، وفيه خيول الخرج للمماليك الكتابية ، وإصطبل البيمارستان ، برسم الخيول الضعيفة والمصابة ، وإصطبل لخيول البريد ، وإصطبل للبغال ، والمناخ وفيه الجمال البخاتي وجمال النفر ، وإصطبل للهجن والنياق ، وإصطبل للفيل والزراف (٣) . وبلغ عليق دواب الإصطبلات السلطانية زمن السلطان برقوق ١٠,٠٠٠ إردب في كل شهر (٤) .

وتخضع الإصطبلات السلطانية لإشراف أمير آخور ، ورتبته أمير مئة ومقدم ألف ، وهو مسؤول عن إصطبلات الخيول ومناخات الجمال والدواب السلطانية وعليقها ، وعدتها ، وأرزاق المستخدمين بها ، وما لها من الاستعمالات والإطلاقات ، وكل ما يبتاع منها أو لها (٥) ، وتبلغ ميزانيتها السنوية من الضياع الموقوفة لها ٣٠٠,٠٠٠ دينار ، عدا ما كان موقوفا لخيل الجهاد والرباط (٦) .

ويفسر ارتفاع أعداد الخيل لدى الأمراء والسلاطين ، اهتمام الفئة العسكرية الحاكمة الشديد بتربية الخيول ، حتى أحدث السلطان الناصر محمد بن قلاوون ديوانا خاصا ، يعنى بتسجيل كل ما يتعلق بخيول إصطبلاته ، منذ ولادتها أو ورودها وحتى وفاتها أو إصابتها (٧) ، فبلغ عدد ما تركه بعد وفاته ٣,٠٠٠ فرس (٨) ، في حين ترك برقوق ٧,٠٠٠ فرس (٩) .

وتعد الخيول الخاصة من أغلاها ثمنا ، فقد بلغ ثمن أحدها في سنة ٨٢٣ هـ/١٤٢٠م ٢,٥٠٠ دينار (٥٢٥,٠٠٠ درهم) (١٠) ، وامتلك الأمراء عددا كبيرا من الخيول ، فكان للأمير سلار (ت٧١٠هـ/١٣١٠م) ثلاثمئة فرس (١١) ، وأخذ منطاش من الصاحب (الوزير) ابن الغنام في سنة ٧٩١ هـ/١٤٨٦م خمسين فرسا (١٢)، وكان عند آقبغا شاد الدواوين سبعون فرسا (١٣) ، ولدى نائب صفد الأمير شهاب الدين (ت٨٠٠هـ/١٣٩٧م) مئتا فرس (١٤)، وذبح الأمير فخر الدين الإستادار في عرسه سنة ٨٢١هـ / ١٤١٨م ثمانيا وعشرين فرسا (١٥) ، وكان

١- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ١٢٠ ، ١٩٣ .

٢- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٥٦٠ .

٣- ابن شاهين ، زبدة ، ص ١٢٥ / الصوفي ، الصفوة ، ص ٥٧ ب -٥٨ أ .

٤- الإسحاقي ، لطائف ، ص ١٣٣ .

٥- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أيمن سيد ، ص ٦٢ / القلقشندي ، صبح ، ج٤ ، ص ٣٢ .

٦- ابن ظهيرة ، الفضائل ، ص ١٣٢-١٣٣ .

٧- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٥٢٧ .

٨- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٥٢٩ -٥٣٠ .

٩- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٩٣٨ /ابن تغري بردي ، مورد اللطافة ، ص ٨٢ أ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص١٧٧أ / الإسحاقي ، لطائف ، ص ١٣٣ / مجهول ، كتاب في التاريخ ، ص١١٤ ب .

١٠- الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص ٤٧٩ .

١١- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص ٩٨ .

١٢- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد٩ ، ق ١ ، ص ١٦١ .

١٣- نفس المصدر ، مجلد٩ ، ق ٢ ، ص ٢٦١ .

١٤- العيني ، عقد ، ص ١٦ أ .

١٥- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٣٤ .

لناظر الجيش الزيني عبدالباسط في سنة ٨٤٢ هـ/١٤٣٨م أربع وأربعون فرسا ، ولمماليكه ست وعشرون فرسا (١) .

تصنف الخيول العربيــة بالمرتبـة الأولى بين خيـول مصـر (٢) ، وشـغف السـلطان النـاصر محمـد بـن قـلاوون باستيرادها من بلاد الحجاز والبحرين وبلاد الشام ، وقدم لجلابتها كثيرا من الإمتيازات ، بدفع أضعاف أثمانها ، ومنحهـم الإقطاعات ، وتوفير الإقامة المجانية لهم ، وإعفائهم من الضرائب التجارية في أثناء قدومهم وعودتهم (٣) ، وتميزت كذلك الخيول البرقية ـ نسبة إلى برقة ـ (٤) ، حتى إن السلطان برقوق كان يفضلها على الخيول العربية ، وأكثر شـراءها (٥) . كما جلبت الخيول من بلاد المغرب (٦) ، فأرسل السلطان برقوق في سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م أمير آخـور ، فعـاد بعـد أن اشترى مئة وعشرين فرسا (٧) ، وأرسل السلطان برسباي أمير آخور في سنة ٨٣٧ هـ/١٤٣٣م إلى تونس، فاشترى عددا من الخيول الجياد (٨) ، وهجنت الخيول الصعيدية مع البرقية (٩) .

وتوزع الخيول السلطانية على الأمراء والمماليك مرتين في كل عام : الاولى عند اكتمال تربيعها (١٠) ، فيمنح السلطان أمراء المئة والمماليك السلطانية خيولا مسرجة وملجمة ، وأمـراء الطبلخانـات خيـولا عاريـة . ويكـون التوزيـع للمرة الثانية عند اللعب بالكرة فيحصلون على خيول عارية ، وقد يبلغ نصيب بعض الأمراء المقربين مئة فرس ، ثم يعوض كل من مات له فرس من المماليك السلطانية في أثناء السنة ، في حين يخضع منح الأمراء العشرات ومقدمي الحلقـه لرغبـة السلطان (١١) ، وبلغ عدد ما فرقه السلطان برقـوق في سـنة ٧٩٦هــ/١٣٩٣م ٢,٥٠٠ فـرس (١٢) ، ويمنـح السـلطان الأمراء الخيول أحيانا على سبيل الإنعام ، فقد منح السلطان برقوق الأمير يلبغا الناصري سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م مئة فـرس، بعد أن رضي عنه وأحضره من دمياط (١٣) .

١- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٣ ، ص ١١٤٦ / الصيرفي ، إنباء ، ص ٥١١ ، نزهة ، ص ٨٦ ب .

٢- ابن ظهيرة ، نزهة ، ص ٢٦ أ / الحسن بن محمد الصفدي ،كتاب يذكر تاريخ مصروفضلها ، ص ٤ ب .

٣- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أيمن سيد ، ص ٧٤ / المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٢٢٥ .

٤- بيبرس المنصوري ، مختار ، ص ٥٠ / ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٤١٥ / ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أيمن سيد ، ص ١٠١ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٤٤٨ .

٥- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٢٢٥ .

٦- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أيمن سيد ، ص ٧٤ .

٧- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٨٩٩ / العيني ، عقد ، ص ١٢ أ .

٨- ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٣٠٧ .

٩- ابن الأخوة ، معالم ، ص ٩٣ .

١٠- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ق٢ ، ص ٦١ ؛ / المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٨٧٦ .

١١- ابن فضـل الله العمـري ، مسـالك ، أيمن سـيد ، ص ٢٩-٣١ / القلقشـندي ، صبـح ، ج٤ ، ص ٥٦ / المقريـزي ، خطـط ، ج٢ ، ص٢١٦ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٥١٢ .

١٢- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٨١٢ .

١٣- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٥٦٧ / ابن قـاضي شـهبة ، تـاريخ ، ج٣، ص ٢٢٢ / ابـن تغري بـردي ، النجـوم ، ج١١ ، ص٢٠٦ / الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص ١٥١ ، ١٥٨ .

تصنف الإبل إلى ثلاثة أنـواع : الهجـن لـلركوب ، والبخـاتي ولهـا سنامان لـلركوب والأحمـال ، والرواحـل للركوب ، إذ تقطع نحو تسعين ميلا في اليوم (١). وتستخدم الجمال بالقاهره لنقل المياه من نهر النيل وتعبئة الصهـاريج ، فلذلك برزت فئة احتماعية مميزة عرفت بالسقائين . ويستأجر الفلاحون الإبـل مـن البـدو لنقـل منتوجـاتهم الزراعيـة إلى المدن (٢) . وأكثر السلاطين إقتناء الإبل ، فبلغ عدد ما تركـه السـلطان النـاصر محمـد بـن قـلاوون ٥,٠٠٠ مـن الهجـن والنياق الأصائل (٣) ، وعدد ما امتلكه السلطان برقـوق ومماليكـه مـن الخيـل والجمـال ١٠٠,٠٠٠ في سنة ٧٩٦ هـ / ١٣٩٣م ، وترك وراءه ٥,٠٠٠ جمل بخاتي (٥) ، وامتلك الأمير آقبغا آص شاد الدواويـن السـلطانية في سـنة ٧٩٣هـ / ١٣٩٠م أربعين جملا (٦) ، والأمير شهاب الدين نائب صفد مئة وثمانين هجنا وثمانية وسـبعين جمـلا (٧) ، ووجـد عنـد الزيني عبد الباسط عند مصادرته في سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م مئة هجن ، وعدد كبير من الجمـال(٨). ويسـتخدم السـلاطين الجمال لحمل الأثقال والمؤن في أثناء الحملات العسكرية للتحرك نحو بلاد الشام ، فوزع السلطان برقوق على كل مملـوك من أصحاب الجوامك جملين ، ولكل مملوك من أصحاب الأخباز ثلاثة جمال ، عند توجهه لقتال يلبغـا السـالمي في سـنة ٧٩١ هـ / ١٣٨٨م (٩) ، ووزع على المماليك السلطانية في سنة ٧٩٦ هـ/١٣٩٣م ١٤,٠٠٠ جمل (١٠) ، واصطحب السلطان فرج بن برقوق عند مسيره لبلاد الشام في سنة ٨٠٢ هـ / ١٣٩٩م ٧٥٦٥ جملا لحمل أثقاله ، سوى ما وزعـه على المماليك السلطانية (١١) .

وتحتل تربية الأغنام أهمية كبيرة لدى الفلاحين ، وتميزت بلاد الصعيـد بضخامـة إنتاجهـا ، حتـى بـالغ بعـض المؤرخين وقالوا : إن أغنامها تلد في السنة ثلاث مرات ، في كل مرة ثلاثة رؤوس (١٢) ، في حـين تنتـج كـل مئـة منهـا مثلها ، وكل مئة ثنية ـ التي عمرها سنتان ـ تنتج خمسين رأسا (١٣) . واشتهر من مراكز تربية الأغنام أسوان التي تميزت أغنامها بطيب اللحـوم (١٤) ، وإدفو (١٥) وقوص (١٦) ، والفيـوم التـي تنعـدم فيهـا الأغنـام السمينـة ، ولـذلـك

١- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٦٣٦ .

٢- السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ١٠٠١ .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٥٣٠ .

٤- نفس المصدر ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٨١٢ .

٥- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٩٣٨ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٢ ، ص ٨٥ ، مورد اللطافة ، ص ٨٢ أ / الإسحاقي ، لطائف ، ص ١٣٣ / مجهول ، كتاب في التاريخ ، ص ١١٤ ب .

٦- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ق٢ ، ص ٢٦١ .

٧- العيني ، عقد ، ص ١٦ أ .

٨- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٣ ، ص ١١٥٥ .

٩- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٥٩٤-٥٩٥ / الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٨٨ .

١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٨١٢ .

١١- نفس المصدر ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١٠٠١ .

١٢- الإدفوي ، الطالع ، ص ٢٨ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٣٤٥ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٩٠ .

١٣- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٣٥١-٣٥٢ .

١٤- الإدريسي ، نزهة ، ج١ ، ص ٣٩-٤٠ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٩٧ / الحميري ، الروض ، ص ٥٧ .

١٥- الإدفوي ، الطالع ، ص ٣٦ .

١٦- الإدريسي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٢٨ .

فإن لحمها غير لذيذ وكثير العروق (١) . وتميزت الكباش البشمورية نسبة إلى ناحية البشمور بالدقهلية والمرتاحية ، بكبر إليتها وسمنتها وطيب طعمها ، حتى بلغ سعر كل كبش سبعة دنانير أشرفية (٢) ، وعرفت القليوبية بكثرة أغنامها فكانت تمير مصر بمعظم حاجاتها من الألبان والقشطة (٣) .

وأصبحت الأغنام جزءاً مهما من ثروات السلاطين والأمراء منذ زمن الناصر محمد بن قلاوون الذي أنشأ لها مجموعة من الحظائر ، واعتاد في زمن التربيع توجيه الأمراء إلى بلاد الصعيد والوجه البحري ، لاختيار أفضل الأغنام وإدخالها إلى حظائره ، حتى بلغ عدد ما تركه ٣٠,٠٠٠ رأس (٤) . وامتلك السلطان شعبان سنة ٧٤٦هـ/ ١٩,٠٠٠ رأس (٥) ، والسلطان شهاب الدين أحمد بن الناصر ٤,٠٠٠ رأس (٦) ، وترك الوزير أرنان في الحظائر السلطانية عند وفاته سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م ٦٣,٠٠٠ رأس (٧) .

وسار الأمراء على نهج السلاطين وامتلكوا قطعان الماشية بالوجهين القبلي والبحري (٨) ، فبلغ ما امتلكه الأمير آقبغا في سنة ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م ٥,٠٠٠ رأس (٩) ، وراتب سماط الأمير بشتاك ٥٠ رأسا في كل يوم (١٠) ، واعتاد الأمير قوصون تفريق ١,٠٠٠ رأس في كل عيد (١١) ، وقدم ناظر الخاص في سنة ٨٢٠هـ / ١٤١٧م ٢,٠٠٠ رأس ، وخصص الأميرفخر الدين ١٠,٠٠٠ رأس أضاحي عيد (١٢) ، وبلغ وزن لحم الأغنام التي ذبحها الأمير فخر الدين في عرسه سنة ٨٢١ هـ/١٤١٨م ١٠,٠٠٠ رطل (١٣) ، وفرق السلطان قايتباي في سنة ٨٧٥هـ/١٤٧٠م عددا كبيرا من الأضاحي ، حتى نالت الغني والفقير (١٤) .

وتستخدم الأبقار في الأعمال الزراعية المختلفة ، وجر آلات الحصار عند مسير الجيوش ، وللألبان ، ومن أشهرها الأبقار الخيسية، نسبة إلى ناحية خيس من الأعمال الشرقية (١٥) ، والتي تربى للحليب فقط ، بسبب

١- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٨ .
٢- ابن إياس ، نشق ، ص ٦٣ ب .
٣- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ٤٨ .
٤- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٥٣١ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٩ ، ص ١٣١-١٣٢ .
٥- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٦٨٢ .
٦- نفس المصدر ، ص ٦٨٢ .
٧- الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٦٨ .
٨- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٥٣٢ .
٩- نفس المصدر ، ص ٤٦٦ .
١٠- نفس المصدر ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٦١٤ .
١١- نفس المصدر ، ص ٦١٥ .
١٢- نفس المصدر ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٢٧ .
١٣- نفس المصدر ، ج٤ ، ق١ ، ص٤٣٤ .
١٤- الصيرفي ، إنباء ، ص ٢٩١ .
١٥- ياقوت ، معجم ، ج٢ ، ص ٤١١-٤١٢ .

كثرة إنتاجها (١) ، كما اشتهرت عنقيش من الواحات بجودة ألبان بقرها (٢) ، ويذكر أن ملكية رجل بلغت في سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م ١٠٢١ بقرة (٣) . وظهر اهتمام واضح بتربية الجواميس ، فبلغت تركة الحاج علي بن محمد النوساني (ت٧٩٩هـ / ١٣٩٦م) ، مدرس سندفا بالغربية ١,٠٠٠ جاموسة (٤) ، واشتهرت دمياط بالألبان الجاموسية ، التي لا مثيل لها في طيب المذاق (٥) .

أما الحمير فمن أشهرها المريسية ، نسبة إلى ناحية مريسة من القوصية ، وتتميز بسرعتها وارتفاعها ، وتصدر معظمها إلى مدينة القاهره ، لارتفاع أسعارها ، إذ قد تصل إلى أسعار الخيول المتوسطة ، ولأنها المركوب الأساسي لرؤساء اليهود والنصارى (٦). وتعد البغال مركوب العلماء والقضاة والوزراء وسائر رؤساء المتعممين (٧) .

يلاحظ مما سبق اهتمام الأعيان من الأمراء والسلاطين وأصحاب الثروة بتربية المواشي والحيوانات المختلفة ، وأن الفلاحين قد اقتصر إهتمامهم على تربية حيوانات العمل كالأبقار والحمير ، وعدد قليل من الأغنام لتوفير بعض الحاجات المنزلية من الألبان والأجبان . في حين كانت الإصطبلات والحظائر السلطانية أكبر منتج للثروة الحيوانية ثم الأمراء ، وليس أدل على ذلك من بلوغ ثروة الوزير ابن سبع في سنة ٧٩٢هـ /١٣٨٩م ٨٠,٠٠٠ رأس من الخيل والأغنام والأبقار والجواميس والجمال (٨) ، وشيوع استثمار الأموال في تسمين الأغنام بالنخالة والحبوب (٩) .

وقد استغلت السلطنة إخماد حركات العربان وسيلة لنهب حيوانات الفلاحين ومواشيهم ، فأصدر السلطان صالح بن محمد بن قلاوون في سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م مرسوما بالاستيلاء على خيول الفلاحين والبدو ، وألا يترك إلا فرس واحدة لكل متدرك ، فنهب الولاة البلاد ، وأرسلوا للسلطان ١,٣٠٠ فرس و ١,٥٠٠ جمل و ٧٠٠ حمار ، وعددا كبيرا من الأغنام (١٠) . وأرسل الأمراء المجردون لقمع العربان في سنة ٧٩٧ هـ / ١٣٩٤م ثمانين فرسا (١١) ،

١- الكندي ، فضائل ، ص ٦٩ / البغدادي ، الإفادة ، ص ٩٩ .

٢- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ١٢ .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص ٩١٣ .

٤- الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص ٤٥٥ .

٥- ابن بطوطة ، رحلة ، ج١ ، ص ٤٩ .

٦- البغدادي ، الإفادة ، ص٩٩/ ياقوت ، معجم ، ج٥ ، ص ١١٨/ ابن الوردي ، خريدة ، ص ٢٤١/ القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص٣٨٠ ، ج٤ ، ص٤٤/ المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٠٣/ ابن إياس ، نشق ، ص ٤٩ب -٥٠أ / الحنفي ، تاريخ مصر ، ص٦٥ب .

٧- القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٣٤ .

٨- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد٩ ، ق١ ، ص ٢٠٧ / المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٧١٢ .

٩- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٦٤٣ .

١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٩١٣-٩١٤ .

١١- ابن حجر ، إنباء ، ج٣ ، ص ٢٥١ .

واستولى في سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥م على ٣,٠٠٠ جمل من عرب لبيد و ١٠٠,٠٠٠ رأس من غنم أهالي البحيرة (١) ، وأوقع الأمير سودون في سنة ٨٢١ هـ/١٤١٨م بعرب فزارة ونهب منهم ١٠٥٠ جملا ، وعندما وصل من نجا منهم إلى البحيرة ، حاربهم نائبها ونهب منهم ٤٠٠ جمل و ٢٠ فرسا (٢) ، واستولى في سنة ٨٣٨ هـ / ١٤٣٤م على ٦٠٠ جمل من عرب محارب بالأشمونين (٣) ، وأرسل الأمير برقوق في سنة ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م ، ٢٢٠ فرسا في أثناء إخماده حركات العربان بالشرقية (٤) .

وفرضت السلطنة على الأمراء تقديم التقادم للسلطان عند مروره بإقطاع أحدهم ، وعلى مشايخ العربان لتزويد مراكز البريد بالخيول ، ولكن هذه التقادم استقرت في الفترة المملوكية الثانية بوصفها ضريبة سنوية ، وأصبحت تشكل موردا للإصطبلات السلطانية . ويعتمد حجم التقدمة على الأمير ومكانته ، فكان من جملة تقدمة نائب الإسكندرية في سنة ٧٩٧ هـ/١٣٩٤ م مئة فرس (٥)، وتقدمة نائب الوجه القبلي مئة وستون فرسا ، ومئة وخمسون جملا ، وعشر نعامات ، وعدد كبير من الأبقار، وأميري هوارة مئة وخمسون فرسا (٦) ، والإستادار فخر الدين في سنة ٨٢١ هـ/١٤١٨م ألف كبش ومئة وخمسون بقرة (٧) ، وقدم ابن ناظر الجيش الزيني عبد الباسط في سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧١م خمسا وثلاثين فرسا ، وعشر بغال (٨) ، وبلغت تقدمة الدوادار عندما قدم من بلاد الصعيد في سنة ٩١٥ هـ / ١٥٠٩م مئة فرس ومئة بقرة وخمسمئة رأس من الغنم (٩) .

وعند احتياج السلطنة للحيوانات في أثناء الحملات العسكرية أو لمراكز البريد أو إصابتها بالأوبئة وموت قسم كبير منها ، تلجأ السلطنة إلى فرض ضرائب عينية على الأمراء والمماليك ، أو مصادرة حيوانات الناس وإدخالها للإصطبلات السلطانية . ففرض السلطان برقوق في سنة ٧٩٢ هـ/١٣٨٩ م على مباشري السلطنة وديوان الخاص ومباشري الأمراء إحضار البغال وفقا لأوضاعهم الإقتصادية (١٠) ، وفي سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٤م ألزم كل أمير عشرة أكاديش ، والإستادار والوزير وبقية أرباب الوظائف وأمراء الطبلخانات بإكديشين ، وأمراء العشرينات والعشرات بإكديش ، لتزويد مراكز البريد (١١) . ورسم الأتابكي في سنة ٧٩٨ هـ/١٣٩٥م أن يؤخذ من الدواوين خمسمئة رأس من الخيل (١٢) ، وأمر تمراز في سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠ م بعرض أجناد الحلقة وتحصيل ألف

١- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٢٦ .
٢- نفس المصدر ، ص ٤٤٣ .
٣- الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ٣١٤ .
٤- الصيرفي ، إنباء ، ص ١١٩ ، ١٢٥/ القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢١٦ أ .
٥- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٨٣٢ / الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص ٤٠٤ .
٦- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٨٣٠ .
٧- نفس المصدر ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٢٧ .
٨- الصيرفي ، إنباء ، ص ٣٣٥ .
٩- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ١٦٠ .
١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٨٠٢ .
١١- نفس المصدر ، ص ٨٣٣ .
١٢- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد٩ ، ق١ ، ص ١٦٥ .

فرس وألف جمل منهم (١) . و صادرت السلطنة في سنة ٧٩٢هـ/١٣٨٩م خيول الناس والأمراء ، وخيول أهل البحيرة والغربية والشرقية وعربانها (٢) ، كما صادرت خيول المتعممين في سنة ٧٩٣هـ/١٣٩٠م (٣) ، وصادرت شيخ عرب البحيرة عند أسره في سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م ، فكان مما صودر ثلاثون ألف رأس من الغنم (٤) ، وقام الأميران نوروز وشيخ في سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م بمصادرة ألف رأس من الخيل من سكان القاهره (٥) ، وأمر السلطان برسباي في سنة ٨٢٦هـ / ١٤٢٢م بمصادرة خيول الوجه البحري (٦) ، وازدادت المصادرات في سنة ٨٣٢ هـ/١٤٢٨م ، خاصة بعد موت ألفي رأس من خيول السلطان والمماليك (٧) .

وتستنزف السلطنة معظم ثروتها الحيوانية بتموين الجيوش ، فبلغ عدد ما اصطحبه السلطان برقوق عند مسيره لقتال تيمور لنك في سنة ٧٩١ هـ/١٣٨٨ م مئة ألف رأس من الغنم (٨) ، واستخدم السلطان فرج بن برقوق في سنة ٨٠٢ هـ/١٣٩٩م ٧٥٦٥ جملا لحمل أثقاله فقط (٩) ، وفي سنة ٨١٠هـ/ ١٤٠٧م عشرة آلاف رأس من الضأن عند مسيره لبلاد الشام (١٠) ، ووزع على الأمراء في سنة ٨١٤هـ/١٤١١م ثلاثمئة من الخيل الجنائب ، وثلاثة آلاف فرس ، إضافة إلى اصطحابه لثلاثين ألف رأس من الغنم والبقر والجواميس وثلاثة وعشرين ألف جمل ، عند مسيره لقتال الأميرين شيخ ونوروز (١١) . وفرق السلطان قايتباي في سنة ٨٧٣ هـ/١٤٦٨م لكل مملوك جمل ، عند مسيرهم لقتال التركمان (١٢) .

وقد ينفق السلاطين جزءًا من هذه الثروة في أعمال البر ، فكان نصيب كل زاوية زمن السلطان برقوق مايقرب من خمسين رطلا من اللحم في كل يوم (١٣) ، ويذبح للتصدق على الفقراء في كل يوم من شهر رمضان خمسا وعشرين بقرة (١٤) ، كما استمر السلاطين بصرف اللحوم للأيتام (١٥) .

١- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق ٢ ، ص ١٠٣٧ .

٢- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ج٢ ، ص ٢٤٦ .

٣- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ج٢ ، ص ٢٤٦ .

٤- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٥ .

٥- الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص ٢٦٩ .

٦- المقريز ي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٣٣ .

٧- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٩٦-٧٩٧ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ١٥٠-١٥١ .

٨- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ١٦٤ ب .

٩- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٥٧٠ .

١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٥٤ . ٢

١١- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص١٩٧-١٩٨/ ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص١٨-١٩/ السخاوي ، وجيز ، ج١ ، ص ٤١٣ .

١٢- الصيرفي ، إنباء ، ص ٥٤ .

١٣- ابن تغري بردي ، مورد اللطافة ، ص ٨٣ أ .

١٤- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٩٤٤ .

١٥- الصيرفي ، إنباء ، ص ٢٨ .

وتدخل اللحوم في جامكيات المماليك والموظفين،وتراوحت حصة الفرد ما بين ٢-٢٠ زبدية (١) ،وقدر ثمنها في بداية القرن ٩هـ/١٥م ما بين ٣٠-٥٠ ألف درهم (٢) ، أي ما يعادل ١٢,٠٠٠ رطل في كل يوم (٣) .

ولكن مصر عانت من نقص اللحوم في القرن ٩هـ / ١٥م ، نتيجة لمجموعة من العوامل المؤقتة كالاحتكار(٤) ، ونقص إنتاج الأعلاف كالشعير والفول والبرسيم (٥) ، وعدم زيادة النيل الكافية ، وانخفاض مساحة المراعي (٦) ، وتعرض الحيوانات للأوبئة والطواعين وفناء أعداد كبيرة (٧) . وعانى ديوان الوزارة منذ بداية هذا القرن من نقص اللحوم ، وحاول بعض الوزراء التغلب على ذلك بمنع زيادة أسعارها ، واقتناء الكثير من الأغنام ، وشراء الأغنام من الجلابة بالثمن الذي يفرضونه (٨) . وعندما ازداد الأمر سوءاً اضطر كثير من الوزراء للتخلي عن مناصبهم، أو رفض تسلم المنصب ، بسبب ما يلحق الوزير من الإهانة ، عند عجزه عن صرف اللحم للمماليك (٩) ، حتى أصبح نقص اللحوم في آخر خمسة عقود مشكلة مزمنة . واضطر السلطان قايتباي في سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م والسلطان قانصوه الغوري في سنة ٩٠٧هـ/١٥٠١م إلى قطع اللحوم المقررة للفقهاء والمتعممين وأولاد الناس والنساء والخوندات ، وعدم صرفها لغير المماليك (١٠) ، حتى بلغ ثمن اللحم المكسور زمن السلطان قانصوه الغوري ٤٠,٠٠٠دينار (١١) ، وانكسر على الوزارة لحوم ٤-٦ أشهر (١٢) .

تميزت مصر بوفرة إنتاجها من الدجاج والإوز ، واعتمد الفلاحون على التفريخ الصناعي لإنتاج الدجاج ، إذ يقومون بحضانة البيض بوساطة معامل الفروج المنتشرة في جميع أنحاء مصر ، وخاصة منطقتي التحريرية والأعمال الغربية(١٣) ، ويتكون المعمل من ١٠-٢٠ بيتا تعرف ببيوت الترقيد ، سعة كل بيت منها ٢,٠٠٠ بيضة ، فطوله ثمانية أشبار في عرض ستة وارتفاع أربعة (راجع الشكل رقم ٧) (١٤)، ويوضع الزبل بين البيض وتحته، وأطلق على هذه الفراريج "الفراريج الزبلية" (١٥) ، ويتم في كل فترة إشعال نار خفيفة ، للوصول إلى درجة حرارة معينة ، عرفوها بالخبرة واللمس (١٦).

١- الصيرفي ، إنباء ، ص ٣٨ .

٢- القلقشندي ، صبح ، ج٤ ، ص ١٢-١٣ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٧٦٧ .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٠٩ .

٤- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ١٠٠١/ ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٤١٥-٤١٦ .

٥- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٠٧ ، ٧١١ ، ج٤ ، ق٣ ، ص ١١٧٦ / السخاوي ، التبر ، ص ٢٦١ .

٦- السخاوي ، التبر ، ص ٣١٢-٣١٣ .

٧- المقريزي ، إغاثة ، ص ٤٣ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص٤١٧ / السخاوي ، التبر ، ص ٢٦١ .

٨- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٠٩ ، ٧٣٤ .

٩- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٧٦٧ .

١٠- ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٢٢-٢٣ ، ج٤ ، ص٢٢ .

١١- David Ayalon , The System , (JESHO) , P 260 .

١٢- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٣٥٩ ، ٣٦٨ .

١٣- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٦ .

١٤- البغدادي ، الإفادة ، ص ٩٦ ، ٩٨-٩٩ / ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٥٩٢-٥٩٣ .

١٥- ابن خلدون ، مقدمة ، ص ٩١ / السيوطي ،حسن ، ج٢ ، ص١٩٤ .

١٦- الحنفي ، تاريخ مصر ، ص ٤٧ أ .

ونتيجة لضخامة الإنتاج شاع بيع الدجاج دون وزن ، وإنما بكيل تعارفوا عليه (١) ، إضافة إلى ظهور فئة من باعة الكتاكيت المتجولين داخل مدينة القاهرة (٢) . وكثر الإوز البلدي (٣) ، واشتهر من مراكز إنتاجه المحلة ، التي قد يصل وزن الإوزة فيها إلى أربعين رطلا مصريا (١٨ كغم)(٤) ، والحظائر السلطانية ، إذ بلغ حجم البقل الذي كان يأكله الإوز زمن السلطان الناصر مئة وخمسين درهما في كل يوم (٥) ، وخلف الوزير أرنان في الدواوين سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م ١٠٠,٠٠٠ طائر من الدجاج والإوز (٦) ، وكان ما استهلكه الأمير فخر الدين الإستادار في سنة ٨٢١ هـ/١٤١٨م ٢١,٠٠ دجاجة و ٣,٠٠٠ إوزة (٧).

يتبين مما سبق قدرة مصر على إنتاج كفايتها من الثروتين : الزراعية والحيوانية ، وتحقيق فائض في الإنتاج كانت تصدره أحيانا إلى البلاد المجاورة كالشام والحجاز . ومما يدلل على ذلك ، أن مصر التي شهدت نموا كبيرا في عدد السكان في النصف الأول من القرن ٨هـ /١٤م لم تعان من شبح المجاعات والطواعين التي سادت في الفترة بين ٧٥٠-٩٢٣هـ / ١٣٤٩- ١٥١٧م .

وتشكل بلاد الصعيد مركز الإنتاج الأول ، ولذلك فإن أي خلل في الإنتاج في هذه البقعة ، لا بد وأن يعكس أثره على الاقتصاد المصري ككل ، فنتج عن تمزق أهالي بلاد الصعيد ، وانعدام الأمن ، وازدياد فقر أهلها ، وتراجع مشاريع الري في العقود الثلاثة الأولى من القرن ٩هـ / ١٥م ، استمرار انخفاض الإنتاج الزراعي حتى نهاية السلطنة المملوكية .

وقد نشطت الاحتكارات السلطانية للثروتين الزراعية والحيوانية في القرن ٩هـ /١٥م ، وبخاصة من قبل السلطان برسباي ، إلا أن هذه الاحتكارات فشلت ، لتعارضها مع مصالح الأعيان من الأمراء والتجار وأصحاب الثروة المنخرطين في الإنتاج الزراعي والحيواني . إلا أن الهدف الموحد للفئات المنخرطة في الإنتاج ، وهو تحقيق أكبر قدر ممكن من الأرباح ، ساهم بدور فاعل في أنتشار وتأثير المجاعات على السكان .

وشهد القرن ٩هـ /١٥م تراجعا في الإنتاج الزراعي والحيواني ، ويستدل على ذلك من ارتفاع المعدل العام للأسعار ، وتراجع صناعة الملابس الكتانية والصوفية والحلويات ، وتراجع صناعة السكر ، واحتياج بلاد الصعيد للقمح واستيراده من القاهرة في سنة ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م بعد أن كانت هذه المنطقة المصدر الأساسي للقاهرة . ويبدو أن السبب الرئيسي لذلك يعود إلى الانخفاض الشديد لعدد سكان مصر في القرن٩هـ /١٥م ، مما أدى إلى نقص الأيدي العاملة في المناطق الريفية ، إضافة إلى ضعف السلطة السياسية التي جعلت هدفها الأساسي تحقيق الأرباح السريعة بدلا من تشجيع الإنتاج الزراعي والحيواني ، وتوفير الظروف الملائمة لذلك .

١- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٥٩٢ / الحنفي ، تاريخ مصر ، ص٤٧ أ .
٢- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٥٩٢ .
٣- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ٤٤ .
٤- ابن زولاق ، فضائل ، ص ١٩٨ أ / ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٥٧٧ .
٥- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٥٣١ .
٦- الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٦٨ .
٧- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٣٤ .

الفصل الخامس

الضرائب الزراعية

١- الضرائب الشرعية

أ- الخراج

ب- العشر

ج- الجوالي (الجزية)

٢- المكوس (الضرائب غير الشرعية)

٣- وسائل الجباية

الضرائب الزراعية

تعرض الفلاح المصري إلى مجموعة من الضرائب ، صنفت في إطارها العام إلى الضرائب الشرعية ، التي يحق للسلطان تناولها ، وفقا للكتاب أو السنة أو الإجماع ، وهي الخراج والعشور والجزية . والضرائب غير الشرعية (المكوس)، التي تعد من مظالم ولاة السوء ، ولا تخضع لقانون محدد من حيث كميتها وفرضها ، وإنما لرغبة السلاطين والحاجات المالية المتزايدة للسلطنة .

الخراج

يعرف الخراج بأنه المبلغ المضروب على رقاب الأرض الخراجية من عين أو غلة ، حسب ما يراه السلطان أو نائبه (١) ، أو الأجرة الواجبة على رقاب الأرض ، باعتباره صيغة تعاقدية بين بيت المال والمزارع (٢) . وينقسم في مصر إلى قسمين ، خراج الزراعة (٣) أو المفادنة أو المناجزة أو المشاطرة (٤) أو المقاسمة (٥) ، وهو ما يؤخذ على المحاصيل الزراعية ، ويكون إما عينا أو نقدا ، وبقيمة محددة على الفدان ، ويبتدىء عامه ببداية شهر توت (٢٨آب)، وينتهي في نهاية شهر مسرى (٢٧ آب) (٦) . أما خراج البساتين وما شاكلها مما يروى على السواقي أو خراج الراتب(٧) أو الوظيفة (٨) ، فلا يكون إلا نقدا ، ويقدر على كل فدان من أراضي البساتين المزروعة بالأشجار المثمرة، ويبتدىء عامه ببداية شهر أمشير (٢٥ كانون الثاني)، وينتهي في نهاية شهر طوبه (٢٤ كانون الثاني)(٩) .

استقرت القاعدة الإسلامية بأن الخراج على الأرض لا المالك ، ولذلك فإذا أسلم الذمي أو اشتراها المسلم منه، فإن خراجها لا يسقط (١٠) . ويستوفى الخراج من الأرض سواء أعطلها صاحبها أم زرعها ، ويعطي الفقهاء الحق للإمام باستيفاء الخراج كاملا في حالة عجز صاحبها عن زراعتها ، إما بتأجيرها وأخذ الخراج من الإيجار ،

١- ابن جماعة ، تحرير ، ص ٣٦٧ .

٢- القلقشندي ، صبح ، ج١٣ ، ص ١٢٣ .

٣- المخزومي ، المنهاج ، ص ٧٦ أ .

٤- Rabie , The Financial , P 75 .

٥- العيني ، البناية ، ج٦ ، ص ٦٥٢ / ابن عابدين ، رد المحتار ، ج٦ ، ص ٢٩٤ .

٦- المخزومي ، المنهاج ، ص ٧٦ أ .

٧- المخزومي ، المنهاج ، ص ٧٦ أ / النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٥٣ .

٨- العيني ، البناية ، ج١٠ ، ص ٥٩٠ .

٩- المخزومي ، المنهاج ، ص ٧٦ أ .

١٠- ابن قيم الجوزيه ، أحكام ، ج١ ، ص٩١-٩٣ ، ١١٥ / ابن جماعة ، تحرير ، ص٣٧٦ / العيني ، البناية ، ج٦ ، ص٦٥٧-٦٥٨ / ابن مفلح ، المبدع ، ج٣ ، ص ٣٧٧ / ابن عابدين ، رد المحتار ، ج ٦ ، ص ٣١١ / ابن نجيم ، التحفة ، ص ٣ب / الأقحصاري ، رسالة ، ص١ب .

أو منح الأرض لمن يقوم بها ورفع يد صاحبها عنها ، وأخذ الخراج من حصة المالك الأساسي ، وإذا لم يجد الإمام من يقوم بها ، فله حق بيعها ، وأخذ خراجها من قيمة البيع (١) . ويشير العيني إلى إجماع الفقهاء على حق السلطنة بالتدخل بنوعية المحاصيل المزروعة في الأراضي الخراجية ، وإجبار الفلاحين على زراعة المحاصيل ذات الخراج المرتفع ، فمثلا إذا كانت الأرض تصلح لزراعة الزعفران ، وزرعها الفلاح بالحبوب ، فللسلطنة الحق بمطالبته بخراج الزعفران ، الذي يزيد كثيرا على خراج الحبوب ، ولكن العلماء يتحرجون من الإفتاء بذلك ، خوفا من أن يتخذ الولاة والأمراء فتواهم وسيلة لزيادة الضرائب على الفلاحين (٢) . ولا يسقط الخراج إلا إذا تحولت الأرض إلى وقف على أحد مصارف بيت المال، أو وقفها أحد الأفراد بعد شرائها من بيت المال ، لأن ثمن البيع بديل عن الخراج (٣) ، بينما لا يحق إلا للسلطان تخفيض أو إسقاط أو منح الخراج لإحدى المؤسسات أو الأفراد (٤) .

يرتبط استحقاق الخراج ووجوبه كاملا ببلوغ النيل إلى ست عشرة ذراعا (الوفاء) ، ولذلك فقد حرصت السلطنة على إقامة احتفال عام بهذه المناسبة ، واعتبار ذلك بمثابة بلاغ للفلاحين والمقطعين بضرورة الالتزام بما عليهم من ضرائب (٥) .

ومع انحسار مياه نهر النيل، تبدأ اولى الخطوات العملية لتحديد كمية الخراج المفروضة على كل قطعة ، إذ يطلب مباشرو الخراج من مشايخ القرى والمساحين (الخولة) رفع قانون الري ، الذي يشتمل على تحديد مساحة الأراضي التي رويت أو شرقت في السنة المعنية (٦) ، وايراد تصنيف للأراضي يعتمد بالدرجة الاولى على أصناف المحاصيل التي كانت مزروعة في كل قطعة في السنة السابقة ، والمحاصيل الصالحة لها في السنة الحالية ، وتتدرج وفقا للترتيب التالي : أرض الباق ، وهي أثر ـ بعد زراعتها ـ القرط والفول والمقاثي * ، وتصلح لزراعة الغلال والكتان ، وتراوحت ضريبتها ما بين ٤٠٠–٦٠٠ درهم ، فيما بين ٨٠٠ –٨٢٠هـ / ١٣٩٧–١٤١٧م. ثم **ري الشراقي** ، وهي الأرض المستريحة التي ظمئت في السنة السابقة ، فاشتدت حاجتها للماء ، وعندما رويت حصل لها ري بمقدار الظمأ ، فتصلح للغلال والكتان أيضا. **وشق الشمس أو الشتونية أو الشتاني**، وهي ما روي وحرث وبار ويجري مجرى الباق وري الشراقي من حيث القطيعة (الخراج النقدي) ، **والبروبية (البرايب)** ، وهي أثر القمح والشعير والكتان ، وهي أرض ضعيفة ؛ لأن هذه المحاصيل مهلكة للأرض ، ولذلك فهي تزرع بالمقاثي ، لتصبح في السنة التي

١– ابن قيم الجوزيه ، أحكام ، ج١ ، ص ١٠١–١٠٢ ، ١٠٧ / ابن جماعة ، تحرير ، ص ٣٧٧ / العيني ، البناية ، ج٦ ، ص ٦٤٤ ، ٦٥٤ / ابن مفلح ، المبدع ، ج٣ ، ص ٣٥٣ ، ٣٨٢ / ابن عابدين ، رد المحتار ، ج٦ ، ص٣١٠–٣١٣ / ابن نجيم ، التحفة ، ص ٤ أ / الأقحصاري ، رسالة ، ص ٤ أ .

٢– العيني ، البناية ، ج٦ ، ص ٦٥٦–٦٥٧ .

٣– ابن عابدين ، رد المحتار ، ج٦ ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٤ / ابن نجيم ، التحفة ، ص ٥ أ–٦ب / الأقحصاري ، رسالة ، ص٧ب .

٤– ابن حجر ، إنباء ، ج٦ ، ص ٦٧–٦٨ / العيني ، البناية ، ج٦ ، ص ٣٥٣ / ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص١٩٢ / ابن نجيم ، رسائل، ص ٢٢٦–٢٢٧ / الأقحصاري ، رسالة ، ص ٤ أ – ب .

٥– الكندي ، فضائل ، ص٦٠/ المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٦٠/ الحميري ، الروض ، ص١٨٣/ الأنصاري ، نيل الرايد ، ص٦ب .

٦– النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٤٧–٢٤٩/, Cooper , The Assessment , (JAOS) , VOL 96 , 1976 , P 366- 367 . 371

* يصنف أثر المقاثي بالبرش (القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٢١) .

تليها باقا . **والبقماهة** ، وهي أثر الكتان ، ولا تزرع بالقمح إلا عند الضرورة ، لأن قمحها يغلب عليه السواد والرقة . **والنقاء** ، وهي الأرض التي تخلو من أثر ما زرع بها في السنة السابقة ، ولا شاغل لها عن قبول الزرع . **والوسخ المزدرع** ، وهي الأرض التي لم يتمكن الفلاحون من تنظيفها قبل زراعتها ، فزرعت وجاء زرعها مختلطا بوسخها . **والوسخ الغالب** ، وهي الأرض التي لم يتمكن الفلاحون من زراعتها بسبب كثرة حشائشها ، فتباع كمراع . **والخرس** ، وهي الأرض التي استحكمت بها موانع الزرع ، وتباع كمراع ، وتكثر ببلاد الصعيد الأعلى **.والشراقي** ، وهي الأراضي غير المروية إما بسبب إرتفاعها أو لأي سبب من الأسباب . **والمستبحرة** ، وهي الأراضي المنخفضة ، التي فات أوان زراعتها قبل التمكن من صرف المياه عنها . **والسباخ** ، وهي الأرض التي تغلب عليها الأملاح ، ولا تصلح للغلال ، وقد يزرع الهليون والباذنجان في الجزء الذي لم تستحكم به الأملاح (١) .

ويعتمد مباشرو الخراج على قانون الري ، لتقرير قيمة الخراج على كل قطعة ، ووضع تقرير أولي بمقدار الخراج ، ثم تحضير (توزيع) الأراضي على الفلاحين الأصليين والقادمين من المناطق الأخرى ، بعد النظر إلى إحدى السنوات المشابهة لها في الزيادة ، وتحديد الأراضي التي عليها حقوق ، والحقوق دراهم محددة على كل فدان غير مزروع بالغلال ، وتتراوح ما بين درهمين إلى أربعة دراهم ، ثم رفع أوراق تعرف بأوراق المسجل ، وتحتوي على أسماء الفلاحين ، وعدد الفدانات الممنوحة لكل فلاح ، والخراج المقدر عليها ، والمحاصيل الواجب زراعتها . وفي الأغلب تحدد المحاصيل ذات الخراج المرتفع ، والملائمة لكل نوع من الأرض ، مع حرص الدليل على زراعة جميع المناطق المروية(٢) . كما تبين الأوراق كذلك ما إذا كان الخراج مقدرا من غير مسح ، كما هو حال منطقة الحبس الغربي كبهبيت والأميرية من ضواحي القاهرة ، إذ يقدر خراجها مناجزة (دون مسح) (٣) . كما يتم رفع نسخة إلى صاحب الإقطاع ، تتضمن المعلومات الكافية حول إقطاعه (٤) .

وتجري السلطنة مسحا ثانيا في الفترة بين شهر شباط ونيسان (٥) ، بهدف وضع تقدير نهائي لكمية الخراج المقدرة على كل قطعة من الأرض المزروعة ، فينتدب مباشرو الخراج المساحين والكتاب والقصابين لتقدير مساحة الأراضي المزروعة بالقصبة الحاكمية ، ويسجلون قياساتهم اليومية بورقة الفنداق ، ويجمعونها عند نهاية المسح في أوراق تعرف بتاريج (قائمة) القبائل (المناطق) ، وتحتوي على معلومات حول مساحة كل قطعة ، وأوراق تعرف بتاريج الأسماء ، وتحتوي على معلومات بأسماء المزارعين ، ثم مقابلة ما وصلوا إليه في المسح الثاني مع سجلات التحضير القديمة ، والإشارة إلى زيادة أو نقص المساحة إن وجد ، وإلزام الفلاح بدفع الخراج على

١- المخزومي ، المنهاج ، ص٣٠ب / ابن مماتي ، قوانين ، ص٢٠١-٢٠٤/ القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص٥١٧-٥٢١ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص١٠٠/ ابن ظهير الحنفي ، روضة الأريب ، ص١٠٧٧ / مجهول ، مفتاح الراحة ، ص١٠١-١٠٣ .

٢- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٤٧- ٢٤٩ / القلقشندي، صبح، ج٣، ص ٥٢٥/ Cooper abic, The Financial , P 73 , The Assessment, (JAOS) , VOL 96 , 1976 ,P 268-269, 371-372 , 375, 378, Land Classification (JESHO) , VOL XVII , 1974 , P 92-94

٣- ابن ظهير الحنفي ، روضة الأريب ، ص ١٠٨٦ .

٤- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٢٥ .

٥- ابن إياس ، نشق ، ص ٢٧٨ب / Cooper , The Assessment , (JAOS) , VOL 96 , 1976 , P 370 .

الأراضي المروية التي بورها ، ثم تجهيز المكلفة التي تحتوي على إسم المزارع ، ومساحة الأراضي التابعة له ، وأصناف المزروعات ، وما عليه من ضريبة ، وتجهيز نسختين منها ، واحدة تبقى لدى الديوان لاستخدامها عند تسديد الضرائب، والأخرى تعطى للفلاح باعتبارها بلاغا ضريبيا . كما يتم أثناء ذلك تجهيز أوراق الخاص السلطاني ، التي تصدر غلالها للأهراء السلطانية (١) . وكلما دفع الفلاح جزءًا من الضريبة المقررة عليه ، يحصل على براءة بذلك ، تبين الكمية المدفوعة وما عليه من البواقي (٢) .

نلاحظ مما سبق وجود مسحين ، يهدف الأول إلى معرفة مساحة الأراضي المروية وأصناف الأراضي ، وتقرير المحاصيل الواجب زراعتها، وكمية الخراج المتوقعة ، وضمان زراعة جميع الأراضي المروية ، وليكون بمثابة وثيقة على الفلاح ، إذا ما عطل جزءًا من الأراضي المروية ، وبالتالي إلزامه بدفع ما تم تعطيله ، وإجبار الفلاح على زراعة المحاصيل ذات الخراج المرتفع ، وإلزامه بدفع هذه الكمية إذا ما زرع محصولا ذا خراج أقل . أما المسح الثاني فلتقدير كمية الخراج النهائية وفقا للإنتاج ، واكتشاف التلاعب في مساحة الأراضي المزروعة من حيث الزيادة أو النقصان .

ويرتبط خراج الراتب بالأشجار المثمرة والقصب الفارسي ، وذلك بمقاطعة أصحاب البساتين على مبلغ سنوي ، يؤدونه في أوقات محددة ، سواء أزرعت أم عطلت ، ويصبح المبلغ وراتبا ، ولا يسقط إلا عندما يعمل صاحب الأرض محضرا لدى حاكم الناحية يثبت فيه أن البحر (نهر النيل) قد ابتلع الأرض بأكملها ، أو جزءًا منها(٣).

وتقوم السلطنة في كل ثلاث سنوات بمسح شامل للبساتين بهدف تحديد مساحتها وعدد غروسها وما استجد فيها من الأشجار (٤) . ويتم في كل عام إرسال عمال الخراج لخرص (تقدير) حجم إنتاج الكرمة والنخيل ، وتقدير الخراج المتوقع ، مع مراعاة ترك جزء من الإنتاج لصاحب الأرض ، لاحتياجه لذلك للأكل ولجيرانه ولأضيافه ، وقد قدر البعض ذلك بالثلث أو الربع ، مع أن الإجماع أن يترك ذلك لتقدير العامل (٥) .

ويؤخذ خراج الزراعة إما عينا أو نقدا (٦) ، وقد يجتمع العين والنقد معا في محصول واحد (٧) ، فكان يؤخذ من اثنين إلى ثلاثة دراهم مع كل إردب من الغلال (٨) ، أما خراج الراتب فلا يكون إلا نقدا (٩) . ويبين الجدول التالي كمية الخراج المجندة على كل فدان بالدينار أو الإردب :-

---

١- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٥٠-٢٥١ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٢٥-٥٢٦ / / Rabie , The financial , P 74 / Cooper , The Assessment , (JAOS) , VOL 96 , 1976 , P 369 , 371 , 378 .

٢- القلقشندي ، صبح ، ج١٣ ، ص ١٠٥ .

٣- النويري، نهاية، ج٨ ، ص٢٥٣-٢٥٤ ، ٢٥٥/ Cooper , The Assessment , (JAOS) , VOL 96 , 1976 , P 369 .

٤- المخزومي ، المنهاج ، ص ١٠١ أ / Rabie , The Financial , P 78 .

٥- ابن مفلح ، المبدع ، ج٥ ، ص ٣٥٠- ٣٥١ .

٦- الصيرفي ، إنباء ، ص ١٢١ .

٧- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٢٣ .

٨- نفس المصدر ، ص ٥٣٢ .

٩- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٥٣ .

المحصول	دينار أو إردب / فدان	المصادر
القمح	٢,٥ إردب	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٥٩ .
	٢-٣ إردب	القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٢٠ .
	٢ إردب	المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠١ .
	٢- ٣ أرادب	البكري ، النزهة الزهية ، ص ١٢٧ ب .
الشعير	٢,٥ إردب	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٥٩ .
	٢-٣ أرادب	القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٢٠ / البكري ، النزهة الزهية ، ص ١٢٧ب .
الفول	٢,٥-٣ أرادب	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٦٠.
	٢-٣ أرادب	القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٢٠ / البكري ، النزهة الزهية ، ص ١٢٨ أ .
حمص	٢,٥ إردب	المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠١ .
حلبان	٢,٥ إردب	
عدس	٢,٥ إردب	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٦١ / البكري ، النزهة الزهية ، ص ١٢٨ أ .
الكتان	٣ دنانير	
دلاص	١٣ دينار	
بهييت الأمير	٣,٧٥ دينار	ابن مماتي ، قوانين ، ص١٧،٢٦٢ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٢ /
بلاد الصعيد	٥- ٣ دنانير	البكري ، النزهة الزهية ، ص ١٢٨ ب .
القرط	١ دينار	
البصل	٢ دينار	
الثوم	٢ دينار	
الترمس	٢,٢٥ دينار	
الكمون	١ دينار	
الكراويا	١ دينار	
السلجم	١ دينار	
البطيخ الأصفر والأخضر	١- ٢ دينار	
اللوبياء	٣ دنانير	
السمسم	١ دينار	
القطن	١ دينار	
قصب السكر الرأس	٥ دينار	
قصب السكر الخلفة	٢,٢١ دينار	
القلقاس	٤ دينار	
الباذنجان	٣ دنانير	
السمسم النيلي	٢ دينار	
الخس	٢ دينار	
الفجل	١ دينار	
الكرنب	٢ دينار	
الشجر (١-٤ سنوات)	٠,٢٥ دينار	
٤ سنوات فما فوق	٣ دنانير	ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٦٣-٢٦٩ ، ٢٧٦ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ،
القصب الفارسي	٣ دنانير	ص٥١٩-٥٢٠ / البكري ، النزهة الزهية ، ص١٢٨ب - ١٣٠ ب .

وتختلف كمية الخراج المقدرة على كل فدان من فترة لأخرى ، فقد " كانت قطيعة فدان القمح ببلاد الصعيد في أيام الدولة الفاطمية ثلاثة أرادب ، فلما مسحت البلاد في سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، تقرر على كل فدان اردبان ونصف، ثم صار يؤخذ إردبان عن الفدان ، وأما أراضي أسفل الأرض فيؤخذ عنها عين لا غلة " (١) .

وتتأثر كمية الخراج المقدرة على كل فدان بكلفة الإنتاج، وما يحتاجه المحصول من جهد ، فالرطب والكروم من أقل المحاصيل كلفة وأكثرها تعميرا في الأرض ، فقطيعتها ضعف قطيعة المزارع التي تحتاج إلى الحراثة والبذار والحصاد والدراس . وتأثرت الكمية بطريقة الري فالمحاصيل التي تروى سيحا وبالأمطار والأنهار مباشرة ، تختلف قطيعتها عن التي تروى بوساطة آلات الري (٢) . كما تأثرت بحجم الإنتاج ، فتبلغ قطيعة قصب السكر الرأس خمسة دنانير ، بينما بلغت قطيعة الخلفة ٢,٢١دينار ، لأن حجم إنتاج الرأس أعلى بكثير من الخلفة (٣).ويختلف الخراج من منطقة إلى أخرى(٤)، فكانت أعلى قطيعة للقمح ثلاثة أرادب عن كل فدان من الغلة بأراضي جزيرة الأقصر من عمل قوص ، وكانت أقل قطيعة سدس دينار على الأراضي الخرس (٥) ، وكان خراج الكتان ببهبيت الأمير والمنية من ضواحي القاهره ٣,٧٥ دينارا (٦) ، بينما يبلغ معدل قطيعة الفدان ببلاد الصعيد ٥ -٣ دنانير ، وفي منطقة دلاص ١٣ دينارا(٧)، وفي أراضي الجيزية ٢٢,٣ دينارا (٨) . وتأثر الخراج بحالة النقد ، فقد ارتفع خراج الأرض من عشرين ألف درهم إلى مئة ألف درهم بعد التضخم الاقتصادي الذي عانت منه مصر منذ سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م ، ولكن الحقيقة أن قيمة الخراج قد انخفضت ، لأن العشرين ألفا كانت ألف دينار ، بينما المئة ألف أصبحت ستمئة وستة وثلاثين دينارا (٩) . وتأثر بموت الفلاحين أو موت حيواناتهم ، فقد أدى موت الجواميس في سنة ٨٢٩هـ / ١٤٢٥م إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية للفلاحين ، وعجزهم عن دفع الخراج(١٠) . كما تأثر برغبة السلاطين ، على أن لا يقل المقدار المفروض عن الخمس ولا يزيد عن النصف (١١) ، وبنوع الأرض فأرض الباق وري الشراقي أعلاها خراجا ، وأقلها الخرس (١٢) .

وتتميز بلاد الوجه البحري بأن معظم خراجها نقد، بينما هو في الوجه القبلي غلال (١٣)، ولعل السبب في ذلك هو أن البساتين والأشجار المثمرة التي لا يكون خراجها إلا نقدا ،تشكل معظم محاصيل الوجه البحري ، في حين

١- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠١ .

٢- العيني ، البناية ، ج٦ ، ص ٦٤٩-٦٥٠ .

٣- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٣٦٧-٣٦٨ .

٤- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٢٠ .

٥- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٤٩ .

٦- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٣٣٧ .

٧- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٦٢ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٢ .

٨- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٤٩ .

٩- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٧٤ .

١٠- ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص ١٠٣ .

١١- الأقحصاري ، رسالة ، ص ٢ ب / ابن عابدين ، رد المحتار ، ج٦ ، ص ٣٠٧ .

١٢- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٤٨ / ابن ظهير الحنفي ، روضة الأريب ، ص ١٠٧٥ .

١٣- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٢١ ، ٥٢٣ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠١ .

تشكل الغلال التي لا يكون خراجها إلا عينا ، معظم محاصيل بلاد الوجه القبلي .

وعند احتياج السلطنة لبعض الأصناف تلجأ إلى البدل،وكانت قاعدة استبدال الحبوب على النحو التالي :-

		الإستبدال			
المحصول	القمح	الشعير	الفول	الحمص	الجلبان
إردب من القمح	———	٢	١,٥	١	١,٥
إردب من الشعير	٠,٥	———	٠,٦٧	٠,٥	٠,٦٧
إردب من الفول	٠,٣٣	١,٥	———	٠,٦٧	١
إردب من الحمص	١	٢	١	———	٠,٦٧
إردب من الجلبان	٠,٣٣	١,٥	١	٠,٣٣	———

ويلاحظ أن معظم المحاصيل التي يجوز استبدالها من التي يكون خراجها عينا لا نقدا ، وأن أفضل طريقة للاستبدال تقوم على أساس الأسعار السائدة ، وبعض المحاصيل لا يوجد بديل لها كالسمسم والكتان(١) .

تبدأ السنة الخراجية في شهر طوبه (كانون الثاني) بمطالبة الفلاحين بدفع ثمن الخراج ، بناء على التقدير الأولي لسجلات قانون الري ، ثم تسديد ما يتبقى اعتمادا على مواعيد نضج الثمار ، وإكمال نصف ما عليهم قبل انتهاء شهر برموده (٢٤ آذار – ٢٤ نيسان) ، ودفع زائد المساحة في شهر بشنس (أيار) ، وإستكمال ثلاثة أرباع الخراج في شهر بونه (حزيران) ، وتغليق ما عليهم من البواقي وخراج الخضروات في شهر مسرى (آب) (٢) .

وهكذا فإن كمية الخراج المجموعة قبل شهر نيسان تعتمد على سجلات قانون الري ، في حين يعتمد ما يجمع بعد ذلك على المسح الشامل الذي تجريه السلطنة عند نضج المحاصيل الشتوية والثمار . ويخضع الكتان إلى نظام مختلف ، إذ يدفع الفلاحون جزءا من خراجه عند قلعه في شهر آذار ، ويدفع القسم الثاني عند دقه وبله في شهري أيلول وتشرين الأول ولكنه صار يجمع مشاهرة(شهريا) في النصف الثاني من القرن ٩هـ/١٥م (٣) . أما خراج الراتب (النقد) فيدفع على ثلاثة أقساط ، يستوفى القسط الأول في شهر كانون الأول عند بيع البرسيم البدري ، والثاني في شهر آذار عند قلع الكتان ، والثالث عند نضج المغل والمحاصيل (٤) ، أو نضج الثمار والفواكه والكروم (٥) .

ويستعمل مصطلح البواقي للدلالة على القسم المتأخر من الخراج الذي يعجز الفلاح عن دفعه في مواعيده ،

١- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٣٥٩-٣٦٠ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٢٠-٥٢١ .

٢- ابن حوقل ، صورة ، ص ١٣٠ / ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٧١-٢٧٢ ، ٢٧٣/ ابن إياس، نشق، ص٢٧٦ أ-٢٨٠ أ / Cooper , The Assessment, (JAOS), VPL 96 , 1976 , P 374 -375 , 382

٣- ابن ظهير الحنفي ، روضة الأريب ، ص ١٠٨٦ .

٤- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٥٣ .

٥- نفس المصدر ، ص ٢٥٤ .

ويجبى في نهاية السنة الخراجية (١) ، وقد يصل إلى مبالغ كبيرة ، فبلغ مجموع ما تبقى على فلاحي ومشايخ الديوان المفرد في سنة ٨٤٣هـ/١٤٣٩م ١,٣٠٠,٠٠٠درهم (٢) ، وبلغ ما على فلاحي البحيرة في سنة٨٧٤هـ/١٤٦٩م ٥,٠٠٠ دينار (٣) . وقد يتسامح السلاطين بالبواقي في بعض الأحيان ، إذا لم يكن التأخير ناجما عن تقصير الفلاح (٤) ، وأملا في كسب الرأي العام ، فيكتبون بذلك مراسيم تقرأ في جميع أنحاء الديار المصرية (٥) ، فعلى سبيل المثال سامح السلطان الغوري في سنة ٩١٩هـ / ١٥١٣م مشايخ العربان وجماعة من فلاحي بلاد الصعيد بـ ٧٠,٠٠٠ إردب من الغلال (٦) .

ويسقط الخراج عند بيع السلطان للأرض الخراجية ، لأن الثمن المقبوض عنها يعتبر بديلا عن الخراج (٧) ، وعند انتشار الأوبئة والطواعين ؛ ففي سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م أبطلت الضمانات والموجبات السلطانية لمناطق دمنهور وتروجه والبحيرة ، نتيجة لموت فلاحيها وحيواناتهم (٨) . وبسبب التلف الناجم عن الآفات الزراعية والعوامل الطبيعية ، التي لا يستطيع الفلاح الوقاية منها ، كالحر والبرد والغرق والفأر والجراد والدود وإنقطاع مياه الري ، وتتناسب الكمية المسقطة مع حجم الضرر (٩) . ففي سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م تم إسقاط ستين ألف إردب من الفول نتيجة مهاجمة الفئران لغلال منفلوط (١٠) ، وأسقطت السلطنة في السنة نفسها جزءاً كبيرا من خراج ثمان وعشرين قرية بالغربية ، بعد تعرضها لإحدى موجات البَرَد (١١) .

ونظرا لغياب المعلومات حول كمية الخراج السنوية ، فإن الإشارات الواردة حول خراج بعض القرى والمدن تعطي صورة جزئية لذلك ، فكان خراج قرية فرجوط ، إحدى قرى الإسكندرية ، إثنين وسبعين ألف دينار (١٢) ، وخراج ثلاثين قرية ـ من أصل أربعمئة وإحدى وسبعين قرية بالغربية ـ ، ثلاثمئة وستين ألف دينار (١٣) ، وخراج فارسكور والمنزلة سبعين ألف دينار (١٤) ، وخراج النحريرية زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون خمسة وعشرين ألف دينار (١٥) ، وخراج إقطاع نيابة السلطنة ، المكون من مرج بني هميم وكفورها وسمهود وكفورها

١- النابلسي ، لمع القوانين ، ص ٢٥أ .
٢- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٣ ، ص ١١٥٦-١١٥٧ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ٩٢ب .
٣- الصيرفي ، إنباء ، ص ١٦١ .
٤- الأسدي ، التيسير ، ص ٧٤ .
٥- الخالدي ، المقصد ، ص ٢٩٣ ب .
٦- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٣٢٧ .
٧- ابن عابدين ، رد المحتار ، ج٦ ، ص٢٩٣ .
٨- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٧٧٨ .
٩- العيني ، البناية ، ج٦ ، ص ٦٥٥ .
١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٤٥٥ / ابن عابدين ، رد المحتار ، ج٦ ، ص ٣١٠ / الأقحصاري ، رسالة ، ص٢ب -٣أ / ابن مفلح ، المبدع ، ج٣ ، ص ٣٨٢ .
١١- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٤٥٤ .
١٢- ابن بطوطه ، رحلة ، ج١ ، ص ٤٤ .
١٣- ابن شاهين ، زبدة ، ص ٣٥ .
١٤- نفس المصدر ، ص ٣٥ .
١٥- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٢٢٦ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ٤٥٨ / البكري ، مقتطف ، ص ٢٧ أ .

ودواليبها ومعاصرها ، وحرجة قوص ، وإدفو ونواحيها ، مئة وعشرة آلاف إردب ، سوى القنود والأعسال والأحطاب (١) ، وبلاد المرج وهو مئتا ألف إردب (٢) . وشكل خراج بلاد منفلوط المصدر الأساسي للأهراء السلطانية، فبلغ زمن السلطان برقوق مئتين وأربعين ألف إردب (٣) ، وفي العشر الأول من القرن ٩هـ/ ١٥م مئة وعشرين ألف إردب (٤) .

وشهدت مصر في فترة السلطان الناصر محمد بن قلاوون نموا وازدهارا في خراجها ، إلا أن ذلك أخذ بالتراجع التدريجي ، بسبب ازدياد بيع أراضي بيت المال الخراجية ووقفها وإسقاط ما عليها من خراج ، وتخلي السلطنة عن مسؤولياتها الأساسية تجاه صيانة مشاريع الري ، وانخفاض عدد سكان الأرياف ، نتيجة لموت وهجرة الفلاحين أثناء الأوبئة والطواعين والمجاعات ، وهذا ما دعا ابن إياس للقول بأن مصر قد تغيرت أحوالها في القرن ١٠هـ / ١٦م " واختلت خللا واضحا ، فلذلك قل خراجها وضعف حال جندها "(٥) .

العشر

يتوجب على الفلاح المسلم دفع عشر ما يتبقى له من الإنتاج ، ويرتبط العشر بالمالك والخارج ، فلا يؤخذ من أهل الذمةباعتباره زكاة الزروع ، ولا من صاحب الأرض إذا عطلها (٦) . ويستدل على وجوبه الشرعي بقوله تعالى ﴿**وآتو حقه يوم حصاده**﴾(٧) وقوله تعالى ﴿ **وانفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض** ﴾ (٨) . وقد يدفع الفلاح نصف العشر إذا ما كانت طريقة الري تعتمد على الآلات كالسواقي والشواديف ، التي تحتاج إلى تكلفة وجهد ، في حين يدفع العشر كاملا عند الري بوساطة الأمطار ، أو سيحا عن طريق الأنهار والعيون (٩) .

ولا بد من النصاب لاستحقاق العشر ، وهو خمسة أوسق* في المحاصيل المقشرة ، وعشرة في المحاصيل غير المقشرة (١٠) ، ويبلغ النصاب في القطن خمسة أحمال ، وفي الزعفران خمسة أمناء (المن رطلان) ، لأن

١- النويري ، نهاية ، ج٣١ ، ص ٣٤٦-٣٤٧ .

٢- الإدفوي ، الطالع ، ص ٢٨ / ابن ظهيرة ، الفضائل ، ص٦٧ .

٣- ابن ظهيرة ، الفضائل ، ص ١٢٩ .

٤- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ٢٢ .

٥- ابن إياس ، نشق ، ص ٣٥ ب .

٦- ابن قيم الجوزية ، أحكام ، ج١ ، ص٩٠-٩٢/ ابن عابدين ، رد المحتار ، ج٦ ، ص٢٩٢ ، ٣١٣ / الأقحصاري ، رسالة ، ص ٢ أ .

٧- سورة الأنعام ، آية ٤١ .

٨- سورة البقرة ، آية ، ٢٦٧ .

٩- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٣١٣ / العيني ، البناية ، ج٣ ، ص ٤٩١ ، ٥٠١ / ابن مفلح ، المبدع ، ج٣ ، ص ٣٤٦ / الأقحصاري ، رسالة ، ص ٢ أ .

* الوسق :- يساوي ١٦٠٠ رطل بغدادي (السبكي ، معيد ، ص ١٢٧) أي ٦٥٠ كغم ، لأن الرطل البغدادي يساوي ٤٠٦,٢٥ غم هنتس ، المكاييل ، ص ٣٥ .

١٠- السبكي ، معيد النعم ، ص ١٢٧ / الغمراوي ، السراج الوهاج ، ص ١٢١ .

هذه المحاصيل لا توسق ، فيعتبر فيها خمسة أمثال ما تقدر به (١) . ولا يجوز إكمال جنس بجنس ، في حين يلزم الإكمال في حالة زراعة المحصول نفسه أكثر من مرة في السنة ، فالذرة التي تزرع في الخريف والربيع والصيف يضم إنتاجها إلى بعضه البعض ويخرج عشره ، وكذلك عند تباين مواعيد النضج ، نظرا لاختلاف درجات الحرارة ، كالنخيل التي ينضج ثمرها ببلاد الصعيد أسرع من الوجه البحري وشمالي مصر ، فيضاف الناتج إلى بعضه ويؤخذ العشر منه (٢) .

ويجب العشر في المحاصيل التي تشكل قوتا رئيسيا للإنسان كالحبوب من الحنطة والشعير والذرة والرز والدخن ، والقطاني كالعدس والحمص ، والباقلاء كالفول واللوبياء والجلبان ، ويجب من الثمار النخيل والكروم (٣) . وتندب السلطنة قبل حصاد الحبوب وجمعها في الجرون مباشرا لتقدير ما يتوجب على كل فلاح (٤) ، وتخرص الكرمة والنخيل في شهر آب (٥) ، إذ ترسل السلطنة عاشرا لكل ناحية عند بدو الثمر وصلاحه ، فيقوم بالطواف بكل نخلة أو كرمة ، وتقدير ما عليها من قطوف ، ومقدار الإنتاج المتوقع ، وما يجب عليه من الزبيب والتمر ، وترك إخراج ذلك للعامل (٦) ، ويصبح هذا التقدير ملزما إلا إذا أصاب الزرع آفة ، حيث يسقط جزء يتناسب مع حجم التلف الناجم (٧) . أما المحاصيل التي لا يجب فيها العشر ، فهي الخضروات والبصل والرياحين والكزبرة والأنيسون والخردل والسمسم وبزر الكتان ، وفي الأشجار المثمرة كالمشمش والتوت والعناب والتفاح والكمثرى والزيتون ، والجوز واللوز والبندق ، والقصب الفارسي ، والحطب والحشيش (٨) .

وقد اختلف الفقهاء في وجوب العشر على أراضي الأوقاف ، فأوجبها الشافعية على الأوقاف الذرية ، وأسقطوها عن الأوقاف الخيرية ، كأوقاف المدارس والمساجد والقناطر والخوانق والزوايا ، بينما أوجبها الحنفية على الجهتين (٩) ، ويشير النويري إلى شيوع استيفائها عن أراضي الأوقاف والرزق ، عند اكتمال النصاب (١٠) .

وتجب زكاة المواشي في ثلاثة أصناف ، الإبل والأبقار والأغنام ، بشرط أن يحول عليها الحول ، وتبلغ النصاب ، وأن ترعى في المراعي المباحة ، وألا تكون هرمة ولا مصابة (١١) ، وقد حددها الشرع كما يلي :-

---

١- العيني ، البناية ، ج٣ ، ص ٥٠١ - ٥٠٢ / ابن طولون ، نقد الطالب ، ص ١٧٤-١٧٥ .
٢- الغمراوي ، السراج الوهاج ، ص ١٢٢ .
٣- الدمشقي ، كفاية الأخيار ، ص ٢٥٥ / العيني ، البناية ، ج٣ ، ص ٤٩١-٤٩٣ / ابن مفلح ، المبدع ، ج٣ ، ص ٣٣٩ / السيوطي ، تنوير الحوالك ، ج١ ، ص ٢٦٠ .
٤- الدمشقي ، كفاية الأخيار ، ص ٢٦٩ / النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٥٩ / ابن مفلح ، المبدع ، ج٣ ، ص ٣٤٨ .
٥- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٥٧ .
٦- الغمراوي ، السراج الوهاج ، ص ١٢٣ .
٧- السيوطي ، تنوير الحوالك ، ج١ ، ص ٢٥٨ .
٨- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٣١٦ / العيني ، البناية ، ج٣ ، ص ٤٩٤ ، ٥٠٠ / ابن مفلح المبدع ، ج٣ ، ص ٣٣٩-٣٤٠ / السيوطي ، تنوير الحوالك ، ج١ ، ص ٢٦٣ / ابن طولون ، نقد الطالب ، ص ١٧٤ .
٩- الطرابلسي ، الاسعاف ، ص ٦٩-٧٠ / العيني ، البناية ، ج٣ ، ص ٤٩٦ .
١٠- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٥٩ .
١١- الدمشقي ، كفاية ، ص٢٦١ / الغمراوي ، السراج الوهاج ، ص ١١٦ ، ١٢٠ .

زكاة المواشي

الحيوان	النصاب	مبلغ الزكاة
الأغنام	٤٠	شاة جذعة*من الضأن أو ثنية* من المعز
	١٢١	شاتين
	٢٠١-٣٠٠	ثلاث شياة
	٣٠٠ فما فوق	في كل مئة شاة
الأبقار	٣٠	تبيع*
	٤٠	مسنة *
		بعد ذلك في كل ثلاثين تبيع وفي كل أربعين مسنة
الإبل	٥	شاة
	١٠	شاتين
	١٥	ثلاث شياة
	٢٠	أربع شياة
	٢٥	بنت مخاض *
	٣٦	بنت لبون*
	٤٦	حقة*
	٦١	جذعة
	٧٦	بنتا لبون
	٩١	حقتان
	١٢١	ثلاث بنات لبون
		بعد ذلك في كل أربعين بنت لبون وفي كل خمسين حقة

ويؤكد الفقهاء على ضرورة إخراج الزكاة عينا لا نقدا (١) ، إلا أن روايات النابلسي في بداية القرن ٧هـ / ١٣م تشير إلى أن معظم زكاة الزروع والحيوانات تستخرج نقدا لا عينا (٢)، وأكد هذه الحقيقة النويري

---

* جذعة :-ما لها سنة * الثنية من المعز لها سنتان .

*تبيع :- ابن سنة ودخل في الثانية ، وسمي بذلك لأنه يتبع أمه في المرعى .

*مسنة :- لأنها ألقت سنا ، ولها سنتان .

بنت مخاض :- لها سنة ودخلت في الثانية ، وسميت بذلك لأنه قد آن لأمها ان تحمل مرة أخرى ، فتصير من ذوات المخاض وهي الحوامل .

*بنت لبون :- لها سنتان .

*حقة :- لها ثلاث سنين ودخلت في الرابعة . راجع حول ذلك :- الدمشقي ، كفاية الأخيار ، ص ٢٥٩ / ابن مفلح ، المبدع ، ج٣ ، ص ٣١٤ ، ٣١٨ .

١- ابن مفلح ، المبدع ، ج٣ ، ص ٣٢٥ .

٢- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٢٤ .

في بداية القرن ٨هـ/١٤م ، عندما أشار إلى أن بعض الأراضي التابعة للدواوين السلطانية ، تدفع الزكـاة بمبلغ سنوي محدد ، سواء أزاد الإنتاج أم نقص (١) .

اتجهت السلطنة إلى تكريس حقها بجمع الزكاة ، وأول من جمعها السلطان صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٦٧ هـ/١١٧١م (٢) ، ثم استمر ذلك في عصر السلطنة المملوكية ، ومما يدل على ذلك أن السلطنة كانت ترسل في كل عام أميرا إلى منطقة برقه ، لاستخراج زكاة مواشيها وعشور زروعها ، وتحارب العربان والفلاحين الذين يمتنعون عن تأديتها (٣) ، وإقطاع الزكاة أو تضمينها لبعض الأمراء (٤) . وقد حاول السلطان برسباي في سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٣م ، انتزاع فتوى شرعية بجمع زكاة أموال الناس ، إذ جمع الفقهاء بعد أن أصدر مرسوما بذلك ولكن القضاة رفضوا إفتاءه بجمعها ، لأن تأدية الزكاة حق للمالك فقط ، ولأن معظم مواشي مصر تعيش على الأعلاف وغير سائمة ، ولازدياد حجم الضرائب المقررة على الفلاحين (٥) .

الجوالي (الجزية) :-

فرض الإسلام على أهل الذمة من اليهود والنصارى ، ومن له شبهة كتاب كالمجوس والصابئة والسامرة، الالتزام بدفع جزية الرأس (الجوالي) التي لا يحق للإمام الغاؤها ، لوجوبها شرعا بقوله تعالى ﴿ **وقاتلوا الذين لا يؤمنون با لله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم ا لله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾(٦) ؛ ولأنها بمثابة إذلال لأهل الكفر وإعزاز للإسلام ، وفي مقابل إقامتهم بالديار الإسلامية ، وتوفير الحماية لهم ، ومنحهم حرية الاعتقاد ، وممارسة حياتهم الاجتماعية ، دون المساس بمشاعر المسلمين (٧) .

يبدأ استحقاق الجزية على الرجال عند ظهور علامات البلوغ ، مثل خشونة الشعر ، وغلظ الصوت ، وظهور شيء كالترمسة على حلمة الثدي ، واعتمد في مصر على بلوغ الرجل إلى خمسة عشر عاما ، وفي بعض النواحي إلى ثلاثة عشر عاما (٨) . واستثني من دفعها العاجزون عن الكسب ،كالنساء والأطفال والفقراء والمعدمين

١- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٥٩ .

٢- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٨ .

٣- ابن عبد الظاهر ، الروض ، ص ٢١٩ / المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٢٠ ، ج٢ ، ق١ ، ص١٩٠، ٢٧٢ ، ٥٤٤ / ابن إياس، بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ٤٤٩ .

٤- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٢٩ / إبراهيم طرخان ، النظم الإقطاعية ، ص ٨١ .

٥- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٦٣ / ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٤٣ .

٦- سورة التوبة ، آية ٢٩ .

٧- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٣٦ / ابن جماعة ، تحرير ، ص ٢٧-٢٩ / ابن ظهير الحنفي ، روضة الأريب ، ص ١٠٧٣ .

٨- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٤٤- ٢٤٥ .

والمجانين والعبيد والعجزة والمرضى الذين لا يرجى شفاؤهم ، والرهبان والخنثى المشكل (١) ، ولا تسقط إلا عند افتقار الرجل أو عجزه أو موته أو إسلامه ، إلا أن الديوان في مصر كان يحاسب ورثة المتوفى أو الذي يسلم أثناء السنة ، عن الفترة التي مضت من السنة قبل إسلامه أو وفاته (٢) .

يتم تقدير الجزية بناء على رغبة السلطان ، لعدم وجود نص شرعي بذلك ، على أن لا تقل عن دينار واحد، مع بقاء الحد الأعلى مفتوحا ، يقدره الإمام كيفما يشاء (٣) ، ولذلك فقد جباها الظاهر بيبرس مضاعفة في سنة ٦٦٢هـ /١٢٦٣م (٤) . في حين يعد وضعها على الطبقات من أفضل الأسس وأكثرها عدلا ، فلذلك عمد المؤيد شيخ في سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢م على تصنيفها إلى ثلاث طبقات ، يدفع الغني أربعة دنانير ، والمتوسط دينارين ، والفقير دينارا واحدا (٥) ، ويشير القلقشندي ت٨٢١ هـ/ ١٤١٨م إلى أن أعلاها في زمانه قد وصل إلى خمسة وعشرين درهما ، وأقلها عشرة دراهم (٦) ، ومن الصعب قبول مثل هذه الرواية ، لانخفاض القيمة الفعلية للجزية . إذ تتراوح وفقا لتقديراته ما بين ٠,١- ٠,٠٤ دينارا .

اعتاد الديوان في مصر استخراج الجوالي معجلا ، قبل أربعة شهور من دخول السنة ، أي في شهر رمضان(٧) ، وفي بعض النواحي قبل شهر أو شهرين (٨) ، مع أن الناحية الشرعية تؤكد استحقاقها في نهاية السنة(٩)، ويحصل دافعها على براءة تؤكد ذلك (١٠) .

ومنذ الروك الناصري أصبحت الجزية على قسمين ؛ كل قسم له إدارته المستقلة ، فأشرف على جوالي القاهرة والفسطاط وضواحيهما ناظر الجوالي ، الذي يعين من قبل السلطان ، وتحت يده حاشر لليهود وحاشر للنصارى، لإعداد قائمة بأسماء من تجب عليه الجزية ، ومن يبلغ من الصبيان (يعرفون بمصطلح الديوان بالنشو) ، ومن يولد حديثا من الأطفال ، ومن يهتدي إلى الاسلام ، أو يموت ، ومن يهاجر أو يقدم من البلاد الأخرى (يعرفون بمصطلح الديوان بالطواريء) (١١) . ويذهب قسم من عائدات الجزية إلى بيت المال ، بينما يصرف الباقي في

١- ابن مماتي قوانين ، ص ٣١٧-٣١٨ / ابن قيم الجوزيه ، أحكام ، ج١ ، ص٤٨-٤٩ ، ٥٢-٥٤ / النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص٢٣٦-٢٣٧ / ابن جماعة ، تحرير ، ص ٢٩ / العيني ، البناية ، ج٦ ، ص ٦٧٢ / ابن ظهير الحنفي ، روضة الأريب ، ص ١٠٧٣ .

٢- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٣١٨ / النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٤١ / ابن جماعة ، تحرير ، ص ٢٨ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص١٠٧/ ابن ظهير الحنفي ، روضة الأريب ، ص ١٠٧٤ .

٣- ابن جماعة ، تحرير ، ص ٢٨ .

٤- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٦٤٠ .

٥- ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٧٣ .

٦- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٣٠ .

٧- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٣٠ / المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص ٧١٢ .

٨- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٤١ .

٩- ابن قيم الجوزيه ، أحكام ، ج١ ، ص ٤٨ / ابن جماعة ، تحرير ، ص ٢٨ .

١٠- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٤٢ / ابن مفلح ، المبدع ، ج٣ ، ص٤١٥ .

١١- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٣٠ / الخالدي ، المقصد ، ص ١٣٣ أ .

مرتبات القضاة والعلماء (١) ، وفي أعمال البر والتقوى كاليتامى والفقراء (٢) .

أما حوالي القرى خارج الفسطاط والقاهره وضواحيهما ، فتعود عوائدها إلى مقطعي البلاد ، وتكون جزءًا من عبرتهم السنوية ، وإذا كانت الناحية تابعة لأحد الدواوين السلطانية ، فإنها تعود إلى ذلك الديوان (٣) ، فيعين كل مقطع مباشرا للجوالي ، وتحت يده عرفاء الذمة ، ومهمتهم تزويد المباشر بأوراق تعرف بالرقاع ، تشتمل على أسماء أهل الذمة المقيمين في كل قرية أو ناحية ، وأوصافهم الجسمانية ، بحيث يبدأ باليهود ثم السامرة ثم النصارى ، ومن يوجد من الصابئة والمجوس ، هذا مع تقديم إحصاء بالمواليد الذكور في كل يوم ، وترتيبهم في قائمة مفردة ، وتقرير البالغين الجدد ، بالتعاون مع مباشري الجوالي ، ومن يهتدي للإسلام أو يموت ، أو يهاجر إلى القرى والنواحي المختلفة ، والمكان الذي هاجر إليه ، ومن يقدم من القرى الأخرى (٤) . ويجبي المقطع الجوالي في بداية السنة ، فإذا انفصل عن إقطاعه قبل انتهاء السنة ، عليه إعادة ما تبقى من السنة إلى المقطع الجديد ، وإذا مرت مدة بين المنفصل والمتصل ، فعلى المنفصل دفع استحقاقها إلى ديوان المحلولات من الإقطاعات (٥) .

اتخذ أهل الذمة من إظهار الإسلام بعد تدهور أوضاعهم الاقتصادية في القرن ٩هـ / ١٥م (٦) ، والانتقال من قرية إلى أخرى عندما يحين موعد الجباية ، وسيلة للتهرب من دفع الجزية (٧) ، وقد حاولت السلطنة مقاومة ذلك ، بالتأكيد على ضرورة حصول الذمي على براءة تثبت دفعه للجزية (٨) ، ومعاقبة المتهربين بدفع ما يجب عليهم في السنوات التي تهربوا منها دفعة واحدة (٩) . ولكن ذلك لم يقض على هذه الظاهرة ، إذ اكتشفت السلطنة في سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢م أن نسبة دافعي الجزية لا تزيد على ١٥٪ ، حيث بلغت جبايتها في سنة ٨١٤هـ / ١٤١١م ١,٥٠٠ دينار ، بينما ارتفعت بعد البحث والتقصي في سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢م إلى ١٠,٠٠٠ دينار (١٠) ، وفي سنة ٨١٦ هـ / ١٤١٣م إلى ١١,٤٠٠ دينار (١١) ، وفي سنة ٨١٧ هـ / ١٤١٤م أجبرت السلطنة أهل الذمة على دفع

١- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٣٠ / المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٤٧٥ / العيني ، السيف المهند ، ص ٢٧١ ، عقد ، ص ٧ ب / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٤٠٧ ، ٤٢٤ ، ٤٦٢ ، ج٨ ، ص ٣٩٨ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٤ ، ص ٨ ، ج١٥ ، ص ٢٨٣ ، حوادث ، ج٢ ، ص ٣٤٨ / السخاوي ، الضوء ، ج١ ، ص ٣٨ ، ١٥٢ ، ج٢ ، ص ٢٧٦ ، ج٣ ، ص ٩٥ ، ج٩ ، ص ١٠٨ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٢٦١ب ، ٢٧١ أ .

٢- العيني ، السيف ، ص ٢٧٠ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٥٤ ب .

٣- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٣١ / المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق ١ ، ص ١٥٠ / الخالدي ، المقصد ، ص١٣٣ أ / الأسدي ، التيسير ، ص ٧٢ .

٤- ابن جماعة ، تحرير ، ص ٢٩ ، ٣٩٥ / النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٤٢-٢٤٥ / ابن مفلح ، المبدع ، ج٣، ص ٤١٥ .

٥- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٤١ .

٦- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٧ .

٧- نفس المصدر ، ص ٩٠ .

٨- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٤٣ .

٩- ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ١٨٩ / ابن مفلح ، المبدع ، ج٣ ، ص ٤١٢ .

١٠- ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٧٣ .

١١- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٧ .

مبلغ ٢٠,٠٠٠ دينار ، مصالحة عن السنوات التي تهربوا منها (١) .

المكوس (الضرائب غير الشرعية) :-

تتسم المكوس أو الضرائب غير الشرعية بعدم الاستقرار لأنها لا تخضع لقاعدة محددة ، بل للأوضاع الاقتصادية والسياسية للسلطنة ، وجشع بعض السلاطين ورغبتهم في تقرير كميتها وكيفية جمعها . ويمكن تقسيمها إلى مكوس دائمة تجمعها السلطنة في كل عام ، ومكوس مؤقتة تجمعها السلطنة في ظروف معينة . بينما اتخذ الفقهاء موقفا ثابتا منها ، باعتبارها من المحرمات التي لا يجوز تناولها أو الأكل من أموالها (٢) ، وعدوها رجسا ومعصية ، يجب مقاومتها والتخلص منها (٣) ، وتكفير من يتناولها ، وخاصة بعد أن أصبحت وسيلة أساسية لابتزاز أموال الناس وملكياتهم(٤) .

وتشتمل المكوس الدائمة على مجموعة من الضرائب ، منها ضريبة سنوية لتغطية كلفة إنشاء وصيانة مشاريع الري ، تعرف *بمقرر الجسور* ، وهي ضريبة غير محددة ، وتخضع لطلبات السلطنة ، فعند البدء بإنشاء أي جسر أو حفر أو تطهير أي خليج أو صيانة أي قنطرة ، يتم تحديد عدد الفلاحين والمناطق المستفيدة من ذلك ، وتوزيع التكلفة على مقطعي وفلاحي هذه المناطق ، بما يتناسب مع عدد الفدانات التابعة لكل واحد منهم . فعندما قررت السلطنة في سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م إنشاء جسر ما بين جزيرة الروضة والجيزة ، فرضت على كل مستفيد من أصحاب البساتين ما بين عشرة إلى عشرين درهما ، وعلى كل مئة دينار من الإقطاعات درهما ، وعلى كل أمير مئة من أربعة إلى خمسة آلاف درهم ، وعلى كل كاتب يعمل في دواوين أمراء المئة ألفا ومئتي درهم ، وعلى كل كاتب يعمل في ديوان أمير طبلخانة مئة درهم ، وعلى رهبان الأديرة والكنائس في الأعمال المختلفة من مئة إلى مئتي درهم (٥) . وتم إحصاء النخيل ببلاد الصعيد وفرض مبلغ معين على كل نخلة (٦) . وبلغت كلفة صيانة قناطر شبين في سنة ٨٢٢هـ / ١٤١٩م خمسة آلاف دينار ، فرضت على بلاد الجيزة ، وما بها من الإقطاعات والرزق (٧) ، فتقرر على كل فدان عشرون درهما ، يتحمل المقطع أربعة عشر درهما ، والفلاح ستة دراهم (٨) . وتقرر في سنة ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م استيفاء ألفين وخمسمئة درهم عن عبرة كل ألف دينار بنواحي الغربية والمنوفية والبحيرة ، لتوفير

١- ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ١٤٩ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٢٣٠ ب .

٢- ابن جماعة ، تحرير ، ص ٣٩٨ / المقريزي ، السلوك، ج٤ ، ق٣ ، ص ١١٨٨ ، خطط، ج٢، ص ١٢٣ / ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٣٢ / السخاوي ، الضوء ، ج٥ ، ص ١١٥ .

٣- السبكي ، معيد ، ص ٧٧ .

٤- العيني ، الروض الزاهر ، ص ٣٦-٣٧ .

٥- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٧٦٤ ، خطط ، ج٢ ، ص ١٦٨ .

٦- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٧٦٤ .

٧- المقريزي ، السلوك، ج٤، ق١، ص ١٨١-١٨٢ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٣٤٧ / العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥- ٨٢٤هـ، الطنطاوي ، ص ٣٥٠ .

٨- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٨١- ٤٨٢ .

أجور العاملين بتطهيرخليج الإسكندرية (١) . وبلغ مقرر الجسور في سنة ٩١٧هـ / ١٥١١م خمسين ألف دينار ، أي ما يعادل خراج سنة كاملة من النواحي المستفيدة من حفر خليج الزعفران ، صرف جزء منه على حفر هذا الخليج ، وحول الباقي إلى خزينة السلطان (٢) . وأفرد الأمير أرزمك الناشف على كل إقطاعة ورزقة عشرة أنصاف* في سنة ٩١٨هـ / ١٥١٢م ، من أجل إصلاح جسر الفيوم (٣) . وفرض السلطان قانصوه الغوري في السنة نفسها ما يقرب من ثلث الخراج ، لعمارة جسر أم دينار بالجيزية (٤) بحيث يجبى ألف درهم ، عن كل فدان (٥) .

ويندرج تحت هذا المكس ***مقرر الجراريف والخفائر*** (٦) ، إذ يتوجب على كل قرية تقديم جزء من حيوانات العمل اللازمة لصيانة مشاريع الري ، كالأبقار والجمال والحمير (٧) ، وتقديم آلات العمل كالجراريف ، حيث توزع بنسب معينة على كل قرية ، وفقا لعدد فلاحيها ومساحة أراضيها الزراعية ، أو دفع عشرة دنانير بدل كل قطعة (٨) . وتوفير مؤن العاملين والحشائش والأعلاف والأتبان اللازمة لحيوانات العمل (٩) . وإجبار الفلاحين البطالين (الذين لا يملكون الحيوانات) على شراء الأبقار بعد الإنتهاء من عمليات الصيانة ، وبالسعر الذي تحدده السلطنة(١٠). ولكن مقرر الجسور أصبح منذ فترة حكم السلطان فرج بن برقوق ومن تلاه من السلاطين، مبلغا سنويا محددا ، يجمعه عمال الدواوين ، ويرسلونه إلى الخزائن السلطانية بدلا من صرفه على مشاريع الري (١١) .

ويدفع فلاحو بعض القرى ***مكس المصايد*** على الأسماك التي اعتادوا صيدها عند بدء تراجع نهر النيل ، إذ كانوا ينصبون الشباك على أفواه الترع،حتى لا يسمح للأسماك بالعودة إلى نهر النيل ، ثم تمليحها ووضعها في أمطار

١- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ١٠٠٨ / ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٤٢٠ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ٣٨٢ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٣٥٠ أ .

٢- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٢٢٨ .

* نصف الفضة :- ضرب هذا الدرهم في عهد السلطان قايتباي ، ويحتوي على نسبة عالية من الفضة وصلت الى ٨٩٪ و ٩٤٪ ، أما وزنه فيتراوح بين ١,٢٨اغم-١,٥٥اغم ، وقطره ما بين ١٢-١٧ملم (سعيد صالح ، التجارة ، ص ٢٩٨-٢٩٩) .

٣- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٢٩١ ، ٣٣٣ .

٤- نفس المصدر ، ص ٢٩١ .

٥- نفس المصدر ، ص ٣٢٩ .

٦- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ١٧٨ / المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص١٥٢ ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٥٦٤ / ابن تغري بردي ، النجوم، ج١٤ ، ص ٧ / ابن شاهين ، زبدة ، ص ١٢٩ .

٧- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠١ .

٨- العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥-٨٢٤ هـ ، الطنطاوي ، ص ٢٢٤ .

٩- ابن مماتي ، قوانين ، ص ٣٤٢-٣٤٣ / المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٨٧٨ .

١٠- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٧ / العيني ، عقد ، ص٢٠ أ / ابن تغري بردي ، المنهل ، ج٣ ، ص٣٤٠ ، النجوم ، ج١١ ، ص٢٣٨ ، ج ١٢ ، ص ٨٧ / الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص ٢١١ ، ٥٠١ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٥٣٢ ، نشق ، ص ٣١ أ / مجهول ، كتاب في التاريخ ، ص ١١٥ ب .

١١- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٢٢٦ ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٧٨ ، خطط ، ج١ ، ص ١٠١ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣، ص ١٠٨ .

(عيار للسوائل) وتصديرها للبيع في مدينة القاهرة (١) . واعتمد قسم منهم على صيدها من البرك والبحيرات والخلجان المنتشرة في جميع أنحاء مصر . إلا أن تضمين مكس المصايد كبركة الفيل لأولاد الظاهر بيبرس ، وبركة الرطلي لأولاد الأمير بكتمر الحاجب ، وبحيرتي نستروه ودمياط للديوان السلطاني الخاص (٢) ، وارتفاع قيمة هذا المكس زمن السلطان فرج بن برقوق (٣) ، حيث بلغت أربعين ألف دينار في كل عام (٤) ، أدى إلى تراجع كمية الإنتاج لإحجام كثير من الفلاحين عن الصيد ، وبالتالي ارتفاع أسعار الأسماك بالقاهره (٦) .

وفرضت السلطنة ***مكس عداد المراعي*** على الحيوانات التي ترعى في الأراضي التي لا تصل إليها مياه فيضان النيل (٧) ، ويتقرر مبلغ المكس بناء على عدد مواشي الفلاحين والعربان ، بعد إحصائها في شهر نيسان من كل عام (٨) . وكان يجبى بأقساط شهرية (٩) ، حتى أضافه السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى عبرة الإقطاعات في سنة ٧١٥هـ / ١٣١٥م ، حيث صار كل مقطع يجبي مبلغا معينا عن كل رأس من الحيوانات التي ترعى في إقطاعه، إلى أن تغير ذلك في بداية القرن ٩هـ / ١٥م ، حيث عادت السلطنة إلى إرسال عدادين للأغنام في كل عام ، وتقرير ما على أصحاب الأغنام من ضريبة وفقا لعدد الرؤوس ، وجمعها وإرسالها إلى خزينة السلطنة ، وعدم تمكين العربان من رعي الأراضي إلا بعد دفع المكس ، مما أدى إلى الحروب مع الكشاف ، بسبب رفضهم للدفع (١٠). كما فرضت السلطنة ***مقررا على الجواميس*** يتناسب مع كمية إنتاجها،ويتراوح ما بين ثلاثة دنانير إلى خمسة عن كل جاموسة (١١) .

وشاعت في الفترة المملوكية الثانية ***الحمايات*** ، وهي انتماء الفلاحين وكثيرين من أصحاب الإقطاعات والأجناد والطواحين والمعاصر لبعض الأعيان وأهل الشوكة وحاشية السلطان ، لتخليصهم مما يتقرر عليهم من المغارم ، مقابل دفع مبلغ معين لهم ، وسموا البلاد التي تدفع ذلك باسم الحمايات (١٢) . ومما كان يشجع على هذه الحمايات ظلم الولاة والمتدركين ، بحيث تصبح الحمايات الوسيلة الوحيدة للتخلص من هذا الظلم ، واعتبارها كبديل عن الجرافة والخفير والرجال لعمل الجسور (١٣) .

١- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٦٣ -٢٦٤ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ / بيرو طافور ، رحلة ، ص ٦١ .

٢- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٨ .

٣- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ / ابن إياس ، نشق ، ص ٣١ أ .

٤- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٣٣٩ .

٥- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٧١ .

٦- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٣٣٩ .

٧- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٤٧ .

٨- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٧ / ابن ظهير الحنفي ، روضة الأريب ، ص ١٠٨٨ .

٩- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٦٢ / القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٢١ .

١٠- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٧ ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٧٢٠ ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٩٣٩ / ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص٣٤٣ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٤ ، ص ٢٤٢ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ٣١٣ ، إنباء ، ص ١٤٨ .

١١- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص١١١ .

١٢- الأسدي ، التيسير ، ص ٩٦ .

١٣- نفس المصدر ، ص ١٣٥ .

أخذت الحمايات بالتزايد التدريجي في عصر السلطان برقوق ، فحاول الحد من توسعها ، فجمع الأمراء في سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م وهدد كل من يمارس ذلك بالتسمير أو القتل ، وأصدر المراسيم إلى الولاة بالوجهين القبلي والبحري بمساواة حجم الضرائب على الفلاحين والأمراء ،وأن لا يحمي أي فرد من الفلاحين (١) . واتخذت الحمايات في عصر السلطان فرج بن برقوق منحى جديدا ، حيث أنشأ لها ديوانا خاصا عرف "بديوان الحمايات والمستأجرات" ، وسار على نهجه جميع الأمراء ، فأنشأ كل واحد منهم ديوانا خاصا به (٢) ، وصار بعض الأمراء يلجأون الى أبناء السلاطين لزيادة مدة حماياتهم ، فكان الأمير علم الدين بن الكويز يدفع لابن السلطان برسباي ألفا وخمسمئة دينار شهريا في مقابل حماية حماياته (٣) .

ونجم عن ازدياد الحمايات فساد أوضاع البلاد بالوجهين القبلي والبحري ، لكونها سببا رئيسيا في ازدياد الظلم الواقع على الفلاحين ، ذلك أن معظم الحماة من السلاطين والوزراء والأمراء والأعيان الذين اعتادوا الضغط على فلاحي البلاد غير المحمية ، لدفعهم للجوء إلى الحمايات ، ويتضاعف الظلم الواقع على الفلاحين عندما يكون الولاة أقوى من الحماة ، إذ يجبرون الفلاحين على دفع المغارم المفروضة عليهم ، وفي الوقت نفسه يدفعون ما يستحق عليهم للحماة ، لكون ذلك قد أصبح عادة (٤) . وقد تزايدت هذه الحمايات في عهد السلطان اينال وابنه ، وقاسى الناس منها أهوالا شديدة ، وأفسدت أحوال الأرياف قبليها وبحريها (٥) .

وازداد استغلال السلطان قانصوه الغوري للحمايات ، ففرضها على جميع الفئات كالأمراء والأجناد وأصحاب الإقطاعات والفلاحين ، وجعلها إحدى ضرائب الديوان المفرد ، وقدم موعد جبايتها قبل ابتداء زيادة النيل ، حيث يستوفي سنة معجلة ، قبل التأكد من مساحة الأراضي المزروعة والبور . واستخدم عدة وسائل لتخليصها ، إما بالقبض على زوجة وأولاد من يتهرب من الدفع ، أو بمصادرة جامكية من له جامكية أو إرسال الطواشية لنهب بيوت أمراء العشرات والطبلخانات والأجناد ، في حين أدى ارتفاع قيمة الحمايات إلىحرمان قادة الطباق من تناول أي شيء من إقطاعاتهم ، وهرب الفلاحين من الأراضي الزراعية ، وخراب عدد من البلاد (٦) .

يترتب على الغلال عند إرسالها للبيع في القاهرة والمراكز الحضرية دفع مكسين : الأول ***مكس ساحل الغلة***، وكان له ديوان في بولاق خارج المقس ، ليجبي درهمين عن كل إردب من الغلال القادمة من بلاد الأرياف (٧) ، إضافة إلى ما يتكلفه صاحب الغلة لعمال الديوان من الشادين والكيالة والكتاب ، وقد ألغيت هذه الضريبة زمن

١- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص٨٤ / الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص ٤١٣ .
٢- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١١١ .
٣- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٤ ، ص ١٠٩ .
٤- الأسدي ، التيسير ، ص١٣٥-١٣٦ .
٥- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٦ ، ١٣٦ ، ١٩٥ .
٦- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٢٦٢-٢٦٣ ، ٣٨٠ ، ٣٩١ ، ٤٨٥ ، ج٥ ، ص ٩١ .
٧- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ،ق١ ، ص١٥٠ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٩ ، ص ٣٢١ .

السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، بعد أن بلغ حجم عوائدها السنوية ٤,٦٠٠,٠٠٠ درهم (١) ، ثم ألغيت مرة ثانية في سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م(٢) ، وأبطلها السلطان برقوق من ثغر دمياط وفارسكور ، حيث كانت تؤخذ من الفقراء الذين يشترون إردبين فما دون (٣) . وأعيدت هذه الضريبة زمن السلطان قايتباي ، بسبب حاجته للأموال للتجهيز لقتال العثمانيين (٤) ، ففرض نصف فضة على كل من يشتري أو يبيع إردبا من الغلال ، إلا أنه ألغاها قبل وفاته (٥) ، فأعادها ابنه الناصر في سنة ٩٠١هـ / ١٤٩٥م (٦) . وتزايد أمرها زمن السلطان قانصوه الغوري ، وعرفت بالموجب ، حيث صار ت تؤخذ ثلاثة أنصاف عن كل إردب ، حتى ألغاها في سنة ٩١٩هـ / ١٥١٣م ، بعد أن وصلت عوائدها السنوية إلى ٤٠,٠٠٠ دينار (٧) . أما المكس الثاني فيعرف ***بنصف السمسرة*** ، ويجبيه الدلالون والسماسرة من المشترين والبائعين عن كل إردب يقومون ببيعه ، ووصل في القرن ٨هـ / ١٤م إلى درهمين عن كل إردب ، حتى خفضه الأمير يلبغا السالمي في بداية القرن ٩هـ/١٥م وجعله نصف درهم عن كل إردب (٨) .

ويختص ***مكس مساحة القصب والقلقاس*** بهذين المحصولين ، ويتقرر بناء على مساحة الأراضي المزروعة بهما، وعلى أرباب ورجال معاصر القصب (٩) ، وألغي هذا المكس ثلاث مرات ، كانت الأولى زمن السلطان الناصر محمد ابن قلاوون (١٠) ، والثانية أثناء ثورة يلبغا الناصري في سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨م (١١) ، والثالثة عند اعتلاء السلطان الناصر بن قايتباي العرش في سنة ٩٠١هـ/١٤٩٥م (١٢) ، ويشير ليون الإفريقي ، الذي زار مصر زمن السلطان قانصوه الغوري ، إلى أن كورة ديروط تدفع ١٠٠,٠٠٠ دينار أشرفي عن صنع السكر (١٣) .

وفرضت السلطنة ***مكس الفواكه*** على جميع الأصناف البلدية والمجلوبة (١٢) ، وألغي هذا المكس لأول مرة سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨م في أثناء ثورة يلبغا الناصري (١٣) ، وفي سنة٨٢٣ هـ / ١٤٢٠م أعاد

١- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ١٣١ .
٢- ابن حجر ، إنباء ، ج٣ ، ص ٣٢١ .
٣- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص١٠٦، ج٢ ، ص ٣١١ ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٦١٦ / ابن حجر ، إنباء ، ج٢ ، ص١٧ ، ج٤ ، ص ٥٤/ العيني ، عقد ، ص ١٩ب / ابن تغري بردي ، المنهل ، ج٣ ، ص ٣٣٩ / السخاوي ، الضوء ، ج٣ ، ص١٢ .
٤- ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٣٣١ .
٥- نفس المصدر ، ج٥ ، ص ١٤ .
٦- نفس المصدر ، ص ٣١٥ .
٧- نفس المصدر ، ج٤ ، ص ٣٠٤ ،ج٥ ، ص ١٤ .
٨- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص٢٩٢ ، السلوك ، ج٢ ، ق٤ ، ص ١٥٠ ، ١٥٤ ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٩٧٣ / ابن حجر ، إنباء ، ج٤، ص ٣٦ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٥٣٢ ، ٥٤٨ .
٩- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٥٤ / المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص١٥١ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٩ ، ص٣٩ .
١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٥١) .
١١- ابن الفرات، تاريخ، مجلد٩ ،ج١، ص٦٠/ المقريزي ، السلوك ،ج٣، ق٢، ص٥٩٧/ ابن تغري بردي ،النجوم ،ج١١ ، ص٢١٧.
١٢- ابن الشحنة ، البدر الزاهر ، ص ٥١ .
١٣- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٥٧٨ .
١٤- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ٥٢٧ / الصيرفي ، إنباء ، ص١٢٥/ ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص٣٠٢ ، ج٥ ، ١٤ ، ٩٠ .
١٥- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ج١ ، ٨٥ / ابن قاضي شهبه ، تاريخ ، ج٣ ، ص ٢٧٣ .

السلطان المؤيد شيخ الغاءه (١) ، بعد أن وصلت عوائده السنوية إلى ستة آلاف دينار (٢) . وأعاد السلطان برسباي ***مكس دار التفاح*** في سنة ٨٢٥هـ / ١٤٢١م (٣) ، ولكن الوزير تاج الدين بن عبدالرازق أعاد مكس الفواكه بأكمله في سنة ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م (٤) .

ومن الضرائب على المحاصيل الأخرى ***مكس الحلفاء والدريس*** ، ويستوفيه مجموعة من الكتبة المقيمين خارج باب النصر عن الدريس والحلفاء التي يصدرها الفلاحون للبيع في مدينة القاهرة (٥) . ***ومكس الحشيش*** ، وهو ضريبة تقرر على زارعي الخشخاش ، وقد ألغاها السلطان برسباي في سنة ٨٣٠هـ / ١٤٢٩م ، إلا أن انخراط الأعيان والأمراء في زراعة الخشخاش أدى إلى إعادة ضريبته سريعا (٦) . ***ومكس معامل الفروج*** بالغربية والتحريرية وسائر بلاد الأرياف ، وقد ألغاه السلطان برقوق (٧) ، ولكن ليون الإفريقي يؤكد أن السلطنة كانت تأخذ مبالغ عالية عن تفريخ الدجاج في القرن ١٠هـ/١٦م (٨) .

يتعرض الفلاح المصري لاضطهاد أرباب الوظائف ودفع مكوس معينة لهم ، يأتي على رأسها ***ضريبة القدوم*** ، التي يفرضها الولاة والكشاف على الفلاحين ، عند ابتداء تسلمهم لوظائفهم ، وتوزع على كل قرية وفقا لعدد سكانها. وازدادت هذه الضريبة مع ازدياد البرطلة في الوظائف، وخاصة في فترة السلطان برقوق ، حيث كان الولاة يعزلون سريعا ، مما يضطر الفلاحين إلى دفع القدوم في كل مرة . وإذا تمكن الوالي المعزول من العودة مرة ثانية ، بعد الإلتزام بدفع مبلغ جديد ، فإنه يلجأ إلى شتى الوسائل لتحصيل الأموال وتسديد ما تراكم عليه (٩) ، فقد تعهد الأمير داود في سنة ٨٣٥هـ / ١٤٣١م بجباية إثني عشر ألف دينار لما لوظيفة كاشف الوجه القبلي (١٠) . وفي سنة ٨٤٠هـ /١٤٣٦م تمكن ولي الدين محمد بن القاسم المحلاوي نديم السلطان ومضحكه من الحصول على قضاء عدد من البلاد منها دمياط، فعين النواب في المناطق التابعة له ، وفرض عليهم تقديم مبلغ شهري أو سنوي، إلى أن باع وظيفته بخمسين ألف درهم للقاضي جلال الدين محمد بن البارزي ، عندما سار للحجاز (١١) .

١- العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥-٨٢٤ هـ ، الطنطاوي ، ص ٣٨١ .

٢- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٥٢٧ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٣٨٠ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص٢٥٦ أ .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٢١ .

٤- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٤ ، ص ٢٩٨ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٢٨١ أ .

٥- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد٩ ، ج١ ، ص ٧١ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص١٠٦ / العيني ، عقد ، ص٢٠ أ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١١، ص٢٣٨ ، ج١٢ ، ص ٨٧ ، المنهل ، ج٣ ، ص٣٤٠ / مجهول ، كتاب في التاريخ ، ١١٥أ .

٦- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٣٠٢ أ .

٧- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد٩ ، ج١ ، ٨٥ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص١٠٦ ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٦١٦ / العيني ، عقد ، ص١٩ب / ابن تغري بردي ، المنهل ، ج٣ ، ص٣٣٩ / مجهول ، كتاب في التاريخ ، ص١١٥ أ .

٨- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٥٩٣ .

٩- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق١ ، ص ٣٧٢ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٢٥١ .

١٠- الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ٢٥٤ .

١١- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ١٠٠٥/ الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص٣٧٩-٣٨٠ .

وفرضت السلطنة على الفلاحين تقديم مكوس معينة لعمال الدواوين ، ***كحق الجهبذة* والشادين** والمدركين***** (١) ، فوصل حق الجهبذة في سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م إلى درهمين عن كل مئة درهم تستخرج من الفلاحين ، وحق الشادين ستة دراهم ، وإذا كان الشاد نقيبا صار حقه عشرة دراهم (٢) . ويجب على الفلاح تقديم ***هدايا الريف*** في أوقات محددة من السنة ، وتكون عينا كالخراف والدجاج والكشك (٣) ، ***والضيافات*** من الدجاج والخراف والكعك والبرسيم والكشك ، وما يحتاجه الموظفون أثناء إقامتهم لجمع الضرائب ، وقد أضافها الناصر محمد ابن قلاوون إلى عبرة الإقطاعات في سنة ٧١٥هـ / ١٣١٥م (٤) ، وأصبحت في القرن ٩هـ / ١٥م من اختصاصات الاستادار ، الذي يوزعها على كل قرية وفقا لعدد سكانها وحالة الفلاحين ، واحتياجات السلطنة للمال (٥) . ففرض الاستادار في سنة ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م مئة دينار على بعض القرى وفرض على بعضها أقل من ذلك وعلى بعضها أكثر من ذلك ، لمساعدة الديوان المفرد على توفير نفقة المماليك السلطانية (٦) .

ويقع على عاتق الفلاحين ***توفير العليق*** اللازم لخيول البريد (٧) ، وتزويد السلطان بما يحتاجه من عليق أثناء تفقده البلاد ، أو السفر لأحد الأقاليم كبلاد الشام (٨) ؛ ففي سنة ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م فرض العليق على النواحي المختلفة ، لعجز الديوان المفرد عن توفير عليق خيول المماليك السلطانية (٩) . وأمر السلطان قانصوه الغوري في سنة ٩١٥هـ / ١٥٠٩م مشايخ العربان والكشاف باستقبال الأمير أبي يزيد بن محمد بن مراد بك بن عثمان ، وعمل الأسمطة اللازمة له منذ دخوله للبلاد المصرية ، وجمع الإوز والأغنام اللازمة لذلك ، فرموا ذلك على الفلاحين وأصحاب الإقطاعات (١٠) .

١- ابن شاهين ، زبدة ، ص ١٠٧ / الصوفي ، الصفوة ، ص ٤٤ أ .

* الجهبذ :- وهو الذي يتولى أخذ الأموال وصرفها ، وفحص النقود الذهبية والفضية عند قبضها من الفلاحين (القلقشندي ، صبح ، ج٤ ، ص ١٤ ، ج ٥ ، ص ٤٣٨ / الأسدي ، التيسير ، ص ١٢٢-١٢٥ .

**الشاد :-وظيفة تضاف إلى مجالات متعددة ، ومنهم الشاد الذي يرافق الوزير لاستخلاص أموال النواحي (القلقشندي ، صبح ، ج ٤ ، ص ٩، ٢٣) .

***المتدرك :- هذا المصطلح يختلف في معناه وفقا للمهام التي توكل إلى صاحبه فيعني الحماية عندما توكل إلى العربان مهمة الحفاظ على أمن المناطق الواقعة بالقرب من أماكن سكناهم ، ويطلق على ضمان الضرائب ، كمشايخ القرى .

٢- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٢ ، ص١٩٧ .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج١٠٠٥ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ٣٨٠ .

٤- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص١٥٠ ، خطط ، ج١ ، ص ٨٨ .

٥- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٣ ، ص ١٢٢٤ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص٣٣٧ ، ٣٣٨ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ١١٢ ب / السخاوي ، الضوء ، ج٤ ، ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ / ابن إياس ، بدائع ، ج٤، ص٣٩١ .

٦- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص٧٩٨ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص١٥٢ .

٧- Poliak , The Influence ,(BSOAS) , VOL X , 1939-42 , P 873 .

٨- ابن قاضي شهبه ، تاريخ ، ج٣ ، ٥١٠ / الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص٢٠١ .

٩- الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص١٥٤ .

١٠- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ١٥٣ .

يعد تحرك السلطان نحو بلاد الأرياف للتنزه أو الصيد أو تفقد أوضاع المناطق الريفية ، بمثابة التزام ضريبي على الفلاحين والمقطعين والعربان والولاة ، إذ يتوجب على كل من يمر السلطان ببلاده تقديم *التقادم* ، التي أصبحت مع مرور الوقت ضريبة سنوية ، يعين السلطان أميرا لجمعها (١) . فعندما سار السلطان فرج بن برقوق إلى الإسكندرية في سنة ٨١٤هـ / ١٤١١م ، قدم له مشايخ العربان التقادم الجليلة ، ولكنه قبض عليهم وصادر أموالهم ، وبث أمراءه في النواحي المختلفة لنهب الأموال والحيوانات (٢) . وأجبر والي القاهره باعة الفواكه وأصحاب البساتين على حمل النرجس إلى المؤيد شيخ عند مسيره إلى ناحية اوسيم (٣) ، وقرر على أهالي البحيرة تقديم أربعين ألف دينار بسبب مرور السلطان ببلادهم أثناء مسيره إلى الإسكندرية في سنة ٨١٨هـ /١٤١٥م (٤) . وقام السلطان قايتباي في سنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م بزيارة النواحي المختلفة ، وجباية التقادم والأموال من كبار الفلاحين والحاق أضرار بالغة بالفلاحين البسطاء ، الذين انبث الأعوان في قراهم لجمع الحطب ، حيث كانوا يخلعون أبواب البيوت ، حتى بالغ البعض وقال إنهم قد خلعوا أبواب المساجد (٥) ، كما كثرت التقادم عليه أثناء زيارته الإسكندرية (٦) والجيزة ومنوف العليا في سنة ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م (٧) .

ويلاحظ كبر حجم التقادم من زيارتي السلطان قانصوه الغوري للفيوم في سنة ٩١٨هـ / ١٥١٢م ، وخروجه للصيد في سنة٩١٩هـ /١٥١٣م ؛ ففي أثناء إقامته بالفيوم كثرت التقادم عليه ، فمنح الأتابك ثلاثمئة دينار وفرسين ، وخمسين رأسا من الغنم ، وخمس بقرات ، ومنح كلا من أمير المجلس والدوادار وحاجب الحجاب مئتي دينار وفرسا وأربعين رأسا من الغنم ، وأربع بقرات ، سوى الإوز والدجاج ، وأعطى أمراء الطبلخانات أربعين دينارا ، وأمراء العشرات عشرين دينارا ، وعددا من الأغنام بحسب مشيئته ، كما منح الخاصكية وأرباب الوظائف ، وفرق على أصحاب المغاني عشرين دينارا وثوبا من الصوف (٨) . وقدم له كاشف الشرقية وشيخ العرب التقادم الجليلة في أثناء تصيده في سنة ٩١٩هـ / ١٥١٣م ، بعد أن جمعوها من أهل القرى والمقطعين ، بفرض عدد معين من الأغنام والخيول والأبقار والأموال على كل قرية (٩) .

وأنشأت السلطنة ديوان *المواريث الحشرية* في القاهرة والفسطاط ،لأخذ تركة من يموت دون وارث، إلا أن

١- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد٩ ، ج٢ ، ص ٤٠٢ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص٢٢٦ ، ٢٧٨ / الخالدي ، المقصد ، ص ١٤٥أ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص٢١٢ / الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص٤٠٢ .

٢- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص ٧٨-٨٨ .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص٢٧٢ .

٤- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٢٩٩ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ١٦٤ / العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥-٨٢٤ هـ ، الطنطاوي ، ص ٢١٨-٢١٩ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص١٧٧ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص٢٣١ أ .

٥- الصيرفي ، إنباء ، ص ٧٤ .

٦- القاضي عبد الباسط ،نيل ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ب .

٧- نفس المصدر ، ص ٢٨٦ب .

٨- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٢٩٤ .

٩- نفس المصدر ، ص ٣٥٤ .

ذلك تطور إلى الاعتداء على تركة كل من يموت . وفي المناطق الريفية كانت تجمع لحساب الديوان السلطاني (١) ، وتركزت على كبار الفلاحين وشيوخ العربان ، فعند موت أمير عرب هوارة أرسل السلطان فرج بن برقوق الوزير سعد الدين البشير للحوطة على تركته (٢) . وكان الديوان يصادر تركة كل من يموت من أهل الذمة ، إلى أن يتمكنوا من إثبات حقهم بمقتضى الشرع الشريف (٣) .

وتعرض الفلاحون في القرن ٩هـ / ١٥م إلى *البلص* * (٤) ، وإلى ابتزاز الأموال باسم *مقرر الخيول* ، ففي سنة ٨٣٧هـ / ١٤٣٠م فرض السلطان برسباي على كل قرية بالشرقية والغربية والمنوفية والبحيرة وسائر بلاد الوجه البحري تقديم فرس أو خمسة آلاف درهم ، وعلى بعض القرى فرسين أو عشرة آلاف درهم (٥) .

ويتعرض الفلاح إلى بعض المكوس المؤقتة ؛ منها *المصادرات أو السرحات* نحو بلاد الأرياف ، التي تعد من أكثر الضرائب خطرا على الفلاح المصري ، والحياة الزراعية ، والإقتصاد المصري ككل ، وقد ظهر تأثيرها السلبي جليا في العقود الأربعة الأولى من القرن ٩هـ/١٥م ،لأن معظم هذه المصادرات تركزت على نهب حيوانات العمل ، ومواشي الفلاحين ، إضافة إلى ما لديهم من النقود الذهبية والفضية ، وبالتالي إضعاف القدرة الإقتصادية للفلاحين ، وعجزهم عن توفير متطلبات الحياة الزراعية .

وشهدت فترة الظاهر برقوق إرسال مجموعة من التجاريد لمصادرة خيول الفلاحين والعربان وغلالهم وحيواناتهم ، فمن جملة ما عاد به الأمراء بعد خروجهم لإخماد حركات العربان بالبحيرة في سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م ثلاثة آلاف رأس من الضأن وستة آلاف رأس من الماعز (٦) . وصادرت السلطنة في سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م كميات كبيرة من الشعير، ومئة رأس من خيول أهالي البحيرة والغربية والشرقية لإرسالها للعساكر ببلاد الشام (٧) ، وألزم

١- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص٥٣٣ .

٢- السخاوي ، الضوء ، ج٣ ، ص٢٤١ .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٩٢٣ .

* البلص :- هو أخذ أتاوات أو رشاوي ، لصالح الشخص الذي يتولى إحدى الوظائف المرتبطة بمصالح الناس ومعايشهم، وانتشرت في العصر المملوكي ، حتى وصلت للأوقاف والحسبة والقضاء ، وبلغ من قوة انتشارها أن صار الولاة يعينون شخصا لجمعها يسمى البلاص .(ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٤ ، ص ٣٤٧ ، حاشية رقم ١) .

٤- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٤ ، ص ٣٤٧ ، المنهل ، ج٢ ، ص ٤٨٥ .

٥- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص٩١٢ / ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص٢٩٧ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٤ ، ٢٣١ / الصيرفي، نزهة ، ج٣ ، ص٢٨٣ .

٦- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ،ق٢ ، ص ٣٠٥ .

٧- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ج١ ، ص ١٩٣ .

الأمير منطاش الناس بتقديم عدد من الخيول . وفي سنة ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م تم مصادرة خيول العربان والفلاحين وإدخالها للحشارات السلطانية (١) ، وخرج الأمير ناصر الدين إلى بلاد الصعيد لأخذ الخيول والجمال والرقيق من أهلها ، على ما جرت به العادة (٢) ، وأحضر كاشف الوجه البحري الكثير من خيول عرب الزهور (٣) ، وتم الاستيلاء على بعض الخيول أثناء تربيعها في الجيزة (٤) . وسلب الأمراء في سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م لثمانين فرسا من العربان القاطنين بين النويرة وببا من عمل البهنساوية (٥) .

وتزايدت المكوس في عصر السلطان فرج بن برقوق بسبب كثرة تحركه نحو بلاد الشام ، ورغبته ورغبة أمرائه بجمع الأموال ، حتى قيل إنهم مكسوا كل شيء (٦) ؛ ففي سنة ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م صادر من شيخ عربان بني التركية بالبحيرة ثلاثين ألف رأس من الغنم ، سوى الخيول والجمال (٧) . واتخذ استاداراه جمال الدين وسعد الدين بن غراب من فرض الأموال على النواحي وجمعها بالقوة ، وسيلة للحفاظ على وظائفهم ، واستمر ذلك سنة بعد وفاتهم ، حيث استمر السلطان بمطالبة المباشرين بالمبالغ نفسها ، مما أدى إلى خراب بعض البلاد ، وشيوع الاستيلاء على أموال الناس بالقوة (٨) . وعندما أراد السلطان التوجه إلى الإسكندريه في سنة ٨١٤هـ/ ١٤١١م ، أرسل الأمراء والمماليك لبلاد الوجه البحري ، فشنوا الغارات ونهبوا الأموال وساقوا عشرات الآلاف من رؤوس الأغنام والجواميس والخيول والجمال للقاهره ، سوى ما تلف منها بالطريق (٩) .

وفي الفترة ما بين ٨١٦هـ -٨٢٢هـ / ١٤١٣- ١٤١٩م شن استادار السلطان المؤيد شيخ تسع حملات لمصادرة أموال الفلاحين ببلاد الوجهين القبلي والبحري ، وبلغ مجموع ما نهبه في ست حملات كالتالي :-

----

١- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ١٥١ أ – ١٥١ ب .

٢- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ج١ ، ص ٢٢٠ / ابن الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص ٣١٢ .

٣- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ج٢ ، ص ٢٥٧ / المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٧٤٣ / ابن قاضي شهبة ،تاريخ ، ج٣ ، ص ٣٧٥ .

٤- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد٩ ، ق١ ، ص ١٨٢ .

٥- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٨٣٩ / ابن حجر ، إنباء ، ج٣ ، ص ٢٥١ .

٦- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص ١٠٨ .

٧- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٧٧١ .

٨- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص ١٠٨ .

٩- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ١٩٢ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ١٦- ١٧ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص ٨٧ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٢٢٠ أ .

السنة	النقد بالدينار	الأصناف	المصادر
٨١٦هـ / ١٤١٣م	١٠٠,٠٠٠		ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٣٣٧ .
٨١٨هـ / ١٤١٥م		١٠٠,٠٠٠ رأس من الغنم	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٢٦ .
٨١٩هـ / ١٤١٦م	١٠٠,٠٠٠	٧,٠٠٠رأس غنم شعاري	
		١,٣٠٠ رأس غنم ضأن	
		٤٠٠رأس بقر	
		٣٠٠حمار	
		٢٠ فرسا	المقريزي، السلوك ، ج٤،ق١ ، ص٣٥٠-٣٥١، ٣٥٤ .
٨٢٠هـ/ ١٤١٧م	٥٠٠,٠٠٠	٦,٠٠٠رأس بقر	
		٨,٠٠٠رأس غنم	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ،ق١ ، ص٣٩٦ ، ٤٢٤ /ابن
		٢,٠٠٠جمل	حجر، إنباء ، ج٧ ، ص ٢٦٧ ، ٢٧٥ / ابن تغري بردي، النجوم ،ج١٣ ،ص٢١١/ العيني ، عقد ، حوادث
		٢٠٠فرس	٨١٥-٨٢٤ هـ ، الطنطاوي ، ص ٢٩٩ / عبد الباسط
		٢,٠٠٠ قنطار قند	نيل ، ج١، ص ٢٤٠أ-٢٤٠ب ، ٢٤٢ أ / ابن إياس ،
		١٨,٠٠٠ إردب غلال	بدائع ، ج٢ ، ص ٣٢ .
٨٢١هـ / ١٤١٨م ربيع الثاني		١,٤٠٠ جمل	
		٧٠ فرسا	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٤٣ .
جمادى الثاني		٥٤,٠٠٠ رأس غنم	
		٢,٠٠٠ جمل	
		٣,٠٠٠ رأس بقر	المقريزي ، السلوك ، ٤ ، ق١ ، ص ٤٥٤ / ابن حجر ،
		٩٠٠ جاموسة	إنباء ، ج٧ ، ص ٣١٢ / العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥-
شعبان		٢,٢٠٠ جمل	٨٢٤ هـ ، الطنطاوي ، ص ٣١٨ / الصيرفي ، نزهة ،
		١٢,٠٠٠ رأس ضأن	ج٢، ص ٤١٤/ القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص٢٤٦ أ .
٨٢٢هـ / ١٤١٩م		٢٠٠ فرس	
		١٠٠ جمل	المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص٤٩٥ /ابن حجر ،
		٦٠٠ جاموسة	إنباء ، ج٧ ، ص ٣٥٢ / العيني ، عقد ، حوادث، ٨١٥
		١٥٠٠ رأس بقر	- ٨٢٤هـ ، الطنطاوي ، ص٣٥٤ / الصيرفي، نزهة
		١٥,٠٠٠ رأس غنم	ج٢ ، ص٤٤٧ .
المجموع	٧٠٠,٠٠	٢١٨,١٩٠ رأس	
		٢,٠٠٠ قنطار قند	
		١٨,٠٠٠ إردب من الغلال	

وتنوعت الأساليب التي استخدمها استادارات المؤيد شيخ وأمراؤه ، بهدف مصادرة أموال الفلاحين ومواشيهم، فسار الاستادار في سنة ٨١٦هـ / ١٤١٣م على نهج رؤوس المناسر (الحرامية) ، حيث كان يهاجم القرى ليلا ويسلب وينهب كل ما تصل إليه يده من الحيوانات والمواشي والغلال ، وحلي النساء وكسوتهن ، والعبيد والإماء ، حتى استرق بعض الحرائر فباع قسما ووهب القسم الآخر (١) . وخرج في سنة ٨١٨هـ / ١٤١٥م على رأس حملة إلى جهات الشرقية والغربية والبحيرة وقطيا لتحصيل الأموال (٢) ، واستغل مسيره للقضاء على الصراع الداخلي بين عربان البحيرة في سنة ٨١٩هـ / ١٤١٦م لنهب حيوانات ومواشي الأهالي (٣) . وتمكن في سنة ٨٢٠هـ / ١٤١٧م من الإنتصار على عرب لهانة بالقلندون والأشمونين ونهب مواشيهم وأغنامهم (٤) ، كما نهب مواشي وأغنام وأموال بني هوارة في سنة ٨٢٢هـ/ ١٤١٩م (٥) ، ولجأ عند جمع النقود الذهبية إلى فرض كمية محددة على كل قرية وتوكيل شيوخ القرى بجمعها ، فتوجه في سنة ٨١٧هـ / ١٤١٤م نحو بلاد قليوب، واستدعى مشايخ وأكابر القرى وقرر على كل قرية مبلغا معينا من النقود الذهبية وحملهم مسؤولية القيام بجمعها (٦) ، وتتبع في سنة ٨٢٠هـ / ١٤١٧م كل من يشار اليه بالغنى من أهالي بلاد الوجهين البحري والقبلي وفرض على كل قرية مبلغا من الدنانير وصل إلى ألفي دينار على بعضها ، وخمسة وعشرين ألف دينار على هوارة ببلاد الصعيد (٧) .

رافق حملات المصادرة اتباع سياسة الطرح أو الرمايات للمواد العينية المنهوبة ، إمعانا في ابتزاز أموال الفلاحين وسكان المدن على السواء ، حتى ضرب المثل برمايات الاستادار ، فقيل " رمايات أبي الفرج " تعبيرا عن مدى الظلم الناتج عنها (٨) . فبعد عودة الاستادار من بلاد الصعيد في سنة ٨١٦هـ / ١٤١٣م أخذ يرمي ما نهبه على أهالي الوجه البحري بأغلى الأثمان (٩) ، وبالغ في الرمايات في سنة ٨٢٠هـ /١٤١٧م فطرح ما صادره من الجواميس على أهالي الوجه البحري بسعر إثني عشر ألف درهم لكل جاموسة ، مع أن سعر الجيدة منها لا يزيد عن ألفي درهم (١٠) ، ثم طرح الأبقار التي أخذها من بلاد الصعيد ، على نواحي بلاد الجيزة وسائر بلاد الوجه البحري ، وعلى ملاك المعاصر والدواليب والبساتين بالقاهرة وضواحيها (١١) .

١- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص٢٧٤-٢٧٥/ ابن حجر ، إنباء ، ج٧، ص١١٦/ ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص١٧٠ .

٢- ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ١٨٨ .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٧٢ / العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥-٨٢٤ هـ ، الطنطاوي ، ص ٢٧٠ / الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص ٣٧١ .

٤- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٩٣ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ٢٧٣ .

٥- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق ١ ، ص ٤٨٣ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٣٤٦-٣٤٧ / الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص ٤٤٢ .

٦- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٢٨٢/ القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ٢٢٨ ب .

٧- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٨٥-٣٨٦ ، ٣٩٦ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٢٧٤ / العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥-٨٢٤هـ ، الطنطاوي ، ص ٣٠٣ / الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص ٤٠١ .

٨- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٢٢٨ أ .

٩- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٢٧٥ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص ١٧٠ .

١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٩١ .

١١- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٩٦ .

ونجم عن هذه الحركات ازدياد فقر أهل الأرياف وبؤسهم ، وتدمير بعض القرى وخرابها ، وقتل عـدد مـن الأهالي أثناء عمليات الجمع (١) ، وتراجع في الإنتاج الحيواني " فـإن الصعيـد بأكملـه قـد أقفـر مـن المواشـي "(٢)، " والأموال التي جمعها (الاستادار) من مظالم العباد ، ما منها من دينار إلا وتلـف بـأخذه عشـرة ، وتخـرب بجبايتـه مـن أرض مصر ما يعجز القوم عن عمارته " (٣) .

تؤكد الروايات المتناثرة في المصادر المختلفة استمرار حملات المصادرة أو السرحات نحو بلاد الأرياف، ولعـل عدم تتبع المصادر لها يعود لكونها أصبحت أمرا عاديا ، لم ينته إلا مع نهاية السلطنة المملوكية (٤) . واستغل الأشـرف برسباي حجة السفر إلى بلاد الشام لجمع الأموال من الأهالي ، ثـم الغـى تحركـه بعـد ذلـك (٥) ، وحـاربت السـلطنة العربان المتحالفين على رفض دفع السرحة السنوية في سنة ٨٣٨هـ / ١٤٣٤م (٦) ، فاستولت على سـتمئة جمـل من عربان محارب بالاشمونين (٧) ، وبلغ عدد الخيول التي صادرها الوزير في سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٥م مئتي رأس (٨)، واشتهر الاستادار يحيى عبد الرازق بمصادرة أموال الفلاحين ومشايخ القرى (٩) ، واستولى الأمـير برقـوق علـى خيـول عربـان الشرقية في سنة ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م ، وأرسل منها مئتين وعشرين فرسا للسلطان (١٠) . وبلغت قيمة تقدمة الاسـتادار بعد عودته من بلاد الصعيد في سنة٨٧٤هـ / ١٤٦٩م مئـتي ألـف دينـار ، منهـا مئـة وثلاثـة عشـر ألـف دينـار نقـدا ، وعشرون ألف إردب من الشعير (١١) ، وتقدمته في سنة ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م مئتين وخمسين ألف دينار سوى مـا نهبـه من الخيل والبقر والرقيق (١٢) . ومن جملة ما نهبـه الدوادار طـومان بـاي في سـرحتـه نـحـو بـلاد الصعيـد في سـنة ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م أربعـة آلاف رأس مـن الغنم ، زعمـوا أنها لعرب عزالـة (١٣) . وصادر الوزيـر في سنـة

١- السخاوي ، الضوء ، ج٤ ، ص ٢٥٠ .

٢- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٩٥-٤٩٥ .

٣- نفس المصدر ، ص ٥٠٢ .

٤- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٣٦ ، ج٤ ، ق٣ ، ص ١٢٢٤ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٤٠٩ ، ج٨ ، ص ٢٥٩ / الصيرفي ، نزهـة ، ج٣ ، ص١٤٧ / السـخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ٨٧١ ، ١١١٤ / القـاضي عبدالباسـط ، نيـل ، ج١ ، ص ٣٠٦أ ، ٣٢١أ، ج٢ ، ص ٢٧٣ب ، ٣٢٧ ب ، ٣٢٩ب ، ٣٩٥ب / ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٤٢٨ .

٥- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٨٧-٨٨٩ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٤ ، ص ٢٠٠ ، ٢٠٤ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ٣١٤ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٣٢٤ ب .

٦- ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٣٣٩ .

٧- الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ٣١٤ .

٨- العيني ، عقد ، حوادث ٨٢٤ - ٨٥٠هـ ، الطنطاوي ، ص ٦٣٨ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص١٤٢أ / السخاوي ، التبر ، ص١١٧ .

٩- السخاوي ، الضوء ، ج١٠ ، ص ٢٣٤ .

١٠- الصيرفي ، إنباء ،ص ١٢٥ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص٢١٦ أ .

١١- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص٢١٩ب -٢٢٠ أ .

١٢- الصيرفي ، إنباء ، ص ١٨٦ .

١٣- ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٤٠٩ .

٩٠٧هـ / ١٥٠١م اثني عشر ألف رأس من الغنم (١) . وعاد طومان باي من الشرقية والغربية في سنة ٩١٧هـ / ١٥١١م بعد إهلاكه الحرث والنسل ، وسلب حيوانات ومواشي الفلاحين ، وجباية مبلغ معين من كل قرية ، حتى اعتدى على بلاد الأوقاف التابعة للمدارس و الجوامع (٢) .

وكان السلاطين في حالة عجز خزينة السلطنة عن تمويل الحملات العسكرية يلجأون إلى اتخاذ إجراءات ضريبية مؤقتة ، يمكن أن نطلق عليها *ضرائب الحروب* ، وتمس جميع الفئات السكانية ، فتجمع من المناطق الريفية إما عينا أو نقدا ، وفقا لاحتياجات السلطنة . وقد اتخذ الفقهاء موقفا محددا منها ، يتمثل في رفض المحاولات المتكررة من قبل السلاطين لانتزاع فتوى تبيح لهم القيام بذلك ، خوفا من استغلال السلطنة لها كوسيلة لنهب الأموال ، ولم يروا السماح بجمعها إلا بعد استنفاد كل ممتلكات وثروات بيت المال والأمراء والأجناد ، وحلي نساء القصر (٣) .

فرض الأمير منطاش في سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م على أصحاب الإقطاعات والأمراء وأرباب الوظائف تقديم ألف فرس ، لتجهيز حملة لقتال السلطان برقوق ، فجبي خمسمئة منها عينا وخمسمئة نقدا ، حيث استبدل بكل فرس خمسمئة درهم (٤) . وازدادت حاجة السلطان فرج بن برقوق للأموال بعد انهزامه أمام التتار ، والتجهيز لحملة ثانية في سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م ، فأوكل للأمير يلبغا السالمي تحصيل الأموال اللازمة لذلك ، ففرض على كل فدان من القصب والقلقاس والبساتين مئة درهم (٤ دنانير) ، وعلى كل عبرة ألف دينار تقديم فرس أو خمسمئة درهم ، وأخذ نصف مغل إقطاع من لم يتمكن من أجناد الحلقة من الخروج ، وأخذ من الشيوخ والأطفال المقطعين خمسمئة درهم ، وفرض على مراكب النيل درهما عن كل إردب من الغلال المحمولة (٥) . وقام الأمير تمراز بتحصيل ألف جمل وألف فرس (٦) . وفي سنة ٨١٩هـ / ١٤١٩م تم جباية الجمال من بلاد الوجهين القبلي والبحري ، لتجهيز حملة لقتال الأمير حكم الثائر ببلاد الشام (٧) .

وشهدت العقود الخمس الأخيرة من تاريخ السلطنة المملوكية تزايدا في تكاليف الحملات العسكرية، لمواجهة خطر العثمانيين والتركمان ، الذين بدأوا بمهاجمة الحدود الشمالية لبلاد الشام ، فبلغت تكلفة ثلاث حملات بين ٨٧٢-٨٧٧هـ/ ١٤٦٧- ١٤٧٢م ٣,٧٧٠,٠٠٠ دينار ، سوى الحيوانات والجمال والمواشي (٨)، وبلغت تكلفة

١- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٢٢ .

٢- نفس المصدر ، ص ٢١٠ .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٤١٦-٤١٧ ، ج١ ، ق٣ ، ص ٨٩٨-٨٩٩ / السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ١٠٨٤ / السيوطي ، حسن ، ج٢ ، ص ٤٠ ، ٧٦ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ١٩٩ب / ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ١٤ .

٤-ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد٩، ج١ ، ص ١٦٥ ، ١٦٨ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص٤٢١ .

٥- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص١٠٥٢-١٠٥٤ ، خطط ، ج٢ ، ص ٢٩٢ / ابن حجر ، إنباء ، ج٣ ، ص٢١٢ ، ج٤ ، ص٢١٠ / العيني ، عقد ، ص٤٥أ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٢ ، ص١٩٦ ، ١٩٨ / الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص٩٨ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص١٨٣أ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص٣٨٧ ، ٦١٩-٦٢١ .

٦- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٢ ، ص ١٨٤ .

٧- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٨١٥ .

٨- مجهول ، تاريخ مصر ، ص ١٤ب .

الحملات حتى سنة ٨٩٤هـ / ١٤٨٨م ٧,١٥٠,٠٠٠ دينار (١) ، مما دفع السلطان قايتباي لاتخاذ إجراءات ضريبية لتوفير ذلك ، كاستحداث ضريبة الخمس في سنة ٨٩١هـ / ١٤٨٦م ، إذ أرسل أميرا للشرقية لاستخراج خمس خراج المقطعين والقبض على الفلاحين ، باسم إخراج خيالة من عرب الشرقية إلى بلاد الشام ، فيجمع الضريبة في كل سنة دون إرسال الخيالة (٢) . وعندما ولي السلطان قانصوه الغوري ابتدأ سلسلة جديدة من الإجراءات الضريبية ، وفرض على بلاد المقطعين في سنة ٩٠٨هـ/١٥٠٢م جمالا لإرسال تجريدة إلى مكة ، فوزع على كل بلدجملين أو خمسين دينارا ، مما أضر بالمقطعين وأدى إلى خراب بعض البلاد (٣) . وفي سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م أمر مشايخ العربان والكشاف بتحصيل عشرين ألف خيال من فرسان العرب ، وتوزيع ذلك على سائر بلاد الوجهين القبلي والبحري ، واستغل المشايخ والكشاف ذلك لتحصيل الأموال لأنفسهم ، فأخذوا بدل الدرهم عشرة (٤) ، وأفردوا على كل بلد خيالين أو مئة دينار ، وعلى البلاد الكبيرة أربعة خيالة أو مئتي دينار ، وأخذوا بجبايتها ، مما دفع الفلاحين للهجرة وترك الأراضي والمزروعات ، وخراب بعض البلاد ، إلى أن اضطر السلطان للتراجع عن سياسته بعد اصطدامه مع الأمراء المتضررين (٥) .

ولم تكن محاولات الفقهاء لحماية الأوقاف والرزق الأحباسية من دفع المكوس والضرائب الشرعية ، باعتبارها مرصدة على مصارف بيت المال ، وعلى بعض أعمال البر والتقوى ، لتحول دون اعتداء السلاطين عليها ، وإجبار أصحابها على دفع بعض المكوس والضرائب عند احتياج السلطنة لذلك . فعند التجهز لقتال التتر في سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م فرض الأمير يلبغا السالمي عشرة دراهم على كل فدان من أراضي الرزق المزروعة بالغلال (٦)، واستولى على حواصل الأوقاف (٧) ، وسيطر الأمير أرغون شاه على الأوقاف أثناء فترة حكم السلطان فرج بن برقوق (٨) ، وتقرر على الأوقاف في سنة ٨٢١هـ / ١٤١٨م شيئا محددا ، وكل وقفية لا تدفع تصادر كتب أوقافها(٩). ومنذ سنة ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م فرض على أراضي الرزق بالجيزية وضواحي القاهرة ستة دراهم من فلوس القاهرة ، ويذهب ما يجمع من الجيزية إلى ديوان الوزارة ، وما يجمع من ضواحي القاهرة إلى عمل الجسور (١٠) . وسيطر ناظر الديوان المفرد في عهد السلطانين جقمق وإينال على نصف متحصل الرزق الأحباسية (١١) . وحتى

١- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص٣٦ أ / ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص٣٢٥ .

٢- السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ٩٨٢ ، ١١٧٧ ، ١٠٨٢-١٠٨٣ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص٣٣٧أ ، ٣٨٣ أ ، ٣٨٦ ب ، ٣٩١ أ ،٤٠١ أ – ب/ ابن إياس ، بدائع ،ج٣ ، ص٢٣٧ ، ٢٥٣ ، ٢٦٩ ، ٣٣١/ Lane Poole ,Cairo , P 344 .

٣- ابن إياس ، بدائع ، ج٤، ص٤٩ .

٤- نفس المصدر ، ج٥ ، ص ٢٢ .

٥- نفس المصدر ، ص ٣١-٣٢ .

٦- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص٢٩٢ / السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١٠٥٢-١٠٥٣ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٥ ، ص ١٠٦ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ١١٢ أ-ب .

٧- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٢٩٢ .

٨- ابن تغري بردي ، المنهل ، ج٢ ، ص ٣٢٧ .

٩ - ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص٣٠٣ .

١٠ - المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٣ ، ص١٢٢١ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٥ ، ص ١٠٦ .

١١ - ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٩ ، ص ١٠٠ .

السلطان قايتباي الخمس من أراضي الأوقاف (١) ، وصادر جزءًا من أموال الأوقاف في سنة ٩٠١هـ / ١٤٩٥م(٢). وفرض السلطان قانصوه الغوري في سنة ٩٠٧هـ / ١٥٠١م دفع سنة كاملة وعشرة شهور من أجرة أراضي الأوقاف والرزق ، وأرسل المراسيم إلى النواحي المختلفة ، كثغري الإسكندرية ودمياط لجباية ذلك ، وأوكل للأمير طقطباي أحد مقدمي الألوف جمع ما على البساتين ،وللأمير ناصر الدين وكيل بيت المال جمع ما على الرزق التي بيد الخوندات والنساء والأعيان (٣) .

وتختلف العوامل التي تدفع السلاطين إلى إلغاء المكوس ، فمنها ما هو سياسي ، يتمثل في الرغبة بكسب الرأي العام أثناء الثورات العامة (٤) ، وعند تعرض السلطنة إلى حروب خارجية (٥) ، واعتلاء سلطان أو خليفة للعرش(٦) . ومنها ما هو ديني كاحترام بعض المراكز الدينية ، فكانت الخانقاه السرياقوسية معفاة من أي ضريبة ، إحتراما لمكانتها الدينية (٧) . ومنها ما هو اجتماعي ، كانتشار الأوبئة والطواعين ، وخوف السلطان من تزايد ذلك(٨) ، أو شخصي ، فقد قام السلطان قانصوه الغوري بالغاء بعض المكوس عند مرض عينه في سنة ٩١٩هـ / ١٥١٣م ، إلا أنه أعادها بعد شفائه مباشرة (٩) . وقد يكون ذلك لتحسن ميزانية السلطنة وازدياد الرخاء الإقتصادي(١٠) . ويلاحظ من ذلك أن كل هذه العوامل مؤقته ، وأن الإلغاء لا يدوم سوى فترة قصيرة ، ينتهي بانتهاء الدافع .

ونلاحظ مما سبق أن بعض الضرائب قد اتخذت صفة الديمومة نتيجة لجمعها لسنتين أو ثلاث سنوات متتابعة من قبل بعض السلاطين أو الولاة كالضيافة والتقادم.ويأتي القسم الأكبر من ميزانية السلطنة يأتي من مناطق الأرياف ، التي أخذت ضرائبها ومكوسها بالازدياد التدريجي منذ بداية القرن ٩هـ / ١٥م ، حتى نهاية السلطنة المملوكية نتيجة عوامل عدة منها فساد النظام الإداري ، بعد أن شاع منذ زمن السلطان فرج بن برقوق بيع الوظائف بالبراطيل ، وبالتالي تنويع الولاة وأصحاب الوظائف لوسائل جباية الأموال لتعويض المبالغ المدفوعة ، ومنها ازدياد حاجة السلطنة للأموال ، وخاصة بعد انخفاض وارد الضرائب الشرعية نتيجة لانخفاض الإنتاج الزراعي ، وبالتالي اعتماد السلطنة على المكوس لتعويض ذلك ، ومنها ازدياد ضغط المماليك الجلبان لزيادة نفقاتهم ، والحاجة للأموال لمواجهة الاحتياجات العسكرية ، وخاصة في الثلث الأخير من القرن ٩هـ / ١٥م وحتى نهاية السلطنة المملوكية ، لصد هجمات العثمانيين والتركمان على الحدود الشمالية لبلاد الشام ، هذا إضافة إلىالرغبة الذاتية للسلاطين بجمع الأموال وتكوين الثروات الضخمة .

١- ابن إياس ، بدائع ، ج٣، ص ١٧٨-١٨٠ .

٢- ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٣٢٠-٣٢١ .

٣- نفس المصدر ، ج٤ ، ص١٥-١٦ .

٤- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ج١ ، ص ١٩٥ / المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص٦٢٤ / ابن حجر ، إنباء ، ج٢ ، ص٣١٩ ، ٣٢٧ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١١ ، ص٢٢٢ .

٥- ابن إياس ، بدائع ، ج٥ ، ص ٨١ .

٦- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص١٤١ / ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص٨٤ ، ج٣ ، ص٣٣٦ .

٧- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٤٢٢ .

٨- قاسم عبده قاسم ، النيل ، ص ٧٦ .

٩- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٣٢٨-٣٢٩ .

١٠- ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٤٥٢ .

اساليب الجباية :-

تجمع الضرائب في مصر إما مباشرة بوساطة وكلاء ومباشري السلطنة أو الدواوين التابعة لها ، أو عن طريق المقطعين ، لأن بعض الضرائب شكلت جزءًا من عبرة إقطاعاتهم ، وأحيانا بوساطة الضمان . واتسمت إجراءات الجباة بالعنف والشدة ، والتلاعب لابتزاز أموال الفلاحين ، وإحكام قبضة السلطنة على مصادر الضرائب لتحصيلها كاملة ، دون النظر إلى تبعات أي ضريبة على الحياة الزراعية ، حتى شاع المثل القائل "مال السلطان يخرج من بين الظفر واللحم"(١) .كما تضاعفت المكوس ما بين بداية حكم السلطان برقوق وحتى منتصف القرن ٩هـ/١٥م(٢).

وحب على مباشري الخراج مراعاة الفرق بين السنتين الشمسية والقمرية ، لأن المحاصيل تنضج وفق التقويم الشمسي في مواعيد ثابتة على مدار السنين ، بينما افتتاح السنة الخراجية يقوم على أساس السنة القمرية التي يقل عدد أيامها عن السنة الشمسية بأحد عشر يوما ونصف ، وكل ثلاث وثلاثين سنة قمرية تساوي إثنتين وثلاثين سنة شمسية ، " فربما كان استحقاق الخراج في أول سنة من السنين العربية ، ثم تراخى الحال فيه إلى أن صار استحقاقه في أواخرها ، ثم تراخى حتى صار في السنة الثانية ، فيصير الخراج منسوبا للسنة السابقة ، واستحقاقه في السنة اللاحقة فيحتاج حينئذ إلى تحويل السنة الخراجية السابقة " ، وهو تحويل على الأوراق فقط (٣) . وتشير المعلومات الواردة حول الفترة المملوكية أن هذا التحويل قد تم في سنة ٦٩٦-٦٩٧هـ / ١٢٩٦-١٢٩٧م و ٧١٥-٧١٦هـ /١٣١٥-١٣١٦م و ٧٤٩-٧٥٠هـ/ ١٣٤٨-١٣٤٩م و ٨٠٢-٨٠٣هـ /١٣٩٩-١٤٠٠م و ٨٣٦-٨٣٧ هـ/١٤٣٢-١٤٣٣م و ٨٧٠-٨٧١هـ / ١٤٦٥-١٤٦٦م (٤) .

ومن الناحية النظرية يعد ديوان الوزارة رأس المؤسسات المالية المسؤولة عن جمع الضرائب ، ولكن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قصر مهمة الوزير على جمع المكوس (٥) ، بعد أن منح معظم سلطاته المالية لناظر المال(٦). إلا أن الوزراء تمكنوا من استعادة نفوذهم بعد وفاته ، ليصبح الوزير "صاحب جباية الأموال في الدولة على اختلاف أصنافها، من خراج أو مكس أو جزية، ثم في تصريفها في الإنفاقات السلطانية ، أو الجرايات المقدرة ، وله مع ذلك التولية والعزل لسائر العمال والمباشرين لهذه الجباية ، والتنفيذ على اختلاف مراتبهم وتباين أصنافهم"(٧).

١- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٢٠١ .

٢- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١١١ .

٣- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص٥٨- ٦٠ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص٢٧٣ / الخالدي ، المقصد ، ص٢٩٦ أ .

٤- بيبرس المنصوري ، مختار الأخبار ، ص ١٠٥ / النويري ، نهاية ، ج٣١ ، ص٣٤٧ / القلقشندي ، صبح ، ج١٣ ، ص ٨١ / المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص١٥٣ ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٧٥ / الخالدي ، المقصد ، ص ٢٩٦ب / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٢ ، ص٢٧٨ ج١٤ ، ص ١٩٥ ، ج١٦ ، ص ٢٥٨ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ٢٤١ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص١٦٨ ب .

٥- السبكي ، معيد ، ص ١٥٣ / المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص١٥٣/ السيوطي ، حسن ، ج٢ ، ص١٧٩ .

٦- القلقشندي ، صبح ، ج٤ ، ص ٢٨-٢٩ .

٧- ابن خلدون ، مقدمة ، ص ٢٤٢-٢٤٣ .

أخذت الوزارة بالتراجع التدريجي منذ نهاية القرن ٨هـ / ١٤م ، بسبب إنشاء السلطان برقوق ديوان المفرد في العقد الأخير من هذا القرن ، وتحويل خمسة آلاف مملوك من المماليك السلطانية إلى هذا الديوان ، بما لهم من حامكيات وإقطاعات في ديوان الوزارة (١) ، ثم انقسام الوزارة في النصف الأول من القرن ٩هـ / ١٥م إلى أربع وظائف ، وهي كاتب السر ، وناظر الخاص ، والاستادار ، والوزير الذي جرد من معظم سلطاته المالية لصالح الاستادار وناظر الخاص ، ولم يتبق له سوى جمع بعض المكوس لصرفها في لحم المماليك السلطانية ، وحوايج المطبخ السلطاني . كما لم يعد للوزارة أي قيمة إلا إذا ارتبطت مع الاستادارية ، كما حصل عندما جمعت للاستادار جمال الدين زمن السلطان فرج بن برقوق (٢) .

تولى المقطعون جزءًا من الإدارة المالية ، وخاصة بعد فشل السلطان الناصر محمد بن قلاوون بقصر الإقطاعات على الأراضي فقط ، عندما أضاف جباية حوالي المناطق الريفية ، والهدية التي كان يجمعها الولاة والكشاف إلى عبرة الإقطاعات (٣) . ثم تزايد إقطاع الضرائب الشرعية وغيرالشرعية (٤) ، وربطت مكوس كل منطقة بالجهة التابعة لها فإن " كانت تلك البلد جارية في ديوان من الدواوين فمتحصلها لذلك الديوان ، أو جارية في إقطاع بعض الأمراء ونحوهم ، فمتحصلها لصاحب الإقطاع" (٥) . ويستدل على استمرار ذلك حتى نهاية السلطنة المملوكية ، أن ضريبة ساحل الغلة كانت مقطعة لعدد من الأمراء ، زمن السلطان قانصوه الغوري (٦) .

شاع في العصر المملوكي استخدام الضمان كإحدى وسائل جمع بعض المكوس والضرائب ، مع تقديم الحماية الكافية للضمان(٧)،على الرغم من الموقف الإسلامي الذي يحرم تضمين أي ضريبة شرعية أو غير شرعية* (٨). ومن الضرائب التي تم تضمينها ضريبة المصايد ، كتضمين بحيرة نستروه بعشرين ألف دينار بالسنة (٩) ، وبحيرة تنيس لأولاد الأمير بكتمر الحاجب ، وبركة الفيل لأولاد الظاهر بيبرس(١٠)، وعشور قطيا بمئة وخمسين ألف درهم في السنة (١١) ، ومقرر طرح الفراريج التي كان لها ضمان في سائر النواحي (١٢)، ومقرر الجاموس (١٣)،

١- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص٢٢٣ / Ayalon , Studies ,(JESHO) III , VOL XVI , 1954 , P 61 .

٢- المقريزي ، خطط ،ج٢ ، ص ٢٢٣-٢٢٤ / Popper , Egypt , 1 , P 96 .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص ١٥٣ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٩ ، ص٣٦ .

٤- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٢٩ ، ج١٣ ، ص ١٢٤ .

٥- القلقسندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٣٩ .

٦- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص٣٠٤ .

٧- الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص١٤٠ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ١٤١ ب .

* يشير ابن قيم الجوزية إلى جواز تضمين الجزية إذا كان الضامن من أهل الذمة ، ويرفضها للمسلم ، لأنها ذل وصغار (ابن قيم الجوزية ، أحكام ، ج١ ، ص ٨١) .

٨- ابن جماعة ، تحرير ، ص ٣٧٧ / ابن مفلح ، المبدع ، ج٣ ، ص ٣٥٦ / الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص ١٤٠ .

٩- أبو الفداء ، تقويم ، ص ٣٩ .

١٠- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ١٠٨ .

١١- ابن حجر ، إنباء ، ج٣ ، ص ٢٨٦ .

١٢- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ،ص ١٥١ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٩ ، ص ٣٨ .

١٣- ابن ظهير الحنفي ، روضة الأريب ، ص ١٠٨٨ .

مقرر الخضار (١) ، ومقرر المغاني (٢) .

ويتحدد مبلغ الضمان بالمزاد العلني ، وبعد الاستقرار على مبلغ الضمان يتوجب على الضامن كتابة وثيقة بذلك ، وإحضار كفيل من أصحاب الثروة أو الجاه . ثم ينظم المباشر ورقة تحتوي على اسم الضامن والكفلاء ومبلغ الضمان ، وعدد الأقساط ، واستحقاق أول قسط ، والضرائب التي للضامن جبايتها من الحقوق والرسوم ، مثل ما يتحصل في الدروب من الخفر ، وكذلك مراقبة السلطة للضامن أثناء عملية الجباية حتى لا يجور على السكان ، ويزيد المبلغ المستحق . ويستخرج يوم التعديل من سائر الضمان ، "وهو قسط يوم واحد في سلخ ثلاث سنين ، يؤخذ من الضمان خالصا للديوان ، زيادة على الأقساط" (٣) .

ويتمتع الضامن بالسيطرة الفعلية على مصدر الضريبة طوال مدة الضمان ، حيث يجوز له انتزاع حقه بالقوة ، وإجبار الفئة المعنية من السكان بدفع ما عليها (٤) ، فعلى سبيل المثال لايجوز إقامة أي فرح أو حفل غناء قبل دفع مقرر المغاني (٥) ، كما لا يجوز شراء أي فروجة إلا من الضامن أو الحوانيت التابعة له (٦) ، وبذلك فقد كان الضامنون يحققون أرباحا عالية ، ويلحقون الأذى بالفئات الدنيا ، بسبب ممارساتهم الهادفة إلى ابتزاز أكبر قدر من الأموال (٧) .

وتستطيع السلطنة زيادة مبلغ الضمان قبل انتهاء عقد الضامن ، بشرط تخيير الضامن بين القبول والرفض ، فإذا رفض فعليه الإلتزام بدفع ما استحق عليه من المدة التي مضت (٨) ، وهكذا قام الوزير في سنة ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م بجمع الضمان وزيادة عشرين ألف درهم على كل واحد منهم (٩) . كما يجوز للوزير إجبار الضامن على تجديد عقد الضمان ، إذا انتهت مدة الضمان قبل تسديد مبلغ الضمان كاملا ، بينما لا يستطيع الوزير إجبار الضامن على تجديد عقده إذا ما سدد المبلغ كاملا (١٠) .

وفي منتصف القرن ٩هـ / ١٥م، اتخذ الضمان شكلا جديدا، إذ منحت السلطنة جمع الضرائب لمتدركي

١- الصيرفي ، إنباء ، ص ٣٨٨ .

٢- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد٩ ، ق١ ، ص ٨٥ / المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ٩٧٢ / ابن حجر ، إنباء ، ج٢ ، ص ١٥٣ / العيني ، عقد ، ص ٢٠ أ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٢ ، ص ٨٧ .

٣- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٢٩-٢٣٠ ، ٢٩٤ ، ٣٩٦ .

٤- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٩ ، ص ٤٠ .

٥- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق١ ، ص ٢٦٦ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ١٦٦ .

٦- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص ١٥١ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٩ ، ص ٣٨ .

٧- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص ١٥٢ .

٨- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٣٠ .

٩- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٦٣٤ .

١٠- النويري ، نهاية ، ج٨ ، ص ٢٣٠ .

القرى من شيوخ البدو والولاة ، وبعض أصحاب المناصب الدينية ، أو أي شخص ذي نفوذ ومال (١) . فكان ضمان كل من فارسكو والمنزلة ستة وثلاثين ألف دينار سنويا ، وبعض القرى عشرين ألفا ، أو إثني عشر ألف دينار ، ومن القرى ما ضمن علي القيراط ، فيدفع متدرك شبيين القصر ألف دينار عن كل قيراط(٢) .كما ظهر تطور حديد في نهاية هذا القرن ، حيث أصبح الضمان التزاما شهريا (٣) ، إضافة إلى تضمين بعض المناصب ، فالتزم الوزير في سنة ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م بدفع إثني عشر ألف دينار شهريا (٤)وناظر الخاص بدفع مئة ألف دينار في كل ستة شهور (٥) ، وهذا ما أدى إلى ازدياد عبء الضرائب على الفلاحين ، وإثراء المتدركين ، حيث " أن كل متدرك بهذه القرى يعيش أعظم من ملك من الملوك " (٦) .

شارك مشايخ القرى في الإدارة المالية ، إذ كانت السلطنة تسند إليهم مهمة جباية الضرائب من الفلاحين ، وتأخذ عليهم القسامات الوضعية والأيمان الشرعية أن ارتفاع البلاد الذي رفعوه صحيحا ، وأنهم لم ينقصوا شيئا (٧). لكن دررهم أخذ بالتراجع في فترة حكم السلطان قايتباي حيث صار يولي مماليكه والكشاف بدلا عنهم ، فيجورون على الفلاحين ويأخذون أضعاف المقرر ، مما أدى إلى التدهور التدريجي لاقتصاديات مصر (٨) .

وقد تمتعت منطقة الواحات ببعض الخصوصية ، إذ كانت تقطع لبعض الأمراء ، الذين تصالحهم السلطنة على دفع مبلغ معين في كل عام ، نظرا لعدم قدرة السلطنة على استغلالها والسيطرة عليها ، بسبب وقوعها في منطقة نائية ومقفرة (٩) .

تؤكد الروايات أن الإسراف في استخدام القوة وتنوع العقوبات والظلم والتحايل لابتزاز أموال الفلاحين ، كانت من أساليب الجباة في مصر (١٠)، وكانت السلطنة تلجأ إلى تعيين عدد من الشادين في كل ديوان،لاستخلاص

١- بولياك ، الإقطاعية ، ص ١٢٧ .

٢- ابن شاهين ، زبدة ، ص ١٣٠ .

٣- السخاوي ، الضوء ، ج٣ ، ص ٢٣٢ / ابن إياس ، بدائع ، ج٥ ، ص ٩٠ .

٤- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٤٤- ٤٥ .

٥- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٦٠٦ .

٦- ابن شاهين ، زبدة ، ص ١٣٠ .

٧- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٢٣ .

٨- ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٣٣١ .

٩- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٤٤٧ .

١٠- ابن تيمية ، مجموع فتاوى ، ج٢٨ ، ص٢٧٧ / المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٤١٩ ، ج٤ ، ق١ ، ص ٤٧٥ ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٣٥ / ابن حجر ، إنباء ، ج٦ ، ص ٢٦١ ، ج٧ ، ص ٣٣٦ ، ٣٢٩ ، ٤١٢ / الأسدي ، التيسير ، ص٩٤ / ابن تغري بردي ، المنهل، ج٢ ، ص ١٥٠ ، النجوم ، ج١٤ ، ص ٧٣ ، ٢٨٨ ، حوادث ، ج٢ ، ص ٤٠٧ / الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص ٤٦٩، ج٣ ، ص٢٥٦/ السخاوي ، الضوء ، ج٢ ، ص ٢١٤ ، ج٣ ، ص ٦٥ ، ٣١٠ ، التبر ، ص ١٦٩ ، وجيز ، ج١ ، ص٣٥٨ ، ج٣ ، ص ١٠٩٨ / ابن إياس، بدائع ، ج٤ ، ص ١٥ ، ٢١١ ، ٢٩١ .

الأموال بضرب من الفلاحين الذين لا يدفعون ما عليهم من المقررات وعقابهم (١) . وازداد ظلم الاستادارات والوزراء والولاة ومشايخ القرى مع مرور الوقت ، بسبب عجز معظم الدواوين عن سد احتياجاتها المالية المتزايدة ،فحاولوا التغلب على هذا العجز بانتهاز أي فرصة لنهب الأموال ومضاعفة الضرائب (٢) .

استخدم الجباة أنواعا من العقوبات لإجبار الفلاحين على تسديد ما عليهم ، دون أدنى مراعاة للأوضاع الاقتصادية السيئة التي كانوا يعيشونها ، فمن الجباة من لجأ إلى إجبار الفلاحين على بيع ممتلكاتهم الخاصة، كالتقاوي والغلال وحيوانات العمل وحلى النساء إن وجدت ، والآلات الزراعية ، وكل ما يمكن بيعه (٣) ، كبيع جزء من الأرض أو رهنها (٤) . وأكثر السلاطين والولاة من حبس الفلاحين الذين لا يدفعون (٥) ، حتى أن قائد السجن استغل ذلك ، فربطهم بسلاسل من حديد ، وأطلقهم في المدن تحت مراقبة شديدة ، طلبا للصدقات ومحاسبتهم عند انتهاء اليوم لدفع ما عليهم (٦) .

وكان العقاب الجسدي من أكثر الوسائل خطورة ، وقد كثرا ستعماله في الفترة المملوكية ، وأدى في بعض الأحيان إلى موت الفلاح الواقع تحت التعذيب ، ومن هذه الوسائل الجلد ، حتى أصبح السوط أداة أساسية أثناء حملات الجباية (٧)، وأدى الإسراف في استخدامه إلى موت الفلاحين في بعض الأحيان(٨). واستعمل البعض المعاصير والكسارات لتهشيم العظام (٩) . وكان الأمير دولات خجا ينفخ بالكير في دبر الرجل حتى تندر عيناه وتنفلق دماغه(١٠)، ونشر الأمير عز الدين رجلا من رأسه حتى قدميه،وصلق آخر في دست ، وسلخ واحدا وهو حي(١١)، وكان الأمير علاء الدين ينعل الرجل في قدميه كما تنعل الفرس ، ويشهره بين الناس ماشيا ، وعلق بعض الفلاحين بخطاف حديد من حنكه ، فأرهب بذلك أهل الشرقية والغربية والبحيرة والمنوفية وأشموم (١٢) ، وغرس الأمير أيدمر الشمسي ، خازوقا برأس حديد مدبب ، وإلى جانبه سار طويل ، يعلق الفلاح عليه ثم يطلقه ليدخل الخازوق في جسده(١٣) . وقام الاستادار في سنة ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م بتنويع العقوبات عند خروجه للوجه القبلي ، فدق الأوتاد وأجلس الفلاحين عليها ، وشوى بالنار شيخ بني عدي بالمنفلوطية (١٤) . واستخدم الجباة في سنة ٨٩٤هـ / ١٤٨٨م وسنة ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م خوذ الحديد ، حيث كانوا يحمونها بالنار ، ويضعونها على رؤوس الفلاحين (١٥) .

١- السبكي ، معيد ، ص ٢٨ .
٢- الصيرفي ، إنباء ، ص ٣٧ .
٣- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٣١-٦٣٢ ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٨٩٩ ، ٩١٠ .
٤- ابن قيم الجوزيه ، أحكام ، ج١ ، ص ١٠٦ / الشربيني ، هز القحوف ، ص ٢٠٠ .
٥- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص ٢٣١ / ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٣٢٧ .
٦- الصيرفي ، إنباء ، ص ٢٠٢-٢٠٣ ، ٢٦٣ ، ٢٩٠-٢٩١ ، ٣٤١ / ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٥٩٧ .
٧- النويري ، نهاية ، ج٣١ ، ص ٢٧١ / الصيرفي ، إنباء ، ص ٤٨٤ .
٨- السخاوي ، الضوء ، ج٢ ، ص ٦٣ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٣٢٥ أ .
٩- ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٣٩٤ .
١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٦٩ / ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٢٥٠ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ٢٣٥-٢٣٦ .
١١- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص ٣٠٢ .
١٢- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٣٨٣ .
١٣- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص٩٤٦ .
١٤- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢١٩ ب / ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٤٣ .
١٥- السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ١١٣٧ / ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٣٩٤ .

ولم يكن السلاطين أكثر رحمة من الجباة ، فأمرالسلطان قايتباي في سنة ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م بتوسيط أربعة من فلاحي الذخيرة المسجونين أمام إخوتهم ، وإشهارهم بالقرى ليكونوا عبرة لغيرهم ، وذلك بسبب انكسار بعض الأموال عليهم(١) . ولجأ السلطان قانصوه الغوري إلى اعتقال الزوجات والأولاد والأخوة أو أي قريب ، حتى يسدد الفلاح أو المقطع ما عليه (٢) .

وتمادى المباشرون وأعوان الولاة في ظلم الفلاحين أثناء حملات الجباية ، فكانوا يضاعفون الكمية المجموعة لحسابهم الشخصي (٣) ، فمثلا كانت ضريبة مقررالفرسان تؤخذ الدرهم فيها ثلاثة (٤) ، وألحقت ضريبة ساحل الغلة الكثير من الأذى بالناس " لكثرة المغارم والتعب والظلم ، فإن أمرها كان يدور ما بين ظلم نواتية المراكب والكيالين والمشدين والكتاب " (٥) . ولجأ البعض إلى التلاعب بالمكاييل ، فكان الوزير في سنة ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م يقبض الإردب من الفلاحين خمسة وعشرين ربعا ، ويصرفه للديوان إثنين وعشرين ربعا (٦) ، واعتاد الوزير وناظر الخاص زمن السلطان الغوري قبض غلال النواحي بالكيل الكبير وصرفه للدواوين بالكيل المصري (٧) .

وشاع في العصر المملوكي زيادة قانون الري على الفلاحين البسطاء (٨) ، وتخفيضه على أصحاب الملكيات الكبيرة ، ولذلك يشير القلقشندي الى أن المسح الثاني لتحديد كمية الخراج النهائية ، غالبا ما يؤدي إلى زيادة الضرائب، وأي وجود زائد في المساحة يضاف إلى الذين يحاولون التهرب (٩) . هذا ولجأ الملاك الكبار إلى برطلة المباشرين لتخفيض كمية الإنتاج ، فكان أولاد فضيل بملوى لا يدفعون إلا عن ألف قنطار من القند ، بينما يبلغ إنتاجهم السنوي أربعة عشر ألف قنطار (١٠) .

واستغل الجهابذة التضخم المالي ، والتعامل بالنقود وزنا لا عدا ، إذكان الفلاح يأتي بالمبالغ المفروضة عليه مصرورة ، فيقوم الجهبذ قبل وزنها بإخراج بعض القطع مدعيا أنها نحاسية ، وسرقة البعض لتخفيض الوزن ، ثم

١- الصيرفي ، إنباء ، ص ٤٨٤ .

٢- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٢٦٢-٢٦٣ .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٧٦٦ ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٨٨ / الصيرفي ، إنباء ، ص ٤٥٤ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١، ص ٢٣٠ أ –٢٣٠ ب .

٤- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص ١٥١ .

٥- نفس المصدر ، ص ١٥٠ .

٦- الصيرفي ، إنباء ، ص ٢١٤ .

٧- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ١٠٥ .

٨- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٧١٣ / السخاوي ، الضوء ، ج٣ ، ص ٢٨٨ .

٩- القلقشندي ، صبح ، ج٣ ، ص ٥٢٦ .

١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٤٣١ .

يطالب الفلاح بالفارق قبل خروجه وعودته إلى قريته ، مما يضطر الفلاح إلى الإستدانة من هؤلاء الجهابذة بفائدة ربوية (١) .

وبسبب عجز الفلاحين عن مقاومة هذه المظالم ، وغياب السلطة التي تساعدهم على تحصيل حقوقهم والحفاظ عليها ، فقد اتخذ رد فعلهم سبيلين ، إحداهما سلبية ، تمثلت بالهجرة من القرى إلى المدن ، والثانية إيجابية ، بالثورة على الجباة وقتل بعضهم أو ايصال شكواهم إلى السلاطين الذين كانوا لا يقدمون لهم يد العون ، إلا إذا كانوا على علاقة سيئة مع المشكو عليهم (٢) .

وهكذا فإن أثر سلوك الجباة وتصرفاتهم ، لايقل عن أثرالضرائب نفسها ، وقد علل ابن تغري بردي هذا السلوك برغبة داخلية لدى الأقباط في التحكم بالمسلمين وإذلالهم ، وبين أن تصرفاتهم لا تختلف عن أفعال النصارى مع أسرى المسلمين (٣) .

إن هذا الكم من الضرائب ووسائل التعذيب والإبتزاز التي تعرض لها الفلاح ، لا تشجعه على زراعة الأرض وفلاحتها بل تدفعه على هجرتها وتركها ، وخاصة بعد أن أهملت السلطنة واجباتها الأساسية تجاه الحياة الزراعية ، وبعد إدراك الفلاح أن كل ما ينتجه يذهب إلى هؤلاء السادة المتنفذين ، ولا يتبقى له إلا ما يسد رمقه .

وشهد القرن ٩هـ / ١٥م ازدياداً في كمية الضرائب المفروضة على الفلاح ، ومن أكثر هذه الضرائب تأثيراً المكوس المؤقتة كالمصادرات وضرائب الحرب ، التي لا تخضع لقانون محدد بل لحاجة السلطنة ، ورغبات السلاطين والوزراء ، ومن أجل معالجة الأزمة المالية التي كانت تمر بها الدواوين المختلفة كديوان الوزارة وديوان المفرد .

ومن العوامل الأساسية التي ساعدت على ازدياد الضرائب في نهاية القرن٩هـ / ١٥م ، الفساد الإداري ، وازدياد حاجة السلطنة للأموال لتمويل الحملات العسكرية لقتال العثمانيين والتركمان على الحدود الشمالية لبلاد الشام، بعد تدهور العلاقات السياسية بين الطرفين ، وبعد تحول طريق التجارة العالمية الى رأس الرجاء الصالح ، مما دفع السلطنة إلى تقرير رسوم جديدة على جميع الفئات السكانية من عمال وفلاحين وصناع وتجار وعسكريين .

١- الأسدي ، التيسير ، ص ١٢٢ .

٢- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص ٢٥٣ ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٨١١ ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٩٣٥ / ابن حجر ، إنباء ، ج٣ ، ص ٢٤٥ ، ج٧ ، ص ٢٩٩ ، ج٨ ، ص ٢٥١ / العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥-٨٢٤هـ ، الطنطاوي ، ص ٣٢٦ / الأسدي ، التيسير ، ص ٧٤ ، ٩٤-٩٦ / الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥٦ ، إنباء ، ص ٣٧ ، ١٤٨ / السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ١١١٨ ، التبر، ص ٣٠٤ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ١٦٢ أ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص٣٠٧ ، ج٤ ، ص ٢٨٢ .

٣- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص ٢٣١ .

الحياة الاجتماعية للفلاح المصري

تندر المعلومات عن الحياة الإجتماعية للفلاحين في مصادر الفترة المملوكية ، لذا تم الاعتماد على بعض المصادر المتأخرة ، لأن المجتمعات القروية غالبا ما تتميز بثبات أنماط السلوك والعلاقات الاجتماعية .

تتركز القرى في بلاد الصعيد على طول شواطيء نهر النيل . وفي بلاد الوجه البحري على شواطيء الخلجان ونهر النيل ، وبالقرب من أماكن توافر مياه الشرب والري (١) ، وتتشابه هذه القرى في مظهرها الخارجي ، فكلها " سود الظواهر ، ويحف بها نخل ، يقل في بعض ويكثر في الآخر " (٢) ، ولا تبنى إلا على إحدى التلال أو الروابي أو على أنقاض إحدى المدن أو الخرائب القديمة ، لحماية منازلها من فيضان النيل الذي يستمر ثلاثة شهور في كل عام (٣) .

ولا تخضع شوارع القرية وبيوتها إلى أي تنظيم هندسي ، ويندر استعمال الحجارة كمادة للبناء، الذي يعتمد أساسا على مادة اللبن المجفف أو النيء (٤) ، وعلى جذوع النخل وقضبان القصب لبناء الأخصاص . وتقصر البيوت بالطين المخلوط بالقش (٥) ، ولذلك فإن القرى في مصر تبدو وكأنها أكوام من الطين المتناثر بشكل عشوائي.

ويتكون البيت الريفي من طابق واحد ، يتناسب حجمه مع عدد أفراد الأسرة ، ويشتمل على حوش مكشوف وغرفتين ، إحداهما للنوم والأخرى للاستعمالات المنزلية المختلفة كالفرن ، الذي تعلوه مصطبة عريضة تغطي ثلاثة أرباع القاعة ، وارتفاعها نحو متر أو أكثر ، ويستخدمها الزوج والزوجة للنوم في فصل الشتاء بعد إشعال نار خفيفة في الفرن (٦) . ولا يوجد للبيت سوى باب واحد ، وطاقة في أعلى الجدار ، حتى لا يتمكن المار أو الراكب من النظر إلى داخل الغرف وكشفها (٧) . أما السقف فيتكون من جريد وجذوع النخل ، وأشلاف الكتان وقضبان القصب ، التي تطلى بالطين لتمنع خروج حرارة المنزل (٨) .

١- الإدريسي ، نزهة ، ج١ ، ص ٣٣١ / ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أيمن سيد ، ص٨٦ .

٢- ابن فضل الله العمري ، مسالك ، أيمن سيد ، ص ٨٦ .

٣- الكندي ، فضائل ، ص ٦١ / البكري ، المسالك ، ج١ ، ص ٥٠٠ / ياقوت ، معجم ، ج٥ ، ص ٣٣٥-٣٣٦ / النويري ، نهاية ، ج١ ، ص ٢٦٤ / الحميري ، الروض ، ص ٥٨٧ / ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٥٦٩ / محمد معتوق ، ذكر كلام الناس ، ص ٢٢ أ / مجهول ، علم التاريخ ، ص ٢ب / مجهول ، تاريخ نهر النيل والروضة ، ص ٢٩ / ادوارد لين ، المصريون ، ص ٢٤ .

٤- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٢٥٧ / لين بول ، سيرة القاهرة ، ص ٥١ / عبد الرحيم عبد الرحيم ، الريف ، ص ١٥٢ ، ٢١٦ / جومار ، وصف مصر ، ص ٢٦٨ / محمد أيوب ، فلاح مصر ، ص ١٣٩ .

٥- النابلسي، تاريخ الفيوم، ص١٧٥/ الوطواط، مباهج،ص٩٨/ ياقوت، معجم ،ج٢ ، ص٣٧٨ / الشربيني ، هز القحوف ، ص ٩٤.

٦- Lane Poole , Cairo , P 248 / ادوارد لين ، المصريون ، ص ٢٤ / محمد أيوب ، فلاح مصر ، ص ١٠١ .

٧- ادوارد لين ، المصريون ، ص٢٤ / محمد أيوب ، فلاح مصر ، ص ٩٩ .

٨- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ،ج١ ، ص ١٠١ / Lane Poole , Cairo , P 248 / محمد الحويري ، أسوان ، ص ٨٨ .

ويستعمل الفلاحون أسطح المنازل لتخزين الوقود ، كالأحطاب وعروق السمسم والترمس(١)، ولتربية الحمام حيث يبنون عليه بناء مخروطي الشكل ، يشتمل على عدد من القواديس لتربية الفراخ (٢) . أما الحوش فغالبا ما يشتمل على خم للدواجن ، وركن لتربية الحيوانات التي تعيش مع الفلاح جنبا إلى جنب (٣) ، وصومعة مفتوحة من الأعلى والأسفل لخزن التقاوي والحبوب ، وركن لحفظ الأدوات الزراعية (٤) . ويلاحظ من ذلك عدم اهتمام الفلاح بتهوية منزله ونظافته الأمر الذي أدى إلى انتشار الكثير من الأمراض بين الفلاحين، وخاصة الصدرية منها(٥) .

يتسم الأثاث الذي يمتلكه الفلاح المصري بالبساطة والتركيز على ماهو ضروري وحاجي ، فقد يوجد في البيت حصيرة من سعف النخل (٦) ، ومنهم من يكتفي بفرش الأرض بالقش والقصل (٧). وللفلاح أدوات للبن منها المحلبة وهي إناء مجوف البطن محصور الرقبة ، ولها أذن أو اثنتان بحسب حجمها ، وسميت بذلك لاستعمالها عند حلب الأبقار ، والمحلاب وهو إناء أطول من المحلبة ، ولكنه أوسع فما وأضيق بطنا ، وقعره كالقادوس ، والربع يسع ربع المحلبة ، والقروفة وهي تشبه المحلبة في صغر القعر ، ولكنها متسعة البطن ، ولها أذن أو اثنتان ، والقسط وهو عبارة عن جرة كبيرة ، والكوز لبيع اللبن في المدن ، والشالية لوضع اللبن فيها بعد حلب البقرة أو الجاموسة ، والقربة لتخليص اللبن من الزبدة (٨) .

ومن الأدوات التي لا بد للفلاح من إمتلاكها الرحى (الطاحونة) اليدوية (٩) ، والقفاف المصنوعة من جريد النخل لحمل التراب أثناء عمليات تطهير الجسور والحفر (١٠) ، وتخزين الذرة (١١) . وأدوات الشرب كالإبريق والبلاص والقلة والزير الذي يوضع على قاعدة خشبية تعرف بالمزيرة (١٢) . وأدوات الطهي كالطاجن وهو إناء فخاري مدور للطبخ (١٣) ، والقفقوله وهي إناء فخار صغير لطبخ البيسار (١٤) ، والمترد وهو إناء فخار أحمر ، وهو أكثر الأدوات استعمالا لتقديم الطعام في الأعراس (١٥)،والجفنة (القصعة) وهي إناء مدور من

١- سعيد عاشور ، المجتمع المصري ، ص٥٢ .

٢- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٢٩٨ / محمد أيوب ، فلاح مصر ، ص ١٠٣ .

٣- محمد أيوب ، فلاح مصر ، ص ١٠٣ .

٤- Shirley Key , The Egyption , P 72-73 .

٥- الهام ذهني ، مصر ، ص ٢٧٥ .

٦- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج٣ ، ص٩٥ / ادوارد لين ، المصريون ، ص ٢٤ .

٧- الشربيني ، هز القحوف ، ص ١٨٤- ١٨٥ .

٨- محمد أيوب ، فلاح مصر ، ص ١٠٥ .

٩- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٢ ، ص ٣١٨/ السخاوي ، وجيز ، ج٢ ، ص٦٤٧ .

١٠- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٥٣٧ .

١١- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج١ ، ص ٥٠ .

١٢- محمد أيوب ، فلاح مصر ، ص ١٠٦ .

١٣- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٢٥٣ / طاهر أبو فاشا ، هز القحوف ، ص ١٢٤ .

١٤- الشربيني ، هز القحوف ، ص٨٢ .

١٥- نفس المصدر ، ص ٢٥٠ .

الخشب لوضع الطعام فيه (١)، والقدرة النحاسية، والمرجل وهو عبارة عن قدرة إلا أنه لا يكون إلا من الفخار(٢) .

وينبغي أن تتوافر في كل قرية مجموعة من المرافق العامة ، أهمها المسجد ، ويتخذ في مكان متوسط من القرية، ويفرشه أهل الصعيد بالحشائش أو بحصر من جريد النخل، وقد ينشيء الفلاحون مصلى أو زاوية على أطراف القرية ، دون إقامة صلاة الجمعة بها ، كما تبنى كنيسة في القرى التي تضم عددا من النصارى(٣). ويترك الفلاحون فضاء واسعا إلى جانب القرية كجرن (بيدر) لدراسة المحاصيل الشتوية كالقمح والفول والشعير والعدس ، ويراعى عند اختيار موقعه استواء الأرض ، وأن يكون في ناحية هبوب الشمال إلى الجنوب ، والبعد عن البيوت والإصطبلات والبساتين ، لأن دقاق التبن المتطاير أثناء التذرية يؤدي إلى إحراق ثمار النباتات وأوراقها (٤) . ويوجد في القرى الصغيرة والكفور طاحونة عامة، فإذا ما أراد الفلاح ببلاد الصعيد طحن حبوبه ، يأخذ ثوره ويديرها بنفسه، أما في بلاد الوجه البحري فإنها تدار بالخيول ، وتطحن الحبوب بالأجرة (٥) . ولا بد لكل قرية من موضع لإلقاء الرماد والقمامة ، التي تتحول إلى سماد بلدي ينقله الفلاحون للحقول . وللقرية مناخ للجمال ، وناد للإجتماع ، ومركض للخيل إذا ما كان بعض أهل القرية خيالة(٦) ، ومحتطب في الأراضي الموات القريبة ومرعى ، إلا أن هذه المراعي أصبحت جزءاً من الإقطاعات في الفترة المملوكية ، يدفع عنها الفلاحون ضريبة سنوية تعرف بالعداد (٧) . كما تحتوي كل قرية على سوق صغيرة تتكون من عدد قليل من الدكاكين(٨)،ومقبرة (جبانة) في أراضي الموات القريبة من القرية، على أن لا تتصل مع مساكن القرية . وقد تخدم المقبرة جملة قرى وبلادا متقاربة في بعض الأحيان (٩) .

ويقع على كل فئة من أهل القرية القيام ببعض الالتزامات والواجبات لتكامل حياة القرية واستمرارها ، فيتوجب على شيوخ القرى والمتدركين جمع الضرائب ، والحفاظ على الأمن ، ومعاقبة السراق وقطاع الطرق ، والفصل في النزاعات العائلية . ولكنهم قد يستغلون سلطاتهم في تحصيل الثروات والعيش في بيوت فخمة كالقصور(١٠)، وامتلكوا قطعان الماشية والأراضي الزراعية ، وأقرضوا الفلاحين التقاوي والأموال بفائدة ربوية ، فلذلك يصفهم ابن شاهين بالملوك في قراهم(١١). واشتغل السواد الأعظم من أهالي القرى بالزراعة، وأما غير

١- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٢٣٥ ، ٢٤٦ / طاهر أبو فاشا ، هز القحوف ، ص ٩٥ .

٢- العيني ، البناية ، ج٦ ، ص ٩٠٩ .

٣- ابن عابدين ، رد المحتار ، ج٦ ، ص ٥٤٩ / محمد أيوب ، فلاح مصر ، ص ١٠١ .

٤- أبو الخير الأندلسي ، كتاب الفلاحة ، ص ١٧ / النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١١٠-١١١ .

٥- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٢٦١ .

٦- الغمراوي ، السراج الوهاج ، ص ٢٩٨ .

٧- السيوطي، الحاوي للفتاوي ، ج١ ، ص١٣٨/ مجهول ، تاريخ نهر النيل والروضة ، ص١٦٤أ / إبراهيم طرخان ، النظم الإقطاعية ، ص٢٥٠ .

٨- السخاوي ، الضوء ، ج٥ ، ص ٦ .

٩- الطرابلسي ، الاسعاف ، ص ٢٣ .

١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٣١٣ ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٩١٦ ، ج٤ ، ق١ ، ص ٢٨٢ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ / العيني ، عقد ، ص١٥ب / السخاوي ، الضوء ، ج١ ، ص٣٧٣ ، ج٤ ، ص ٣٣١ ، ج٧ ، ص٢٦٦ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص٢٣٦ب، ج٢ ، ٣٢١أ / ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٥٧٧ / Kelly, Egypt , P 186 .

١١- ابن شاهين ، زبدة ، ص ١٣٠ .

القادر على تربية وامتلاك الحيوانات اللازمة للأعمال الزراعية ، فاكتفى بالعمل بالأجرة لدى المقطعين والفلاحين الكبار(١)، بينما انخرط عدد قليل من أهالي القرى بصيد الأسماك ، وخاصة القرى القريبة من السواحل والخلجان(٢). ومنهم من اشتغل بالتجارة لجلب المواد التي يحتاجها ابناء قريته في المدينة وتصدير فائض الإنتاج للمدن ، وفي النجارة والحدادة وبعض الصناعات الخفيفة كصناعة حلاوة النيدة من القمح ، وصناعة النبيذ ، والفخار ، والنسيج لصنع السلال والحصر من جريد النخل ، وصناعة الملابس الكتانية (٣) .

وتقوم المرأة الريفية بجميع الأعمال المنزلية، كجلب مياه الشرب من الآبار والترع القريبة ، والعناية بالأطفال، وتحضير الطعام ، وتوفير الوقود اللازم بجلب الأحطاب ، وتحضير أقراص الجلة من التبن والزبل ، والعناية بالحيوانات والطيور المنزلية (٤) ، ومساعدة زوجها في بعض الأعمال الحقلية كالزرع والقلع والحصاد (٥) ، والتقاط ما يسقط من السنابل أثناء الحصاد (٦) ، والعمل على جمع محصول الذرة بشكل خاص ، أو الانتقال من قرية إلى أخرى للعمل بالأجرة (٧)، وغزل الملابس القطنية والكتانية والصوفية (٨) . ولكن الشربيني يأخذ على الريفيات عدم الإعتناء بنظافة أجسادهن ، فإنهن يدخلن الأفران ويضرمن النار فيعبق الدخان عليهن ، وينمن على القش والقصل ، فتظهر لهن روائح نتنة ، لا يحاولن التخلص منها وإزالتها (٩) . كما تشير بعض المصادر إلى انتشار ظاهرة البغاء في بلاد الوجهين القبلي والبحري ، حتى صار لهؤلاء البغايا حارات وأرباض ومناطق خاصة (١٠) ، وقد فشل السلطان برسباي في سياسته الرامية إلى إنهاء هذه الظاهرة بعد أن أمر في سنة ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م بتتبع البغايا وتزويجهن بمهر لا يزيد على مئة درهم معجلة ومئة درهم مؤجلة (١١) .

ويغلب البؤس والشقاء على حياة أطفال القرية ، فلا طفولة للفلاح ، ولا يتلقى الأطفال من العناية إلا ما هو ضروري (١٢) ، فتبدأ الأم بتعليم طفلها بعض الألفاظ التي لها دلالات معينة ، كقوله (إنبو) إذا أراد الماء ،

١- علماء الحملة الفرنسية، وصف مصر ،ج١ ،ص٣٠ / طاهر أبو فاشا ، هز القحوف ،ص٤٧/ أحمد صادق ، تاريخ مصر، ص٤٣٩ .

٢- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٥٧٨ .

٣- المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٤ / ابن بطوطة ، رحلة ، ج١ ، ص ٦٦ / الخياري ، تحفة الأدباء ، ج٣ ، ص ١٥١ / ابن ظهيرة ، الفضائل ، ص ١٣٤ / ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ / Fra Nicolo , Avoyage , P 122 / Kelly , Egypt , P 186 .

٤- سعيد عاشور ، المجتمع المصري ، ص ١٤٠ / محمد أيوب ، فلاح مصر ، ص ١١٦ .

٥- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٧٦ / علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج١ ، ص ٥٥ .

٦- ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٣٩١ .

٧- Kelly , Egypt , P 185 .

٨- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج١ ، ص ٢٨٢ ب .

٩- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٢٤ .

١٠- المقريزي ، السلوك، ج٣ ، ق١ ،ص٢٦٦ / ابن إياس ،بدائع ، ج١ ،ق٢ ، ص١٦٧/ ليون الإفريقي، وصف ،ص٥٧٥ ، ٥٧٧ .

١١- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٢٨٢ ب .

١٢- Kelly , Egypt , P 184 , 189 / Lane Poole , Cairo , P 252 .

و(بح) إذا فرغ من الأكل ، و(رح) إذا أخذ شيئا يلعب به وأعجبه ، و(أح) لنهيه عن لمس شيء قد يؤذيه ، و(كخ) لنهيه عن تناول النجاسة ، و(اسكت لا يوكلك البعبع) لتخويفه ومنعه من فعل شيء معين (١) . وتبدأ حياة الأطفال العملية في سن مبكرة ، بمساعدة آبائهم في بعض الأعمال الزراعية ، فعلى الأولاد الذكور من ٥-٦ سنوات رعي قطعان الماشية ، وعلى الإناث جمع الزبل لعمل الجلة (٢) . ويصف الشربيني أولاد الفلاحين بأنهم " عرايا تراهم في صورة المجانين " (٣) " كأولاد الهنود أو أولاد القرود ، مكشوف الرأس غارق في الساس ، ونومه في المدود وشربه من المترد ، ولعبه حول العجلة ، وإذا درج في الحارة لا يعرف غير الطبلة والزمارة ، والطرد خلف الثور والفحل ، لا يلبس على طهارة قميص ، وعيشه دائما في تنغيص ، خالي من التنظيف ، وكلهم قحوف من قحوف الريف " (٤) . بينما شاعت لعبة الدارة بينهم في المساء ، إذ يجلس ولدان القرفصاء وظهورهما لبعض ، ويدور الأولاد حولهما يضربونهما ، فإذا أمسك واحد منهما ولدا ، أجلسه مكانه ، فيتعلمون من ذلك خفة الأيدي وسرعة الضرب والمشي (٥) . كما كثرت بينهم أمراض العيون كالرمد ، نتيجة لتعرضهم للكثير من لسعات الذباب ، ونزول الصديد من عيونهم ، وعدم السماح بغسلها لاعتقادهم أن الغسل مضر بالعين ، مما أدى على المدى البعيد إلى كثرة العوران من البالغين في القرى والأرياف (٦) .

ويتجلى تاثير البيئة والأوضاع الاقتصادية والظروف السيئة التي يعيشها الفلاح في مجموعة من الظواهر ، فنتيجة لأهمية الثور في حياتهم فإنهم يعدونه في مقام أولادهم (٧) ، ويطلقون على أنفسهم مجموعة من الألقاب والاسماء والكنى التي لا تحمل أي معنى ، ويسيئون معاملة آبائهم وزوجاتهم ، والحق بينهم ضائع والباطل ذائع ، ولا يكترثون بتطبيق الشريعة ، وتحجرت عقليتهم وأفكارهم ، بحيث لم يعد من السهل إحداث أي تغيير إيجابي أو سلبي في تصرفاتهم وسلوكهم (٨) .

وقد أثرت الظروف الجغرافية في سماتهم العامة وأنماط سلوكهم ، فكان أهل الوجه البحري أكثر تطورا من أهل بلاد الصعيد ، لأن أمزجتهم تميل إلى الرطوبة والاعتدال ، لقربهم من البحر وكثرة تردد الغرباء إليهم ، كما يميل لونهم إلى البياض (٩) . بينما تغلب غلظة الطباع والسمرة والمزاج الجاف على أهل بلاد الصعيد ، فأهل بلاد الفيوم "يستوحش الجالس في جمعهم ، ولا يستأنس الوافد في ربعهم ، ولا يتحركون بحركة إلا بمحرك ، مثل البهائم ، يقيم الواحد الشهور في بيته ، ولا يخرج من داره ، ولا يعرف ما الناس فيه " (١٠) .

١- الشربيني ، هز القحوف ، ص ١٧٧ .
٢- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج١ ، ص ١٠٧ .
٣- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٢٠ .
٤- نفس المصدر ، ص ٢٣ .
٥- نفس المصدر ، ص ٢٥٧- ٢٥٨ .
٦- Fra Nicolo , Avoyage , P 84 / ادوارد لين ، المصريون ، ص ٥٢-٥٣ .
٧- الشربيني ، هز القحوف ، ص ١١٣ .
٨- نفس المصدر ، ص ٢٦- ٣٠ .
٩- البغدادي ، الإفادة ، ص ٦٩ / المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٤٥ ، ٤٨ / ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٥٦٤- ٥٦٥ .
١٠- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٨ .

وللعادات والتقاليد في القرية المصرية طابع خاص ، فكان معظم أهل الأرياف وفقراء المدن يستحمون في نهر النيل (١)، ويشيع بينهم لعبة المنقلة في المساء وأثناء وقت الفراغ (٢) . ويغني الفلاح بعض المواويل أثناء رفع المياه بالسواقي والشواديف (٣) ، وفي مواسم الحصاد لاعتقادهم بأثرها الجيد على المحاصيل (٤). ويختص أهل ملوى بالسماح بدخول الفقراء إلى معاصر قصب السكر ، وغمس الخبز في قدور السكر ، دون الأخذ منه بالأواني (٥) . وفي منطقة بيهمومن الفيوم حفرة متسعة يأتي إليها أهل البلاد لاستعمال مائها للإستشفاء من الأمراض ، ويلقي العوام فيهاالخروب والمرسين والدراهم ، وربما أوقدوا الشموع والزيت فيها على الدوام (٦). وتكون عملية التدفئة شتاء بإشعال النار بالفرن، وإغلاق الشباك الذي في أعلى الجدار بقطعة من الخيش ، لمنع الدخان والحرارة من التسرب إلى الخارج (٧) .

وكانت الروابط بين المسلمين والأقباط قوية ، وبين الطرفين أيضا مصالح مشتركة ، فهم يتبادلون التهاني أثناء الإحتفالات العامة والخاصة ، وقد إندفع أهل الأرياف من المسلمين والأقباط إلى القاهره في سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢م للاحتفال بعودة السلطان الناصر بعد إنتصاره على التتار (٨) ، واحتفلوا في كل عام بكسر السد ،وإعلان الوفاء (٩) .وشارك المسلمون الأقباط في عيد النوروز ، فلا تجد بيتا إلا ويبيت الهريسة في التنانير ليلة هذا العيد ، ويكسرون الكثير من البطيخ الأخضر ، فإذا كان بزره أبيض تفاءلوا به ، وإذا كان أسود تشاءموا به ، ويخرج الأراذل والأوباش وبأيديهم الأنطاع الممرغة بالطين لضرب كل من يجدوه في الطريق (١٠) . وساهم المسلمون كذلك في الغطس بالنيل ليلة الغطاس (١١) ، والقدوم إلى شبرا للإحتفال بعيد الشهيد (١٢) ، والتجمع عند دير بجري الذي يحج إليه الأقباط في كل عام (١٣) . وقام المسيحيون بتهنئة المسلمين في أعيادهم (١٤) ، وقد استغل الفلاحون هذه الأعياد كأسواق لتصريف منتجاتهم الزراعية ، وشراء ما يحتاجون إليه من البضائع التي يجلبها أهل المدن (١٥) .

١- ادوارد لين ، المصريون ، ص ٥١ .

٢- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٢٠١ .

٣- ادوارد لين ، المصريون ، ص ٢٥١ .

٤- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١١٠ .

٥- ابن بطوطة ، رحلة ، ج١ ، ص ٦٥ .

٦- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٦٧ .

٧- محمد أيوب ، فلاح مصر ، ص ١٠٢ .

٨- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص ٩٣٨ / سعيد عاشور ، المجتمع المصري ، ص ١٩٦ .

٩- ابن الفرات، تاريخ ،مجلد ٩ ،ج٢ ، ص٣١٧/ ابن دقماق ، الانتصار ،ج٤ ،ص١١٥ / المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص٣٥٨.

١٠- شيخ الربوة ، نخبة ، ص ٥٨٧ .

١١- الحميري ، الروض ، ص ٥٨٧ .

١٢- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٦٨-٦٩ .

١٣- ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٤١٢ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٣٤٣ ب .

١٤- سعيد عاشور ، المجتمع ، ص ٢٠١ .

١٥- ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٤١٢ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٣٤٣ ب .

وتتناسب مظاهر الفرح والزواج مع الأوضاع الإقتصادية والبيئة التي يعيش فيها العروسان ، ويذكر ابن تغري بردي أن عادة أهل القاهرة إلزام الأب بتجهيز ابنته (١) ، وبالإعتماد على هذه الرواية يمكن القول بشيوع هذه العادة في الأرياف بالرغم من غياب المعلومات حول ذلك ، وأن الفرق الوحيد هو انخفاض تكلفة الجهاز في المناطق الريفية مقارنة مع تكلفته لدى أهل المدن .

وتميز القرويون بزواج الأقارب ، وترابط الأنساب ما بين العائلات المتساوية في العزوة (٢) ، وتزويج الفتيات في سن مبكرة بين ثلاث عشرةسنة إلى ست عشرة سنة (٣) ، وعدم كتابة عقد شرعي والاكتفاء بالقبول والإيجاب قولا، حتى إن بعض الأمراء إذا أراد أخذ امرأة من زوجها ، يذهب إلى أبيها فيستأذنه بأخذها من عصمة زوجها (٤) ، وهو ما يفسر قول الشربيني :-

إن عقد النكاح ليس يدرى

منه سوى زوجت بنت عمرو

وليس يدرى شاهدا ولا ولي

ولا يعرف صحة من علل (٥)

ويقوم الرجال بزف العريس داخل القرية ، وإجلاسه بعد ذلك عل حصير أو برش من أبراش البير ، بينما تجمل النساء العروس ببعض السواد والحمرة ، ثم يزفها أحد الشعراء بالربابة ، والنساء حولها ووراءها بالزغاريد ، والجدعان بالمصابيح ، ويرشون الملح عليها اتقاء للحسد ، ويجلسونها إلى جانب العريس ، "ويكشفون عن وجهها بحيث تصبح مثلة بين الملأ ، وهو من أقبح وأتعس أفعالهم " ثم يطلب أحد الأشخاص النقوط من الرجال والنساء الحاضرين ، ويقبلون على العروس فينادون قمح والا شعير والا سمسم مقشور ، فإذا قيل قمح أو سمسم مقشور فالعروس مليحة ، وأما الشعير فإنها قبيحة . وبعد انتهاء المغني يدخلن العروس إلى غرفتها فيوقدن لها ببعض عكار الزيت ، ويفرشن أرضية الغرفة بالقصل والتبن ، ويضعن لها وسائد محشوة بقشر البصل ، ويغلقن الباب عليها ، ويدققن لها بالحجارة على الأعتاب . ثم يقدم أهل العريس الطعام للمعازيم ، وغالبا ما يكون من اللبن والرز والبقول، والكشك (لبن حاف)(٦)، ومنهم من يرسل الطعام إلى بعض البيوت (٧) ، وقد وصف الشربيني أعراسهم بأنها " قيام الغارات أو تعفير الكلاب في الحارات ، ويدورون في العريس كأنهم في غارة فتسمع الصراخ والصياح ، ونبح الكلاب ومدح الشعراء وضرب الطبول ، وحوله تلعب المشاة والجدعان ، وتسمع خبط النبابيت ، وتشاهد نط الأولاد ، وربما كان هزلا وانقلب حقيقة ، وضربوا بعضهم البعض ، وقد يحدث قتل وموت ، ويعقب الفرح ترح ويزيد الهم والنكد " (٨) .

١- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٦ ، ص ٧٣ .

٢- عبد الرحيم عبد الرحيم ، الريف المصري ، ص ٢٦٤ .

٣- ادوارد لين ، المصريون ، ص ٩٩ .

٤- السبكي ، معيد ، ص ٥٥ .

٥- الشربيني ، هز القحوف ، ص ١٣٧ .

٦- نفس المصدر ، ص ٢٤- ٢٦ .

٧- الإدفوي ، الطالع ، ص ١١٤ ، ٢٥١ .

٨- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٢٤ .

وكان التعامل في المناطق الريفية بالمقايضة الى جانب النقود ، وخاصة بعد إنهيار قيمة النقود في العشر الأول من القرن ٩ هـ / ١٥م وظهور الفلوس النحاسية ، إذ يشير المقريزي إلى أنه " أدرك ريف مصر وأهله يشترون الكثير من الحوائج ببعض الدجاج ، ونخال الدقيق ورديء مشاق الكتان ، ويتخذون ما تقدم ذكره لشراء الأمور الحقيرة فقط ، و لم يجعل أحد منهم شيئا من ذلك نقدا يخزن ، ولا يشترى به شيء جليل البنة " (١) . ويتضح من خلال كتاب الشربيني أن المقايضة قد استمرت في الفترة العثمانية أيضا (٢) .

ومن العادات الشائعة ختان الذكور والنساء ، حيث ظهر بعض العجائز اللواتي يدرن في المدن ويصحن بعبارات معينة كدلالة على وظيفتهن في ختن البنات (٣) . وتختلف تكاليف الختان من فئة لأخرى ، فالأغنياء والسلاطين والأمراء يقيمون احتفالا كبيرا عند ختن أولادهم (٤) ، بينما يقتصر الفقراء على تقديم بعض أصناف الحلوى الرخيصة .

ويلاحظ كذلك إدمان الفئات الفقيرة على تعاطي الحشيش بالرغم من تحريمه شرعا (٥). وأما عادات الدفن فتكاد تكون موحدة في جميع أنحاء مصر ، إذ يقوم أهل المتوفى باستئجار الندابات لإطلاق بعض الجمل والعبارات كدلالة على الحزن على الميت (٦) ، هذا إضافة إلى استعمال أكفان القطن (٧) ، وتخطيطها بالزعفران (٨) ورش الكافور أو أوراق السدر المسحوقة مع ماء الورد ، وربط الركبتين معا ، ووضع اليدين على الصدر (٩) . إلا أن هذه العادات تختفي أثناء الأوبئة والطواعين والمجاعات ، فقد يضطر أهل المتوفى إلى عدم التغسيل وإلقاء الجثث بالنيل أو الآبار ، واللجوء إلى الدفن الجماعي ، فقد وصل عدد من يد فنون في الحفرة الواحدة في سنة ٦٩٦ هـ/١٢٩٦م إلى مئتي جثة ، ويضعون الصغار سندا للكبار ويسمونهم في هذه الحالة بالتقشوم (الحجارة الصغيرة) (١٠) .

وتتوحد أصناف المأكولات في المناطق الريفية ، والاختلاف الوحيد في طريقة الإعداد والطبخ ، والمواد التي يضيفونها كالبهارات . كما أن هذه الأغذية تتوافق مع منتجات كل منطقة ، فيغلب على أغذية أهل الوجه البحري القلقاس والجلبان (نبات له قرون كقرون الملوخية) والسمك الطري والمملح والرز ، في حين يعد التمر والحلاوة المعمولة من قصب السكر والخضروات بشتى أصنافها أكثر طعام أهل بلاد الصعيد (١١) .

١- المقريزي ، إغاثة ، ص ٦٩ .

٢- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٤١ .

٣- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٥٩٧ .

٤- عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٢٥٤ ب / الجبرتي ، عجائب ، ج١ ، ص ٤٨ .

٥- القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ١٦٢ / المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧٩٠ / مجهول ، مفتاح الراحة ، ص ١٣٥ .

٦- الصيرفي ، نزهة ، ج٣ ، ص ١٠٩ ب .

٧- ادوارد لين ، المصريون ، ص ٣٨٧ .

٨- السخاوي ، الضوء ، ج٦ ، ص ٦ .

٩- ادوارد لين ، المصريون ، ص ٣٨٧ .

١٠- الدواداري ، كنز الدرر ، ج٨ ، ص ٣٦٤ .

١١- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٤٤- ٤٥ .

ويعتمد أهل الأرياف على الخبز المصنوع من الذرة (١) ، لكن طعمه غير مستساغ ، ويصبح سيئا جدا إذا أضيف إليه الشعير (٢) ، ومنهم من يصنع الخبز من الشعير فقط ، ولكنه مولد للرياح ومجفف للطبيعة ، مما يضطر أهله إلى أكله مع المواد الدسمة (٣) . وقد تخلط الذرة والشعير بنسبة معينة من القمح ، أو دقيق الحلبة ليزيد من تماسك الخبز(٤). ويكثر الفلاحون من أكل الخبز المقمر على الفطور (٥) ، والكعك المصنوع من جريش الحنطة (٦) ، وقد أشار النابلسي في بداية القرن ٧هـ / ١٣م إلى أن خبز بلاد الفيوم يتميز بطراوته في اليوم الأول من خبزه ، ولكنه يفقد طعمه ويصبح كالبقسماط (الكعك) إذا بات ليلة واحدة فقط (٧) .

وتشتهر الأرياف بالإكثار من طبخ الكشك ، (٨) ، وهو عبارة عن قمح مسلوق يضاف إليه اللبن وشرش الحصير ، ويحرك ويترك أياما إلى أن يتخمر وتفوح منه رائحة الحموضة ، التي تعتمد على كمية اللبن المضاف إليه، ويعمل بعد ذلك أقراصا أو على شكل بنادق كبيرة ، ويجفف بالشمس ويخزن . ولا بد عند طبخه من نقعه بالماء أو طحنه ، ثم وضعه في منخل وصب الماء المغلي عليه ، وأخذ ما يمر من المنخل فقط ، إلا أن أهل بلاد الصعيد والكفور لا يهتمون بذلك ، مما يفقده معظم لذته ويجعل لونه مائلا للسواد . وتختلف المواد المضافة إليه عند الطبخ ، فأهل الصعيد والكفور يضيفون إليه الفول المدشوش ، والبصل المقلي بالسيرج ، ويسمونه هراش العجائز ، ومنهم من لا يضع عليه شيئا ويسمونه النيرب ، أما أهل الوجه البحري فيضيفون إليه الرز واللحم ، أو الدجاج أو أحد أصناف الطيور ، وأهل المنزلة ودمياط السمك البوري (٩) .

ومن الأطعمة المشهورة أيضا البيسار ، وهو عبارة عن ملوخية ناشفة وفول مدشوش ، يضيفون إليه بعض البصل المقلي بزيت السيرج ، ويأكلونه مع خبز الشعير والبصل الناشف أو الأخضر ، ويكثرون أكله في شهر رمضان بشكل خاص (١٠) . ومنها مناسف الطعام من الرز واللحم واللبن ، يعدونها للولاة وأصحاب الإقطاعات عند قدومهم (١١) . ومن الطعام الخضار كالملوخية والويكة من البامية والعدس ، حتى قيل إن مأكول أهل بلاد الصعيد ستة أشهر ملوخية وستة أشهر ويكه(١٢). والخبيزة وهي نبات يطلع في فصل الشتاء على أطراف الزرع ، ويخرطها

١- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٠٣ .

٢- الهام ذهني ، مصر ، ص ١٦٣ .

٣- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ١١٥ .

٤- محمد أيوب ، فلاح مصر ، ص ١١٢ .

٥- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٢٦٥ .

٦- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٤٥ .

٧- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٨-٩ .

٨- نفس المصدر ، ص ١١٨ .

٩- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٢٢٦-٢٢٨ .

١٠- نفس المصدر ، ص ٢٣٦ .

١١- الإدفوي ، الطالع ، ص ٤٠-٤١ .

١٢- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٢٢٨ .

ويخرطها أهل الأرياف كالملوخية ويضيفون إليها الكزبرة وقليلا من السيرج ، بينما يطبخها أهل بلاد الوجه البحري مع الرز والدجاج (١). والرقراقه وهي أكلة يعملونها في أول رمضان من الدجاج أو الإوز (٢). والكرشات وأطراف الذبائح ويطلقون عليها إسم جغل مغل ، ويضيفون إليها الكزبرة والبصل أو الثوم المقلي بالسيرج ، وربما اكتفوا بسلقها وأكلها كالمرقة (٣) . والعدس المدشوش أو الحب ، ويطبخ في بلاد الوجه البحري مع الرز ويسمونه بغلية ، وربما أكلوه بالعسل من غير خبز (٤)، واللبسان وهو عبارة عن نبات ينبت مع البرسيم ، وله ورق عريض ، ينزعون أوراقه ويخرطونها بالسكين ويضيفون إليها اللبن والملح ، ويستبقونه زمانا ليأخذوا قوامه ويأكلوه (٥) . والقلقاس الذي يكثر أكله في فصل الشتاء بسبب حرارته ، وهو على ثلاثة أنواع الرؤوس الأتاني ، والأصابع الآدمي والأحمر ، وهو أردأها لبطء استوائه وعسر هضمه (٦) . والفول الأخضر (٧) ، والجلبان ، ويأكله أهل الريف كالفول الأخضر وربما طبخوه (٨) ، والفريك(٩) والفول المدمس(١٠) والمقلي والمنبت(١١)،والبليلة وهي عبارة عن قمح مسلوق مع الحمص ، ويأكله أهل الأرياف مع خبز الشعير (١٢) . كما يكثر أهل الأرياف من استهلاك البصل الأخضر والناشف (١٣) .

ومن المنتجات الحيوانية اللبن الزبادي والحامض الذي يدخل في كل أنواع الحساء ، والأجبان المالحة جدا (١٤)، كالجبن القريش الأزرق ، الذي مضى عليه زمن طويل فصار شديد الملوحة والحرارة ، ويتناولونه على الغداء والعشاء مع البصل الأخضر والناشف (١٥) . واللبأ وهو أول الحليب ، ويكون دسما غليظ القوام ، وتسميه العامة لبن المسمار ، (١٦) . ويكثر أهل بلاد الوجه البحري من طبخ الرز باللبن (١٧) ، ويعملون مفروكة اللبن ، وتتكون من الدقيق الأبيض الناعم ، الذي يخبز أولا بالفرن ثم يكسر بالأيدي ويوضع في زبدية أو مترد ، ويصب عليه الحليب حتى يغمره ويمتزج به ويصير كالثريد (١٨) ، أما اللحوم فلا يأكلونها إلا من العام للعام (١٩) .

١- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٢٥٦ .
٢- نفس المصدر ، ص ٢٥١ .
٣- نفس المصدر ، ص ٣١١ .
٤- نفس المصدر ، ص ٢٦٣ .
٥- نفس المصدر ، ص ١١٨ .
٦- نفس المصدر ، ص ٢٤٥ .
٧- نفس المصدر ، ص ٢٦٠ .
٨- نفس المصدر ، ص ٢٦٢ .
٩- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ١١٨ .
١٠- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٢٣٢ .
١١- نفس المصدر ، ص ٣٢٧ .
١٢- نفس المصدر ، ص ٢٤٥ .
١٣- نفس المصدر ، ص ٢٦٣ .
١٤- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٥٦٤ .
١٥- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٢٤٨ .
١٦- نفس المصدر ، ص ٢٦٥ .
١٧- نفس المصدر ، ص ٢٦٨-٢٦٩ .
١٨- نفس المصدر ، ص ٢٨٣ .
١٩- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٣١١ / الهام ذهني ، مصر ، ص ٢٧٥ .

وعند بدء تراجع النيل ، يبدأ أولاد الفلاحين بصيد الأسماك من البرك والترع والخلجان ، كالصير والقراميط السود والشبار الصغير ، وتطبخه نساء الأرياف مع البصل المخروط والزيت الحار ، إلا أنه لا يفقد رائحته وزفرته الكريهة (١) . وتعد الأسماك الغذاء الرئيسي لأهالي المناطق الساحلية في بلاد الوجه البحري ، فيغلب على أطعمة قرى وأهل نستراوه وسنجار من الأعمال النستراوية ورشيد (٢) ، ودمياط (٣) ، وتنيس التي يوجد بها سوق كبير ورخيص للسمك ، بحيث يكفي الدينار الواحد لشراء كمية تكفي لإثني عشر شخصا (٤) . وتولي النساء وأهالي الكفور أهمية كبيرة للفسيخ من الطوبار والبوري (٥) ، وينزعون جلده لطبخ المشكشك ، الذي يعد عن طريق أخذ الجلد وغسله بالماء ووضعه في طاحن ، وإضافة البصل وبعض الزيت الحار والكسب (تفل زيت السمسم)بدلا من الطحينية (٦) . ومن الصدفيات الدلينس (٧) أو أم الخلول ، وهو حيوان رخوي أبيض بين محارتين ، ينزعه أهل الأرياف منهما ويضيفون إليه الملح والليمون والخل ، وقد يكتفي البعض بتمريغه بالملح ، وهو أقبح وأسوأ طرق أكله (٨) .

وتتحدد أصناف الحلويات في المناطق الريفية بالكنافة (٩) ، والمصبوبه التي تصنع من دقيق الرز أو الحنطة فتعرف بالقطائف (١٠) . والهيطلية من النشا واللبن ، وإضافة العسل إليها عند الأكل (١١) . والعصيدة من الدقيق والسكر أو الدقيق والعسل الأسود (١٢) .

ولا يعرف الفلاحون آداب الطعام ، فلا يغسلون أيديهم بعد الإنتهاء من تناول وجباتهم (١٣) ، فمنهم من يمسحها بردائه أو بالحشيش أو بلحيته (١٤) ، كما يضعون الأطعمة في أطراف وأكمام أرديتهم وبردهم وفي شدودهم وقحوفهم التي يلبسونها على رؤوسهم (١٥) . وقد تضطرهم الأوبئة والمجاعات إلى ممارسات غريبة كأكل لحوم القطط والكلاب الميتة (١٦) ، والحشائش وبقايا الجزر وقشر البطيخ (١٧) ، وأكل الزبل أو التقاط

١- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٣٠٤ .

٢- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ١١٣-١١٤ .

٣- ياقوت ، معجم ، ج٢ ، ص ٤٧٣ .

٤- Fra Nicolo , Avoyage , P 84 .

٥- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٢٩٤- ٢٩٥ .

٦- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٢٥٤ / طاهر أبو فاشا ، هز القحوف ، ص ١٢٥-١٢٦ .

٧- المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٥ .

٨- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٢٥٢ / طاهر أبو فاشا ، هز القحوف ، ص ١٢٠-١٢١ .

٩- الإدفوي ، الطالع ، ص ١٨٤ .

١٠- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٢٨٠-٢٨١ .

١١- طاهر أبو فاشا ، هز القحوف ، ص ١١٦ .

١٢- محمد أيوب ، فلاح مصر ، ص ١١٣ .

١٣- ياقوت ، معجم ، ج٢ ، ص ٤٧٣ .

١٤- الشربيني ، هز القحوف ، ص ١٠٢ .

١٥- نفس المصدر ، ص ٢٧٤ .

١٦- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق ٢ ، ص ٧٠٦ .

١٧- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٣٦١ ب .

حب الشعير الموجود فيه (١) ، وأكل لحوم البشر (٢) ، مما يؤدي إلى تدمير الكثير من الروابط الإجتماعية التي تسود القرى (٣) .

وتصنع ملابس الفلاحين من القطن (٤) أو الصوف (٥) ، إلا أن جودة صناعاتهم تختلف من منطقة لأخرى ، فكان بز الفيوم " في غاية الغلظة والخشونة ، قليل البقاء عند استعماله ، موصوف الغزل بضعفه وانحلاله ، بخلاف ما حولهم من البلاد "(٦) .

وتتكون ملابس الفلاحين من الجبة (٧) ، وهي عبارة عن كساء صوفي ثخين ، غامق اللون ، مسدود كالثوب ، وبأكمام واسعة (٨) . ويحصلون على الصوف اللازم للأنسجة من خراف البلاد ، وتحتاج كل جبة إلى أربعة أرطال من الصوف المغزول (٩) . والعباءة وهي كساء صوفي عريض ، مخطط بخطوط مختلفة الألوان ، ويستخدمها الفلاح كغطاء في الشتاء وفراش في الصيف (١٠) . والزعبوط وهو عبارة عن ثوب كتاني أو قطني أزرق ، طويل الأكمام ، ومشقوق من الرقبة إلى الوسط تقريبا (١١) . والملوطة ولا يعرف عنها سوى أنها كساء للفقراء (١٢). والعرض القطني وهو عبارة عن نوع متواضع من الثياب ، أو فوطة من الصناعة المحلية (١٣) . وغالبا ما يحمل الفلاحون في أيديهم عصا مجلبة بالحديد ويتقلدون سيفا (١٤) ويضعون على الكتف شالا صوفيا في فصل الشتاء (١٥) . ولا يلبسون الفرو أبدا نظرا لارتفاع سعره ، إذ يكتفي الفرد منهم في فصل الشتاء بزيادة الكسوة ، لتتراكم عليه ويدفع بها ألم البرد (١٦) . كما لا يلبسون البلغة في أرجلهم إلا في المناسبات وعند الذهاب للصلاة في المسجد ، ولذلك فإنهم يمشون حفاة معظم حياتهم (١٧) .

١- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٣٦٢ أ .

٢- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ١٩٧ ب ، ج٢ ، ٣٦١ ب / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٧٠٦ .

٣- Tucker , Natural Disasters , (JESHO) , VOL VIX , 1981 , P 222 .

٤- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص١٢ .

٥- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ج٢ ، ص ٢٧٦ .

٦- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٨ .

٧- الصيرفي ، إنباء ، ص ٢٨١ / ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٤٦ .

٨- الشربيني ، هز القحوف ، ص ١٧٩ / طاهر أبو فاشا ، هز القحوف ، ص ٥٦ .

٩- علماء الحملة الفرنسية ، وصف ، ج١ ، ص ٣١ .

١٠- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٢١٠-٢١١ .

١١- أدوارد لين ، المصريون ، ص ٣٥ .

١٢- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ج٢ ، ص ٣٠٤ .

١٣- الإدفوي ، الطالع ، ص ٦٠ .

١٤- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص ٩٤٦ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٨ ، ص ١٦٣ .

١٥- علماء الحملة الفرنسية ، وصف ، ج١ ، ٣١ .

١٦- ابن دقماق ، الانتصار ، ج٤ ، ص ١١٨ .

١٧- محمد أيوب ، فلاح مصر ، ص ١٠٨ .

ولا بد للفلاح من غطاء للرأس ، فيلبسون الزموط أو الشاشية (١) ، إلا أن السلطنة قد منعتهم من لبس الزمط الأحمر في سنة ٨٤٠ هـ /١٤٣٦م (٢) . وقد يلف الفلاح على رأسه مئزرا خشنا من الصوف (٣) ، أوطاقية أثناء العمل في الحقول ، ويربطونها بقطعة من القماش حتى لا تسقط عن رؤوسهم (٤) ، أو يلبسون القحف وهو لباس طويل من الصوف أو الشعر ، وليس له زي ولا هندام ، ويلبسون تحته شيئا يسمى الطرطور ، يلفون القحف عليه لكونه واسعا من جهة الرأس وضيقا من أعلاه ، ومنهم من يغطي رأسه باللبد، الذي يشبه القحف والبرانيط(٥).

ويعد إخفاء ملامح جسد المرأة ، شرطا أساسيا للباس المرأة الريفية ، فتضع على رأسها خرقة ، وعلى وجهها نقابا ، وتلبس قميصا قطنيا مخططا وفضفاضا ، واسع الأكمام ، وسروالا طويلا وواسعا ، وسرموجا (خفا) في رجلها(٦) ، وتتزين بالوشم على الوجه (٧) ، و ببعض الأساور والخلاخيل والعقود والأقراط المصنوعة من الزجاج الملون أو النحاس أو الفضة أو الحديد المطلي بالقصدير (٨) .و يقضي الأطفال فترة طويلة من حياتهم عراة ، وتصطحبهم أمهاتهم إلى الحقول في سن مبكرة ، مما يدفعهم إلى الزحف وتعلم المشي في سن مبكرة . ويتكون لباسهم على الأغلب من قميص وطاقية من القطن أو خرقة لستر بعض أجسامهم (٩) ، إضافة للشمار وهو عبارة عن قطعة من الصوف يضعها الأطفال على أكتافهم ، ويكون لها أهداب مائلة يزينونها ببعض العقد أو الحرير الملون (١٠) .

وتتسم نظرة الفلاح لحياة المدن بالكثير من الاحترام والتقدير ، وعلى رأسها مدينة القاهرة ، حتى تجسدت الرغبة لديه للانتقال والعيش بها أو بمجرد زيارتها ، واعتبار زيارتها عملا يستحق الحديث عنه أثناء الجلسات العامة والخاصة . إلا أن أهل المدن قابلوا هذه النظرة بالاحتقار والازدراء لنمط حياة الفلاحين وسلوكهم ، واستخدموا كلمة قحف للدلالة على الفلاحين ، وعلى سوء خلقهم وطباعهم (١١) . فأشار ابن إياس إلى الجمود الذي يسيطر على عقلية الفلاح ، وعدم قابليته للتغيير والتبديل ، فضرب لنا مثلا بالمباشر شمس الدين بن عوض الذي قدم من منية مسير بالغربية ، وأصبح من مقربي السلطان قانصوه الغوري ، ولكنه لم يغير طريقة حديثه ولباسه ، فبقي " فلاح قحف كما جاء من وراء المحراث " (١٢) .

١- ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٤١٤ / ابن اياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٤٦ ، ج٤ ، ص ٣٢٥ .

٢- ابن حجر ، إنباء ، ج٨ ، ص ٤١٤ / ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص ١٧٢-١٧٣ .

٣- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص ٢٥٦ / الصيرفي ، إنباء ، ص ٢٨١ / ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص ٦٠ .

٤- الشربيني ، هز القحوف ، ص ١١٧ .

٥- نفس المصدر ، ص ٢٧٣ .

٦- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٣٨ ، ١٧٩ / علماء الحملة الفرنسية ، وصف ، ج١ ، ص١٠٤ ، ج٢ ، ص٦٩ ، ٢٨٨ .

٧- سعيد عاشور ، المجتمع المصري ، ص ١٢٧ .

٨- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٣٨ ، ٩٣ ، ١٧٩ ، / ادوارد لين ، المصريون ، ص ٤٤٠-٤٤١ ، ٤٣٩ .

٩- علي مبارك ، الخطط ، ج٨ ، ص ٣١ .

١٠- الشربيني ، هز القحوف ، ص ٢٦٧ .

١١- نفس المصدر ، ص ٢٧٣ .

١٢- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٣٧٦- ٣٧٧ .

وترتبط القرية مع المدينة بعلاقات إقتصادية خاصة ، فقد كانت المدن السوق الرئيسية التي يتردد عليها الفلاحون لتسويق منتجاتهم الزراعية والحيوانية وبعض الصناعات الخفيفة ، وينقلون هذه البضائع للتجار إما بوساطة مراكب النيل أو الجمال (١) . إلا أن قسما من الفلاحين اعتادوا تسويق منتجاتهم بنقلها على الحمير ، والتجول داخل المدن(٢)، بينما لجأ بعض التجار إلى تمويل بعض الصناعات القروية لحسابهم الخاص ، كصناعة الغزل والنسيج، للإفادة من رخص الأيدي العاملة في القرية ، ومنهم من لجأ إلى شراء المحاصيل الزراعية قبل إكتمال نموها (٣).

ويتردد الفلاح على المدينة في الأعياد ، لبيع بعض احتياجات أهل المدن ، ففي عيد الأضحى يكثر الفلاحون من تصدير الأضاحي ، ويقيمون أسواقا خاصة بذلك (٤) . كما أصبح الفلاحون المزودين الأساسيين للأسواق الأسبوعية ، التي اعتادت بعض القرى والمدن إقامتها في يوم محدد من كل أسبوع ، فكانوا يتوافدون على سوق خانقاه سرياقوس في كل جمعة ، لبيع الخيل والجمال والحمير والبقر والغنم والدجاج والإوز والغلال وأنواع الثياب (٥) ، وعلى الجيزة في كل يوم أحد (٦) ، وعلى برنشت من الجيزة في كل يوم خميس (٧) ، وعلى بموية للغرب من الفيوم في كل يوم خميس (٨) ، وعلى منية الأمراء في يوم الأحد (٩) ، وعلى الفسطاط في يومي الأحد والجمعة ، وعلى القاهره في يومي الإثنين والخميس (١٠) .

وتدهورت العلاقة ما بين القرية والمدينة في النصف الثاني من القرن ٩هـ / ١٥م ، بسبب الإعتداءات المتكررة من المماليك الجلبان على البضائع التي يجلبها الفلاحون للبيع في القاهرة (١١) ، فقاموا في سنة ٨٦٠ هـ / ١٤٥٥م بنهب حواصل البطيخ الصيفي والغلال والمأكولات والأعلاف ، دون دفع ثمنها ، أو الإستيلاء عليها بثمن رخيص جدا، مما أدى إلى توقف الفلاحين عن التصدير وإلى ارتفاع الأسعار (١٢) ، كما عز البطيخ الصيفي والتين والعنب بالأسواق في سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٧م على الرغم من كثرته في الأرياف ، بسبب خوف الجلاب من إعتداء الجلبان (١٣) ، وارتفعت أسعار الغلال في سنة ٨٩٥هـ /١٤٨٩م بسبب تعرض الجلبان لمراكب الناس وأخذ ما بها

١- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٤٤ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٣٨١ب -٣٨٢ أ / ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص١٣٥ / ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ .

٢- ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ١٢٦ ، ج٥ ، ص ٦٧ .

٣- عبد الرحيم عبد الرحيم ، الريف المصري ، ص ٢١٣ .

٤- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص٣٤٢ أ / ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٢٩٥ ، ٣٥٥ ، ٤٢٩ .

٥- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٤٢٢ .

٦- المقريزي، خطط، ج١ ، ص ٢٠٥ / الحموي ، الروض ، ص ١٨٣ / ابن إياس ، نشق ، ص ١٤ أ / البكري ، قطف ، ص ٢٥ أ.

٧- الوطواط ، مباهج ، ص ٧٩ .

٨- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٦٩ .

٩- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ١٣٠ .

١٠- الوطواط ، مباهج ، ص ٧٥ .

١١- Lane Poole , Cairo , P 327 .

١٢- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٦ ، ص ٧٤-٧٥ / السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ١٠٠٧-١٠٠٨ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ١١٣ أ .

١٣- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٣٦٦ب .

من الغلال ، وذلك بعد عجز المخازن السلطانية عن سد احتياجاتهم من الشعير (١) . كما عانت القاهرة من نقص الأضاحي ، وامتنع الجلاب في سنة ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢م و٨٨٨ هـ /١٤٨٣م و٩١٨هـ /١٥١٢م وفي ٩١٩هـ / ١٥١٣م وفي ٩٢٠ هـ /١٥١٤م عن تصدير الأغنام والأبقار للقاهرة ، بسبب نهب الحيوانات التي يأتي بها الفلاحون في عيد الأضحى ، ونهب الأسواق الأسبوعيه (٢) .

وهكذا شكلت المدن وخاصة القاهره السوق الأولى للمنتجات الزراعية والحيوانية من المناطق الريفية ، فكان أي تدهور في أوضاع المناطق الريفية يعكس أثره السلبي على اقتصاديات المدينة . فعندما تدهورت أوضاع الريف المصري بين سنة ٨٠٦–٨٠٨ هـ /١٤٠٣–١٤٠٥م وازداد هذا التدهور على يد الاستادارات والوزراء ، الذين اتخذوا من مصادرة أموال الفلاحين وحيواناتهم وسيلة أساسية للحفاظ على وظائفهم ، والتغلب على الأزمات المالية التي واجهتها السلطنة في القرن ٩هـ / ١٥م ، وإشباع رغبة السلاطين في تحصيل الأموال ، أخذت القاهره تعاني من أزمة حقيقية ، تمثلت في ارتفاع عام بمستوى أسعار الغلال والمنتجات الحيوانية والزراعية ، ونقص في المواد التموينية وخاصة اللحوم .

أدت العلاقة بين السلطنة والعربان إلى تصنيف العربان إلى صنفين من حيث درجة الولاء ، وهم عرب الطاعة الذين يحصلون على الإقطاعات ، وتقوم السلطنة بتعيين شيوخهم وتحديد مسؤولياتهم ومناطق نفوذهم ، ويستمدون قوتهم من مدى رضى السلطان عنهم . والعرب العصاة الذين استقروا في المناطق شبه الصحراوية ، وعلى أطراف المناطق الحضرية ، واتخذوا من الترحل والغزو والنهب وسيلة للعيش ، فقاموا بمهاجمة القرى كلما سنحت لهم الفرصة . وقد إنضم إلى هذه الفئة العربان الذين قطعت السلطنة إقطاعاتهم ، والفلاحون الذين عانوا من اضطهاد الولاة والجباة ومن الضرائب الباهظة التي لم يستطيعوا الالتزام بتسديدها ، فخسروا أراضيهم لصالح هؤلاء الموظفين ، ووجدوا في حركات العربان الطريق الأمثل للتعبير عن سخطهم والانتقام من هؤلاء الولاة والجباة ، والتخلص من ثقل الضرائب . إلا أنهم سرعان ما ساروا على نهج العربان العاصين في الاعتداء على القرى والمدن واللجوء إلى السلب والنهب ، دون التفريق بين أموال السلطنة وأموال إخوتهم من الفلاحين البسطاء (٣) .

ينتهز العربان أي فرصة للإعتداء على أهل القرى والمدن ، وخاصة عند شعورهم بضعف السلطة السياسية وعجزها عن مقاومتهم . فقد ثاروا في سنة ٨٩٣هـ /١٤٨٧م بعد أن تيقنوا من أن مصر قد خلت من الجند ، إثر إرسال حملة عسكرية لقتال العثمانيين (٤) . وانتهز بنو بقر بالشرقية هزيمة المماليك أمام العثمانيين لشن الغارات

١- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٣٨٩أ .

٢- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٣٢٣أ ، ٣٤٢أ / ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٢٩٥ ، ٣٥٥ ، ٤٢٩ .

٣- السبكي ، معيد ، ص ٥٤–٥٥ / المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٩٠٠ / الأسدي ، التيسير ، ص ٩٣–٩٤ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١ ، ص ١٦٦ / الصيرفي ، إنباء ، ص ٣٢٦–٣٢٧ ، نزهة ، ج٣ ، ص ١١١ب / ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ٣٥٣ / Popper , Egypt , 2 , P 2 .

٤- ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٢٥٣ .

على قرى الشرقية وغيرها من النواحي كالمنزلة، وقاموا بنهب المواشي والأغنام والأموال ، وقتل عدد كبير من الفلاحين، وقطع الطرق (١) .

ومن العربان من قام بمهاجمة القرى وفرض أموال محددة على أهاليها ، ففي سنة ٧٠١هـ / ١٣٠١م تمكنوا من فرض الأموال على التجار وأرباب المعايش بأسيوط ومنفلوط ، وجبوها بعد تقرير مبلغ معين على كل فرد (٢) . واشتهرالبدوي المعروف بالفضل (أحد قطاع الطرق المشهورين بالشرقية زمن السلطان جقمق) بالنزول على إحدى القرى نهارا ، وإرسال أحد رجاله لجمع مبلغ معين من الأهالي ، الذين سرعان ما كانوا يدفعون ما يتقرر عليهم، خوفا من أن يغير عليهم في الليل ويسرق مواشيهم وأموالهم ، بعد أن ثبت لديهم عجز السلطنة عن حمايتهم (٣) . وفي سنة ٨٧٦هـ /١٤٧١م تمكن بنو حرام من مهاجمة خانقاه سرياقوس ، وفرضوا على الدور وأصحاب الدكاكين والحوانيت وأرباب المعاصر مبلغا محددا ، وجبوا من ذلك ثلاثمئة وستين دينارا ، وهددوا كل من يشتكي للسلطان بالنهب والقتل (٤) .

R ونجم عن حركات العربان خراب بعض القرى والمدن وقتل السكان ، فشن بنو الكنز من ربيعة ثلاث حملات على أسوان في الفترة ما بين ٧٦٧-٧٨٧هـ/١٣٦٥-١٣٨٥م وقاموا بنهب الغلال والمواشي والأقمشة وإحراق الدور وقتل كل من أمسكوا به من الأهالي ، وأسر الأطفال والنساء ، حتى شبهت أعمالهم بأعمال الفرنجة عند دخولهم للمدن وتخريبها ، لكثرة ما ألحقوه من التدمير والخراب بهذه المدينة ونواحيها (٥) . ونهب بنو سلام بن التركية الفيوم ونواحيها في سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٣م(٦) . ونزل حوالي خمسة آلاف من العربان على مدينة دمنهور ، فنهبوا أسواقها وخربوا البيوت ، وقتلوا عددا كبيرا من الأهالي (٧) .وتزايد أمر بني حرام بالشرقية في سنة ٨٨٥ هـ/١٤٨٠م من قتل ونهب وسلب لأهالي قرى الشرقية ، حتى بلغت بهم الجرأة مهاجمة دكاكين حي الحسينية بالقاهرة ، ونهب وسلب غالب من يتوجه إلى الخانقاه (٨) . كما هاجم العربان في سنة ٨٧٩هـ / ١٣٧٧م منية الأمراء ، وزائري سيدي حسين الحاكي بالحسينية وسلبوهم ثيابهم وأموالهم (٩) . وانفرد عرب لبيد بالإغارة على مناطق البحيرة (١٠) ، والأحامدة على مناطق قوص وقراها (١١) .

١- ابن إياس ، بدائع ، ج٥ ، ص ٨١-٨٢ ، ١١٠ .

٢- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص ٩٢٠ .

٣- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج٢ ، ص ٤٩٤-٤٩٥ .

٤- الصيرفي ، إنباء ، ص ٤٢٧-٤٢٨ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٣٥ب .

٥- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق١ ، ص ١٢٣ ، ٣٥٢ ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٥٣٤ / ابن حجر ، إنباء ، ج٢ ، ص ١٨٨ / ابن إياس ، بدائع، ج١ ، ق٢ ، ص ٤٠-٤١ .

٦- الصيرفي ، إنباء ، ص ٧٦ .

٧- ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٢٦٦-٢٦٨ .

٨- الصيرفي ، إنباء ، ص ٢٩١ ، ٤٣٣ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٣٦ب / ابن إياس ، بدائع ، ج٣ ، ص ٧٢ .

٩- القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٥٩ أ، ٣٤٩ب .

١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص ٣٥٩ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٧٢ ، ١٩٢ ، ٢١٦ / الصيرفي ، إنباء ، ص١٩٢ .

١١- ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ١٨٩ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص ٢٣٢ب .

كان قوام الحملات التي ترسلها السلطنة للقضاء على حركات العربان كبيرا ، إذ تؤدي الى الإضرار بالفلاحين بدلا من حمايتهم ، لأن اهتمام قادة هذه الحملات اتجه إلى نهب الأموال وقتل النفوس دون مبرر ، ففي سنة ٧٠١هـ /١٣٠١م قتل الأمراء ١٠,٠٠٠ رجل من بلاد الصعيد ، وأسروا ١,٦٠٠ فلاح ، وحصلوا من الأموال على ٩٦,٠٠٠ رأس من الأغنام ، و ٤,٠٠٠ فرس و ٣٢,٠٠٠ جمل و ١٦٠ حملا ما بين سيوف ورماح ، و ٢٨٠ بغلا من الأموال ، حتى إن بعض القرى لم يبق فيها إلا الصبيان والنساء (١) . وقتل الأمراء لكثير من الفلاحين بضياع الصعيد في سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م حتى بنوا من رؤوسهم عدة مصاطب ومآذن على شواطيء النيل (٢) ، وقام الأمراء المجردون لعربان البحيرة في سنة ٧٨٢هـ/١٣٨٠م بنهب تروجه وتدميرها (٣) .

وأدت الصراعات بين القبائل أو بين بطون القبيلة الواحدة إلى الإضرار بالمناطق الريفية اقتصاديا وبشريا ، إذ تعمد هذه القبائل إلى استغلال الصراعات لمهاجمة القرى وممتلكات الفلاحين ومزروعاتهم ، وقتل السكان في الكثير من الأحيان (٤) ، وإلى استحكام العداء بين أبناء القرية الواحدة ، إذا كانوا من قبيلتين متباينتين ، واستقرار كل قبيلة في حارة خاصة بها . فقد كانت قريةالصالحية حارتين متمايزتين في الألفاظ والمعاني ، وعلى خلاف دائم ما بين القيسية واليمنية (٥) ، وانقسمت قرية ذات الصفا من الفيوم إلى حارتين متباعدتين بالسكنى بسبب خلاف بينهم(٦). وجعل العربان من فرض الإتاوة أو إقتطاع جزء من أراضي القرى في مقابل تقديم الحماية لسكانها وسيلة لإذلال الحضريين وابتزازهم (٧) . وقد أدت هذه الصراعات في النهاية إلى عد الفلاحين السرقة أمرا مشروعا بينهم (٨) .

وتعرض الفلاح لمضايقة عمال السلطنة من الولاة والجباة والمباشرين والمقطعين ، الذين لم يتوانوا عن اتخاذ أقسى أنواع العقوبات وارتكاب المظالم ضد الفلاحين ، لابتزاز أموالهم ومصادرة ممتلكاتهم، وخاصة أن هذه الأفعال قد وجدت مباركة وتأييدا من قبل السلاطين ، الذين كان همهم الوحيد معرفة مقدار مايجمعه الولاة والعمال من الأموال لصالحهم ولصالح خزائنهم (٩) . وتعدى أمر بعض الولاة إلى استرقاق نساء الفلاحين وأطفالهم ، وبيعهم

١- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص ٩٢٠-٩٢٢ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٨ ، ص ١٢٠-١٢٢ .

٢- ابن إياس بدائع ، ج١ ، ق١ ، ص ٥٥٠ .

٣- نفس المصدر ، ج١ ، ق٢ ، ص ٢٦٨ .

٤- القلقشندي ، قلائد ، ص ١٣ / المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٦٦٨ ، ٦٩٥ ، ٧٠٧ ، ٧٢٨ ، ٧٤٩ ، ٧٧٠ / ابن حجر ، إنباء ، ج٤ ، ص ٤٦٨ / ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص١٨٠ .

٥- النابلسي ، الحقيقة والمجاز ، ص ١٧٦-١٧٧ .

٦- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ١٠٢ .

٧- نفس المصدر ، ص ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ٤٦ .

٨- Baer , Fellah , P 17 .

٩- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩ ، ج١ ، ص ٩٠ / المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق١ ، ص٣٩٣ ، ج٣ ، ق٢ ، ص٨٣٣ ، ٤٣٠ ، ٤٨٢ ، ج٤ ، ق١ ، ص ١٩٣ ، ٢٧١ ، ٢٨٨ ، ٥١١ ، ٥٥١ ، ج٤ ، ق٢، ص٨٦٤ ، ١٠٣٣ / ابن تغري بردي ، النجوم، ج١٢ ، ص١٦٢، ج١٤ ، ص ١٩٢ ، ٢٣١ ، ج١٣ ،ص ٢٩١، ج١٦ ، ص ٢٧١ ، حوادث ، ج١ ، ص ٨٦ ، ١٧٤ ، ج٢ ، ص ٥٠٥، ٥١٨/ الصيرفي ، إنباء ، ص ٤٥ ، ٥٠ -٥١، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ١٧٤ ، ١٨٨ ، نزهة ، ج٢ ، ص ٤٦١، ج٣ ، ص ٢٣٦ / السخاوي، وجيز، ج٢ ، ص ٤٥٤ ، ٦٨٣ ، ج٣ ، ص ١٠٨٨ ، الضوء ، ج٦ ، ص ٢١١ ، ٢٣١ ، ج١٠ ، ص٧ / ابن إياس، بدائع، ج١ ، ق١ ، ص٥٥١ ، ج٢ ، ص ١٩٣ ، ٢١٢ ، ج٥ ، ص ٨٠ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٦٣ب ، ٢٨٠ ب ، ٢٩٦أ، ٣٩٠.

في أسواق النخاسة (١) ، أو إلى الفجور في النساء والأولاد (٢) ، فيذكر أن مجموع ما افتضه أحد الأمراء ومماليكه في خرجة واحدة إلى بلاد الصعيد سبعين بنتا بكرا (٣) ، والأمير آق قجا مئة بكر (٤) . وأكثر السلاطين من سجن الفلاحين عند عجزهم عن دفع الضرائب ، وعدهم كأرباب الجرائم ، حتى إن السلطان طومان باي كان يفرج عن أرباب الجرائم ويرفض الإفراج عن الفلاحين (٥) .

وعاني الفلاح من بعض العوامل الطبيعية كالزلازل والرياح والأمطار والبرد ، التي تؤدي في مجموعها إلى تدمير الكثير من المحاصيل الزراعية ، وإلحاق أضرار كبيرة بالممتلكات كهدم البيوت وموت الناس تحت الأنقاض ، وقلع الأشجار وهيف الزرع وانخفاض الإنتاج ، وبالتالي إلى تردي الأوضاع الاقتصادية للفلاح ، لأنه لن يجد من يعوضه عن هذه الخسائر ، بل وتستمر مطالبته بتسديد ما عليه من التزامات ضريبية . فقد أدت الزلازل في سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م إلى تخريب معظم مدينة دمنهور الوحش وأبيار وجزيرة بني نصر وضيعتين بالشرقية والكثير من القرى ، وقوص التي لم يبق فيها بيت عامر ، وإهلاك كثير من الناس تحت الأنقاض (٦) . وتكررت هذه الزلازل في السنوات ٧٧٢ هـ/ ١٣٧٠م و ٧٨٧ هـ/١٣٨٥م و٧٨٨هـ /١٣٨٦م و ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م (٧) و ٨٨١هـ/١٤٧٦م (٨) و٨٨٦هـ / ١٤٨١م وأدت إلى تدمير البيوت (٩) ؛ وفي سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م و٨٩٢هـ / ١٤٨٧م أدت الزلازل إلى موت بعض سكان فوة والمزاحمتين وإدكو والإسكندريه ونواحيهما (١٠) . وتعاون الجوع والبرد على الفتك بالفلاحين ، فأدت المجاعة في سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م إلى قيام فلاحي الصعيد ببيع أولادهم بأبخس الأثمان(١٠) ، كما مات عدد كبير منهم . وساهمت الرياح في هدم المنازل وقتل النفوس وقلع الأشجار ، فخربت في سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م الكثير من دور قوص وأسوان ، واقتلعت ٤٠٠ نخلة (١٢) ، ودمرت كثيرا من مدينة بلبيس في سنة ٧٢٨هـ /١٣٢٧م (١٣) ، وأسقطت الدور في أسوان والغربية في سنة ٧٣٨هـ/١٤٣٤م (١٤) ، وأتلفت الدور بمصر ودمياط وكثير من قرى الوجه البحري ، وقلعت الأشجار في سنة ٨٨٥هـ/١٤٨٠م (١٥) .

١- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٢٧٤-٢٧٥ / الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص ٣٥٩ .
٢- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٧٨٤ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٢٧٩-٢٨٠ / العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥-٨٢٤ هـ ، الطنطاوي ، ص ٣٠٤-٣٠٥ .
٣- السبكي ، معيد ، ص٥٢ / ابن طولون ، نقد الطالب ، ص ٨٣ .
٤- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق ٢ ، ص ٥٩٢ .
٥- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ١٢٥،١٤٢ ، ٢١٧ ، ٣٢٧.
٦- الدواداري ، كنز الدرر ، ج٩ ، ص ١٠١-١٠٢ / المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٩٤٣-٩٤٤ .
٧- السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ١٨٣-١٨٤ / عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ١٨٩ب - ١٩٠ أ .
٨- عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٢٧٤ أ .
٩- السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص٩١٨ / السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٤٨ / عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص٣١ أ -ب .
١٠- السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ٩٨٢ ، ١٠٠٢-١٠٠٣ .
١١- المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١١٢٥ .
١٢- نفس المصدر ، ج٢ ، ق١ ، ص ٢٥٤، ٢٥٧ .
١٣- نفس المصدر ، ص ٣٠٠ .
١٤- نفس المصدر ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٤٥٣-٤٥٤ .
١٥- عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٣١٦ ا-ب .

وتأثرت صحة الفلاح بعوامل كثيرة ، منها المستنقعات الناجمة عن زيادة النيـل وتراجعه ، وتعفـن الكثـير مـن الحيوانات والحشرات والطيور التي يغمرها النيل عند الفيضان ، وإلقاء النفايات وتصريف المجاري في مناطق قريبـة مـن المدن والقرى ، وكثرة البعوض والذباب ، وانخفاض مستوى مياه النيل الذي يدفع الناس إلى شرب المياه العكرة، وإلقـاء الجثث أثناء الطواعين دون دفن أو في نهر النيـل ، وغيـاب الرعايـة الصحيـة (١) ، فشـاعت بينهـم أمـراض الصفـراء ، ووجع العيون (الرمد) (٢) والديسنطاريا (٣) ، ووجع الكلى والرمل والحصا والسوداء (٤) . ولكن تأثير هـذا المنـاخ الصحي السيء تركز على فئـة الأطفـال والغرباء الذيـن لم يـكتسبوا المناعـة الكافيـة كالسكـان الأصليين (٥) .

ومن الظواهر المهمة التي تميز تاريخ مصر الإجتماعي في هـذه الفـترة حركـة الهجـرة مـن الريـف إلى المدينـة ، وانحطاط الوضع الإجتماعي للفلاح المصري ، وتسخير الفلاحين في الأعمال والمشاريع العامة والخاصة .

وقد اتخذت هجرة الفلاحين شكلين ، الأولى فردي ، وغالب المهاجرين في هذه الحالة كانوا بقصد التعلم(٦)، فالذين يأتون إلى الجامع الأزهر كانوا يستقرون أثناء دراسـتهم في رواق أهـل الريافـة في الجـامع ، إلى أن ألغـي في سـنة ٨١٨هـ/١٤١٥م (٧) .ويستشف من كتاب السخاوي "الضوء اللامـع " أن كثـيرين مـن العلمـاء يعـودون إلى أصـول ريفية ، وأن معظمهم درس بالقاهره ، واستلم بعض المناصب الفقهية والدينية فيما بعـد . واندفـع قسـم آخـر مـن هـذه الفئة نحو المدينة للحصول على فرصة عمل أفضل أو البحث عن الرعاية الصحية ، أو نتيجة لإهمال مشاريع الري الذي أدى إلى انخفاض ملموس في مساحة الأراضي المزروعة (٨) .

أما الشكل الثاني فهو الهجرة الجماعية وقد نشطت بسبب الضغـط الاقتصـادي ، وكـثرة الضرائـب والمغـارم المفروضة على الفلاحين(٩) ، فعندما "دهي أهل الريف بكثرة المغارم وتنوع المظـالم ، اختلـت أحوالهـم ، وتمزقـوا كـل ممزق ، وجلوا عن أوطانهم ... لشدة الوطـأة عليهم من الولاة وعلى من بقي منهم" (١٠) . كما نجم عن شـدة وطـأة

١- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٤٦-٤٧، ٣٦٥ ، إغاثة ، ص ٣٦ / Fra Nicolo , Avoyage , P 84 .

٢- القلقشندي ، صبح ، ج٢ ، ص ٤١٥ .

٣- ادوارد لين ، المصريون ، ص ١٠ .

٤- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ١١ .

٥- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق ٣ ، ص ١١٢٦-١١٢٧ / David Ayalon , The Plague , (JRAS) , 1946 , P 69 .

٦- ابن حجر ، أنباء ، ج٧ ، ص ١٩٣ ، ج٩ ، ص ١٤٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ / السخاوي ، الضوء ، ج٥ ، ص ١٤٠ ، ج٧ ، ص ١٢٠ ، ١٣٠ / Baer , Fellah , P 13 .

٧- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص ٣٢٣ .

٨- Dols , Black Death , P 163 , 232 / قاسم عبده قاسم ، النيل ، ص ١٢٥ .

٩- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٧٠٨ ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٦٣ ، إغاثة ، ص ٤٤ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ص٢٨١ب / ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص ٩٣ .

١٠- المقريزي ، إغاثة ، ص ١٤ .

الضرائب زمن السلطان الغوري هجرة أعداد كبيرة من الفلاحين وترك الأراضي الزراعية ، مما اضطر أصحاب الإقطاعات للدخول في صراع مع السلطان لإلغاء هذه الضرائب أو تخفيضها (١) .

ومن العوامل التي ساهمت في الهجرة الجماعية ، انعدام الأمن وتسلط الولاة والعربان على الفلاحين ، فعندما ولي محمد بن قاسم كشف الجسور بالغربية هاجر أهل قرية دبسط من المحلة إلى شارمساح بسبب سوء سيرته (٢) ، وهاجر كثيرون من أهل المحلة في سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م بسبب سوء تصرف واليها وازدياد مطالبته للفلاحين بالأموال(٣)، وهرب كثيرون من أهالي القرى إلى القاهره في سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م بسبب كثرة الحرامية وقطاع الطرق(٤) . وفي منتصف القرن ٩هـ / ١٥م أهمل الولاة عمارة البلاد ، ومالوا إلى جانب أصحاب القوة والنفوذ ، وتسلطوا على الضعفاء والفقراء " وصارت الفلاحين قفا بين اثنين ، لا يستطيعون أن يرضوا الجهتين ، فأهل الدولة أمامهم يطلبّون منهم ما ليس لهم ، والعرب المحاربون من خلفهم وعن أيمانهم وشمائلهم ، لا يسعهم لكل أحد إلا الطاعة والإكرام ، واستمر هذا الحال وطال ودام ، فتسحب منهم من تسحب في بلاد الإسلام ، وأبطل منهم الفلاحة من فر أو دام وخاض شهرا أو عام ، وتسحب أيضا من تسحب وخالط الأقوام ، وبقي بعد ذلك من اضطر إلى الإقامة على الدوام ، وآل الحال إلى غلبة القوي على الضعيف ، وضاع الملهوف ، وضعفت حال البلاد وتزايد الخراب "(٥) .

ويلاحظ أن فترة الأوبئة والمجاعات تساهم في تنشيط وتضخيم حركة الهجرة من الريف إلى المدينة (٦) ؛ ففي سنة ٧٤٩هـ /١٣٤٨م اندفع أهالي بلبيس إلى القاهره هربا من الطاعون والمجاعة (٧) ، وجلا أهل الصعيد والوجه البحري الى القاهره وبلاد الشام في سنة ٨٠٧ هـ/١٤٠٤م بسبب الجوع والوباء (٨) . ونتج عن الوباء والمجاعة سنة ٨٥٤-٨٥٥هـ / ١٤٥٠-١٤٥١م هروب عدد كبير من أهالي الأرياف إلى بلاد الشام " وتزاحموا بالديار المصرية لوجدان الشيء فيها بالجملة بالنسبة لأماكنهم ، ولتيسير الإعطاء للكثير منهم " (٩) ، فورد على القاهرة " أمثال ما خرج منها ، وكثر الفقراء منهم في القاهرة ، حتى صاروا فوجا فوجا في الطرقات ، ومات عدد كبير منهم من شدة الجوع " (١٠) . كما شهدت الأرياف حركة هجرة نشطة إلى الشام والحجاز والقاهرة وجبل الطور في طاعون سنة ٨٩٧هـ/١٤٩١م مما دفع خطيب الجامع الحاكمي إلى النداء لمحاولة وقفها ومنعها (١١) .

١- ابن إياس ، بدائع ، ج٥ ، ص ٣١-٣٢ .

٢- السخاوي ، الضوء ، ج٨ ، ص ٢٨١ .

٣- العيني ، عقد ، حوادث ٨١٥-٨٢٤ هـ ، الطنطاوي ، ص ٣٢٦ .

٤- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٧٤٠ .

٥- الأسدي ، التيسير ، ص ٩٣-٩٤ .

٦- البغدادي ، الإفادة ، ص ١٦٢ / المقريزي ، إغاثة ، ص ٣٢ ، ٣٥ / الجبرتي ، عجائب ، ج١ ، ص ٤٧ .

٧- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص ٧٧٩.

٨- المقريزي ، خطط ، ج١ ، ص ٣٦٥ ، السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١١٤٥ .

٩- السخاوي ، التبر ، ص ٣٤٦ .

١٠- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج٢ ، ص ٣٢٧ .

١١- السخاوي ، وجيز ، ج٣ ، ص ١٠٢٤ .

ومما ساعد على الهجرة أيضا نظام توزيع الأراضي على الفلاحين وفقا لعدد المواشي التي يمتلكونها ، وحرمان البطالين الذين يضطر قسم منهم في هذه الحالة إلى الهجرة إلى المدن للبحث عن فرصة عمل أفضل (١) . ومنهم من يهاجر مؤقتا أثناء الفيضان للعمل بدلا من الجلوس لفترة ثلاثة أشهر (٢) ، فتغريهم حياة المدينة وتشجع بعضهم على الإستقرار وعدم العودة .

ولم يكن حظ هؤلاء المهاجرين في الحياة والعيش بأفضل مما كان عليه في قراهم ، لأن المدن لم تكن تلك المراكز الإنتاجية الضخمة في هذه الفترة ، فاضطروا إلى الانضمام إلى الفئات المهملة والمطموسة ، كالحرافيش والزعر الذين هددوا بنهب كل ما تصل إليه أيديهم ، وشجعوا أعمال الشغب (٣) . وعاشوا في ظروف اقتصادية وصحية صعبة ، فقد إتخذ بعضهم التكدي وسيلة للعيش (٤) ، وسكنوا في حجرات الجامع الأزهر أو الحجرات القائمة في مقابر القرافة (٥) . ومنهم من مات من الجوع والبرد والقحط (٦) . وهذه الهجرات من جهة أخرى كانت تعوض المدن عن الخسائر البشرية التي تتعرض لها أثناء الأوبئة والطواعين .

حاولت السلطنة الحد من حركة الهجرة حتى لا تتضرر الحياة الزراعية في المناطق الريفية ، وذلك بربط أبناء كل منطقة بمجموعة من الضرائب والخدمات العامة ، ومنع انتقال الفلاح من غير إذن المقطع (٧) ، واستغلال الرأي الفقهي الذي يرى ضرورة إلزام الفلاح بالعمل في الأرض وعدم السماح له بالهجرة ، إذا كانت هجرته تلحق أضرارا اقتصادية بالمقطعين والجند (٨) ، ولذلك فقد كان ديوان الجيش يلزم الفلاحين بالعمل في الإقطاعات ، حيث جرت العادة في الشام أن كل من ينزح من الفلاحين لثلاث سنوات يلزم ويعاد إلى القرية قهرا ، وكانت الحال في مصر أشد من الشام (٩) . ولجأ السلاطين في سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م و٨٢١هـ/١٤١٨م و٨٢٧هـ/١٤٢٣م و٨٤٠هـ/١٤٣٦م إلى الإعلان بعدم السماح للغرباء بالإقامة في القاهرة والعودة إلى قراهم (١٠) ، وتقرر في سنة ٨٧٧هـ/١٤٧٢م إلقاء القبض على أهل الأرياف والفلاحين المتسببين في القاهرة ، وإعادتهم لقراهم (١١) ، وأصدر السلطان الغوري الأوامر للمقطعين بإعادة المتسحبين من الفلاحين إلى قراهم ، بعد رحيلهم على إثر الضرائب التي فرضها عليهم (١٢) .

١- محمد سعد ، تاريخ ، ص ٤٩ .

٢- علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، ج٣ ، ص ٢٦٢ .

٣- المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٣٢ / لابدوس ، مدن الشام ، ص ١٤١ / أحمد صادق ، تاريخ مصر ، ص ٤٤٣ .

٤- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج٢ ، ص ٣١٧-٣١٨ .

٥- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٢٤٩ .

٦- ابن تغري بردي ، حوادث ، ج٢ ، ص ٣٢٧ .

٧- Poliak , The Influence , (BSOAS) , VOL X , 1939-42 ,P 870 .

٨- ابن تيمية ، الحسبة ، ص ٢٩ ، ٢٣ / ابن عابدين ، رد المحتار ، ج٦ ، ص ٣١٢ .

٩- السبكي ، معيد ، ص ٣٤ / ابن طولون ، نقد الطالب ، ص ٧٤ .

١٠- المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٧٢ / ابن حجر ، إنباء ، ج٧ ، ص ٢٩٧ / العيني ، عقد ، ص ٤٥ب - ٤٦ أ / الصيرفي ، نزهة ، ج٢ ، ص١٠١ ، ج٣ ، ص ١٠٨ أ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص ٢١٤ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١ ، ٢٤٤ب ، ٢٨٤ أ / ابن إياس ، بدائع ، ج٢ ، ص ٣٧ ، ١٧٣ .

١١- الصيرفي ، إنباء ، ص ٤٨٣ .

١٢- ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ١٠٤ .

ونجم عن سيادة النظام الإقطاعي والأوضاع السيئة للفلاح المصري ، خضوع الفلاح إلى نوع جديد من العبودية ، فصار قنا دائما ، عليه العمل في خدمة الإقطاعي (١) ، وقد أشار المقريزي إلى هذا الوضع وأنكره وانتقده عندما قارنه بأوضاع الفلاحين زمن الدولة الفاطمية التي كانت " لا تعرف الآبدة التي يقال لها اليوم الفلاحة ، ويسمى المزارع المقيم فلاحا قرارا ، فيصير عبدا قنا لمن أقطع تلك الناحية ، إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يشترى ، بل هو قن ما بقي ومن ولد له كذلك" (٢) . ووصلت درجة تحكم المقطعين والولاة بالفلاحين ، أن أحد الولاة قد وهب لدواداره بعض الفلاحين ليقررهم في عمارة بعض البلاد الخراب (٣) .

تعرض الفلاح المصري إلى السخرة ، التي تجسدت من خلال مساهمة الفلاح بالعمل في أوسية المقطع ، وهي عبارة عن أرض يقتطعها المقطع من إقطاعه كي يزرعها لحسابه الشخصي ، ويوزع العمل فيها على الفلاحين التابعين له دون مقابل (٤) .ويطلب من الفلاحين أيضا المساهمة في شق وصيانة مشاريع الري كالخلجان والجسور ، وإنشاء البساتين العامة والخاصة ، فعند البدء بإنشاء أي مشروع ، يرسل السلطان البريد إلى الولاة والمقطعين لجمع الفلاحين من نواحيهم ، فيأتون بهم مربوطين بالحبال والجنازير ، وتحت الضرب والتعذيب ، ويدفعونهم للعمل دون توفير الغذاء والفراش اللازم لهم ، مما يؤدي إلى موت عدد منهم تحت ضغط العمل ، وسياط المشرفين عليهم (٥) .

وتغلب على ثقافة الفلاح الأساطير والخرافات ، فشاع بينهم أن الفلاح إذا أراد لشجرة أن تثمر في السنة القادمة ، فعليه عمل تمثيلية بتهديدها بالقطع ، وقدوم فلاح آخر للشفاعة لها . ومن ذلك التلقيح بوساطة كتابة بعض الآيات القرآنية وتعليقها على الشجرة (٦) . وساد بينهم كذلك مفهوم خاطئ للقضاء والقدر ، يقوم على التسليم بالأمر الواقع وأن ليس بالإمكان إلا ما كان ، وأن القدر هو وحده الذي يقرر مصير الإنسان . ويبدو أن الفقهاء والسلطة السياسية قد ساهموا في تعميق هذه الفكرة ، لإحباط الفلاح وإبعاده عن التفكير بالثورة ، ولكنه أدى في الوقت نفسه إلى تقاعس الفلاح عن العمل . وقد انعكس ذلك من خلال الأمثال السائدة بينهم مثل " اللي عند الله ما بضعش " " اللي يحبه ربنا ، يختاره ويجيب الخير لغاية داره " " الله اللي بيرزق الواقف والقاعد والمتكي على جنبه" "اللي في علم الله هو اللي بكون " (٧) .

١- ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٣ ، ص٢٥٨ / الدوري ، مقدمة ، ص ١٠٦ .

٢- المقريزي، خطط ، ج١ ، ص ٨٥ .

٣- ابن حجر ، إنباء ، ج٩ ، ص ١٧-١٨ .

٤- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٣٢-٣٣ ، ١٠٠ ، ١٠٤ ، / Poliak , The Influence . (BSOAS) , VOL X , 1939-42 , P 873 .

٥- المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٤٥٠ ، ٤٧٢ ، ٤٣٤، ٥١١ ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٨٨ ، خطط ، ج١ ، ص ١٠١ / العيني، عقد ، حوادث ٨١٥-٨٢٤هـ ، الطنطاوي ، ص ٢٢٣ / الأسدي ، التيسير ، ص ٩٣ / ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٩ ، ص ٩٧ ، ١٣٧ ج١٤ ، ص ٢٧٨ / ابن إياس ، بدائع ، ج٤ ، ص ١٥٩ / الشربيني ، هز القحوف ، ص ٤٥ .

٦- النابلسي ، علم الملاحة ، ص ٦٧ .

٧- عبد الرحيم عبد الرحيم ، الريف المصري ، ص ٢٤٣-٢٤٥ .

وقد أدى الجهل والفقر إلى شيوع الكثير من المفاهيم الصوفية ، وإلى كثرة الدراويش المتجولين بقرى مصر (١) ، وإلى استغلال بعض الفئات الانتهازية لهذه الأوضاع للترويج لبعض الأفكار السلبية ، وظهور بعض الممارسات الشاذة ، كعمل المواعيد (٢) ، وظهور فرقة القلندرية الذين أباحوا حلق الحواجب واللحا (٣) . وظهور فئة المتجردين الذي يجتمعون في شهر رمضان في زاوية الأفرم بقوص (٤) ، وفئة المطاوعة بالشرقية الذين أباحوا النظر إلى الأمرد ، ووضع صدورهم على صدره ، والرقص في المساجد (٥) . وادعاء أحد الأشخاص للنبوة في بلاد الصعيد ، واتباع البعض له (٦) . واستغل كثيرون من فقهاء الأرياف الجهلة والمرتشين هذه الأوضاع ، فصاروا يفتون الناس بغير علم بالمسائل الفقهية (٧) ، ويبدو أن هذا الوضع هو السبب الرئيسي لعدم احترام المشتغلين بالفقه بالأرياف ، ولكن الشربيني يرى أن طبيعة الفلاح ومفاهيمه تنسجم مع الدراس والمحراث وتربية الحيوانات ، وعدم القدرة على التفريق ما بين الشعر والقرآن والسنة (٨) .

وشاع في الأرياف تقديس الأولياء ، وإقامة الموالد لهم في كل عام ، حتى إن معظم القرى كان بها قبر لولي يزورونه ويتبركون به ، من أجل الشفاء من الأمراض ، ومعالجة العقم ، وإصلاح أوضاعهم الاقتصادية السيئة ، والحفاظ على قطعان مواشيهم ومحاصيلهم . وبني فوق هذه القبور أضرحة ضخمة ، لكثرة ما كان يحصله القائمون على خدمتها من النذور والصدقات التي يقدمها الزوار ، هذا إضافة إلى كثرة الأوقاف عليها من الأراضي والأبنية ، وإلى الدعم الذي يحصلون عليه عن طريق زيارة السلاطين وزوجاتهم والأمراء وأصحاب الجاه والنفوذ لهذه الأضرحة (٩) . إلا أن احتفالات الموالد كانت تؤدي إلى كثير من المفاسد ، فقد استهلك المحتفلون بمولد السيد إسماعيل بن الشيخ يوسف الأنباري في إحتفالهم سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م ما يقرب من ألف جرة من الخمر ، مع التجاوز على عدد من البنات الأبكار (١٠) . كما قدس بعض الأهالي قبر الإسكندر المكدوني بالإسكندريه (١١) ، وسجن سيدنا يوسف عليه السلام ببوصير (١٢) .

١- Baer , Fellah , P 19 .

٢- ابن حجر ، إنباء ، ج٩ ، ص ٢٢٧ / السخاوي ، الضوء ، ج٧ ، ص ٧١ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج٢ ، ص ٥٠ب .

٣- ابن بطوطه ، رحلة ، ج١ ، ص ٤٩ .

٤- نفس المصدر ، ص ٦٨ .

٥- السخاوي ، التبر ، ص ١٠٣-١٠٤ / قاسم عبده قاسم ، المجتمع المصري ، ص ٢٢٩ .

٦- السخاوي ، الضوء ، ج٤ ، ص ٩١ .

٧- الإسحاقي ، لطائف ، ص ١٢٣ / الشربيني ، هز القحوف ، ص ٦٦ .

٨- الشربيني ، هز القحوف ، ص ١٨-١٩ ، ٦٦-٦٨ ، ٧١ ، ٣٢٣ .

٩- النابلسي ، تاريخ الفيوم ، ص ٣٩ / ابن بطوطه ، رحلة ، ج١ ، ص٤٢ ، ٤٩ / المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٥٨٩-٥٩٠ ، ج١ ، ق٣، ص ٧٣٩ / ابن حجر ، إنباء ، ج٩ ، ص٢٢٧ / السخاوي ، الضوء ، ج١ ، ص٨٥ ، ج٦ ، ص٦٤ ، ج٧ ، ص٧١ ، ج٩ ، ص١٥ / القاضي عبد الباسط ، نيل ، ج١، ص٣٤٣ب / ادوارد لين ، المصريون ، ص١٦٨ ، ١٧٠-١٧١/محمد أيوب ، فلاح مصر، ص١٦٥ .

١٠- ابن الفرات ، تاريخ ، مجلد ٩، ج١ ، ص ٢٧ / ابن الصيرفي ، نزهة ، ج١ ، ص١٦٩ .

١١- ليون الإفريقي ، وصف ، ص ٥٧٣ .

١٢- ياقوت معجم ، ج٣ ، ص ١٩٣ .

ترتبط الحياة الاجتماعية لأي فئة سكانية بالأوضاع الاقتصادية ، ولذلك فليس من الغريب أن ينحدر الفلاح المصري الى أدنى مستوى اجتماعي في القرن ٩هـ / ١٥م ، بعد التدهور التدريجي لأوضاعه الاقتصادية .

تتسم حياة الفلاح بالخشونة والقسوة ، إذ تبتديء حياته العملية في سن مبكرة لا تتجاوز السادسة من عمره ، حيث توكل اليه بعض الأعمال الزراعية كرعي المواشي . ويعيش الفلاح في حالة من الإهمال ، وخاصة أنه لم يكن هناك اهتمام من السلطة السياسية بتغيير أوضاعه .

وعلى الرغم من ارتفاع نسبة العلماء الذين ينحدرون من أصول ريفية ، إلا أن الجهل هو السمة العامة للفلاحين ، وقد تجلى ذلك في عدد من المظاهر منها : شيوع المفاهيم ولأمثال التي تحث على الإيمان بالأمر الواقع ، وظهور بعض الفرق الصوفية ذات المفاهيم الغريبة ورواج أفكارها ، وإيمان الفلاح بالخرافات والأساطير ، وظهور عدد كبير من الأولياء .

الوثائق

- أحمد دراج

- حجة وقف الأشرف برسباي ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

- حياة الحجي

حجة وقف سرياقوس (*السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده*) ، ط١ ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، ١٩٨٣ .

- عبد اللطيف ابراهيم

وثيقة وقف الأمير قراقجا الحسني سنة ٨٤٥هـ ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مجلد١ ، ج٢ ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص١٨٣-٢٥١ .

- عبد اللطيف إبراهيم

نصان جديدان من وثيقة الأمير صرغتمش ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مجلد ٢٧ ، ج١ ، ٢ ، ديسمبر ، ١٩٦٥ ، ص ١٢١-١٥٨ .

- عبد اللطيف إبراهيم

نصان جديان من وثيقة الأمير صرغتمش (بقية) ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، مجلد ٢٨ ، عدد ١، ٢ ، ١٩٦٦ ، ص ١٤٣-١٨٦ .

- محمد محمد أمين

مرسوم السلطان برقوق إلى رهبان دير سانت كاترين ، مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم ، دار الاتحاد العربي للطباعة ، ١٩٧٤ ، ص ٨٣-١١٣ .

المخطوطات

- أحمد بن زنبل

سيرة السلطان الغوري وسليم وما وقع بينهما من الحروب ، شعبة التصوير ، الجامعة الأردنية ، رقم ١٣٧١ / سجل .

- الأقحصاري

رسالة في بيان الأراضي ، مركز الوثائق والمخطوطات ، الجامعة الأردنية ، رقم ، ٢٨٧ .

- الأنصاري (٩٢٥هـ / ١٥١٩م)

تحفة الراغبين في بيان أمر الطواعين ، مركز الوثائق والمخطوطات ، الجامعة الأردنية ، رقم ٢٣٠ .

- الأنصاري (٩٢٥هـ / ١٥١٩م)

نيل الرايد من النيل الزايد ، شعبة التصوير ، الجامعة الأردنية ، رقم ١٤٣٧ .

- ابن إياس (٩٣٠ هـ / ١٥٢٣م)

نشق الأزهار ، نسخة مصورة في مركز الوثائق والمخطوطات ، الجامعة الأردنية ، رقم ٣٥٨ .

- البلقيني (٨٠٥ هـ / ١٤٠٢م)

كتاب التحرد والإهتمام ، نسخة مصورة في مركز الوثائق والمخطوطات ، الجامعة الأردنية ، رقم ٢٨٥ .

- البكري (١٠٠٧هـ /١٥٩٨م)

قطف الأزهار من الخطط والآثار ، نسخة مصورة في مركز الوثائق والمخطوطات ، الجامعة الأردنية ، رقم ٦٠٤ .

- البكري (١٠٠٧هـ / ١٥٩٨م)

النزهة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية ، نسخة مصورة في مركز الوثائق والمخطوطات ، الجامعة الأردنية ، رقم ٩ .

- ابن تغري بردي (٨٧٤هـ / ١٤٦٩م)

مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة ، مركز الوثائق والمخطوطات ، الجامعة الأردنية ، رقم ١٠٠ .

- ابن حجر (٨٥٢هـ / ١٤٤٨م)

مسألة هل للسلطان أن يشتري شيئا من بيت المال ثم يقفه أم لا ، مركز الوثائق والمخطوطات ، الجامعة الأردنية ، رقم ٢١ .

- الحسن بن ابي محمد الصفدي (٧١٦-٧٤١هـ / ١٣١٦-١٣٤٠م)

كتاب يذكر تاريخ مصر وفضلها ، مركز الوثائق والمخطوطات ، الجامعة الأردنية ، رقم ١٠٤٩ .

- الحنفي (١٠٧١ هـ / ١٦٠٨م)

تاريخ مصر والقاهرة ، مركز الوثائق والمخطوطات ، الجامعة الأردنية ، رقم ، ٤٧ .

- الخالدي (العقد السابع من القرن ٩هـ / ١٥م)

المقصد الرفيع المنشا الهادي إلى ديوان الإنشاء ، مركز الوثائق والمخطوطات ، الجامعة الأردنية ، رقم ٤٤٣٩ .

- ابن زولاق (٣٨٧هـ /٩٩٧م)

فضائل مصر ، المجمع العلمي العراقي ، رقم ، ٨٧١ / م .

- ابن السباهي ، (٩٩٧هـ /١٥٨٨م)

أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك ، مركز الوثائق والمخطوطات ، الجامعة الأردنية ، رقم ٣٠٢ .

- الصوفي محمد بن أبي الفتح (٩٠٤هـ / ١٤٩٨م)

كتاب الصفوة في وصف المملكة المصرية ، المجمع العلمي العراقي ، رقم ٣٣٩٢ .

- الصيرفي (٩٠٠هـ / ١٤٩٤م)

كتاب الدر الثمين المنظوم فيما تختص به مصر بالخصوص والعموم ، نسخة مصورة في مركز الوثائق والمخطوطات ، الجامعة الأردنية ، رقم ٧ .

- الصيرفي (٩٠٠هـ / ١٤٩٤م)

نزهة النفوس والأبدان ، ج٣ ، شعبة التصوير ، الجامعة الأردنية ، رقم ٢٣٨١ .

- ابن ظهيرة

نزهة الناظر وتحفة المحاضر والدرة المضيئة في أخبار مصر والقاهرة المعزية ، دار صدام للمخطوطات ، رقم ٦٣٠١ .

- القاضي عبد الباسط (٩٢٠هـ / ١٥١٤م)

نيل الأمل في ذيل الدول ، ٢ج ، مركز والوثائق والمخطوطات ، الجامعة الأردنية ، رقم ١٥٤٤ .

- ابن قطلوبغا (٨٧٩هـ / ١٤٧٤م)

مسألة إجارة الإقطاع ، مركز الوثائق والمخطوطات ، الجامعة الأردنية ، رقم ٣٥٣٨ .

- القونوي (٧٨٨هـ / ١٣٨٦م)

مسألة في إجارة الإقطاع ، مركز الوثائق والمخطوطات ، الجامعة الأردنية ، رقم ٢١ .

- المحلي (٨٠٥هـ / ١٤٠٢م)

نيل مصر ومحاسنها وفضلها ، المجمع العلمي العراقي ، رقم ٣٣٩٢ .

- محمد معتوق

ذكر كلام الناس في منبع النيل وزيادته ، شعبة التصوير ، الجامعة الأردنية ، رقم ، ٢١٢٠ .

- محمد بن يوسف الحلاق

تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب ، شعبة التصوير ، الجامعة الأردنية ، رقم ١٢٦٠ .

- المخزومي

المنهاج في علم الخراج ، نسخة بمكتبة الدكتور فالح حسين .

- النابلسي (منتصف القرن ٧هـ / ١٣م)

لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية ، نقلت من نسخة الكتبخانه الخديوية المصرية ، رقم ٦ .

- ابن نجيم (٩٧٠هـ / ١٥٦٢م)

التحفة المرضية في الأراضي المصرية ، مركز الوثائق والمخطوطات ، الجامعة الأردنية ، رقم ، ٢٨٢ .

- مجهول

تاريخ مصر والنيل ، مركز الوثائق والمخطوطات ، الجامعة الأردنية ، رقم ٩٩ .

- مجهول

كتاب في التاريخ ، دار صدام للمخطوطات ، رقم ٨٣٥١ .

- مجهول

مجموع الفنون ، شعبة التصوير ، الجامعة الأردنية ، رقم ٢٥٦٣ .

- مجهول

وصف مصر ، شعبة التصوير ، الجامعة الأردنية ، رقم ٦٠٤ .

المصادر المطبوعة

- ابن الأخوة القرشي (٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م)

معالم القربة في طلب الحسبة ، تصحيح روبن لوي ، مطبعة دار الفنون ، كمبردج ، ١٩٣٧ .

- الإدريسي (القرن ٦هـ / ١٢م)

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ٢ج ، مكتبة الثقافة الدينية ، بور سعيد ، مصر ، دون سنة نشر .

- الإدفوي (٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)

الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ، تحقيق محمد حسن ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ .

- الإسحاقي (١٠٦٠هـ / ١٦٥٠م)

لطائف أخبار الأول في من تصرف في مصر من أرباب الدول ، المطبعة الميمنية بمصر المحروسة ، مصر ، ١٣١٠هـ .

- ابن إياس (٩٣٠هـ / ١٥٢٣م)

بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ٥ مجلدات ، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهره ، مصر ، ١٩٨٢ .

- الباكوي (القرن ٩هـ / ١٥م)

كتاب تلخيص الآثار وعجائب الملك القهار ، ترجمة ضياء الدين بن موسى ، دار النشر ، إدارة التحرير الرئيسية للآداب الشرقية ، موسكو ، ١٩٧١ .

- البغدادي (٦٢٩هـ / ١٢٣١م)

الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، تحقيق علي محمد عيسى ، منشورات دار الحكمة للنشر والتوزيع ، بغداد ، ١٩٨٧ .

- ابن بسام (٥٤٢هـ / ١١٤٧م)

نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، تحقيق حسام السامرائي ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٨ .

- ابن بصال

كتاب الفلاحة ، تحقيق محمد عزيمان ، مطبعة كريما دييس ، تطوان ، المغرب ، ١٩٥٥ .

- ابن بطوطة (٧٥٦هـ / ١٣٥٥م)

رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، ٢ج ، ط٤ ، تحقيق علي المنتصر الكتاني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٥ .

- البكري (٤٨٧هـ /١٠٩٤م)

المسالك والممالك ، ٢ج ، تحقيق أدريان فان وأندري فيري ، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات ، بيت الحكمة ، تونس ، ١٩٢٢ .

- البكري (٤٨٧هـ / ١٠٩٤م)

جغرافية مصر من كتاب المسالك والممالك ، تحقيق عبد الله يوسف الغنيم ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع ، الكويت ، ١٩٨٠ .

- بيبرس المنصوري (٧٢٥هـ / ١٣٢٤م)

مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ ، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان ، الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٩٣ .

- بيبرس المنصوري (٧٢٥هـ / ١٣٢٤م)

كتاب التحفة الملوكية في الدولة التركية ، ط١ ، نشر عبد الحميد صالح حمدان ، الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٨٧ .

- ابن تغري بردي (٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م) ج٠٤

حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ، تحقيق محمد كمال عز الدين ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٩٠ .

- ابن تغري بردي (٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ١٦ ج ، تقديم محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٢ .

- ابن تغري بردي (٨٧٤هـ / ١٤٦٩م)

المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، ٦ج ، محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة ، للكتاب ، ١٩٨٤ .

- ابن تيمية (٧٢٨هـ / ١٣٢٧م)

الحسبة في الإسلام ، تحقيق سيد بن أبي سعده ، مكتبة دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٣ .

- ابن تيمية (٧٢٨هـ / ١٣٢٧م)

مجموع فتاوي ابن تيمية ، اشراف أحمد عزت عبد الكريم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

- الجبرتي (١٢٣٧هـ / ١٨٢٢م)

عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ط٢ ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٨ .

- ابن جماعة (٧٩٠هـ / ١٣٨٨م)

تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام ، مجلة , Islamica , Leipzig ، ١٩٣٤ .

- ابن الجيعان (٨٨٥هـ / ١٤٨٠م)

التحفه السنية بأسماء البلاد المصرية ، مكتبة الكليات الأزهرية ، مصر ، ١٩٧٤.

- ابن حجر (٨٥٢هـ / ١٤٤٨م)

إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ ، ٩ج ، ط٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٦ .

- ابن حجر (٨٥٢هـ / ١٤٤٨م)

بلوغ المرام في أدلة الأحكام ، مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٣٢ .

- الحصني الدمشقي (القرن٩هـ /١٥م)

كفاية الأخيار في غاية الإختصار ، ط١ ، تحقيق كامل محمد محمد عويضه ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ص ١٩٩٥ .

- الحميري (ت القرن ٩هـ / ١٥م)

الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٥ .

- الحنبلي ابن العماد (١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م)

شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ١٠ مجلدات ، ط١ ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، ١٩٩٦ .

- ابن حوقل (القرن ٤هـ / ١٠م)

صورة الأرض ، منشورات مكتبة دار الحياة ، بيروت ، لبنان ، دون سنة نشر .

- ابن خلدون (٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)

مقدمة ابن خلدون ، ط٦ ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٦ .

- ابن خلدون (٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)

التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا ، تعليق محمد تاويت ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥١ .

- ابن خلدون (٨٠٨هـ / ١٠٤٥م)

تاريخ بن خلدون ، ٧ مجلدات ، مكتبة المدرسة ، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٦ .

- ابن خلكان (٦٨١هـ / ١٢٨٢م)

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ٨ مجلدات ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٨ .

- أبو الخير الأندلسي

كتاب في الفلاحة ، ط١ ، المطبعة الجديدة بشارع الطالعة ، فاس ، المغرب ، ١٣٥٧ هـ .

- الخياري (١٠٨٣هـ / ١٦٧٢م)

تحفة الأدباء وسلوة الغرباء ، تحقيق رجا السامرائي ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨٠ .

- ابن دقماق (٨٠٩هـ / ١٤٠٦م)

الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، تحقيق لجنة إحياء التراث الجديدة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، دون سنة نشر .

- الدواداري (توفي زمن الناصر بن محمد بن قلاوون)

كنز الدرر وجامع الغرر ، ٩ج ، تحقيق هانس روبرت ، قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

- ابن سباط (٩٢٦هـ / ١٥١٩م)

تاريخ ابن سباط ، ٢ج ، تحقيق عبد السلام تدمري ، جروس برس ، طرابلس ، ١٩٩٣ .

- السبكي (٧٧١هـ /١٣٦٩م)

معيد النعم ومبيد النقم ، تحقيق محمد علي النجار ، مكتبة الخانجي ، مصر ، مكتبة المثنى بغداد ، ، طبع بدار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

فتاوى السبكي ، ٢ج ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، دون سنة نشر .

- السخاوي (٩٠٢هـ / ١٤٩٦م)

كتاب التبر المسبوك في ذيل السلوك ، مكتبة الكليات الأزهرية ، مصر ، دون سنة نشر .

- السخاوي (٩٠٢هـ / ١٤٩٦م)

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ١٢ مجلد ، ط١ ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٢ .

- السخاوي (٩٠٢هـ / ١٤٩٦م)

وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام ، ٤ج ، ط١ ، تحقيق بشار عواد معروف وغيره ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٥ .

- السويدي (١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م)

سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٦ .

- السيوطي (٩١١هـ / ١٥٠٥م)

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ٢ج ، مطبعة الموسوعات ، القاهرة ، ١٣٢١هـ .

- السيوطي (٩١١هـ / ١٥٠٥م)

الحاوي للفتاوي ، ٢ج ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ، دون سنة نشر .

- السيوطي (٩١١هـ / ١٥٠٥م)

كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة ، تحقيق عبد اللطيف السعداوي ، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي ، المغرب ، ١٩٧١ .

- السيوطي (٩١١هـ / ١٥٠٥م)

نظم العقيان في أعيان الأعيان ، تحرير فيليب حتي ، المطبعة السورية الأمريكية في نيويورك ، ١٩٢٧ .

- السيوطي (٩١١هـ / ١٥٠٥)

تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك ، ٣ج ، دار الندوة الجديدة ، بيروت ، لبنان ، دون سنة نشر .

- الشابشتي (٣٨٨هـ /٩٩٨م)

الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، ط٢ ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٩٦٦ .

- ابن شاهين (٨٧٢هـ /١٤٦٧م)

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تصحيح بولس راويس ، المطبعة الجمهورية ، باريس ، ١٩٨٤ .

- الشربيني يوسف

قريتنا المصرية قبل الثورة هز القحوف في شرح قصيدة أبو شادوف ، ط١ ، دار النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

- ابن الشحنة (٩٠٤هـ / ١٤٩٩م)

البدر الزاهر في نصرة الملك الناصر محمد بن قايتباي ، ط١ ، تحقيق عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٣ .

- شيخ الربوة (٧٢٧هـ / ١٣٢٧م)

نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، Leipzig , Otto Harrasswitz ، ١٩٢٨ .

- ابن صصري (٨٠٠هـ / ١٣٩٧م)

الدرة المضية في الدولة الظاهرية ، تحقيق وليم برينر ، University of California Press , Berkley , 1963 .

- الصيرفي (٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م)
إنباء الهصر بأبناء العصر ، تحقيق حسن حبشي ، دارالفكر العربي ، القاهره ، ١٩٧٠ .
- الصيرفي (٩٠٠هـ / ١٤٩٤م)
نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ، ٣ج ، تحقيق حسن حبشي ، مطبعة دار الكتاب بالجمهورية العربية المتحدة ، ١٩٧٠ .
- طاش كبري زاده
مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، ط٢ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٣٩٧ هـ ، ١٩٧٧ .
- طافور (٨٨٩هـ / ١٤٨٤م)
رحلة بيرو طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي ، ترجمة حسن حبشي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٨ .
- الطرابلسي
الاسعاف في أحكام الأوقاف ، ط٢ ، طبع بمطبعة هندية بشارع المهدي بالأزبكية ، مصر ، ١٩٠٢ .
- ابن طولون (٩٥٣هـ / ١٥٤٦م)
نقد الطالب لزغل المناصب ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٢ .
- ابن ظهيرة -
الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق محمد السقا ، كامل المهندس ، مطبوعات دار الكتب ، ١٩٦٩ .
- ابن ظهيرالحنفي
روضة الأديب ونزهة الأريب ، (أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة) ج٣ ، مطبعة دار الكتاب ، مصر ، ١٩٧٠ .
- ابن عابدين (١٣٠٦هـ / ١٨٨٨م)
رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار ، ١٢ج ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٤ .
- ابن عبد الظاهر (٦٩٢هـ / ١٢٩٢م)
الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر ، الرياض ، ١٩٧٦ .
- ابن عبد الظاهر (٦٩٢هـ / ١٢٩٢م)
الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، ط١ ، مكتبة الدار العربية للكتاب والطباعة والنشر والتوزيع ، القاهره ، ١٩٩٦ .

- العيني (٨٥٥هـ / ١٤٥١م)
السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي ، تحقيق فهيم شلتوت ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

- العيني (٨٥٥هـ / ١٤٥١م)

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، حوادث سنة ٨١٥-٨٢٤هـ ، تحقيق عبد الرازق الطنطاوي ، مطبعة علاء ، القاهرة ، ١٩٨٥ .

- العيني (٨٥٥هـ / ١٤٥١م)

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، حوادث سنة ٨٢٤-٨٥٠هـ ، تحقيق عبد الرازق الطنطاوي ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، ١٩٨٩ .

- العيني (٨٥٥هـ / ١٤٥١م)

البناية في شرح الهداية ، ١٢ج ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٠.

- العيني (٨٥٥هـ / ١٤٥١م)

الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر ، هانس أرنست ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

- الغزي

جامع فوائد الملاحة ، ٢ج ، رسالة دكتوراه بعنوان دراسة مقارنة بين الفلاحتين الأندلسية والشامية ، ابتسام فاني ، جامعة حلب ، ١٩٨٧ .

- الغمراوي

السراج الوهاج ، مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ١٩٣٤ .

- ابو الفداء (٧٣٢هـ / ١٣٣١م)

تقويم البلدان ، تصحيح رينور والبارون ماك كولين ، دار الطباعة السلطانية بمدينة باريس المحروسة ١٨٤٠ .

- ابن الفرات (٨٠٧ هـ /١٤٠٤م)

تاريخ ابن الفرات ، مجلد ٩ ، ج١ ، تحقيق قسطنطين زريق ، الجامعة الأمريكية ، بيروت ، ١٩٣٦ .

- ابن الفرات (٨٠٧هـ / ١٤٠٤م

تاريخ ابن الفرات ، مجلد٩ ، ج٢ ، تحقيق قسطنطين زريق ، نجلاء عز الدين ، الجامعة الأمريكية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٣٦ .

- ابن فضل الله العمري (٧٤٩هـ / ١٣٤٨م)

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار - ممالك مصر والشام والحجاز واليمن - ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٨٥ .

- ابن فضل الله العمري (٧٤٩هـ / ١٣٨٤م)

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ج١ ، تحقيق أحمد باشا ، مطبعة الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٤ .

- ابن فضل الله العمري (٧٤٩هـ / ١٣٤٨م)

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار - القبائل العربية في القرنين السابع والثامن الهجريين - ، ط١ ، تحقيق دوروتيا كرافولسكي ، المركز الإسلامي للبحوث ، بيروت ، ١٩٨٥ .

- ابن فضل الله العمري (٧٤٩هـ / ١٣٤٨م)

التعريف بالمصطلح الشريف ، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٨ .

- ابن قاضي شهبه (٨٥١هـ/ ١٤٤٧م)

تاريخ ابن قاضي شهبه ، ج٣ ، تحقيق عدنان درويش ، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق، ١٩٧٧ .

- القلقشندي (٨٢١هـ /١٤١٨م)

صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ١٤ج ، ط١ ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٧ .

- القلقشندي (٨٢١هـ / ١٤١٨م)

نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ط٣ ، تحقيق ابراهيم الأبياري ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٩١.

- القلقشندي (٨٢١هـ / ١٤١٨م)

قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، ط٢ ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٢ .

- ابن قيم الجوزيه (٧٥١هـ / ١٣٥٠هـ)

أحكام أهل الذمة ، ٢ج ، ط١ ، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٥ .

- ابن كثير (٧٧٤هـ / ١٣٧٢م)

البداية والنهاية ، ١٦ مجلد ، ط١ ، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٩٢ .

- الكندي (٣٥٠هـ / ٩٦١م)

فضائل مصر ، ط١ ، تحقيق إبراهيم العدوي ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧١ .

- ليون الإفريقي (٩٥٧هـ / ١٥٥٠م)

وصف إفريقيا ، ترجمه من الفرنسية عبد الرحمن حميده ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، المملكة العربية السعودية ، ١٣٣٩هـ .

- ابن مفلح(٨٨٤هـ / ١٤٧٩م)

المبدع في شرح المقنع ، ١٠ج ، بيروت ، لبنان ، دون سنة نشر .

- المقدسي (القرن الرابع الهجري)

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط٣ ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩١ .

- المقريزي (٨٤٥هـ / ١٤٤١م)

السلوك لمعرفة دول الملوك ، ٤ج ، ١٢ مجلد ، (ج١+ج٢) تحقيق محمد مصطفى زياده (ج٣+ج٤) تحقيق سعيد عاشور ، ١٩٥٦ - ١٩٧٢ .

- المقريزي (٨٤٥هـ / ١٤٤١م)

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (خطط المقريزي) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، دون سنة نشر .

- المقريزي (٨٤٥هـ / ١٤٤١م)

در العقود المفيدة في تراجم الأعيان المفيدة ، ٢ج ، تحقيق عدنان درويش ، ومحمد المصري ، منشورات وزارة الثقافة ، الجمهورية العربية السورية ، دمشق ، ١٩٩٥ .

- المقريزي (٨٤٥هـ / ١٤٤١م)

إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق محمد مصطفى زياده ، جمال الدين الشيال ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٧ .

- المقريزي (٨٤٥هـ / ١٤٤١م)

البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق عبد المجيد عابدين ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨٩ .

- المقريزي (٨٤٥هـ / ١٤٤١م)

كتاب المقفى الكبير ، ٨ج ، ط١ ، المطبعة الأميرية ببولاق ، القاهرة ، ١٣٠٦ هـ .

- ابن مماتي (٦٠٦هـ /١٢٠٩م)

قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطيه ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٤٣ .

- النابلسي (منتصف القرن ٧هـ /١٣م)

تاريخ الفيوم ، ط١ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٤ .

- النابلسي ، عبد الغني (١١٤٣ هـ/ ١٧٣٠م)

علم الملاحة في علم الفلاحة ، ط١ ، منشورات دار الآفاق ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٩ .

- النابلسي (١١٤٣هـ / ١٧٣٠م)

الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز ، تقديم أحمد هريدي ، الهيئة المصرية العامة ، ١٩٨٦.

ابن نجيم (٩٧٠هـ / ١٥٦٢م)

رسائل ابن نجيم ، تحقيق خليل الميس ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٧ .

- النويري (٧٣٢هـ /١٣٣١م)

نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٨ ،وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة ،دون سنة نشر.

- النويري (٧٣٢هـ / ١٣٣١م)

نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج٣١ ، تحقيق الباز العريني ، الهيئة المصرية العامة ، ١٩٩٢ .

- النويري (بعد سنة ٧٧٥هـ / ١٣٧٤م)

كتاب الإلمام فيما جرى بوقعة الإسكندرية من الأحكام ، ٧ج ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ، الدكن ، الهند ، ١٣٨٨ هـ .

- ابن الوردي (٨٦١هـ / ١٤٥٦م)

خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، تصحيح محمود فاخوري ، دار الشرق العربي ، حلب ، سورية ، ١٩٩١ .

– الوطواط (٧١٨هـ / ١٣١٨م)

من مباهج الفكر ومناهج العبر ، تحقيق عبد العال الشامي ، جامعة الكويت ، ١٩٨١ .

– ياقوت (٦٢٥هـ / ١٢٢٧م)

معجم البلدان ، ٥ج ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٦ .

– مجهول

كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، تعليق سعد زغلول عبد الحميد ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، ١٩٨٥ .

– مجهول (قرن ٨هـ /١٤م)

مفتاح الراحة لأهل الفلاحة ، تحقيق محمد عيسى صالحية ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٨٤ .

المراجع

– إبراهيم طرخان

مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ٧٨٤-٩٢٣ هـ ،مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

– إبراهيم طرخان

النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

– أحمد رامي

مقدمة القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م ، ٣ج ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٤ .

– أحمد صادق سعد

تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي ، ط١ ، دار ابن خلدون ، بيروت ، ١٩٧٩م .

– أحمد عبد الرزاق

البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩ .

– ادوارد لين

المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم في القرن التاسع عشر ، ط١ ، ترجمة عدلي طاهر نور ، مطبعة الرسالة القاهرة ، ١٩٥٠ .

– آشتور الياهو

التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى ، ترجمة عبد الهادي عيله ، دار قتيبة ، ١٩٨٥ .

– أمين معلوف

ليون الإفريقي ، ترجمة عفيف دمشقية ، ط٢ ، دار الفارابي ، بيروت ، لبنان ، ص ١٩٩٤ .

- الهام ذهني

مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٢ .

- بولياك

الإقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان ، ترجمة عاطف كرم، منشورات دار المكشوف ، بيروت، لبنان ، ١٩٤٨

- جامعة الدول العربية

المناخ الزراعي في الوطن العربي ، جامعة الدول العربية ، مصر ، ١٩٧٦ .

- جومار

وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل ، ، ترجمة أيمن فؤاد سيد ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ص ١٩٨٨ .

- حياة ناصر الحجي

السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، ١٩٨٣ .

- الدوري عبد العزيز

التكوين التاريخي للأمة العربية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٤ .

- الدوري عبد العزيز

مقدمة في التاريخ الأقتصادي ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٩ .

- سعيد صالح

التجارة الداخلية في دولة المماليك الثانية ، رسالة دكتوراه ، الجامعة الاردنية ، ١٩٩٢ (غير منشورة) .

- سعيد عبد الفتاح عاشور

المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ، ط١ ، دار النهضة العربية القاهرة ، ١٩٦٢ .

- سيد مرعي

الزراعة المصرية ، وزارة الزراعة والاصلاح الزراعي ، ١٩٧٠ .

- طاهر أبو فاشا

هز القحوف في شرح قصيدة ابو شادوف ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ .

- عبد الرحيم عبد الرحيم

الريف المصري في القرن الثامن عشر ، ط٢ ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

- عبد العزيز نوار

تاريخ مصر الاحتماعي منذ فجر التاريخ حتى العصور الحديثة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٨ .

- عبد الفتاح وهيبه

دراسات في جغرافية مصر التاريخية ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٦٢ .

- علماء الحملة الفرنسية

الزراعة والصناعات والحرف والتجارة ، ج١ ، ترجمة زهير الشايب ، مكتبة مدبولي ، ١٩٧٨ .

- علماء الحملة الفرنسية

الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر النظام المالي والإداري في مصر العثمانية ، ج٢ ، ترجمة زهير الشايب ، مكتبة مدبولي ، ١٩٧٩ .

- علماء الحملة الفرنسية

العرب في ريف مصر وصحراواتها ، ط٢ ، ترجمة زهير الشايب ، مكتبة مدبولي ، ١٩٨٠ .

- علماء الحملة الفرنسية

المصريون المحدثون ، ج١ ، ترجمة زهير الشايب ، مكتبة مدبولي ، ١٩٧٩ .

- علي إبراهيم حسن

مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٣ .

- علي إبراهيم حسن

استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ الإسلامي العام وفي التاريخ المصري الوسيط ، ط٢ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

- علي مبارك

الخطط التوفيقة ، ٢٠ج ، المطبعة الأميرية ، بولاق ، القاهرة ، ١٣٠٦هـ .

- قاسم عبده قاسم

النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ط١ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

-كراتشوفسكي

تاريخ الأدب الجغرافي ، ٢ج ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، جامعة الدول العربية ، ١٩٦٣ .

-لابدوس ، ايرامارفين

مدن الشام في العصر المملوكي ، ط١ ، ترجمة سهيل زكار ، دار حسان للطباعة والنشر ، ١٩٨٥ .

- لين بول

سيرة القاهرة ، ترجمة حسن إبراهيم حسن ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

- محمد أيوب

فلاح مصر عبر التاريخ ، موسسة دار التعاون للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

- محمد حمدي المناوي

نهر النيل في المكتبة العربية ، ط١ ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ص ١٩٨٦ .

- محمد عبد الله عنان

مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، ط٢ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

- محمد عبد الله عنان

تراجم اسلامية شرقية وأندلسية ، ط٢ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

- محمد العمايرة

الجيش في العصر المملوكي الثاني البنية والتنظيم والإدارة ٧٨٤-٩٢٣هـ ، ر.ج ، اشراف مصطفى الحياري ، مكتبة الجامعة الأردنية ، تشرين الثاني ، ١٩٩٤ .

- محمد عوض

نهر النيل ، ط٥ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

- محمد كرد علي

كنوز الأجداد ، ط٢ ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، ١٩٨٤ .

- محمد محمد أمين

الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨-٩٢٣ هـ ، ط١ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

- محمد محمد الحويري

أسوان في العصور الوسطى ، ط١ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٠ .

- نقولا زياده

قمم من الفكر العربي الإسلامي ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٧ .

- هنتس فالتر

المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري ، ترجمة كامل العسلي ، عمادة البحث العلمي ، الجامعة الاردنية ، ١٩٧٠.

المقالات العربية

- جمال قاسم

الحسن بن الوزان رحالة عربي ومصنف إفرنجي ، العربي ، عدد ١٦٣ ، الكويت، ١٩٧٢ ، ص ٩٤-٩٩ .

- عبد اللطيف ابراهيم

التوثيقات الشرعية والاشهادات في ظهر وثيقة الغوري ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مجلد ١٩ ، ج١ ، ١٩٥٧ ، ص٢٩٣-٤٢١ .

- فؤاد سيد

شروط المؤرخ في كتابة التاريخ والتراجم ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، مجلد٢ ، ج١ ، القاهرة ، مايو ١٩٥٦ ، ص ١٦٢-١٧٧

-كامل جميل العسلي

موسسة الأوقاف ومدارس بيت المقدس ، ندوة موسسة الأوقاف في العالم العربي الإسلامي ، معهد البحوث والدراسات العربية ، بغداد ، ١٩٨٣

- محمد عبد الله عنان

رواية مصرية عن المغرب والأندلس في أواخر القرن التاسع الهجري ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد ١٥ ، مدريد ، ١٩٧٠ ، ٩٥-١١١ .

- محمد عبد الله عنان

الحسن بن الوزان او ليون الإفريقي ، العربي ، عدد ٤٣ ، الكويت ، يونيو ١٩٦٢ ، ص ٧٣-٧٧ .

- محمد محمود الصياد

مناخ غرب الدلتا ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، مجلد ١٥ ، ج٢ ، تاقاهرة ، ديسمبر ١٩٥٣ ، ص ٥١-٨٧ .

- مصطفى محمد سعد
الحسـن بن الـوزان (ليـو الإفريقي) ، مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم ، جامعة القاهرة ، العدد ١ ، القـاهرة، ١٩٧٠، ص ٤١-٦٦ .

- سوبرنهايم
إقطاع ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج٤ ، ترجمة إبراهيم زكي خورشيد ، الشعب ، القاهرة ، ١٩٣٣ ، ١٢٣-١٢٨ .

المراجع الأجنبية

- Abu - Lughod ., Cairo 1001 Years of the Victorious , Princeton University Press , 1971.

- Ayalon , David .,The Mamluk Military Society , Variorumm Reprints , London , 1979 .

- Baer ,Gabriel ., Fellah and Townman in the Middle East , Frank Cass , 1982 .

- Bernerd , Lewis ., Islam in History , 1edit , Alcove Press L . T . D , London , 1973 .

- Boaz , Shoshan . , Money , Prices , and Population in Mamluk Egypt , P .H . D , Princeton University , 1978 .

- Dols , Michael ., The Black Death in The Middle East , Princeton University Press, Princeton , New Jersy , 1977 .

- Donald P. Little ., History and Historioghraphy of the Mamluks , Nariorum Reprints , London 1986 .

- Donald P . Little ., An Introduction to Mamluk Historiography , Franz Steiner Verlage , GMBH , Wisbaden , 1970 .

- Al- Droubi , Samir . , Acritical Edition of and Study on Ibn Fadl Allah Manual of Secretaryship , "Al - Ta'rif Bi'lmustalah Al- Sharif " , Publication of the Deanship Research and Graduate Studies Mu'tah University , 1992 .

- Fra , Nicolo ., Avoyage Beyond the Seas 1346-1350, Francisco Press , Jerusalem, 1945 .

- Kelly , Talbot ., Egypt , 2 edit , Adam & Charles Black , London , 1903 .

- Khuwaiter , Abdul - Aziz ., Baibars the First His Endeavours and Achievements ,The Green Mountain Press , London , 1978 .

- Leonor , Fernandez ., The Evolution of the Khanqah Institution in Mamluk Egypt , P.H. D . Princeton University , 1980 .

- Lane - Poole ., Ahistory of Egypt , 4 edit , Frank Cass & Co L.T.D. , London , 1968 .

- Lane - Poole ., Cairo , History , Monuments and Social Life , Arno Press , New York , 1973 .

- Margoliouth , D . S ., Lectures on Arabic Historians , Burt Franklin , New York , 1972 .

- Popper , William ., Egypt and Syria Under the Circassion Mamluks , 2VOL ,University of California Press , Berkely , 1955 .

- Rabie , Hassanein .,The Financial System of Egypt A . H . 564-741 / A. D . 1169-1341 , Oxford University Press , London , 1972 .

- Sadiqi , Fatima .,Baybars I of Egypt , 1ed , Paramount Press , Pakistan , 1956 .

- Shirley , Kay ., The Egyption , How They Live and Work , 1ed , David and Charles L .T . D , Canada , 1975 .

- Suriano Francisco (1450-1529) ., Tretise on the Holy Land , Translate from the Italian , Franciscan Press , Jerusalem , 1949 .

المقالات الأجنبيـــة

- Abdul - Alraheem , Abdul - Alraheem ., Hazz Al-Quhuf ,(JESHO) , Vol XIII , E . J . Brill , Leiden , 1975 , P 245-270 .

- Ashtor , E ., Leaventine Sugar Industry in the Later Middle Ages , (IOS) , Vol VII , Tel - Aviv University , Israel , 1977 , P 226- 280 .

- Ashtor , E. , The Wheat Supply of the Mamluk Kingdom , (AAS) , Vol 18 , The Institute of Middle Eastern Studies , University of Haifa , Israel , 1984, P 283- 295 .

- Ayalon , David ., The System of Payment in Mamluk Military Society (JESHO) , V, 1 , E . J. Brill , Leiden, P 1958, P 37- 65 , 256- 296 .

- Ayalon , David ., The Plgue and its Effects Upon the Mamluk Army , (JRAS) , London , 1946, P 67-73 .

- Ayalon , David ., Studies on the Structure of The Mamluk Military Army III , (BSOAS) , Vol XVI , 1954, P 57-89 .

- Bosworth , C , E ., Al - Kalkashandi , EI2 , IV , P 509-511 .

- Brinner , W , M ., Ibn Iyas , EI 2 , III , 1971 , P 812-813 .

- Brockleman ., Al - Makrizi , EI1 , IIII , 1963 , P 175-176 .

- Cauhen , C. L ., Ibn Alfurat , EI2 , III , 1971 , P 768-769 .

- Cooper , Richard ., The Assessmet and Collection of Kharaj Tax in Medieval Egypt , (JAOS) , Vol 96 , American Oriental Society , 1976, P 365-382 .

- Cooper , Richard ., Land Classification Terminlogy and the Assessment of the Kharaj Tax in Medieval Egypt, (JESHO) , E. J , Brill , 1974 , P 91- 102 .

- Gaulmiier , J ., Ibn Shahin Al - Zahiri , EI 2 , III , P 935 .

- Hilmi , Ahmed ., Some notes on Arabic Historiography During the Zengid and Ayyubid Periods , *Histoians of the Middle East* , Oxford University Press , London , 1962 , P 79- 97 .

- Kratschwsky , I .G .N ., Al - Nuwairi , EI1 , III , 1963 , P 968-969 .

- Lapidus , Ira ., The Grain Economy of Mamluke Egypt , (JESHO) , E. J . Brill , Leiden , 1969 , P 1-15 .

- Leo Africanus ., EI 2 , V , 1983 .

- Marcais ,W., Al - Ayni , EI2 , I , 1960 , P 790-791 .

- Pedersen ., Ibn Dukmak , EI2 , III , 1971 , P 756 .

- Poliak , A .N ., Some Notes on Feudal System of The Mamluks ,(JRAS) , Londn , 1973 , P 97-107 .

- Poliack , A . N., The Influence of Ghinqiz Khan Yasa Upon the General Organization of the Mamluk State , (BSOAS) , Vol X , University of London , 1939 - 1942 , P 862- 875 .

- Popper , William ., Abu - Al - Mahasin , Ei 2 , III , P 138 .

- Rice , D . S ., Aminiature in an Autograph of Shihab al - din ibn Fadl Allah al - Umari , (BSOAS) , Vol XV , Part 3 , 1953 , P 856 - 867 .

- Rosenthal ., Ibn Hadjar al - Askalani , EI 2 , III , 1971 , P 776-778 .

- Salibi , K , S ., Ibn Fadl Allah Al - Umari , EI2 , III , 1971 , P 758-759 .

- Stern ., Abd - Al - Latif Al- Baghdadi , EI2 , I , P 138 .

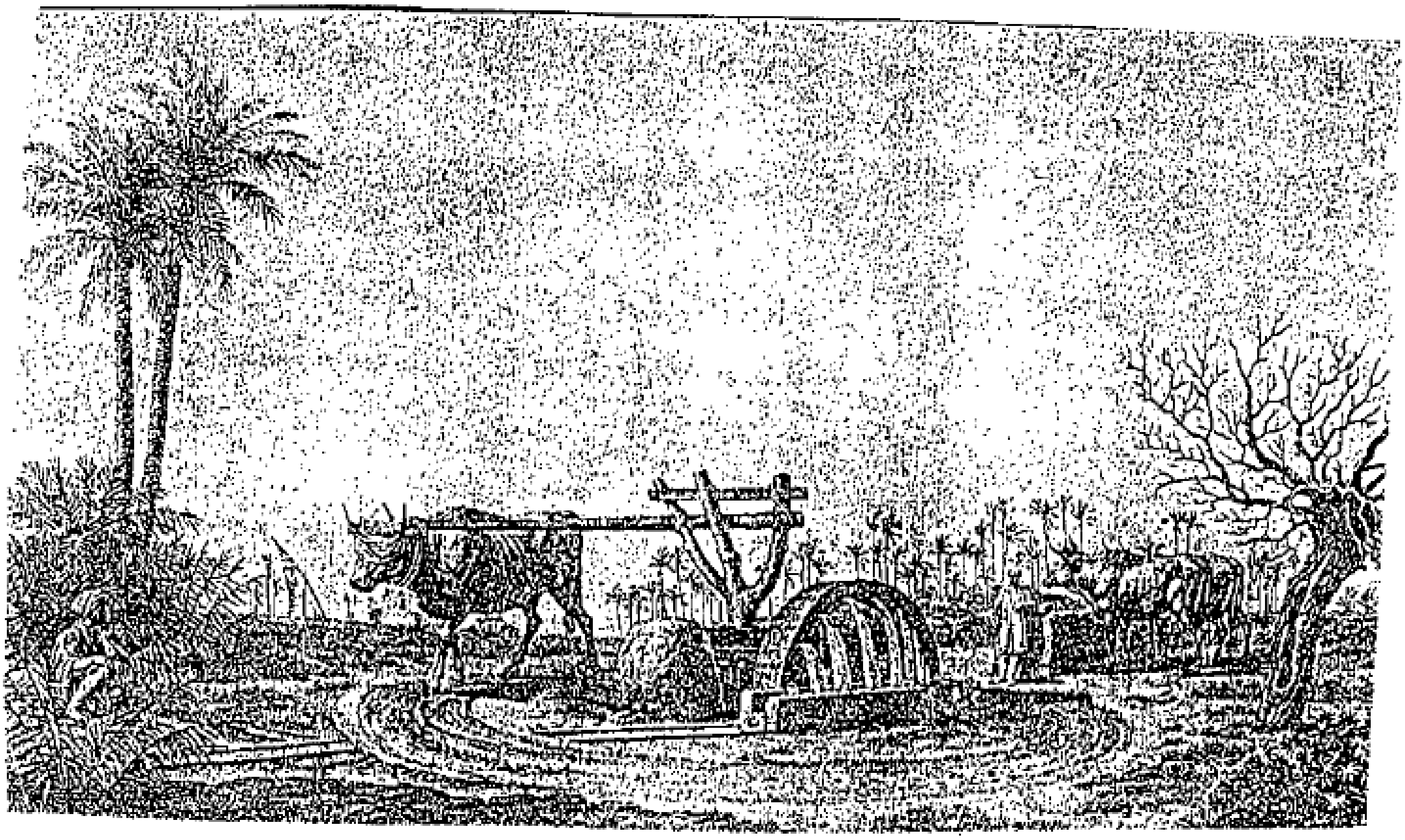
- Tucker , William ., Natural Disasters and Peasentry in Mamluk Egypt , (JESHO) , Vol 24 , 1981, P 215-224 .



المحراث البلدي (شكل رقم ١)



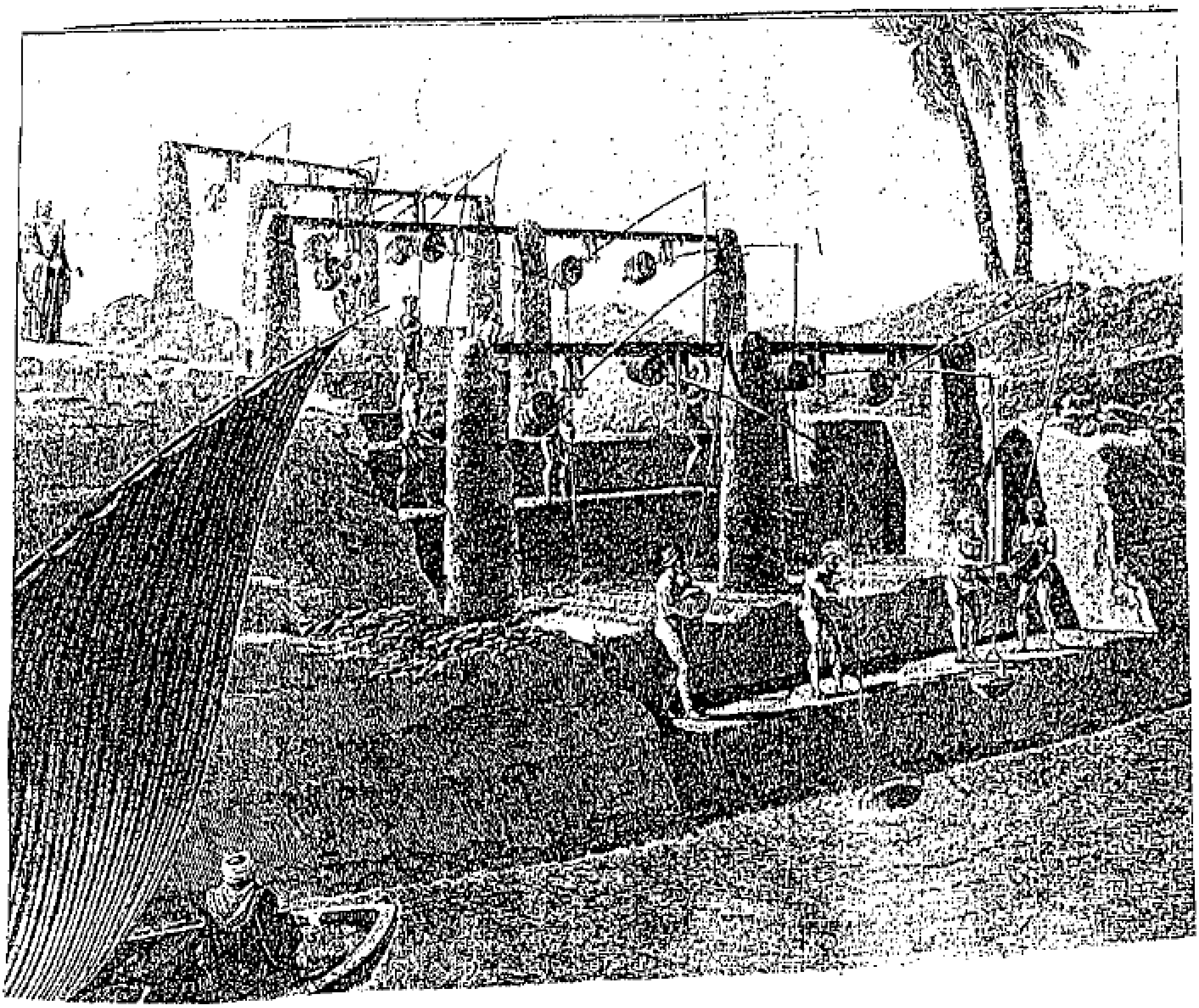
النورج (شكل رقم ٢)



الساقية (شكل رقم ٣)



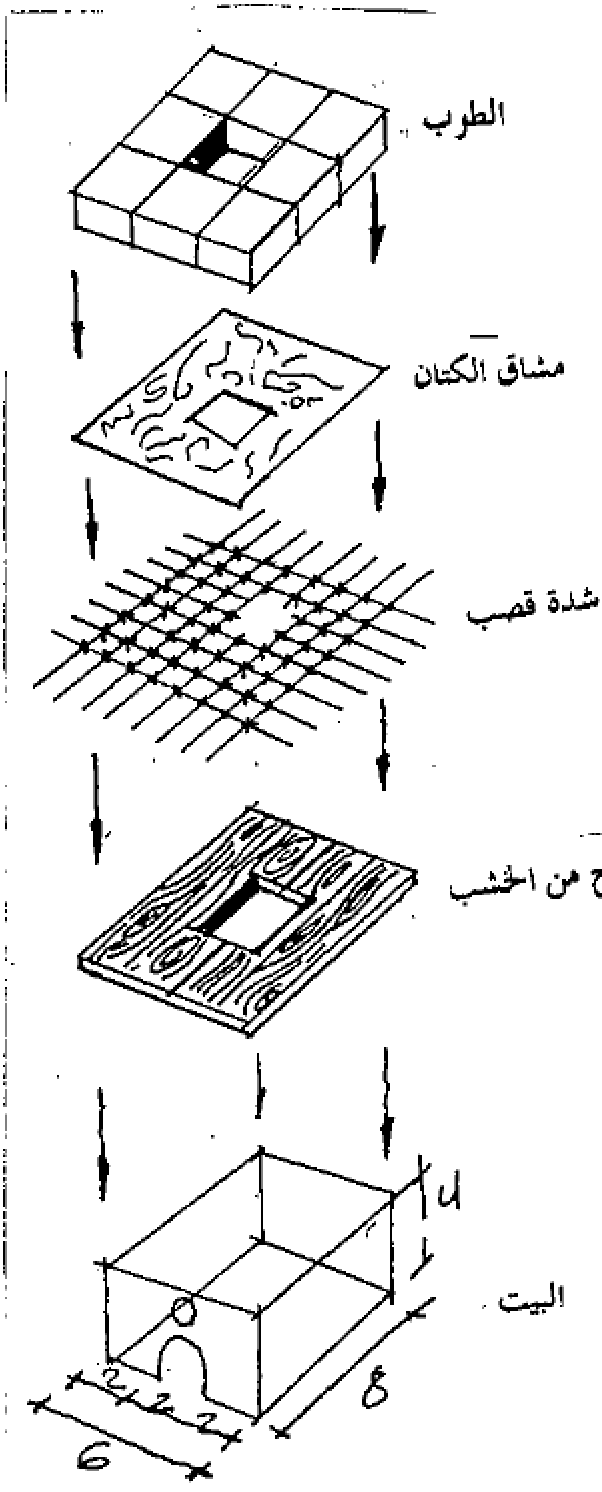
المنطال (شكل رقم ٤)



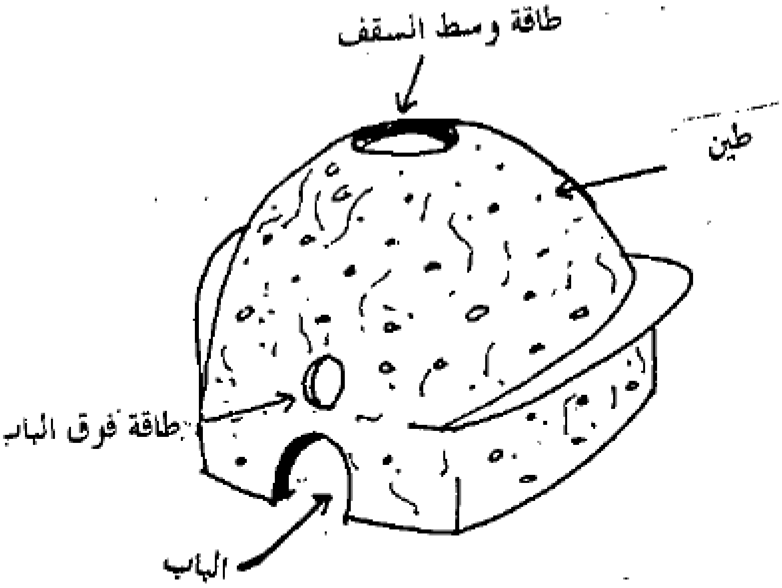
الشادوف (شكل رقم ٥)



قواديس السواقي (شكل رقم ٦)



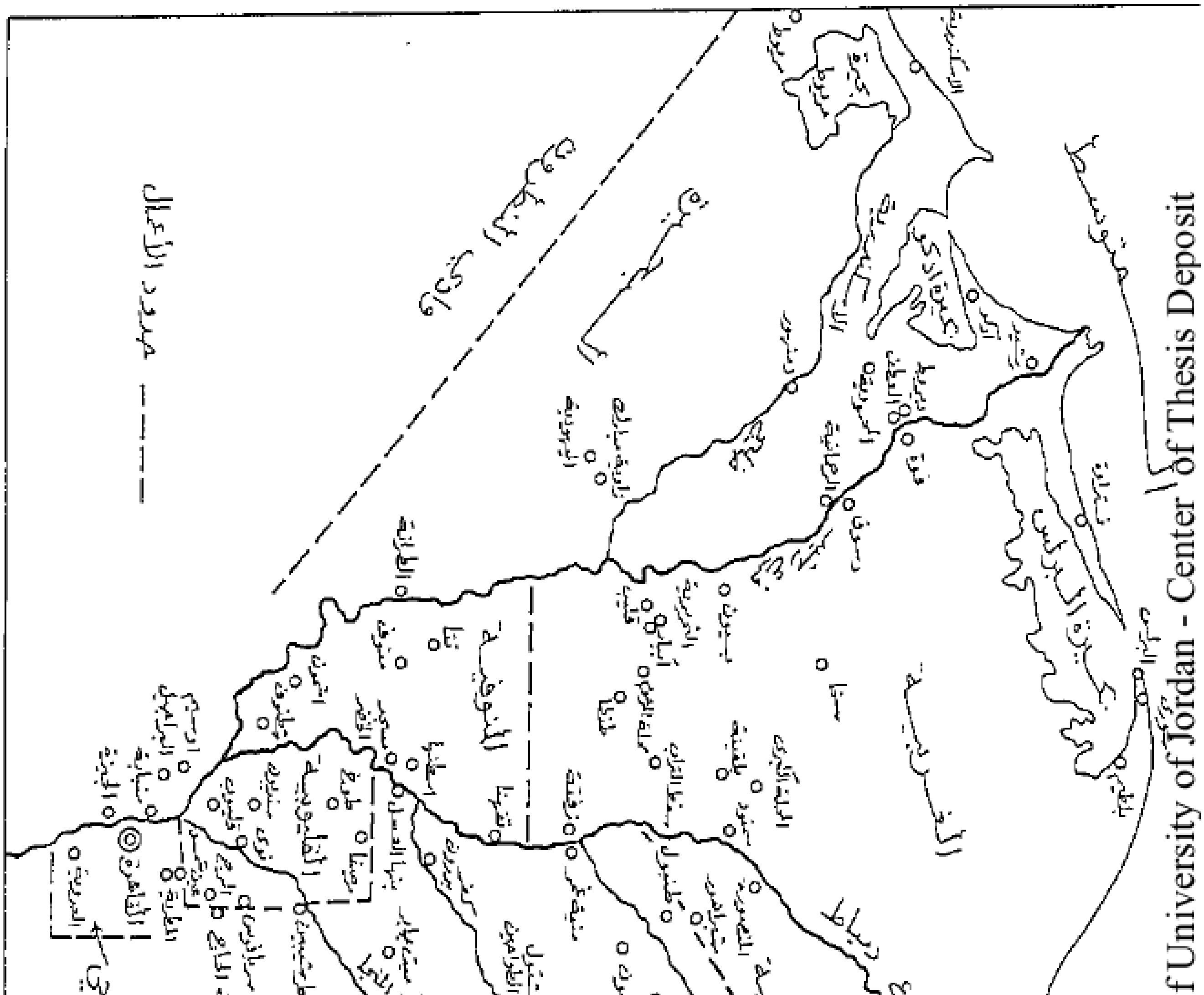
أقسام بيت الترقيد



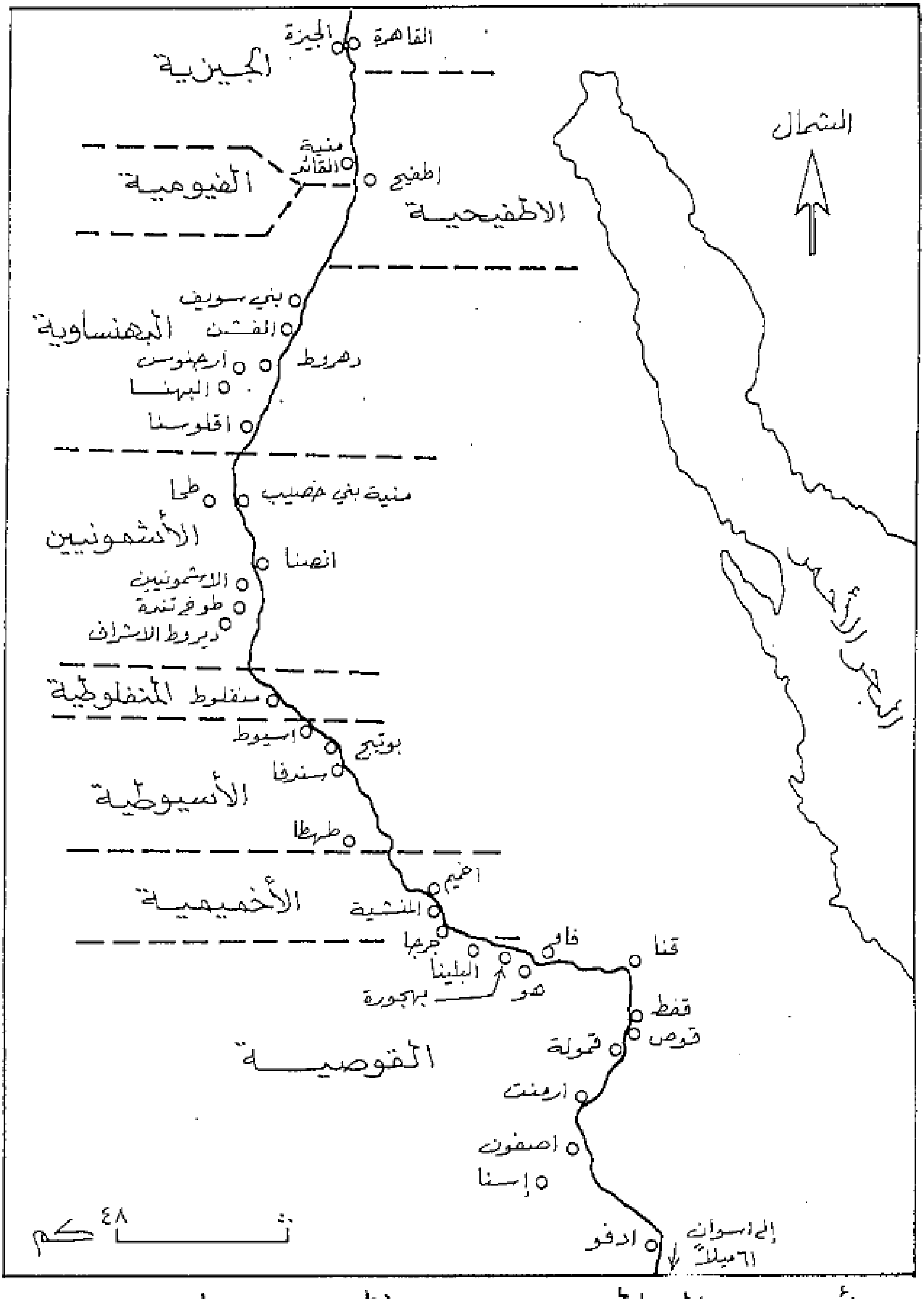
الشكل الخارجي لبيت الترقيد

بيت الترقيد وفقا لرواية عبد اللطيف البغدادي (شكل رقم ٧)

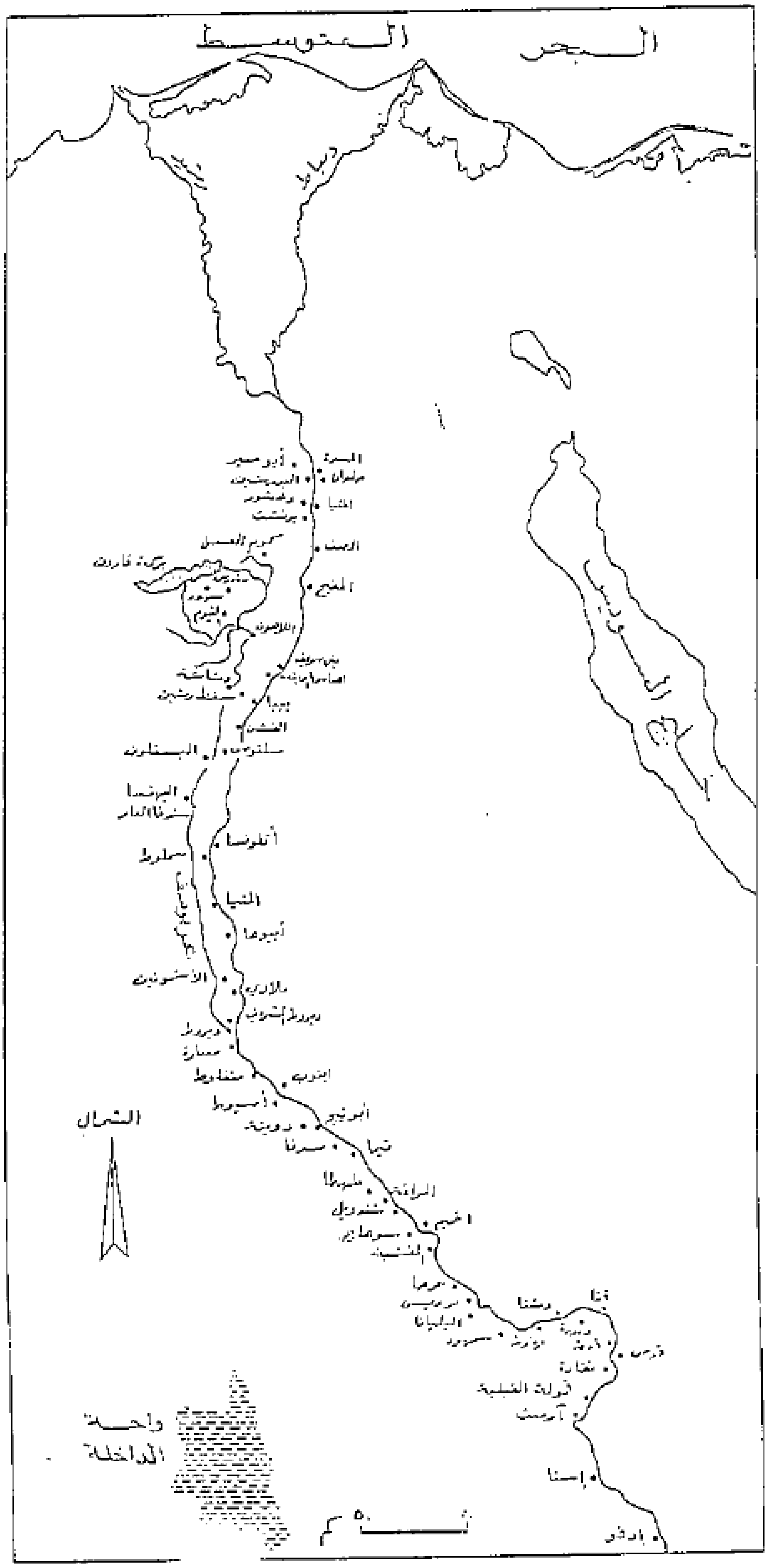
أعمال الوجه البحري



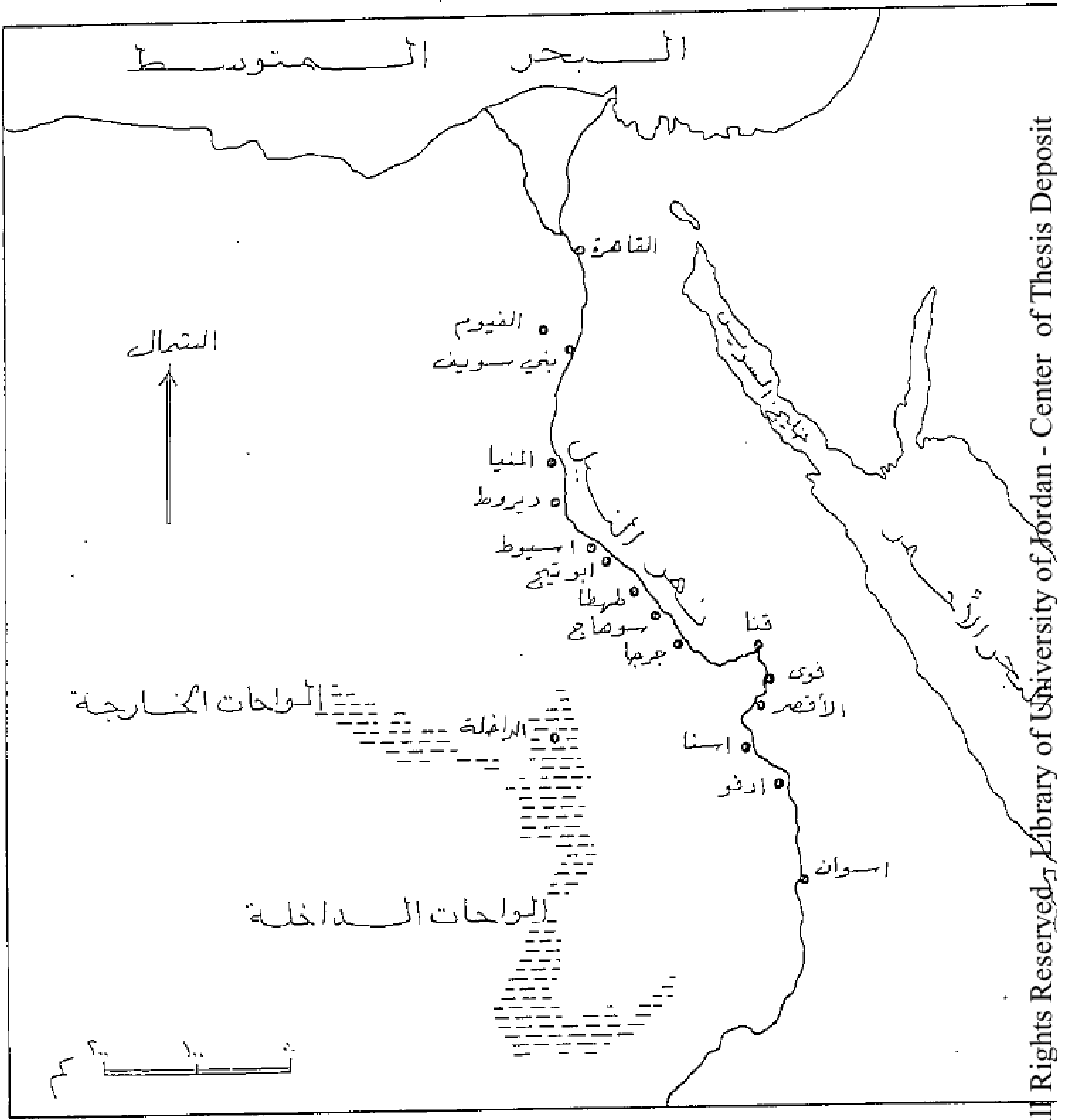
Popper , Egypt , P 62



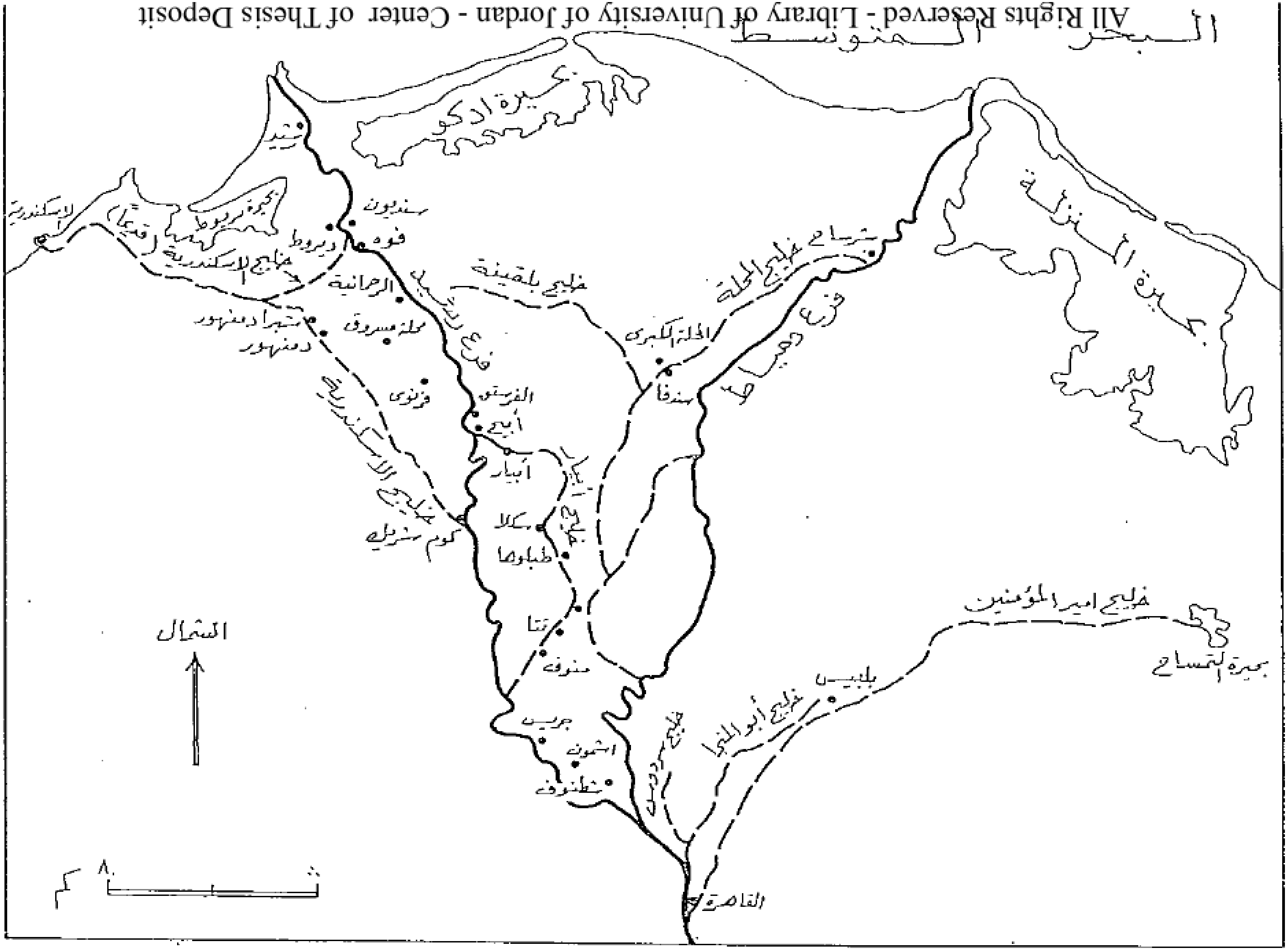
أعمال الوجه القبلي



القرى والمدن الرئيسية في الوجه القبلي



منطقة الواحات



شكل - ١ - الخلجان في الوجه البحري

ABSTRACT

Agriculture in Egypt During the Second Mamluk State

Prepared by: Amir Najeeb Nasser

Supervisor : Prof Abdul - Aziz al - Duri

This dissertation studies Agriculture in Egypt during the second Mamluk state, agriculture being the basis of Egyptian economy .

The study consists of six chapters supported by analysis of collective historical, biographical, genealogical, agricultural (fellaha), and administrative resources .

Chapter one deals with the geography of Egypt taking into consideration the administrative divisions (A'mal), the rise and decline in the number of villages in Lower and Upper Egypt, the Nile which is the main source of water and the center of Egyptian social -and economic life, the arabization of me rural areas and villages, the contribution of Arab tribes in agricultural activities , the decline of the population , because of the Black Death, epidemics, famines, and earthquakes from the middle of the 8th/14th century to the end of the Mamluk Sultanate .

The second chapter studies land properties exploitation's and distribution among different groups :- The Sultan, the Emirs, and the other groups of soldiers who come on the top . Then come the Waqf endowments which were estimated at about half of the lands at the end of the Mamluk sultante, then the individual estates, which are too limited and seem to be absent among the neglected farmers .

The third chapter investigates: (i)the contractual methods of cultivation through renting, muzara'a and musaqah .(ii) The irrigation system and its gradual deterioration during the Circassian sultante . (iii)The agricultural policy of the state and the human and natural problems facing the Egyptian farmers .

The fourth chapter tackles with agricultural products such as grain, fruitful trees, medical plants, and livestock . The fifth chapter deals with legal taxes, The land tax (kharaj), poll tax (jawali), tithes (ushr) and the illegal taxes known al-mukus , with special reference to the ways of tax

collection . The last chapter deals with the social life of the Egyptian farmers .

The study indicates that the gradual decrease in the number of Egyptian population is the main characteristic of its social history . Egypt could achieve self - sufficiency . The Sultan ,The Emirs and Notables control the majority of agriculture and livestock production , in addition to its marketing . There was general increase in the rate of grain prices due to the lack of man power in rural areas and the abandoning of wide areas of fertile lands.Another fact to be stated is that the social position of the farmer deteriorated to that of serf (Qin), though he theoretically owned his own freedom . Finally , the Egyptian farmer is exhausted by the taxation system and the oppressive system of tax collection , which force him to leave the land to emmigrate to civil centers.